

رواية واقعية
١/٤ جرام
عصام يوسف

١/٤ جرام

اجتمعنا كلنا حول المائدة.. دقات الساعة تعلن السابعة، رامـــى يلـــف السجاير، أحمد كعادته يقرأ الصحف، علاء شـــغله الـــشاغل الاطمئنـــان علـــى زجاجات الخمور والبيرة المثلجة، حسين لا يتوقف عن الحـــديث عـــن الكـــرة، وصلاح "يفَتح الكوتشينة"، ويصل بهاء.. ويسبقه قدر هائل من الضجيج، وقبـــل التحية أو السلام، دخل مباشرة فى الحديث قائلاً:

بهاء : اسمعوا يا رِجالة.. رأس السنة دى مش خَمْرة ولا حشيش.. مفاجأة.. الجديد.. البريمو.. سحر يا إكْسِلانْس.. أنا معايا هيروين.. بُودْرة.. رُبْع جرام.

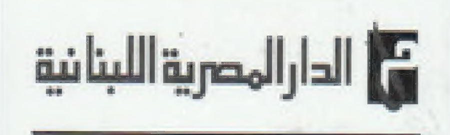
رامى : بودرة؟!!! بتعمل إيه البودرة دى؟؟

صلاح : ويعنى هيعمل إيه الربع جرام دا يا بونو؟!

بهاء : إنتَ مستَهْيِف الرُّبْع جرام..
دلوقت تشوفوا الربع جرام دا هيعمِل إيه!!!



ISBN:977-17-5496-3
9 789771 754961



رواية واقعية

¼ جرام

وماذا فعل فى مجموعة أصدقاء..

عصام يوسف

إهـــداء

إلى:

أبى وأمى...

وصيـــة صديق

صاحب هذا الكتاب هو: صلاح.. من أعز أصدقائي، وضع في عنقي، منذ 15 عاما إلا قليلاً، مسئولية هائلة.. عندما روى لي قصة حياته بأدق تفاصيلها.

قال ما قال، وترك كل الحروف والكلمات أمانة في عنقي، لأرويها بدوري لأجيال قادمة لعلها.. ولعلها.. ولعلها..

سافر صلاح منذ زمن بعيد، واستمر على اتصال بي من حين لآخر، ومنذ ثلاثة أعوام اتصل بي وسألني إذا كنت مازلت احتفظ بما كتبناه وسجلناه منذ سنين أم لا.. وكانت إجابتي:

– طبعا.. كل حاجة في الحفظ والصون.. بتسأل ليه؟

فاجأني وقال:

– سنين كتير عدّت.. وياريت لو نقدر ننقل الرسالة..

رسالة إلى كل مدمن، إلى كل أب وأم، أخ وأخت، صديق وصديقة، إلى كل طبيب ومعلم، وقاضٍ ومحامٍ.. إلى شباب مصر والعرب بصفة خاصة، وإلى شباب العالم بصفة عامة..

يا عصام.. فكَّر كويس قبل ما توافق.. دي مسئولية كبيرة.

استخرت الله سبحانه وتعالى، وأمسكت القلم، وبدأت الكتابة..

إليك عزيزي القارىء هذا الكتاب.. وماذا فعل "¼ جــرام" في مجموعة أصدقاء..

وصيتي أن تقرأ كل الحروف والكلمات، بعقل واع، وبقلب مفتوح.. حتى آخر سطر قاله لي صلاح.

شكــر..

إلى الله.

صـــلاح

1

مَــن أنـــا؟

صلاح..

جئت للحياة فى فترة يُطلق عليها: الزمن الجميل.

عائلتى معروف عنها أنها عائلة عريقة، مثقفة، متحــضرة، مــستواها المادى مرتفع إلى حد ما.

الأب: مهندس، انتخب أكثر من مرة عضوًا فى مجلس الأمة "مجلــس الشعب حاليًا".

الأم: أستاذة بالجامعة، دكتوراه فى التاريخ.. حقًا إنها مربية أجيال.

الأخ الكبير: كريم، أكبر منى بحوالى تسع سنوات، الأول باستمرار فى كل المراحل الدراسية، ذكى، ورأيى الشخصى أنه فعلاً عبقرى.. يفهم ويعــرف جيدًا ما معنى الانفلات "الصَّياعة"، ولكنه منضبط جدًا، بمعنى أنــه لــم يخــرج طوال عمره عن القواعد، باختصار "عمره ما صاع".. اتجه إلى الدراسات العليا فى سن مبكرة، حصل على الدكتوراه من إحدى الجامعات البريطانية، وعمل فى مجالات مختلفة ما بين إنجلترا وأسكتلندا والولايات المتحــدة الأمريكيــة.. أب لطفلتين توأم، غاية فى الرقة.

أختى التوأم: رولا، هادئة، متفوقة، لاعبة تنس ممتازة، تتمتع بــأخلاق الإنسان الرياضى، واضحة وصريحة، ومحبوبة من الكل سواء فى المدرسة أو النادى، وهى الفتاة المثالية بالجامعة لثلاث سنوات متتالية.. ومع أنها ولدت قبلى بدقائق إلا أنها ترعانى وتدللنى وكأنى طفلها أو عروســتها.. رولا تعمــل فــى منظمة من منظمات الأمم المتحدة.. وهى أم حانية لطفل ذكى جــدًا، "وبنوتــة" جميلة.

منذ بداية الوعى فى هذه الدنيا، كنت لا أهتم مثل أخوى بموضوع الدراسة، ولم أحب المدرسة مثلهما، ولازلت أذكر أول يوم لى أنا ورولا فى الحضانة.. رولا دخلت دون مشكلة.. أما أنا فبسرعة صاروخية جريت من باب المدرسة، وفى أقل من ثانية وصلت إلى باب السيارة، فتحتها.. ودخلتها فى غمضة عين، وانكمشت على الكرسى الخلفى قبل أن يدير الوالد المحرك، وانفجرت باكيًا.. بكيت بحرقة على أمل أن أكسب عطف الوالد، وقاومت محاولاته حتى لا أرجع إلى الحضانة، وعلى رأيه:

– يومها، عملت لى فضيحة قُدَّام كل الناس.

أخذنى والدى إلى داخل الحضانة، ووجدنا رولا تبكى هى الأخرى.. قطعا كانت تبكى لبكائى.. هذه الواقعة كانت السبب المباشر فى قرار بابا وماما بنقل رولا إلى مدرسة للبنات.

فى ذلك الزمان كانت عندنا مربية، وكانت تنزل معى لانتظار سيارة المدرسة.. كنت فى السادسة، ومصروفى عشرة قروش.. طبعًا، العشرة قروش كانت بمقاييس هذا الزمان مبلغا محترمًا بالنسبة لولد صغير فى سنى، وكنت أعطى المربية خمسة قروش لتقول لأهلى:

– أتوبيس المدرسة مَجاش النهارده.

وكانت كل مرة تخترع أى عذر، وأى حجة بالاتفاق معى.. المهم عدم الذهاب للمدرسة، وفى كل مرة أعطيها نصف مصروفى.

فى يوم من الأيام، اتصلت مديرة المدرسة بأمى، وسألتها:

– ليه صلاح بيغيب كتير؟

بطبيعة الحال، لم يتوقع أهلى أبدًا أن هذه الخطط يبتكرها ولد صغيرفى مثل سنى.. وكانت النتيجة طرد المربية، بينما أنا لم أعاقب، وانتهى الموضوع

بسلاسة غريبة، لتصورهم وثقتهم أن المربية هى صاحبة الفكرة، وبالنسبة لى، كانت المشكلة أننى بدأت الذهاب إلى المدرسة فى المواعيد وبانتظام.

يأتى الصيف.. وكنت أقضيه فى النادى، طوال اليوم، ما بين السباحة ولعب الكرة.. وكانت أهم لعبة عندى هى الكرة، وأحب لعبة هى "عسكر وحرامية".. وفى سن مبكرة جدًا، بدأ الانفلات، أو بتعبير أدق "الصِّياعة".. كنت فى السابعة، عندما بدأت أسرق السجائر من علبة سجائر فى الصالون، أو فى غرفة المكتب، كل صباح أصحو من النوم، عن عَمْدٍ، فى الثامنة.. وأجرى إلى غرفة المكتب أو الصالون، وبابا فى "الشغل"، وماما وأخواتى نايمين، إذًا، الدار أمان.. وبسرعة أنفخ سيجارتين أو ثلاثة.. فكرة خروج الدخان من فمى كانت تعجبنى جدًا.

كان فى بيتنا بار صغير، ومن حين لآخر يزورنا أصدقاء الأسرة، وبعض الضيوف الأجانب الذين يدرسون مع الوالد عشرات المشاريع الهندسية، وخلال جلساتهم الطويلة يتناولون العشاء، ويشربون البيرة أو الويسكى، وكنت أتوسل بالدموع أن يسمحوا لى بأن أشرب البيرة، وكان فى رأى البعض، أمام الدموع و"النهنهة"، أن القليل منها لا يضر.

كان يوم زيارة هؤلاء الأصدقاء بالنسبة لى يومًا جميلاً إلى أقصى درجة، لأنه بعد خروجهم، كنت أشرب ويسكى كما أريد، وأضيف الماء فى الزجاجة بدلاً من الويسكى الذى شربته.. إنها خطة "بار تندر"* صايع وغشاش"، فكرة لم يُعَلِّمها لى أحد، وبتلقائية نفذتها.. ومن العجيب، فيما أظن، أنها لم تُكْتَشف.. وكنت أستمتع بكل غلطة أفعلها، ولا يتم اكتشافها، فأشعر أننى ذكى، وكنت سعيدًا بهذا الذكاء، وأحس أن الخروج على القواعد، والانفلات "الصياعة" فى عروقى ودمى.

---

* رجل البار.

المهم، موضوع السجائر بالنسبة لى أصبح موضوعًا عاديًا جدًا، وكان يمنحنى ثقة، ويشعرنى أننى ولد كبير.. أو كما يقول التعبير الشائع: "يعرف يلعب بالبيضة والحجر".. فى البداية كانت السيجارة فى الحمام أو "نفسين" بسرعة فى البلكونة أو الجَراج، والإحساس بأنى "خَرْمان" ونفسى أشرب سيجارة كان إحساسًا جديدًا، وبعد أن أشرب، كنت أحس براحة وهدوء، وأشعر أنى "مبسوط" كأنى "عامل دماغ على قدى وَاتظَبّط".. إحساس عرفته أكثر وأكثر فيما بعد.

كان من هواياتى العجيبة، البحث والتفتيش والعبث فى الممتلكات الخاصة لكل فرد فى الأسرة.. وفى يوم اكتشفت وجود سيجار فى درج مكتب بابا، أخذت السيجار ودخلت الحمام، "ولَّعته" بكل جرأة، والكارثة أن بابا كان فى البيت، والسيجار رائحته قوية.. وفجأة، بابا فتح باب الحمام وشافنى والسيجار معلق بين شفتى وصرخ قائلاً:

– سيجار يا صلاح؟!! سيجار!!

وأخذت "علقة مش أى كلام".. علقة ساخنة جدًا.

وفى هذه السن الصغيرة، فى الثامنة من عمرى، كنت "حَرِّيف" ركوب عجل، وتمنيت أن أشترى "موتوسيكل" وبدأت الإلحاح "والزَّن".. لكن الموضوع صعب، ولم يكن بالسهولة التى أتصورها، إنما الإلحاح و"الزَّن" المتواصل استمر لمدة سنتين:

– صباح الخير.. أنا عايز "موتوسيكل".

– تصبحوا على خير.. أنا عايز "موتوسيكل".

وأخيرًا، وبعد سنتين نجحت واشتريت الموتوسيكل، وعملت حوادث كثيرة بهذا الموتوسيكل، لأنى جربت حركات لا أول لها ولا آخر، ابتداء من الجرى السريع، و"الغُرَز" والحصان.

مرت الأعوام.. وفى العاشرة تقريبًا من عمرى، بدأت أشترى سجائر وأبيعها فى المدرسة.. السيجارة الواحدة ثمنها خمسة قروش.. وكل علبة كان صافي ربحها علبة كاملة.. كانت فكرة البيع تعجبنى وتسيطر على تفكيرى.. كنت أبيع أي شيء يمكنني بيعه.. أبيعه لمن يشترى.. وأبيع بأى ثمن.. وكان أخى كريم المسكين أكبر ضحية فى الموضوع؛ لأنى ببساطة كنت أستولى على كثير من ممتلكاته الخاصة وأبيعها.

أما عن الأصدقاء، فأول الأصحاب كان جارى مراد، أكبر منى بسنة، طويل، وبالتالي شكله أكبر منى بأكثر من سنة.. والده رجل أعمال ذو نفوذ قوى، ويملك توكيل سيارات، وكان يسمح لنا بقيادة السيارات في نطاق حى الزمالك، وذات يوم سمح لي مراد بقيادة السيارة حول المنزل لأول مرة فى حياتى.. وكان عمرى 11 سنة.. وكانت سيارة "فولكس بيتلز" وكنت أرى الطريق ما بين "التابلوه" و"الدركسيون".. وبسهولة عرفت أسوق، لأننى منذ الخامسة من عمري كنت شديد التركيز في الموضوع، وكنت أعرف كثيرًا من التفاصيل عن البنزين، والزيت، والفرامل، و"قبض السرعات".. وطبعًا خبرتى في قيادة الموتوسيكلات أفادت كثيرًا.

وقبل عيد ميلادى الثانى عشر بأيام قليلة، بدأ الإلحاح و"الزن" المتواصل لشراء موتوسيكل أكبر.. وكالمعتاد: نجحت العملية واشتريت موتوسيكل ياماها 100 "تريل" كبيرًا وجميلاً وسريعًا، بالإضافة إلى أننى كنت يوميًا استولى على سيارة ماما وهى نائمة، وأذهب مع مراد فى جولة سريعة حول جزيرة الزمالك.

الموقف فى النادى كان أكثر من ممتاز.. ولد عمره 12 سنة، وعنده موتوسيكل أحدث موديل، وكل يوم بسيارة مختلفة من سيارات توكيل والد مراد.. وبالتالى حصل تقارب مع الأولاد الأكبر منى، وكنت عندما أظهر فى النادى، ألمح وأشعر برغبتهم الواضحة فى أن أصاحبهم.. وتدريجيًا أصبح

عشرات منهم أصحابي.. وبدأت أقعد مع الشباب الكبار في مكان هادئ، تحت الأشجار بعيدا عن العيون، والإضاءة خافتة، وكـان الأولاد والبنـات يتقـابلون ليشربوا البيرة والحشيش.

في هذا المكان الهادئ، شربت أول سيجارة ملفوفـة فـي حيـاتي، وتشجيعًا قالوا:

- ولع يا صاصو.. ما تخافش مبتعضّش.

- خد نفس وطلع الدخان من مناخيرك.

- أحسن يطلع من ودنه بعدين.. (على رأى عادل أدهم في فيلم "ثرثـرة فـوق النيل").

أخذت السيجارة، والمفروض إني آخذ نفسين، وتلف.. لكن لما وصلت عندي، وقفت.. ولما طلبوها مني رفضت تمامًا، وقلت:

- سيجارتي ومستحيل حد يقرّب لها.

وفي ذلك اليوم، أحسست ولأول مرة أني "مسطول" وشـربت يومهـا جوينتين وحدي.. واشتهرت بموضوع: "الجوينت بيجي عند صـلاح ويقـف".. وقاص وزاد وغطى، إني شربت زجاجتين بيرة "ستلا" الشهيرة في ذلك الزمان.. ويومها كنت في قمة النشوة.. وهات يا ضحك، وركبت الموتوسـيكل، وسـألتهم آخر سؤال:

- هو أنتم هنا كل يوم؟ على العموم أنا شخصيًا نويت أجي هنا كل يوم.

في هذه المرحلة من العمر.. عمر الورود المتفتحة، تعلمت من الشباب الأكبر مني، أصحاب التجارب البهلوانية، قصة القطرة "البـروزلين"، وكانـت بالنسبة لي قصة مضحكة؛ نقطة القطرة تنزل على العين، والبني آدم مـسطول، فيضحك من قلبه، ويشعر كأنه تحت "الدُش".. يتجدد بين الساخن والبـارد فـي لحظة.. لكنه ضرورة لعلاج احمرار العين الشديد.

الغريب فى موضوع الحشيش أن كل شىء مضحك.. القطرة مضحكة.. الكلام يضحك.. وأيضا السكوت مُضحك.. نسمة الهواء تساعد على زيادة الإحساس "بالسلطنة"، تجعلك طيرًا فى السماء، فتضحك أكثر وأكثر. كانت الجلسة كل يوم فى النادى تبدأ من بعد الغروب، حتى الساعة الثانية عشرة.. نقضيها فى الضحك، والحكايات والحواديت.. وعندما أتكلم، كنت أشعر أن كلامى رغم صغر سنى له معنى، وموزون، وأن الكل معجب بخفة دمى.. والأهم من هذا وذاك، أن صلاح "حضرتى"، أصبحت واحدًا من "شلة" الشباب الكبار.. طبعًا بالنسبة لى، هذا كله شىء جديد يحتاج إلى نفقات.. فلوس.. مصروف كبير، طبعًا لا يصح أن أشرب كل ليلة على حساب "الشلة" فاخترعت قصة الدروس الخصوصية.

وكانت أجمل فكرة خطرت بالبال.. أنا رايح الدرس.. أنا راجع من الدرس.. وغرقت فى بحر الفلوس بحجة أن الدروس غالية.. ولكن الحقيقة، بين كل أربعة دروس وهمية، أخذت درسًا واحدًا فقط لاغير، وأصبحت فى نظر "شلة" الشباب الولد الغنى "اللارج" الذى يشترى الحشيش بكميات، ويدفع حساب البيرة.

المدهش والغريب فى الموضوع أننى كنت أنجح فى الامتحانات، ولكن نجاح غير مشرف، يضطرنى إلى تغيير أرقام النتيجة، وتتحول 67% إلى 76%، وكنت أكتفى بهذا التغيير البسيط، ولا أرفع المجموع لأعلى من هذا، وإلا لن يصدقنى أحد، وتنكشف اللعبة الشيطانية.

2

الشلــة

ساعدني وجود الموتسيكل على التحرك في كل مكان، وبسهولة، وجعلني أتعرف إلى أصحاب جدد، وعرفت منهم أماكن بيع الحشيش، وفي تلك الأيام كانت "الباطنية" أهم منطقة، فالبيع هناك علني في الشارع، مثل بيع أجهزة "الموبايل" في "شارع عبد العزيز" الآن، بالإضافة إلى "الباطنية"، تعرفت على مكان اسمه "الشباك" في حي "السيدة زينب".. سمي الشباك لأن رواد المكان يقفون أمام شباك صغير في بيت قديم، وأسعار الحشيش في هذا الشباك في متناول الجميع.. معك 2 جنيه أو معك جنيه واحد "شغال".. لذا كان الشباك جميلاً، وإنما مشكلته الكبيرة الزحام الشديد.. لدرجة أنه في إحدى المرات، صرخت بصوت عالٍ في الجمهور المتزاحم على الشباك، وطلبت منهم الوقوف في طابور مثل كل المتحضرين، لنشترى ونمشي بسرعة.

وفي المدرسة وفي سن الرابعة عشرة، بدأت ملامح "الشلة" تتضح:

- أحمد : ميدو
- حسين : زُونى
- رامى : ريكو
- بهاء : بُونو
- علاء : لُول
- صلاح : صاصو

هيا نتعرف إليهم:

أحمد "ميدو":

كان يتقمص دور الفيلسوف.. "فاكر" نفسه أرسطو.. يحب النادى الأهلى أكثر من نفسه، ومجنون كرة، رغم أنه لا يعرف فن لعب الكرة نهائيا، ولكنها عموما اهتمامه الأول.. ميدو وحسين، صلتهما ببعضهما وثيقة، رغم أن ميدو أهلاوى مجنون، وحسين زملكاوى صميم، وهذا هو مجال الخلاف الوحيد بينهما.

ميدو، لم يكن من هواة التزويغ من المدرسة، ولو أراد عدم الذهاب للمدرسة، فإنه يقرر البقاء فى البيت، أو يتجه إلى النادى، ويعلم الجميع، ومع هذا، فهو أكثرنا التزاما وذهابا للمدرسة.. لون بشرته أبيض، وعيناه لونهما أخضر.. نعم هو يتمتع بزيادة الوزن أو "مكلبظ" بمعنى أصح، يتحرك بصعوبة، ويتهادى فى كسل، فأطلقنا عليه "بَرُوطَة".

ميدو كان "أشطرنا" جميعا، والوحيد الذى يركز فى الدروس، يذاكر قليلا، ولم يسلم من نكاتنا وسخريتنا على التزامه. كان حريصا، ولكنه ليس بخيلا، لا ينفق نقوده بسهولة.. كل قرش ينفقه كان بالعقل وبالحساب الدقيق أى "فى مكانه المظبوط".

كان يتبع خطواتنا.. حشيش، لا مانع.. بيرة موافق.. ويسكى بكميات معقولة، ومن حين إلى آخر يقول:

- كفاية كده.. مش قادر.

وفى كل مرة يقول هذه المقولة الشهيرة، ينال حظه الوفير من السخرية.. "ينسطل" بسرعة مذهلة، ودائما أبدا، هو وعلاء، نثار ونثير، إنما علاء الكبير، وكان "بيديله على دماغه"، ميدو.. أحيانًا يصلى، وبالأخص يوم الجمعة، وهو الوحيد الملتزم بأداء الفروض.

حسين "زونى":

رفيع وطويل، ملامح وجهه أسيوية إلى حد ما، عيناه ضيقتان، فأطلقنا عليه: "بروسلى".. صاحب موهبة فذة فى الكرة، "حريف" جدًا، ولكنه يشرب 3 علب سجائر كل يوم، "حريقة سجاير"، ودائما يعض فلتر السيجارة.. ذكى ولماح، وأسلوبه فى الحياه "معاهم معاهم، عليهم عليهم".

والد حسين ودّع الحياة وهو صغير، وتزوجت والدته بعد وفاة الأب من رجل هادىء، لا يهتم ولا يعنى بأمور حسين نهائيا، وبالتالى هو حر الحركة تمامًا، "رايح جاى على مزاجه" ولا أحد يحاسبه.

كلنا كنا نحب حسين، أقرب واحد إلى قلبه هو ميدو، رغم خلافاتهما المستمرة على الأهلي والزمالك. كريم فى حدود إمكاناته.. لظروف وفاة والده يضع فى جيبه أقل القليل من المال.. طيب، ودمه خفيف، وهو من محبى البيرة، وطبعا الحشيش، وبعد أن يشرب نفسين، يقول:

– إيه السطل ده، أنا شربت حشيش يا ماما.

– صباح الفل، قطّع وإدّى للكل.

عشقه للتاريخ يبدأ بعد "جوينت"[*].. فيقول:

– ما الأسباب التى أدت إلى قيام حرب "الدليكان"؟

– من قائد الحركة "الدليكانية"؟ هل هو تامر بك دليكان.. هيثم باشا.. ولا ميدو الأهلاوى؟

– علّل.. ما الذى أدى إلى الصراع الداخلى فى الشلة "الدلكانية"؟

– اشرح بوضوح.. سر خيانة ميدو الأهلاوى لتامر بك دليكان؟

---

[*] سيجارة ملفوفة وبداخلها حشيش أو بانجو.

لم يكن حسين يهتم كثيرا بالذهاب الى المدرسة، ولكنه لم يكن مثل رامى وبهاء.. إلى حد ما كان يزن الأمور، ويتواجد فى المدرسة مع ميدو 70% من الوقت تقريبًا.. هو مثلنا ينجح بصعوبة، وملحق وتعدى".

كان حسين يمر بقصة حب عجيبة وقوية، بنت قصيرة ومكيرة، وتحبه بجنون، ودائما تحاول أن تسيطر على تصرفاته، دون أن يبدو عليها أنها تتحكم أو تسيطر.. ومع كل محاولاتها، يظل القرار فى نهاية الأمر فى يده.

رامى "ريكو":

ذكي، محبوب من كل الناس.. فتى مدلل إلى أقصى الحدود.. ما يريده ريكو أوامر تنفذ فورًا.. والد رامى لواء في الجيش، يدلّله، ويلبي له كل ما يريد ببساطة.. والدته شامية جميلة.. وريكو يشبهها.. الوالدان على خلاف مستمر، الحياة بينهما مليئة بالتوتر، الانفصال بينهما واضح ولكن دون طلاق.. وابنهما قليل الكلام، لكن وسيم وطويل، وجسمه رياضى.. فهو "يلعب حديد" ودائمًا يقول:

- بُص المجانص، بُص التراى، بُص البطن.

هو لاعب "استميشن" ماهر.. بمعنى "حريف"، يحب الموسيقى الأجنبية، يعزف على الجيتار بمهارة، وتعجبه كثيرا أغانى "مايكل جاكسون، وجورج مايكل، وبوى جورج، وبوب مارلى".

ريكو أيضا أنيق، وذوقه رفيع المستوى فى اختيار ملابسه.. وكل البنات تتنافس على معرفته.. بل ومعاكسته، ولم يكن يشغله الأمر كثيرا، ونادرا ما تعجبه فتاة منهن، وهو يمتلك أكبر وأقوى موتوسيكل، وكان "حريف" موتوسيكلات، ومشهور جدًا فى الزمالك والمهندسين.. يسكن بجوار نادى الجزيرة.

كنا نلتقي حول ريكو وجيتاره.. وكم كنا نستمتع بسماع الألحان التي نختارها، ويجيد هو عزفها.. نصفق له بحرارة، فنشجعه أكثر وأكثر.. نرجوه ونتوسل إليه ألا يكف عن العزف، فيندمج ويتجلى.. ولا أنسى أن عزف ريكو لم يكن دائما بنفس المستوى.. فكانت حالات الانسجام تتوقف على كم، ونوع المخدرات التي تعاطيناها.. وكنا أحيانا لا نهتم، ولا نستقبل الأنغام بفرحة وحماسة، ولا نطرب لها.. بل تبدأ وصلات النكت، ويتحول الجيتار إلى طبلة يدق عليها بهاء.. ويفيق بعدها ريكو بلحظات، ويحتضن جيتاره الثمين.

ريكو كان يشرب الموجود.. دون نقاش؛ حشيش، بيرة، ويسكي، أي "دماغ" موافق عليها.. أنا وريكو أذواقنا متشابهة، نتفق معا في أشياء كثيرة، وهو كريم جدا، كل ما معه يعطيه بلا تردد.. ولا يهم أبدا ما يحدث بعد ساعة.. المذاكرة ليست في برنامج حياته، إنما الدرس الذي يقرأه مرة واحدة يثبت في عقله فورا.. لا يحب الذهاب إلى المدرسة، لكنه من حين لآخر يذهب إلى المدرسة، ويحضر حصتين أو ثلاثا من ثماني حصص بصعوبة بالغة. كانت كل الناس تحسدنا على صداقتنا.. نمتلك قدرة عجيبة على التفاهم، وذوقنا واحد، وأهدافنا واحدة.

بهاء "بوتو":

قصير ومكير، ودمه خفيف "ملوش حل"، لسانه كالمبرد "فالت"، وطــول الوقت يشتم ويلعن ويتخانق، مع أنه "مفهوش نفخة ولكن قلبه ميت".. ويقول على نفسه:

- أنا قاموس مخدرات.. أعرف مين بيبيع فين، وبيبيع إيه وبكام.. يا ريــس دي حشيشة الوداع، أما دي حشيشة القرد أبو زلومة، ودي حشيشة الحنان كله، ودي حشيشة غرام وانتقام، أما دي حشيشة اللي خايف يروح، ودي حشيشة غبية..

هو دائما "مسطول".. ويحب كثيرا أن تكون معه أنواع حشيش مختلفة.

يختفى.. أين بهاء؟ ذهب الى "كوم السمن"، "بسوس"، "أبو الغيط"، ويظهر كل مرة بفيلم وقصة مختلفة، وعندما ترتفع صيحات الخلافات الكروية بين ميدو وحسين، يتدخل بهاء بينهما قائلا:

- أهلى ايه وزمالك ايه ياض منك له.. أنتم جهلة.. هما كوم السمن، لعّيبة وضرّيبة صحيح.

بهاء كان صاحب تعبيرات وأقوال شهيرة، ومنها:

- ازيّك يا إكسِلانس.

- أنا مش فاهم يا بِرنَس، قصدك ايه بالكلام ده.

بهاء كان يتمتع بقدرات إبداعية على مزج الألحان الغربية بأغانى شعبية.. وبمهارة يبدأ رامى عزف أغنية أجنبية، فيضيف لها بهاء كلمات عربية بكل براعة.

بونو يمتلك موتوسيكلا جميلا، وكان مشهورًا به فى شارع شهاب.. والده مقاول، ووالدته سيدة بيت طيبة، لا تعمل، والعائلة واسعة الثراء، لكن المستوى الحضارى متوسط. وكان بهاء ابن بلد بحق، ولا أحد من أفراد الأسرة يُعْنى بأمره.. وبالتالى حكاياته كثيرة.. شقاوات مع "الشغالات"، ومعاكسات بنات الجيران على السلم.

كان يحب فتاة فلسطينية.. يركب مع أحدنا الموتوسيكل، ونظل تحت بيتها بالساعات، فربما تتأثر ويرق قلبها.. وذلك لم يحدث أبدا.

وبشكل عام، ليست له علاقة بالمذاكرة، ويعد أكثرنا تزويغًا من المدرسة، ومشكلاته مستمرة مع المدرسين ومع زملائه، يتشابك معهم.. وفى لمح البصر يمسك "مطواة".. أو يكسر زجاجة فى الحائط ويلوح بها.

وكان نصابا درجة أولى.. ويحصل على الفلوس من تحت الأرض.. من البيت.. من الجيران.. من البواب.. من البقال، ويدعى حضور دروس خصوصية.. المهم "يتصرف"، ويصل إلى هدفه.

علاء "اللول":

شقيق ميدو الكبير، هو أكبر منا بحوالى أربع سنوات.. وبالتالى له كلمة مسموعة، وأحيانًا نحن الخمسة نتفق معًا.. نحاصره ونعمل عليه "كومْبينا"، ونفقده صوابه.. نجننه.

علاء طويل وسيم لون شعره بنى مصفر، ويلبس نظارة.. لا يجيد اختيار ملابسه، ولا يهتم كثيرا أو قليلا بأناقته، كريم جدا، و"لارْج" ولا يشغل باله بالمشكلات المالية أبدا، ينفق وكأنه يمتلك بنكا، وحسابه فى البنك مفتوح، وأطلقت عليه: "بابا نويل"..

الجامعة كانت آخر اهتماماته، وأهم أولوياته: البيرة، ثم الحشيش، والأفلام الجنسية، والمجلات الفنية، وأخبار الممثلات والمغنيات.. كان ذوقه فى الموسيقى عجيبًا بالنسبة لنا جميعًا، فهو يحب فريد الأطرش، أسمهان، ليلى مراد، محمد فوزى، وطبعًا هذا لا يتفق مع أذواقنا نهائيًا .

علاء طوال الوقت يسخر و"يتريأ" على واحد منا، وكان ميدو يحظى بنصيب الأسد، ومن طيبته لم يكن يرد.

علاء زملكاوى، ودائما فى جدال مع الجميع حول مباريات الكرة.

هؤلاء هم الأصدقاء الخمسة.

بين كل تلاميذ المدرسة، بهاء ورامى وأنا نمتلك موتوسيكلات.. وكان علاء يسمح لنا جميعا بقيادة سيارته؛ مما جعل لنا كشلة شهرة واسعة فى المدرسة.

رامي وأنا من الزمالك، وبقية الشلة من سكان المهندسين.. كنا "شـلة" أولاد ناس، أو أولاد ذوات، كما يقولون، وحضرات الزملاء أطلقوا علينا اسـم: "العصابة".

هذه العصابة كانت أهدافها واحـدة: السجائر، الحشيش، البيـرة، الويسكي، الموتوسيكلات، السيارات، البنات، التزويغ من المدرسة، بالإضافة إلى بعض المقالب الظريفة والسخيفة في المدرسين.

عودة سريعة إلى منزل العائلة.. عرفت مواعيد وجدول محاضـرات أمي، وكانت سرقة سيارتها كل صباح، لمدة ساعة أو ساعتين شيئاً عادياً.. وفي يوم من الأيام اصطدمت بعمود نور.. كانت الحادثة كبيرة فعـلاً.. واسـتطعت بمساعدة أصحابي جر السيارة للجراج، وطلعت إلى البيت، وبـسرعة جهـزت شنطة، ملابسي، وكتبت رسالة لأمي:

"**أنا عملت حادثة بالعربية.. أنا آسف**".

وذهبت إلى بيت أحمد "ميدو"، واستضافني لمدة أسبوع إلـى أن تهـدأ الأمور.. وهذه كانت أول مرة أترك بيتنا، وألجأ إلى بيـت أحـد الأصـحاب، وأعيش معه في بيته.

بعد الحادثة بشهرين، وقبل دخول المدرسة بأسبوعين، أعلن النادي عن رحلة إلى ألمانيا. المدهش أن العائلة الكريمة وافقت على سفري، وكانـت هـذه أول رحلة لي خارج مصر.. وأذهلني ما رأيت.

ياه!! ما هذا الجمال؟ الطبيعـة خلابـة.. النظـام روعـة.. النظافـة "فل الفل".. السيارات آخر صيحة.. الموتوسيكلات خطيرة.. البنات "صواريخ".. شرب السجائر والبيرة أمام كل الناس.. وشربت البيرة بلا قيود.. إنها الحريـة المطلقة.. ورغم هذا، والغريب أنني كنت في كامل الوعي بكل ما يحـدث مـن حولي.. البنات في كل الأعمار غاية في الجمال والتحرر.. وتعرفت إلى فتـاة

"جامدة أوى".. صاحبتي في كل مكان، نهارًا.. وليلا.. ومررت معها بأول تجربة حب كاملة فى حياتى.

كان من المفترض أن أقضى فى هذه الرحلة أسبوعين فقط، إنما بمساعدتها قضيت ثلاثة أسابيع، فأجريت أول اتصال تليفونى مع الأهل، ورد علىَّ الوالد:

- ألو.. مين؟

- ألو.. أنا صاصَو يا بابا.

- صاصَو؟! صاصَو مين؟!

- أنا صلاح.. ابنك يا أخى.

- انتَ فين؟

- فى ألمانيا طبعا.

- بتعمل إيه فى ألمانيا لغاية دلوقت؟! كان لازم ترجع من أسبوع!!

- سيبنى أتفرج على الدنيا.

- الدراسة بدأت.. ارجع فورًا.

- حاضر.. بعد تلات ايام أكون فى مصر.

رجعت مصر وشعرت بالاكتئاب لأول مرة في حياتى.. هناك فى ألمانيا، قضيت أجمل الأيام، لدرجة أننى تصورت أننى أستطيع الحياة هناك العمر كله. المهم.. رجعت يوم الخميس، وصدفة كان يوم الجمعة موعد سفر بابا وماما لحضور مؤتمر خارج مصر، والمفروض أن نحتفل بعيد ميلادى خلال سفرهما، وبالتالي أعطانى بابا لهذه المناسبة مائة جنيه.. بصراحة بابا كان كريمًا معى.. رغم هذا كنت "مقلّبهم" كلهم فى البيت.. ومن حين لآخر، أسطو على بعض ممتلكات أى فرد من أفراد العائلة الكريمة.

ليلة السفر.. كتبت للوالد قائمة طويلة عريضة باحتياجات المدرسة: ملابس جديدة، كتب، كشاكيل، جلاد الكراسات، "وسنيكرز".. أى تأليف.. المهم

ملء القائمة بمطالب وهمية، والأهم ألا يقل المجموع عن 300 جنيه.. وهذا مبلغ محترم في ذلك الزمان، وأضفته إلى فلوس عيد ميلادي، وبعت الموتوسيكل القديم، واشتريت موتوسيكل جديدة: ياماها 400، ولم أذهب إلى المدرسة.

وبعد عودة بابا وماما من السفر، فاجأهما أخي كريم وأختي رولا بأنني اشتريت "الموتوسيكل" يوم السبت، اليوم التالي لسفرهما وبعدم ذهابي للمدرسة.. طبعًا واجهت غضبًا وثورة هائلة، ونجحت دموع التماسيح في علاج الموضوع، ونزلت مع أمي لشراء احتياجاتي كلها، وبعد أسبوعين من بداية الدراسة دخلت مدرستي، وشهدت استقبالاً حارًا من أصحابي، وهتفوا:

– صاصو وصل يا رجالة "بالماكنة"* الجديدة.

بدأت السنة الجديدة.. وكالمعتاد: طرد من معظم الحصص، ومباريات الكرة، والاستيلاء على سندوتشات الزملاء بالموافقة أو بالإكراه، وبيع السجائر.. لكن لم تكن عندنا الجرأة على أكثر من هذا في المدرسة، بمعنى لم نتجرأ على شرب حشيش، رغم أن العصابة أو الخماسي الشهير في الفصل نفسه، قسم أدبي، وعدد التلاميذ 17 تلميذًا فقط، بالتالي كنا قوة واضحة، ومكاننا المختار آخر صف.

في هذا الصف "نقزقز" اللب، ونأكل السوداني، نحشو الأقلام بالأرز وننفخها على زملائنا المتفوقين، ونجلس في هدوء فقط وقت مشاهدة الصور والمجلات الممنوعة.. كان الضجيج من الصف الأخير ليس له أول ولا آخر.. والعقوبة هي الطرد من الحصة.

اتبعت خطة السنة الماضية بالنسبة للدروس الخصوصية الوهمية: آخذ درسًا واحدًا أو اثنين، وادّعي أنني أخذت خمسة دروس.. بالتالي كانت مشكلة الميزانية محلولة من أوسع الأبواب.. وبعد أجازة نصف السنة، اقترح "ميدو" أن ننتقل إلى بيته بحجة المذاكرة معًا.. هو صاحبي من أيام الحضانة، والده كان

---

* موتوسيكل.

رجلا فاضلا.. توفى منذ سنوات، والدته سيدة حانية، جميلة وكريمة، ولديها اهتمامات واسعة بالنشاط الاجتماعي، والجمعيات الخيرية. وشقيقه الكبير علاء، هو المسئول عن إدارة شئون الميراث الكبير من أراضٍ، وعقارات وسيارات، والمسئولية أكبر منه.. وهو إنسان كريم لدرجة فوق التصور، ينفق بلا حساب أو تفكير.

رحبت والدة أحمد بفكرة الإقامة معهم.. اتصلت بأمي، وقالت لها:

– الأولاد عايزين يذاكروا وياخدوا الدروس مع بعض، والأفضل توفيراً للوقت والمشاوير كل يوم، صلاح يقعد عندنا لغاية الامتحان.. والبيت كبير، وأحمد وعلاء إخواته.

استطاعت إقناع أمي، ومر الموضوع بسلاسة، ونفذنا الفكرة، وانتقلت إلى بيت أحمد، وهم يعيشون فى ڤيلا، أكبر ميزة فيها أنها مكونة من قسمين: القسم الأول ثلاث غرف نوم بخط تليفوني مستقل خاص بنا.. غرفة الاستقبال الكبيرة المطلة على الشرفة، لها سلم يصل إلى الحديقة ومنها إلى الشارع.. وكان من الأسهل أن ننط من الشرفة على الجنينة، وعلى الشارع.. أو العكس، ندخل البيت من الشرفة.. والقسم الثانى غرفة نوم كبيرة للأم.. بها كل احتياجاتها، ابتداء من الثلاجة الصغيرة، والتليفزيون، وتليفون بخط آخر، وحمام خاص بها، وكأنها تعيش فى "أستديو" كبير إلى حد ما.. وفى هذا البيت الحياة سهلة.. هناك من يقوم بنظافة البيت، وإعداد الطعام يوميًا.

"الغواصة" هو الاسم الحركي لهذه الڤيلا.. عشنا فى هذه الغواصة: ميدو، وعلاء، وأنا.. أياما وليالى قضاها حسين (زوني) معنا، ويكتفى رامى "ريكو" بقضاء ليلة الجمعة "الويك إند" معنا، أما بهاء "بونو" فكان يظهر يوميًا بعد الظهر، ويرجع بيته حوالى الساعة الواحدة.. ولكن إذا قررنا عدم الذهاب إلى المدرسة، كان السهر يمتد إلى ما بعد الفجر.

في تلك الأيام، كانت لدى علاء خبرة كبيرة بالحشيش.. يشتريه بالأوقية "الوقية"، وكان يحب البيرة، كل يوم يشرب زجاجتين على الأقل، وبكل الكرم يشترى لكل واحد زجاجة، ولا يمانع في مشاركته الحشيش، وبتعبيره: "اللي عايز يشرب هنيئاً له".. ببساطة أو "من الآخر" علاء وفّر في البيت بار بيرة وحشيش، مفتوح كل يوم، والأم مشغولة عنا تماماً بالمؤسسات الخيرية.

ويبدأ يومنا الساعة الرابعة بعد الظهر، ونتناول طعام الغداء الساعة الخامسة، وتبدأ الدروس من السادسة حتى الثامنة أو التاسعة مساءً.. وكانت الدروس أي كلام، بلا ضابط أو رابط، بمعنى "هيصة"، والمدرس الذي لا ينفذ رغباتنا، في الحقيقة مسكين؛ لأنه يأخذ ثمن الدرس بصعوبة بالغة، بالإضافة إلى المقالب التي تدبرها لهم جميعاً من وقت إلى آخر، وأحياناً كل ليلة.. المدرسون من المدرسة، ويعرفوننا حق المعرفة، والفكرة بالنسبة لنا من هذه الدروس.. أننا نستطيع في النهاية الحصول منهم على امتحان آخر السنة وننجح؛ بمعنى أدق، "نعدّي" السنة.

وفي موعد معروف ومحدد للعصابة، حوالي الساعة التاسعة، يبدأ رامي "زيكو" بلف السجائر.. يده سريعة وكأنها "ماكينة" كهربائية، "ليس لها حل".. بهاء "بونو" يجهز "الكوباية"*، وعلاء يطمئن على وجود العدد الكافي من زجاجات البيرة المثلجة.. ومهمة حسين "زوني" ومعه أحمد "ميدو" إعداد المائدة حتى نبدأ "بولات الكوتشينة".. وكالمعتاد، لا حديث لهما إلا الكرة ومباريات الأهلي والزمالك.. وأنا شخصياً كنت أستولى على التليفون تماماً، وأمارس هوايتي في أحاديث تليفونية مع جميلات المدرسة.. فلا تنتهي قبل أن أسمع نداءاتهم المستمرة:

– يا سيدي.. يا سيدي.. أنتَ يا حُلم.. يا عبد الحليم.. اتسطلنا، وفركنا الكوتشينة يا عم الكينج.

---

* يتم إشعال الحشيش في داخلها واستنشاق الهواء منها.

فقد أطلقوا عليّ اسم "الكينج" في الكوتشينة، لمهارتي في كسب معظم أدوار بولات الاستميشن".

"البولة" الأولى تبدأ حوالى الساعة العاشرة، والسجائر تلف علينا، والبيرة المثلجة منعشة، والتليفزيون مفتوح بصفة مستمرة، يعرض الأفلام، وجهاز التسجيل يدور بأعلى صوت، وكانت مشكلتنا الوحيدة.. وبسببها تبدأ المعارك، أن علاء يحب يسمع فريد الأطرش وأسمهان أو محمد فوزى، ولكن أحمد يفضل سماع فيروز، وحسين يؤيده، أنا ورامى نحب الأغاني والأفلام الأجنبية، إنما بهاء لا فارق عنده بين هذا وذاك، وتنطلق صيحاته:

- يا عالم.. سمعونا عدوية أو الريس متقال.

وتنطلق حملات السخرية والنكت والضحك الهستيرى، وتظل مشكلتنا الأساسية معلقة: نسمع من؟ ونشوف فيلم "عربي" أم فيلم "أجنبي"؟! ويستمر الخلاف والضحك بسبب أو من غير سبب.

كلنا نحب الكرة، ويا سلام على خلافاتنا بعد كل مباراة، وأصواتنا تصل إلى القمر، خاصة لو المباراة بين الأهلى والزمالك: علاء وحسين زملكاوية، والأهلاوية أحمد ورامى وأنا، وبهاء الذى يحسم الخلاف بخفة دمه قائلاً:

- يا اكسلانس أهلى وزمالك إيه بس!! إنتم فعلاً جهلة، ولو تفهموا في اللعب تشجعوا معايا كوم السمن.. أنا بشجع كوم السمن حتى الثُمالة.

المهم، بعد "البولة" الأولى التى تنتهى حوالى الساعة الثانية عشرة، ننزل "تلف" بالعربية لإحضار شرائط فيديو، أفلام جنسية وغرامية، وأفلام فكاهية، ونشرب بيرة من كشك في الزمالك، أو من الدقى، وعلى الماشى سيجارتين ملفوفتين، ونشترى الصحف والمجلات، ونرجع بعد ساعتين لتبدأ "البولة" الثانية حوالى الساعة الثالثة، بعد وصلة غراميات تليفونية: حسين وصلة،

وأنا من بعده، بينما علاء يتابع فيلمًا جنسيًا.. وقد نفاجئه بالدخول من حين لآخر، ونبدأ في إطلاق التعليقات:

- شايفك.. إيدك لفوق.. بتعمل إيه يا لول؟!

أحمد يقرأ الصحف ليطمئن على أخبار الأهلي.. رامي مهمتـه لـف السجائر، أما بهاء.. فهو كالمعتاد "جعان" جدًا، يدخل المطبخ يأكـل الموجـود.. حلو لا مانع، وبعده "حادق" أيضًا لا مانع.. وإذا لم يملأ معدته ويشعر بالـشبع، يأتي بالكرسي ويقعد أمام الثلاجة، أو بمعنى أصح داخل الثلاجة.. بابها مفتوح، وهو على الكرسي في "السنتر".. وهات وخد، وكل يا بونو بألف "هنـا وشـفا"، والكميات غير طبيعية، وكأن في بطنه فيلاً صغيرًا، ومع هذا كان نحيفًا جدًا.

وتنتهي "البولة" حوالي الساعة الخامسة، وبعدها ينطلق كل واحد فينـا ويتصرف بحريته.. ينزل رامي ومعه بهاء للعودة إلى منزليهما، بينمـا أحمـد وحسين وأنا تجمعنا جلسة دردشة في أي كلام والسلام.. ونسمع دقات الـساعة تعلن السادسة، وقبل النوم نطمئن على علاء وأفلامه، ولا يفوتنا التعليـق علـى الموقف.

رغم كل هذا، مرت ثانية ثانوي على خير، وظهرت النتيجـة.. بهـاء ملحق عربي، حسين ملحق إنجليزي، رامي ملحق فرنسي، أحمد وأنا نجحنـا.. الحقيقة أحمد أشطرنا، والوحيد الذي يـذاكر، ومجموعـه 67%، وحـضرتي حصلت على مجموع ضعيف وغريـب.. 155 مـن 300 بمعنـى 51.66%، ولم يعرف أهلي هذا الرقم، وقدمت لهم شهادة مزورة بمجموع 64%.. بالنـسبة لهم أهم شيء النجاح، وأنا نجحت ودون ملحق، وبالتالي لم يعترض أحـد لمـا رفعت بكل جرأة شعار:

- أنا بانجح كل سنة.. عايزين مني إيه؟

يهـل الصيف.. وبعد إعلان النتائج، ومثل كل صيف نشعر بالفراغ الهائل، ونقضي الوقت على الموتوسيكلات، والجري بالسيارات، وازداد التركيز

للتعرف بالبنات.. وبعد نجاح بهاء وحسين ورامى فى الملاحق، دخلنا ثانوية عامة، وعندنا ثلاثة موتوسيكلات جديدة، واشترى علاء سيارة جديدة، وكان حسين يستولى على سيارة والدته من حين إلى آخر.

ويجيء اليوم الدراسي الأول، لنواجه مشكلات كبيرة في آخر ليلة من ليالي الأجازة الصيفية؛ بسبب تعودنا على النوم يوميًا الساعة السابعة صباحًا، فقررنا عدم النوم والذهاب إلى المدرسة بعد سهرة حتى الصباح.. وبطبيعة الحال المدرسة لها زى خاص، ولكن للأسف حضراتنا لم نستعد، ولم نشتر الزى.. فقررنا الذهاب بملابسنا العادية.. ونفذنا القرار ودخلنا المدرسة بالقمصان الملونة، والجينزات، وبما أننا ثانوية عامة.. إذًا لازم نفرض إرادتنا على المدرسة كلها.. على التلاميذ والمدرسين.. وحقيقة الأمر، كان هذا الوضع ليس بجديد، كان هذا هو حالنا قبيل الثانوية العامة.

وصلنا والتقينا عند "الكشك" الساعة الثامنة، "لفينا" السجائر وشربناها مع الشاى، وهيا بنا يا رجال.. دخلنا من بوابة المدرسة العملاقة، وكانت شهرتنا تسبقنا، وشكلنا نحن الخمسة يلفت الأنظار.

دوى صوت الجرس، وخرج حضرة الناظر من مكتبه، ووقف في شرفة تسمح له برؤية كل التلاميذ ليهنئهم بالعام الدراسي الجديد.. وبمجرد أن وقعت عيناه علينا بمنظرنا البهلوانى العجيب، نادى علينا بأسمائنا نحن الخمسة قائلاً:

- رامى، أحمد، بهاء، حسين، صلاح.. برَّه المدرسة فورًا، وبكره كل واحد يشرّف ومعاه ولى أمره.. من غير ولى الأمر مش عايز أشوفكم.. ماتجُوش.. مفهوم!!

ودوّت الضحكات في كل أرجاء المدرسة.

طَرْد من أول دقيقة في المدرسة، كارثة.. يالها من سنة سوداء.. ماذا نقول للأهل؟ وماذا نفعل الساعة الثامنة والنصف صباحًا؟ بداية لا تبشر بالخير

أبدا.. وقررنا أن "نلف" سيجارتين ونطلع على النادى، ونرجع بسرعة وننام ساعتين؛ لأننا لم ننم ليلة الأمس، ثم نشترى زى المدرسة، دون مصارحة أولياء الأمور بما حدث.

صباح اليوم التالى.. وقفنا فى الطابور، ووقف حضرة الناظر، كعادته فى الشرفة، وقال كلمة الصباح، ثم وجه كلامه لنا نحن الخمسة:

- أيوا كده نعرف نتفاهم.. فين أولياء الأمور؟ اطلعوا لى حالاً على المكتب.

قلنا مية مية، والموقف أصبح واضحاً.. ولن يطردنا اليوم، وفى مكتبه عبر عن غضبه الشديد بالتهديد والوعيد، وكل واحد منا أخذ "خرزنتين" وكلمتين فى جنابه.. المهم، مرّ الموضوع على خير.

بدأت السنة الدراسية بنظام معروف ومحدد، نتقابل الساعة الثامنة عند الكشك، ونجرى نلعب بالموتوسيكلات، ونطلع على المدرسة.. ورغم أنه من الواضح وضوح الشمس أننا من المشاغبين؛ ولا شيء يهم بالنسبة لنا.. ومع هذا لاحظنا نظرات الإعجاب من البنات، وبدأت محاولات التعارف، وتبادل أرقام التليفونات، والاتفاق على اللقاء فى النادى، ومن الآخر "عملنا شُغل".

بونو كان يحب أن يكتب كل صباح جملة على السبورة:

- المعلم بونو وأولاده: ريكو وصاصو وميدو وزونى يهنئون الطلبة بالسنة الدراسية الجديدة، ويجعلهُ عامر.
- المعلم بونو وولده ريكو يبعثان بأرق التحية لكوم السمن.
- المعلم بونو ذاهب غداً إلى أبو الغيط، من يريد الانضمام يسرع بشراء البروزلين.
- المعلم بونو يهنيء الحاج صاصو على المُزّة الجديدة.
- المعلم بونو يقبل أى تبرعات لشراء الشيكولاته.
- المعلم بونو لا يقبل أى مجلات جنسية فى الفصل، سامع يا أنور.

أنور أشطر طالب فى الفصل، وبالطبع ليست له علاقة بأى مجلات جنسية.

* المعلم بونو يريد الزواج، ومن لديه عروسة يتقدم دون خوف، والعاقبة عندكم في المسرات.

وكانت بعض هذه الجمل تؤدى إلى مشكلات مع المدرسين، ولكن بونو لم يكف عن كتابة هذه الجمل على مدار أيام الدراسة.

كنا نواجه كل صباح يوم دراسي مشكلة، لو تساءلنا: ندخل المدرسة أو "نزوغ"؟ فالاختيار صعب، والقرار أصعب؛ لأن لو واحد منا قال "نزوغ" بسرعة نفكر في طرق التنفيذ، ونناقش البدائل.. هل نكتب تصاريح خروج من الأباء؟ أو هل نحضر أول حصتين، وبعد كتابة كشوف الحضور والغياب نقفز من على السور على الفيلا المجاورة، ونخرج من بابها؟ أم هل من الأفضل الانتظار حتى جرس الفسحة الأولى؟ وإن كان هذا البديل صعب التنفيذ، والأصعب منه البقاء في المدرسة حتى آخر اليوم الدراسي.. مع هذا فكرنا في خطة جبارة للبقاء في المدرسة أطول وقت.. وبناء على معرفة تامة بجغرافية المدرسة، رسمنا الخطة.. مكتب حضرة الناظر في الدور الأول، وفصلنا الدراسي في الدور الثاني، ومن فوقه سطح جميل "رُوف" مدهش.. الشتاء مشمس وممتع، وفكرنا أن نخصص لنا ركنًا خاصًا، فوق السطح نلتقي، نكسر حالة الشعور بالملل، ودفعنا خمسة جنيهات للفراش، وجاء لنا "بالترابيزة" والكراسي، وجهز لنا المكان في "الرُوف".. جلسة خاصة في مكان داخلي في "غرفة صغيرة"، والآخر خارجي في الشمس، وبالطبع كان السطح منطقة محظورة، وممنوع على أي أحد في المدرسة يطلع لنا.. إنها منطقة ألغام، ففي هذا المكان الجميل نشرب الشاي، ونلف سجاير، ونلعب كوتشينة ودومينو، وأيضًا طاولة.

بهاء، بالذات، كان يحب جلسة "الرُوف" فأطلقنا عليه ملك "الرُوف".

الديمقراطية من مزايا "شلتنا".. والقرار الذي يتخذه ثلاثة أعضاء، ينفذه الخمسة كلهم دون مناقشة أو جدال.. وعندما لاحظ بعض التلاميذ تسللنا إلى

السطح، دفعهم الفضول وحب الاستطلاع لسؤالنا ماذا نفعل يوميًا فوق السطح، وكان الرد معروفًا وجاهزًا دائمًا:

- محدش يسأل، واللي يتهوّر.. يتعوّر.

وبدأنا نتجرأ ونشرب سجاير ملفوفة في "الرُوف"، والبيرة تم الاعتراض عليها من ثلاثة هم: أحمد، وحسين، وصلاح؛ بمعنى آخر.. هناك حدود.

وفي الدور الثاني فصلان فقط: فصل علمي، والآخر أدبي، بالإضافة إلى حمامين، وغرفة للمدرسين تتبعها شرفة كبيرة.. المدهش أن تلاميذ الفصلين، وربما كان المدرسون أيضًا يعرفون جيدًا قصة الاختفاء في "الرُوف".. إنما لم يكشف أحد سرنا.. التلاميذ كلهم خافوا، لأن العواقب غير معروفة وغير مضمونة.

وبعد شهرين.. وفجأة ونحن نلعب بولة كوتشينة ونلف سيجارتين حشيش، والكل في حالة هدوء وانسجام، سمعنا أحدهم يصرخ قائلاً:

- كبسة.. الناظر.

وكأننا نواجه حريقًا مفاجئًا، أصبح ضوء النهار في سواد الليل الحالك، وبسرعة البرق قفزنا وجرى كل واحد في اتجاه، والشاطر يعرف يفلت بجلده من هذه الكارثة.. أنا شخصيًا جريت، ووجدتني في غرفة صغيرة يغمرها التراب، وفيها فتحة كبيرة، أظنها خاصة بالمصعد الذي لم يتم تركيبه وعلى الفور نطيت من الفتحة، ومرة أخرى وجدتني في غرفة أغرب من الأولى، لم أرها أبدًا من قبل.. غرفة مليئة بآلاف الكشاكيل والكتب القديمة، وكراسي وسكاتب مكسورة.

جلست على كرسي مكسور، وكنت في حالة دوار رهيب؛ أو بمعنى أدق، مسطول على الآخر. الحشيشة كانت "غبية" جدًا، على رأي بهاء.. لم أكن قادرًا على الوقوف، وقعدت في مكاني حوالي ثلاث دقائق، لكنها مرت ببطء خرافي وكأنها ثلاثة أيام.. ومر بذهني ألف خاطر.. بالتأكيد أنني في مواجهة

كارثة ومأساة كبرى.. وأخيرًا اكتشفت وجود باب، وسمعت صـوت المـدرس، وأصوات التلاميذ فى الحصة، لكننى لم أفهم أى كلمة، ولم أستطع تحديد أين أنا، وماذا أفعل لأخرج من هذه الغرفة المهجورة.. أخذت أصعب قرار وفتحت الباب بهدوء، واكتشفت أننى دخلت فصل ثانوية عامة علمى، والمفاجـأة الرهيبـة أن المدرس هو الأستاذ عطية نائب الناظر، وهو أكثر حزمًا من حضرة الناظر.

ساد الصمت لحظة، ونظر التلاميذ إلىّ وهم فى حالة ذهول.. من أيـن جئت، مغطى بالأتربة، وفى حالة كرب، أتخبط ولا أرى شبرًا واحدًا أمـامى؟! بسرعة قررت "أسوق الهبل على الشيطنة"، واتجهت فورًا لباب الفصل.. إنمـا المشكلة كانت فى وقوف الأستاذ عطية كالأسد بالقرب من مكتبـه، علـى بعـد خطوات من باب الفصل، وبلا تردد اندفعت نحو الباب، والتفت للتلاميذ قائلاً:

– سلام عليكم.

انفجروا جميعًا ضاحكين، ورد أحدهم قائلاً:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وقال آخر:

– اتفضل يا حاج صلاح.. الشاى على النار.

وقال ثالث:

– والله لك وَحْشَة يا صاصو.

وقف الأستاذ عطية، الذى لا يتحرك دون "الخرزانة" فـى يـده، فـى طريقى، رفعها وخبط بها على كتفى قائلاً:

– والباشا مشرَّفنا من فين إن شاء الله؟

– من الزمالك.. جزيرة النسيان، لكن اليـومين دول قاعـد عنـد ميـدو فـى المهندسين.. يعنى رحلة تغيير جو ونشاط يا عطية بيه.

– والله؟ وإيه نشاطك إن شاء الله؟!

- حاليًا بندرس ترميم الڤيلا.. أصل بابا بهاء عنده شركة مقاولات، وإحنا أصحابه، كنا بنأمّن المنطقة وبندرسها، ونشوف الڤيلا كم دور، وكم أوضة، ومحتاجة إيه.. كده يعني.

الأستاذ (محاولاً إخفاء ابتسامة):

- الله الله!! وإيه كمان؟

رديت سريعا:

- يا عطية بيه، أنا أخدت من وقتكم كتير جدًا.. أستأذن أنا لو سمحت.. وشدُّوا حيلكم يا رجالة، ثانوية عامة مش هزار.. دى عنق الزجاجة على رأى الدكتور طه حسين.

- دكتور طه حسين قال إن الثانوية العامة هى عنق الزجاجة؟!

- مش عارف يا عطية بيه.. جايز أكون اتلخبطت، وحضرتك أدرى منى.. ممكن يكون العقاد، أو كامل كيلانى أو يمكن روز اليوسف.

قال الأستاذ بغضب شديد، وصوت عال:

- إيه اللى جابك هنا يا صلاح؟!

ويلتفت إلى تلاميذ الفصل ويقول بحسم:

- مش عايز أسمع ولا نفس.. يا صلاح.. اتفضل اتكلم.. انطق.

- والله يا افندم، إحنا كنا فوق.

- فوق فين؟

- فى السطوح.

- إنتم مين؟! وفوق فى السطوح ليه؟ وكنتم بتعملوا إيه؟!

- كان عندنا حصة فاضية، قلنا نكتشف المدرسة.

- وبعدين؟!

- وإحنا فوق فجأة سمعنا واحد بيقول: كَبْسة.. كَبْسة.

- ده على أساس إن إنتم فى عزبة، مش فى مدرسة.

– لا، يا عطية بيه.. إحنا فى مدرسة، وأحسن مدرسة في مصر كلها.

– كمّل كلامك.. وبعدين.

– كل واحد جرى فى ناحية، و النصيب.. شفت يا عطية بيه أنا محظوظ إزاى.. أصل حضرتك بصراحة واحشنى جدًا.

الأستاذ (مع لسوعة بالخرزانة):

– بجد؟ وبعدين؟!

– أنا شُفت فتحة غريبة، ولما نطّيت فيها نزلت فى الأوضة الّي جوه دى.

– ومين كان معاك؟! وكنتم فوق ليه؟ بتعملوا إيه؟

– ده السؤال الوحيد اللى مش هقدر أرُد عليه.

الأستاذ (بعد ضربة خرزانة جامدة):

– مين كان معاك؟ انطق.

– كنت فوق لوحدى يا عطية بيه.

قال أحد التلاميذ:

– رجولة يا صاصو.

وقال زميل آخر:

– رجولة يا ملك النص.

الأستاذ (محدثًا تلاميذ الفصل):

– ولا كلمة.

ثم وجه حديثه إلىّ:

– وإنت.. عامل فيها راجل، انزل استنانى عند مكتب حضرة الناظر لغاية لما آجى لك.. سامع، واللا لأ؟

– حاضر يا عطية بيه.. السلام عليكم يا رجالة.

فرد أحدهم:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قال ثان:

- شرفت يا حاج صلاح.

قال ثالث:

- ما تغيبش يا صاصو.

خرجت من الموقف الذى أيقظ كلَ حواسى، ونزلت على مكتب حضرة الناظر، فوجدت بقية العصابة على باب الغرفة.. وطبعا عندما لمحنى أصحابى الأربعة، انطلق الضحك الهستيرى، وسألونى فى صوت واحد:

- إنتَ كنت فين؟

وقبل أن أحكى، فتح حضرة الناظرة باب غرفته، وسألنى:

- واقف هنا ليه يا صلاح؟ حضرتك مش قادر على بُعادهم؟!

- الأستاذ عطية قال لى أستناه هنا.

- ليه؟ إنتَ عملت إيه؟

- يا افندم أنا كنت معاهم، ونزلت فى فصل ثانوية عامة علمى.

- والله؟! ونزلت إزاى فى فصل ثانوية عامة علمى؟!

- مش عارف.

- وأنا سألت نفسى.. هو صلاح فين؟ عجيبة إنه مش معاهم!! ما ينفعش!! ولما سألت البيهوات عليك، قالوا صلاح فى الفصل يا افندم.. عال عال.. اتفضل جنبهم لغاية ما نكتب جوابات الرفد.

صلاح : اترفدنا يا رجالة.

عبدو : تانى!!

حسين : ولسه .. ولسه.

بهاء : فل جدًا.

رامى : قشطة.

وكان قرارُ الرفد لمدة خمسة أيام.

مر شهر أكتوبر، ونوفمبر، وديسمبر.. ثلاثة شهور دراسية، ولكننا لم نحضر خلالها ثلاثين يومًا.. ولم يتغير أسلوبنا.. استمر التزويغ والنط من السور، وأحيانًا نحضر حصة أو حصتين.. أو نقدم اعتذارًا أو تصريحًا مزورًا.. أكثر من هذا.. علمنا بعض البنات أساليب التزويغ، وأصبح الموضوع لطيفًا جدًا، "نزوّغ" مع بعض، ونلف بالموتوسيكلات، ونفطر في شارع 26 يوليو، ونروح النادي أو السينما.. مثلاً فيلم "حدوتة مصرية" شفته أكثر من 8 مرات.. كل واحد جديد عايز يزوّغ لأول مرة، يقول لنا:

– تعالوا نشوف فيلم "حدوتة مصرية".

وتقريبًا حفظته "صم".. و"عجبي" على رأى صلاح جاهين.

وكانت لي زيارة أسبوعية إلى بيت أهلي.. وبعد السلامات والتحيات والضحك والهزار، آخذ منهم فلوس الدروس، وأعطيهم ملابسي للتنظيف والغسيل، وآخذ ملابس أخرى نظيفة.. وكانت الزيارة لا تزيد عن نصف ساعة، "أقلب" فيها البيت، وأشعر أنهم يعدون الثواني الأخيرة بعد كل هذا الإزعاج، ولا مفر من سماع مقولة الوالد الشهيرة:

– شد حيلك في المذاكرة، عايزين مجموع كويس يدخلك كلية محترمة.

فأردُ بكل ثقة:

– حاضر.. بس اعمل حسابك على عربية جديدة علشان الموتوسيكل كسرني.

3

رأس السنـــة

31 ديسمبر..

إنها ليلة رأس السنة، والحفلة في بيت سيدو، والاستعدادات على أعلى مستوى.. ابتداء من البيرة، الويسكي، الفودكا، الحشيش، وأطباق ممتازة للعشاء، بكميات رهيبة.. وعلقنا الزينات، وأعددنا مجموعة أسطوانات مدهشة، وشرائط "الروك"، وكان من أهم المفاجآت، دعوة مجموعة من البنات.

اجتمعنا كلنا حول المائدة.. دقات الساعة تعلن السابعة، رامـي يلـف السجائر، أحمد كعادته يقرأ الصحف، علاء شـغله الـشاغل الاطمئنــان علـى زجاجات الخمور والبيرة المثلجة، حسين لا يتوقف عن الحـديث عـن الكـرة، وصلاح يفتح الكونتينة، ويصل بهاء.. ويسبقه قدر هائل من الضجيج، وقبـل التحية أو السلام، دخل مباشرة في الحديث قائلاً:

بهاء : اسمعوا يا رجالة.. رأس السنة دى مش خمرة ولا حشيش.. مفاجأة.. الجديد.. البريمو.. سحر يا إكسيلانس.. أنا معايا هيروين.. بـودرة.. ربع جرام.

رامي : بودرة؟!!! بتعمل إيه البودرة دى؟؟

صلاح : ويعنى هيعمل إيه الربع جرام دا يا بونو؟!

بهاء : إنت مستهيف الربع جرام..

دلوقت تشوفوا الربع جرام دا هيعمل إيه!!!

حسين : زى الحشيش واللا الويسكى؟

بهاء : انسوا الحشيش والويسكى.. البودرة هتخليكم ملوك.. كل واحد يـشم خطين بس، وبعد ربع ساعة نشوف النظام يبقى عامل ازاى.

أحمد : لا يا عم.. أنا خايف.. مش عايز.

علاء : أنا سمعت عن البودرة.. بيقولوا شديدة.

يفتح بهاء ورقة صغيرة، ويضع الأخرى على المائدة ويقول:

بهاء : اللى يمد إيده.. يتعور.

رامى : إيه دا يا بونو؟

بهاء : دول تذكرتين يا إكسيلانس.

حسين : يعنى إيه تذْكرة؟!

بهاء : بيقولوا عليها كده.. تذْكرة أو ورَقة.

صلاح : بُصّ يا بونو.. إنتَ تاخد الأول.

حسين : وأنا الأخير.

بهاء : هاتوا لى مُوس.

حسين : ليه؟

بهاء : علشان أقسم البودرة وأعملها لأيْنات.

رامى : هو أنتَ جربتها قبل كده؟

بهاء : لا.. واحد صاحبى جربها، وفطّمنى على الليلة كلها.

أحمد : متين البُودْرة دى يا بهاء؟

بهاء : من البقّال.. يا عم هاتْ لى مُوس من الحمام.. بسرعة.. خلّصنى.. أنا هاجيب الموس.

اختفى بهاء وعاد بعد أقل من دقيقة ومعه موس ومرآة صغيرة، أحضرها من غرفة أحمد، ونلتف حول المائدة، ويفتح بهاء ورقتين صغيرتين بهما البودرة، ويمسك بالموس ويعمل ستة خطوط على المرآة، ويلتفت قائلاً:

بهاء : ها.. مين هيَخش؟

رامى : أنا يا بونو.

صلاح : وأنا.

بهاء : كل واحد منكم يشم خطين بس.. واحد بالناحية اليمين، والتاني بالشمال.. عايز رُبع جنيه أو أى فلوس جديدة نشم بيها.

حسين : آدى عشرة جنيه.. بس تَرْجَعْ يا حبيبى.

بهاء أخذ أول خطين، ثم رامى أخذ خطين، وأنا بعده خطين.. ثم سطّر بهاء آخر خطين، وسأل:

بهاء : مين يزَوّد؟

حسين : اسمع يا ميدو.. أنا خط وأنتَ خط.. لما نشوف ايه اللّى هيحصل.

أحمد : ماشى.

أخذ ميدو وحسين خطين.. بعد أن تأكد بهاء ان الخط الواحد يساوى خطين.

علاء : أنا مش ها آخد.. أنا يا عم الحشيش والبيرة حبايبى.. وتمام كده.

بهاء : أحسن.. وفّرت..

مرت دقائق.. وبدأت أشعر بنشوة غريبة.. تغير طعم السيجارة.. وأصبحت خفيفة.. خلصتها، وبعد ثانية "ولعت" سيجارة أخرى، ومرت ربع ساعة، وبدأت الدنيا من حولى تتغير.. الألوان غريبة.. فقدت القدرة على التركيز تمامًا.. أسمع كل كلمة، ولا أستطيع، أو بمعنى أدق فى حالة كسل عجيب للتعليق أو الرد على أى سؤال، وإذا تكلمت.. أحس أن حديثى غير كامل، وفجأة شعرت بغثيان رهيب.. جريت إلى الحمام، وأخرجت كل ما فى جوفى، حتى عصارة المعدة المرة تقيأتها، وكان إحساسًا مؤلمًا وبشعًا.. وأخيرًا خرجت من الحمام، ورجعت إلى الشلة، وقلت لهم:

– أنا خلاص.. فُوِعْت بعد ما رَجّعْت.

رد بهاء:

– فُوِعت يا صلاح؟ طيب ولّع سيجارة، وشوف هيحصل إيه؟

فعلاً ولّعت سيجارة، وفوراً شعرت بدوار رهيب، وكأن البودرة "اشتغلت" من أول وجديد.. ومن حسن حظنا أن والدة أحمد كانت فى الإسكندرية، فدخلت غرفتها، وارتميت على سريرها.. ورغم الدوار الشديد، ظللت أتقلّب في السرير ولم أنم ثانية واحدة.. كنت مستمتعًا، وأنا نائم على السرير لوحدى.

أما بقية الشلة.. واحد من الشباب فى الحمام يتقيأ، والثانى يشرب سيجارة، والثالث نائم على الكنبة.. علاء وحده فى حالة وعى كاملة، ولم يتوقف عن الكلام، لكن لا أحد يرد على ما يقوله، فصرخ قائلاً:

– مالكم؟ عاملين كده ليه؟! يا بهاء.. إنت نايم على نفسك كده ليه؟ وإنتَ يا رامى انطق.. لكْ ساعة ما قلتش ولا كلمة.. وأحمد فاتح الجُرنال.. قال إيه بيقرا بس ما غيّرش الصفحة من ساعتين، والمسكين حسين عمال يرجّع فى الحمام.. والظاهر كده صلاح نام.. هو حصل إيه؟ إنتم شخصياتكم اتغيرت كده ليه؟ انتم مملين جدا.. إيه الدماغ الضايعة دى!!

كان صوت علاء عاليًا ومزعجًا، وسمعت كل كلمة.. ولكن لم أستطع القيام لإسكاته، وكان تعليق بهاء:

– هو إنتَ بتفهم فى مزاج الملوك؟ خلّيك يا لولو فى البيرة.

ولم يكن فى استطاعة أحد منا أن يشرب البيرة، أو حتى كوب الماء، رغم الإحساس الشديد بالعطش.. ومن حين لآخر أجرب رشفة ماء، وبعد دقائق معدودة أسارع إلى الحمام وأتقيأ من جديد.. وخرجت من غرفة النوم الساعة التاسعة، فوجدتنى أمام مجموعة من الجثث، ملقاة على الكنبة، وعلى الأرض.. وعلاء يشاهد التليفزيون وفى يده البيرة.. وقفت أتأمل هذا المشهد بابتسامة بلهاء، وتنبهت على صوت رامى ينادينى:

رامى : يا صاصو.. ولّع لى سيجارة.

بهاء : وَأنا كمان.

صلاح : سيجارة يا زُونى؟

حسين : لأ، أنا مش عاوز.. السيجارة بِتْدوَّخْنى.

رامى : تعالو ننْزل.

أحمد وحسين (فى صوت واحد):

– مش قادرين.

رامى : طبعًا تِنْ تِنْ.. وتِنْ تُون.

بهاء : تيك وتاك.

علاء : أنا هقْعُد أوضّب الحفلة.

رامى : مين ناوى ينزل؟

بهاء : أنا مِلْكَك يا ريس.. ياللا يا صاصو.

وخرجنا نحن الثلاثة.. وكان بهاء قائد السيارة، وأنا جنبه، وفى الخلف رامى، وقبل أن تنطلق بنا السيارة، سألنا بهاء:

– على فين؟

فرد رامى:

– على الزمالك.

وبالطبع فى سيارة علاء، لا يوجد إلا شرائط من ذوق علاء، ودار شريط كاسيت.. أغانى اسمهان.. ذوق مختلف تمامًا.. إنما لا مانع من سماعها.. ولم يعترض أحد.. وكل ما أطفى سيجارة، بونو يولّع لى واحدة ثانية، وفجأة سمعنا صرخة رامى من المقعد الخلفى:

– اركن يا بهاء.. مش قادر.. عايز أرجّع.

ويقف بهاء إلى جانب الطريق، ويبدأ مسلسل القيء.. بدأه رامى، وأنا من بعده، وأخيرا بهاء، والتفّ الناس حولنا، وكانوا فى دهشة من أمرنا..

وسألنا أحدهم:

– مالكم يا شباب؟

– الظاهر أكلنا سندوتشات مش نضيفة.

– ألف سلامة عليكم.

زمالك!! مهندسين!! دقي!! في الواقع لم نكن ندري أين نحن بدقـــة، وكانت الدنيا غريبة والأضواء مختلفة، وفي اعتقادي الشخصي أنها كانت أجمل من الطبيعي، وكنا في حالة بلاهة تامة.. الأغاني التي لم تكن تعجبنا، وتـــرفض سماعها وتختلف مع علاء حولها، سمعناها دون أي اعتراض، وقطع بهاء حبل الصمت:

– البودرة دي سم.

سألته:

– اشتريتها منين يا بونو؟

– من دولاب* في السيدة زينب.. واحد اسمه: البيشة.

قال رامي موضحًا:

– عارفه.. جبت من عنده حشيش قبل كده، مش هو ده يا بونو اللّي في الحـــارة الصغيرة، اللي بنطلع لها بسلالم؟

– هو يا إكسيلانس.

ساد الصمت لبضع دقائق ثم أخيرا تكلمت:

– البودرة غريبة جدًا.. شوية الواحد دريان، وشوية خربان.. وشوية مش قـــادر يتكلم، أو حتى يسمع.

قضينا ليلة رأس السنة.. نجوب الشوارع بالسيّارة.. نـــشرب ســـجاير، ونتحدث بهدوء، ونسعد بلحظات السكون.. وفجأة انتبه بهاء قائلا:

– تصوروا.. الساعة 11.30، كارثة.. الحفلة.. والبنات اللّي إحنـــا عـــازمينهم، لازم نرجع بسرعة.

---

* يطلق على مكان شراء المخدرات.

وفي طريق العودة إلى "الغواصة"، تأملت وأنا في مكاني من السيارة كل ما نمر به: البيوت، المحلات، الإعلانات، الناس، السيارات.. الغريب أنني شعرت بأن كل شيء حولي قد تغير.. كيف؟ لست أدري.. لكن بالتأكيد هناك شيء ما مختلف.. فعلاً ما حدث لي يختلف عن "سُكْر" الويسكي، وعن "سُطل" الحشيش.. هذه تجارب فهمتها، وعرفت كيف أتعامل معها، إنما البودرة لا أعرف ولم أستوعب، ولم أفهم هذا الكم الهائل من الأحاسيس المختلفة والجديدة.

عندما وصلنا إلى البيت، وجدنا أحمد في السرير، وفي حالة شديدة من التعب والإعياء.. أما علاء فانفرد بصديقته في البلكونة، ولم يبد أي اهتمام بما يحدث حوله، بينما جلس حسين مع البنات المدعوات لحفل ليلة رأس السنة، ووقع المسكين تحت حصار من الأسئلة، التي لا تنتهي من صديقته نيفين:

- مالك يا حسين؟ إنتَ عامل كده ليه؟

- فين صلاح، وبهاء، ورامي؟

- يعني إيه خرجوا؟ راحوا فين؟

- يعني إيه يعملوا حفلة ويعزمونا ويخرجوا؟!

ولم يكن حسين قادرًا على الحوار والنقاش والأخذ والرد، وفي الناحية الأخرى من البيت كان ميدو ينام في سريره، وإذا دخل أحدنا إلى غرفته، ينتفض صارخًا:

- اطلع بره.. اطفي النور.

واضطررنا إلى مقابلة البنات، والترحيب بهن، وقد كان هذا آخر شيء نريده، ونود أن نفعله في تلك الليلة الجهنمية.

يا إلهي!! ما هذا القدر الهائل من الضجيج الذي أثارته البنات المدعوات للحفلة؛ فصاحب الفكرة والدعوة لم يكن في استقبالهن، وخرج

بلا سبب مفهوم ودون اعتذار؟! هكذا وقعت المسئولية كلها فوق رأسى.. إذاً، لا مفر من تأليف فيلم هندى، وبأداء تمثيلى قلت:

- إتخانقنا خناقة بنت "....." ورحنا القسم.. خلاص، خلاص متزعلوش.. إيــه رأيكم نعمل حفلة تانية أجمل ألف مرة ونصالحكم؟!

استمرت حالة الثورة والغضب عند واحدة من البنات، والثانية صرخت لأن الساعة الواحدة والنصف، وأهلها صرحوا لها بالتأخير حتى الساعة الواحدة، والثالثة أخذت شنطتها وطارت معها.. المهم حوالى الساعة الثالثة.. ساد الهدوء، وأصبحنا وحدنا.. وبدأنا نفيق، بنسبة خمسين فى المائة. وأحسست ببعض الراحة وأعلنت رأيى قائلاً:

- هو ده الكلام.

لكن بونو الشيطان له موقف آخر، اقترب منى قائلاً:

- خذ ولّع يا معلم.. بس خلى بالك.. هما نفسين حشيش مش أكتر.. النفسين دول هيولّعوا الدنيا.

وقد كان.. أخذت النفسين، وعلى الفور أحسست بالأحاسيس السابقة نفسها، نشوة غير مفهومة.. إنما كانت المشكلة الكبرى، أن كل رشفة مياه أشربها أثقلها، وليست عندى القدرة على رفع رأسى بين كتفى.. أسمع كل كلمة تُقال، ولكننى لا أريد النطق بكلمة واحدة.

ميدو لازال فى السرير، ولا يريد أن يرانا أو يسمع أصواتنا.

حسين يمسك بالتليفون، وفى حالة حب من ساعتين.. ده عمره ما طوّل كده!!

أما علاء.. فقد كان أمام التليفزيون يشاهد أفلاماً جنسية، وكان فى حالة سكر غير عادية؛ لأنه كان يشرب منذ الساعة السابعة.. أكثر من ست ساعات، والكأس فى يده.. وأخيراً مدّ لى رامى يده قائلاً:

- هات إيدك.. انت اللى بتفهم فيهم.. تعالى نقعد فى البلكونة، نسمع بوب مارلى.

أعتقد أننى لم أكن أستطيع المشى.. رجلاى لا تحملاننى، وبالمعنى الأصح كنت "بتطوّح".. لكن لا أحد منا يدرى بما يحدث للآخر.. كل واحد منا فى دنيا لوَحْده.

من حين لآخر، كان بهاء يتحرك بيننا، وكأنه الطبيب المعالج.. كان يمر علينا واحدًا واحدًا ليطمئن، ويعطينا التعليمات الجديدة، مثل:

– اغسل وشّك، واشرب ميه.. وانتَ افرد جسمك.. خد نفس عميق.. هايل أنتَ كويس.. ولّع سيجارة.. ها.. شَغّالة ولا فَصَلت؟!

وأخيرًا.. أخيرًا.. نطقت، وقلت له:

– يخرب بيتك يا بونو.. إيه البودرة دى؟! هو إحنا مش هنفُوق والّلا إيه؟!

فرد رامى:

– باين علينا شمّينا كتير.. هو زونى فين؟

أجاب بهاء قائلاً:

– على التليفون.. البودرة دى جبّارة.. بتُطلُب حنيّة.. وتثبّت أى بنت فى مصر، بَسّ تسلّمك ودنها عشر دقايق، ومبروك عليك يا إكسلانس.

وفجأة ظهر ميدو.. جاء الى البلكونة ممسكًا بصفحة الرياضة قائلاً:

– الحقونى يا جماعة.. أنا قريت الخبر أكتر من عشر مرات، وبجدّ مش قادر أفهم ولا كلمة.. السطور ملَخبطة والكلام بيُرقص قُدّامى.

لم نكن نستطيع الضحك.. ومع هذا كلامه جعلنا نضحك ضحكًا هستيريًا.. والمشكلة الحقيقية إن أحمد كان جادًا فى كلامه.. إنه لا يفهم ولا أحد منا يفهم أى شىء فى أى شىء.. وقال:

– يعنى بتضحكوا.. طيب إمسك يا بونو.. اقرأ المستكاوى بيقول إيه، وأراهنك لو فهمت كلمة واحدة.

– هات الجُرنال.

ينظر بهاء في الجريدة ويقول:

- أصلاً المستكاوي مش كاتب أي حاجة النهارده.

يضحك رامي ويقول:

- روح خُد دُوش.. احتمال تِرجَع تِفهم.

ترتفع الضحكات مع كل جملة، ويدخل حسين البلكونة بعد حديثه التليفوني الطويل.. قائلاً:

- تصوروا انا قلت لنيفين بحبك، وقالت لي وأنا كمان.. طول المكالمة ما كنتش عارف أنا باقول إيه، إنما كنت حنيّن حنان الفيل، فقالت لي: إنت غريب يا حسين النهارده.

سألته قائلاً:

- أول مرة تقول لها بحبك؟ أُمال الست شهور اللي فاتت بتقول لها إيه؟

قال أحمد ضاحكاً:

- أكيد بيقنعها تبقى زمالكاوية وهي مش موافقة.

رد حسين ساخراً:

- إيه الشربات ده!!

بينما قال رامي:

- بقُول لكم إيه.. بلاش دَوْشة، واسمعوا بُوب مارلي، دا جامد جدًا.

استمرت الليلة ما بين قليل من الضحك.. وقليل من السكوت.. وقليل من الموسيقى.. حتى أعلنت دقات الساعة الثامنة صباحاً، وقرر بهاء العودة إلى بيته، وبمجرد خروجه دخلنا غرفة النوم.. رامي وأنا على سرير، وأحمد وحسين على سرير.. وأخيراً، نمنا نوماً عميقاً.

الحق يقال.. لم أفهم البُودرة.. ولم أستطع التمييز والحكم عليها.. هل هي حلْوة أم خطيرة؟! إنما أستطيع القول بأن كل شيء كان غريبًا.. المهم تجربة و"عدِّت".

استيقظنا من النوم بعد الساعة الرابعة، والسيجارة أيضًا طعمها غريب، ولكنني في حالة مزاجية أفضل، ودار بين الشباب حوار، بدأه علاء قائلاً:

– إيه الأرف ده؟! طول الليل عمالين ترقصوا وتهَرْشوا.. ولا أنا عارف أنتم صاحيين واللا نايمين.

قال بهاء واصفًا الحالة:

– يا علاء ده مش نوم.. ده اسمه "تسقيط" أو "تقنير".. ولا واحد كان نايم.. الواحد منا مغمّض عينيه لكن صاحي وحاسس بكل حاجة حواليه.. دا أجمل "مُود" في الدُّنيا.

بينما عقبت مؤكدًا:

– فعلاً.. أنا كنت حاسس.. بس مش قادر، ولا عارف أعمل أي حاجة.. أقول لكم على حاجة حصلت امبارح، وافتكرتها دلوقت.. لما نزلت أوصّل هدير لعربيتها، وعلى السلم "زنأتها" وأديتها بوسة، وهي ما صدقت، وفجأة سمعنا السواق بيضرب كلاكس.

هتف بهاء:

– مبْروك يا صاصو.. المزّة الجديدة.

فقلت محتجًا:

– إيه ده، دي كارثة.. هو أنا كده لبستها واللا إيه؟!

قال زُوني:

– الحل إنك تعمل عبيط.

قلت:

- تصدّق، فكرة صايعة يا زونى.. جدّع إنك شغّلت التليفون طول الليل، أكيد طلبتنى مائة مرة.

وفجأة.. علاء قال:

- حدّ يرد على التليفون بسُرعة.

- كارثة.. أكيد دى هدير.. رُد يا بونو، وقول لها صلاح طلع هينام الصبُح بدرى.

- أهلاً يا دودو.. أخبارك إيه؟ لحظة سكوت.. صاصو؟! خرج من بدرى، راح يسلّم على أهله، ويقول لهم كل سنة وانتم طيبين.. طبعًا طبعًا راجع تانى، وأول ما يرجع أقول له يكلّمك.. فورًا يا إكسيلانس.

وطبعًا لم أكلم هدير، ولكن هى تكلمت مرة ثانية ورديت عليها:

- ألو يا دودو.. إزيك؟ أنا مش عارف إيه اللى حصل إمبارح، مش قصدى خالص، كنت شارب كتير، ومش عارف عملت كده ليه!! أوعدك ده مش هيتكرر تانى أبدًا.. دودو أنا لازم أنزل حالاً.. علاء سبقنى فى العربية.

لم أنتظر أى رد فعل من جانبها، وأنهيت الموضوع بهذا الأسلوب.. حقيقة، البنت جميلة، لكنها مُملة جدًا، بعد عشر دقائق أو أقل أشعر بالملل، وأحاول أبلّغ فرار بكل الطرق والحيل.. وعلى العكس كانت شهيرة صاحبة علاء "تختوخة"، دمها خفيف، طيبة و"جدعة" جدًا.. تحب علاء أكثر من حبه لها ألف مرة.

لم يكن موضوع البنات يشغل تفكير رامى.. إنما حظه من السماء.. فى كل مرة يتعرف إلى بنت من البنات، تطلع صاروخ أرض جو، وكانت نيللى هى الوحيدة التى استمرت صداقتها معه لفترة طويلة.. كم هى جميلة.. أنيقة.. وكما

يقال بنت عائلة.. تحبه أكثر من كل الكلام، ولكنه يشعر بالملل.. ومن حين لآخر يغار بها، وتحتمل.. أكثر من مرة تبتعد في هدوء، ثم تعود العلاقة من جديد.

وأكد صاحبنا بهاء التقارب المصري الفلسطيني، بعلاقته المنشودة مع بسمة، فتاة فلسطينية.. بيتها على مرمى البصر من بيت ميدو.. دقيقة ونصف لا أكثر بالموتوسيكل.. وكدنا نفقد عقولنا بسببه، بعد أن رفع مصفاة الموتوسيكل ليحدث ضجيجا عاليا؛ حتى يلفت انتباهها إلى وجوده تحت بيتها، ويظل رايح جاي، مزعجا سكان الحي؛ لينال نظرة عندما تطل جميلة الجميلات من الدور الرابع، وقد أطلق عليها: بسمة "أم قلب خشب".. إنها قمة في الجمال.. شعرها أسود ناعم، لون البشرة قمحي، عيناها لونهما أخضر. وذات مرة، ليكسب عطفها ربط جسمه كله بالشاش، وأطلت من البلكونة.. رأته.. وبعد أقل من دقيقة دخلت غرفتها، وكأنها تعلق: "وأنا مالي".

وبعد فترة، استعد بهاء بمجموعة من الشباب، وتحت بيتها بدأ معركة سينمائية، مثل فيها دور البطولة، وكأنه فريد شوقي في زمانه، رغم أنه أصلا لا يتحمل ضربة قلم من طفل في العاشرة.. مشهد من فيلم فاشل.. وفي مرة أخرى اتفق مع بعض الشباب لمعاكستها في الشارع، وفورًا نزل بونو المنقذ من على الموتوسيكل، وضرب أحدهم، وبأعلى صوت ثار على الآخرين.. إنه فيلم قديم وبايخ يا بونو.. جرب بهاء كل الحيل، بلا صدى عند بسمة.. في كل يوم، موقف مختلفة من بهاء لينال اهتمامها، ولكن بونو صعلوك، وهي جميلة فاتنة شديدة الثقة بنفسها إلى حد الغرور، ومن المستحيل أن تفكر في هذا الكائن العجيب.. مسكين يا بونو.

ويختلف الموقف بين حسين وصديقته نيفين.. إنه يحبها بحق، وهي تبادله مشاعره الحلوة، وكنا نشعر أن لهما عالمهما الخاص، وأن بينهما أسرارًا

لا تنتهي.. والحق يقال إنها خفيفة الظل، وأيضا كانت خبيثة، هي قصيرة، ودائمًا أذكّرها أن كل قصير مكير.. ولم أكن أرحمها من التعليقات الساخرة، وترد بخفة دم وكأننا "تاتو ونتيرة"، ولكننا نتعامل بأسلوب راق، حبًّا واحترامًا لمشاعر حسين.. وعندما كنا نخرج معًا، تنطلق نيفين بعشرات الأسئلة:

- خارج ليه؟ رايح فين؟ راجع إمتى؟ مع مين؟ بهاء ورامي وصلاح معاك؟

بكل تلقائية كانت تتكلم.. وإحساسها يؤكد لها أنني وبونو ورامي السبب الأساسي وراء الشرب، وقصص البنات، وكل المصائب، وإنما رجوعًا للحق، كانت طيبة جدًا.. ويغضبها عدم تفرغ حسين للحديث معها طوال الوقت، رغم أنها "رغاية" جدًا، ولا ينتهي حديث الصباح والمساء على التليفون بينهما، وتحتج جميعًا، وأقول له:

- ياربي!! الرحمة.. إيه الرغي ده كله؟ فهّمني يا زوني بتقولوا إيه كل ده؟

- أصل فيه موضوع كبير أوي يا بِرِنْس.

وكان تعليق بونو:

- على كوبري عباس.. ماشيه وماشيه الناس.. يا فرولة وأناناس.

لم تكن لدى صاحبنا ميدو صديقة محددة، ولكنه "يعيش" في الدور، مدّعيا أن في حياته فتاة مدهشة، غير كل بنات الدنيا، إنما علاء المشاغب الكبير لا يتركه في حاله، ويغيظه بأسئلته:

- صاحبتك مين دي؟ إنت معانا أربعة وعشرين ساعة، وعمرنا ما سمعنا صوتها، ولا شُفناها.. يا ترى هي كلبوظة، أقصد تخينة زيك كده؟ طيب يا ميدو فهّمني ليه مش بتتكلموا؟!

- طبعًا بنتكلم، وأنا رايح لها ألمانيا الصيف الجاي.

وبعد رأس السنة، رجعت الشلة كما كانت.. خمرة، حشيش، كوتشينة، بنات.. واختلفت الآراء حول البودرة ومُلخصها:

بهاء : صاحب الاختراع.. وطبعًا المشجع الأول.

رامى : عجبته.. و"معندوش" مانع يجرب مرة تانية.

أحمد : ممكن.. بس مش كتير.. الترجيع وحش جدًا.

حسين : تمام كده.. على خفيف.. فى المُناسبات.

علاء : أنا لغيتى الخمرة والحشيش.. وبَسْ.

صلاح : فشْطة.. شغَال.

4

وداعًـا للمدرسة

رغم كل ما نفعله، وما نمر به يوميا.. فزنا ببطولـة المدرسـة فـي الكورة، كسبنا مباريات متواصلة.. الغريب طبعا أننا كنا نشرب سجائر، حشيش وبيرة.. ومع هذا كنا "حرِّيفة" كورة، وفعلا كان فريقنا قويا وحصلنا على كأس المدرسة.. والفريق الذى يفوز، هو الفريق الذى يمثل المدرسـة فـى المبـاراة النهائية، مع مدرسة لغات أخرى، من المنطقة نفسها. كانـت مبـاراة البطولـة ما بين المدرستين، وكل سنة تقام في مدرسة، بمعنى، سنة على أرضنا، وسـنة على أرضهم.. البطولة كانت مستمرة، منذ سنوات وسنوات، لدرجة أنه لا أحـد يعرف بالتحديد.. متى وكيف بدأت؟!

بطولة السنة الماضية فازت بها مدرستنا، وكانت المباراة على أرضنا، وفصل ثانوية عامة علمي فاز بها، وحصل على الكأس، وتم توزيع الميداليات، وأقيمت الاحتفالات.. هذا العام المباراة النهائية في مدرستهم وعلـى أرضـهم.. ووسط جمهورهم.

معنا في الفصل زميل طويل، وبطل فروسية.. اسمه عبـاس، وهـو حارس المرمى، وكان أيمن "باك" ويسانده عماد، وأنا كنت ألعـب فـي نُـص الملعب، وكان زُونى "أحرف" واحد في المدرسة كلها، ويلعب مهاجمًـا.. كـان رامى احتياطيًا و"يغيّر" مع أيمن وعماد.. وميدو هو "الكوتش"، وأطلقنـا عليـه اسم: "برزُوتّا"، نسبةً إلى مدرب إيطاليا الشهير في ذلك الوقت.

كان بونو طبْعًا هو ملك الزّفة والتـشجيع، وكالمعتـاد يـتقمص دور الدكتور المعالج.. بونو كان غريبا جدا في موضوع التشجيع، كان يعرف كيـف يؤلف أغنية في ثانية، وكانت تتحول إلى هتافـات مدهـشة ومُلْهِـابة حـقًا..

المدرسة كلها مهتمة بالمباراة، وكل الزملاء، بلا استثناء، يسألوننا عن تشكيل الفريق، وخطة المباراة، وموعدها.

المدرستان تقريبًا في نفس المستوى، والمنافسة بينهم كانت قوية جدًا.

نعم، سوف نلاعب أصحابًا لنا من النادي، وكثيرا ما لعبنا مباريات معًا، وكنا في فريق واحد.. لكن الوضع مختلف بالنسبة لهذه المباراة.. نحن نلعب باسم المدرسة، ولابد أن نرجع لها بالكأس.. الموضوع جَدّ جدًا، ولا يحتمل أي هزار.

تحدد تاريخ المباراة، واجتمع بنا الكابتن فاروق، مدرس الألعاب، وتحدَّث مَعنا على تفاصيل الماتْش، وقال لنا:

– الماتش على أرضهم، بس أنا عارف إن إنتم رجالة.. إحنا لنا 100 مشجع بس، عايز أدب.. عايز أخلاق والتزام.. وتفضلوا شُوفوا جمال الفانلات.. لونها أبيض وشورت أسود.

كان الكابتن فاروق زملكاويا متعصبا، واختياره لون الفانلة كان مقصودا من جانبه.

حقيقة الأمر، كان الرجل شخصية جميلة و"جدع".. لكنه واجه الاعتراض من الأهلاوي ميدو:

– لا.. يا كابتن، أبيض إيه..ماينفعش، أسف، هو طقم كورة ولا تاكسي.. وبعدين إحنا مابنلعبش بالأبيض، ده فال وِحش.

– خلاص يا ميدو، أنا جبت اللّبس، ومش مشكلة.. مش حتفرق، أبيض من أخضر من أحمر من أزرق من أصفر.. كلهُ واحد.. المهم اللّعيبة.

فقال بونو مؤيدًا:

– خلاص يا ميدو، مفيش مشكلة.. أبيض أبيض.

– لأ، أنا مش موافق.

– خلاص، زي ما الكابتن قال، مش مهم اللون، المهم الحَشْو.

وتدخلتُ في الحوار:

– الماتش مُدتُه أدّ إيه يا كابتن؟

– 40 دقيقة الشوط، تلت وتلت.. خلاص يا رجالة، الكاس بتاعنا، مش هنرجع وأيدينا فاضية.

– عيب يا كابتن، دا أنا ميدو بروزنا، وحاطط خطة عبقرية بفكّر فيها من أسبوع.

وكان تعليق زُوني:

– خطة إيه يا مودِّينا في داهية.

– خطة هيديكوتي* بتاعة الكاس، ولا نسيت.

أخذنا النَّفس من غرفة الكابتن، وبدأت مُناقشات جديدة، بدأها ميدو:

– إحنا لازم ننزل نشترى تى شيرتّات جديدة.. إيه رأيك يا بونو؟

– لا لا.. ملكش دعوة بالقصة دي، دا أنا هاعمل طقم مُرْعب.. فاكر يا صلاح الفانلة بتاعتك اللّي كلها ألوان بتاعة فريق المزيكا.. اسمه إيه؟ أظن "دد".

– آآآه، قصدك "جريتفل ديد**"..

– أيوه، تعجبني يا إكسلانس.. أنا هالوِّن التيشيرتات دي بالألوان زيّ فانلتهم.. رأيك إيه يا ميدو؟!

– يا ابن الإيه، فكرة صايعة.. ماشي يا زوني؟

– نفذ يا بونو.

– بس مَحدّش يجيب سيرة، علشان الكابتن فاروق ميعْرفش، وبعدين مش هو قال أبيض، أحمر، أصفر، أزرق، أخضر.. متفرقش، يبقى خلاص بلوّنها له.

---

* مدرب الكرة المجرى الشهير.

** فريق موسيقى أمريكي.

أخذ بونو "التيشرتات" واختفى.. المباراة يوم الخميس، ومساء يوم الأربعاء، وصل بونو عند ميدو، ومعه التشيرتات.. يا نهار أبيض، إيه دة؟! فعلاً ألوان الطيف!!

الغريب.. إنها كانت مختلفة وحلوة.. ولم ينس إضافة نمرة على كل تيشيرت، والمفاجأة أنه يعرف الرقم الذى يحبه كل منا. بالطبع.. استسلم عباس وأيمن وعماد تماما، ولم يعترضوا نهائيًا.

وقال عباس:

– إحنا مالناش دعوة بأى حاجة، إحنا علينا نلعب وخلاص.

وقال بونو:

– محدش هيشوف التيشرتات دى فى المدرسة، يتلبسوا قبل الماتش بنص ساعة.

أما ميدو، فقال:

– طبعًا.. كل حاجة لازم تبقى مفاجأة.

وأضاف بونو:

– وبعدين موضوع 100 متفرج ده قليل جدًا، أنا وضعت خطة أهرب 100 كمان، دا أنا عملت شوية أعلام وجهزت كمان أغنيتين، بس تعرفوا لو ماكسبناش.

فقال زونى:

– عيب عليك.

وقلت مستنكرًا:

– دا أنا أبطل ألمسها.. أعتزل واقعد في بيتنا أحشش.

وأضاف زونى:

– خطتك إيه يا برونزتا.. الماتش بكره.

فرد ميدو:

– هتعرفوا كل حاجة بكره الصبح.. أنا كاتب كل حاجة.

احتج زُونى قائلاً:

- يا عمّ قول وخلّصنا.

- ماشى، بسّ ركّزوا معايا شوية، الماتش ده غير أىّ ماتش.. إحنـا بنتـصرّف تصرفات مجانين ونشتّت تفكيرهم، يبقوا مش فاهمين فيه إيـه، ولا المـشجعين بتوعهم يفهموا.. ماشى يا صاصو؟

- تصدق.. دى فكرة صايعة جدًا.

واعترض حسين:

- الله يخرب بيوتكم، إيه اللى إنتوا بتقولوهُ ده؟!

فقال ميدو ضاحكاً:

- اسمع بسّ يا زُونى، حنتصرف تصرُفات غريبـة، وده هيخلّـيهم ميعرفـوش يركّزوا خالص.

فقال بونو:

- أموت أنا فى شغل المجانين.. كمّل يا ميدو.

- أول حاجة، بونو عمل "يونى فورم" جامد جدًا، تانى حاجة.. يوم الماتش لما تسخَن، تسخن فى النُص بتاعهم، ما احنا أصلاً مبنسخنش، ونقعد نشوط الكرة بتاعتهم بعيد، يعنى برضُه استفزاز وغلاسة، وبدل ما نقف فى دايرة ونتكلّم على الخطة، نقعد مربّعين على ركبتنا، وبعدين ننام على الأرض لمدة 3 دقايق من غير ما نقوم.. وأنتَ يا بونو طبعًا الطّبلة و"الرِق" والصاجات وحترقص فى الملعب.. أكِنّنا كسبنا الماتش قبلّ ما يبتدى.

رامى : تصدقوا إن إحنا لازم نخشّش قبل الماتش ده.

صلاح : طبعًا، أمال هنروح فاتيين.

أحمد : ده مش فى الخطة.

بهاء : معلش، نزوّدها على الخطة.

حسين : ده هيبقى ماتش جامد "....".

فى اليوم التالى.. ذهبنا الى المدرسة نرتدى أطقم التدريب "تريننج سوت"، وأصر ميدو على ارتداء بالطو، وكأنه بروزتا بجد، أما بونو، فقد وضع الطربوش على رأسه، وارتدى جلبابا ومن فوقه عباءة، وكان منظره فكاهيًا.

في ذلك اليوم، كنا نمتلك حرية الحركة والتصرف، معنا "كارت بلانش" نفعل ما نريده، وكنا نختفى فى سيارة ميدو، نلف سيجارتين ونشربهم، ونعود ثانية إلى المدرسة.. الكل مهتم بالحدث، ولا أحد يتكلم عن شىء آخر غير الماتش، وكأن المدرسة فى يوم رياضى.. جلسنا معا نضحك، ومن حين لآخر، واحد منا يقترح فكرة جديدة نعملها بهدف تشتيت تفكيرهم.. فعلاً شغل مجانين.

فى الفسحة ظل الناظر يبحث عنّا، وكنا فى سيارة ميدو، وتوجّهنا إلى مكتبه لنعرف ماذا يريد منا، فوجدنا الكابتن فاروق يجلس معه، وبكل هدوء تحدث الناظر قائلاً:

– ازيكم يا شباب.. شكلكم حلو فى لبس الرياضة، فين "اليونيفورم"؟

أجابه زونى:

– معانا يا افندم.

– كويس.. عاجبكم؟

فقال ميدو:

– طبعا يا افندم، البركة فى الكابتن فاروق.

أضاف الناظر:

– إنتم النهارده بتمثلوا المدرسة.. المدرسة لها تاريخ.. المدرسة لها سمعة.. المدرسة دى أحسن مدرسة فى مصر.

دخل علينا بهاء مرتديًا الجلباب والعباءة، وعلى رأسه طربوش، وبابتسامة عريضة تساءل الناظر:

– إيه ده يا بهاء.. اللى إنت عامله ده؟

فقال ميدو:

- ده كبير المشجعين يا أفندم.

- واضح إنكم واخدين الموضوع بجد.. بس إسمعوا أنا عايز أدب، أخلاق، والرياضة مكسب وهزيمة.

فقلت بحماس:

- الكاس دا بتاعنا، ومش راجعين من غيره.. اطمئن حضرتك.

- أنا مش عارف أنتم عارفين واللا لأ.. الكاس ده ممكن فعلاً يكون بتاعنا.. السنتين اللي فاتوا إحنا اللي كسبنا، ولو كسبنا النهارده الكاس ده هيبقى بتاعنا مدى العمر.. اللي يحتفظ بالكاس لازم يفوز به 3 سنين ورا بعض، ولغاية النهارده محدش كسب 3 سنين ورا بعض.

فسأله ميدو:

- هي البطولة دي ابتدت من إمتى؟

- من زمان، من أكتر من 10 سنين، والكاس رايح جاي بين المدرستين.. النهارده المدرسة كلها هتشجعكم، الماتش الساعة الواحدة، هتتحركوا الساعة 12 بعد طابور الفسحة.. أنا عاوزكم تحضروا الطابور، وبعد كده تمشوا إنتم والمشجعين.. المدرسة كلها عارفه مهمة فصل ثانوية عامة أدبي النهارده، وطبعاً أنتم معروفين بالاسم واحد واحد، ومعروف شقاوتكم ومشاكلكم، بس النهارده كلنا معاكم وكلنا معتمدين عليكم.. ربنا يوفقكم يا شباب.

وخلال الفسحة التف تلاميذ المدرسة كلها حولنا، وأخيرا طلعنا الفصل.. بونو جهز الأعلام، وقررنا ارتداء زي بونو الرياضي، ونقف في الطابور.

وضرب الجرس، ونزلنا إلى فناء المدرسة "بالترينينج"، وتحته "التشيرتات" الملونة بألوان الطيف، وقررنا التسخين بها أمام الجميع.. خرج

الناظر، وطلب منا الانتظار ليقول كلمته الأخيرة قبل صعود التلاميذ إلى الفصول.

وقال حضرة الناظر:

- النهارده، وبعد دقائق معدودة، وزى ما أنتم عارفين.. ثانوية عامة أدبى رايحين مباراة النهائى.

دوّى تصفيق حاد من كل تلاميذ المدرسة، ثم استمر في حديثه قائلاً:

- من فضلكم الهدوء.. النهارده ثانوية عامة أدبى واخد الكاس اللى بقاله سنتين عندنا فى المدرسة، ولو رجعوا بيه.. عمره ما هيخرج من المدرسة تانى.

دوّى تصفيق حاد مرة أخرى، من التلاميذ والمدرسين.

- فريق المدرسة يتفضل علشان المدرسة كلها تحيّيه.

وبعد أن تسلم الكابتن فاروق الكاس، أضاف الناظر:

- ربنا يوفقكم.. اتفضلوا.. استعدوا.

وبسرعة فائقة، خلعنا الترينج وظهر اللبس المرعب، وضجت المدرسة من الضحك.. "انقلبت" المدرسة من منظرنا، وطلعنا فى الشرفة جنب الناظر، والكابتن فاروق في حالة ذهول من منظرنا في الزى الجديد، وخلال ثانية واحدة استطاع بونو توزيع أكثر من 50 علماً على الطلبة بنفس ألوان "التشيرتات"، وأصبح المنظر ساحراً.

المدرسة تضج بالتصفيق، والناظر يسلم علينا واحداً واحداً، وارتفعت الأعلام عالياً.. كانت ترفرف، بينما بونو يلف حديقة المدرسة، مرتدياً جلبابه والعباءة، والطربوش والطبلة فى يده، وصاح ليبدأ أغانيه:

- الكل يغنى.. الكل يقول.. إحنا مين، وهما فين..

- الكل يغنى.. الكل يقول: الكاس عندنا.. وهيفضل عندنا..

لمدة 10 دقائق.. ظلت المدرسة كلها تغني وراء بونـو، وهـو يقـول بأعلى صوت:

- الكل يغني، الكل يقول لكل الناس، راجعين راجعين، راجعين، ومعانا الكاس..

طلعنا على المدرسة المنافسة.. خمسة أتوبيسات انطلقت من مدرستنا تحمل المشجعين، وبها كمية أعلام رهيبة، وركبنا نحن الخمسة في سيارة ميدو، وكابتن فاروق أخد معه عباس وأيمن وعماد في سيارته.. المدرسة المنافسة تبعد خمس دقائق عن مدرستنا.

في سيارة ميدو، بونو مولّع "چوينت"، وريكو مولّع "چوينت"، وأنا معي "كوباية" في يدي، وكنا نحشّش، وكأننا في طريقنا إلى حفلة "روك"، وليس إلـى مباراة مهمة.. وميدو راجع معنا خطّة الماتش، وكان تعليقه على كلام الناظر:

- شُوفتوا، بيحب الكورة، أصلاً هو أهلاوي صميم.. لعلمكم كان يتمنى ييجـي معانا.

وصلنا.. كانت فعلاً المدرسة كلها في انتظارنا، وكان يومًا رياضيًا في مدرستهم، وكلهم في انتظار الماتش.

كنّا "مساطيل"، وبصراحة شعرنا بالرّهبة أوّل ما وصلنا.. ياه!! مدرسة كاملة في انتظارنا، ووقفنا إلى أن دخل الكابتن فاروق المدرسة، حاملاً الكـأس في يده.. وتوقفت الأتوبيسات، ونزل كل المشجّعين، وكانت الخطة كما رسـمها بونو.. ننتظر دخول جمهورنا من المشجعين، وندخل بعدهم.. دخلـوا ومعهـم الأعلام، ونزل بونو ومعهُ الطبلة، وكان منظره فكاهيًا جدا، وبدأ يطبل ويغنّـي قائلاً:

- واحد اتنين تلاتة ونص.. رأسهم يا زوني على واحدة ونص..

- بُص بُص بُص.. صاصو ملك النص..

- هيلا هيلا.. هيلا هيلا هوه.. ريكو مفيش زيه..

بصراحة.. كانت الرهبة تعصرنا.. أول مرة في حياتنا نلعب أمام كل هذا العدد من الطلبة، وهم أيضا بدأوا تشجيع فريقهم.. ميدو نزل معنا الملعب، وبدأ يتكلم معنا واحد واحد، ثم طلب منا أن نقف معا في جانب من الملعب، ونتهامس معًا.

- إنتم نسيتم الخطة واللا إيه؟! اسمعوا العيال دي لازم تُمكتُ خالص، يالّلا اقلعوا التّرينتج وإنتم واقفين جنب بعض، ألفتوا الانتباه إن فيه حاجة بتحصل.

نفذنا كلامه، وكان لبسنا فعلاً غريبا، وبدأ الجميع يتفرج ويهلل، وطبعا الجماهير من المشجعين بقيادة بوتو "عاملة" شُغْل مدهش.. وبعد ما ظهرنا بملابسنا العجيبة نفذنا بقية خطة ميدو، وجرينا على الفريق المنافس أثناء التسخين، وعملنا تصرفات غريبة ليس لها أي معنى، وهم فعلا في حالة ذهول، ونحن في حالة جدية تامة.. قمنا بحركات استفزازية، وبدأنا نشوط كرتهم بعيدا.. استفزاز وبأعصاب باردة، والفريق المنافس في حالة غليان.

ونزل حكام المباراة، وهم من ترشيح وزارة التربية والتعليم.. وطبعا إلى جانب الجمهور، كانت المنصة معدة، ويجلس بها مندوب من وزارة التربية والتعليم، وبجانبه كابتن فاروق، وكابتن المدرسة الأخرى.. تصرفاتنا أدهشت الناس كلها.. ما هذا الذي يحدث؟ فعلاً، كانت المسألة مريبة بعض الشيء، وغير مفهومة.

في واقع الأمر، لقد سيطر علينا تأثير الحشيش، وكان الفريق المنافس شديد الثقة بنفسه، ويلعب في مدرسته، على أرضه، وبين أصحابه وزملائه.. وبالتالي لم يهدأ بوتو ثانية واحدة، وأيضا ميدو، وكلاهما أصدر تعليماته لنا.. إلى أن بدأت المباراة.. وأول كرة.. هجمة لنا، وكنت في أقل من ثانية أتما و"الجون"، ولست أدري كيف أمسكت الكرة بيدي، و"شوطة" قوية خارج المدرسة، ثم وقعت على الأرض، وأصبت بنوبة ضحك هستيري، وأسرع إلي

زونى وريكو.. وكأننى أحرزت هدفاً.. طبعاً حالة من الذهول أصابت الجميع، بدءاً من الجمهور، واللاعبين، وكأنهم يتساءلون: هل هو مجنون؟ ما هذا الذى يفعله؟ بطبيعة الحال، أعطانى الحكم إنذاراً لأننى أمسكت الكرة بيدى.. ياه!! من أوّلها!!

بصراحة ما حدث منى جعلنا نفيق جميعاً، وفوراً طلب ميدو من عباس التظاهر بالإصابة، وبما أنه حارس المرمى، إذاً لابد أن تتوقف المباراة.

قال ميدو:

- لازم نغير الخطة.. الموضوع هيفْلِت من أيدينا.

لقد شعرنا أننا نمرُّ بحالة هبوط، وذلك بعد دقائق معدودة من المباراة، كنّا فى حاجة إلى سكريات فوراً، بل نحتاج شيكولاته.. وصاح زونى قائلاً:

- هاتْ كُولا وشيكولاته بسرعة.

أسرع ميدو لشراء كولا وشيكولاته من كشك خارج المدرسة، وعاد بعد دقيقة واحدة.. فيلم جديد من عباس، ويقع للمرة الثانية، وظل عباس ملقى على الأرض حتى شربنا وأكلنا الشيكولاته بين ذهول الجمهور والجميع.. إنها المرة الأولى التى يرون فيها اللاعبين يأكلون الشيكولاته، ويشربون كولا خلال مباراة.. وبعد 10 دقائق أحرز الفريق المنافس هدفاً.. طبعاً أصبحنا فى مأزق، ولكن بعد أقل من دقيقتين، ردّ زونى بهدف لصالحنا.. الكرة بينى وبينه "وَن- تو"، وتحقق الهدف.. جول جميل فعلاً.. وتمر دقائق معدودة، ويحرز الفريق المنافس هدفاً جديداً، وأصبحت النتيجة 2:1، وانتهى الشوط الأول، وجاءنا كابتن فاروق يجرى:

- إيه اللى أنتَ عملته ده؟

أجبته قائلاً:

- مش حينفع أشْرَحْ لَكْ دلوقت يا كابتن.

- ده اللي وعدت بيه المدرسة.. المدرسة كلها مستنياكم ترجعوا بالكاس، إقت والجون وتشوط الكرة بَرّه المدرسة!!

قال ميدو:

- ماتْخفش يا كابتن، يا رجالة.. الكاس بتاعنا، وأنت يا صلاح، زى ما ضيعت جون هات جونين.

ونزلنا الشوط الثانى.. المباراة كانت حماسية، وجمهور المدرسة المنافسة بيشجعوا بحماسة هائلة، وبدأت صيحات الفريق المنافس:

- هوو هوو هوو هوو هوو..

طبعا بونو ردّ فى ثانية، وقال:

- ما بنْخفش ما بتجْريش.. الكاس ده بتاعنا يا خرافيش..

سارت المباراه بشكل أفضل، كرة هنا، وكرة هناك، زَونى "خطّ" كرة جميلة لكن فى العارضة، ويبقى من الوقت حوالى 8 دقائق على نهاية المباراة.. الكرة "أوت"، ولعبها أيمن لزَونى، بيرقص اثنين، وشاطها لى، وفى ثانية "شُوطة" مدهشة فى الجون فعلا مليهاش حل، والنتيجة 2:2 والماتش ولّع، وسكت جمهورهم، وبونو أشعل الدنيا بحماسه، وبعدها بدقيقتين "أوت" لنا، وكان فيه لعبة متعود عليها أنا وزَونى.. أجرى من بعيد ومن وراء "الجون"، وزَونى يرميها أروح فورا أضعها بدماغى، مجرد ألمسها تدخل جوه الجون، والنتيجة 3:2 ومدرستهم فى حالة ذهول، وتشجيع مدرستنا غير عادى.. وفى ثانية.. لاعب خبط ريكو، وفى الحال وقع ريكو على الأرض وعمل تمثيلية، وميدو بدأ ينط يمين وشمال، ويطلب منا نضيّع الدقيقة الباقية على نهاية المباراة.

وفعلا نفذنا تعليماته حتى تمر الدقيقة، وأيضا دقيقتا الوقت بدل الضائع، وبونو بدأ يغنى:

- يا مدرستنا يا مبيرك الكورة، فى كل مرْمى نسدد كورة، شوطى وخاوْزى.. وأخذنا الدورى.

وبعد ثانية صفَّر الحكم، وجرينا كلنا على ميدو وبونو، وأضـــاء وجــه الكابتن فاروق بابتسامة جميلة، واستلمنا الكأس والميداليات، وسط ذهول الجميع.

من الطريف أن زملاء مدرستنا رجعوا الى المدرسة سيرا على الأقدام، ولم يركبوا الأتوبيسات.. وكانوا في حالة من الفرحة والنشوة، فمـــشوا يهللـــون ويغنون طوال الطريق حتى وصلوا إلى المدرسة، بينما ركبنا نحن سيارة ميدو، وانطلقنا بها وضحكنا من القلب على أحداث المباراة، والكرة التي طارت خارج المدرسة، وعلى الفور أشعل بونو "الكوبَايه"، وأشعل رامي "جُوينَت".. كنا فعــلاً في حاجة إلى نفسين بعد الانتصار العظيم.

وصلنا المدرسة والكأس معنا في السيارة، والجمهور وتلاميذ المدرسة جميعًا في انتظارنا من أول الشارع، الكأس مع ميدو، وحملونا على الأكتـــاف، وداروا بنا في المدرسة، ويومها أُلغيت اخر حصة من جدول الدراسة.

وصل حضرة الناظر إلينا بصعوبة، ورفع ميدو الكأس.. وطلع ووقف على السلم الذي يصل إلى مكتب الناظر.. وأخيرا جاء الناظر ليتسلم الكأس أمام المدرسة كلها.. أجمل ما في الموضوع، أن ميدو لا يلعب كرة.. ولكن مع هذا، لم يعترض أحد أبدًا أن يحمل الكأس، ويسلمه بنفـــسه لحـــضرة النـــاظر كأنـــه "برزُوتا" فعلاً.

ألقى الناظر كلمة تهنئة أمام جميع الطلبة والمدرسين، وأصدر قــرارًا برفع الغياب عن فصل ثانوية عامة أدبي بالكامل، مكافأة منه لأدائنا الرياضـــي المتميز.

ظل الكأس في المدرسة مدى الحياة، وقد وفَّينا بما وعدنا.

تمر الأيام سريعاء ويقترب موعد الامتحانات، ولم نعــد نـــذهب إلـــى المدرسة، وخلال شهر مارس وما بعْدُه كنا نزور المدرسة مرة أسبوعيًا، وأحيانًا نتسبب في مُشكلة أو مُشكلتين، ونعود إلى برامجنا الشيطانية، وكل شهر يجـــيء لنا بهاء بالتذاكر..

وهو على حق عندما يقول:

- سِمّ يا جدعان.. والله سِمّ.. مين يدْخُل؟

ويعترض علاء وحده على الفكرة، ونطمئنه بأن الكمية قليلة هذه المرة؛ حتى لا نعاني من القيء الرهيب.. ولكن يستمر علاء فـي رفـض البـودرة، ونستمر نحن في التجربة من حين لآخر.

الامتحانات على الأبواب.. إنها ثانوية عامة، ويبقى من الزمن شهران فقط لا غير، وأهم شيء يارجالة أن نستعيد أنفسنا.. وبدأنا مراجعـة المـنهج، ونذاكر يوميًا حوالي ساعتين أو ثلاث، ثم تبدأ جولات الكوتـشينة، والحـشيش، والمسكينة والدة علاء، تغضب وتصرخ وتنهار في وجه علاء قائلة:

- سيبهمْ يذاكروا.. حرام عليك هيسقطوا بسبب الكوتشينة، وهتكون أنت السبب.

وجاءت أيام الامتحانات.. عندها يكرم المرء أو يهان.. وكنا في لجنـة واحدة، ومعنا زميل من فصلنا اسمه سامي.. ضخم وكأنه دبٌ صـغير أو كـرة مستديرة، ويكاد يفقد عقله بسبب الهزار الثقيل والضحك والسخرية، ولا أنـسى يوم خلعت حزامي، ودفعته إلى ركن الغرفة وكأنني سأضربه.. الغريـب فـي الموضوع أن هذا الكائن الطيب صدّق، والأغرب أنه لو أطلق نفخة خفيفة مـن فمه، لطرت من الشباك. إنما هو "خوّاف"، ويخاف منا كـ "شـلّة"، ومـن ردود أفعالنا السريعة غير المتوقعة.

الحق يقال.. سامي من أطيب التلاميذ في فصلنا، وفي ذلك الزمان كان خاله أحد الوزراء، وبعد إعلان هذه المعلومة المهمة، سـادت الفوضـى فـي اللجنة.. يا سلام إنها فرصة ذهبية للغش، وكتابة البرشام، وتنفيـذ اختراعـات جديدة منها: كتابة الحلول على ظهر "الكرافت" والقميص من الداخل.. وكان بهاء ملك الاختراعات، وهو صاحب هذه الأفكار المذهلة، ونحن نسير على خطـاه، و"غشّينا" بقدر المستطاع، وكانت مشكلتنا الوحيـدة، أن الوقـت لا يكفـي لأداء الامتحانات على أكمل وجه.

المهم بعد انتهاء موسم المذاكرة والامتحانات، عدت من جديد إلى بيتنا، وتعودت أن أرجع يوميا الساعة الخامسة صباحا، ومن حين إلى آخر، أنام في بيت ميدو، أو بيت ريكو حسبما نتفق معا.

كان ميدو وزونى يفضلان البقاء في البيت، وينضم علاء إليهما من حين إلى آخر، وكنت أنا ورامى نفضل الذهاب الى النادى، وكان يذهب معنا بونو في بعض الأحيان، وأحيانا يختفى ولا نعرف له طريقا.. وكان الحشيش هو سيد الموقف، عندما يحل الظلام كنا نتسلق ماسورة مبنى صغير مهجور في أطراف النادى، وفوق سطحه نلتقى و"نقطع" السجائر والحشيش، ونحرقه، ونلف ونشرب، وكان من المستحيل اكتشافنا.. ونقضى السهرة في حالة ضحك وضياع، حتى نواجه مشكلة النزول على المواسير، وضحية كل ليلة صاحبنا فادى؛ فهو طويل وعريض، ضخم كأنه فيل، فأطلقنا عليه "فادى فيلبى"، وكنا ننزل على ظهره، وننطلق إلى بيت أحمد، ونستكمل السهرة في لعب "الكوتشينة".

مرت الأيام ، وأخيرا ظهرت النتيجة كالآتى:

- أحمد : 81 %
- بهاء : 78 %
- حسين : 71 %
- رامي : 74 %
- صلاح : 76 %

لم يصدق الوالد عندما أعلنت بكل الفرحة أننى نجحت:

- 76 %.. أى خدمة.

وعلى الرغم من أن الوالد لم يكن يتصور عبور الثانوية العامة، وأننى نجحت فعلا.. إنما كعادته لابد أن يبدى اعتراضه، قال لى غاضبا:

- هى دى نتيجة؟! تدخلك كلية إيه إن شاء الله؟!

بصراحة كنت أتمنى دخول كلية سياسة واقتصاد، وخذلني المجموع..

وقال الوالد معبرًا عن رأيه:

– أحسن حل تدخل كلية الشرطة، على الأقل تتعلم الانضباط.

– شرطة إيه بَس؟! يا حاج دادي.. ارحمني.

– أنت تتقدم بأوراقك، وتشوف لك توصية، وربنا يسَهِّل ويقبلوك.

– لأ.. تجارة خارجية.

وضاع الأمل بالنسبة لكلية سياسة واقتصاد، وسافرت قبل التقديم إلى كلية الشرطة حتى ينسى، ويلغي الفكرة من رأسه.

وقبل السفر، قلت لهم:

– قَدِّموا أوراقي للتنسيق.. تجارة خارجية.

وظهرت نتيجة التنسيق.. ودخل حسين كلية سياسة واقتصاد بفضل الاستثناء – لاستشهاد والده في حرب أكتوبر–، وانضم إليه ميدو والتحق بهاء بكلية التجارة، رامي كلية سياحة وفنادق، وأنا كلية تجارة خارجية.

بعد هذا الإنجاز.. شغلتنا قضية إقناع الأهالي بشراء السيارات.. وحققنا أحلامنا.. والد رامي حقق له حلم عمره، واشترى له سيارة "بي إم دبليو"، وأنا اشتريت سيارة "جولف" الموديل الجديد، وأحمد اشترى سيارة "فيات 131"، وحسين أخذ السيارة "فيات 128" من والدته، وعلاء اشترى بيجو 305، وبهاء اشترى فيات 132.. كان عدد الشباب الذين يملكون سيارات خاصة بموديلات حديثة في عمر 18 سنة قليلا جدًا، يعدون على أصابع اليد الواحدة، أو أصابع اليدين على أحسن الفروض.

في يوم من الأيام، ذهبت مع ميدو، وريكو نشتري حشيش من الدويقة، واشترينا "ربع قرش"، ورجعنا على بيت رامي في الزمالك، نستمع لأجمل أغاني "فِل كولنز"، وبسرعة فركنا السجائر، وحرقنا عليها ربع قرش حشيش،

وأعددنا ورق "البفرة الكبيرة ولفينا" السجائر في ثلاث "نوبات"*، وكل واحد منا أخذ سيجارة عملاقة.. وبدأنا نشرب، والسيجارة استغرقت عشر دقائق تقريبًا.

نمت على الكنبة الكبيرة، وجلس بجانبي ميدو، وبدأ حواره العجيب مع "بنجو" كلب رامي، وهو صغير الحجم من النوع اللولو، وطبعًا لا يخيف قطة.. لكن ميدو أكبر "خواف" في العالم، وكان يرتعد خوفًا من الكلب الصغير.. الشيء المدهش أن أحمد كان يعمل لهذا الكلب الصغير ألف حساب، ويكلمه باحترام كبير، وأدار معه أغرب حديث، قائلاً:

- إنت أزيك يا أستاذ "بنجو"؟! وأخبارك إيه؟! أنا دايما باسأل عليك.. يا ترى بيوصلك سلامي والا لأ؟!

وقبل أن ينتهي ميدو من سلاماته، أغلق رامي "الاستريو" فجأة، فاكتشفنا كم كان الصوت عاليًا، وبعد أن ساد الهدوء لحظة، قال لنا رامي:

- لازم تنزل من هنا دلوقت حالاً.

كان رد فعل رامي غريبًا، وفي أقل من ثلاث دقائق نزلنا من البيت، وكأننا نجري من شيء ما مجهول، ولم نكن ندري ما هو؟! وإلى أين؟!

المهم، أننا نفذنا التعليمات فورًا دون مناقشة أو "فصال".. وبما أن سيارتي أمام باب العمارة، فاتجهنا إليها دون تفكير.. وكان السؤال: إلى أين؟! وبما أننا في أعلى درجات "السطل"، وفي حالة عدم توازن كاملة، ركبنا السيارة، ولم ينطق أحدنا بكلمة واحدة، ولكن للمرة الثانية سألت رامي:

- نروح فين؟

- نخرج من الزمالك.

وكأن المشكلة في الزمالك، وليست فينا، وطبعًا كان سؤالي الثاني:

- نخرج من الزمالك على فين؟

---

* أكثر من سيجارة في ورقة بفرة واحدة كبيرة.

ساد صمت رهيب.. وأخيرًا ردّ رامى قائلاً:

- نروح الدقى.. نشرب فخفاخينا.. محتاجين سُكّريات.

عندما سمعت هذه الجملة، شعرت بالعطش الشديد، وأننى فى حالة هبوط، وتوالت أسئلتى:

- أمشى إزاى؟! منين؟!

تعاملت مع الزمالك، مسقط رأسى وكأننى لا أعرفها.. نسيت الشوارع، سواء مداخلها أو مخارجها..

وكل دقيقة أسأل:

- أمشى إزاى؟

أجابنى رامى بعد أن نفد صبره:

- على طُول لغاية أبو الفدا، الشارع مقفول.. تدخل شِمال.

وكأننى أقود شاحنة ونسيت سيارتى الجولف الجميلة، وعند أبو الفدا دخلت شمال، وأوقفت السيارة قائلاً:

- أنا مش سايق.. تعال سوق يا رامى.

- لا.. لا.. مستحيل أسوق.. إنت ناسى خالص.

- تعال سُوق يا ميدو.

لم ينطق ميدو بكلمة واحدة منذ قفزنا جريًا من بيت رامى، وجاء رد الفعل المذهل من ميدو.. فقد أمسك بيدى، ويد ريكو قائلاً:

- يا جماعة، إحنا مش لازم نسيب بعض أبدًا.. إحنا لو سبنا بعض هنموت.

وفى تلك اللحظة، أحسست أننا فعلاً فى مأزق، ونعيش مأساة حقيقية.. ما هذه الحشيشة التى شربناها، وسيطر علينا الخوف، بل الرعب، هل نلقى حتفنا قريبًا؟! هل نموت فى أية لحظة؟ إننى خائف.. حقًا خائف، وقلت لأصحابى:

- لو ربنا نجانا من اللى إحنا فيه، لازم نبطل وما نشربش تانى أبدًا.

فقال أحمد مؤكدًا:

- والنبى يارب نجّينا، وعديها لنا المرة دى، وعمرنا ما هتحشش تانى أبدًا.. أبدًا.

أما رامى فقال:

- صَخْ.. مستحيل نشرب تانى.. آخر مرة يارب..

وكانت مشكلتى الحقيقية أننى لا أريد قيادة السيارة، ولا أستطيع إقناعهم بأننى خائف جدًا، بالإضافة إلى أننى غير قادر فعلاً على تحمل مسئولية القيادة.. ومرت عشر دقائق وكأنها عشر ساعات، ومازلت فى محاولة لإقناعهما بأن ينوب أحدهما عنى، وأخيرًا ردَّ رامى قائلاً:

- أوكيه.. أنا هاسوق.. لكن بعد نفق أبو الفدا.

ولم يكن النفق بعيدًا، ولكننى أكاد لا أراه، وعندما دققت النظر، رأيته وأحسست أننى أمام مهمة صعبة، بل مستحيلة، فقلت لهما:

- هو النفق صغير كدا ليه؟ وكمان كل شوية عمال يصغر.. ويصغر.

كأنه يوم لم تشرق فيه الشمس.. وعلى رأى ميدو:

- يوم "أغبر".

وببطء السلحفاة، عبرت النفق، بسرعة عشرة كيلو مترات فى الساعة، والناس من حولنا تنطلق بسرعة صاروخية.. هكذا فى تصورى، وكانوا فى حالة من الغضب لم أفهم لها سببا، فأنا أقود مقطورة محملة بالبضائع، وليست سيارتى التى أحبها.

إنها حشيشة مضروبة.. برشام، أبو صليبة، بركينول، أى بلا أزرق.. وهو يوم من عمرى لا أنساه، رغم أننى أريد نسيانه.. ذلك اليوم العجيب انتهى "بذرى".. بذرى"، تقريبا حوالى الساعة الحادية عشرة، وكانت أمنية حياتنا كلنا العودة إلى بيوتنا، والنوم حتى ينتهى ذلك اليوم.. نعبره.. وعبرناه والحمد لله.

في اليوم التالى، استيقظنا مبكرا حوالى الساعة العاشرة صباحا؛ لأننا سقطنا نائمين مبكرا، وأيضا بدأت الاتصالات التليفونية مبكرا، ودارت كل أحاديثنا عما جرى لنا بالأمس، وضحكنا على أنفسنا، واتفقنا على اللقاء بعد ساعة لشراء الصنف، وكان الاهتمام أن يكون الصنف نفسه، وليس صنفا آخر، ونسينا تماما ما حدث لنا بالأمس القريب.. بل بالعكس، كنا نضحك على كل تفاصيله، واقترح رامى بعد شراء الحشيش، أن نذهب إلى أعز أصدقائه، عاطف، فقد سافرت والدته مع والده.

اتجهنا إلى الدويقة فى سيارتين: فى إحداهما بهاء وميدو وأنا، وفى الأخرى زونى ورامى ومعه صديقنا عاطف، وهو شخصية جميلة فعلا، وابن ناس طيبين.. والده رجل أعمال مصرى ووالدته أجنبية.. المهم اشترينا "كرتونة" بيرة، وتوجه نصف دستة أشرار إلى بيت عاطف.. وكان فى انتظارنا فتاتان، يدل مظهرهما الجميل، وأسلوبهما فى الحديث على أنهما "خنافس".. فتاة اسمها ملك، والثانية اسمها نادية.. بدأت الجلسة كالمعتاد بلف السجائر، وشربنا أكثر من زجاجة بيرة، وحوالى الساعة الثانية ظهرا، موعد غريب إلى حد ما لبداية "الضرب"، بدأ السُّطل.. وبعد ساعتين كنا كلنا فى "الطراوة". وأحسسنا بالجوع.. إنها مشكلة كبيرة.. من منا ينزل لشراء الغذاء؟ ثم ما الطعام الذى نشتريه؟ حقا إنها مشكلة.

حوالى الساعة الخامسة، قررت أن أنزل مع عاطف ونادية نشترى الطعام.. أغرب وأحلى شىء فى الموضوع، أننا نحن الثلاثة لم نكن نعرف بعضنا البعض، ولم نتعارف إلا منذ حوالى ثلاث ساعات.. نزلنا إلى الشارع، ومع كل منا "جوينت"، وقضينا ساعة كاملة فى مطعم السمك قبل أن نقرر ماذا نشترى منه.. ولا أشك لحظة، أن كل من كان فى هذا المكان، قالوا عنا إننا مجانين رسمى.

المهم، أخيرًا.. أخيرًا حددنا "الأوردر" ودفعنا مبلغًا كبيرًا، وأعطيناهم عنوان المنزل.. وعندما وصل السمك والجمبري حوالى الساعة السابعة، اكتشفنا أن ما حدث هو جنون فعلاً.. إنه أغرب "أوردر" فى العالم، فالكمية لا تكفى 8 أشخاص، لكنها تكفى 18 شخصًا على الأقل.. إن إحساسنا بالجوع من شدة السُّطل، جعلنا نطلب كميات غريبة، تكفى قبيلة.. شربنا البيرة، وضحكنا وأكلنا بطريقة هستيرية.. ومع هذا تبقَّى على المائدة أكثر من نصف الكمية.

مرت ساعة، وبعد الأكل، تصورنا أننا فى نوبة صحيان، وأننا فى حاجة إلى دفعة جديدة من الحشيش والبيرة، وعندما أعلنت دقات الساعة الثامنة.. لم نكن نمتلك القدرة على النطق بكلمة واحدة.. فقط تبادلنا النظرات وانفجرنا ضاحكين بلا أى سبب.. واقترحت أن نلعب لعبة جديدة، كل واحد منا يحكى لنا عن نفسه، عن أحلامه.. بدأنا اللعبة. انطلقت الضحكات فى أركان المنزل، وبدأ ريكو الحديث قائلاً:

- أنا عايز أعمل حفلة، ويحضرها مائة ألف متفرج، واطلع "قدّام" الجمهور، ومعايا الجيتار وكوبايه، والجمهور كله يحيينى ويقول: ريكو سَطل.. ريكو حشيش.. ريكو ويسكى.. ريكو برشام، ريكو بطل.

وقال بونو:

- نِفسى فى خَابور طول المِسلّة.. ده يعمل شُغل ابن "......".

أما ميدو، فقال متسائلاً:

- طول المسلة!! إزاى يعنى؟!

فقال بونو مجيبًا:

- يا عمّ سيبنى أحلم.. طيب، أطول من برج القاهرة.. استريحت.

قال ميدو:

- نِفسى الأهلى يبقى بطل العالم، وفريق الزمالك ينزل درجة تالتة.

قال عاطف:

- نِفْسِي أبطل مخدرات.

ساد الصمت بعد سماع تلك الأمنية.. إلى أن قالت ملَك:

- نِفْسِي أتْجَوِّزْ "ألفيس برسلي".

قالت نادية:

- نِفْسِي أسيب أهلي، وأعيش لوحدي.

وقلت:

- نِفْسِي أسافر إيطاليا، وأعيش مع المافيا.

أحلام وتخيلات وضحك مستمر.

كنا نجلس في الصالون، وبينما الضحكات تدوّي.. وأنا في حالة استرخاء تام، وفي يدي زجاجة بيرة، وفي الأخرى "جْوينت"، ودون مقدمات.. سمعت صوتًا.. إنه باب المنزل.. إنه هناك، بعيد في الجانب الآخر المظلم.. ومن هذا المكان البعيد رأيت شخصًا يقترب.. لأول وهلة لم أتبين من دخل.. ومن الذي يقترب منا، وفجأة رأيت إنسانة جميلة جدًا، فوق كل وصف وتصور، ولم أتكلم همسًا، بل بأعلى صوتي قلت:

- إيه ده؟!! مين المُزَّة دي؟!!

ووسط الضحكات، سمعت سيدة تقول بلغة إنجليزية حاسمة:

- عاطف.. ادخل لي جُوَّه حالًا.

قال عاطف في خوف وذهول:

- يا نهار أسود.. دي ماما.. لِمُّوا الحشيش بسرعة.

وكان السؤال: من أين نبدأ؟

المشوار طويل.. عندنا مشكلة حقيقية، مع السُّطل لا أحد منا لديه القدرة على فهم أي شيء.. المهم حاولنا نتماسك، ونرتدي ملابسنا بسرعة بقدر استطاعتنا، ففي تلك اللحظة، كنا في مرحلة "سُطل" عالية، وبالتالي تصرفاتنا

بطيئة وغبية.. نرى كل شيء في حالة زحام.. جمعنا زجاجات البيرة المتناثرة في كل مكان، وطبق السلطة مليء بالتبغ والحشيش، ومنه نلف السجائر، وكلما تقل الكمية، كان رامى يقطع علبة سجاير كاملة من جديد، ويضيف إليها قرش".. وأسرعت بأخذ هذا الطبق وحملته بين يدى.. واتجهت هاربًا نحو الباب الخارجي للمنزل.. كانت المفاجأة الجديدة المذهلة، إنى فوجئت برجل طويل وعريض، يمد لى يده بالسلام والتحية.. سلم بقوة وجدية، وسألنى:

- مساء الخير يا ابنى.. إنت صاحب عاطف؟ وإيه اللى فى إيدك ده؟

فى البداية لم أرد بكلمة واحدة.. ثم انطلقت من فمي قذائف الكلمات:

- مساء الفل يا افندم .. أكيد حضرتك بابا عاطف.. وده لحضرتك.

أخذ الرجل المحترم طبق السلطة المليء بالحشيش والسجائر بين يديه، وكان فى حالة ذهول تام من المشهد كله.. إنه فى مواجهة مع ابنه وسبعة "مساطيل" فى غاية الارتباك "يضربون سبعات فى ثمانيات"، وكل منهم يمر أمامه مسرعا، بينما الوالد وقف صامتا.. ولم ينطق بكلمة واحدة بعد تصرفى العجيب معه.

اختفى عاطف لمدة شهرين، وبعد عودته من المنفى.. كان من الواضح أنه مرّ بظروف صعبة.. بالتأكيد الموقف لم يمر بسهولة، وتعرض لسين وجيم وعقاب من أهله.. باختصار "تفخوة"، لكنه أثبت أنه رجل المواقف الصعبة، ولم يعطهم أرقام تليفونات أهالينا.

وتمر الأيام والأسابيع.. وكانت خطتنا اليومية، نخرج معًا فى سيارة علاء أو رامى.. فكل منهما يحب قيادة السيارات، وبعد جولة من هنا إلى هناك، نعود لبولات الكونتيننة حتى الصباح.

ويجيء شهر سبتمبر.. شهر عيد ميلاد بهاء، وكنا قد جمعنا مبلغا يكفى لشراء ثلاث تذاكر بودرة: التذكرة الواحدة ثمنها عشرة جنيهات، بالتأكيد هذه

لمفاجأة تسعد بوتو.. ولكن المفاجأة كانت لنا نحن، فقد وصل حوالى الساعة الثامنة فى حالة عجيبة، فبادره أحمد بالسؤال:

– إنتَ ضارب يا بهاء؟!

– طبعًا.. النهارده عيد ميلادى، فقررت أكافىء نفسى.

فقال حسين معاتبًا:

– ضيَّعت علينا المفاجأة.. إحنا اشترينا لك بودرة.

– قشطة يا إكسيلانس.. دى أحلى مفاجأة، زيادة الخير خيرين.

فقلت لبهاء:

– على شرط، المرة دى نضرَب كمية أقل، لأن آخر مرة أنا تعبت جدًا من الترجيع.

– كفاية كل واحد خط.. وأى واحد عايز ياخد تانى.. مش مشكلة، البودرة كتيرة.. والخير كتير.

وفيما يبدو.. كانت البودرة هذه المرة خفيفة؛ لأننا لم نشعر بالإحساس نفسه الذى شعرنا به فى المرة الأولى، ولم نتقيأ كما حدث لنا فى المرات السابقة.. وبدأنا حملة سخرية على رامى؛ لأنه أكد لنا أنه يعرف بائع تلك البودرة، فقال بوتو:

– الظاهر إنها بودرة تلج يا معلم.. ده "قَطْش" يا إكسيلانس.

وبدأنا "نحَشِّش"، ولو أكثرنا من الحشيش يبطُل مفعول البودرة.

وعلى كل حال البودرة من "أسامة".. كانت مغشوشة، واحتفلنا وأضأنا الشموع، وأكلنا التورتة، وقضينا يومًا جميلًا.. ضحكنا كثيرًا فى كل لحظة، ومن قلبنا.

بودرة مغشوشة.

5

ســـنة أولى جامعة

وافتتحت الجامعة أبوابها في أكتوبر.. دخل زوتي وميدو كلية اقتصاد وعلوم سياسية، ورغم عدم انتظامهما في المحاضرات، إلا أنهما كانا يذهبان للجامعة يوميًا.

واستمر اللقاء عند ميدو كل ليلة.. ولم يكن حسين يستطيع الفرار من صديقته نيفين.. إنها مثل ظله خلال النهار.. وليلاً تستمر الأحاديث التليفونية أكثر من ساعتين وأحيانًا ثلاثًا.. شيء غريب، وغير مفهوم.. وكأنه أسير سحرها.

وصاحبنا ميدو كما هو، لا يتغير، ويكاد يفقد عقله بسبب الكرة ومبارياتها.. هذا بالإضافة إلى أن الحشيش، فيما يبدو قد أثر على عقله.. بينما صاحبنا علاء سجين الكنبة أمام شاشة التليفزيون، يشاهد الأفلام الجنسية، والأفلام الأجنبية، وصاحبته شيرة تجلس بجانبه تدور حوله، تدلله طوال الوقت.. كانت أطيب واحدة في الدنيا، وعلاء، بكل صراحة، كان مملاً، ولا يتجاوب بسهولة.

قضيت وقتي وأيامي كلها مع رامي، وكان برنامجه اليومي يبدأ صباحًا في النادي، وهناك يلعب "حديد".. والحقيقة الواضحة لكل العيان تميزه بجمال جسمه.. قوي ورياضي.. على شكل حرف الـ "V" أو "السبعاية"، ودائمًا يردد أمام المرايا الكثيرة التي تزين جدران بيته:

– بص الباي.. بص المجانس.. بص الترای..

كان يتغنى بهذا الكلام وهو يتهادى أمام المرايا، متأملاً جمال جسمه، وكنت أخشى عليه من الغرور، وكنت أيضا مشفقًا على صديقته تيلي.. إنها تتمسك بصداقته، ولكنه يكلمها "بالقطارة"، ويعاملها بمنتهى البرود.

وبكل تأكيد.. كنت من المحظوظين، فقد تعرفت إلى فتاتين في هذه الفترة: الأولى اسمها مريم .. طيبة، وصغيرة، إنها بنت الخامسة عشرة، تعرفت عليها من خلال صديقي مراد، أول من علمني قيادة السيارات، فهي الصديقة الحميمة للفتاة التي يحبها.. ولم أكن أرى مريم إلا على فترات متباعدة، فكانت تحدثني تليفونيًا من حين إلى آخر. وكانت راندا هي الفتاة الثانية، الصديقة الحميمة لصديقة رامي.. كلتاهما في ثانوية عامة وفي أرقى مدرسة، وهما غاية في الأناقة والرقي والجمال.

رسم صديقي رامي الخطة لنخرج معا نحن الأربعة؛ حتى لا يشعر بالملل لخروجه وحده مع نيللي. وقد أعجبتها الخطة التي تجعلها تقضي أطول وقت مع رامي، بعد أن يتم التعارف بيني وبين صديقة عمرها راندا.. التقينا، وتعارفنا.. وحدث التقارب بسلاسة غير عادية.. هل هي كيمياء؟ ربما.. أو السبب الحقيقي كان في المقدمات الطويلة العريضة التي حكتها نيللي عني.. ربما الاثنان معا.. لست أدري.. المهم أن الإعجاب كان متبادلا، ومن الوهلة الأولى.. تعارفنا، وقدمت لها نفسي:

- هاي.. صلاح.. إزّيك؟

- هاي .. وأنا راندا.

- لأ.. لأ.. انت طلعت نصّابة يا نيللي؛ لأنك قلت لي إن راندا حلوة، هي دي حلوة دي؟! دي صاروخ.

فقالت لي نيللي ضاحكة:

- قَصْدَك يعني إنها أحلى مني؟!

- دي أحلى مِنّنا إحنا التلاتة مع بعض.

ضحكت راندا ضحكة صافية وقالت:

- إيه يا رامي؟! صاحبك بَكّاش كبير.

- ده مش صاحبي أنا.. ده صاحبك إنتِ.

وبسرعة قلت لها:

- بقولك إيه يا راندا.. ما تسيبك منهم، وتعالى نتمشى فى النادى شوية.

ومشينا فى النادى.. من أوله إلى آخره.. وكأنها أماكن جديدة لم أرها من قبل.. كل مكان هادىء شاعرى.. جميل.. وخطوة خطوة وبمنتهى الرقة، بدأنا حديثنا:

- أخبار المذاكرة إيه؟ ناوية تدخلى إيه؟

- تصور.. لسه ما ابتدتش أذاكر بجد.. إنما ناوية أركز، علشان أدخل كلية كويسة.

- باين عليكِ شاطرة ونجّاحة؟

- لا.. أبدًا.. إنما ناوية السنة دى أذاكر كويس.

مرت ساعة كاملة، تكلمنا خلالها فى كل شىء.. عن مدرستها.. هواياتها.. الألوان التى تعجبها.. الأماكن، الأغانى، الأفلام، والأكلات.. تحدثنا في كل ما يخطر بالبال.. من أحاديث بريئة، وفجأة قفز إلى خاطرى أن أبدأ الهجوم، وقلت لها:

- حلوة أوى السلسة دى.. الخرطوش ده عليه اسمك؟

- آه.. دا اسمى بالهيروغليفى.

- أوريكى حاجة غريبة؟!

- ورّينى.

- لا.. مش هنا أورّيكى.

- وبعدين! بطّل غلاسة.

- إيه رأيك فى ميدالية المفاتيح دى؟

- إيه ده؟ دا اسمك بالهيروغليفى!! يا نهار أبيض!! أما صدفة!!

- تبدّلى؟

- إنتَ جرىء أوى.. موافقة.. بس أوعَى تضيعها، لأنها غالية علىّ جدًا.

- هو فيه حد ممكن يضيّع حاجة شيك كده!! اشتريتيها منين؟
- دى هدية ماما فى عيد ميلادى.

وبعد ابتسامة من راندا، كان من الواضح إن السنارة "غمزت"، قالت لى:

- يالّلا بينا.
- أنا مش عايز أرجع لهم.. دا أنا ما صدّقت لقيتك.

ابتسمت راندا فى دلالٍ لطيف، ومشينا على مهل حتى وصلنا إلى المكان الذى يجلس فيه رامى مع نيللى.. هو يشرب سيجارته، وهى فيما يبدو كانت تحكى وتحكى، وعندما لمحنا رامى من بعيد، قال لى:

- ما بدْرى يا معَلِّم.
- بدرى ده عمك.. بُصّى يا نيللى.. صاحبتك ضحكت علىّ، وأخدت منى الميدالية، وادتنى السلسلة دى.

وكان تعليق نيللى:

- إيه ده؟ إنتو لحقتوا؟!

ردت راندا وهى تبتسم:

- لحقنا إيه بس.. دا نصّاب.

فسألت رامى:

- إنتَ قلت لها حاجة يا رامى؟
- لأ؟
- طيب عرفت منين إن أنا نصّاب؟

ضحكنا نحن الأربعة.. ضحكنا من قلبنا فعلاً.. وقضينا وقتًا ممتعًا.. وتطورت صداقتى مع راندا بسرعة غير عادية، وكأن كلا منا وجد الآخر بعد رحلة بحث طويلة.. وفى السيارة تبادلنا أرقام التليفونات، وصارحتها بأننى أقضى أكثر أيامى عند رامى، أو عند ميدو حتى تتصل بى عندهما.

اعترف، وفى تصورى.. كانت الحياة جميلة ووردية.. معنا سيارات، بل أجمل أنواع السيارات فى البلد كلها، وبالنسبة للميزانية والأحوال المادية ليست لدينا أية مشكلة، مع وفرة فى البيرة والحشيش، وفوق هذا وذاك معنا أجمل وأرقى فتاتين باعتراف كل الناس.. والشيء الوحيد الذى لم نعرفه عن قرب هو الجامعة.. لم ننتظم فى الدراسة طوال السنة الدراسية.. وفى ذلك الزمان، لم يكن نظام "الترم" وامتحانات نصف العام هو السائد، ولكننا كنا جميعاً ندخل امتحان آخر السنة فى تسع أو عشر مواد دفعة واحدة.. وخلال العام الجامعى الأول، استقبلنا العام الميلادى الجديد، وكالمعتاد أقمنا حفل رأس السنة فى بيت أحمد، ووجه كل منا الدعوة لصديقته، وكان الحفل مرحاً، وأكثرنا من الحشيش والويسكى والبيرة.. وظل رامى يعزف على الجيتار، حتى مطلع الفجر.

ومرت الأيام، وقبل موعد الامتحانات بحوالى شهر، استجمعنا أنفسنا، وفتحنا الكتب الدراسية، وبدأنا نذاكر، وفى آخر كل يوم، كنا نلفُّ سيجارتين أو ثلاثة.

وأخيراً، والحمد لله عبرنا سنة أولى.. أحمد وأنا نجحنا.. أما الثلاثى زيكو وبونو وزُوزى سقوط بكل أسف.. ولكنها لم تكن مشكلة بالنسبة لهم، وأعلنوها بكل بساطة: لم ننجح هذا العام .. مفيش مشكلة، ننجح السنة "الجاية".

6

أمريكـــا.. أول مرة

كان نجاحي هو فرصتي أن أطالب أهلي بهدية النجاح: رحلة إلى أمريكا.. وللعائلة الكريمة أصدقاء، هاجروا، واستقروا هناك منذ سنوات، وعاشوا في مدينة أتلانتك سيتي، واستمرت بيننا وبينهم المراسلات والاتصالات في كل المناسبات، وكثيراً ما وجهوا لنا الدعوة لزيارتهم في أمريكا.. وهكذا لم تكن مهمة إقناع الأهل صعبة، فأنا نجحت، والمعارف هناك من أعز الأصدقاء.

سافرت، ومن حظي العجيب أن تلك المدينة تشتهر بخمسة أشياء: القمار، والمخدرات، والخمور، والفتيات الجميلات، والبحر.. لذا أطلقوا عليها "أتلانتك 5".. وفي اليوم التالي لوصولي، أخذني أصدقائي هناك للتمشية على البحر.. رصيف يشبه ممر خليج نعمة في شرم الشيخ، ويطل على البحر مباشرة.

وفي اللحظات الاستكشافية الأولى، مشيت مع الشباب، ألتفت يميناً ويساراً في محاولة للفهم، وفوجئت بفتاة في جمال مارلين مونرو.. في سن الثامنة عشرة تقريباً، تقف وفي يدها "بخاخة" بها مياه، وبدأت ترشها حولي ثم على رأسي.. وقفتُ في حالة ذهول وسألتها:

– بترشي الميه عليَّ ليه؟

وردت ضاحكة:

– لأن الدنيا حر.. صحّ؟

في غمضة عين، خطفت منها "البخاخة"، وفتحتها على رأسها.. ضحكت وصرخت وجريت، وظلت تضحك وتجري، وأنا وراءها، وأصدقائي

لا يصدقون ما يجرى تحت سمعهم وبصرهم فى أول ليلة أقضيها فى تلك المدينة.. تعبنا من الجرى والضحك، وتعارفنا بسرعة الضوء، نادى عليها أصحابها، فعرفت أن اسمها مارلا، وسألتنى:

- اسمك ايه؟

- صلاح.

- منين؟

- من مصر.

وعندما سمعت كلمة: مصر، وكأننى قلت لها كلمة سحرية.. أو كلمة السر، صاحت منبهرة:

- واوو، أنا أمنية حياتى أشوف الهرم وأبو الهول وسقارة: أنا ذاكرت عن مصر كتير فى المدرسة، ونفسى أشوفها جدًا.. هو إنتم فعلا يا صلاح بتركبوا الجمال فى الشارع؟

- اه طبعا.. وبنركب حصنة وحمير كمان.. دا أنا حتى جايب الجمل بتاعى من مصر، وركنته عند البيت.

ضحكت مارلا، وفهمت أننى أسخر وأداعبها بهذا الهزار.. فسألتنى:

- إنت قاعد فين؟ وبتعمل إيه هنا؟ وهتعمل ايه دلوقت؟

- أنا وصلت إمبارح بالليل.. وقاعد هنا شهر، أو شهرين، أو تلاتة.. على حسب الظروف، ولما أزْهق، ارجع فورًا على مصر.

رنين ضحكاتها وصل إلى نيويورك.. وقالت بدهشة:

- تزْهق؟ إنت النهارده تخرج معايا وأنا أفسحك.. بس على شرط لما اجى مصر.. إنت تفسحنى هناك.

- دا إيه الصفقات الجامدة دى؟ اتفقنا.

عشت مع مارلا منذ اليوم التالى لوصولى إلى أمريكا.. حدث هذا بين ذهول أصدقائى.. بل كادوا أن يجنوا.. وأخذوا يتساءلون كيف حدث هذا؟ ومن

هذا الذى لم يمض سوى أربع وعشرين ساعة فى أمريكا، واستطاع كسب صداقة فتاة أمريكية ساحرة.. وكما يقول المثل فى بلادنا: "الطيور على أشكالها تقع"، فهى تعيش فى فيلا بها حمام سباحة مع صديقاتها الأربع، وكل واحدة منهن تعيش حياتها مستقلة تمامًا.. لا تتدخل إحداهن فى حياة الأخرى.

وعندما وصلت الى فيلا مارلا، فوجئت بصديقة من هؤلاء الأربع تلف "جوينت" أو بمعنى أدق "تَتَّ"[*].. أمَا مفاجأة.. ما هذا الجمال؟!! وكنت قبل السفر، أعددت نفسى، واشتريت قطعة حشيش محترمة، حوالى خمسة قروش، وفى ظنّى أن هذه الكمية تكفينى لفترة ما، إلى أن أتبين الموقف داخل هذه المدينة.. ثم أننى مُقيم وبصحبة أصدقاء الأسرة، بمعنى لا سبيل للضرب وللمخدرات معهم.. والقطعة التى معى لا بأس بها.. وكما تقول: "لسّه بخيرها".. فمنذ وصولى إلى هذا البلد، اتبعت نظاما جديدا.. أترك القطعة الكبيرة فى البيت، وآخذ قطعة صغيرة "تلف" أربع أو خمس "جوينتات"، وأخفيها فى علبة السجائر.

جلست أراقب ليندا صديقة مارلا، التى لم تهتم بوجود شخص غريب فى البيت، وأشعلت "التَّتّ" فى هدوء، فمدت مارلا يدها وأخذته، وشربت نفسين، وأعادت لها "التَّتّ" مرة أخرى.. وأنا فى مكانى أراقب كل هذا، وأتقلب على الكرسى.. وأفرك.. وفجأة توجهت إلى المطبخ، وأحضرت طبقا صغيرا، ولم يكن أحد يعنيه أو يهتم بما أفعله.. وأخرجت الحشيش من جيبى، وكسّرت أكثر من سيجارة، ونقيت الحشيشة مستخدما "الفويل" من علبة السجائر، وعندما أمسكت الولاعة.. انتبه الكل، وبدأ التركيز فيما أفعله، وسألتنى مارلا:

- ده حشيش؟! حشيش مصرى؟!

أجبت بهزة صغيرة من رأسى بمعنى الإيجاب.. وكأننى قلت لهم إنى معى كنز على بابا.. وفورا التفت البنات حولى يشاهدن ما أفعله وكأننى الساحر العجيب.. أشعلت الفويل، وطلبت من مارلا أن تشم الدخان المتصاعد من

---

[*] ما يطلق على سيجارة ماريجوانا صغيرة ملفوفة.

الفويل.. وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب.. وبدأت ألف ثلاث "جُوينتات" أخرى، وطلبت من مارلا إحضار كوب زجاجى، فأسرعت بإحضاره، وعندما سألت عن قطعة كرتون لأعمل لهم "خابور"[1] كبير، لم تفهم مارلا أو صديقتها ما السر فى كلّ هذا الذى أطلبه.. وبقى شىء صغير جدًا.. دبوس.. وأحضرت الدبوس من غرفة مارلا، وأعددت "الكوباية".. والبنات تتأمل الساحر فى ذهول.. والساحر جاء من بلد الفراعنة.. كان ما يحدث شيئًا مذهلاً بالنسبة لهن فعلاً.

"ولّعت" الخابور، وأخذت نفسًا، وكتمته طبعًا، والثانى وكتمته أيضًا، وأعطيت الكوب لمارلا قائلاً لها:

– خدى نفسين، وادّيها اللّى جنبك.. وامسكى الكوبّايه صحّ علشان الدخان ما يطلعش برّه.

وبدأت ألف الجُوينتات للمرة الثانية.. والبنات تنظر إلى هذا المصرى بإعجاب شديد.. كأنّنى الساحر "ديفيد كوبرفيلد"[2].. الحشيش أفقد البنات صوابهن.. "جنّنهم وجنّدهم" لخدمتى، وبعد أن شربنا "الجُوينتات"، و"الخابور"، أسرعنا إلى حمام السباحة.. "عُمْنَا" وضحكنا، وشربنا البيرة، وعندما سألتنى مارلا:

– معاك حشيش تانى؟

– طبعًا معايا.. فى البيت.

جاءت معى إلى البيت، وأحضرت الحشيش ورجعنا إلى منزل مارلا، وقضيت ليلتى معها، وعندما استيقظنا حوالى العاشرة صباحًا، فضّلنا ألا نتحرك من السرير، وقضينا النهار فى لف السجائر، وبدأت أحاور نفسى:

– يا نهار أبيض على دا يوم!! من يصدق أننى فى السرير منذ الحادية عشرة صباحًا، حتى الساعة الخامسة مساء!! يوم صعب فعلاً.. كان هذا هو اليوم

---

[1] قطعة حشيش كالمسمار يتم وضعها فى الكوب.

[2] ساحر مشهور.

الثالث لى فى أمريكا، ومنذ ذلك اليوم، أصبحت صديقات مارلا شِلّتى، وهى شخصيًا كانت تقضى ليلة فى بيتى، والليلة التالية أقضيها فى بيتها، مع صديقاتها، وأصدق وصفٍ لها: صاروخ، وضربِّية نمرة واحد.. وذات ليلة أخذتنى عند أصدقاء لها، وكانت أول مرة فى حياتى أرى فيها الكوكايين.. تلْج أبيض.. وأول مرة أيضًا أشم هذا الكيف، وسألتنى مارلا:

- شدّيت قبل كِدَه؟

- كُوك؟! لأ.. أول مرة أشوفه.

- تشد خطين.. هيعْجبك جدًا.. إحنا بنشد مرتين.. تلاتة فى الشهر؛ علشان ما نتْعَوّدش عليه.

رنت الجملة فى دماغى، ولست أدرى لذلك سببًا، وقال لى إحساسى إن وراءها شيئًا ما مهما.. لكن ما هذا الشيء؟! لست أدرى.. وخلال أيام قليلة، استطاعت مارلا وصديقاتها شرب 90% من الحشيش.. ولكننى استطعت ادخار قطعة حشيش صغيرة، فمن يدرى كيف ومتى أحتاجها، وفى هذه الليلة قلْتُ لها:

- عندى لك مفاجأة.. بصِّى.. نُص قرش.

فى تلك اللحظة.. تذكرت تلاميذ فصل ثالثة ثانوى علمى، وواقعة الأستاذ عطية، عندما سألنى عن سبب وجودى فوق سطح المدرسة، ومع مَنْ، ولم أصرح بأسماء أصدقائى.. يومها سمعت صيحة بعضهم التى تدوّى فى أذنى للآن "رجولة يا ملك النص".. لقد اشتهرت باسم "صاصُو ملك النُص"، فقد كنت دائما أخفى نُص قرش، وأخرجه للأصدقاء فى اللحظة المناسبة.. لحظة يعتقد فيها الجميع أننا لا نملك المزيد من الحشيش، وفجأة أُظهر ما عندى، فيصبح أجمل مفاجأة.. المفاجأة كانت قوية، هللت مارلا من الفرحة، وصاحت:

- يا إبْن الأبالسة.

- دى آخر حتّه معايا.. أنا كنت شايلْها علشانك، وعاملها لك مفاجأة، وحسِّيت إن ده وقْتها.

فورا.. انقلب الموقف لصالح النُص قرّش حشيش، وكل أصحابها نسيوا الكوكايين، واهتموا جدًا بوجود الحشيش.

أبهرتهم فكرة إني مصرى.. شكلي مقبول.. مظهرى أنيق.. اتحدث لغتهم بطلاقة.. دمي خفيف.. ومعي فلوس كثيرة.. والأهم "ضرَيب" مخدرات "نمرة واحد"، ومعي شيء نادر.. معي حشيش من مصر.. وهناك في أمريكا، لم يكن الحشيش متوافرًا، وغالي الثمن جدًا.. بالتالي اقتحمت واندمجت مع شلة الأصدقاء الأمريكية الجديدة، وأصبح صاصُو المصرى، أشهر من نار على علم، وقضينا معا أحلى السهرات، و أجمل الحفلات.

وفي تلك الأيام، تحدد موعد زيارة والدى لمكتب استشارى هندسي في نيويورك.. وهنا خطرت لي فكرة خطيرة ومرعبة، ولم أتردد في تنفيذها، وكلّمت ريكو في التليفون.

- يا ريكو إنت وحشتني أوى، وكان نفسي تكون معايا في الفيلم اللي أنا فيه.. أنا مبسوط أوى، وصاحبت واحدة أمريكية.. بنت العم سام شخصيا، والضرب إيه.. مُترِج.. وجربت الكوكايين كمان.. بس ما فهمتوش، متهيألي هيطلع حلو لو ركّزت معاه شوية.. لما أرجع هنا احكي لك كل حاجة.

- إنت راجع إمتى؟

- والله يا رامي مش عارف.. أنا هنا مبسوط ومش عايز ارجع، أنا رُحت حفلة لايف "دايرستريتس"*، ومفيش واحد في الكونسرت ما بيضربش يا معلم.. الجوينتات رايحة جاية.. تصوّر مرة وصلت إن معايا جوينت في إيدى اليمين، وتنين في الشمال، وواحدة واقفة جانبي بتمسي عليّ بجوينت تالت، الخير كتير يا معلّم.. وبعدين خلي بالك.. الماريجوانا مرعبة.. بنت "....." بتلوّخ يا ريكو.. مش بتسطل.

---

* فريق غنائي مشهور.

- چوينتات.. تُقَّات ماريجوانا، كوكايين، دايرستريتس: إيه ده كله يا صاصو.. دا ناس عايشة!

- باقول لك إيه يا ريكو.. إنت جدع وصاحبى.. وكريم جدا.. وأقدر أعتمد عليك.. وعايز منك خدمة جامدة".....

- ها.. عايز إيه، ربنا يستر؟

- أبويا جاى أمريكا بَعْد أسبوع.. وأنا عايز حشيش.

- إزاى يا ابنى؟ أنت مجنون!!

- ركّز معايا يا ريكو.

- طَيِّب قُول.

- تنزل تشترى حِتَّة محترمة.. يعنى وقية مثلا.

- وقية؟!!

- والّلا أقول لك يا ريكو.. خليها قَرْشَة*.

- ولو أبوك إتْمَسك؟!

- إسمع لغاية الآخر.

- حاضر.. قُول.

- تروح كُوم السمَن عند حجاج.. هو مرة فرّجنى قرشة ملفوفة بشاش أبيض.. تشتريها منه زىّ ما هىّ.. وادفع له أى حاجة، وقل له صلاح مسافر، ولما يرْجع هييجى يحسبك.. حجاج جدع وبيحبنى، وأنا متأكد إنه هيديها لك.. ما كنش حاسبه.. اتفقنا يا ريكو؟!

- ماشى.. أول مُشكلة إتْحلّت.. المُهم بَابَاك.

- هتكلّمه وتسأله حضرتك مسافر إمتى، وتعرف منه الميعاد بالظّبط، وتروح له وهو نازل على المطار.. لأ.. أقول لك عندى فكرة أحسن.. قل له أنا جاى أدّى لك حاجات صلاح طلبها منى، وأوصّل حضرتك المطار.. أصل أنا عايز أخذ

---

* قطعة حشيش ضخمة.

رأى حضرتك فى موضوع مُهم.. أبويا كده إتثبّت، وأخويا خلع من التوصيلة.. خطة بنت "....." إنجز يا ريكو.

- ماشى.. مع إنه مشوار زخم، بس هدّيلة الحشيشة إزاى؟ إنت يا صاصو باين عليك اتجننت خلاص.. إنت قلت لى ضربت كوكايين؟! عليه العوض ومنه العوض.

- اسمعنى يا رامى.. الخطة ماشية زى الفل.. أنت تروح خان الخليلى عند مُهاب بوبو فى المحل، وهات من عنده شوية حاجات فرعونى، مثلا ورق بردى على كام بُوستر للهرم، وعلبة فرعونية كبيرة تحط فيها الفرشة، وكل ده فى كيس بلاستك تقفله كويس، واطمن، بابا معودنا محدش يفتح حاجة مش بتاعته، وعمره ما هيفتح الشنطة دى.

- وبعدين؟

- نقول لبابا إن دى هدايا تذكارية فرعونية، طلبها صلاح لأصحابه فى أمريكا.. وصفّر الحكم.

- يا نهار أسود!!! يا ابنى لو إتمسك؟!

- يتمسك إيه يا أهبل؟! أبويا فى رحلة عمل مُهمة، وبعدين معقول يفتشوا راجل محترم معاه هدايا فرعونية ورسوم هندسية.. لعلمك شنطة أبويا كلها دراسات، أوراق ورسومات وخطط.. ما انت عارف.

- يا صلاح.. اللى انت بتقوله ده خطر جدًا، ومش هزار!!

- ريكو.. إعمل اللى قلت لك عليه، ومالكش دعوة.

وقد كان، نفذ رامى التعليمات بالحرف الواحد.. وشعرت بالمصيبة الكبرى لما رامى كلمنى، وحكى لى أن بابا فكر يمسك الشنطة البلاستك فى إيده، إنما من حسن الحظ وجدها تقيلة، فقرر وضعها فى شنطة الملابس.. وسيطرت علىّ كل الأفكار السوداء، وأدركت حجم المصيبة الكبرى، بعد أن عرفت أن الوالد سافر، وهو الآن فى الطائرة فوق السحاب.

لم تكن المشكلة عند خروجه من مصر؛ لأن الحقائب لا تفتح في مصر عند السفر، ولكنها تفتح ويتم تفتيشها ومعرفة ما فيها عند دخوله البلد الذي يسافر إليه.

قضيت ساعات طويلة في حالة ندم، وخوف.. بل رعب.. ماذا فعلت؟ كيف أقدمت على هذا التصرف البشع؟ ولم أنم.. كيف أنام؟ وكنت على وشك البكاء.. وتمنيت أن أبكي.. وأبكي.. وقضيت الليل بطوله أشرب مخدرات.. لكن دون سُطَل.. مأساة بما تحمله الكلمة من معانٍ.

وأخيرًا، والحمد لله وصل الوالد نيويورك، وكلَّمني:

- ألو.. إزيك يا صلاح؟

- بابا.. أيوه يا بابا حمدُ لله على السلامة.

- مالْ صُوتَكْ يا صلاح؟! فيه حاجة؟!

- لأ.. لأ.. خالص، أصلي لسَّه صاحي من النوم.. إنتَ فين يا بابا؟

- أنا في الأوتيل.

- يا سلام .. نوَّرْت أمريكا كلّها يا بابا.

- أخبارك إيه؟ مبْسوط؟ عَجَبتكْ أمريكا؟

- عجبتني يا بابا.. المهم قُلْ لي أشوفك إمتى؟ واحشْني جدًّا.

- واحشَكْ بَرْضهُ.. والَّلا فلوسك خِلْصِيت؟

- واحشْني طبعًا.. إنما دا ما يمْنعْش أن فلوسي خلصت.. أنتَ عارف يا بابا أمريكا، والفسح، والكُونسيرتس، واللّبس، وبعدين أمريكا غالية.

- أنا حاقْضي أسبوع في نيويورك، وبعدين أروح واشنطن لمدة أسبوع أو أكتر شويَّة.. تعالى لي نيويورك أو تعالى لي واشنطن.

- باقول لك إيه يا بابا.. أنت اللّي لازمْ تيجي لي هنا، علشان أفرّجكْ على البلد دي.. حتعْجبك جدًا.. المسافة بسيطة، تلات ساعات بالأتوبيس.. تقضّي معايا اليوم، وتِرْجَع آخر الليل.

- طيِّب أشوف.. احتمال أجي مع مازن ابن خالتك.. هو كمان نفسه يشوفك.

وفورًا.. كلّمت رامي ليطمئن قلبهُ.. وبفرحة قلت له:

- يا ريكو، الشيكولاته وصلت نيويورك.. بس تعلَمْ أنا أعصابي باظت، عشتُ أصعب 12 ساعة في حياتي.

- أنا عمري ماهعمل كده تاني.. دا أنا سبت أبوك من هنا، وجالي دور إسهال غريب.. الحمد لله ربّنا ستر.

- صحيح يا ريكو، هو إيه الموضوع المهم اللي أنت كُنت عايز تكلم أبويا فيه؟

- قلت له يشغلني في مشروع من مشاريعه الهندسية.. ويارتني ما قلتُ له، لأنه حطني في دماغه، ووعدني يفكر جديًا في الموضوع.. المهم إنتَ معاك فرشة حشيش مش أيّ كلام.. دا أنت ممكن تخربها يامعلم.. وعلى فكرة حجاج مرْضاش ياخد ولا مليم، وقال لي لما ترْجع بالسّلامة تحاسبه.

- رُجولة يا حجاج.

بعد يومين وصل بابا ومعه مازن، وانتظرته على المحطة بعربية مارلا.. ومنذ اللحظة الأولى لهذا اللقاء الفريد، ظلت عيْناي معلقتين على الكيس البلاستيك، وفتحت للوالد ذراعي، واستقبلته بترحاب كبير قائلاً:

- حمد لله على السلامة.. "وبعد بوستين".. هات الشنطة يا بابا، تعبتك معايا.. ازيك يا مازن؟ عامل إيه يا صاحبي؟

- تمام، إنتَ أخبارك إيه هنا في أتلانتك؟ بصحيح عرفت تختار.

وتساءل الوالد:

- إيه كل الهدايا دي؟ هو إنتَ لحقت تعمل أصحاب كتير كده؟

- يا بابا البلد دي صغيرة، ولعلمك نصّها دلوقت أصحابي.

- إنت قاعد فين، وبتعمل إيه؟ وعربية مين دي؟

- أنا أخدت شقة. حالًا أفرّجك عليها، وباشتغل في جراج متخصص في تركيب إكسسوارات العربيات، أروّح براحتي وأمشي براحتي، والحساب بالساعة.. بيدفعوا لي خمسة دولار في الساعة.

- لا.. لا.. أنا مش عاوزك تشتغل.. أنا عاوزك تتفسح، وتلف وتتفرج وتتعلم، وتشوف الناس دي عايشة إزاي، وبالنسبة للفلوس أنا أدّي لك اللي بتاخده في الشغل وزيادة.. ودي عربية مين؟

- عربية واحدة صاحبتي اسمها مارلا.

سألني مازن مندهشًا:

- عرفتها إمتى دي يا صلاح علشان تديك عربيتها؟ دا إنت هنا من أسبوعين تلاتة بس!!

- إنت عارف يا مازن.. أنا باخد على الناس بسرعة.

وصلنا إلى البيت وشقتي في الدور الأول..

- هي صحيح شقة صغيرة، إنما دمها خفيف.. اتفضلوا.

فتحت التليفزيون وأسرعت إلى غرفتي حاملاً الكيس البلاستك لأرى "الفرشة".. حقًا إنها "فرشة" محترمة..

يا جمالك يا بابا.. ورجعت له وغطيته بالقبلات، وسألته:

- تشربوا إيه؟

رد الوالد:

- ولا أي حاجة خالص.. تعالى ننزل علشان أشوف البلد دي فيها إيه.

- وانت يا مازن؟

- خلينا نشرب في الكازينو.

- يالّلا بينا.. البلد دي يا مازن فيها بحر، وقمار، وبنات صواريخ أرض جو.. تعالوا بينا على الكازينو نتفرج ونلعب شوية.

أخذت بابا ومازن ونزلنا على الكازينو.. طبعًا الكازينو بالنسبة لهما شيء جديد ومرعب.. أدوار طويلة عريضة، موائد قمار، وأنوار قوية، وأخرى خافتة، وبنات، وشرب.. ولما دخلنا الكازينو، ارتسم الذهول على وجهيهما.. فبادرتهما قائلاً:

- دا كازينو كبير، بس فيه أكبر منه.. في "أتلانتيك سيتي" حوالي عشرة غيره.. كل كازينو يملك الأوتيل الخاص به، يعني فُندق في كازينو، وفي كل واحد تلات أو أربع أدوار قمار، وشغّال أربع وعشرين ساعة، مقسّمة بين المكن والرُّوليت والكوتشينة وكل حاجة.. تحبُّوا تلْعبوا بلاك جاك؟

قال بابا بحدة:

- نلعب؟! عيب يا صلاح!!
- ليه لأ.. نجرّبْ يا أنكل.
- يعني هزار كدا يا بابا.. يا سيدي جرّب.. ما ينفعش تيجي "أتْلانتيك سيتي" وما تلْعبْش.. تبقى غلْطان.
- طيب كل واحد يلعب بعشرين دولار بس، ولو خسرها ما يلْعبْش مرة تانية.
- خلّيها مائة دولار يا أنكل.. عشرين دولار ما يعْملُوش حاجة.
- خُد أربعين دولار يا مازن.. وإنتَ يا صلاح أربعين دولار.. كفاية.
- طيب، أستأْذن ربع ساعة، أحبّ الأول ألف أتفرّج على اللعب قبل ما ألعب.

في تلك الفترة كنت في التاسعة عشرة من عمري، ولكنني عملت بطاقة هوية مؤقتة ومزيفة في سن الحادية والعشرين، حتى أتمكن من اللعب في الكازينو.

وضعت الأربعين "دولار" في المحفظة، وتوجّهت إلى الكاشير، وأعطيته مائتي دولار، وأخذت الفيشات لألعب بلاك جاك.. لعبة كنت أحبها، وألعبها بمهارة، و في هذا اليوم، كان حظي في اللعبة عاليًا جدًا.

وجدت سيدة عمرها حوالى ثلاثين سنة، ومعها رجلان أحدهما فى حوالى الخمسين، والثانى أصغر منه بعشر سنوات تقريبًا، والثلاثة يجلسون حول المائدة، واستأذنتُ أن أدخل وألعب.. وبدأنا اللعب، وكان حظى مدهشًا.. فى أول دورين كسبت وأصبح معى 350 "دولار".. أنا كسبت، وهم خسروا.. وانسحب الرجل الذى فى الأربعين، ثم انسحبت السيدة وراءه.. وكلما يأتى أحد الأشخاص يطلب اللعب، أرفض.. وظللت ألعب مع الرجل الكبير لمدة ربع ساعة، وانسحب هو الآخر، وظللت وحدى ووصلت إلى مكسب 700 "دولار".. جاء أكثر من شخص، وطلب اللعب على الطاولة نفسها، فأعتذر، فوقفوا حولى للمشاهدة، وتجمع أكثر من عشرة أشخاص، خلال نصف ساعة وصل مكسبى إلى 1100 "دولار"، حتى جاء المشرف وغيَّر "الدِّيلر"*، وأحضر آخر بدلاً منه.

من بعيد لمحت بابا وبجانبه مازن، فناديت جرسونة، ودفعت لها ثمن كأسين "ويسكى كولا".. وبعد لحظة وجدتهما يقفان خلفى، وهما فى حالة ذهول، ولا أحد منهما يفهم أى شىء فى أى شىء.. طبعا الوالد رفض اللعب نهائيًا، وخسر مازن بعد نصف ساعة الأربعين "دولار".. وبدأ البحث عنى، واكتشفا مكانى عندما ذهبت إليهما الجرسونة، وقدمت لهما الكأسين، وأشارت إلىَّ.. ولم أترك مقعدى.. رفعت يدى لهما بالتحية، فأسرعا بالوصول، وسألنى الوالد:

– إنتَ بتعمل إيه؟

– بألعب بلاك جاك وكِسْبان أكتر من ألف دولار.

فتساءل مازن مندهشًا:

– هى الناس واقفة كده ليه يا صلاح؟

– أصل أنا مش راضى حد يلعب على الترابيزة معايا.. فوقفوا يتفرجوا.

فقال بابا آمرًا:

– ياللاَّ بينا يا صلاح.. كفاية كده.

---

* الذى يلعب أمام العملاء.

- بأقول لك ايه يا بابا.. أنا حظى ماشى جدًا النهارده، ومش ممكن أقوم.. من فضلك سيبنى أركز الدور ده.

تركت الكازينو ومعى 1400 دولار، والذهول يرسم علاماته على وجهى بابا ومازن.. وبغضب قال والدى:

- إنتَ لازم تمشى من البلد دى فورًا.. ايه الصَّياعة والضياع ده؟!!

- سيبك إنتَ.. شُفت البنات يا مازن.. كل واحدة أحلى من التانية، وتقريبًا من غير هدوم، والكل مبتسم وسعيد.. يعنى مفيش أحلى من كده.

قضى بابا ومازن اليوم معى.. أخذتهما إلى البحر، مشينا واستمتعنا بالجولة، وحاولت دعوتهما إلى تناول وجبة الغداء فى أجمل مكان.. عندى وفرة فى المال، فقد كسبت مبلغًا محترمًا، ولكن الوالد رفض بإصرار قائلاً:

- دى فلوس حرام.

- ما تفتكرش يا بابا إنى بلعب كتير، دى أول مرة ألعب وأكسب فلوس كتيرة كده، وشك حلو.. وأعلمك أنا مش ها ألعب تانى، لأنى لو لعبت هاخسر كل اللى كسبته.

فسألنى والدى:

- إنتَ هترْجع مصر إمتى؟ لازم ترجع قبل بداية العام الدراسى.. سامع والّلا لأ؟! ما تعملش زى رحلة ألمانيا.

- طبعًا يا بابا ها ارجع قبل ما الجامعة تبدأ.. إيدك على ألف دولار، علشان فلوسى قربت تخلص.. الـ 1400 دولار، دول مال حرام، وده ما بيدومش.. لكن الألف دولار بتاعتك مال حلال، الدولار.. دولار.

بعد سفر بابا ومازن، رجعت إلى البيت وفتحت "قرشة" الحشيش التى وصلتنى مع الوالد منذ ساعات، وبدأت أفكر:

- يا سلام على الجمال.. دى كبيرة أوى.. أعمل بيها ايه؟ لا.. لا.. أحسن حل لها أقطعها وأبيعها رايح، رايح.. فعلا حل ممتاز، يعمل لى مبلغ محترم، فأعرف

أدفع الإيجار بسهولة، وأعيش وانبسط.. أحشش زى ما أنا عايز، وأروح "الكُونسِرتس".. هو ده الكلام.

إذًا بلا تردد أكلم مارلا، وأطلب منها سرعة الحضور، فالموضوع مهم جدًا، وكلمتها:

- يا مارلا، أنا وَصلنى حشيش من مصر.

وعندما عرفت مارلا بقصة وصول الحشيش مع الوالد، أصابها الذهول.. لم تصدق كيف جرؤت على هذا العمل.. وحقيقة أنا شخصيًا لم أكن أصدق أننى قمت بهذا العمل البشع.. منتهى الجُرأة والتبجح.. وحاولت أن أنسى أو أتناسى ما حدث.

وطبعًا مارلا كانت أسعد واحدة فى الدنيا.. وَداعًا للعمل والكفاح، وحفلات كل يومين أو ثلاثة، وحشيش كما يحلو لنا، وكنا نبيع لأصحابها الرُّبع بعشرين "دولار".. طبعًا.. إنه حشيش من مصر.. يساوى ما نطلبه وأكثر.. حققنا مبلغا كبيرًا من هذه "الفرشة".. وتَخرّ.. أنفقناه على الأكل وشرب البيرة والويسكي والسفر والحفلات، ومن حين إلى آخر كنا نشترى كوكايين، ونَشُدُّ خطين، وبدأت أحبه وأفهمه.. والخاطر الذى سيطر على كل أفكارى، ألا أعود إلى مصر، واتصلت بأهلى فى شهر أكتوبر، وقلت لبابا وماما إننى قررت الحياة فى أمريكا، وأن أكمل تعليمى فى إحدى الجامعات.. ولم يحدث.. لم أقدم لجامعة من الجامعات، ولم أعد لبلادى.

وجاء شهر مارس، وتلقيت رسالة من أمى، وعرفت أنها ستجرى عملية خطيرة فى لندن، وطلبت منى سرعة العودة لتراني قبل سفرها، واتصلت بها فورًا، وشعرت بقلقها الكبير.. كانت تخشى أن تودع الحياة قبل أن ترانى.. بمجرد أن وضعت سماعة التليفون، أخذت قرار العودة إلى وطنى فورًا، و...

وقد كان، عدت بعد أسبوع من تلك المُحادثة التليفونية.

7

الغرزة

عدت ومعي هدايا لكل أصحابي.. وشنطة كاملة بها ملابس أنيقة جدًا لصديقتي راندا.. كل ما تتمناه فتاة جميلة في سنها. بنطلونات.. أحذية و"بوتس".. كل شيء آخر صيحة، وغاية في الأناقة.. وبسرعة مذهلة تطورت علاقتي مع راندا، حقًا أحببتها، وهي أيضا أحبتني. وقد استطاعت الالتحاق بكلية من كليات القمة، ولم أكن سعيدا بهذا نهائيًا، فقد كان زملاؤها الطلبة في نظري "عيال خنافس" يملؤهم الغرور، وكنت أخشى أن يدير أحد منهم رأسها، فكان من المهم أن أحتويها تماما. أما مريم فمازالت صغيرة، وأصبحت في سنة ثانية ثانوى.

أول ما شغلني هو الاطمئنان على أصحابي.. وكان أول خبر أزعجني كثيرا، أن بونو بدأ يأخذ البودرة بانتظام، وبكثرة.. ولم يكن هذا الحال يعجب ميدو، وزوني أيضا؛ خاصة عندما يختفي، وقد أطلقنا عليه بونو الطائر؛ نسبة إلى مسلسل "أحلام الفتى الطائر" للفنان عادل إمام.

رامي لم يتغير.. يقضي يومه في النادي حاملا جيتاره.. وأحيانًا في الجيم، ويوم في الغرزة، ويوم مع ميدو.. بالنسبة لي شخصيًا، حصل خلخلة في دماغي بسبب رحلة أمريكا.. مخدرات جديدة، وماريا وحفلات الروك.. أصبت بحالة عدم توازن لفترة، ولم أكن أستطيع التركيز في المذاكرة، ولم أحضر محاضرة واحدة، والنتيجة الطبيعية لهذا كله سقوط مدو في ثماني مواد من عشر.. ونجحت في مادتين بالصدفة البحتة؛ فقد كنت أملك الفرصة للغش، ومع هذا لم أستطع؛ ليس فقط لأنني لم أذاكر، بل لأنني لم أفتح الكتب، ولم أكن أعرف المنهج.

وظهرت النتائج للكل:

- ريكو سقط وفصل من الكلية.
- ميدو سقط، وزوني نجح.. وكأن ميدو سقط حتى يصبح فى الصف نفسه مع زوني.
- بونو نجح بمعجزة، ولكن بمادتين.

واستمرت الحياة بالأسلوب نفسه.. لم نذهب للجامعة، وقضينا أوقاتنا ما بين الشرب، "الغرز"، والسهر.. بالإضافة إلى اهتمامي الخاص بصديقتي راندا.

في تلك الأيام، كانت الغرز موضة، وكنا نفضل الانتقال من غُرزة إلى أخرى، وكنا نحب تجربة أي غرزة جديدة.. وكان من بين أصدقائي، جار أحبه اسمه: شريف، وهو من عائلة كريمة، والده رجل أعمال مشهور، ووالدته سيدة فاضلة، وكان معروفا عن شريف حبه وغرامه للمخدرات، بكل أنواعها، مظهره خادع، فهو وسيم وأنيق، ولا يخطر فى بال أحد أنه من الكوارث المتحركة.. شريف قاموس معلومات وصاحب خبرة عالية في عالم المخدرات والغرز، وكان صديق جميع الشباب، والعجب العجاب أنه كان يعشق غرزة فى القناطر، فكان دائما يصطحبني إلى هناك.

في غرزة القناطر، معظم الذين يقومون بتغيير الحجر، ووضع الفحم "قرود" مدربة على ذلك، وكل ما يحدث فى ذلك المكان شيء مبهر بالنسبة لي.. ولاحظت أن كم البشر الذي يذهب إلى هناك غير طبيعي.. يذهبون للفرجة، والشرب و"عمل دماغ"، وهم يشاهدون "القرود" وهي تتحرك أمام المساطيل وتقوم بخدمتهم.. إنها تجربة دون أدنى شك فريدة من نوعها.. وكانت المشكلة صعوبة التفاهم مع "القرود"، بمعنى لو الحجر به خطأ ما، أو الجوزة ليست كما يجب، فلن أجد سبيلاً للتفاهم معهم.. وعندما يبدأ السطل يتملكني الخوف، فشكل

"القرود" غير مريح وتصرفاتهم بالطبع غير عادية؛ فأقرر أن أمشي وأبحث عن غرزة أخرى.. وأقول له:

- يااللا يا عم شريف، شوف لنا غرزة تانية.

وكان شريف يعرف غفير إحدى مقابر الأجانب.. وبعد دفع المعلوم، يسمح لنا بالدخول إلى الغرزة، داخل المقابر، ولم تكن هناك كراسي تكفي العدد كله، ففي بعض الأوقات كنا نضطر إلى الجلوس على المقبرة نفسها.. الأشجار كانت كثيفة في هذا المكان، وكانت السبب في هذا الظلام الدامس الذي يكسره "لمبة" الجاز، وعواميد الإنارة التي في الشارع.. من هنا كنا نرى بصعوبة ما يحدث حولنا.

في بداية الأمر، لا أشعر بالخوف، ولكن بمجرد أن أشرب "كام" حجر، يبدأ تأثير السطل والحشيش، ويتملكني الشعور بالخوف؛ فالحشيش مخدر "جبان"، ويسيطر الرعب على كل خلية في جسمي، وأجلس في حالة ذعر من العفاريت، وأيضاً يتملكني إحساس طاغ بأن هناك من يتحرك من حولي، ويخطط لزيارة مفاجئة لإحدى المقابر، وبالأخص للمقبرة التي أجلس فوقها.. وبعد أن ذهبت مرتين، قررت عدم الذهاب إلى هذا المكان، ولكن هذا لا يمنع من أن أذهب إلى غرز أخرى.. وهكذا تعلمت الغرز من خلال شريف، وأصبحت أتردد عليها بصفة مستمرة.

مرت الأيام، ومن جديد ظهر صديقي عاطف.. فقد ظهر مرة أخرى بعد "كبسة" الوالد والوالدة.. حقيقة هو إنسان لطيف، مؤدب، ومحترم، وتشعر أنه دخل في عملية الضرب صدفة، أو خطأ.. المهم كنت أخرج كثيراً مع عاطف، صاحب الملامح الأجنبية، وجواز السفر الأجنبي.. وفي ذات يوم قررنا "نحشش" في غرزة في مصر القديمة، وبدقة أكثر في مدافن مصر القديمة.. المكان عبارة عن حوش واسع، به أكثر من عشرين شخصاً، والغريب أنه رغم أن المكان موحش جداً، إلا أنه مليء بالناس، والزحام غير معقول.. وكل ثلاثة شباب يهتم

يخدمنهم فتى معه جوزة و"ولعة"، ودرج مليء بالحجر.. هؤلاء الفتيان غاية فى المهارة والسرعة، يعنى الحجر والذى يليه، وكل شىء يتم فى سرعة وإتقان المحترف، حتى لا يشعر الزبون بالملل.. وطوال الجلسة لا نتوقف عن الضحك والسخرية من كل شيء، وعند دخولنا المكان نتلقى التحية من الموجودين بين نداءات مختلفة:

– حجرين هنا من المعلم فتوح.

– حجرين هنا للبهوات من الأسطى غريب.

– والمعلم حبيش بيمسّي على الشباب بدُرْج*.

– خفْ إيدك "ياله" وغير الميه، وظبط نفسك، دا البهوات غاليين علينا.

كنا صغار السن فى العشرين من عمرنا.. مظهرنا وشكلنا يؤكد أننا أولاد ناس طيبين، طبعًا.. شباب زى الفل وفى عمر الورود، ومعهم سيارتهم، والبيرة فى إيديهم، ويشركوا أى عزازة.. فكانت الناس تحب تسلم "وتمسّى" علينا، وفجأة تذكرت موعدي مع راندا، فقفزت من مكانى قائلاً:

– ضرورى أقابل راندا.. ربع ساعة رايح، وربع راجع، وأقعد معاها نص ساعة، وأرجع لك على طول، يعنى ساعة بالكتير.. واطمن ها اوصى عليك المعلم.

– يا معلم حبيش، خلى بالك من عاطف، وعايز لما أرجع ألاقيه مخاصم نفسهُ.

– دُرْج لعاطف بيه بسرعة يا وله.

– إيه ده يا معلم؟! عاطف كده هيْخاصم الدنيا!

– يا صلاح بيه اطمن.. عاطف بيه فى عنينا.. ستة أفيون ويبقى فى الجون.

– ماشى يا معلم.. ساعة وارْجع لكم.

– بسرعة هات حجر لصلاح بيه علشان الطريق.. مد رجلك شوية.

---

* صندوق وبه 12 حجرا فى المتوسط.

إحساسنا بالأبهة وكلمة البهوية، كان يبهجنا، ويجعلنا نحب جداً الجلوس في تلك الأماكن الغريبة.. أخذت الحجر، وطرت لمقابلة راندا، وكما وعدت ربع ساعة في الطريق، ونصف ساعة معها، وربع ساعة في رحلة العودة. أخرجت علبة السجائر، وأخذت منها سيجارة ملفوفة، وقررت أشربها بعد أن قضيت نصف ساعة مع راندا، ظلت خلالها تحدثني عن مشاريع الزواج والمستقبل وحبنا، وظللت أنا أتأملها، وتمنيت أن أقول لها: بس.. كفاية يا راندا.. ولم أقلها، وأفلتُ منها بحجة الذهاب للمطار لاستقبال أمي ورولا.. وكل ما أذكره أنني أفقت تماما بسبب حديثها حول مشاريع الحياة.

أشعلت السيجارة، وقبل أن تمر خمس دقائق، عدت إلى السُطح الذي كنت عليه منذ ساعة زمن.. وصلت مصر القديمة.. دخلت المنطقة، ظلام مرعب ولم أجد الغرزة، فقلت محدثا نفسي:

– هو أنا "تُهْت" واللاّ إيه؟ بابن عليّ اتسطلت!!! لأ.. هو المكان.. هو.. والكنب الخشب موجود، وكمان الحجر على الأرض، وادي جوزتين.. بس الناس راحت فين؟

وفجأة ظهر رجل.. أرعبني؛ لأن المكان مظلم ومفيش فيه صريخ ابن يومين، وقال لي:

– إنتَ بتدور على إيه؟ ما الحكومة جتْ هنا وخدتْهم كلهم.. اللي جرى.. جرى.. واللي اتمَسك، اتمسك.

– يا دي المصيبة السُودا.. وعاطف؟

– عاطف مين؟

– عاطف صاحبي!! ده كارثة لو كانوا مسكُوه.. طيب هم خدوهم على فين؟

– أكيد على القسم.

– وفين القسم ده؟

– في آخر الشارع.. بعد الميدان.. جوّه شوية.. عرفْتُه؟!

- آه .. عرفته.

طار صوابي.. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ قررت التوجُّه إلى القسم.. ولم أتردَّد، وهناك سألت أحد أمناء الشرطة:

- هو حصل كبسة على غرزة المعلم حبيش؟

- إنتَ مين؟ وعايز إيه؟

- أصل فيه واحد صاحبي كان هناك، والظاهر إنه اتمسك.

- هو صاحبك الواد الخَنْفِس الأبيضاني، أبو شعر أصفر؟

- أيوه.. هو.. اسمه عاطف.

- عاطف بيه ده مشرفنا في الحجز، وبكره هيتعرض على النيابة.

- يا دي المصيبة السودا.. طيب يا باشا قُلّ لي أعمل إيه والنبي؟

- شوف حد يكلم رئيس المباحث، احتمال يرضى يسيبه.

وكانت الساعة الثانية عشرة.. لمن ألجأ؟ وماذا أقول لمن أكلمه؟ إنها كارثة فعلاً.. وخطرت لي فكرة.. فكرة "سُطْل".. فكرت أدخل أنا شخصيًا لرئيس المباحث وأكلمه في الموضوع.. وفورًا نفذت الفكرة.. وتوجهت إلى مكتب رئيس المباحث، وسألت العسكري الذي يقف أمام مكتبه:

- رئيس المباحث موجود؟!

- نقُولهُ مين؟

- قُلْ لهُ صلاح.. قريب عاطف اللّى فى الحَجْز.

دخل العسكري، ورجع بعد ثوانٍ، وقال لي:

- اتفضل.. أدخل.

دخلت.. وقلت:

- مساء الخير يا افندم.. أنا عرفت إن عاطف قريبى هنا فى القسم.. فجيت أشوف فيه إيه.

- عاطف.. اللى شعْرهُ أصفر؟

- أيوه يا افندم.

وسكت الضابط عن الكلام لمدة عشرين ثانية، وفجأة سألني:

- إنتَ كنت معاه هناك وهربت واللاَّ إيه؟

- لأ يا افندم.. ماهْربتش ولا حاجة.

سكت الضابط مرة ثانية.. ثم قال:

- إسمع لمّا أقول لك.. أنا ها اسيبك خمس دقائق واقف كده، تفكّر فيها وتقول الحقيقة، واللاّ أنزلك الحجز تحت معاه.. لو قلت الحقيقة وصدقتك، احتمال أسيبكُم تروحوا إنتم الاثنين.. إنتَ في كلية إيه؟

- تجارة خارجية يا افندم.

- فين بطاقتك؟!

- مش معايا.

- وكمان مش معاك بطاقة.. دا إنت قلّة.. خمس دقائق، ونشوف حكايتك إيه.

ومرت الدقائق ببطء رهيب.. كأنها خمس سنوات، إنني في موقف بائس.. لماذا جئت هنا؟! وفي تلك الدقائق الرهيبة دخل عسكري ومعه حرامي.. وفي ثوانٍ معدودة، ضربه الضابط قلمين، وأصدر تعليماته قائلاً:

- ارموه في الحجز.

ثم تلقى محادثة تليفونية، أنهاها بسرعة خاطفة وسألني:

- إنتَ قُلت لي اسمك إيه؟

- اسمي صلاح يا افندم .

- الثُلاثي يا حبيبي!!

- صلاح "......".

- ساكن فين يا صلاح؟

- الزمالك يا افندم.

- يالله.. سمعني حكايتك.

- والله يا افندم أنا كنت مع عاطف.

- فين؟! خلصنى!!

- فى الغرزة.. وبعدين كان عندى ميعاد.. رحته، وقلت لعاطف ساعة وارجع لك.. رجعت.. وما لقيتوش.. راجل هناك قال لى إن الحكومة جت وأخدتهم على القسم، فجيت أسأل وأفهم إيه اللى حصل.

- يقرب لك إيه عاطف؟

- صاحبى يا افندم.

- ما أنت فى الأول قلت قريبى.

- هو حضرتك زى قريبى.

وتلقى محادثة تليفونية، وضحك طويلاً مع صديقه، ثم بدأ محادثة ثانية سريعة، ثم ضغط على الجرس.. ودار فى خاطرى بسرعة أنه سيأمر العسكرى بأن يأخذنى إلى الحجز.. ولكنه قال له:

- هات الواد أبو شعر أصفر من الحجز.

وتزاحمت الأفكار والخواطر فى رأسى.. فربما "يصدق" ويفرج عنا فعلاً.. وتمر دقائق صعبة وطويلة، وأشعر أن قدمىّ تؤلماننى ولا تقويان على حملى، ولا أستطيع أن أتنفس.. وجاء عاطف، وعندما رآنى أصابه الذهول وسألنى:

- إنت إيه اللى جابك هنا؟

فبادره الضابط سائلاً:

- إنت تعرفه؟

- أيوه يا افندم .. دا صلاح صاحبى.

- وكان فين صاحبك دا لمّا أنت إتمسكت؟

- ماكانش موجود.

- يعنى.. كان فين؟!

– كان عندهُ ميعاد، وبعد الميعاد كان هَيرْجَع يَاخُدني.

– ماشي.. اسمعوا إنتو الجُوز.. أنا المرة دِي ها امشّيكم، بسْ قسمًا بالله العظيم لو وقعتم في إيدي تاني ما هرْحمْكُم.. شَكْلكوا اولاد ناس ومش وِشْ بَهْدَلة.. بس إنتم حُزَّين.. سَامْعِين وَلاّ مَساطِيل؟

أجبنا نحن الاثنان في صوت واحد:

– سامعين يا افندم.. آخرْ مَرّة.. وعُمْرَك مَا هَتْشوفنا تاني.

قال الضابط لعاطف، وهو يمد يده بجواز سفره:

– الباسبور أهُه.. وإنتَ ما تمشيش أبداً من غير بطاقة، تحُطّها في جيبك.

رددنا بصوت واحدة، مؤكدين:

– حاضرْ يا افندم.. عن إذنك يا افندم.

خرجنا من مكتب ضابط المباحث ونحن لا نُصدّق أنفسنا.. وبصوت عال قلت:

– الحمد لله.. الحمد لله.. الظابط طِلِعْ جدع.. راجل بحَق وحَقِيقي.

– طبعا راجل، بس اُسْكُتْ.. دا انا إتْقلّبت في الحجز، أخدوا كل الفلوس اللي معايا.. أخدوها كلها، والسجائر خلصت في رشّة واحدة.. معاك سجاير؟

– في العَربية.

– يَاللا بينا.. نِغُور من هنا.

ثم قلت لأمين الشرطة:

– سَلام يا باشا.

وأيقنت أن الصِّدْق مُنَجّي فعلاً.

بدأت أتردد كثيرًا على كلية راندا؛ حتى لا يلتف حولها "العيال" هناك، وتقع في شباك أحدهم.. وشلة أصحابها "طُراف"، وهم بشكل عام أولاد ناس بس "خنافس"، ولا مانع عندهم من كأسين، وسيجارة ملفوفة. ولم يمر وقت طويل

حتى أصبحوا جميعا أصحابي، فقد تزعمت قصة الشرب والمخدرات في وسط هذه الشلة، وطبعا عن جدارة واستحقاق.

في تلك الأيام، غمرت الأسواق كبسولة حمراء اسمها فراولة، وعملت تأثيرا قويا بين شباب البلد.. كنت أشترى كيس فراولة، وأمشى بين طلبة الجامعة، أقول للشباب:

- إفتح بقك.

وأرمى بسرعة فراولتين على الماشي.. وكانت تسبب نوعا من الانتعاش الغريب، وتجعل الواحد منا في حالة "فرفشة" هادئة لفترة طويلة، وكان للسيجارة طعم جميل، والمزاج في حالة صفاء.. ولا شيء أجمل من هذا الشعور.. وكنت أعتبر الفراولة كأنها "تصبيرة" على الماشي، ومع "جُوينتين" حشيش.. كله معا يعمل "دماغ" مظبوطة.

واستمرت قصة الحب الجميلة والقوية بيني وبين راندا، وتقاربنا إلى حد أنها بدأت تزورني عند رامي، حتى في عدم وجود والده ووالدته في البيت.. وكنا نجلس في إحدى الغرف، ويجلس ريكو مع نيللي في غرفة أخرى.. وكانت تزورني في البيت، سواء أهلي في المنزل أو خرجوا.. لم تكن هناك مشكلة.. وبدأت تشرب معي.. بصراحة، كان لديها الاستعداد، وبعد دخولها الجامعة اكتشفتُ أنها تشرب سجاير، إذا لا فارق بين سيجارة فاضية وسيجارة ملفوفة، وأول مرة قلت لها:

- خدي يا راندا نفسين.

- لأ.. أخاف يا صلاح.

- ما تخافيش.. كأنها سيجارة عادية.

- طيب نفسين بس.

وبعد تفسير، وثلاثة خلصت المسألة، وأصبحت راندا تشاركنى فى كل شىء.. خمور، حشيش، علاقة جنسية، كله ما عدا الفراولة، وطبعًا البودرة التى كنت أضربها مرة كل شهرين أو ثلاثة، صدفة بلا ترتيب سابق.

وهكذا سيطرت سيطرة كاملة على راندا، وأصحابها هم أصحابى، وأصبحت مهمًا جدا بالنسبة لهم جميعًا؛ فأنا وحدى أستطيع شراء المطلوب، ولف السجائر وكل هذه الأفلام.. هؤلاء الأصحاب بصراحة هم غاية فى الظرف وخفة الدم.. أحبونى وأحببتهم جدا، وفعلا أصبحنا أصدقاء.

كنت "أغطس" فترة من الوقت، واختفى عن أصحابى الأعزاء ميدو، بونو، زوتى، وفجأة أظهر لأطمئن على أحوالهم.. ولكنى كنت على اتصال شبه يومى مع رامى.. ربما هو أحبهم إلى قلبى، وكنت أعرف أين أجده، فهو دائما فى النادى.. وأخطر شىء تغير بالنسبة لصديق عمرى أنه بدأ يضرب البودرة باستمرار.. لكن الأمور لازالت تحت السيطرة.. وبالنسبة لأحمد، وحسين، وعلاء، لم يتغير الموقف.. الحشيش مستمر، وكذلك البيرة، ومن حين إلى آخر يحاول بهاء إقناعهم بمشاركته فى ضرب البودرة.. وكان من الواضح أنها لا تشغلهم كثيرًا، لكنها مجرد "تزويش" كما يقولون.

فى هذا العام، وبالتحديد قبيل الامتحانات بشهرين، قررت أن أذاكر بهمة لأنجح.. والحق يقال بذلت جهدا كبيرا.. لكن للأسف رسبت فى أربع مواد على درجة واحدة فى كل مادة.. وبعد الامتحانات قررت السفر مرة أخرى إلى أمريكا، وقررت ألا أذهب هذه المرة إلى "أتلانتيك سيتى"؛ إذ لم تعد مشاعرى تجاه مارلا بالقوة نفسها، بل شعرت بالملل وأردت التغيير، فذهبت مباشرة إلى "واشنطن"، ومنها إلى "ميامى"، والتى يقال عنها: "من لم يذهب إلى ميامى، فهو فى الواقع لم يذهب إلى أمريكا".

وصلت هناك فى مطلع الصيف، ونزلت ضيفًا فى منزل أصحابى فى ميامى.. وهذه الرحلة بالذات لم تكن صاخبة مثل الرحلة الأولى، ولكنها هادئة،

أو كانت نوعًا آخر من الرحلات.. بدأت بجولات فى مدينة والت ديزنى، والبحر، والتعرف إلى البنات، وطبعًا الكثير من المخدرات والخمور، ولكن بشكل عام رحلة أحداثها قليلة وخفيفة.

عدت إلى بلادى، وكالمعتاد.. احتجت بعض الوقت لاستعادة التوازن والتكيف مع الوضع.. وبدأت أنواع المخدرات فى ذلك الوقت تتغير، ظهر "الماكس"، وظهر "أبو صليبة" وانتشر جدًا، وأصبحت الموضة طحن "أبو صليبة"، وقرص "نوفاسى".. ولم تعجبنى هذه الخلطة، التى تحولنى لإنسان عنيف وعصبى، ولكنى كنت أتبع الموضة وأضربهم، وليغمرنى أيضًا الإحساس بأننى ضارب أى شىء والسلام.. الحياة فى تصورى لابد أن يكون بها مُخدِّر..

وفى يوم من الأيام ذهبت إلى ميدو، وحسين ودارت بيننا أحاديث طويلة عريضة، وعندما سألتهم على بونو، فاجأنى حسين بقوله:

- بونو.. رجليه جت خلاص.

ولأول مرة أسمع هذا التعبير، وبدأت التركيز الشديد فيما يقوله كل من ميدو وحسين.

وفى رأى ميدو:

- البودرة دى إدمان يا صلاح، وأكيد بهاء أدمن.. تصور ده بياخد بودرة كل يوم!!

فأكمل حسين:

- وكمان شخصيته اتغيرت.. على طول عاوز فلوس، وبدأ يجيب لنا حاجات عاوز يبيعها.

ولم أستطع فهم واستيعاب هذا الكلام.. وذات يوم مررت على ريكو، وبمجرد وصولى، قال لى:

- تعال معايا يا صلاح.. علشان نشترى بُودرة من "الكيت كات".. بُودرة سِم.

خرجت مع رامي، ولم تكن المفاجأة بالنسبة لي هي البودرة، وإنما كانت السرنجات.. رامي وقف عند الصيدلية، ولم أفهم سر وقوفه، وعاد بعد دقيقتين، فسألته:

- إنت اشتريت إيه يا رامي!؟

- سُوسَته.. إنسى موضوع الشُكمانات ده.

- سُوسَته إيه؟ وشُكمانات إيه؟

- سُوسته، يعني سرنجات.. شُكمانات يعني شم.. إنسى موضوع الشُكمانات ده خالص.. أصبر يا صلاح لما نروّح البيت حتفهم كل حاجة.

وصلنا إلى البيت، ودخلنا غرفته، وبدأ رامي يتحرك بسرعة مذهلة.. دخل وخرج من المطبخ، أحضر فنجان قهوة، وليمونة.. وفتح ورقة البودرة، ووضعها في الفنجان.. وقفت أراقب كل حركة، ولم أنطق بكلمة واحدة.. لكني فاتح فمي "كالعَبيط" وفي حالة ذُهول.. نفذ صبري.. وسألته:

- إيه دا يا رامي؟ لا يا ريكو.. حُقن لا.. لا.. لا.

- يا بني.. بهاء بقاله سنة بيضرب حُقن، وإحنا منعرفش، وهو اللي ضرَب لي أول سرنجة.. إنسى.. فيلم تاني خالص.

- بسّ أنا يا رامي باخاف من الحُقن.

- متخافش.. ولا هتحس بأي حاجة.. بسّ أنا مش هديلك كتير، علشان دي أول سوسته تضربها، ولما تحب تعلّي مفيش مُشكلة.. البودرة كتير.

- طيب مين هيديّك الحُقنة!؟

- أنا ها اضرب لنفسي.. وبعدين أضرَب لك على طول.

- ماشي.

وضرب رامي.. وفي تلك اللحظة طلب مني "أولّع" له سيجارة.. ونفذت له طلبه، وبعد أن أخرج السرنجة من يده، قال:

- هات لي إيدك.. ماتخافش.. مش بتوجع.. دي شكّة دبوس.

الحق يقال، إن خوفي مما يحدث، كان أكبر من أي وجع، أو من أي شكة دبوس.. وسألني رامي:

- هيه... وَجَعتك؟!

- لأ.. ما وَجَعتنيش.

- شُفت.. دا أنا الدكتور ريكو.

وبعدها ولَّع لي سيجارة، وبدأ يسألني باهتمام شديد:

- هيه.. حاسِسْ بحاجة؟!

- لأ.

وفي خلال ثوان معدودة، شعرت بإحساس غريب، وكأن بني آدم آخر ركبني.. انتبهت وقلت له:

- إيه دا يا ريكو؟! دي إشتَغَلِتْ؟!!!

- أصبُر.. هُوَّ إنتَ لسَّه شُفت حاجة!!

ولم نتحرك من البيت، وكنا "حَرِيقة" سجاير، قبلَ أن نُطفيء سيجارة نشعل الثانية، وبدأ بيننا الحديث عن بهاء.. بدأهُ رامي قائلاً:

- إنتَ عارف يا صلاح.. أنا زعلان على مين؟!

- على مين؟

- على بَهاء.

- صحيح.. ميدو وزوني حكوا لي شويَّة حاجات غريبة عنهُ.

- الكامْ شهر اللي فاتوا، بهاء اتغيَّر أوي.. خاسِسْ جدا، ومبهدل على الآخر، وعربيتهُ مخبَّطة من كُلَّ حتة.

- إيه ده؟!!

- إنتَ عارف إنه أقنعهم أنهم يجرّبوا الحُقن؟! هما قالوا لكَ واللا لأ؟

- لأ.. ما قالوش.. أصل علاء كان معانا، وأكيد مشْ عاوزين يجيبوا سيرة قُصادُه.

- تصدق إن عاطف كمان بيضرب سوست؟

- عاطف!! لا يا راجل مش معقول!!

- يا ابني كله بيضرب سوست.

- المهم بونو حكايته إيه؟

- بونو بيضرب كل يوم، وساعات كمان مرتين في اليوم الواحد.

- دا إتجَنن والّلا إيه؟!

- لا.. دا أدمن.

- أدمَن إزاى يَعنى؟!

- يعنى بالحال ده، مُمكن ما يعرفش يبطل.

- يا نهار إسود!! وبعدين يا ريكو؟! إحنا لازم نتكلم معاه.

- بتفتكر مُمكن نعمل إيه يا صلاح؟

- باقول لك إيه.. تعال نعدّى عليه.

مررنا على بهاء، وضبينا في إزعاج العالم "بالكلاكسات" العالية، ونزل لنا بهاء، وبعد القبلات والأحضان، دخلت في الموضوع مباشرة، وسألته:

- إيه دا يا بهاء؟ إنت خسيت كده ليه؟

- البودرة دى بتت ..... بتخسس الواحد.. على العموم أنا قررت أبطل البودرة شوية، ونويت أسافر مع أخويا ومراته، وأبعد شوية عن الضرب.. أصلى تعبت أوى.

- أيوه كدا يا بونو.. وأول ما ترجع نتجمع كلنا عند ميدو.. ماشى يا بهاء؟! يالّلا بينا يا رامى علشان أنا تعبان ومارَحتش البيت من الصُبح.

- سلام يا ريكو.. سلام يا صاصو.

انطلقنا بسيارة رامى، ولم ينطق أحدنا بكلمة واحدة.. بصراحة كنت في حالة ذهول تام.. هل هذا هو بهاء؟! لا.. إنه شخص آخر تماماً.. ولا أدرى فيم يفكر رامى؟! كان سرحان.. إلى أين وصل يا ترى؟!! أعتقد سرحان في

الموضوع نفسه.. وبعد دقيقتين من الصمت الرهيب، انطلقنا معًا بالكلام في اللحظة نفْسها:

- إيه دا يا ريكو؟! بونو جرالُه إيه؟

- بونو خَرْبُها.. مكنتش ناوي أحكي لك.. بعد ما سافرت أمريكا، سرق من أبوه خمسين ألف جنيه وهرب من البيت، أبوه طبعًا عرف.. وكانت مُصيبة كبيرة، ومَرْجِعْش غير لما خلُصت الفلوس ولآخر مليم.

- يا ريكو وَصّلني عند عربيتي.. عايز أرَوّح.. أنا فعلًا تعبان.

طُوالْ الطريق، وصورة بهاء لا تغيب عن عيني.. أشفقت عليه، وشعرت أنه في خطر حقيقي، وفيما يبدو أنه يمر بمشكلة صعبة.. لكن لماذا يا ترى لا يستطيع بهاء الخروج منها؟!! هل هو بالفعل لا يستطيع التوقف عن تعاطي البودرة؟

ومر بخاطري شريط تجربتي الشخصية مع البُودرة، وتأثيرها في الجسم والعقل، وكيف يُسيطر عليَّ شعور عجيب، وكأني أعيش في عالم آخر.. عالم خيالي!! وبعد الضرب كنا نمر بشبه حالة إغماء.. كنا نغمض أعيننا، أو بدقة أكثر كنا نغمض أعيننا دون إرادتنا.. مع هذا "توقّع" السيجارة، وأحيانًا تلسعني، ونارها تحرق أصابعي، فانتبه من الألم، وأُطفي السيجارة.. وهكذا امتلأتْ كل القُمصان، والتيشيرتات والبنطلونات بالثُقوب بسبب وقوع السيجارة من أيدينا، وعادة تكونْ ردود الفعل بطيئة، وننتبه بعد حدوث الخسائر، واحتراق القميص أو .... أو .... وعندما نفيق من هذه الغيبوبة، نأخذ نفسين حشيش، ونعود للغيبوبة من أوّل وجْديد.

8

الأفيال والجمال

بعد سقوط رامى، حوّل إلى معهد سياحة وفنادق بالإسماعيلية، وطبعًا لم يذهب إلى المعهد سوى مرة واحدة، ذهب فيها مع والده، وهناك قدم أوراقه، وتعرف إلى شاب فى الإسماعيلية اسمه سمير "....."، رأى هذا الشاب الإسماعيلاوى مرة واحدة فى حياته منذ ثلاثة شهور، والعجيب أنه مازال يذكر اسمه.. المهم رامى كلمنى فى البيت.. قائلاً:

- أنا عايز أسافر الإسماعيلية علشان أشوف واحد اسمه سمير "....."؛ علشان أخد منه أى ورق.. امتحان التيرم بعد أسبوع.. للأسف المعهد نظام تيرمات.

وجاءنى رامى فى البيت، فوجدنى فى البلكونة مع صديقى شريف "ملك الفرز" نشرب حشيش، فقررنا الذهاب نحن الثلاثة.. وسألته:

- إحنا هنرجع النهارده.. واللاّ إيه النظام؟

- يا مشوار صنذ رذ على طول.. وعلى فكرة أنا معايا حتّة حشيش ماركة "خط بارليف".. دمار يا معلم.

وكان هذا هو اللقاء الأول بين رامى وصديقى شريف.. وتحركنا حوالى الساعة التاسعة فى سيارة شقيق رامى.. وكانت سيارة ريتمو 85.. سيارة جميلة كانت لها شهرتها، "ومكسّرة" الدنيا فى ذلك الوقت، وقلت لرامى:

- عاوزين نشترى بيرة قبل ما نطلع على الطريق.

- ماشى الكلام.. ولّع خط بارليف يا معلم شريف.. بسّ حاسب يفرقع فى إيدك.. وفيه كوباية جنبك، أعمل لنا خابور، والدبوس فى علبة الكلينكس.

انطلقنا بسرعة.. منتهى السرعة والتهور، ووصلنا الإسماعيلية الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة ونحن فى قمة السطل..

وعند مدخل الإسماعيلية سألته:

- فين يا رامي؟!

- على فكرة يا صلاح.. العنوان مش معايا.. بس أنا وَصلْته بيته يوم ما قدمت الأوراق للمعهد.

- يا نهار إسود.. إيه يا عم رامي؟! دا إنت بتّوه في المهندسين، معقول هتفتكرْ بيت واحد في الإسماعيلية، وصلْته بيته من تلاتْ شهور؟

- ندخل شارع الإسماعيلية الرئيسي، فيه جامع كبير، احنا دخلنا جنْبُه، وبعد كده يمين في شمال.. سبْعات في تمانْيات.

- يخْرب عقْلك يا ريكو.

وبعد فاصل من الضحك الهستيرى، شريف قال:

- اسْمع يا رامي، الأول نسأل على الجامع، وهناك نسأل على سمير "....".

فسألت أحد المارة:

- مساء الفل يا ريس.. هُوَ هنا فيه جامع كبير؟

- فيه جامْعين كبار.. واحد على اليمين، والتانى قُدام شوية على الشمال.

وسألت رامي:

- اسمُه إيه الجامع يا رامي؟

- مش فاكرْ.. أدى الجامع.. متْهيألى هو ده.. لأ.. مش هو.. المشكلة إنى يوم ما وصلتْهُ كنا الصبح، واحنا دلوقتِ بالليل.. مش عارف أفْتِكر.

ضحك شريف واقترح قائلاً:

- طيِّب إيه رأيكم ننام فى الإسماعيلية النهارده؛ علشان نتعرف على الجامع الصُبح ؟

رد رامي:

- والله فكْرة.

قلت:

- ياللاّ يا رامى نرْجع مصر.

- يا عم إستنّى شوية.. هتْفَرَجْ دلوقت.

ذهبنا من جامع إلى جامع، ووصلنا عند الجامع الأول مرة أخرى.. فقال رامى:

- بُصْ هناك.. فيه شوية شباب واقفين على الناصية، نقَف عندهم ونسألهم.

- مساء الفل يا شباب.. والنبى إحْنا بندوَّر على بيت واحد اسمه سمير "....." فى معهد سياحة وفنادق.

أجابنى شاب:

- آه.. سمير "....." أخو مدحت "....."؟

قال رامى:

- الحقيقة، إحْنا ما نعْرَفش العائلة، بس أكيد هو.

فقال شاب آخر مؤكدًا:

- ساكن فى منْطقة ".....".. أنا عارف بيتهُ.

- طيب أيه رأيك تيجى معانا توصلنا لبيته، أصلنا من مصر، ومن ساعتين بنْلف، وتايْهين.

جاء معنا الشاب.. وأخيرًا.. وبعد يمين في شمال.. فى يمين.. وَصلْنا.

الشاب : هوّ في العمارة دى.

شريف : إضْربوا كَلاكْسات؟!

الشاب : يا عمْ كَلاكْسات إيه!! ننادى عليه.. يا سمير.. يا مدحت.

أطل شاب من الشرفة..

الشاب : الرّجالة من مصر بيسألوا على أخوك سمير.

مدحت : هوّ مش موْجود.. بس إتفضلوا يا رجاله.. زمانهُ جاى.

رامى : شكرًا يا ريس.. تعبْناك معانا.

الشاب : أبدا.. أبدا.. تأمُروا.

وطلعنا عند مدحت في الدور الثاني، ووجدنا صديقه عنده.. وبعد التحية والسلام، بدأ الحديث:

رامي : أنا زميلة في المعهد.. وجايْ من مصر، عايزْ منه شوية أوْراق؛ لأن امتحان "التيرم" قرّب.

مدحت : هو بيذاكر بره، بس مش عارف فين.. إتفضلّوا.

صلاح : أزعجناكم.

مدحت : لا.. خالص.. مفيش حد، الوالد والوالدة في بورسعيد، إحنا وحدنا في البيت.. تشْربوا ايه؟! شاي؟ قهوة؟

رامي : نشرب شاي.

وبعد خمس دقائق.. قال رامي:

- بَعْد إذْنك، طَبَق أو جُورْنال.. مُمكن؟!

كدت أموت من الضحك، بعد أن سمعت هذه العبارة المذهلة، وببساطة تكلم شريف قائلاً:

- لسَّه فيه سيجارتين ملفوفين.

رامي : لا مؤاخذة يا شباب.. نفسين كده بس علشان السفر.. ولّع يا كابتن.

مدحت : لأ.. مش باشْرب.

صديقه : ولا أنا.

رامي : ولّع يا صاصو.

ولّعنا "الجُوينت" الأوّل، ثم الثاني.. وبعدها قال رامي:

- طيّب يا رجالة، عايزْ طبَق أو جُورنَال.. إحنا معانا خط بارليف.

ولم يستطع الصديقان كتمان ضحكاتهما، وكانا في حالة ذهول، وظل كل منهما يتأمل تصرفاتنا، وعلى وجهيهما ابتسامة ساذجة، ومن حين إلى آخر

يتبادلان النظرات ولا أحد منهما يصدق ما يراه، ولم يسكت رامى، بل أضاف قائلاً:

- هوّ إحنا مش هنشرب أى حاجة؟! فين الشاى؟

قال شريف:

- ممكن نشرب ميّة أحسن ريقى نشف من عبور خط بارليف.

ثم توجهت بحديثى الى شريف:

- خليك جدع يا شريو وإنزل العربية، وهات لنا الكيس.

- بعد إذنكم يا شباب.. أنزل أجيب حاجة من العربية.

وبعد عودة شريف.. قال رامى:

- أكيد يا شباب بتشربوا بيرة.. دى بقى مافيهاش حاجة.

شريف : دى كويسة علشان الكلى.

الشباب : لا.. شكرا.. والله مش بنشرب.

ويحاول رامى فتح الزجاجة مستخدمًا أسنانه.. فقلت له:

- إيه يا رامى.. إستنى نجيب فتّاحة، أو نفتح فى الباب.

رامى : لا يا صلاح.. مش عاوزين نتعبهم معانا.. كفاية إحنا عطلناهم، وعملنا لهم إزعاج ودوشة.

مدحت : لا.. خالص.

صديقه : دا إنتم مشرّفين.

شريف : لا.. دا إحنا مساطيل.

وبدأنا فاصلا من الضحك المستمر.. وبعد ساعة من "الهرتلة"، قام ريكو فجأة وخلع الحذاء، ونام على السرير والتفت إلينا قائلاً:

- يا أخى برضه السفر متعب.

فقلت له:

- بقولك إيه يا ريكو.. خدنى جنبك.. أنا تعبان جدًا.

فضحك شريف قائلاً:

- وأنا كمان خدوني جنبكم والنبي.. أمدد كده وأفرد جسمي.

وظل الشابان في حالة ذهول تام.. لا أحد منهما ينطق بكلمة واحدة.. وينظر كل منهما إلى الآخر، وشهدت بعيني كيف تتكلم النظرات، وتعبر عن الدهشة بألف معنى.. ثم تتحول نظراتهما إلينا، ولا تقل دهشة وتعبيراً عن نظراتهما إلى بعضهما.. وبكل الثقة، قال رامي:

- يا شباب البيت بيتكم.. ومفيش داعي للكسوف.. أي حاجة تعوزوها.. إحنا والله مش عارفين نعمل الواجب.

شريف : تحبوا تتعشوا إيه؟ واللاّ في الإسماعيلية بيناموا خفيف؟

صلاح : هي الساعة كام؟ تصوّروا الساعة واحدة إلا ربْع!

رامي : إيه دا؟ إحنا لازم نمشي حالاً.

وبعد التحية والسلام.. وألف توصيه للسلام على سمير.. قال رامي:

- إحنا هنجيله مرة تانية.

فقال شريف:

- أكيد إنتم مش عاوزين تشفونا تاني؟!

فأجاب مدحت:

- ليه بس، إنتم نوّرتونا، ونورتوا الإسماعيلية.

خرجنا من هذا البيت إلى الشارع، ونحن في حالة ضحك هستيري.. ضحكنا على موقفنا، وعلى حالنا، وعلى أنفسنا.

- ناس غريبة.. مين الناس دي؟!

ولم نعرف اسم صديق مدحت.. وكان تعليق شريف:

- لعلمك كان شكله كوميدي.. فاتح بقّه طوال الوقت، وكأنه شايف مجانين جايين من كوكب تاني.

طبعا عملنا إزعاجا رهيبا تحت منزل مدحت وسمير، ووقف الصديقان في الشرفة يتابعان الفُرجة علينا، أثناء وقوفنا فى حالة الضحك الهستيرى قبل ركوب السيارة، فأحس رامي بالحرج، ولإنقاذ الموقف، قال:

- سلام يا رجالة.. سلم لى يا مدحت على سمير.

- يا رامى اركب بسرعة، وارْجَع ورَا ولِف.

- تصدّق يا صلاح أنا عايز أرجع القاهرة "مارْشيرير".. تفتكروا نوْصل فى أد إيه؟

- يالّلا يا رامى لف وارجع وبلاش هزار، لما نشوف هنُخْرُج من الإسماعيلية إزاى؟

ولم يغب عن بالنا طوال الطريق دهشة مدحت أخو سمير، وصديقه، ولم تتغير كلماتنا:

- لِفّ يا معلم.. ولّع يا معلم.. شغّل الكوبّاية.

وفى الكيلو 74 كُنّا فى قِمّة السُطل، وفجأة سمعنا صوتا غريبا فى "الموتور"، وبصوت واحد سألنا:

- إيه ده.. هوّ فيه إيه؟

قلت صارخاً:

- يَا نْهار إسْود.. العَربية بتوّلّع.

وبدأ الدخان يتصاعد من الموتور، وفورًا خفف رامى السرعة.. حد أقصى عشرة كم، وفتح الباب، وأوشك أن ينط من السيارة، وعندما رأيت هذا المنظر، أخذت وضع الاستعداد للقفز من السيارة، وعندئذ نظر رامى للخلف حيث يجلس شريف، وقال له:

- نطّ يا.. نطّ يا.. نطّ يا.... .

وبسرعة سألنى:

- هوّ إسْمُه إيه؟

قفز رامي من السيارة، وأنا وراءه، ولم يستطع شريف فتح الباب؛ لأن السيارة الرينو يُفتح بابها بطريقة مختلفة عن العربيات العادية.. وأخيرًا، أخيرًا عرف طريقة فتح الباب، لكنه لم يستطع فتحه لأنه اكتشف أن "اللِّوك" مقفول.. واستغرق خروجه حوالي عشر ثواني.

وظللنا نجري وراء السيارة، وأنا أقول له نُطّ، ورامي يسألني:

– هوَ إسْمَهْ إيه؟!

عُدْنا وجلسنا في السيارة نلعب "كولو بامْيَة"، لنحدد من منا يشير إلى إحدى سيارات النقل، لتقطُرَنا حتى نصل إلى القاهرة.. إنها ليلة غاب عنها القمر، والظلام دامس.. كُحْل، وأصوات عواء الذئاب مخيفة.. وأخيرًا.. استطاع شريف أن يشير إلى شاحنة كبيرة، وقطرَتنا حتى وصلنا إلى القاهرة حوالي الساعة الخامسة صباحًا.

كانت رحلة من أغرب الرحلات.

مرت الأيام بأحداث مختلفة، وكان يبدو واضحا أن بونو "تخربها" أكثر، وريكو فقد كثيرًا من وزنه، وبدا هزيلاً، أما ميدو فقد زاد عنده مُعَدّل الضرب، وبدلاً من مرة واحدة كل شهرين، أصبحت مرة في الأسبوع.. أما زوني فكان في حالة اختفاء، ويقضي معظم وقته مع نيفين.. وفي كل الأحوال كنا نلتقي، ونجلس معًا، ونخرج من حين إلى آخر، وفي كل يوم نعيش قصة جديدة مختلفة. وفي يوم كنا عند ميدو، وكان نائما، وفاجأنا بهاء بأفكاره الشيطانية:

– عُمْرَك جرَّبْت "البِرْكينول" يا حسين؟

– لأ.. بس أنا سمعت أنه بِماغ صَراصير.

فقلت:

– مِشْ ناقصة حشرات كمان.

أضاف بهاء موضحًا:

– جمال "جنو" اللى ساكن جنبى أخد عشر حبوب، وطلع رحلة بنت "....".. كنا سهرانين فى "الجاكيز"، وحضرته تقمّص دور عصفورة، وكان عاوز يطير، واستمر على الحال ده يومين، وبعدها رجع له عقله وفاء.. تيجو نجرّبه، بس كل واحد ياخُد ستة.. ماشى يا صاصو؟

– لأ.. تمانية يا بلاش.. خلاص يا زونى؟

– "....".. تمانية أول مرة!!

فأجبت مصممًا:

– يا نجُربهُ صح.. يا منجرّبوش.

فقال بهاء:

– أنا ملكك يا إكسيلانس.

فرد حسين:

– مُوافق يا برنس، بسْ على شرط، ناخُد أربعة.. إتنين فى اتنين، ونشوف الدنيا تمشى إزاى.

وأعلنت مُوافقتى على ذلك.. توجهنا إلى الصيدلية، واشترينا علبة "بركينول".. وفى دهشة بالغة قال حسين:

– إيه ده؟ دا بربع جنيه؟! دا ببلاش يا بونو!!

– علشان كده دماغ صراصير.

أخذنا أربع حبوب فى الساعة التاسعة.. ولم يكن لها أى مفعول لمدة نصف ساعة.. فقال لى بهاء:

– دا قشينك دا والا إيه يا مُعلم؟

– خلاص ناخُد الأربعة التانيين مرة واحدة.. موافق يا بهاء؟

– ماشى يا إكسيلانس.. ماشى يا زونى؟

– ماشى.. وصباح الفل، قسم وإدّى للكل.

وأخذنا الأربع حبوب الأخرى قبل الساعة العاشرة، واقترح علينا حسين:

- بقول لكم إيه.. النهارده عيد ميلاد عبير صاحبة نيفين، وطبعا بتتمنى أروح، واتحايلت عليّ كتير، ما تيجى نروح نشوف النظام.. إيه رأيك يا بهاء؟

- قشطة.. جايز أطلع لى بمزة.

طلعنا على الطريق مولّعين "جوينتين" في الطريق، ووصلنا في حالة "سطل تام"، ودخلنا الحفلة نضحك ونهزر، وبهاء اصطاد فتاة جميلة، وأخذها جانبًا وبدأ الأسطوانة:

- المعلّم بهاء.. تمانية فدان مانجه، أربعتاشر فدان برتقال، تلاتة وتمانين نخلة بلح، ومش ناقصني غير الفراولة.. يا فراولة.

كان هذا هو أسلوب بهاء في الهزار والمعاكسة، أسلوب غير راق، ولكن بعض البنات يعجبها كلامه، ويراه البعض ظريفا ومضحكا.. وكان مضحكاً فعلا، وفي الحقيقة كان يناسبه تمامًا.

وطلبنا لكل منا زجاجة بيرة وقضينا وقتا ممتعا، وقررنا الاكتفاء بهذا القدر.. ومرت السهرة دون مشكلات، وفي طريق العودة، كانت سرعة السيارة بقيادة حسين طبيعية، وأنا جالس إلى جانبه وبهاء في الخلف، ثم بدأ حسين يقلل السرعة 80، 60، 50، 20، وأخذ الجانب الأيمن، وبدأت السرعة تقل إلى 10، وهنا سألت:

- هو فيه إيه يا بهاء؟

- البركينول اشتغل يا معلم.. إنت حاسس بإيه يا حسين؟

- أنا حاسس إني سايق فيل.

فهتفت:

- قشطة.. إطلع على جنينة الحيوانات.

وظهر تأثير البركينول علينا.. وفجأة، بدأ مفعوله يتضح، وبدأنا نضحك بلا سبب.. نضحك ببلاهة، على أي شيء، وعلى كل شيء، وبصوت ضعيف تكلم حسين:

- حد ييجي يسوق الفيل بسرعة.. تعال سوق يا بهاء.

- هوَ ينفع أسوق وأنا قاعد ورا؟

- طيِّب بُصُّوا.. إحنا نركن العربية في أي مكان، وناخد تاكسي وبكْره نجيب الفيل.

- بتصدّق يا صاصو إنك عبقري.

ثم قال حسين:

- هوَ الشارع كلّه فيلة واللا إيه؟

قلت ساخرًا:

- بَسْ فيلة نشيطة أوي.

وقال بهاء:

- أنا جعْان جدًا يا صلاح.. عايز شاورمة!!

- إيه يا بهاء؟! ده وقت أكل.. حسين خلاص إتجنّن، وإنت تقول لي شاورمة.

أوقفنا السيارة.. ثم أخذنا سيارة أجرة، لتقوم بتوصيلنا إلى شارع شهاب، ثم قلت:

- اركب يا بونو قدام، وسيبني أتفاهم مع حسين، لما نشوف حكاية الفيلة دي إيه.

وفاجأني حسين بقوله:

- لعلمك يا صلاح.. أنا ناوي أغيَّر الفيل بتاعي.. هاجيب فيل جديد.

جلس بهاء بجانب سائق التاكسي، والرجل في حالة ذهول مما يسمعه.. خصوصًا عندما قال بهاء:

- يَا سَلام.. نِفْسي في سندوتش شاورمه.. لأ.. 37 ساندوتش.

- بتقول إيه؟ كام ساندوتش؟!

وفجأة وقف التاكسي، فقد مرت قافلة جمال.. مفاجأة ليست في وقتها أو مكانها، إنما شكلها مذهل وجميل، وبأعلى صوتي قلت:

- إيه دا؟ بُصّوا الجمال.. يا ترى هي جمال بجد، ولا زى أفيال حسين؟! أنا مش فاهم حاجة.

قال بهاء ساخرا:

- يا زُونى.. أنا سمعت إن مهر نيفين مائة ناقة حمْرا.

- باقولك إيه يا بونو.. همّا جوز جمال غمى وفوقهم بُوسة.. تيجى ننزل ناخُدهم؟! اركنْ يا ريس.

وبإصرار يطلب حسين من السائق أن يقف لينزل من التاكسي، وأنا أحاول أقنعه إن نزولنا خطر، وكان السائق في حالة ذهول، إلى أن بدأ يشاركنا في الضحك، وضحك معنا.. من القلب، وبلهجة حاسمة قلت:

- قُلْنا شارع شهاب.. ومحَدّش يتحرك من التاكسي.. نطلع على ميدو، ونشوف حل في المُصيبة دي.

استمر بهاء في الحديث عن "الشاورمة" مع السائق:

- بتحب الشاورمة؟

- آه بحبها؟

- بتحبها أد إيه؟

لم يستطع السائق الإجابة من الضحك.. ودفعنا له الأجرة بصعوبة، بعد ربع ساعة ضحك وهزار معه، رغم أنه لا يفهم كلامنا. ووصلنا إلى بيت ميدو في حالة مزاجية عجيبة، وكان المسكين يتعذب بسبب سخرية علاء؛ لأن الأهلي تعادل مع المحلة، بينما كُنّا نحن الثلاثة في حالة ضحك مستمر.. وبالتأكيد كان كل منا يضحك بسبب يختلف عن سبب ضحك الآخر.

وبكل جدية سألنا بهاء:

- إنتَ بتضحك على إيه يا صاصو؟

- باضحك على ترابيزة السفرة.. أصل كراسيها عمّالة ترقص.

- وإنت يا حسين؟

- على الأفيال اللّي في الشارع.. والجمال كمان.. لو فيه فيل عمل حادثة، يودّوه لِسَمكرى، واللاّ لِدكتور بيطرى؟

انتبه ميدو، وركز معنا، لأن التخريف والهذيان في الكلام واضح، فسألنا:

- هوّ فيه إيه؟ إنتم واخدين إيه؟ قول يا بهاء .. ما تتكسفش.

- اى هيل فى الجبل.. برِكينول.. صراصير.

وأضاف حسين:

- دُول مش صراصير.. دُول فيلة.

قلت له:

- لأ.. دُول جمال.

وبحسم قال أحمد:

- قوموا إغسلوا وشكم، جايز تفوءوا.

فاعترض بهاء قائلاً:

- ومين قال إنى عايز أفوء.. دا كِده لُوكس جدًا.

واقترحت على أحمد:

- تعال نوصّلهم بيوتهم، وأنا هنا أنام هنا.

فسأل أحمد:

- فين عربياتكم؟

رد حسين ضاحكًا:

- عربيات؟! هاهاها.. إحنا معانا فيلة، بس الفيل بتاعي في الهرم.

- بيعمل إيه في الهرم؟

- أصل ماكنّاش قادرين نسوق.. ركّنا الفيل وأخدنا فيل أبيض في أسود.. صح يا بونو؟

- سيبك إنتَ.. الجمال كان شكلها حلو أوى.

- بأقول لُكم إيه.. أنا رفعت مهر نيفين لخمس جمال.. والله مش خسارة فيها.

وقال أحمد فى ذهول:

- خمس جمال؟!

فضحك بهاء قائلاً:

- إنتَ هتتجوّز عبلة والا إيه؟

- هو فيه إيه؟ أنا مش فاهم حاجة.

- دى قصة طويلة يا ميدو.. يالاّ يا عم ننزل نروّحهم.

- زونى.. أدخل الأوضة أقلع ونام على طول.

- لسّه ها أقلع.. مش هيحصل.

لم يكن هناك مفر من توصيل بهاء وحسين إلى البيت.. وطوال الطريق كنا فى شدة القلق؛ لأن طريقة كلام حسين كانت غير طبيعية وغير موزونة.. وأكدنا عليه أن يدخل بهدوء وينام فوراً.. وبعد عودتنا أذهلنى أن علاء لم يتوقف عن إغاظة ميدو من خلال السخرية على الأهلى، وجلست معهما وضحكت من قلبى، رغم أننى أهلاوى كبير.. ولكننى لم أكن أضحك على سخرية علاء، بل كنت أضحك على الأشياء التى أراها تتحرك وترقص أمامى فى الصالون.. وتوقف الضحك، وانتابنى شعور غامر بالضيق من هذه التخيلات، وأصبحت أمنية حياتى أن أفيق من هذا الكابوس.. إنه بلاء عظيم، كيف ومتى ينتهى هذا اليوم الأسود؟ وهل ينتهى على خير؟

دخلت أنام.. تمنيت فعلاً أن أنام، لأرتاح من هذه التهيؤات والخيالات المتعبة ودارت شرائط الموسيقى، ووضعت رأسى على الوسادة.. واستحال نومى، وإذا بى أفاجىء بالملابس تخرج من الدولاب، وتتراقص فى الغرفة..

أضأت النور، وقفزت من السرير، وأسرعت إلى الحمام، وغمرت رأسي بالماء لأكثر من نصف ساعة، ورجعت إلى الغرفة، وارتميت على السرير، وأسكت جهاز التسجيل لتتوقف الموسيقى، وتكف الملابس عن الرقص.

إنني حقا معذب، ولا أستطيع النوم.. وبعد ساعات مريرة نمت، وأشرق الصباح، ولم أفهم ماذا حدث لي بالأمس، كنت مثل الوتر المشدود، وكأنني صحوت من كابوس، وفتحت عيناي على كارثة.. جاءني صوت أحمد:

– شُفْت يا صَلاح المُصيبة اللّي حَصَلِت.. اصحَ واسْمَعْني كوَيّس.

حقيقة.. لم أكن أستطيع استيعاب أي شيء، أو فهم ما يقوله، وانتبهت لقوله:

– مَامِة حسين كلِّمتني وسألتني: حِسين مالهُ يا أحمد؟ هو فيه إيه؟

– خير يا طَنْط.

– صَحّاني الساعة خمسة الفجر؛ علشان أعمِل شاي لأصحابه.

– أصحابه؟! مين أصحابه يا طَنْط؟

– ماكنْش فيه حد.. قال إيه أصحابه قاعدين في الدُرج.. فسألته درج إيه يا حسين؟ يقول لي درج المكتب يا ماما.. إنت مش شايفاهم والّلا إيه؟

فقلت لأحمد، بعد أن سمعت الحوار بينه وبين والدة حسين:

– يا دي المصيبة.. وبَعْدين.

فقال أحمد:

– قَعَد يخرّف شوية لغاية لما نام.. وقعدت تحقّق معايا.. حسين كان فين بالليل؟ وكان مع مين؟ وأخد إيه؟ وأنا طبعا ساكت، ومش عارف أقول لها إيه.. وأخيرا قلت لها، تلاقيه يا طَنْط تعبان من المذاكرة، وما نامْش كويس، كان بيحلم ولا حاجة.

– وبَعْدين؟!

– قالت لي بِشُوف القصة دي لما يصْحَى من النوم.. تصوّر نام بجزْمِته.

انتبهت إلى كلامه أكثر وأكثر، وبدأت أفيق، إنما رأسي كأنها ليست في مكانها، وحوالى الساعة الثانية وصل بهاء وكعادته دخل في الحديث بسرعة:

– شُفتم إيه اللى حصل؟ أنا خَرِبْتها إمبارح.

فسأله أحمد:

– وإنتَ كمان؟! عملت إيه؟

– ساعة كاملة.. أحاول فتح باب الشقة بمفتاح العربية، لغاية ما وصلْ أخويا وفتح لى الباب، وطبعا سألنى أنتَ واخد إيه، فقلت له: زفْت.. بركينول، فقال لى: ده زفْت فعلاً وبيلحس الدماغ، إيّاك تاخده تانى.

فقلت لبهاء:

– يخرب بيت البركينول.. ده ابن "...." فوبيا"*.

بدأ بهاء يحكي:

– دخلت على المطبخ.. وعينك ما تشوف إلاّ النور.. جبت كرسى وقعدت فى وش التلاجة، أكلت نصْ الأكل اللى فى التلاجة.. أخويا دخل علىّ المطبخ وشافنى وأنا باشرب الملوخية من الحلّة، وأكلت بطاطس، وجبنة بيضة، وبسطرمة، وعنب، وطبعا رجّعت كل اللّى أكلته، وصحيت الصبح على صوت أمى.. متْهارة.. مين اللى قلب المطبخ كده؟ وفين الملوخية؟ وفين البطاطس؟ ومين اللى حط طفاية السجاير فى الفريزر؟ قلت ألبس وأنْزل قبل ما بابا يرجع، وتولّع الدنيا.. وإنتَ يا صلاح.. عملت إيه؟

– شُفت خيالات وتهيؤات بشعة، وحطيت راسى ساعة تحت المية.. وفى الآخر نمت.. الحمد لله.. كانت ليلة سودا فعلاً.

ثم سأل بهاء:

– يا ترى فيه أخبار عن حسين؟! عاوزين نكلّمه.

---

* يكثر من التهيؤات.

حكينا له تفاصيل محادثة والدته مع أحمد، وكان تعليقه:

- يَا نهار إسود.. كدا كلّنا هنروح فى داهية.

نادى علاء:

- تليفون علشانك يا ميدو.

ذهب أحمد ورد على التليفون.. وبعد قليل عاد وقال:

- زُونى كان على التليفون.. واضح إنه لسّه صاحى، واتّخانق مع مامته.. أنا مش فاهم منه ولا كلمة، قال لى أنا هَا ألبس وآجى لك حالاً.

وبعد قليل.. ارتفع نداء علاء مرة أخرى:

- ميدو.. تليفون.. مامة حسين.

- يَا داهية دُقّى.

والتففنا حول ميدو.. وسمعنا الحوار بينهما:

- أهلا يا طنّط.

- تصور يا أحمد قال إيه.. حسين زعلان وصاحى يتخانق مَعايا، إزاى ما اعمليش شاى لأصحابه إمبارح!! وأنا أحرَجته جدًا معاهم.. كان بيتكلم بجد، بس المرة دى قال لى أصحابه كانوا قاعدين كلهم فى الصالون، والحُصان فى المطبخ، والفيل فى الهرم، والجمل على الكُوبْرى.. ودلوقت بآكلمه، وما بيرُدّش علىّ يا أحمد.

- ده لسه مكلّمنى يا طنّط، وقال لى إنه جاىْ عندى.. أنا هَا أشوف إيه الحكاية.. وحضرتك ما تقلقيش خالص.

- مَامتك موجودة يا أحمد؟

- لا.. مش موجودة.. وبعدين يا طنّط، إحنا مش عاوزين نكبّر الموضوع.

- المَوضوع كبير يا أحمد.. أنا كلّمت نيڤين، وقالت لى إنه كان مع بهاء وصلاح لغاية الساعة واحدة إمبارح بالليل، وسهروا فى عيد ميلاد صاحبتها، وقالت لى إنه كان طَبيعى، وما مفيش أى حاجة.. نيڤين هتتجنّن.

- اديني فرصة أفهمْ منُّه وأكلم حضرتك.

- نسيت أقول لك كمان، إمبارح الفجر.. عايز ينزل يشترى سبع جمال حمر علشان نيڤين، فقلت له سبع جمال إيه!! فقال لى خلاص خلِّيهم خمس جمال.. أنا عارف إنك هتفاصلنى، ومرة واحدة قال لى: بقولّك إيه.. الصبَّاح رباح، وتصبحى على خير يا حاجّة.. عمرُه ما قال لى يا حاجّة فى حياتهُ.

- والله يا طنط فال خير.. ربِّنا يكتبها لك وتحجِّى السنة الجاية إن شاء الله، بس الغريب يا طنط إن صلاح جنبى دلوقت، وبيقول إنه وصلّه مع بهاء لغاية البيت، وكان كويس.

- كويس إيه.. دا طلب منى خمسة آلاف جنيه، وطبعا قلت له لأ.. ولما سألته عاوزهم ليه مارَدْش علىّ.. وبعدين قال لى: أنا عايز أبيع الفيل بتاعى وأشترى فيل جديد.. قصدى عربية جديدة.. وعربيته مش تحت ليه؟ إيه ده.. الباب اتْقفل.. الظَّاهر حسين نزل.

- يبقى جاى على عندى.

- من فضلك يا أحمد شُوف حسين ماله.. وكلِّمنى طمِّنى.

- حاضر يا طنط.. مابتْقلقيش.. حضرتك إطَّمنى.. وطبعا هاكلِّمك أول ما أفهم الموضوع.

وارتفع رنين التليفون بعد هذه المحادثة بثوانٍ قليلة.. كانت نيڤين، ورد أحمد:

- هاى نيڤين.. أخبارك إيه؟ حسين.. لأ.. مش عندى.. فعلا طنط كلمتنى، وأنا مش فاهم حاجة.. هو حسين جاى.. وأوِّل ما يوصل أقول له يكلمك.. باى باى يا نيڤين.

وكان تعليقى على هذا الحوار الطويل العريض:

- يا أقولكُم إيه.. نيڤين مش سهلة، وهنفضل ورا الموضوع لغاية ما توصل لاعتراف من حسين.. لازم نفكّر فى فيلم يحفظه قبل ما يكلّمها.

مرت ساعة ولم يصل حسين، رغم أن المسافة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق.

ومرت ساعة أخرى، ولم يصل حسين.. وتساءل أحمد:

- إيه الحكاية يا جماعة؟ زونى راح فين؟ دا نزل من بيته من ساعتين!!! تفتكر راح فين يا صلاح؟

- ممكن يكون راح يجيب غريبته؟!

- مش ممكن يروح لوحده.. أكيد كان جه هنا الأول علشان حد فينا يوصله!!

الساعة الخامسة ولم يصل حسين، الساعة الخامسة والنصف، ولم يصل، ودرجة القلق تعلو، فقلت:

- تعالوا ننزل ندوَّر عليه.

فقال أحمد:

- أحسن حل.. اسمعى يا كريمة، لو حسين ظهر، قولى له يستنى هنا، وما يتحركش.. سامعة؟!

وكان تعليق بهاء:

- الظاهر يا صاصو صاحبك ميدو عاجباه كريمة؟!

قلت:

- لا.. لا.. هو كان مُعْجَب بهيام الشغالة اللى قبلها؟!

رد بوتو ضاحكا:

- الشغالات دول مدرسة.

قال أحمد مستنكرا:

- خلّينا فى حسين.. هنلاقيه فين دلوقت؟!

بحثنا عنه فى كل مكان.. لفّينا شارع شهاب وسوريا عشرات المرات.. سألنا عليه الشباب.. حيرة كبيرة، فقلت لهم:

- إيه الغُلب والعذاب ده؟! نرجع البيت.. يمكن وصل.

وصلنا البيت، وكانت أكبر مفاجأة أن نجده في البلكونة، وجنبه طنط ماجدة.. أخذ بيبان بيديه، وكأننا لم نتقابل منذ سنة أو أكثر.. والدة أحمد تقف بجانبه في حالة ذهول، وأشارت لنا إشارة نفهم منها أن نصعد فوراً.. فقلت على الفور:

- أطلع يا أحمد.. هاته بسرعة.. ده أكيد قطتنا.

وفي لهفة حقيقية فتحت الأم الباب لابنها، وسألته:

- هو حسين ماله يا ميدو؟

- مش عارف يا ماما.. الظاهر تعبان شوية لأنه مانمش من يومين.. هو قال لك إيه؟

- دخل من غير ولا كلمة، وبدأ يلف في كل البيت، ودخل في كل الأوض، ويقول لي إنت مخبياهم مني فين؟ وأخد كرسي وقعد في البلكونة، رحت له البلكونة وسألته: مالك يا حسين؟ ما ردش، وبعدين طلب مني شاي، وسكت وما كلمنيش.. فيه إيه يا ميدو؟

- أنا ها آخده للدكتور حالاً.

المهم.. أخذنا حسين وذهبنا إلى الصيدلية، وحكينا للدكتور الصيدلي الموقف، فنصح بإعطائه دواء، وفي اليوم التالي يرجع إلى حالته الطبيعية.. لكن الحقيقة أن حسين استمر لعدة أيام في حالة عدم اتزان.. والشيء الوحيد الذي تمنينا معرفته، والسؤال الذي ظل بلا إجابة.. أين قضى حسين هذه الساعات الثلاث؟!!

أما نيفين.. فقد شعرت أن هناك شيئاً ما خطأ، وهي غاية في الفصاحة، وتحاصر حسين، وتراقب كل تحركاته، تقضي معه معظم الوقت، تتركه ساعة أو ساعتين على الأكثر، ولا يفوتها أبداً أن تعرف ماذا فعل في كل دقيقة، خلال فترة غيابها عنه.

مرت الأيام والأسابيع.. رامي اختفى، وميدو تائه بيننا.. بعض الوقت يقضيه مع حسين، وأحيانًا معي، وأحيانًا في البيت مع علاء، وأحيانًا أخرى مع بهاء.. ولكنه بدأ يشعر بالخوف من بهاء بالذات؛ لأن تصرفاته أصبحت مريبة وغريبة حتى معنا، يطلب منا مبالغ كبيرة باستمرار، ويحضر لنا أشياء كثيرة ليست ملكه، يريد بيعها، قائلا لنا:

- إتصرفوا، وبيعوها.

شيء مريب فعلا وغير مطمئن، ولم يعد بهاء الذى نعرفه منذ زمن بعيد.

ماذا يحدث لك يا بهاء؟؟

9

الشهـــــود

وبدأت السنة الدراسية، وكالمعتاد لم أذهب للجامعة، ومن حين إلى آخر كنت ألتقي بجيراني، سكان العمارات المجاورة، وعند رؤيتي يصرون أن أشاركهم جلسة حشيش، فهم يعرفون أنني كثير السفر إلى أمريكا، أو أقضي معظم أيامي مع أصحابي ما بين الدقي والمهندسين.. أحد هؤلاء الجيران ضابط شرطة اسمه حسام، ولم أكن أراه كثيراً، ولكن هذا لا يمنع أنه كلما رأيته تجمعنا جلسة حشيش، وذات يوم قابلت جاري شريف ملك الغرز.. والذي بدأ تعاطي البودرة بقوة، وفاجأني قائلاً:

- شُفت اللّي حصل لحسام؟!

- حصل إيه؟

- إتْرَفد من الشرطة.

- لا يا راجل .. ليه؟

- كان في مأمورية في السويس، وكان بيشتري بُودْرة.

- إيه ده!! هو حسام بياخُد بودرة؟!

- طبعاً.. ومن زمان كمان.. والتاجر هناك قصّهم واداهم بودرة فشنك.

- وبعدين؟!

- طلع حسام الطِّبنجة وضرب نار، والدنيا إتْقلبت في السويس، ومدير الأمن عرف، وطبعاً حسام اترفد.

- وأبوه عمل إيه؟

- ولا حاجة.. هيعمل له إيه يعني؟

من خلال هذا الحوار، عرفت أن حسام يتعاطى البودرة.. ومرت الأيام إلى أن وجدت حسام جالسا في سيارته، ومعه صديقته دعاء، ودار بيننا حديث طويل.. وصارحته بقولي:

- مش تقول لي إنك بتضرب بودرة؟!

- مين قال لك؟

- عرفت وخلاص. ثم هي دي حاجة تتخبى.. يا أقولك عاوزين نضرب مع بعض.

- معاك فلوس؟

- معايا.. عايز كام؟!

- ولا أقولك، خليها عليّ المره دي.. اركب.

ركبت السيارة وتعرفت على دعاء وبدأنا الحديث:

- هاي.. ازيك.

- هاي.. أنا أول مرة أشوفك.

فقال حسام:

- دا صلاح، إما في أمريكا، أو مع أصحابه في المهندسين والدقي.. أنا قلت إنك أكيد ضربت، باين عليك، بس علشان دايما مختفي ماكنتش عارف أركز معاك، وبعدين هتروح أمريكا وماتبقاش ضريب.. ازاي يعني؟

- لعلمك أمريكا مفيش فيها بودرة، كلها كوك، وماريجوانا.

- وإيه أخبار الكوك؟

- حلو بس مش زي البودرة.. البودرة قاسية وبنت "....."، هو إحنا رايحين فين؟

- قربنا نوصل.. دولاب قريب، بودرة سم.. دي سكة دعاء.. احكي له يا دعاء.

- اسمها أم سيد في الجيارة، وهناك فيه باب أسود، لو الباب مقفول يعني فيه شغل، ولو مفتوح مفيش شغل.

- يا سلام!! دا إيه "السيستم"(*) الجميل ده!!

وسألني حسام:

- إنتَ بتجيب من فين يا صلاح؟

- بصراحة أنا مش باجيب.. أصحابي بيشتروا من بولاق أو الكيت كات.. بس قول لِي.. شُكْمانات والّلا سُوستَ؟!!

- لا.. لا.. لا!! ده إنتَ قديم بقى.. سوستت يَا مَعلم.

- إيه كل العربيات اللى رَاكْنة دى؟! واضح إن أم سيد دى معروفة.

وكانت أول مرة أضرب مع حسام وصديقته دعاء.. ركَن حسام العربية في شارع هادئ، وفى أقل من خمس دقائق جهز المطلوب كله.. الليمون والسرَنجات والفنجان في التابلوه، وزجاجة المياه المعدنية جنبى على الكنبة.. وكانت هذه أول مرة أضرب بودرة مع فتاة، ومن الواضح أن هناك قصة حب قوية بينها وبين حسام، وغمرهما الشعور بالحب والحنان بعد أن ضربنا، وبدأ حسام الحديث: فلان بيضرب.. وفلان كمان.. وفلان.. عشرات.. وشريف لسه خارج من "سويسرا"(*).

وأدهشني أن أعرف هذه الحقائق، فقلت له:

- يا نهار أسود.. إحنا بنتكلم عن عشرة أو أكتر من نفس المربع.. مصيبة!!

- مش بس كده.. عارف فلان بيقطّع وبيبيع كمان.. بس الكمية قلّة شوية.. بس بودرة حلوة بيجيبها من عرَب السويس.

وهكذا أصبحت أعرف مكان بودرة جديد.

عدت من جديد إلى شلة الجامعة، ومن حين إلى آخر أقابل ريكو، وحسين وميدو، وظهر بهاء مرة أخرى بعد أن أمضى حوالى شهرين فى

(*) نظام.

(*) اسم حركى للمستشفى.

"سويسرا" أقصد المستشفى.. وطبعًا تحسنت صحته كثيرًا، وصارحنا برأيه الجديد:

- أنا فهمت النظام، مش كل يوم ضرب.. كفاية مرة فى الأسبوع، أو مرة كل عشر ايام.. ويمشى الموضوع.. غير كده هنتفخ.

وفى تلك الفترة، سافرت الغردقة مع شلة جامعة راندا، وبصفتى وزير الكيف جهزت كل المطلوب، وكالعادة بكميات غير طبيعية قياسًا لعدد الأيام.. مثلا: كيس فراولة به مائة حبة، كيس صليبة به مائة حبة، و"وقية" حشيش، وثلاثة لترات ويسكي لثلاث ليالى.. كم من المكيفات يكفى أضعاف أضعاف عدد الشلة، وهذه الشلة بالذات لديها وفرة من الأموال، بالتالي ليست هناك أى مشكلة بالنسبة لتمويل وشراء كل المطلوب، وكنت أجمع الأموال وأشترى من الشباك أو الباطنية.. كل شيء دفعة واحدة.

سافرنا، وكل منا معه صديقته، ومعى صديقتى راندا، ولم تكن راندا تشعر بأيه مشكلة، بعد "جُوينتين" تُصبح فتاة مطيعة جدًا.. أقول لها يمين، يمين.. شمال، شمال.. جهزت علب عصير، ووضعت مكانها ويسكى كولا، وبدأنا الشرب خلال رحلة الاتوبيس، وعندما وصلنا كانت الشلة كلها فى حالة سُكر تام.

وتلك الأيام الأربعة أمضيناها ما بين السُكر والبرشام والحشيش، وطوال الوقت طرقات مستمرة على باب غرفتى، البنات والشباب يطلبون "جُوينتات" أو كاسين، وفى اخر يوم، بدأت طَحن برشام فى الويسكى، وانقلبت القرية.. البنات فى غرف الشباب، ما بين الضحك والصريخ والبكاء، والخلافات على أشدها مع إدارة القرية والعاملين فيها.. واخر يوم فى الرحلة كان أسوأ يوم، وتم إرسال خطاب رسمى إلى الجامعة، يفيد بأنها وُضعت فى القائمة السوداء، وأصبح ممنوع دخول طلابها هذه القرية مدى الحياة.

اشتهرت شهرة رهيبة في الجامعة بعد هذه الرحلة.. لم يعد أحد لا يعرفني، لكن الآراء انقسمت إلى فريقين: الفريق الأول هم شلّتي، ومن يريد الانضمام إلى هذه الشلة، التي أصبحت بعد الرحلة أشهر الشلل في الجامعة، والتي ضُربت سُمْعتها في مقتل في رحلة الغردقة.. الفريق الثاني يرى عدم الاقتراب منا، ورأيهم عدم التعامل معنا بتاتًا.. وأننا شلة خطر جدًا، وفي رأيي أنني استمتعت في تلك الأيام.. كنت أقتل الوقت، وألهو كما يحلو لي، معتقدًا أنه ليست هناك أي مشكلة.. فصديقتي تحبني، وهكذا أصحابي جميعًا، وكل يوم.. مخدرات، وشرب، ومعي سيارة أحدث موديل، وما يكفيني ويزيد من المال.. إذًا، ليست هناك مشكلات.

وفي ليلة من الليالي، كان يوم خميس، وكنا في بداية شهور الشتاء، وكنت في الحادية والعشرين من عمري، وبعد أن شربت "جُوينْتين" وزجاجتي بيرة، خرجت من البيت وعلى باب المصعد وجدت ميدو، ومعه زُوني.. وأسرعت بقولي:

– إزيَّك يا ميدو، كنت لسه هاعدِّي عليكم.

– سَيأُنَاك، أخبارك إيه؟

– النهارده الخميس.. عيد ميلاد إبليس، جُوينتين واتنين بيرة، وعايز أكمِّل.. ها.. هنعمل إيه؟ "الچاكيز" واللاَّ "البارون" واللا إيه النظام؟

– ولا ده.. ولا ده.. إحنا خارجين في سبيل الله.

– يعني إيه يا ميدو؟ هتروحوا تِشْحتوا واللا إيه؟!

– نِشْحت إيه بس؟ إحنا قررنا نعتكف في الجامع كام يوم.

– إيه يا حسين الكلام ده؟

– والله بجدّ مِش تهريج.. ياريت لو تيجي معانا.

– آجي معاكم فين يا زُوني؟ أنا مش فاهم حاجة.

– تعال معانا، وأنتَ هتنبسط.. صدّقني الخروج في سبيل الله جميل.

- طول عمرنا بنروح مع بعض فى أى وكل حتة.. أجى النهارده وأقول لكم لأ.. مش معقول.. بص أنا سكران يا جماعة؟ أعمل إيه يا ميدو؟

- إطلع خُدْ دُشْ وانت تفوء، وهات معاك جلابيتين.. تلاتة، وبطانية ومخدة، وإحنا نستناك.

- يا نهار أبيض يا زُونى.. أنا مش مصدق!! نازل سكران علشان أروح الچاكيز، ألاقى نفسى خارج فى سبيل الله.

- إطلع بس، وتعال معانا وجرّب، ولو ماعجبكش امشى.. مفيش مشكلة خالص.

- ماشى.. نص ساعة.. آخد دش وأجهز حالى.

- وإحنا فى العربية.

وبسرعة أخذت الدش، وبعد أن ارتديت ملابسى دخلت إلى غرفة الوالد والوالدة.. وقلت لأمى:

- يا ماما.. أنا عايز بطانية ومخدة علشان أنا خارج فى سبيل الله.

- خارج فى سبيل الله مع مين؟

- مع زُونى وميدو يا ماما.

- والله أنا مش فاهمة حاجة.. إنما خير.

- عايز حاجة يا بابا؟ كام يوم كده وارجع!!

- يعنى هاعوز إيه منك.. إبعد عنى.. إنتَ اتجننت خلاص.

- أكيد إنتَ مش مصدقنى؟! والله خارج فى سبيل الله.

- ربنا يهديك يا ابنى.. "إنك لا تهدى منْ أحببت.. ولكن الله يهدى من يشاء".

- باى باى.

تركتهما وهما فى حالة ذهول، وعدم استيعاب لكل ما يحدث منى، ولكنهما قد تعودا مثل هذه المفاجآت الكثيرة والغريبة من حين إلى آخر.. وهناك جديد باستمرار..

وعندما ركبت سيارة ميدو، سألته:

- هو فيه إيه يا ميدو؟ إيه الموضوع؟ فهّمني.. أنا مش فاهم حاجة.

- من أسبوعين، وبعد صلاة الجمعة، تعرفت على شيخ طيب.. راجل بركة، اسمه عمر المهدي.. زارني في البيت النهارده، وقال لي إنه خارج في سبيل الله وعايز ياخدني معاه.. الراجل شخصية محترمة، ووشه منوّر، وحسيت إني عايز أسمع كلامه.. وبصراحة الواحد محتاج يقرّب من ربنا شوية.. إحنا زودناها، وخرّبناها أوي.. وبيني وبينك تجربة.. ومفيش مشكلة ولا خسارة.

وقررنا أن نمر على رامي ونأخذه معنا.. لكنه رفض بكل حسم، ومررْنا على بوتو، ولم نجده، وفيما أظن أنه دخل المستشفى مرة ثانية للعلاج.. وقضينا في الجامع ثلاث ليالي: ليلة الخميس، والجمعة، والسبت.. وخلال الاعتكاف في تلك الفترة، كانت العلاقة بيني وبين راندا قوية، ومررنا بأقوى وأعلى درجات الحب.. ومع هذا لم أقل لها أخباري، ولم تعرف أين أنا، ومتى أعود.. لا معلومات عني بتاتا.. وقضيت أجمل ثلاث ليالي.. هدوء تام، صلاة، أحاديث دينية، أكل وشرب ونوم في الجامع.. حياة كاملة داخل المسجد.

عندما عدنا من رحلة الاعتكاف، أذكر جيدا، أنه كان يوم الأحد بعد صلاة الظهر، وافترقنا على أمل اللقاء، والخروج مرة ثانية في سبيل الله.. ولازلت أذكر أنني أخذت "الدُش" في بيتي، وقررت أن أنزل بسرعة لأرى راندا في الجامعة.

إنها الساعة الثالثة بعد الظهر، وقد افتقدتها كثيرا، لأول مرة لا أراها كل هذه المدة الطويلة وكنت أخشى ألا أجدها، فهذا موعد عودتها للمنزل.. وبحثت عنها في المكان الذي تعودنا الجلوس فيه.. ولم أجدها، فذهبت إلى "الكافتيريا"، وهناك وجدتها أمامي، وعندما رأتني انفجرت باكية، وجلسنا معا، وعاتبتني.. وبين الدموع المنهمرة قالت:

- كده يا صلاح.. كده تسيبني وما اعرفش عنك حاجة أربع أيام!!

- معلش يا راندا.. والله غصب عني.

- كلمتك عشر مرات، وطلبت من كل أصحابنا يكلموك.. على طول مش موجود.. مش موجود!! ممكن أعرف كنت فين الأربع ايام دول؟!

- خرجت في سبيل الله.

- ايه هو اللي خرجت في سبيل الله.. يعني ايه؟

- كنت معتكف في الجامع.

- لا.. مش مصدقاك.. إنت بتكذب عليّ.. إحنا كنا مع بعض يوم الخميس، ولا كان فيه فكرة جامع، ولا فيه صلاة أصلاً، تقول لي خرجت في سبيل الله؟!

- والله يا راندا مش بضحك عليكِ.. كنت أنا وزوني وميدو.. حتى إسأليهم.

- طيب ليه ما قلتش.. يعني هو أنا كنت ها امنعك؟ حرام عليك اللي إنت عملته فيّ.. أنا قلت إنك خلاص مش بتحبني، ومش عايز تشوفني تاني.. أنا مخي باظ.. تلات ايام ألف وأدور حوالين نفسي.

- معلش.. أنا آسف.. ماكنش قصدي.. دي جت كده بالصدفة.. يوم الخميس قابلت زوني وميدو.. بسرعة أقنعوني، فرحت معاهم على طول.

- طيب كلمني.. ما كلمتنيش ليه.. كنت حتى تطمني؟!

- أنا آسف، وعمري ما ها أعمل كده تاني.. بس إيه ده.. أنا ماكنتش أعرف إنك بتحبيني أوي كده!! ده ايه الحب ده كله؟!

- يا سلام.. وطبعا ولا على بالك.

- لا والله.. دا إنت وحشتيني جداً.. بس فيه مشكلة كبيرة يا راندا.. اللي إحنا فيه دا حرام.. حرام جدا كمان.. لازم نشوف طريقة نحل بيها الموضوع ده.. إنت عارفة زوني ونيفين اتجوزوا عرفي.. وقالوا لما يتجوزوا عادي مش هتفرق، هو ماحدش هيعرف أصلاً.. شلتنا بس.

- نتجوز؟! أخاف!!

- تخافي من إيه؟ هو إحنا هنعمل حاجة غلط؟ بالعكس إحنا هنعمل اللّي يرضي ربنا.. أنا مش ها أقدرأمسك إيديك لو ما تجوزناش.

- طيب هنتجوّز إزاي؟

- زُونى شرح لى الموضوع.. هنكتب ورقة زواج عرفي واتنين شهود.. زُونى وميدو موثوق فيهم مية فى المية.. إيه رأيك؟

- أوكيه.. أنا أهم حاجة عندى إنك ما تبعدش عنى تانى أبدًا.

- بكره أعدّى عليك في الجامعة، ونروح عند ميدو، ونلاقى زُونى عنده ونتجوّز على طول.

- ياه!! وأبقى مراتك؟!

واقتربت راندا لتُقَبِّلنى.. فقلت لها:

- أصبُرى لغاية بكره، وبعد كده اعملى اللّي إنتِ عاوزاه كله.

وفي اليوم التالى، مررت على الجامعة، ووجدت راندا فى انتظارى على الباب. جاءت معى وذهبنا إلى زُونى وميدو وأخذتهما معنا.. وفى شارع متفرع من شارع شهاب، أخرج ميدو الورقة والقلم، وكتب ورقة الزواج العرفى، ووقّعت راندا، وأنا أيضًا، والشهود زُونى وميدو.. قبّلت راندا، وقلت لها:

- ألف مبروك يا راندا.. عُقبال مانتجوّز قدام العالم كله، ونعمل أجمل فرح فى الدنيا دى كلها.

وبعد التهنئة من زُونى وميدو، دعوت راندا على العشاء والاحتفال بهذا اليوم.

وتمر الأيام، ونعود إلى الحشيش.. وتوقفنا عن شرب الخمور، وعن البودرة.. فقد تصورنا خطأ أنه ليست هناك مشكلة بالنسبة للحشيش.. ليس بحرام، مثله مثل السجائر.

واستمرت العلاقة مع مريم.. كانت في حالة بحث مستمر عني.. وكنت ألتقي بها مرة كل شهر أو شهرين؛ إذ لا شيء يجمع بيننا.. لا سهر، ولا شرب، ولا مخدرات.. لكنها تحبني بصورة لا يمكن تخيلها أو فهمها.

وتبدأ السنة الثالثة ويأتي شهر مارس، ولم أذهب إلى الجامعة، ولم أحضر محاضرة واحدة.. وذات يوم استيقظت حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرا، وناداني الوالد.. وسألني:

- إنتَ خلاص نويت تاخد كل سنة في تلات سنين.. واللاّ إيه بالظبط؟!

- لا.. بس أنا السنة دي قررت التأجيل.

- تأجيل؟! يعني إيه تأجيل؟

- مش عايز أدخل امتحانات السنة دي.. أصل أنا تعبت من مجهود السنة اللّي فاتت، وقلت أريّح شوية.

- تريّح.. يعني إيه تريح؟ إيه التهريج اللّي إنت فيه ده؟ طبعا إنت عارف إنك هتسقط، وإنك ولا حضرت ولا محاضرة واحدة.. واخدت فلوس الكتب أربع مرات، وما اشتريتش ولا كتاب واحد.. صحّ؟

- حضرتك بتزّعق ليه بس؟! دي مش طريقة تفاهم.

- أصل اللّي إنت عاوزه.. بس أنا خلاص رميت طوبتك.. مفيش فيك أمل.. وهتاخد السنة برْضهُ في تلاتة.. برضهُ زي سنة تانية.

- تعلمْ يا حاج دادي.. أنا لو عايز أنجح.. ها أنجح.. ولو عايز أجيب تقدير، ها أجيب تقدير، بس بصراحة أنا مكسّل.

- تقدير.. هاهاها.. ضحكتني.. بس إنجح الأول.

- تراهنّي؟! تراهنّي على إيه إني ها انجح وأجيب تقدير كمان؟!

- اللّي تقول عليه.

- طيب بُص يا سيدي.. لو نجحت وجبت جيد:

نمْرة واحد: أغيّر عربيتي وأجيب الموديل جديد.

نمرة اتنين: رحلة لأمريكا وتذكرة سفر لخمس ولايات داخل أمريكا.

نمرة تلاتة: تلات آلاف دولار للرحلة.. بدل ألف دولار.

- وأنا موافق.

- لا يا باشا.. نكتب ونمضي علشان ما نختلفش.

لم يكن عند الوالد أمل في النجاح بنسبة 1%، وبالطبع لا أمل في التقدير على الإطلاق.. وأحضرت الورقة، وكتبت الشروط الثلاثة، ووقع الوالد، وأيضا الوالدة، والشهود أخي كريم وأختي رولا، وأضاف كريم قائلاً:

- وأنا مني 500 دولار كمان.. إيه رأيك؟

- وأنتم تخسروا يا بهوات.

لم يكن النجاح أو التقدير هدفي.. إنما كانت أهدافي.

أولا: رحلة إلى أمريكا؛ أتجول خلالها في أكثر من ولاية، وأشوف كاليفورنيا.

ثانيا: أحصل على بعض الأموال من الوالد، وأعمل "شوبنج"، وأسعد راندا بالهدايا الجميلة.. بالنسبة لي من المهم شراء هدايا لأصحابي، وحقًا كنت أشعر بسعادة طاغية عندما أراهم سعداء بما اختاره لهم من هدايا، وراندا دائما أنيقة، ومع آخر صيحة.

ثالثا: وأهم شيء.. موضوع تغيير السيارة، فكل أصحابي في كلية راندا سياراتهم آخر موديل، ولست أقل منهم.. إذا موضوع السيارة بالنسبة لي أساسي، وحيوي.. طبعا شيء رائع المباهاة بسيارة آخر موديل أمام الأصحاب والجيران، وأمام راندا، والدنيا كلها.. وكنا نعلم جيدا أن السيارة "بريستيج".

وفي تلك الأيام، مصانع السيارات، تتنافست في إنتاج أشكال وألوان من الموديلات الجديدة، وغمرت بها الأسواق والسوق المصري، وفكرت أن أشتري سيارة "شيفروليه" سبور آخر موديل.. ولم لا؟

وتنفيذا لاتفاقية النجاح والتقدير المطلوب، تذكرت زميلي فتحي.. تعرفت عليه في السنة الثانية، وذاكرنا معا آخر شهر في تلك السنة.. إنه طالب مجتهد

ودؤوب، من أسوان، ويعيش في المدينة الجامعية، يحضر جميع المحاضرات، وحريص على جمع كل الملازم، وشراء الكتب، وتصوير المحاضرات، وهذه الموضوعات العجيبة بالنسبة لي.

لم أضيع الوقت، توجهت إلى المدينة الجامعية بحثًا عن فتحي.. وأخيرًا وجدته.. وجلسنا جلسة عمل طويلة، سألته عن المنهج، الكتب والمحاضرات، ثم اقترحت اقتراحًا وجيهًا:

– يا أقولك إيه يا فتحي.. أنا عاوزك تقعد عندي في بيتي.. إقامة كاملة.. هات كتبك ولبسك، وتنسى المدينة الجامعية خالص..

بصراحة.. العرض لا يمكن رفضه.

أعجبه العرض فعلاً، وانتقل للحياة معي في بيتي.. عمارة أنيقة في الزمالك، غرفة نظيفة، خدمة على أعلى مستوى، رايح، وراجع من الكلية بالسيارة.. وفي رأيه أن عائلتي نموذجية، وليست فيها مشكلة.. المشكلة الوحيدة هي أنا شخصيًا.. أما هو، لا يضيع وقته في غير المذاكرة، وأحيانًا يكتب الشعر ويهوى المسرح، وتقمص شخصية شكسبير.

باختصار.. دماغه تختلف عن دماغي تمامًا.. هو وأنا عكس بعض مائة في المائة..

عقدنا الاتفاق يوم 16 مارس، وقررنا التنفيذ يوم 23 مارس بحجة ترتيب بعض الأشياء الضرورية في البيت، وبما أن الامتحانات تبدأ يوم 6/6، إذًا أمامنا أكثر من شهرين.. نرتب الأمور، "ونظبط" الدنيا ونذاكر بجد، وقلت لنفسي في هذا الأسبوع أتمتع بحريتي بقدر المستطاع، يوم سُكر مع علاء، ويوم ضرب مع رامي وأحمد، ويوم ضرب مع حسام، ويوم سهرة مع رانda.. إنه أسبوع الحرية، والوداع.. وكل يوم كنت أستيقظ من نومي الساعة الواحدة، وأتلقى تليفونات، وأملأ البيت ضجيجًا، وبعدها أخرج وأعود بعد منتصف الليل وأكثر..

وكل يوم، يقول لي الوالد ساخراً:

- طبعًا تقدير جيد.. ده شيء أكيد.. والله بالمنظر ده ممكن جيد جداً كمان.

- لا.. إحنا اتفقنا على جيد بس.. جيد جدًا مالُهاش لازمة.. ريّح نفسك أنا ها ابدأ بعد ثلاث ايام.. دى خطة يا حاج دادى.

وجاء يوم 23 مارس، وكما وعدت فتحى، مررت عليه فى المدينة الجامعية، كان فى انتظارى وعلى أتم استعداد، وأخذنا حقيبته وتوجهنا إلى المنزل حوالى الساعة التاسعة. لم يكن فتحى يدخن السجائر بانتظام، وهو على أكثر تقدير لم يتجاوز علبة كاملة فى حياته كلها.. وفى الطريق إلى البيت ولّعت سيجارة ملفوفة، وأحس بالذعر، وسألنى:

- إيه ده؟

- إكسير الحياة.

- ونذاكر إزاى؟

- هو ده بتاع التركيز كله، ده ماركة امتياز يا أبو فتحى.

وصلنا البيت، وأعددت لزميلى فتحى المكان الذى يضع فيه ملابسه، وأشياءه الخاصة، وجلست على مكتبي وشرعت فى كتابة أسماء المواد.. وسألته:

- عندنا كام مادة السنة دي؟

- تسعة.

- أنا عندى ثمانية بس!! ليه؟! فيه مادة إختفت!!

وقرأ فتحى أسماء المواد ووجدت المادة المختفية، وكتبتها على ورقة كبيرة، وثبتها على الحائط، ثم أخرجت قطعة حشيش من درج المكتب، وطلبت من فتحى أن يقفل باب الغرفة بالمفتاح.

- ليه؟

- علشان ألف سيجارتين.

- إيه ده؟ هو إحنا مش هنذاكر؟

- إحنا ذاكرنا خلاص.. مش كفاية كتبنا أسماء المواد؟! إنت بتستعبط والّلا إيه؟!

وبعد أن لفيت سيجارتين، سألته:

- إنتَ حشّشت قبل كده يا فتحي؟

- لا.. لكن شربت بيرة.

- يا سُكَرى يا جامد إنتَ.

- شربتها مرّتين في حياتي.

- طيّب النهارده أنا ها اعرّفك على الشيكولاته.. بُص يا فتحي.. عادى.. زى السجاير بالظبط.. إنتَ مش بتشرب سجاير برُضه؟

- أيوه باشرْب.. بس يعني سيجارة.. سيجارتين كل فين وفين.

- أمسك.. خُد نفس وأكْتِمْ.

- إزاى يعنى؟!

- أنا أعلّمك إزاى؟

وبدأ فتحي يتابع كل ما أفعله بتركيز شديد.

- يالّلا، خُدْ نفس، والتاني والتالت والرابع، ورا بعض، بخلوله في المقص على طول.. ودلْوقت جان دور الكوبّاية.

- كوباية إيه؟! لا.. لا.. لا.. أنا مش عاوز خلاص.. كِفاية كده.

وفي ثانية واحدة شغلت الكوبّاية، وتحركنا ما بين الغرفة، والبلكونة، بالطبع من غير المعقول أن نحشش في الغرفة، وبعد نفسين أو ثلاثة من "الكوبّاية"، بدأ فتحي يصيح بصوت عالٍ:

- أنا شربت حشيش.. أنا ربّنا مش هيغفرلي.. أنا لازم أصلي، ثم قفز على السرير وبدأ يُصلّي.

وقف فتحي على السرير بجذائه.. ورفع يديه إلى السماء قائلاً: الله أكبر..

- يخرب عقلك يا فتحى.. هتودينا فى داهية.

أسرعت إلى المطبخ لأعد له كوب ماء بالسكر ليفيق من هذه الحالة، وقلت له:

- اسمع يا فتحى ربنا يخليك ولا كلمة.. دقيقة واحدة وارجع لك.. نام على السرير يا فتحى.. ما تتكلمش، وما تتحركش لغاية ما أرجع لك.

- حاضر.. بس أنا عايز أقوء.. أنا مش فاهم نفسى.. هى دماغى اللى بتلف وَلاَّ الأوضة هى اللى بتلف؟

- طبعًا الأوضة هى اللِّى بتلف.

بعد دقيقة، رجعت له بالكوب مملوءا بالماء والسكر، على أمل أن يفيق وتنتهى المشكلة، وفوجئت "بالشخير" العالى.. نام فتحى بملابسه.. ووقعت فى حيرة.. ماذا أفعل؟! لا شيء سوى أن أقول له:

- تصبح على خير يا فتحى..

قررت الخروج، ومررت على الأصدقاء، وحكيت لهم ماذا جرى لزميلى فتحى، بعد نفسين حشيش..

وعدت إلى البيت الساعة الثالثة، ووجدته نائما، ولم يشعر بوجودى فى الغرفة.. وعندما استيقظت الساعة الحادية عشرة صباحا، كان فتحى قد سبقنى واستيقظ مبكرا، وظل يقرأ فى هدوء حتى أصحو، وكان أول سؤال منه قبل صباح الخير:

- هو إيه اللِّى حصل إمبارح؟

- اللى حصل لا يتحكى، وَلا يتقال.

- أنا مش فاكر ولا حاجة من ساعة الكوباية.. هى اللى دمّرتنى.

- دا إنت اللى دمرتنى يا شيخ.. انبسطت وقعدت تقول لى باحبها.. وحكيت لى قصة حب مُرْعبة.. يا راجل دا إنت كنت هتعيّط.

- لا .. لا .. مش معقولة.

المهم.. كلما أشعر بالملل، تبدأ حلقة من حلقات مداعبة فتحى بأفكار جهنمية مرحة.. كان من الصعب أن تمر الأوقات بأسلوب تقليدى.. ورسمت معه برنامج الحياة والمذاكرة وقلت له:

- أنا رأيى يا فتحى ننظّم جدول المذاكرة، وننظم الكتب والملازم، والأوراق كلها.. والمذاكرة كل يوم ماعدا يوم الخميس من الساعة ستة، والجمعة كله أجازة.. وآخر شهر، نلغى أجازة الخميس وناخد أجازة الجمعة بس، وفى آخر أسبوعين نلغى أجازة يوم الجمعة كمان.. إيه رأيك يا أبو فتحى؟

وكان القرار قرارى فى كل التفاصيل، وكانت لى السيطرة كاملة على الموقف، وبدأت المذاكرة والتركيز على أعلى مستوى.. وأخذت السيارة إلى الجراج، ورفعت منها البطارية، كى يصعب علىّ التحرك، ويصعب على الأصحاب تحديد مكانى.. وبذلت أمى ومعها أختى زولا، بالتبادل، جهدًا كبيرًا فى تلخيص بعض المحاضرات، وشرح بعضها الآخر، والسهر معنا للمراجعة.

وبكل صراحة، بذلت أنا أيضًا جهدًا جبارًا.. كنت أذاكر حوالى 14 ساعة فى اليوم بلا توقف، وكان عزائى الوحيد، آخر كل ليلة ألف "جوينتين"، وأخرج أشربهم فى البلكونة، وأسمع أغنيتين أو ثلاثة وأنام.

مر الشهران الأول والثانى، وأفراد الأسرة، جميعًا، فى دهشة وذهول تام من الجهد الذى أبذله يوميا.. مذاكرة بجدٍ جدًا.. والتركيز عالٍ لأقصى درجة "مفيش هزار".. وبدأت الامتحانات، وأعترف أننى ذاكرت فعلا، ولجأت أحيانًا للبرشام، ولا أنكر أننى لجأت أيضًا للغش ممن حولى.. بأمانة بذلت جهدًا فى البنود الثلاثة، ويقينى أننى سأحصل على النجاح بل والتقدير، وبطرقى الخاصة استطعت أن أعرف نتيجة الامتحان مادة، مادة من الكنترول.. مادة جيد، وأخرى جيد جدًا، والثالثة مقبول، ورابعة جيد.. وتوقف الأمر على المادة الأخيرة، لو حصلت على جيد، إذًا المجموع الكلى جيد.. وقد كان.

ظهرت النتيجة، والتقدير العام جيد.. والفصل الأول لأختي رولا، والفصل الكبير لأمي، وأيضا فتحي.. وكلهم بعد ربنا طبعا، ويحق لي أن أطالب بتنفيذ الاتفاق، أو دا فيها ضرب نار..

- هاهاها.. نفذ يا حاج دادي.. العربية الجديدة.. تذاكر السفر لأمريكا.. ثلاث آلاف دولار.. و500 دولار يا كيرو.

في الفترة ما بين انتهاء الامتحانات والسفر، ارتفع عدد مرات ضرب البودرة، وأصبحت أكثر خبرة ومعرفة بأماكن الشراء، وأي ذولاب يعمل.. وبدأت أحب البودرة، وأعرف كيف أستمتع بالحياة بعد الضرب، والموسيقى كان لها تأثيرها القوي في هذا الموضوع.. بدأت أسمع نوعا جديدًا من الموسيقى، أسمع: "بوب مارلي، سانتانا، دورز، بروس إسبرنغ ستين، داير استريتس".. وأصبح اهتمامي الأول فرق موسيقى "الروك"، وملأت جدران غرفتي بصور "بوب مارلي" بالجوينت"، وفوق سريري صور "جيم مورسن"، وأعلام للقراصنة، وأعلام سوداء لفريق "إسكوربيونز"، وكان كل من يدخل غرفتي يذهل مما يراه من صور وأفكار جديدة وطريفة، فلا يشعر من يجلس فيها بالملل، ووضعت لوحة، كتبت عليها "انظر.. ولا تلمس".. وعلى الباب "ممنوع الدخول"، وأخرى "اللي خايف يروّح".

بعد النجاح المشرف، سافرت إلى أمريكا مع ريكو وميدو، فقد سهرنا أيامًا وليالي نحلم بهذه الرحلة، وقد كان.. الرحلة كلها مدهشة، بدأناها في نيويورك، وطرنا إلى كاليفورنيا، وقد استطعنا أن نتجول في كل أرجائها بسيارة نؤجرها في كل بلد.. وكانت الرحلة حافلة بالمواقف الكوميدية.. أبدأها بما حدث لنا في نيويورك.

كنا نستخدم مترو الأنفاق في كل تحركاتنا، وذات يوم جلس بجانبي رجل عملاق من السود، شكله غير عاطفي بالمرة، أقصد أن شكله مخيف، وفي البداية لم يكن الأمر يعنيني إلى أن وضع زجاجة شمبانيا على رجلي. وقال لي بصوت خشن، وبنبرة حادة وجادة:

- دي بتاعتك.

- دي مش بتاعتي.

فقال "مؤكدا":

- دي بتاعتك.

قلت مرة ثانية:

- دي مش بتاعتي.

وفي الثانية ذاتها، وجدت "مطواة" في جنبي، وفورا مددت يدي وأخذت الزجاجة.. وقلت له:

- دي بتاعتي.

- 38 دولار.

- بس؟! والله يا بلاش..

وأخرجت 20 دولار من جيبي.، وقلت مستنجداً:

- واحد منكم يطلع 20 دولار بسرعة.. فيه "مطوة" في جنبي.

- "مطوة"!! إمسك يا عم.

أخذ الرجل 40 دولار.. وبكل نزاهة أخرج من جيبه 2 دولار وقال لي:

- الحق حق.

وتبادلنا النظرات في صمت، وأسرع الرجل بالنزول في المحطة، واختفى في لمح البصر، بينما نحن الثلاثة لا نصدق ما حدث، وسرنا إلى الفندق ونحن في حالة ذهول، واحضرنا ثلاثة أكواب لنحتفل بزجاجة الشمبانيا.

التي اشتريناها دون رغبتنا.. ووجدنا في الزجاجة ماء، مجرد مياه.. وهنا، في تلك اللحظة، سرحت في بعض الذكريات والتساؤلات..

أولا: تذكرت ما كنت أفعله في الزجاجات التي يشتريها الوالد لأصدقائه الضيوف.

ثانيا: لماذا لم يسرقنا ويأخذ ما يريد من أموال دون حاجة إلى قصة الزجاجة؟

ثالثًا: لماذا أعاد لي "دولارين" من الـ 40 "دولار"؟

والإجابة.. هذه هي نيويورك.

وجدنا كاليفورنيا مبهرة.. ومن حسن الحظ أن أصحابنا من أيام المدرسة يعيشون هناك.. بعضهم التحق بالجامعات، وبعضهم يعيش مع أسرهم.. مما جعلنا نشعر بالاطمئنان.. ففي هذه الولاية عشرات من الأصدقاء يمكن الاعتماد عليهم.. ونزلنا عند أصحابنا في لوس انجلوس ووفروا لنا الماريجوانا، الويسكي والكوك.. وحقيقة الأمر لم يعجبني ولم يكن يستهويني، لأنه دائما كان يقارن بالبودرة التي أحببناها، وهذا لا يمنع أننا كنا برضه نضرب كوك..

وبعد يومين قررنا أن نسافر إلي سان دييجو، وطلعنا المطار، ووقفنا في الطابور.. إنه طابور طويل، وبجانبنا طابور اخر صغير. واقترحت عليهما أن ننتقل إلى الطابور الأصغر فهو أسرع.. ومرت الإجراءات سريعًا، وكان المفروض أن نتجه يمينا.. لكننا اتجهنا إلى اليسار، وكل منا وضع "ووك مان" على أذنيه، تسمع إف إم وهي روعة في كاليفورنيا.. فهم دائما يذيعون أفضل وأحدث الأغاني، وفي يد كل منا كوب نسكافيه، وفي الواقع أنها أكواب ويسكي، ونحن الثلاثة في حالة سُكر غير طبيعية.

وكنت أولهم في دخول الطيارة، واستقبلتنا المضيفة بالابتسامة المعتادة قائلة:

– الطيارة فاضية.. أُقعدوا في أي مكان يعجبكم.

ومن ورائي سار أحمد ورامي.. وكالمعتاد جلسنا في آخر كراسي الطيارة، لقد تعودنا منذ أيام الدراسة الجلوس في آخر صف.. وطوال الوقت لم يرفع أحد منا الـ "ووك مان" من على أذنيه.. وتمر دقائق، ولم يقل أحدنا جملة أو كلمة للآخر.. المهم.. كالمعتاد أيضا بدأنا مداعبة المضيفة، كما يحدث معنا في مواقف كثيرة مختلفة.. وبعد جولة من المداعبة والضحك، سألتنا المضيفة:

– تشربوا إيه؟

قلنا في صوت واحد:

– ويسكي.

لم تتردد، وأحضرت لكل منا زجاجتي ويسكي صغيرتين "بلاك ليبل" وسعدنا بهذا الكرم، والأناقة في التعامل، ولكن أدهشني أن الرحلة لا تزيد عن نصف ساعة، ونحن في الطائرة منذ ساعة.. احترت، فقررت أسأل المضيفة متى نصل سان دييجو.. ودار بيننا أغرب حديث:

– هو مش المفروض الرحلة نص ساعة؟

– لا.. الرحلة أكتر شوية.. هوا إنتم رايحين تعملوا إيه في سان فرانسيسكو؟

– إحنا مش رايحين سان فرانسيسكو.. إحنا رايحين سان دييجو.

ذهلت المضيفة، وطلبت بطاقة ركوب الطائرة، وأخذتها مني وطارت على أول الطائرة.

إذا لقد ركبنا هذه الطائرة خطأ!! إنها مشكلة، أصحابنا في انتظارنا في سان دييجو، وشنطنا ليست معنا.. إنها على الطائرة المتجهة إلى سان دييجو!! ثم ماذا نفعل في سان فرانسيسكو؟! نعم هي كانت في الخطة، لكن ليس بهذه الطريقة!! لا.. لا.. لقد وقعنا في مشكلة. لابد أن نطالب بالتعويض بسبب هذه الغلطة.. ثم لا توجد طائرة اليوم متجهة إلى سان دييجو!!

إنها فرصتنا.. فرصة ذهبية جاءت لنا من السماء ونحن فوق السحاب.

وفي موضوع الطيران، والطيارات.. والتعويضات كنت أستاذ الأساتذة.. وأذكر أول رحلة، سافرت فيها على خطوط جوية أجنبية، وجاءت الطائرة من أثينا كاملة العدد، وليس عليها مقعد واحد خال، فاضطروا إلى تحويل التذاكر إلى اليوم التالي على خطوط أخرى، وأعطوا كل تذكرة تعويضا قيمته خمسمائة دولار.. حدثت هذه الواقعة في أولى رحلاتي لأمريكا، وفي تلك الرحلة ضاعت حقائبي ما بين شركات الطيران، وأخذت تعويضا قدره 1250 "دولارا" على كل حقيبة.. وحزنت على حقائبي وما فيها من ملابس وهدايا.. بعد هذا الموقف كنت في كل رحلة أخرج بحقيبتي من المطار، ثم أعود وأبلغ عن فقدان الحقيبة، وأحصل على التعويض.. ولا أنكر، وبصراحة بعض شركات الطيران كانت محترمة جدا.. أعطتني تعويضات كبيرة، وفي تصوري أن هذا يشفي غليلي ويعوضني عن ضياع حقائبي في رحلتي الأولى.

انقلبت الدنيا رأسا على عقب.. على الطائرة ثلاثة ركاب استقلوا خطأ الطائرة المتجهة إلى سان فرانسيسكو، ونزلنا مطارها ونحن سكارى، ولا نكاد نتمالك أنفسنا من الضحك، ونتظاهر بالجدية والغضب، وأردت الاستفادة من هذا الموقف أكبر فائدة ممكنة.. وكان رامي يريد العودة مرة أخرى إلى نيويورك ليتجول في شارع 42 الذي نراه في أفلام السينما، وتصور بأنه ملئ بكل أنواع المخدرات، وفتيات الليل، ومغامرات السود.. وعلى الفور تشاورت مع أصحابي قائلاً:

- أنا ها أتصرّف.. سيبوهم عليّ.

وكم كان مدير مكتب شركة الطيران في مطار سان فرانسيسكو رقيقا ومهذبا، وسألني بعد تقديم الاعتذارات لنا عن التعويض المطلوب.

تكلمت بمنتهى الثقة:

- بالنسبة للتعويض، نريد الآتى:

أولاً: إقامة كاملة فى فندق 5 نجوم فى سان فرانسيسكو لمدة ليلة.. وذهاب وعودة إلى المطار.

ثانياً: إحنا هنضطر إلى تغيير خط السير، والمطلوب تذاكر طيران إلى نيويورك، وعودة إلى سان دييجو.

ثالثاً: يتم تسليم الشنط فى مكتبكم فى نيويورك.

رابعاً: 200 دولار لكل واحد لنشترى ملابس نلبسها النهارده وبكره.. مش عاوزين اكتر من كدة، ولو مش موافقين هنروح لمحامى فى سان فرانسيسكو، ونرفع قضية.. والقضية اكيد فى صالحنا.

أغرب شىء، تمت الموافقة على النقاط الأربع بعد عشر دقائق، شيك بمبلغ 200 دولار لكل منا، وسيارة ليموزين تأخذنا إلى الفندق، وتذاكر الطيارة إلى نيويورك فى عصر اليوم التالى.

وصلنا إلى نيويورك، وأمضينا بها أربعة أيام، تجولنا خلالها فى شارع 42، وجربنا جميع أنواع المخدرات، ودخول البارات، ولعب القمار.. وبصراحة لم تعجبنى الحياة فى نيويورك ولم تستهونى.. إيقاع الحياة سريع، والإحساس بالخطر عال جداً.

وهناك مررت بموقف غريب.. كنت فى جولة لعمل "شوبنج"، وكان هناك اتفاق مع راندا على إعلان خطوبتنا بعد العودة من أمريكا مباشرة.. وفى محل أنيق، اخترت بدلة مدهشة، جربتها، وبدلة أخرى أنيقة، وثالثة، وأخيرا استقر رأيى على اكثرها أناقة وأعلاها ثمنا.. كانت رائعة بالقميص والبابيون.. تمام فعلا.. وقلت: أنا اشتريت، ثم ألقيت نظرة أخيرة أمام المرآة، وفجأة غمرنى إحساس غريب.. بأن هناك شيئا ما خطأ.. ماهو؟ وما تفسير هذا الإحساس الغريب؟ لست أدرى..

التفت فوجدت رامي بجانبي.. وقال لي:

- حلوة جدًا.. مبروك عليك يا صاصو.

- لا يا ريكو.. أنا مش هاتجوز راندا.

ولم يفهم.. ولم يسألني تفسيرًا.. وأعدت البدلة مكانها.. لم أشتر بدلة الخطوبة، وقلت:

- يااللا بينا يا جماعة.

انتهت هذه الرحلة الجميلة.. وفي طريق العودة إلى القاهرة، توقفنا ترانزيت في أمستردام، عاصمة هولندا، صاحبة قانون تعاطي المخدرات العجيب.. كانت فرصة قصيرة لشرب وتعاطي المخدرات علنًا.. فالقانون يحمينا!! والسؤال الذي يطرح نفسه: ليه مصر ما تسمحش للضريبة بالضرب زي هولندا؟! هو ده التقدم واللا بلاش.

اشترينا أفضل وأحدث أجهزة التعاطي: "بايب" لتدخين الحشيش، ورق بفرة بأشكال مختلفة، على هيئة مئة دولار، وعلم أمريكا، وأخيرًا ماكينة للف السجائر.. بعد العودة إلى مصر ساعدتنا هذه الماكينة المعجزة على الجلوس في صالات الديسكو، ونحن ندخن الحشيش، وكان مستحيلا أن يفرق أحد بين سيجارة هذه الماكينة العبقرية، والسجائر التي تنتجها الشركات العالمية.. نجلس في المكان وندخن الحشيش وفجأة تفوح الرائحة، فيتحرك "الويترز" حول الموائد، ولكن لا يستطيع أحد معرفة مصدر هذه الرائحة.. فالمكان مزدحم والكل فيه يدخن بشراهة.. ونستمر في الضحك على ما نفعله.. ويتحدث كل الحاضرين عن هذه الرائحة، ولا يعرف أحد من وراءها.

إنها رحلة لن تتكرر.. سافرنا من الشرق إلى الغرب.. شمالا وجنوبا، ومررنا بمواقف، ليس لها أول من آخر.. وكانت الخطة أن نعود إلى مصر في أول أكتوبر، وكالمعتاد عدنا في آخر ديسمبر.. رجعنا بعد ما صرفنا كل ما معنا، وليس في محفظة أحدنا أكثر من خمسة دولارات. وقد لا نستطيع دفع

أيَّة مبالغ في الجمرك، وأملي أن أستطيع الدخول بسهولة ومعي إستريو جديد وصغير.. وظللت طوال الوقت أتمتم: ربنا يسهِّل ويعدِّي.. واستجاب الله لدعائي.

10

يــوم عصيب

عدنا نحمل معنا ذكرياتنا.. واقعة الطيارة، وقصص وروايات هوليوود.. وأهم شيء في الدنيا:

"الكونسيرتس"، وحفلات "فيل كولنز، داير ستريتس، جنز آند روزيس، كينكس، إسكوربيونز، بروس سبرنجستين".. وكان برنامج الرحلة يقوم أساسا على الحفلات، وأماكنها ومواعيدها.

وفي تلك الرحلة كان أسلوبنا في الضرب غريبا، يبدأ لحظة استيقاظنا من النوم، بمعنى أن نضع في فمنا "جوينت" ماريجوانا، وكل منا يأخذ نفسين، وبعدها نفطر، وأحياناً لا نفطر.. أيضا أحببنا كثيرا زجاجات الويسكي الصغيرة، وكنا على قناعة تامة، مائة في المائة، بأنه إذا شربنا الويسكي في الصباح، لن يحدث لنا صداع بسبب الشرب في الليلة التي تسبقها.. وعندما سألنا عن البودرة، كانت الإجابة من الأمريكيين بأنهم لا يعرفون لها مكانا محددا، وفي رأيهم أنها نوع خطير من الإدمان، لذا يخافون ويخشون كثيرا من التعامل مع البودرة، وكنا نردّ بأنها ليست إدمانا، وأننا نضرب منذ سنوات.. لذا كنا نضرب كوك، وجربنا شيئا جديدا وخطيرا يشبه الماكس في مصر يسمى "إسبيد"، فيظل الانسان مستيقظا لمدة يومين، 48 ساعة، في حالة نشاط على أعلى درجة، ولم يعجبنا، لكننا مررنا بالتجربة.

وصلنا إلى مصر آخر ديسمبر.. إنها السنة الدراسية الرابعة بالجامعة، وفي تلك السنة وقعت أحداث الأمن المركزي، ولم نتوقف عند أحداثها كثيرا، فقد كان شوقنا كبيرا للأصحاب وللجلسات الجميلة معا، وأيضا لأنواع المخدرات، التي تعودناها وصديقاتنا من البنات، لنحكي عن رحلتنا والمغامرات التي عشناها.

كان أول مشوار ذهبت فيه مع رامي إلى أم سيد الساعة الثانية، واشترى كل منا ورقة وهي تكفي اثنين أو ثلاثة، واشترينا السرنجات والليمون، وزجاجة المياه المعدنية، وفي جاردن سيتي، وفي شارع هادىء، وقفنا بالسيارة وضربنا.. ولم نتحرك إلا لشراء سجائر، وتوقفنا بالسيارة مرة أخرى، ثم تحركنا.. وهكذا حتى الساعة التاسعة، ثم توجهنا إلى المهندسين، ووجدنا كل الشباب عند ميدو.. كان واضحا علينا عدم الاتزان، ولا تعليق من أحد، وجاءني بهاء الذي توقف عن الضرب لمدة شهرين كاملين، وسألني:

- معاك نص ستتى يا صلاح؟

- طلبك عندي يا اكسلانس .. دا إنت طول عمرك أبو الواجب.. باقول لك إيه يا رامي.. إعمل واجب إنتَ كمان مع بونو.

- أنا أصلاً جهزت له سوسته في العربية، وقلت مش ها اديها له إلا إذا هو طلب.

دخل ميدو في الحديث قائلا:

- أنا عايز خطين.. شكلها بودرة سم.. هات بسرعة يا صلاح قبل ما علاء يرجع.

- ماشي.. أحسن حاجه تضرب وتنزل بسرعة.. مش عاوزين مشاكل وخناقات مع علاء..

كانت نظرة واحدة إلى المرأة كفيلة بشرح الشعوذة التي نعيشها، وأنه يمكن تصديرها للآخرين.. وبعد أن ضرب ميدو الخطين في الحمام، انطلقنا إلى شارع شهاب.. كان لنا هناك مكان محدد على الناصية.. نقف عنده نشاغب ونعاكس الرايح والجاي، ولو مرت بنا واحدة وصاحبتها، معناها الضحك للصباح بلا توقف.. يكفي أن نسمع تعليقين من بونو.. فلا نضحك وحدنا، بل يضحك المارة أيضا ضحكات من القلب.. ومن أقواله في هذا الموقف:

- ده شارع شهاب ولا جنة ربنا في الارض.

- اسمعي يا قطة.. أنا مش باعاكس.. أنا عايز عنوان البيت، أصل أختي عايزة تتجوز، وأنت أكيد عندك أخ.

- أنا بهاء الشهير ببونو، صاحب أطيان، 8 فدادين برتقال، و3 فدادين كمثرى وشجرتين مانجو.. واحدة علشاني، والتانية علشانك، ونقعد ناكل ونلعب لحد الديك ما يقول كوكوكولا.. أصل الديك بتاعي فاتح كشك..

وإذا مرت بنا فتاة بملابس رياضية يقول:

- والكابتن بيلعب مع مين.. أكيد كوم النشن.. أو ابو الغيط؟ نفسي أجيب جون في المقص.

وكان معنا زوني في كل هذه الأفلام.. ولكنه يكتفي بالسيجارتين الملفوفتين، وزجاجة البيرة.. فقط لاغير.. فقد وعى الدرس جيداً.. حشيش وبيرة وبس.. درس البركينول كان قاسياً عليه.

وفي اليوم التالي، وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، جاءني رامي، وطلب الاستعداد للخروج سريعاً، قائلاً:

- يالا بينا على أد مين.. وبسرعة.. عندنا ميعاد مع البنات اللي كانوا معانا على نصر الطيارة.. أنا اديتهم رقم تليفوني، وكلموني وصحوني.. وقالوا لي عاوزين نشوفك إنت وصاحبك الرفيع ده.. قالت لي إنك عجبت صاحبتها مايسة.. بس أنا مش فاكر مايسة مين فيهم؟

- مش فارقة.. الاتنين مزز.

- واتفقت معاهم على ميعاد عندي في البيت الساعة واحدة.

- ووافقوا على طول كدا؟!

- حصل.. وقالت لي مفيش مشكلة.. قلت لها علينا الغدا.. قالت لي الغدا بس.. قلت لها والعشاء كمان؟! إيه النظام يا صلاح؟

- قل لي الأول، فين باباك ومامتك؟

- طلعوا الغردقة إمبارح بالليل.

- يا جماله.. دا يوم رياضي؟
- ياللا بينا.. نروح نشتري كام تذكرة من ام سيد.. ونرجع على بيتي.
- قُلْ يا ريكو.

وبعدما ضربنا في بيت رامي، قلت له:

- بُصْ يا ريكو.. ما بضربش كتير.. علشان نشوف النظام ماشي إزاي.
- ماشي يا معلم.. بعدين نعلّي زيّ ما إحنا عاوزين.

دارت الموسيقى، ووصلت نادين وصديقتها مايسة الساعة الواحدة، ورحبنا بهما.

- هاي .. هاي.

فقالت مايسة:

- بيتك حلو يا رامي.
- اتفضلي..
- أصل مامته ذوقها حلو.

وقالت صديقتها نادين:

- هتشربونا إيه؟
- بيرة.. ويسكي.. حشيش.

نادين:

- الصُبح كده؟

رامي:

- دي تبقى أحلى إستمورنج.

نادين:

- أنا آخد بيرة.

وقالت مايسة:

- وأنا كمان.. وإنتم ويسكي طبعاً.

فقال رامى بلا تردد:

- لا.. إحنا بودرة.

لم يكن رامى يخفى هذه الحقيقة المرة، وبكل جرأة يعلن إنه بيضرب بودرة، كأنها مثل البيرة.. وكلامه أدهشهما، وبدأت التعليقات من البنات:

- بودرة؟ أنا عمرى ما شفتها، بس سمعت عنها.. إنت جربت البودرة يا نادين؟

- لأ.. تيجى نجرب وناخد؟

- لا يا شيخة .. أخاف.

وتدخل رامى فى الحوار:

- ما تخافيش.. ما إحنا قدامك أهه.. جهز خطين حلوين يا صلاح بس مايتوصلش.. دول أول مرة يا معلم.

- إدونى دقيقتين.. بس قولوا لى إنتم من فين؟ وفى جامعة ايه؟ وكنتم بتعملوا إيه فى أمريكا؟ صحيح إحنا مانعرفش عنكم أى حاجة خالص.

فقالت مايسة:

- يعنى إحنا نعرف عنكم أى حاجة!! إنت فى كلية إيه؟

رديت:

- أنا فى تجارة خارجية.. ورامى فى سياحة وفنادق.. بس إحنا مع بعض فى الفصل من حضانة لثانوية عامة..

- ياه.. حلوة دى.. وكنتم بتعملوا ايه فى كاليفورنيا؟

- كنا عند أصحابنا، بنلف.. وقعدنا هناك 5 شهور.

وقالت نادين:

- وإحنا الاتنين من مصر الجديدة، وعايشين فى لوس أنجلوس.. فى الجامعة هناك.

- يو. سى. إل. ايه!!

فتساءلت مايسة في دهشة:

– عرفت إزاي يا صلاح؟

– طبيعي.. مَا هيَّ أشهر جامعة في لوس أنجلوس.

وهمس رامي في أذني قائلاً:

– خف البودرة شوية يا صاصو، بعدين يقعوا منّنا، ومش ها نعرف نعمل شغل.

– خلاص.. نقسّم الورقة على أربعة.. وناخد أنا وأنت كل واحد فينا نص.. قشطة؟

– ماشي، بس أنا ما بقيتش أعرف أشم.

– ليه؟! مناخيرك إتسدّت والا إيه؟!

– لا.. السوست حاجة تانية.

أخذت البنات الخطّين في هدوء.. وبدأت الليلة.

بدأها رامي بالعزف على الجيتار.. ونال تشجيع الجميع.. ثم جمعتنا جلسة مرحة ضاحكة، واستمعنا إلى الموسيقى وأغنية هادئة، ورقصت مع نادين، ورقص رامي مع مايسة، رغم أنني فهمت منذ البداية أن مايسة معجبة بي شخصيًا، وصديقتها معجبة بصديقي رامي، وبصراحة لا فارق.. وبكل اهتمام، سأل رامي مايسة:

– مالك؟ حسّيتي بحاجة؟

– آه .. يعني نيّمانة.. وإنتِ يا نادين حاسّة بحاجة؟

– حاسة إني مبسوطة.

فقلت:

– باقول لكم إيه.. إحنا بنلعب الإزازة.. خلّينا نضحك شوية.. تعرفوها؟

فقالت مايسة ونادين معًا:

– طبعًا.. نعرفها.

وبدأت اللعبة بأسئلة خفيفة، وضاحكة، وبسرعة رفعت درجة حرارة الأسئلة:

- يا مايسة.. صاحبت كام واحد فى حياتك؟

ردت "بهدوء":

- ثلاثة.

وبدأت الأسئلة الصريحة حول العلاقات العاطفية، وبدأت الأحكام، وتبادلنا القبلات وتطورنا إلى مناطق أكثر سخونة، وارتعدت رعبًا، عندما حكمت نادين على مايسة أن تأخذ خطًا آخر من البودرة.. وبصراحة لم أكن أريد أن نكررا التجربة.. كلتاهما لذيذة وظريفة، والأظرف البقاء فى حالة من الحيوية بدلا من "البهدلة"، إذ لم أنس أول مرة، وأول تجربة في حياتي.. أخذت خطين، وكنت فى حالة غريبة من التَرَجيع والغَيْبوبة.

فتح رامى ورقة جديدة، وعمل أربعة خطوط، وطلبت منه همسًا أن يعد لنا سرنجتين، بعيدًا عن غرفة الاستقبال حتى لا يروننا، والتفت إليهما فوجدتهما تضحكان.. فكل منهما أخذت خطين من الأربعة.. بمعنى انتهت التذكرة الكاملة، وقالت مايسة:

- علشان تعرفوا إن إحنا ما يهمناش حاجة.

قلت:

- يا نهار أسود.. شفت يا رامى؟! دول خدوا التذكرة بحالها.

- مش مهم، أنا لسه معايا بودرة تانى.

رديت بغضب:

- بودرة تانى إيه يا مجنون؟!! دول كده هيأفوروا.. هو أنت فاكرهم زينا؟

- يأفوروا إيه بس؟! ما تخافش يا أخى.

ظلت الموسيقى تدوى فى أرجاء البيت، ولكن بصراحة غمرنى القلق، وتكهرب الجو فى البيت.. وبعد عشر دقائق، بدأت مايسة تتقيأ فى الصالون..

ومدخل البيت، واستندت إلى كتف نادين في اتجاه الحمام، وهي الأخرى تتأرجح في خُطواتها، ولا تحتمل ثقل زميلتها على كتفها، فأسرعتُ إلى مساعدة نادين، وقلت لها:

– حاسْبي.. أنا أساعدها.

وقبيل دخول الحمام، أغمي على مايسة بين يديَّ، فصرختُ:

– يَا نهار أسود!! دي أفْوَرت!! مش قلت لك يا رامي!!

وفي الثانية نفسها، أغمي على نادين، ووقعت على الكنبة، وأصبح معنا جثتان، واحدة في حالة إغماء كاملة.. وفاصلة تمامًا.. والثانية ملقاة على الكنبة بتَخَرّف، ولم نفهم كلمة واحدة مما تقوله.. وبدأت ألف وأدور حول نفسي، وسألت رامي قائلاً:

– نعمل إيه يا رامي في المصيبة دي؟ يارب عدّيها لنا على خير.

– نشربهم ميّة بسكر؟

– ميه بسكر إيه بَس؟! هما مَساطيل؟!

وبدأت أرشّ الماء المثلج على وجه مايسة.. وجاء رد الفعل ضعيفًا، فقلت:

– الحمد لله.. عايشة.. بس أنا خايف أحسن يموتوا.

وشعرت أن الخوف يتصبّب من أطراف أصابعي.. دمي "نشف".. وحاولت مرة أخرى بالماء المثلج، ورش الكولونيا، واسترجعت معلوماتي في الإسعافات الأولية، مثل: إجراء تدليك القلب، ومحاولات التنفس، وقبلة الحياة، والضرّب على الوجنتين، ورش المزيد من الماء المثلج والكولونيا..

ناديت رامي بأعلى صوتي، وجاءني فورًا، وقلت له:

– تعال يا رامي.. إنتَ فين يا أخي؟ خلّيك مع نادين.. حاوِل تفوّقها.. كفاية واحدة بأفْوَرْ.. وتموت منا.

– أنا ضرَبْت يا معلم.. ودي سرنجتك.

- ده وقت ضرب؟! مش عايز أضرب.. شوف نادين أحسن تكون أفورت هى كمان.

وسيطر عليّ الرعب إلى أقصى درجة.. رشيت عليّ مايسة المياه والكولونيا.. وأخيرًا بدأت تفتح عينيها.. وسمعت صوت نادين الضعيف يسألنا:

- إحنا فين؟! مايسة فين؟! هو إيه اللى حصل؟!

وتمر دقائق.. تفتح إحداهما عينيها، وتعود فى غيبوبة من جديد، وهكذا مع الأخرى ونحاول نحن إفاقتهما بكل الوسائل.. وظل الحال على هذا المنوال حتى الساعة الحادية عشرة. وأخيرًا وقفت نادين على رجليها، وبعد ساعة وكأنها الدهر كله، وقفت مايسة.. نعم، معهما سيارة، إنما من المستحيل قيادة السيارة بهذه الحالة.. وكان سترًا من الله أن أهل رامى سافروا إلى الغردقة، وإلا كنا سنواجه فضيحة كبرى.. والحل المثالى الوحيد تركهما تناماان حتى الصباح.. وليحدث ما يحدث.. ولم تكنْ تمر سوى دقائق معدودة إلا وأدخل لأراهما واطمئن أنهما يتنفسان.. وأتنفس أنا الصُعَداء، وقُلتُ لصاحبى:

- يا رامى هات السَرِنجة.. البنتين دول فَوّقُونى.

وبعد أن ضرب لى، لأننى لم أكن أعرف كيف أضرب لنفسى حتى ذلك الوقت، جلسنا معًا فى البلكونة نسمع الموسيقى، بين النوم والصحيان.. وحوالى الساعة الثانية قررت إيقاظهما من النوم:

- ياللاّ إصحوا.. حرام عليكم إيه اللى عَمَلْتوه فينا ده؟

سألت نادين:

- هى الساعة كام؟

- الساعة اتنين.

وتساءلت مايسة:

- إحْنا مارَوّحناش بيتنا؟

- لا.. روّحتوا ورجعتوا تانى.. طبعا مازوحتوش، تروحوا إزاى وانتم فى الحالة دى؟!

- إحنا لازم نقوم.. بس يا مايسة أنا مش قادرة.

- ولا أنا.. لكن دُول هيقلقوا علينا أوى.

- مش مهم.. ننام، وبكره نفكر فى أى فيلم.

ونامت كلتاهما فى أقل من ثانية.. وقلت لرامى:

- باقولك إيه يا ريكو.. أنا كمان هانام هنا.. وبكره نخلّص من البنتين دول.. يروّحوا.. دول كانوا هيلبّسونا أسود.

- لا.. مخطّط وإنتَ الصادق.

- الحمد لله يارب.. ربنا ستَرْها فعلاً.. يوم عصيب ومر.

11

المأساة الأولى

استيقظت، واستيقظ صديقى رامى أيضا حوالى الساعة الواحدة ظهرًا، ولم نجدهما.. ولا ندرى متى وكيف خرجت الفتاتان.. ولم نرهما مرة أخرى.. ولم نكن نريد رؤيتهما، فقد مررنا بتجربة خطيرة وقاسية، ونحمد الله أنها مرت على خير.

ومنذ عودتى من رحلة أمريكا الأخيرة، كنت أشعر أن هناك تصرفات غير عادية من راندا.. لم تكن هى راندا التى أعرفها.. الابتسامة مختلفة.. بها انكسار غير مفهوم، وكأنها تخفى خطأ ما.. وسألتها عشر مرات وأكثر:

- فيه حاجة يا راندا؟ إنتِ متغيرة.
- لا مفيش.. هيكون فيه إيه يعنى؟
- متأكدة؟!
- طبعًا متأكدة.

واتفقت مع راندا أن أمر عليها فى الجامعة الساعة الواحدة، وآخذها معى إلى بيت رامى، فأهله فى الغردقة، وأردت أن أعطيها شنطة كاملة مليئة بالهدايا، وملابس أنيقة من أرقى بيوت الأزياء وكلها آخر صيحة. وصلت قبل موعدى بساعة.. وكانت الساعة وقتها الثانية عشرة.. كان عند راندا محاضرة حتى الساعة الواحدة، فالتقيت بأصحابى.. واستقبلتنى الشلة كلها بحرارة.. اقترب منى مصطفى وطلب منى أن ننفرد معًا فى جلسة خاصة، ولم أستطع إخفاء قلقى، وسألته:

- خير يا مصطفى؟! فيه إيه؟

- أنا عايزك في موضوع.. تعال بعيد شوية.. بُص يا صلاح.. إنتَ عارف، أنا بحبك أد إيه.

- طبعًا يا ابنى.. إحنا إخوات.

- علشان كده أنا مُضطر أقول لك ومن غير لفّ ودوران، راندا من عشر أيام كانت مع أسامة في "كوفي شُوب" في الزمالك.. وفي اليوم ده كنت خارج مع سماح، وقلت لها تعالى يا راندا نتغدى سوا، واعتذرت لأنها عايزة تروّح بدرى.. المهم أنا وسماح رُحنا نفس "الكوفى شوب"، وفوجئنا بأنها هناك مع أسامة، والقاعدة مريحتنيش.

- أسامة مين؟

- الولد التّخين، اللى دمه خفيف.. لما تشوفه هتعرفه.

- وبعدين؟

- طبعًا هي اتخضّت واتزعبت لما شافتنا وماعرفتش تعمل إيه.. وطبعًا لأننا إحنا اللى داخلين المكان، فرُحنا نسلّم.. وهو قال لنا: اتفضلوا.. اقعدوا معانا، اقعد يا درش.. قلت له: لأ نسيبكم تقعدوا لوحدكم.. دا أنا لسه كنت مقابل راندا في الجامعة، وقلت لها تيجى معانا، فقالت لى لأ، علشان لازم تروّح بدرى.

- أنا فعلاً كُنت ها روّح بدرى، بسْ أسامة قال إنه عاوزنى فى موضوع مهم، فجينا مع بعض نتكلم شوية.

- وبعدين يا مصطفى؟

- ردّيت وقلت: طيب نسيبكم تتكلموا في الموضوع المهم.. وسماح ما قالتش ولا كلمة، وقعدنا فى ترابيزة بعيدة شوية، وبعد عشر دقايق، راندا جت لنا وقالت: أنا عاوزاك يا سماح دقيقة واحدة، ولما رجعت سماح حكت لى الحوار، وأنها حلفت وأقسمت أن مفيش أى حاجة بينها وبين أسامة.

- وسماح قالت لها إيه؟

– قالت لها ده موضوع يخُصِّك، وما يخصُّش حد فينا.. وبعدين راندا قالت لها: طبعًا مصطفى هيقول لصلاح؟! فقالت لها سماح: إتكلمى مع مصطفى واتفاهمى معاه.

– وراندا كلمتك؟

– أيوه.. جتْ كلِّمتنى من يومين، وكلامها يخُش العقل، بس برضه هى غلْطانة.. دى مافيهاش فصال.. أنا ماكنْتش ناوى أقول لك.. وقلت لها إنِّى مش ها أقول لك، بس بشرط هى تحكى لك.. بس الواضح إنك ما عْرِفتْش، وبينى وبينك الجامعة كلها عرِفت القصة.. إنتَ عارف.. سماح ما تتوصاش.

– تصدق يا مصطفى.. أنا كان قلبى حاسس إن فيه حاجة غلط.. أحكى لك حاجة مش هتْصدقها.. وأنا فى أمريكا، شُفت كام بدلة خُطوبة وكانوا عشرة على عشرة، وبصيِّت فى المرايا، وإحساسى قال لى إن فيه حاجة غلط، وساعتها قلت لرامى أنا مِشْ هَا أتْجوِّز راندا.. ومَا اشْترِتْش البدلة.

– يا ترى أنا غلْطان إنى قلت لك؟

– لأ طبعًا يا مصطفى.. وعلى العموم كأنك ما قلْتِش حاجة.. وأنا هَا اتْصرَّف.. كِدَا راندا تاخُد السكَّة.. انتهى الموضوع.

رجعنا نقعد مع الشلة، وكنت فى حالة ذهول، وشعرت أنهم جميعًا ينظرون لى نظرة معناها:

– يا حرام.. ضِحكِتْ عليه.

وجاءت راندا الساعة الواحدة، ومن بعيد رفعت يدها بتحية السلام على الجميع، وأخذتها إلى السيارة، ودارت الموسيقى، ولم أنطق بكلمة واحدة، فسألتنى:

– أخبارك إيه؟

– زَهقان شوية.. بصراحة نفْسى أعيش فى أمريكا.

– قالت لها ده موضوع يخصّك، وما يخصّش حد فينا.. وبعدين راندا قالت لها: طبعًا مصطفى هيقول لصلاح؟! فقالت لها سماح: إتكلمي مع مصطفى واتفاهمي معاه.

– وراندا كلمتك؟

– أيوه.. جتْ كلّمتني من يومين، وكلامها يخُش العقل، بس برضه هي غلْطانة.. دي مافيهاش فِصال.. أنا ماكُنتش ناوي أقول لك.. وقلت لها إنّي مش ها أقول لك، بس بشرط هي تحكي لك.. بس الواضح إنك ما عرفتش، وبيني وبينك الجامعة كلها عرفت القصة.. إنتَ عارف.. سماح ما تتوصاش.

– تصدق يا مصطفى.. أنا كان قلبي حاسس إن فيه حاجة غلط.. أحكي لك حاجة مش هتصدقها.. وأنا في أمريكا، شُفْت كام بدلة خُطوبة وكانوا عشرة على عشرة، وبصّيت في المرايا، وإحساسي قال لي إن فيه حاجة غلط، وساعتها قلت لرامي أنا مشْ ها أتجوزّ راندا.. وما اشترِتْش البدلة.

– يا ترى أنا غلْطان إني قلت لك؟

– لأ طبعًا يا مصطفى.. وعلى العموم كأنك ما قلتش حاجة.. وأنا ها اتصرّف.. كِدا راندا تاخُد السكة.. انتهى الموضوع.

رجعنا نقعد مع الشلة، وكنت في حالة ذهول، وشعرت أنهم جميعًا ينظرون لي نظرة معناها:

– يا حرام.. ضحكتْ عليه.

وجاءت راندا الساعة الواحدة، ومن بعيد رفعت يدها بتحية السلام على الجميع، وأخذتها إلى السيارة، ودارت الموسيقى، ولم أنطق بكلمة واحدة، فسألتني:

– أخبارك إيه؟

– زهقان شوية.. بصراحة نفْسي أعيش في أمريكا.

- ياريت.

- باى يا رامي.. باى يا صلاح.

فتحت شنطة السيارة وأخرجت منها حقيبة راندا، وقلت لها أن تنادى البواب ليساعدها، ويطلع معها بيتها.. ونادت البواب، وقالت لى:

- مرسيه يا صلاح.. مش عارفة أقول لك إيه؟ أنا بجد بَحبَك أوى.

- وأنا كمان.

أخرجت الورقة الصغيرة من جيبى وأعطيتها لها قائلا:

- إفتحيها لما تطلعى البيت.

- فيها إيه الورقة دى؟

- دى فاتورة حساب اللبس اللى جبتهولك.. إنت فاكرة إنه ببلاش والللاّ إيه؟ يالّلا اطلعى.

لم تفهم كلامى جد أم مداعبة و"هزار".. وقالت:

- كلمنى يا صلاح.. ما تطنشنيش.

- طبعًا ها اكلّمك.. (وكأنى أقول لها: طبعًا مش ها اكلّمك).

- يالّلا بينا يا ريكو على أم سيد.

- حاضر!! مالك!! إنت مش طبيعى النهارده!! هو فيه إيه؟!

وفى الطريق حكيت له القصة.. ووصلنا عند أم سيد..

- الباب مفتوح.. يعنى مفيش شغل.

- يعنى إيه مفيش شغل؟! إيه العكننة دى؟ طيب اسأل الشغل جاى إمتى؟! أو الأحسن.. أنزل أنا وأشوف إيه النظام.

عرفت وفهمت إن الحكومة تراقب المكان بإحكام.

- طيّب يا صلاح ولا يهمك، نروح نجيب من بولاق.

- بولاق إيه؟ مفيش زى بُودرة أم سيد.

- أنا سمعت من بوتو إن فى بولاق دُولاب جديد، فيه شُغل سم.

- صحيح.. طمنّي.. هو بونو عامل إيه دلوقت؟
- خربها وبيضرب كتير جدًا.
- أووف.. أنا خايف عليه.

ولن أنسى كيف مرت بنا أحداث الأمن المركزى.. حقًا لم أتوقف كثيرا عند أسبابها، ولم أهتم بتحليل دوافعها أو نتائجها.. فقط كنت أراقب المظاهرات وأحداث الشغب من بعيد، فصدرت قرارات حظر التجول بطول البلاد وعرضها.

وفى تلك الأيام، كُنّا أسعد ناس.. وكأننا نملك القاهرة.. نتجول فى شوارعها بسيارة صديق والد رامى، وهو من الشخصيات المرموقة، وكان قد سافر فى مهمة، ولديه تصريح خاص، يمكنه التحرك بالسيارة فى كل الظروف، بالإضافة إلى أن والد رامى كان لواء، وكان رامى معه "كارنيه" يساعد فى حل مواقف كثيرة، وذات مساء واجهتنا لجنة وسألنا أحد ضباطها:

- على فين يا رجّالة؟

أجبت:

- معانا تصريح يا افندم؟ تحب تشوفه؟ ومعانا رُوشِتّه علشان نشترى دواء من صيدلية الإسعاف.
- اتفضلوا.. وعلى مَهلكم.

أيام الحظر كانت مختلفة، وجميلة بالنسبة لنا.. نخرج كما يحلو لنا فى كل الأوقات، ونتجول فى كل مكان.. الهدوء الشامل يسود الشوارع الخالية من المارة ومن السيارات.. نقضى ليالينا فى أحد الفنادق الكبرى على البار نستمع إلى مغنية تعزف على البيانو، وكل واحد يشرب 7 أو 8 كاسات "دوبل".. ويحيينا البار باثنين من عنده.

وذات ليلة قررنا أن نذهب إلى عزبة فى مصر القديمة، ولم نجد أحدًا هناك.. نحن فقط!!! بإسلام.. ضرب بمزاج، عالٍ جدا، وكل واحد منا فى خدمته

واحد من الصبيان، والمعلم من حين إلى آخر يوجه تحيته إلينا بدرج، ثم "بصبة" أفيون.. وفي يوم نضرب بودرة، ونقضي اليوم في نادٍ من الأندية.. ولا أحد غيرنا في الشوارع.

يا سلام.. لو أن حالة حظر التجوال تستمر طويلاً!! أكيد سوف نشعر بأننا من أسعد الناس في الدنيا.. إحساسنا بأننا بمفردنا في الفنادق أو في النادي أو في الشارع.. إحساس جميل لم نمر به من قبل.. إحساس جعلنا نتصوّر أننا من أقوى أو أهم الناس في البلد.

نرجع إلى موضوع راندا التي قررتُ ألا أكلمها مرة أخرى.. لقد انهارت تمامًا.. ظلت تبحث عني في كل مكان أتردد عليه، ولم تكن محظوظة لأيام وأيام، لأنني، وبالصدفة العجيبة، لم أتواجد أبدًا في الأماكن التي تعرفها، وسألت عني فيها.. واستطاعت أخيرًا أن تدبر كمينًا، وظلت تنتظرني ساعات طويلة بالقرب من بيتي، وعندما رأتني أتجه للسيارة، انطلقت من مكانها كالقذيفة، ووقفت في طريقي قائلة:

– ممكن أركب؟

– طبعًا ممكن.

دخلت السيارة بسرعة مذهلة، وقبل أن تستقر في مكانها، قالت:

– بجد.. أنا كنت ها احكي لك، بس أنتَ مادتنيش أي فرصة.

– بأقول لكْ إيه يا راندا، بلاش شغل الأفلام ده وهاتي من الآخر.. إنتِ عايزه إيه؟

– عايزة يا صلاح أشرح لك اللي حصل.. حاول تسمعني.. حاول تفهمني.

– أنا مش عايز أفهم الموضوع خالص، وعلى رأي بهاء.. صفّر الحكم.. إنتِ كمان بتحيطي؟!

– صدقني والله أنا كنت ها أقول لك.. بس إنتَ كنت لسّه جاي من السفر ومش عاوزه أزعلك.

- خلّيتيني قَرطاس في الجامعة.. سألتك 100 مرة فيه حاجة يا راندا؟ اسمعي.. أنا مشْ عاوزك.. ولا عاوز أفهم.. وانزلي من العربية قبل ما اتْجنّ عليك.

- اتجنن عليَّ.. أنا مش ها انزل من العربية.

- خلاص.. هَا انْزِلْ أنا.

أوقفت السيارة.. نزلت وظلت هي في مكانها في السيارة.. ثم أشرت إلى تاكسي قائلاً:

- المهندسين.

ولم أجد ريكو في بيته، ولم أجد ميدو أيضا.. وقفت حائرًا أمام باب بيته. أكلم نفسي قائلاً:

- دا إيه الغلب ده؟ أرْجَع بيتي.

عدت.. وكنت في قمة الغضب والضيق، وفي الناحية الأخرى من الشارع، لمحت حسام يقف حائرًا.. متوترًا.. ويدور حول نفسه، ويبدو أنه على موعد مهم، وينتظر شخصا ما في لهفة، وعندما رآني، أسرع إليَّ قائلا:

- حَمْدِ لله على السلامة.. ياعم، جيت من أمريكا، ولا ظهرت ولا سألت!!

- يا عم إنت اللّي مختفي على طول، وعربيتك مش في الجراج ليه؟! إنت شكلك مستنّي حد.

- مستني دعاء.. راحت تجيب بودرة من بولاق.. ساعتين ولسه مارجعتش.. مش عارف بتعمل إيه دا كله..

رأينا دعاء قادمة وهي تبتسم..

- أهي وصلت.. شُفْت وِشّي حلو إزاي؟

- يبقي أكيد جابت الشغل.

وأسرع إليها قائلاً:

- إنتِ فين يا "حيوانة"؟

- ماكنتش فيه شغل، وقعدت مع أم نادية لغاية لما الشغل جه وقطعته، دي كانت مش عاوزة تطلع الشغل النهارده.. قال إيه، بكره.

- يا سلام.. اركب يا صلاح.. طبعًا إنت عايز تضرب.

- كلك نظر يا معلم.

- جبتي أد إيه يا دعاء؟

- ربع جرام أصلي.

- معلمة.. تربيتي بصحيح.

- أنا قعدت معاها ساعة، إتصاحبنا وبقينا حبايب، فعملت معايا واجب.

- إنت محظوظ يا صلاح .. يالّلا بينا على أقرب صيدلية.

اشتريت 6 سرنجات، وعمل حسام ثلاث سرنجات محترمة، وثلاثة للتعلية.. ضربنا.. وبعد جلسة دردشة قلت لحسام:

- وصلني عند عربيتي.

- ما تقعد معانا شوية.. هو إنت دايما كده تضرب وتخلع؟!

- المرة دي قصة طويلة، عربيتي عند جنينة الأسماك.. أصل أنا اتخانقت مع راندا، ونزلت وسبتها في العربية، وأخدت تاكسي.

- وهي راندا راحت فين؟!

- ولا أعرف.. سبتها في العربية، وأخدت تاكسي.

وعندما وصلني حسام إلى عربيتي، كانت المفاجأة أن أجد راندا لا تزال تجلس في السيارة.. أذهلني الموقف فقلت:

- يا نهار أبيض!! تلات ساعات قاعدة في العربية!!

وبأسلوب البنات، ودون أن تفهم الموضوع، قالت لي دعاء:

- خلي عندك دم وصالحها.

وتأثر حسام من موقفها، بالإضافة إلى أن البودرة تجعلنا نشعر بالتعاطف والحنان.. وبصراحة.. كنت قد افتقدت راندا كثيرًا، وأسرعت بالخروج من

السيارة وأخذت السَّرِنجة الثانية معى في جيب الجاكت، ودخلت سيارتى وقلت لها:

- بأقول لك إيه يا راندا.. مش عايز أتكلم فى موضوع أسامه نهائى، أو أنزل وأسيب العربية مرة تانية.

- بلاش.. بس علشان خاطرى ماتسيبنيش.. أنا بحبك يا صلاح.. إنت كل حياتى.

أخذتها إلى بيت رامى.. الذى استقبلنا بابتسامة هادئة، وقلت له همساً:

- خُدِ السرنجة دى وإنزل.

- منين دى؟

- من أم نادية.

- مين أم نادية دى؟

- الأم المثالية!!

- مين بجد؟

- دُولاب فى روض الفرج.

- أنتَ وصلت لِرُوض الفرج؟

- ياريت يا ريكو.. ده حسام، واحد من جيرانى الضُّرِّيبة.

دخل رامى الحمام، ضرب السرنجة ونزل.. وكانت الجلسة مع راندا عاطفية على مدار أربع ساعات من الحب والحنان والدلع.. المهم، أخذتها إلى بيتها، وفى أعماقى كنت أعرف جيدًا أنَّ قِصتى معها قد انتهت.

وكانت مريم البريئة لاتزال فى حياتى.. وكل ماتفعله فى حياتها هو البَحث عَنِّى، وكلُّ ما يشغلها أن تُسعدنى.. غمرتنى بالهدايا، وكُروت جميلة، ومفاجآت لا أولَ لها ولا آخر: بعثت لى فى عيد ميلادى ورودا بلا عدد، وميدالية مفاتيح من الذهب بمناسبة شراء السيارة الجديدة، بالإضافة إلى نظارات بموديلات مختلفة، وساعة وأكثر من ولاّعة.

بصراحة.. أدهشتني كثيراً بهداياها غالية الثمن، من أين تأتى بكل هذه الأموال؟! إنها تنفق كل مليم تدخره على الهدايا التى تغمرنى بها.. لقد كنت محور حياتها، ومحور تفكيرها.. وأهم إنسان بالنسبة لها فى الدنيا كلها.. والحق، لم أر فى حياتى أحداً من الناس يتفانى فى حب إنسان بهذه الدرجة.. وكان يكفيها أن نخرج معاً ساعة واحدة كل أسبوع، والاتصال بها تليفونيًا من حين إلى آخر، فهى دائما لا تجدنى.. وفى المقابل، كنت دائمًا مع رانذا أو أصدقائى.. حقيقة الأمر، كانت مريم تشعر بأن هناك شيئًا ما خطأ وخطراً فى حياتى، ولم تفتح معى أبدًا حوارًا حول الحشيش أو البودرة.. تخشى أن أغضب ولا أكلمها.. فكانت تسمع أحاديث من الأصدقاء وتتفرج، وتسكت، وكأنها تقول لنفسها: يعمل اللى هو عايزه، بس ما يبعدش عنى.

مرت الأيام، وتجاوزت البلاد أحداث الأمن المركزى، واستمر الحال على ما هو عليه.. يوم ضرب مع ريكو، يوم مع زونى وميدو، يوم مع شلة رانذا، ويوم مع بهاء، ومثله مع حسام، أو شريف الذى يظهر فجأة!! وكما يظهر فجأة، يختفى فجأة.. وظل فتحى يبحث عنى ويلاحقنى ويسألنى:

- إمتى يا صلاح نبتدى المذاكرة؟!

- أول الشهر الجاى.

ويستمر فى الملاحقة، والإلحاح، فقلت له فى نهاية الأمر:

- فى شهر مارس يا فتحى.

ويدير الوالد الأسطوانة، ويوميًا أنال قسطًا من التأنيب:

- مش بتحضر فى الكلية، وتصحى كل يوم الساعة اتنين.. وطبعًا ما اشتريتش الكتب رغم إنك أخدت تمنها تلات مرات.

وكنت أقول لنفسي: حاجة غريبة جداً!! يعنى بعد ست سنوات فى الكلية، والآن فى السنة الرابعة ويطالبنى أن أحضر المحاضرات بانتظام؟! طيب إزاى؟! كيف بالله عليك يا والدى العزيز؟ ولماذا فى هذا العام بالذات أشترى

الكتب؟ لم يحدث أبدا أن اشتريت كتابا واحدا منذ دخلت الجامعة، وحتى أتخلص من هذا التأنيب والالحاح، أحضرت فتحي إلى البيت وقلت له:

- يا أقولك ايه يا فتحي.. سيبني أخرج وما تخنقنيش.. وأنت نظم الأوراق والمحاضرات ومالكش دعوة بيه.. وبعدين إنت السنة اللي فاتت عمال تحضر المحاضرات كلها، وتذاكر، وتصور ورق، وتشترى ملازم وعامل لي فيها أبو العريف، وفي الآخر تجيب لي مقبول، وأنا ذاكرت شهرين بس وجبت جيد.. إنت يا فتحي لازم تنبذ شوية.

فتحي سمع الكلمتين، وسكت تماما.. إنه حقًا شيء غريب، وكلامي يبدو كأنه منطقي.

وفي يوم، خرجت مع حسام نضرب، وقلت له:

- علمني أضرب لنفسي.. ساعات أحب أضرب ومعرفش أعمل إيه.. يعني أروح أقول لبابا يضرب لي والا إيه؟!!

حقيقة الأمر أن يد حسام خفيفة، "تتلف" في حرير.. يعطيني الحقنة ولا أشعر بأي شيء.. وقد علمني كيفية أخذ الحقنة.

كان الوريد يبدو واضحًا، ومكشوفًا للعيان.. أنه يستخدم كثيرًا في ضرب الحقن.. كنت دائما في حالة خوف ورعب.. كان الخوف يتصبب من أطراف أصابعي من اكتشاف أمري.. فاضطررت أن أختار الملابس التي تغطي مكان الضرب، والموضة في ذلك الحين كانت الملابس الواسعة الفضفاضة.. إذا المشكلة لها حل.. وبسبب إلحاح فتحي في أن أظل في البيت للمذاكرة، اتفقت مع حسام على إحضار البودرة ووضعها تحت الدواسة أمام الباب، وفي الموعد المحدد، أفتح الباب وآخذ الورقة، وفي دولابي أكياس السرنجات، والليمون في الثلاجة.

وآه لو لم أجد ليمونة، أثور وأعمل مشكلة:

- مفيش لمون ليه؟ أنا قلت اللمون، أهم حاجة في البيت.

ولم يكن أحد فى البيت يفهم لهذا سببا أو تفسيرا، وهذه المشكلة يسهل حلها بالتليفون.. أكلم حسام وأطلب منه أن يشترى لى الليمون.. ولا يتردد.. وفى رأيه طالما توافرت النقود، إذا كل مشكلة لها حل.. وفى آخر مارس، أخذت القرار: سأتوقف عن الضرب.. العجيب والمدهش أننى أمتلك الإرادة القوية، ومازال فى أعماقى قدر ما من الإحساس بالمسئولية.. وقد كان.. توقفت فعلاً عن الضَرْب، حتى أبدأ المذاكرة بجدية، وأتدبر الأمر جيدًا.

وعدت مرة أخرى أشرب "جُوينْتين" ليلاً بعد الانتهاء من المذاكرة، واستعدت شهيتى لتناول الطعام، بعد أن كنت قد فقدتها تماما، وكان وزنى لا يزيد عن وزن فتى فى الخامسة عشرة من عمره.. وشكلى ضعيف.. والسبب هو الضرب.. كنت آكل كميات قليلة، وفوق هذا وذاك أتقيأ ما آكله، وموضة الملابس الواسعة أنقذت الموقف قليلاً، إذ لم يكن الضعف والهزال واضحا كحقيقته.

ذاكرت بكل همة ونشاط ساعات طويلة، وأديت الامتحانات، وشعرت أننى بذلت كل ما أستطيع من جهد.. وسافر فتحى إلى قريته.. وعدت إلى أصدقائى مرة أخرى.

نبدأ بحسام الذى ظهرت عليه مظاهر الضَرْب، ملابسه رثة.. فقد وزنه وصحته.. يمشى شاردا.. سيارته فى حالة دمار شامل.. وأصبح حديث الناس والجيران والأصدقاء.

وأكثر الأحداث إيلاما، كانت وفاة والد يونو، وقد ورث مبلغا كبيرا، مما جعله يضْرَب كل يوم، وأحيانا مرتين أو ثلاثًا فى اليوم الواحد.

ولم يعد ريكو يلعب حديد.. وركن الجيتار جانبا.. ولم يعد أيضا أنيقًا أو وسيما كما كان، وسيارته "الـ بى إم دبليو" لم تعد جديدة، فالموقف تغير تماما.. مسألة واضحة وصريحة.

واستمر ميدو ملازمًا في البيت ومعه حسين، ومن حين إلى آخر يخرج معى أو مع زيكو، ويعود سريعًا، وتسبب بونو فى التوتر الشديد، فقد بدأ علاء يشعر بالقلق؛ بسبب صداقته مع ميدو، ويثور بحدة إذا خرج معه، قائلاً له:

- بهاء مُدْمن، وآخرته سودا.. عايز تبقى زيه؟ صاحبك آه.. يشوفك فى البيت على عينى وراسى، إنما تُخْرجوا سوا، وتروحوا تضربوا، أو تتمسكوا، ويتقبض عليكم وأنتم بتشتروا، لا.. ولا.. ولا.

ويدافع ميدو عن صديقه بهاء قائلاً:

- بهاء مش مدمن، هو بس بيحب الضَّرْب زيادة شويّة.

يرد علاء بسخرية لاذعة:

- ودخل المستشفى مرتين بيتْفَسّح فيها.. صَحّ؟!

واستطاع زُونى أن يتحكم فى الموضوع بعد كارثة البركينول، وعلى الأكثر نَفَسين وزجاجتى بيرة.. ويكتفى بهذا قائلاً:

- حلْوين على كده.

ساعدته صديقته نيفين على الاستمرار فى ضبط النفس، والحق يقال إن تركيزها معاه كان عاليا جدًا، ولا تكف عن الأسئلة: على فين؟ وراجع إمتى؟ ومع مين؟ ومن تعليماتها الواضحة:

- مَاتُخْرُجْش مع بهاء أو رامى أو صلاح.. كفاية بتشوفهم عند ميدو.

إن موضوع البركينول لم يمر بسهولة، وأعتقد أن بهاء وحده هو الذى تحمل مسؤليته كاملة.. تدهور حالة بهاء وسوء تصرفاته جعلته صاحب سمعة سيئة فى المهندسين، وبالأخصّ فى شارع شهاب.. وبسبب الميراث والأموال الطائلة، توافرت البودرة مع بهاء بصفة مستمرة.. ولكن العثور عليه لم يكن سهلاً.. فكنا نعرف مصادفةً أنه اشترى بُودْرة وسافر إلى الإسكندرية، ثم سافر إلى شرم الشيخ أو الغردقة.. والحق يقال.. كلما قابلته وطلبت منه بودرة،

لم يكن يبخل، ولم يطلب منى ثمنها أبدًا.. ولم أكن أحتاج إلا قليلا، إذ يكفينى نصف سنتيمتر أو أكثر قليلاً لتحقيق أحسن نتيجة، وأقوى دماغ.

وحاولت شخصيًا المحافظة على لياقتى كاملة.. سيارتى فى حالة ممتازة، وسلسلة مفاتيحها من الذهب، ملابس أنيقة والساعة أيضا، والنظارة آخر صيحة، وعندى أكثر من صديقة؛ فالمظهر العام لا بأس به، ومقبول من الجميع.

ظهرت النتيجة، والنجاح بتقدير جيد، الذى أذهل الجميع.. وأصبحت فى انتظار التجنيد، وبالتالى لم تبدأ أنغام أسطوانة البحث عن عمل.. لقد نجحت، وتخرجت فى الجامعة، ليس مطلوبًا منى أكثر من هذا.

وفى تلك الفترة عرفت أكثر من دولاب: أم سيد، الحنش، أنسى، أم نادية، وحسونة.. وغيرهم.. بخلاف الشباب الذين يسافرون السويس.. يشترون من هناك ويبيعون لنا.. وهكذا يحصلون على حقهم فى الضَرْب، ففى تلك الأيام، انتشرت البودرة بصورة مخيفة.. ازداد عدد الذين يَضرِبون، وبعضهم لم يكن يُكثر من الضرب، وتغير حاله، وأصبح يضرب كثيرًا وكل يوم.. ولم يعد الموضوع خافيًا على أحد فى البلاد، الصحف اليومية، والمجلات، والتليفزيون.. كل وسائل الإعلام تناقش: من هو المدمن؟!

اختفى حسام تمامًا، وسيارته ليس لها أثر.. ربما باعها، وكلما سألت عنه لا أجده.. خرج.. لم يعد.. الأمر غريب ومريب، إلى أن قابلته مصادفةً، لقد فقد أكثر من نصف وزنه، وشكله ضَرِّيب، واضح وصريح، وسألته:

– إنتَ فين يا حسام؟ مُختَفِى فين؟

– أصل أنا مشيت من البيت، وأخدت شقة مع دعاء فى مصر الجديدة.

– فين فى مصر الجديدة؟

– فى ميدان الحجاز.. خد نمرة التليفون وكلِّمنى.

– وأخبار الضَرْب إيه؟

– وأخبار الفلوس إيه؟

- لغة جديدة دى يا حسام!!

- ما أنا قلت لك يا صلاح.. مشيت من البيت، وقعدت مع دعاء، وطبعًا مصاريف كتيرة.. الإيجار.. دا غير الضرب.

- الورقة بكام؟

- بخمسين جنيه.

- معاك؟!

- لا.. معايا فى مصر الجديدة، اطلع ورايا بعربيتك، وبالمرة تعرف البيت.

ها هى المفاجأة: حسام فتح دولاب مع دعاء، وكان اعتماده على أصحابه فى مصر الجديدة، وكل صاحب يعرفه بصديق آخر.. وأصبح للمكان زبائن بلا عدد.. وعندما دخلنا البيت وجدت دعاء ترتدى قميص النوم.. إذا هى فى بيتها وعلى سجيتها.. ورحبت بى، فهى تحبنى، وأنا أيضًا، وكنت أصفها بالبنت الشهمة، لأنها لم ترفض لى طلبا أبدًا.. وكانت تتعامل معى بسخاء حقيقى. ولم انتظر طويلاً، وقال لها حسام:

- يا دعاء.. هاتى ورقة لصلاح.

- وأحلى ورقة كمان.. أنا عندى ورقة "مكمة"*.. مش خسارة فيك يا صلاح.

- عندك سرنجة ولمون؟

- مفيش أكتر منهم.. يا ولد على عروقك!! يا ابن الإيه.. نفسى فى عرق من عروقك.. شايفة يا دعاء؟!

- شايفة.. يا بخته.

- عينكم.. يا ساتر على الأرْ.. إحسدونى.. يالا اضرب لى يا دكتور.

- والنبى أنا أضرب لك.

- ماشى يا دعاء.

- تسلم إيديك.. دكتورة يا بنت الإيه.

---

* مملوءة.

- يا أقولك ايه يا صلاح.. فيه واحدة صاحبتي اسمها نانسي، جاية دلوقت، أمُورة وضَرَّيبة كمان.. ايه رأيك؟

- مش هتعجبه يا دعاء.. صلاح بناتة صواريخ، وأولاد ناس كمان.

- لأ.. هتعجبهُ.. وبعدين دي أوْكشة ومُلعَب، وتعرف تدلّعه.

- طيب هي جاية إمتي؟

وفي اللحظة نفسها، سمعنا الطرقات على الباب.

- هيَ.. افتح لها يا صلاح، واعمل لها فيلم.. لاعبها.

فتحت الباب، ووجدت فتاة من نوع آخر.. حلوة بَسْ بلدي! شعرها أصفر، عيناها لونهما أخضر، والبشرة بيضاء.. وسألتني:

- دعاء موجودة؟!

- إنتِ نانسي؟

- آه.. أنا نانسي.

- دعاء نزلت.. راحت مشوار وراجعة بسرعة.. وقالت لي تستنيها.. وبعدين طلبك عندي.

- عندك؟! طيب دخلني يا معلم.

وعندما دخلت، قابلتها دعاء وفوجئت بها، فقالت لها:

- آه يا صايعة.. يا بنت الصايعة.. بتأفلمي عليَّ؟!

ورنت الضحكات في أركان البيت طوال الوقت، وانتهت الليلة حسام ودعاء في غرفة، ونانسي وأنا في غرفة أخرى.. هي شقراء ملونة، كما يقولون بيضاء وغضة الجسم، مُستوى بنات البلد، إنما تثير إعجاب أي رجل، واستمعت إلى قصتها، فهي تتزوج من الأثرياء العرب، شهرًا واحدًا، وتُجدِّد.. غيره.. وقد تزوجت أكثر من مرة.. هي وصديقتها دعاء من الفصيلة نفسها، وأصحاب كار واحد.

قضيت معهم أكثر من يوم، خلالها أعود إلى بيتي لدقائق معدودة، ثم أرجع لهم، وأصبحنا رباعيا، نتحرك معا.. وقد تعلقت نانسى بى إلى حد كبير.. ولم لا؟ واحد ابن ناس، لطيف جدًا فى كل التفاصيل، وأيضا صاحب نفس الكيف والمزاج.. لكنى كالمعتاد سريع الملل، فكنت أسجل فرار، وأذهب إلى أصدقائى فى المهندسين لأطمئن.. وأعرف أحوالهم.. إنه طبع من طباعى، لا أستقر فى مكان واحد مدة طويلة.

تمر الايام.. اليوم مثل الغد.. مثل الأمس.. إلى أن جاء يوم نزلت المهندسين، وفوجئت بزحام رهيب أمام البوابة الكبرى لأحد الأندية.. جمهرة من الناس تتدافع، ركنت السيارة بعيدًا، ومشيت فى اتجاه الجمهور، حتى وجدت بهاء أمامى فقلت له:

- هو فيه إيه؟!

- عاطف مات.

- إيه؟! ازاى يا بهاء؟

- "أوفردوز"*.. لقوه فى حمام النادى والسرنجة جنبه على الأرض.

"فى ذهول تام" قلت له:

- أنا مش مصدق!! عاطف كان معايا الأسبوع اللى فات.. ضربنا سوا، وكان زى الفل!!

- البودرة غدارة يا صلاح.

كلنا كنا نحب عاطف، وهو من أعز أصدقاء رامى.. طالب فى أرقى الجامعات، ابن ناس، ومن عائلة كبيرة ومعروفة.. أنيق ودمه خفيف.. ورأيت رامى والدموع تملأ عينيه، وكل العيون الواقفة معنا كانت تبكى بغير دموع، وأخذنى رامى بالأحضان..

---

* جرعة زائدة.

لم ننطق بكلمة واحدة، ثم اقترب من أذني وهمس:

– والله قلت له ما يضرّبش الورقة كلها في سرنجة واحدة، وما سمعش كلامي يا صلاح.. أنا السبب!!

– لا يا رامي.. مش إنتَ السبب يا رامي.. عمرهُ.. والله يرحمه.

– خُدني بعيد يا صلاح.. نمشي من هنا.. مش قادر أقف وسط الناس.. حاسس إن كل الناس بتبُص عليّ وتقول إن أنا اللّي موّته.

– ياللا يا رامي.. ياللا بينا يا بهاء نمشي من هنا.

ذهبنا إلى ميدو وزوني.. لم نطلع البيت، ولم نضرب "كلاكس واحد". جلسنا في السيارة تحت منزل ميدو لمدة ساعة نستعيد شريط الذكريات، ورامي يتذكر حواراته مع عاطف، ويقول لنا:

– أنا مش مصدق!! إزاي دا حصل؟! يعني مش ها أشوفه تاني؟ لا.. لا.. مش ممكن!!

وبعد أن هدأ قليلاً، واستجمع قواه، سألته:

– إيه اللي حصل يا رامي؟ امتى آخر مرة شفته؟!

– كان عندي النهارده الصبح.. زمّر ومرضاش يطلع، وطلب مني ألبس وأنزل بسرعة.. نزلت.. ركبت عربيته، وقالي لي عايز أضرب.. وكنت حاسس إنه مستعجل ومش زي عوايده، وفي الطريق إلى أم نادية، قال لي: لازم نبطّل بودرة.. كفاية كده، إحنا بقى لنا كتير بنضرّب.. وسألني كتير عن الشلة، سألني عليك يا صلاح، وعليك يا بهاء، وعلى أحمد وحسين، وسألني عملنا إيه في أمريكا.. وحكيت له، ولما رجعنا قلت له تعال نضرب عندي في البيت، رفض وصمم يضرّب في النادي، فقلت له أنا هاجيب عربيتي وأجي وراك.. بعد ما نزلت من عربيته قلت له: ما يضرّبش الورقة كلها في سرنجة واحدة.. أصل أنا عارفه، كان دايمًا "يطافس" وقلبه ميت.. وقال لي حاضر بسْ ماتتأخرش.. سلام..

- ليه بس كده يا عاطف؟

- ياه!! ياه!! ياه!! مش ممكن أتخيل إن دى كانت آخر مرة أشوف فيها عاطف!!

قلت:

- الله يرحمك يا عاطف.. كنت جدع.

وقال بهاء:

- ياللا يا جماعة نمشي.. أنا عايز أضرب يا صلاح.

- وأنا كمان.. أنا ما ضربتش النهارده.

الغريب أننا لم نتردد بعد ما حدث لعاطف، لم نرتدع أو نخف.. عاطف أخطأ.. ولكن نحن لن نخطئ..

توجهنا إلى الصيدلية لشراء السرنجات.. بهاء كان معاه بودرة كثيرة، وضربنا نحن الثلاثة.. إنما سيرة وصورة عاطف لم تفارق خيالنا، وظلت موضوع حديثنا.. وما بين جملة وأخرى، نقول:

- هتوحشنا جدا يا عاطف.

- الله يرحمك يا عاطف.

تذكرت يوم "كبسة" أهله في منزله.. ويوم الغرزة والقسم.. أصبحت ذكرى يا عاطف!!!

امتدت الجلسة بيننا أكثر من ساعة.. نحن الثلاثة لم نستطع سماع الموسيقى، وكنا نتكلم بصعوبة، واختفت الضحكة، والضرب لم يكن له طعم، وبين حين وآخر تتدفق الدموع من عينى رامى، وكنت أشعر بكم الأسى الهائل فى أعماقه، وأنه كالبركان يكاد ينفجر غضبا، ولم يتوقف عن قوله:

- أنا باحبه يا صلاح.. كان جميل.

وحوالى الساعة الثامنة، قررنا الذهاب إلى النادى لمعرفة آخر الأخبار، ولم يعد الزحام هناك بالكثافة نفسها، وبين الناس وقف مجموعة من الأصحاب.. اقتربنا منهم، وجاءنا حمادة وفادى، وتحدثا مع رامى..

حمادة : البوليس بيدور عليك، إمش من هنا بسرعة.

فادى : وباباك كمان بيدور عليك.. متهيألى البوليس راحولك البيت.

رامى : طيب وسألوا على حد غيرى؟

حمادة : سألوا على الدنيا كلها.. على تامر.. وعادل.. وصلاح.. وبهاء وسامح.

فادى : سامح وتامر فى القسم، وعادل اختفى، وإنت يا صلاح، خليك بعيد إنت وبهاء.

بهاء : هنعمل إيه؟

فادى : اختفوا.

رامى : ها نروح عند ميدو، وأول ما يظهر سامح أو تامر.. تعالوا لى هناك.. ولو بابا سألك عنى، إنت ما شفتنيش.. فهمتنى؟!

فادى : ماشى.. بس إنت ما تتحركش من عند ميدو.. مش عاوزين يلف عليك.

فجأة، سيطر علينا الخوف، ليس بسبب وفاة عاطف فقط.. ولكن الموضوع أصبح فيه بوليس، ونيابة، وسجن.. وجيم، وقلق.. وفوراً توجهنا إلى بيت ميدو.. بطبيعة الحال، شغلتنا الأحداث الأخيرة بكل تفاصيلها، وقضينا الوقت كله نتكلم في شبح المشكلات القادمة.. وحديث فادى وحمادة عن البوليس والتحقيقات جعلنا نشعر أن فى الجو شحنة كهربائية هائلة، وساد الجلسة التوتر الشديد؛ إذ لم نمر بمثل هذا الموقف من قبل، وتساءلنا عما يقوله رامى عند التحقيق معه، وكل منا يدلى برأى، وأكثر ما يخيفنا قرار إجراء التحليل له.. حقاً كارثة..

وكان رأى حسين مطمئنًا:

- ما ينفعش، لازم إذن من النيابة.

وأخيرًا تعلن "الكلاكسات" وصول سامح وفادى، وأسرعنا بالنزول إليهما، وباهتمام سأله رامى:

- عملت إيه يا سامح؟

- ولا حاجة.. شوية أسئلة.. سألونى آخر مرة شفتة إمتى؟ أصحاب من إمتى؟ بتاخدوا مُخدِّرات مع بعض؟ بعد شوية عادل جه وكان معاه باباه.. مُستشار زى ما إنت عارف.. فالدور اتلمّ بسرعة، بس المشكلة إنهم سألونى عليك بالاسم، وأسئلة كتيرة كمان.. الظاهر فيه حدّ من أمن النادى، قال فى التحقيق إن رامى أكثر واحد صاحبه.. لكن ما حدّش قال إنك بتاخُد مخدِّرات..

- إيه رأيك يا صلاح، أعمل إيه؟

- أحسن حاجة تروّح، وتاخد باباك معاك القسم، علشان ما يبنش إنك هربان من حاجة.. إنت شايف إيه يا ميدو؟

- عندك حق يا صلاح، وإنت يا رامى ماكنتش فى النادى أصلاً، ووصلت بعد ما عاطف أفوَر.

وكان تعليق بهاء:

- بالظبط كده.. إنت كنت فى البيت، ورُحت النادى، ومن على الباب عرفت اللى حصل.. ما تخفش يا رامى.

- ماشى.. بس بابا هيتأكد إنى باضرب، لأنه شاف عاطف معايا النهارده.

- ما هو عارف إنك بتضرب.. وكل الناس عرفت خلاص.. اقعد لك يومين فى بيتكم والدنيا تتلم.

وكان لى رأى:

- باباك مش مشكلة دلوقت.. هينام فى ثانية، بس نخلص الأول من تحقيقات البوليس والغم ده.

انطلق رامي بسيارته إلى البيت، وحاول أن يقنع والده بأنه لا يعرف أي شيء عن هذا الموضوع، وطبعًا لم يصدقه الوالد، وإن كان يريد أن يصدق، وفي رأيه أن المشكلة الأساسية هي وفاة عاطف، فذهبا معًا إلى القسم، وأخذوا أقوال رامي، الذي أنكر تمامًا أنه رآه في ذلك اليوم، وأنه لم يذهب إلى النادي.. بالإضافة إلى أنه لا يعرف أي شيء عن المخدرات، ولا يعرف أن عاطف يتعاطى المخدرات، وتطابقت أقواله مع أقوال عادل وسامح.. وبهذه الصورة وضعت النهاية للموضوع، وفي اليوم التالي سافر رامي إلى الغردقة مع والده؛ ليبتعد عن هذه الأجواء، وعن النادي والمنطقة كلها.

واستمر للموضوع صداه القوي، فكل من لا يعرف.. أصبح من العارفين، وكل من لم يسمع عن البودرة، سمع عنها وأصبحت على كل لسان.. وكل الأهالي عرفت بما جرى، وبدأت حملة واسعة في النادي لضبط أي مخالفة أو خروج على النظام.. الحملة كانت مشددة على كل الشباب بلا استثناء، فقد استيقظ مجلس إدارة النادي على المفاجأة المفزعة، وأن المنطقة حول النادي موبوءة، ولابد من محاربة هذا الوباء، وفي الواقع أن عدد الضَّرِيبة ارتفع بشكل غير طبيعي ومخيف، والموضوع لم يعد ضربًا "وهزارًا" وخفة دم، لا.. أصبح وفاة، وبوليسًا، وسُمْعة.

أذكر جيدًا، أن هذه كانت آخر مرة يتجمع فيها الأصدقاء الخمسة معًا.. لم يجتمعوا منذ ذلك اليوم.. وللأسف الشديد أبدًا..

ورحمة الله عليك يا عاطف.

12

التجنيـــد

جاء موعد تقديم أوراقى للجيش.. استمارات.. كشف طبى.. تجنيد.. سلاح.. كتيبة.. وحدة.. مركز تدريب.. موضوع مهم وصعب، ورفض الوالد أن يجرى اتصالاً تليفونيًا واحدا، يساعدنى فى هذا الموضوع.. إنها فرصة ذهبية بالنسبة له؛ للتربية والانضباط.. إنه لم ينجح منذ سنوات في إقناعي بدخول كلية الشرطة، وجاءت الفرصة التي يتمناها من كل قلبه، وكان حاسما، فقد أراد لى دخول الجيش لأعرف كيف يكون الالتزام، ولمواجهة الحياة برجولة.

بدءًا من يوم الكشف الطبى، وضح لى وضوح الشمس حجم صعوبة الفترة، والأيام التى سوف أعيشها.. لم أسمع إلا الأوامر الصارمة: قف هنا.. إخلع ملابسك.. تعال.. امش.. شتائم، أصوات عالية، "شخط"، وأصلاً والدى لم يكلمني مستخدما "الشخط" أو العنف، لأنه يعرف جيدا لو أن هذا حدث، كنت سأترك البيت.

بعد انتهاء الكشف الطبى، دخلت سلاح المشاة، ومركز التدريب فى المعادى لمدة ثلاثة شهور، وبعدها يتم التحويل إلى وحدتى الأساسية فى السويس أو فى الإسماعيلية.. "يا سلام".. حقًا.. إنها مأساة.. وبعد الكشف الطبي مباشرة، بدأت أفكر بعمق فى الموضوع، يا ترى من يستطيع مساعدتى فى حل المشكلة؟ مثلا والد ريكو لواء فى الجيش، ويحبنى فعلا، وفى رأيه أننى من أحسن أصدقاء رامي، وأننى من عائلة محترمة.. لكن فى هذا الوقت، لم يعد ريكو يشعر بمن حوله وبمتاعبهم، أو بمعنى أصح اختلفت أولوياته بعد أن سيطر عليه موضوع الضرب، وقلت له إنك المسئول عن إبلاغ والدك بتفاصيل موقفى

فى الجيش، ومكان ترحيلى، وأى وحدة، والرقم العسكرى.. أعطيته كل التفاصيل، على أمل أن يتصرف والده ويخرجنى من هذا الموقف الصعب.

وكانت الخطة البديلة تعتمد على حسام، وعلى صديقه، وهو ضابط شرطة شهم من شلَّة مصر الجديدة، واسمه ماجد، بالإضافة إلى المقدم طلعت، وهو ضابط جيش من سكان مصر الجديدة أيضًا، وصديق حسام جدًا، الذى عرف منى كل الموضوع، وفهم كل التفاصيل، وكنت أعتمد عليهما كليا فى هذه القصة، وكل أمانى أن أطلع فى يوم وصولى، أو أخرج فى اليوم التالى على الأكثر.

وصلت إلى منطقة التجنيد يوم السبت الساعة التاسعة، وأخذت كل تفاصيل الترحيل، واسم الكتيبة، واسم قائد الوحدة، واتصلت تليفونيًا بصديقى رامى، وصديقى حسام.. كلاهما طمأننى بأنه لا داعى للقلق، ووعدانى بالتصرف.

وفى سيارة ميكروباص.. وصلت إلى الكتيبة، ودخلت المعسكر الساعة الخامسة بعد الظهر، ولا شىء على الإطلاق يمكن أن أعطه، وبدأت أسمع التعليمات والأوامر:

– تعال يا عسكرى.. اجْمَع يا عسكرى.

وأعجب من هذا كله، جاءنى شخص قصير وعجيب المنظر، وقال لى بأعلى صوت:

– لِمّ الورَق اللّى فى الأرض.

نحن فى الصحراء!! أين الورق الذى يتحدث عنه؟! بالإضافة إلى هذا.. فإن الذى يعطينى هذا الأمر، من رابع المستحيلات أن يقف ليكلمنى فى الشارع.. أعتقد أنه لا يعرف القراءة، وجاء إلى هنا من آخر ركن فى العالم.

في ذلك اليوم، كنت أرتدى جينز "ليفيز"، وحذاء ماركة "إيلاس"*، واقترب منى اثنان من الشباب، مظهرهما يتحدث عن أصلهما الطيب، وقال أحدهما:

- إيه ده؟ إنتَ جاى الجيش بجزْمة إيلاس؟

إنهما من بورسعيد، ويبدو واضحاً أن لهما خبرة فى الملابس المستوردة والماركات العالمية، وأعجبنى أسلوبهما فى الحديث، وقد شعرا أننى فى حالة اكتئاب، فقالا:

- خلِّيك معانا.

وافقت طبعًا، إذ ليس عندى أى اختيار آخر.. وجاء موعد العشاء، ورفضت دخول عنبر الأكل، ولم اكل، واشتريت شيكولاته بالبسكوت، وزجاجة مياه غازية، واكتفيت بهذا تمامًا.. وقفنا فى طابور طويل للتوزيع على عنابر النوم.. وكان الجو باردًا جدًا.. طبعا برد، فنحن فى الصحراء.. واضطررت إلى دخول عنبر النوم.. سريرى فى عنبر به أكثر من ثلاثين سريرًا، والمرتبة عبارة عن تراب، وسلّموا لكل منا بطّانية.. والأوامر:

- ولا كِلْمة يا عسكرى منّكْ لهُ.. والصَّحيان الساعة خَمْسَة.

طبعًا لم أنم.. من الخوف، والتراب، والروائح الكريهة.. استيقظنا الساعة الخامسة صباحًا على أصوات عالية ومزعجة، وخبْط وزِعْ.. وطبعا لم أدخل الحمام، وأسرع إلىّ الشابان وأخذانى إلى مكان به خرطوم ماء، وغسلت وجهى، ومرة أخرى أكلْت شيكولاته وشربت الشاى، ولم أمد يدى للإفطار المكون من فول شكْلُهُ غريب، وخبز شكله أغرب.. واستغفر الله العظيم يارب.. أين أنا؟ وما هذا الذى أمر به؟! نصحنى الشابان بإخفاء علْبة السجائر، وقال أحدهما:

- سجاير "مارلبورو" فى الجيش؟! الحمد لله إنك لابس "إيلاس" و"ليفيز" ومفيش حد فاهم حاجة.

---

* ماركة فرنسية مشهورة.

إن وجودهما بجانبي جعل الموقف أكثر سهولةً.. وحوالى الساعة العاشرة بدأ تسليمنا المخلة، وبعض الملابس، وحذاء أكبر من مقاسي بكثير، وبعض الأشياء التي لم أفهم أولها من آخرها، وعلى الفور ذهبت للمقدم قائد الكتيبة، وقلت له:

- يا افندم.. أنا لازم أمشى من هنا.

- تمشي تروح فين؟! إنتَ فاكرْ نفسك فين؟! فى النادى؟!

- أنا عايز أجازة أربعة وعشرين ساعة بس.. أرجع البيت.. يعرفوا أنا فين.. وأرجع تاني.. بصراحة يا افندم.. أنا مش هَا اقعُد هنا خالص.

- ليه إنْ شاء الله؟!

- يا افندم أنا كنت فى مدرسة لغات، وخريج جامعة، وعُضو فى احسن نادى فى مصر، وكل صيف فى أمريكا، ولو قعدت هنا يوم كمان هاموت.. وبصراحة الواسطة بتاعتى "فلان الفلانى".

قلت له اسم معروف جيدًا، من الشخصيات المرموقة والقريبة من رئيس الوزراء فى تلك الأيام، وهو من أقارب والدة ميدو، والتى كانت تعمل مديرة مكتبه، وقد وعدتنى بمساعدتى فى موضوع التجنيد، لكننى اعتمدت على رامى وحسام، وسألنى المقدم:

- والدك بيشتغل إيه؟

- والدى المهندس "......" عُضو فى مجلس الشعب.

- والدك المهندس "......"؟!

- أيوه يا افندم.. يوم واحد يا افندم وارجع.. دا أنا حتى ما قدرتش أدخل الحمام.

- الأول شوف المخلة وظبطها، وبعدين نشوف موضوع التصريح.

- وبعد يا افندم؟!

- خلاص يا صلاح، راجع المخلة الأول.

- شكرًا يا افندم.. شكرًا يا افندم.

راجعت المخلة، ورجعت إلى مكتب المقدم للمرة الثانية.. فقال لي:

– والله ما عرفتكش بلبس الميرى!! شكلك اتغيَّر فى الكاكى!!

– ممكن التصريح يا افندم.

– النهاردة مش هاينفع.. أوعدك بكره اديلك التصريح لمدة 24 ساعة بس.. يعنى لغاية الساعة ستة الصبح تانى يوم.. مش أكتر.

– يعنى النهارده مش ممكن يا افندم؟

– لا.. مش هينفع.. مفيش ولا واحد من دفعتك أخد تصريح.. وانت هتبقى أول واحد بكره.

– خلاص يا افندم.. أستحمل لبكره.. شكرا يا افندم.

واليوم فى الجيش كأنه سنة.. عقارب الساعة لا تتحرك.. والساعة الخامسة مساء كأنها الساعة الثانية عشرة ليلا.. ولم آكل.. اكتفيت بالشيكولاته بالبسكويت، وزجاجة مياه غازية.. وكانت الليلة الثانية مثل الليلة الأولى.. لم أنم ساعتين متواصلتين.. صوت صفير الهواء، و"الشخير" والروائح الكريهة، والخوف من المجهول طرد النوم تماما، بل شعرت أننى فى كابوس لا نهائى.

ولم أقترب من الحمام، ولم أفطر.. بسكوت وكوب الشاى، وشكرا.. وقفت فى الطابور، وسمعت الشتائم بأعلى صوت، وبدأ مسلسل وقوع المجندين فى حالات إغماء.. البعض يقول إنه مريض، والبعض يدعى إنها ضربة شمس.. ولم أعرف الحقيقة.. هل هذا تمثيل، أم أنهم يقولون الحقيقة.

وبعد طابور الصباح.. بدأ الطابور الجماعى لتحية العلم، وكلمة الترحيب من قائد الكتيبة.. بعد انتهاء هذه الإجراءات وهذا الفيلم الممل.. صدرت الأوامر بالجرى مرتين حول الملعب.. خرجت من الطابور، ولا أحد يفهم ما الذى فعلته، ولم أرد على أحد، واتجهت الى مكتب المقدم.. وجاءنى الضابط المسئول عنا.. وسألنى:

– ليه مشيت من الطابور يا عسكرى؟

- سيادة المقدم قال لى أجيله يا افندم.
- وليه ما استأذنتش منى؟
- أنا آسف يا افندم.
- باين عليك ها تشوف أيام سودا فى الجيش.

لم أرد.. وتمنيت أن أقول له: لن تراني أبدا يا افندم.. ولكن بصراحة لم أستطع.. وسكت تماما.

سبب هذا الحوار لى التوتر، وشدّ أعصابى، وكان واضحا أن الضابط سوف يضعنى تحت الملاحظة، وبكل تركيز.. إذا ما العمل؟ أنا فى حالة لا تسمح بأية متاعب أخرى، وانتظرت ساعة حتى وصل سيادة المقدم وسألنى:

- ايه يا صلاح.. واقف كدا ليه؟
- فى انتظار سيادتك يا افندم.. التصريح من فضلك.

أخرج المقدم التصريح من جيبه وقال:

- اتفضل يا سيدى.. تصريح أربعة وعشرين ساعة.
- ربنا يخليك يا افندم.. مش ها انسى لحضرتك الجميل دا أبدا.

وأصبح التصريح فى يدى.. إنها الساعة الثانية، ومشيت أكلم نفسى.. إلى أين أتجه؟!

وأيضا لابد أن أبلغ الأصحاب البورسعيديين بأننى أخذت التصريح.. شعرت بإشفاقهما، فمنذ يومين لم اكل، ولم أدخل الحمام، وشعرا بعذابى.. وبقدر فرحتى بالتصريح، كنت حزينا وغاضبا لأن والد رامى لم يتصرف، ولم يبعث لى بأى "مرسال"، وحسام أيضا لم يحضر كما وعد.. وبخطوة سريعة مشيت فى المعسكر، نعم كنت سعيدا بتصريح الخروج.. ولكنى أشعر أننى كاره للحياة، يومين عذاب وبهدلة.. فى هذه اللحظات سمعت "صوتا" ينادى على اسمى.. توقعت أنه من طرف والد رامى.. فسألته:

- نعم.. عايز ايه؟!

- هو إنتَ.. دَا إنتَ غَلّبتنا علشان نلاقيك.

قلت (بانفعال):

- غَلّبْتكم إيه؟! سَايْبنى هنا باعمل إيه؟

- إحْنا بندوَّرعليك من إمبارح.

- من إمبارح؟! خرّجْنى من هنا بسرعة.. وامسك، أدى تصريح، أخدته النهارده بالْعافية علشان خلاص بامُوت.. مدخلتش الحمّام من يومين، ولا أكلت أى حاجة.

- فين المِخْلة؟!

- فى العَنْبَر.

- ياللا رُوح جيبْها.

أخذت المِخْلة من العنبر، وأثناء سيرى فى المعسكر، قابلت الضابط الذى عاملنى بعُنْف وشدة، وسألنى:

- مش قلت لك تجيلي.. ماجِتْش ليه؟

- والله يا افندم.. لِسّه ماشي من مكتب سيادة المقدّم دِلْوقت حالاً.

- وعلى فين بالْمِخْلة يا عَسْكرى؟

- مَعايا سَعادْتك جواب إلحاق على كتيبة خدمات.

- يا سَلام!! من أوّلْها كِدا.. ورِّينى الجواب.

- اتفضل سعادتك.

- دا كلهْ مِتْوضّب بقي!! عال.. عال.. بس ها تْرُوح فين؟! هاشُوفك تاني.. الإلحاق هَيخْلَص وترْجَع.

فقلت له:

- أكيد يا افندم.. شُكْرًا يا افندم.. عن إذْنك يا افندم.

وبعد خطوات جاءنى الصول الذى سوف أخرج معه من المعسكر، وسألنى:

- هو حَطّك فى دماغه ليه؟!

- أصلى خرجت من الطابور.. طبعًا إتجنن.

- هات المخلة.

أخذ الصول المخلة منى، وذهب إلى زميله وأعطاها له، وطلب منه أن يضعها فى المَخْزَن، ثم قال لى:

- تصريح المبيت أنقذك من الظابط اللى حطك فى دماغه، ومن بكْره عندك إلحاق خدمات لمدة شهر ويتجدد، وبعد كدا هنشوف سيادة اللواء هيأمُر بإيه.

- يعنى إيه إلحاق؟

- يعنى تقْعد فى بيتكم، لأن الإلحاق ده على كتيبة قائد صديق لسيادة اللواء.. فهمت؟

وتنفست الصُعَداء: آه ه ه ه .. الحمد لله.. الحرية.. الحرية.. الحرية.

عدت إلى بيتى وكأننى كنت على سفر منذ سنتين.. طرقت الباب بقوة.. ولم أرفع يدى من على الجرس إلى أن فتحت أختى رولا..

- حمْدِ لله على السلامة.. مالك؟ بتْخَبَط كِدا ليه؟

- يا رولا يا حبيبتى.. كأنى غايب من سنين طويلة.. مِش من يومين.

وفجأة.. وجدت أبى أمامى، يقول لى:

- خَرَجْتِ إزاى من معسكر التجنيد؟

- طبعًا مش فى دماغك، وما صدّقت رَميتنى هناك.. صح؟! ماشى يا بابا.

- خرَجت إزاى يا صلاح؟

- كنْت عاوزنى أقعد هناك على طول واللاّ إيه؟! ولْعلمك أنا مش راجع المعسكر ده تانى.. خلاص.. خلصت.. اتعلّمت الدرس كويس أوى، ومش راجع الجيش تانى.

- إزاى يعْنى؟

- هتشوف.. وعن إذنك أدخل الحمام.. ما دخلتوش من يومين.. وعايز أكل أى حاجة.. ما أكلتش غير بسكوت فى اليومين دُول.

أخذت دشًا، ودخلت إلى السرير لأنام ساعة واحدة.. واتصلت برامي ولم أجده، وتركت له رسالة مع والدته ليتصل بي بمجرد رجوعه البيت.. ولم أجد حسام أيضا.. ردت دعاء على تليفوني، وقالت لي إنه خرج مع ماجد وطلعت، وراحوا لك معسكر التجنيد، فقلت لها:

- بعد إيه؟ أنا رجعت خلاص، على العموم ها انام ساعة؛ لأني ما نمتش من يومين.. إتبهدلت وتعبت جدا.. أخبار الضرب إيه؟

- سم!!

- لمّا أصحى هاعدّي عليكم، ولما يرجع حسام قولي له يكلمني.

- اتفقنا.

- باقولك إيه.. كلّمي نانسي وقولي لها تيجي.. وحشتني.

- دي ليلة بقى.

قضيت الليلة في بيت حسام في مصر الجديدة، وكنت في منتهى الغضب لعدم اهتمامه بالموضوع، ولأنه تركني في المعسكر لمدة 48 ساعة.. وقال حسام مفسرًا الموقف:

- والله كنّا عندك، وقابلنا ظابط وحدتك، واتضح إنه يعرف طلعت، وخدم معاه في الجيش، وحكى لنا قصة الإلحاق.. ماشي يا سيدي.. إلحاق على مفيش.. الظابط ده كان ناوي يظبطك لما ترجع، بس علشان خاطر طلعت حيعدّيها لك.

- والد رامي اتصرف وعمل الواجب، بس لازم أنظم الموضوع، لأني عشت كارثة.. فكّرت أهرب.. ما أستحملتش اللّي حصل لي.. بالذات ضربني.. ومش دافع كمان.

- إنسى.. الدّفع قبل الرّفع.

- لا.. لا.. لا دي لغة جديدة يا معلم!!

- مفيش فلوس وعاوزين نجيب شغل.. بأقولك إيه يا صلاح، عربيتى بايظة، وما تسافرش، وعاوزين نطلع السويس بكره نجيب بودرة، وهوجب معاك واجب مايتحلمش بيه.

- هو أنتم بتجيبوا من السويس؟

- من السويس أو بلبيس، ولعلمك السويس ساعة من هنا، وأقل بسواقتك، والبنزين عليّ، وهناك ما تتكلمش كتير، أصلك خنفس وهتفضحنا.

- أنت تأمر يا معلم.

قضينا نحن الأربعة ليلة طويلة.. ضرب، ضرب، ضرب.. فعند وجود البودرة لا نتوقف عن الضرب، لدرجة أننى لم أستطع حتى التحدث مع نفسى فى آخر الليلة.. وفى اليوم التالى سافرنا إلى السويس، ودخلنا عند تاجر يعيش فى الضواحى، وأحسن استقبالنا، ودخل حسام فى الحديث مع التاجر قائلا:

- أخبار الشغل إيه يا معلم؟

- زى الفل.. هتجرب بنفسك.

- الكمية اللى فاتت كانت قلة شوية.

- يا راجل حرام عليك.. على العموم فيه شغل جديد.. بودرة "ملبكة"*.

- يا راجل.. ملبكة؟ والله زمان.

- خد الورقة دى يا حسام بيه؟!

سألت حسام:

- يعنى إيه ملبكة؟

- أصبر.. هتشوف دلوقت.. بس عيبها أنها بتجيب زغطة.

- يالله يا عم حسام.. خلص.. عايز أشوف قصة الملبكة إيه.. اضرب لى الأول.. بأقولك إيه.. غير العرق.. عروقى باظت.

---

* بودرة مثل العجينة.

وبدأ حسام بتجهيز السوست.. قائلاً:

– إدّي يا جدّي.. دي بُودْرة عالية جدا.

– ياللا يا حسام، ادفع وياللا بينا.

– إيه النظام يا معلم؟

– قل لي إيه رأيك بس الأول؟

– حِلْوة.. الجرام بكام؟

– 400 جنيه؟

– جرام إيه ده إن شاء الله؟!

– طيب عاوز قد إيه؟ وهتطيب لك الجرام علشان خاطرك بـــ 350 جنيه.

– ياللاَ يا صلاح.. إحنا أخَدْنا قد إيه يا مَعَلم؟

– عيب يا حُسام بيه.. هتَدفَع الواجب؟

– أعمِلَّك إيه بَسْ يا معلم.. ما إنتَ بتشتغلنا!! هُمَّا 200 جنيه.

– وَالله ما جِبْت حقّها.. يا حسام بيه إنتَ مِشْ زبون!!

استمرت عملية المساومة طويلاً بين حسام والمعلم، فلم استطع التركيز معهما، فقد بدأت أغيب عن الوعي، وأفيق، ثم أغيب مرة أخرى.. وفي النهاية لم أعرف كم دفع.. أتصور ليس أكثر من 280 جنيها في الجرام، وهذا السعر ممتاز؛ لأن الجرام ثمنه 500 أو 600 جنيه في القاهرة.. أسرعت إلى السيارة، وخرج خلفنا المعلم.

– مع السلامة يا بهوات.. ما تْغيبش علينا يا حسام بيه.

– أجي لك على آخر الأسبوع.

– تنَوَّر يا باشا.

فقلت:

– باقول لك إيه يا مَعلم.. عايز سرنجة علشان الطريق.. أنا ماليش ذَنْب في القِصَّة دي كلها، وعلى ما أوصَل القاهرة أكون فَوِّعت خلاص.

- بس كِدا.. عنينا يا أستاذ.. يا ثابت.. إعْمِل سرنجتين للبَهَوات.

- إنتَ عَنْدَك سرنْجات كمان؟!

- طبْعًا يا باشا.. ساعات بيجي لنا زباين، ومفيش معاها سرنْجات.. شغل ميكرُوباص، وتَفْتيش.. وإنتَ فاهم يا بيه.

- اتْفَضَّلوا يا بهوات.. سرنْجات وِصاية.

- تسلم يا ثابت.

وأعطاه حسام 20 جنيهًا.

- شُكْرًا يا باشا.. شرّفْتوا يا بَهَوات.

- يا قولَك إيه يا حسام.. إحنا ليه بِنْجيب بُودْرة من أم سيد؟ الورقة منْ هنا أحسن أَلْف مرَّة.. بِمْشيِّها السويس على طُول.

- المشكلة في العربية.. ومِشْوار بَرْضهُ.

- مشوار إيه.. أنا ولا حسّيت بالطريق وإحنا جايين.. ودلْوقت تعال إنتَ سوق، علشان "الملْبَكة" دي بنت".......

- أنا أسوق؟! حاضِرْ يا سيدي.

- قل لي يا حسام.. الجرام بيعمل كام ورقة؟ وبكام الورقة؟

- بيعمل اللّي بيعملُه.. وإنتَ مالك إنت.. إنتَ عليك تضْرَب، وبسْ.

- عَدّاك العيب.

عدنا بعد الرحلة التي استغرقت من الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة مساء، وفي بيت حسام وجدنا نانسي ودعاء في انتظارنا.. قالت دعاء:

- جالك 60 تليفون يا حُسام.

- طبْعًا.. الكل عارف إني رايح أجيب بُودْرة.

قالت نانسي لحسام:

- شَكْلُكُم "يشْعُوذ"[*] يا أولاد الإيه.. أنا عاوْزة أضرب بسرعة.

---

[*] يشجع على التعاطي.

- حالاً يا قمر.

واستمرت القصة بهذا المنظر.. نطلّع السويس نجيب الشغل ونرجع.. حسام يقطّع ويبيع.. وتمر بنا الأيام على هذا المنوال، وذات يوم، أول ما وصلت بيت حسام، قال لي:

- أنا بعت عربيتى.

- بعتها؟! قول فوّرتها.

- فوّرتها أو بعتها.. فى ستين داهية.

- مع إنى يا أخى كنت باحبها.

- والعربية كمان كانت بتشكر فيك يا صلاح.. يالاّ بسرعة.. المرة دى على بلبيس.

- إنت بتعرف السكك دى إزاى؟ وإمتى؟!

- واحد صاحبى اسمه هيثم.. هنروح معاه.. هو عاوز يجيب.. فأدى توصيلة، وأكيد هو هيوجب معانا، ونعرف سكة جديدة.. وبلبيس أقرب من السويس.

- يمكن البودرة هناك وحشة؟

- وحشة ليه؟ هو أهبل والاّ تلميذ؟! وبعدين هو ضرب من بودرة السويس قبل كدا، وبيقول بودرة بلبيس أحلى والجرام بـ 250 جنيه بس.

- ماشى.. بلبيس.. بلبيس.

اشتهر حسام فى مصر الجديدة، ولم يكن يعرف أكثر من خمسة أو ستة أصحاب ضربية.. والآن أصبح عنده أكثر من عشرين زبون.. وارتفع عدد الشباب.. ولم يعد المكان أمام البيت يسع لوقوف السيارات، وشعر الجيران بأن هناك كارثة ما تدور فى شقة حسام ودعاء، بتعبير آخر معروف لنا "إتشمّوا"، فأخذ شقة جديدة، أو بالمعنى الأصح، دعاء أجّرت شقة جديدة لشخص من الخليج، وقدمت له حسام على أنه شقيقها الكبير.. وطبعاً كان الزواج "عرفى"، تماماً مثل الذى قبله، والذى قبله.. لكن من مزايا هذا العريس أنه يزور مصر

إضافة إلى هذا كله.. فإن هذه الدار في مصر الجديدة، بجانب منزل حسام ودعاء ونانسي.. لقد تم حل جميع المشكلات.. مُدهش.. رائع.

وفي رأيي، أن الأمور سارت إلى الأحسن بعد حل موضوع التجنيد، وليست هناك مشكلة بالنسبة للضرَّب؛ لأن حسام فتح الدَّولاب مع دعاء، وبدأت أخذ منه تذاكر وأبيعها للأصدقاء في المهندسين.. ثمن التذكرة 30 جنيهًا وأبيعها بـ 40 جنيهًا، وكل ثلاثُ تذاكر، يصبح لي شخصيًا تذكرة هدية.. شيء سهل وجميل، وكان رامي أحسن زبون، يأخذ مني يوميًا هو وشلته 6 تذاكر على الأقل، وأحيانًا ثمن التذكرة 40، أو 50 جنيهًا ويتوقف ذلك على من يشترى، ومتى؟! وقد دفعت من قبل لكل هؤلاء الشباب عشرات المرات من جيبي، وجاء الوقت الذي أطالبهم بالرد.. ثم الضرّيب إذا وجد البودرة أمامه وثمنها 50 جنيهًا، أفضل له مائة مرة من اللّف والدّوران بحثًا عن دولاب للشراء منه.

وبدأت أنفّذ عمليات جديدة.. مثلا أشترى سلسلة أخت فلان الذهب وثمنها 300 جنيه، وأدفع 200 جنيه، وساعة "رولكس" ثمنها 6000 جنيه، وادفع 2000 جنيه، ولم يكن من الصعب إعادة بيع هذه الأشياء في النادي، ومكسب الساعة يصل إلى 2000 جنيه، والسلسلة 100 جنيه والنظّارة 50 جنيها، ولكني رفضت شراء أجهزة الفيديو؛ لأن بيعها صعب، واكتشاف الأهل لاختفائها سهل، فيتسبب في عديد من المشكلات.

وبدأ التغير واضحًا بالنسبة لصديقي رامي.. لم يعد الإنسان الجميل الرياضي، بعد أن فقد كثيرًا من وزنه، حتى سيّارته "بي إم دبليو" الجميلة تحتاج إلى سمكرة ودهان من الأول للآخر.. ماذا جرى للأناقة؟ وأين ذهبت الصديقات الفاتنات؟ أين الجيتار؟ أين.... وأين....؟ حبيبته نيللي وضعت نهاية لعلاقتهما، بعد أن ساءت سمعته، وعُرف عنه أنه ضرّيب، وكلمة رامي "مدْمن" أصبحت على كل لسان.

إضافة إلى هذا كله.. فإن هذه الدار في مصر الجديدة، بجانب منزل حسام ودعاء ونانسي.. لقد تم حل جميع المشكلات.. مُدْهش.. رائع.

وفي رأيي، أن الأمور سارت إلى الأحسن بعد حل موضوع التجنيد، وليست هناك مشكلة بالنسبة للضرّيب؛ لأن حسام فتح الدُّولاب مع دعاء، وبدأت أخذ منه تذاكر وأبيعها للأصدقاء في المهندسين.. ثمن التذكرة 30 جنيهًا وأبيعها بـ 40 جنيهًا، وكل ثلاث تذاكر، يصبح لي شخصيًا تذكرة هدية.. شيء سهل وجميل، وكان رامي أحسن زبون، يأخذ مني يوميًا هو وشلته 6 تذاكر على الأقل، وأحيانًا ثمن التذكرة 40، أو 50 جنيهًا ويتوقف ذلك على من يشترى، ومتى؟! وقد دفعت من قبل لكل هؤلاء الشباب عشرات المرات من جيبي، وجاء الوقت الذي أطالبهم بالرد.. ثم الضرّيب إذا وجد البودرة أمامه وثمنها 50 جنيهًا، أفضل له مائة مرة من اللف والدوران بحثًا عن دولاب للشراء منه.

وبدأت أنفذ عمليات جديدة.. مثلا أشترى سلسلة أخت فلان الذهب وثمنها 300 جنيه، وأدفع 200 جنيه، وساعة "رولكس" ثمنها 6000 جنيه، وادفع 2000 جنيه، ولم يكن من الصعب إعادة بيع هذه الأشياء في النادي، ومكسب الساعة يصل إلى 2000 جنيه، والسلسلة 100 جنيه والنظارة 50 جنيهًا، ولكني رفضت شراء أجهزة الفيديو؛ لأن بيعها صعب، واكتشاف الأهل لاختفائها سهل، فيتسبب في عديد من المشكلات.

وبدأ التغير واضحا بالنسبة لصديقي رامي.. لم يعد الإنسان الجميل الرياضي، بعد أن فقد كثيرًا من وزنه، حتى سيارته "بي إم دبليو" الجميلة تحتاج إلى سمكرة ودهان من الأول للآخر.. ماذا جرى للأناقة؟ وأين ذهبت الصديقات الفاتنات؟ أين الجيتار؟ أين.... وأين....؟ حبيبته نيللي وضعت نهاية لعلاقتهما، بعد أن ساءت سمعته، وعُرف عنه أنه ضرّيب، وكلمة رامي "مُدْمن" أصبحت على كل لسان.

ولم تنته العلاقة بيني وبين راندا.. كنت أتردد كثيرا على الجامعة للتواصل مع شلتي هناك، وهي دائما معهم، ولاتزال صديقتي.. حقًا.. لقد انكسر بيننا شيء ما، والكل يعرف هذا جيدا، وكان من الواضح أن هذا الشيء من المستحيل إصلاحه.. وهي موقفها معي واضح، بيني وبينها هي "مراتي"، وأصحابي شهود العقد العرفي، ولكن في حقيقة الأمر.. لقد انتهى ما بيننا.

راندا تسكر ولا تشعر بمشكلة، "جوينتين" وليست عندها مشكلة، وأنا أيضا لم تكن عندي مشكلة، تسكر، أو تحشش كما يحلو لها، إحساسي ومشاعري تجاهها اختلفت كثيرا.. لم أعد أحبها، ولكن وجودها لا يضايقني، حلوة.. دمها خفيف وتعيش معي بالطول والعرض.. فهي "مراتي" أولا وأخيرا.

أما مريم بوجهها البريء.. فإنها لم تتغير.. بالعكس ازداد اهتمامها، وازداد تعلقها بي، بل حبها.. وكثرت هداياها، ورأيها غير المعلن، ولكنه واضح ومفهوم: "أعمل اللي إنت عاوزه، وعمري ما هقولك إنت بتعمل إيه.. إعمل أو ما تعملش.. كلم أو ما تكلمش".

إنها حقا ذكية، لأنها استطاعت أن تعرف أنني سأفعل كل ما أريد.. وأنفذ أفكاري.. وكان أهم شيء بالنسبة لها أن تتزوجني في نهاية المطاف.. فكرة الزواج من مريم لم تكن تضايقني.. على العكس تماما، كانت فكرة مقبولة؛ خاصة بعد الموقف الذي حدث من راندا.. كنت أشعر أنه ليس هناك أفضل من مريم.. تحبني حبًا أفلاطونيًا، ولا تعرف أي شيء في الدنيا، وفي حياتها لم تمسك يد أحد غيري.. وكرجل شرقي، يهمني أن أكون أول رجل في حياتها.. ثم ليس هناك أجمل من التمتع بحريتي.. أتصرف كما أريد، ومطمئن تماما إلى أن في بيتي زوجة محترمة تنتظرني، وليس لها مطامع أكثر من الحياة معي.

13

أجازة

أكبر مفاجأة حدثت آنذاك، كانت فى مطلع شهور الصيف؛ حيث كان قرار سفر بابا، وماما، ورولا لعمل جولة فى بعض الدول الأوربية، وزيارة أسرة أخى كريم فى إنجلترا، ورؤية التوأم الصغير "رنا ودنيا" لأول مرة بعد سنتين من ميلادهما.. والرحلة تستغرق شهور الصيف.. ما هذا الجمال؟

سوف أعيش وحدى فى البيت.. نعم وحدى ومعى 4 سيارات!!

وبالنسبة لى، ليس أمامى خطة للسفر وبما أننى فى الجيش، فقد كانت الخطة الترفيهية أنى أضرب فى البيت، وانتظر زيارة الصديقات.. أخذت من الوالد نفقات الإقامة التى تكفى لمدة شهرين، والمبلغ لا يكفى الضرب لمدة أسبوع.. إذا ما الحل؟! وجدته.. فصلت عداد الكيلومتر للسيارات الثلاث، وأجرت سيارة والدى لأحد الأصدقاء الملتزمين ليسافر بها إلى شرم الشيخ.. بدلا من تأجير سيارة أخرى من الأسواق، وبدلا من أن يدفع 200 جنيه يوميا، يدفع لى 150 جنيها فقط.. وهذه فكرة عملية ومربحة له ولى.. وأهم شرط أن يحافظ على السيارة.. ووعدنى بهذا، ونفذ وعده فعلا.

وأخذ حسام السيارة الثانية للسفر إلى السويس أو بلبيس أو هنا وهناك.. إنها سيارة أمى، واشترطت عليه المحافظة عليها، دون خبطات أو أشياء مهملة داخلها، ويتم غسلها فى محطة البنزين كل أسبوع، وبصراحة حسام لم يخب ظنى فيه أبدا، وفى المقابل "سوسته يوميا فى "البيكو"[*].

---

[*] جريمة كبيرة.

وتتحرك السيارة الثالثة وفقًا للظروف.. إنها سيارة أختي رولا.. سيارة "مشاوير".. يأخذها من يريد شراء الأكل أو حشيش أو لقاء صديقته.. وحقيقةً الأمر لم تكن تتحرك إلا قليلاً.

وتبقى سيارتي لا أحد غيري يركبها.. عربيتي وَحْدي.. إنني أحبها، وأخاف عليها.. قمّة الأنانية.. وكان الموقف كالآتي:

- الفلوس موجودة..
- العربيات موجودة..
- شقّة لوَحْدي، نعم وَحْدي.. آخر مَزاج..

في تلك الأيام، كانت راندا موجودة أغلب الوقت مع شلّة الجامعة، وكانت تشعر بأن هناك أشياء غريبة ومريبة، وأن الموضوع ليس موضوع سيجارتين ملفوفتين، ولكنها لم تستطع معرفة الشيء الغريب والمريب، ومن حين إلى آخر، كانت تسأل:

– هو فيه إيه؟ هو إنتم نايمين على نفسكم كدا ليه؟

طبعًا لم يخطر ببالها، ولم تكن قادرة على استيعاب أننا بنضرب بودرة.

وتسكن مريم ذات الوجه البريء في العمارة المجاورة.. وكانت على دراية كاملة بما يحدث.. تقف في شرفة بيتها، تفتح فمها في ذهول لرؤية شباب من الجنسين في انتظار المصعد، وأحيانًا لا يصبرون على الانتظار طويلاً أمام أبواب المصاعد، فيقفزون على السلالم نزولاً أو صعودًا.. وسياراتهم أحدث موديلات: فورد كابورليه، مرسيدس كوبيه، جولف كابورليه".. وهم جميعًا غاية في الأناقة، ويحكي مظهرهم أنهم أولاد ناس، وهي ترى ما يحدث خارج بيتي، أما داخله فلا تراه، وإذا رأته فلن تستطيع استيعابه.

وقد سمحت لها بزيارات سريعة من حين إلى آخر، وتأتي دائمًا وهي تحمل مختلف الهدايا بأفكار مبتكرة، وبعد سفر أهلي مباشرة أهدتني كلب يورك شاير" جميلاً.. إنما أصحابي المزعجون كانوا يفقّحون الحشيش

فى وجهه، وبالتالى أصرخ فى وجوههم، طالبا الرحمة لهذا الكائن الجميل والذى أحببته كثيرا.. ورأت مريم عشرات الأمور العجيبة، ولا تعليق من جانبها.

وتردد أصحابى من الجامعة على بيتى، وكان يأتى فى صحبتهم أصدقاء لهم، وبعضهم لا أعرفهم، وأحيانًا أخرج وأتركهم فى البيت، وعندما أعود.. أجد مجموعة أخرى، ويعم السلام على أنغام الموسيقى.. لكن الفوضى تعم أيضًا، فلا شىء يثبت فى مكانه، وانقلب الليل نهارًا، والنهار ليلاً.. ولم يعد من المعروف لأحد مواعيد النوم، أو الصُحيان.. وليست هناك خطة أو هدف.. فقط الاهتمام بالخروج، والشرب والضرب والموسيقى والحفلات والبنات.. والحال عاجبنى، وأصبحت الحياة احتفالية يومية.

وذات صباح.. دخلت سريرى الساعة السابعة صباحًا استعدادًا للنوم، وارتفع رنين التليفون.. إنه بالنسبة لى من الأشياء المزعجة بسبب معاكسات البنات الكثيرة، ولا يتسع وقتى لمثل هذا الصداع والأحاديث المملة، ومع هذا "ردّيت" على التليفون، ودار الحديث التالى، ومن غير "ألو" قلت:

– أفندم.

– مُمكن أكلّم صلاح؟

– نقولُه مين؟

– هالة.. هوّ ما يعرفنيش.

– دا انت جريئة أوى.. يعنى بتتكلّمى الساعة سبعة الصبح، وبتردّى، وكمان ما يعرفكيش.. أحسن لك تكونى عايزاه فى حاجة مهمة أوى، أنا صلاح.. خير يا هالة.

– أنا آسفة إنّى بتكلّم فى وقت زى ده.. بس الحقيقة أنا من يومين باتكلم، ومفيش حد بيرُد علىّ.

– أنا كنت مغذّى بالصُدفة وداخل أنام فجت سليمة.. نعم؟! خير؟! عايزه إيه من صلاح؟!

حاولت الكلام بأسلوب مهذب؛ لأن صوتها عجبنى، وأسلوبها راق يؤكد أنها بنت ناس..

– أنا وصلت من انجلترا.. وقابلت مامتك عند كريم، وقالت لى أكلمك فى الأوقات غير المُناسبة علشان أعرف ألاقيك.

– ياه!! دا إنت طلعت مهمة بجدًا! آسف لو كنت دخلت شمال، أصل المُعاكسات فى التليفون كتيرة، وأنا خلاص زهقت.

– ولا يهمك.. أنا معايا جوابات، وصور لأجمل توأم فى الدنيا "زنا و دنيا".

– إيه المفاجأة دى.. أنا نفسى أشوفهم.. قولى لى: حلوين؟ يارب يكونوا شبه مامتهم؟!

– الحقيقة همَّا أجمل توأم فى العالم كله.. الصور هتعجبك أوى.

– بس إنتِ ما قلتيش، تعرفى أخويا منين؟

– بابا بيشتغل معاه.. ولعلمك أنا أعرف أهلك كلهم، وحكوا لى عنك كتير.

– لعلمك كل كلامهم مُجرَّد إشاعات.. دا أنا طيب جدًا.

– ومين قال إنهم قالوا إنك شرير؟!

– بأقولك إيه يا هالة.. كلمينى عن نفسك شوية.. عندك كام سنة؟ جامعة إيه؟! أنا حاسس إن مُمكن نكون نعرف بعض.

– أنا عندى عشرين سنة.. فى الجامعة "....".

– يا سلام.. يبقى أكيد نعرف بعض.

– أنا أعرف إنك اليومين دول فى الجيش، بس بتتفرج عليه فيديو، وعامل مشاكل كتيرة.

– لا.. لا.. دا كله افترا.

– قل لى.. ممكن نكون نعرف بعض إزاى؟

– أنا شلتى كلها لسه فى جامعتك، وصاحبتى.. أقصد اللى كانت صاحبتى من نفس الجامعة، فأنا معظم الوقت عندكم.

- صاحبتك مين؟

- مش صاحبتى.

- أوكيه.. مين هى؟ جايز أكون أعرفها.

- راندا.. رفيعة وطويلة وشعرها منكوش.

- بيتهيألى أعرفها.. كانت بتاخد معايا درس.

- بقولك إيه انا خلاص صحيت.

- وانا آسفة.. بس هم اللى قالوا أكلمك فى أوقات غريبة، وأنا فعلاً باحاول من يومين، ومش عارفة ألاقيك.

- مش مشكلة.. وبما انى صحيت.. أقوم اخد دش واجى لك اخد الصور.. إنتِ ساكنة فين؟

- فى المهندسين.. شارع "......"

- أوكيه.. بعد ساعة أكون عندك.. آه عمارة كام؟ دور كام؟

بصراحة.. لم أقرر الذهاب من أجل الصور.. ولكنى أردت أن أشوف هالة، وأعرف من هى.. إحساسى قال لى إنها حلوة.. أيضاً أعجبنى أسلوبها فى الكلام، فقررت أشوفها ودون تردد.

أخذت "الدش"، لفيت سيجارة، واخترت ملابس أنيقة بعناية، وكنت فى هذه الأيام اتبع موضة أمريكا، ألوان كثيرة، وسلاسل فى الرقبة لا يقل عددها عن خمس أو ست، بالإضافة إلى مجموعة مثلها من الانسيالات فى يدى، وشعرى طويل والنظارة المراية.. شكلى خنفس جداً.

وصلت إلى منزل هالة.. طرقت الباب، ثوان قليلة وفتح الباب.. ياه!! تسمرت فى مكانى لحظات.. "صاروخ".. يا نهار أبيض على الجمال.. جمال لدرجة إنى سكت تماماً.. لم أنطق من روعة المفاجأة.. ابتسامة ملائكية لوقفتى الحائرة.. وظللت ثابتاً فى مكانى ساكناً.. تماماً.. فقالت:

- صلاح.. إزيك.. اتفضل.

استجمعت كل قوايا.. ركزت وقلت:

- مش تقولي إنك حلوة كده؟

- إتفضل.

جلسنا في الريسبشن وسألتني:

- تشرب إيه؟ نسكافيه؟ شاي؟ كوكا؟

بابتسامة خبيثة قلت:

- بيرة.

- لا.. ما عنديش بيرة.

- طيب.. ويسكي.. واللاّ هتقولي كمان مفيش ويسكي!!

- تخيل!! وكمان مفيش ويسكي!!

- خلاص.. نمشيها نسكافيه، بقولك إيه.. هاتي لي الصور الأول.

- حاضر.. دقيقة واحدة.

وكلمت نفسي:

- يا نهار أبيض.. إيه ده؟ هي دي؟ خلّص يا معلم.

- إتفضل الصور.. ها أعمل نسكافيه وآجي.

- بنفسك؟! ده يبقى أجمل نسكافيه في العالم.

تخرج هالة بابتسامة جميلة.. وأخذت أقرأ رسالة أهلي وأتأمل الصور..

وتعود هالة ومعها نسكافيه.. قائلة:

- شفت الصور؟! شفت ضحكتهم؟ ونظرة عينيهم؟! تخيل وحشوني أوي.

- لما يكون عندهم 16 سنة، هيكونوا أجمل بنات العالم، ومسئوليتي أفتح عينيهم على حقيقة الدنيا.

- لا.. والنبي.. سيبهم يعيشوا دنيا البراءة.

- إنت باين عليك جاية مشحونة من إنجلترا.

- بصراحة.. كلهم كانوا بيشكروا في شقاوتك طول الوقت.

- ظلم.. اقترا.. بس غريبة إني ماشفتكيش قبل كدا في الجامعة!!

- أنا شفتك، ما اللّي إنت فيه دا مايتفعش مايلفتش نظر حدّ.

- هتغلط؟!!

- إيه السلاسل والاكسيسوارات دي كلها؟ إنت فاكر نفسك في نيويورك واللا في هوليوود؟

- بقولك إيه.. إحنا في بلد حر، أنا آكل اللّي يعجبني، والبس اللّي يعجبني، وأعمل اللّي يعجبني.. بس إزاي صحيح عمري ما شفتك قبل كدا؟!

- أصل أنا من الدرس على البيت، ومش باقعد في الجامعة خالص.. مابيش في المناظر دي.

- باين عليك دحاحة.

- أيوه.. أنا من الأوائل، بس والله مش باذاكر كتير.

استغرقت جلستنا معًا ثلاث ساعات.. كلام، كلام، كلام.. وشعرت أنها مهتمة ولديها رغبة في التعرف عليّ بأسلوبها الخاص.. حقًا إنها ذكية وليست سهلة.. على أية حال.. الطريق مفتوح أمامي، ولن أتركها تفلت من يدي، سوف أسأل عنها.. أعرف أصلها وفصلها من أصدقائي.. وكان أول من سألت، هو صديقي مصطفى:

- مين يا سيدي هالة دي؟

- إنسى.. ولا تخطر في بالك.. نص طلبة الجامعة حفيوا وراها.

- ماشي.. دي بقى يا معلم بتاعتي أنا.. ومش هتفلت من إيدي.

بدأت الحوارات التليفونية يوميًا ولمدة ساعات طويلة.. ومن حين لآخر نذهب معًا إلى النادي، وكان واضحًا أنها معجبة، ولكن بحذر شديد.. فهي تتأنق وتتألق في مظهرها وكلامها.. تثق في نفسها وفي جمالها.. وسمعتها في الجامعة عشرة على عشرة.

والعكس صحيح بالنسبة لى.. صاحب رائدا، صايع وضايع، والسُمعة فى الجامعة لا تسُر عدوا ولا حبيبا.. ومع هذا محبوب من الناس، وكانت هذه هى الميزة الوحيدة.. وقد أعجبنى كثيرًا أنها لا تحب البقاء بالجامعة.. ومن جانبى لم أكن أريد الظهور معها هناك، فقد تتسبب رائدا فى مشاكل، وأردت أن أسيطر على الموقف.. وبعد عشرة أيام، كان عيد ميلاد هالة، وكانت هذه هى فرصتى لاستعراض عضلاتى أو إمكاناتى، وأن أقدم فى هذه المناسبة شيئًا ما قد يعجبها، ويدير رأسها.. ولم أتردد.

- حجزت ياخت فندق لمدة ساعتين.
- الاحتفالية لنا وحدنا.. هى وأنا، وتورتة صغيرة مع أجمل "كارت" تهنئة فى العالم.
- موسيقى تناسب ذوقها، وكانت الموضة أغانى هادئة لـ "مايكل بولتن".
- باقة ورد أرسلتها إلى البيت.. وأعتقد أنه كان أجمل، وأكبر، وأشيك "بوكيه" فى مصر.
- نصف من الذهب، مكتوب عليه لا الله إلا الله، والنصف الآخر محمد رسول الله.

باختصار.. عملت أراجوز يومها، وقلت لها:

– اتفضلى.. نص تلبسيه، والتانى تديه للى يستاهلك، حتى لو ماكنتش أنا.

كلام مؤثر.. الدُنيا حلوة.. والجو تحفة.. أسوأ ما فى الموضوع، إنى كنت ضارب أكثر من مرة، وتحت عينىّ سواد، ويبدو علىّ الإرهاق.. وصارحتنى قائلة:

– بصراحة إنت عاجبنى، بس أنا خايفة منك.. معروف إنك شقى، وكل يوم مع واحدة، غير موضوع الشُرب، دى قصة تانية كمان.

– بقولك يا هالة، واحدة.. واحدة، وكله هيبقى أوكس.

- إيه لُوكس دي؟ عليك كلام.. مش عارفة بتْجيبه منين.. ولا مامتك ولا باباك ولا أخوك ولا أُختك بيتكلموا كده؟!

- يعني.. نقول مبروك؟ نقرا الفاتحة.. بسم الله الرحمن الرحيم....، ورفعت يدي، وبدأت في قراءة الفاتحة.. وبابتسامة مضيئة قالت لي:

- فاتحة إيه اللي بنقراها؟! ارحمني.. اديني فرصة أفكر.. أحسن أنا بجد قلقانة.

وعرفت.. أو بكل تواضع، أيقنت أني دخلت قلب هالة، ويبقى الاقتراب من عقلها، لكنها مسألة وقت.. ثم يحق لي أن أقول لنفسي: يارجل أنت لم ترها إلا منذ عشرة أيام فقط.. ومن الواضح أنها إنسانة ليست سهلة.. وسوف تتابعني بكثير من التركيز.. ليست مشكلة على أية حال.. لن تفلت مني.. مستحيل، أنا ألفها في سيجارة واشربها.. إنما لن ألهو بها.. هذا أيضًا مستحيل.

مرت أيام الإجازة سريعا، وعاد أهلي من رحلتهم.. مرّ الشهران كالحلم الجميل.. يا ألف خسارة..

عودة إلى الاستقامة، أو بمعنى أصح: "كله يرجع في مكانه".

14

حفــــر الباطن.. والجائــزة

وفى تلك الأيام كنت لازلت مجندا فى الجيش، وعاش الوطن العربى كله تحت وطأة مشكلة احتلال العراق للكويت.. أيام سادها التوتر والانفعال بين أطراف كثيرة، وكانت أمريكا ستدمر الكويت لإخراج العراقيين منها.. المنطقة مشتعلة، والجيش المصرى فى حالة تأهب، وكنت بعيدا عن كل المشكلات، فمهمتى أنا محددة، مكلف بمسئوليات فى إحدى الدور العسكرية، ولكن المشكلة كانت فى صديقى فتحى، زميل مرحلة الدراسة الجامعية.

لقد تم استدعاء زميلى فتحى كضابط احتياط، ولم اكن أدرى إلى أى مكان تم ترحيله.. إنه ليس الفتى المدلل مثلى، لقد تعود طوال عمره الحياة الخشنة، ثم هو الآن ضابط احتياط.. إنها مسئولية كبيرة.. المهم ذات صباح، تلقيت اتصالا هاتفيا من فتحى، وكانت المحادثة قاسية بالنسبة لى، فكرهت الأحداث الرهيبة الساخنة، والموقف برمته أكثر وأكثر.. وجاء صوته خافتا:

– إزيك يا صلاح؟ واحشنى أوى، وازاى بابا وماما؟

– أبو فتحى!! إنت فين يا عم؟ والله واحشنى جدًا.. إيه يا بنى مش ها نشوفك واللاّ إيه؟

– والله يا صلاح مش عارف.. جايز أعرف أشوفك.. وجايز ما أعرفش، أنا باكلمك علشان أسلّم عليك، وأقول لك أنا رايح حفر الباطن.

– حفر الباطن؟ يا نهار أبيض!! إنت رايح مع الكتيبة المصرية.

– أيوه.. جالى استدعاء النهارده الصبح.. ولازم أسلّم نفسى بكره، فقلت أكلمك، وأسلّم عليك لأنى مش عارف هارجع تانى واللاّ.....

– بلاش تقول كدا يا فتحى.. دا عُمر الشقى بقى.. وإن شاء الله ترجَع بألف سلامة.. بس إنت خلى بالك من نفسك، وأول ما ترجع بالسلامة كلمنى.. اتفقنا؟

– ربنا يُستُر.. أشوفك على خير.. وسلّم لى على الأهل.

– لا إله إلا الله.

– سيدنا محمد عبْده ورسوله.

انتابتنى حالة من الذهول بعد انتهاء هذه المحادثة التليفونية.. وظللت أكلم نفسى: فتحى!! حفر الباطن!! العراق!! الكويت!! أمريكا!!

لقد بدوت متماسكا طوال المحادثة بيننا.. ولكنى شعرت بعدها بالخوف، وأيضا الحزن.. كلاهما يتصبب من مسام جلدى، وأردت البكاء بصوت عالٍ.. رحمتك يا الله.. لماذا فتحى بالذات؟ وما كل هذه الأخبار السوداء؟ لماذا يذهب فتحى إلى حفر الباطن؟ ماذا يفعل هناك؟ ثم سيُحارب مَنْ؟

عشرات الأسئلة بلا إجابة.. وأمسكت القلم، وكتبت رسالة إلى رئيس الجمهورية.. حكيت فيها عن فتحى ذلك الفتى الطيب.. فى أعماقه قدر هائل من الخلق الكريم.. وحكيت فى الرسالة عن أيام عشناها معا، وقدرته على العطاء وإنكار الذات، والتفانى فى منحى المحاضرات والملازم لأخذ فرصتى كاملة فى المذاكرة والنجاح. كانت رسالة طويلة، حمّلتُ سيادته فيها مسئولية صديقى فتحى، وختمتها بقولى: دمُ فتحى فى رقبتك ياريس..

ومرت سنة التجنيد بالنسبة لى بسلاسة، وهدوء، وبلا مشكلات لكنهم طلبوا منى التواجد ساعات منتظمة ولمدد أطول، فقد تقرر افتتاح الدار، ومن المهم استكمال الأشياء التى لم تُستكمل بعد.. وكان العميد نائب الدار، يجمع فى يده كل الخيوط، وكنت مساعده بل وصديقه، وكان يثق فى ذوقى، وعهد إلىّ باختيار أنواع وألوان أقمشة مفروشات القاعات، ومنها قاعة الأفراح الكبرى، والستائر.

وكان العميد أيضا يتمتع بالذوق الجميل، وهو شخص ذكى ومرن، وكنا نقضى معًا ساعات طويلة بدءًا من العاشرة صباحا حتى الساعة الثانية ظهرًا.. أعرض عليه خلالها المناقصات وعروض الأسعار لكل الأشياء المطلوبة بكافة تفاصيلها.. وكانت ثقته بى كبيرة، وذات يوم سلمنى حقيبة بها 40 ألف جنيه ثمنًا لشراء تليفونات وأجهزة أخرى.. ولم أخن العهد ولا العهدة.

بصراحة.. أحببت الدار كثيرًا، وأحبنى العاملون بها، وشعرت أننى أضفت لمسات مهمة وجميلة فى المكان.. وفى يوم افتتاحها، كنت العسكرى الوحيد الذى جلس على مائدة وزير الدفاع، كواحد من أعضاء الفريق الذى قام بتجهيز الدار للافتتاح.

وبعد هذا اليوم التاريخى فى حياتى.. استمر تواجدى بها ثلاث مرات أسبوعيًا لمدة ساعتين تقريبا، وبقية اليوم أقضيه مع حسام ودعاء وناسى فى مصر الجديدة، ومعهم صديقنا الضابط ماجد.. كنت أذهب إليهم لقرب المسافة سيرًا على الأقدام، أضرب وأعود إلى الدار بعد حوالى نصف ساعة.. وكلُّهُ تَمام.. ومع الأيام، لاحظت أن بعض العاملين بالدار بدأ يشكّ فى الأمر، ويشعر بأن هناك شيئًا ما خطأ.. ولكن لم يناقشنى أحد فى الموضوع.. وانتبهت، وبدأت أتراجع ولا أذهب إلى الدار بعد الضرب، أو على الأقل خففت الجرعة، لأن أحد الضباط أيضا بدأ يراقبنى بعين ثاقبة، وكأنه يقول: يا معلم.. أنا فاهم كل حاجة.

انتهت فترة التجنيد.. حقًا كانت أياما جميلة، تعلمت فيها الكثير؛ خاصة عندما قمت بشراء احتياجات ومستلزمات الدار، كنت أدرس الأسعار، وأقارن بينها.. التجربة عملية ومفيدة جدًا.

وفى تلك الفترة، تلقت الأسرة نبأ سعيدا بحصول والدى على الجائزة الأولى، فى تصميم واحد من أكبر المشروعات الهندسية فى السعودية.. واقترح الوالد أن أسافر، أنا ووالدتى معه؛ لنتعرف إلى الناس هناك، ومشروعاتهم

التنموية الكثيرة، فقد تكون فرصة بالنسبة لي للتفكير في العمل والاستقرار هناك.. ولم أكن قد سافرت إلى بلد عربي من قبل.. كل رحلاتي إلى أوربا وأمريكا.. بالإضافة إلى هذا، كانت الدعوة لاستلام الجائزة، تشمل دعوة لأداء العمرة مع والدي ووالدتي.

كان أول خاطر: أن أقلل من الضرْب، بعد أن أصبحت أضرِب كل يوم تقريبًا.

والخاطر الثاني: أن أشترى ملابس جديدة.

والخاطر الثالث: الدَّعْوة من أحد الأمراء المرموقين.. إذًا كل شيء بمستوى الأمراء.

والخاطر الأهم: تمنيت أن أرى الكعبة، وأصلِّي في الحرم المكِّي، ففي كل يوم.. يتوجه الآلاف من مصر والملايين من العالم إلى هناك.. وطبعًا أزور المدينة المنورة التي أجْمَع كل الناس على حبِّها.

سافرنا، بابا وماما وأنا.. والرحلة "ملُوكي" منذ بدايتها.. التذاكر درجة أولى.. رغم أنه قد سبق لي وجربت السفر بالدرجة الأولى.. لكن بهذا المستوى.. لا، لم يحدث.. الطيارة عِمْلاقة، واسعة، كرم ضيافة، والخدمة ممتازة.. عشْرة على عشْرة.. وصلْنا الرياض، وعلى الممر كانت تنتظرنا سيارة ليموزين، وتسلَّم مندوب ديوان الأمير جوازات السفر، والتذاكر أيضًا لاستلام الحقائب.

ما أرْوَع الترحاب الذي استُقبلنا به، والكرم العربي الأصيل الذي يبدو في كل تصرف.. كل شيء جميل إلا الجوّ.. الحرارة شديدة، والرطوبة أيضًا.. أظن من المستحيل الوقوف في الشارع دقيقة واحدة أثناء النهار.

وصلنا قَصْر الضيافة، والتقينا مع الفائزين الآخرين بجوائز أخرى.. واستقبلنا الأمير، صاحب الدعوة، بحفاوة بالغة.. وكل التفاصيل تحكي عن الكرم، الثراء، والمعرفة بأقدار المدعوين.

في غرفتي كل ما أحلم به.. فاكهة، وثلاجة مليئة بالعصائر والمثلّجات من كل الأنواع.. كل ما أريده موجود تحت أمري.. وكأني أعيش عصرَ ألف ليلة وليلة، وشُبَّيْك لُبَّيْك.

الأعجب من هذا وذاك.. وجدت رجلاً يقف بالقرب من باب غرفتي، فسألته عن سبب وقوفه عند بابي طوال الوقت، وأدهشتني الإجابة:

- لو إحتجْت إلى أي شيء، أنا هنا تحت أمرك.

- حاجة إيه اللي ممكن أعوزها؟! كله موجود.. اتّكلْ على الله، ولو سألوني عنك ها قول لهم راح يجيب ريش فيل أبيض، وعدّى عليّ كل كام ساعة علشان القَلق.

لم يصدق الرجل نفسه، وشكرني واتّكل على الله ومن حين إلى آخر، يطرق بابي ويسألني: هل أحتاج شيئًا ما، واطمئنه، كل شيء تمام.

هذه الرحلة كانت بمثابة رحلة تغذية، ويا إلهي.. ما كل هذا الكم من الطعام؟! إنني لا أفعل شيئًا إلا الاستمتاع بما لذّ وطاب، وبصراحة إنها فرصة ممتازة لزيادة الوزن، وامتلأت قليلاً بعد أن فقدت كثيرا من وزني وأصبحت كالشّبح.

وجاء يوم الاحتفال.. وتسلم الفائزون جوائزهم، وكانت الجائزة الكبرى من نصيب والدي، وشدّ سمو الأمير على يده بحرارة، وهو يسلمه "شيك" المكافأة المالية عن مشروعه الهندسي، الذي تفوّق به على المشروعات الهندسية الأجنبية.

تبادل الفائزون التهاني، خلال حفل العشاء مع سمو الأمير وضيوفه الذين يعملون في البنوك والسفارات والمشروعات الحديثة.. إنها تجربة جديدة بالنسبة لي، وحقًا إنها رحلة جميلة.. مختلفة.. وممتعة.

صباح اليوم التالي مباشرة.. جاءني الوالد في غرفتي، وأعطاني 5000 ريال، رغم أننا اتفقنا على 3000 ريال فقط منذ بداية الرحلة..

وقال لي:

- اشترِ كل ما يعجبك، ومن جيبك.. من مخصصاتك، ولا تقبل أبداً أن يدفع لك أى واحد هللة واحدة.

أدهشنى كلامه.. ولم أعلق.

خرجت مع مندوب بعث به رئيس ديوان الأمير، يرافقنى فى رحلة المشتروات، وفهمت معنى ما قاله والدى، عندما وصلت عند المحصل "الكاشير" للدفع.. فقال مندوب رئيس ديوان الأمير:

- ما بيصير إنك تدفع!! إنت اختار.. والرجال يتولون توصيل كل شيء إلى القصر.

رفضت بأدب، وصممت أن أدفع من فلوسى، وإلا فإننى سأعود إلى القصر ولن أشترى شيئاً، وقلت له بحسم واضح:

- إنها تعليمات الوالد، ولابد من تنفيذها.

أمام إصرارى، وافق الرجل، وبدأت أختار مشترواتى.. "جينزات، تى شيرتات"، وكله من ماركات عالمية، وأنفقت 4500 ريال، واحتفظت ببقية المبلغ.. فسوف ينفعنى بعد العودة إلى بلادى.

وبصراحة.. كنت أجلس على عرش السعادة، وأشعر بالفخر عندما زارنا سمو الأمير فى قصر الضيافة، لتحية الفائزين وعائلاتهم قبيل السفر لأداء العمرة.. وضغط سمو الأمير بيده على يد والدى بإعزاز قائلاً:

- ألف مبروك وبالتوفيق دائماً، والحقيقة أن ابن سيادتك أخجلنا برفضه شراء أى شيء على نفقة الديوان كهدايا رمزية.. فاسمح لى أن أهديه ساعة يد هدية منى، وبارك الله فى أخلاقه، والفضل يرجع لوالدته السيدة الفضلى.

بصراحة.. شعرت أن ما قاله سمو الأمير يساوى أكثر من مليون ريال، وقد لاحظت أن كلمات التحية والتهنئة للآخرين لم تكن بالحرارة والقوة نفسها.. وعرفت فيما بعد أنهم قاموا بشراء كل احتياجاتهم على نفقة ديوان الأمير..

هذه الساعة أعتز بها للآن.. كانت ومازلت بالنسبة لي رمزًا للعزة والكرامة، وقيمت الوالد، عندما شرحها لي بوضوح:

- أنا هنا لتكريمي، واستلام جائزة عن مشروع وعمل مبدع.. وليس للإنفاق عليّ أو على عائلتي.

سافرنا كلنا لأداء العمرة.

طبعًا تمنيت أشوف الكعبة.. بصراحة الموضوع شغل تفكيري كثيرًا، فقد قرأت عنها ورأيتها على شاشات التليفزيون، وحكى لي الناس عنها الكثير.. وقد قالوا لي مثلاً:

- أنا بكيت أوّل ما شُفت الكعبة.

- أنا جالي ذُهول أول ما شُفت الكعبة.

أنا.. لم أبك.. ولم أشعر بالذهول.. ولم ينتابني الشعور بأني متبسوط أو شعور آخر مختلف.. الحقيقة لم أفهم، ولم أحدد إحساسي بدقة.. وبعد أن مرت الدقائق، وأحسست بالرهبة والخشوع بلا حدود.

تأملت وبتركيز شديد حركة طيران الحمام.. هل يطير فوق الكعبة أم يطوف حولها؟

يا إلهي.. هنا كان فيل إبرهة!! واقتربت من الحجر الأسود.. لمسته.. ياإلهي.. الزحام بالقرب من الحجر الأسود فوق التصور.. وشغلتني بئر زمزم.. وتدفق المياه.. قرن.. وراء قرن يا إلهي.. ما أعظمك......

ما أروع أداء العمرة مع بابا وماما.. ودعوت ربّي أن يغفر لي "البلاوي" التي عملتها في هذه الحياة القصيرة.. نعم، والعمر كله قصير، مهما طال.

وزرنا المدينة المنورة، وهناك كان إحساسي بالراحة، وفي أعماقي دائرة مضيئة، ولست أدري لهذا سببا، لكن بصراحة شعرت بالراحة كثيرًا في المدينة المضيئة، الهادئة، وبين أهلها الناس الطيبين، وصليت كثيرًا عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.. فعلا سعدت في المدينة المنورة.

انتهت الرحلة الجميلة على خير، وعدت إلى مصر.. وقد ازداد وزنى ثلاثة كيلو جرامات، ولم يعد لون الوجه باهتًا، ولم تعد منطقة السواد تحت العينين واضحة.. فعلا عشرة أيام ليست من العمر، والفارق بين ما قبل الرحلة، وما بعدها واضح جدًا.. عدت هذا الإنسان الممتلئ، صحة، وكأنى جئت للحياة بكل نضارة من جديد، أيضا مشترواتى كلها أنيقة، ومعى مبلغ لا بأس به.. وكل شيء تمام.

ومنذ اليوم الأول لوصولى.. عرفت أخبار الأصدقاء، واحدًا، واحدًا، بونو بيضرب "بهيل"، والجرعة زادت، ولو استمر على هذا المنوال سيفقد عقله، ويجن، نعم.. هو ورث ملايين، إنما المثل بقول: خذ من التل.. يختل.. بالإضافة إلى أنه قد فصل من الجامعة بعد رسوبه للمرة الثالثة.

ريكو، الشيء نفسه، يضرب بلا حساب، وصديقته الجديدة بنت تاجر مخدرات في شبرا، وتغير كل شيء.. صحته، شكله، مظهره، وكثرت مشاكله، وساءت سمعته إلى أقصى درجة، ولم يدخل الامتحان.

زونى.. كما هو.. صداقته مع نيفين مستمرة، ويقضى معها كل النهار، ويذهب آخر الليل عند ميدو يشرب سيجارتين وزجاجة بيرة مع علاء.. هذا البرنامج اليومى رسمته له نيفين، ولم يخرج عنه.. ولا ينظر حوله أبدًا.. لا يمين ولا شمال.. هى بصفة مستمرة فوق رأسه، وهو سعيد بهذا، ويحبها حقيقة.. وبعد سبع سنوات فى الكلية، استطاع أخيرًا النجاح فى السنة الأخيرة.. نعم.. عنده ملحق فى مادتين، ولكنه نجح.. وعبر.

"ميدو"، كما هو.. ينتظر فى بيته من يأتى ليأخذه فى جولة، وأحيانًا يضرب مع بونو، وأحيانًا مع ريكو.. أو يلف سيجارتين مع زونى، وأحيانًا يضرب معى ثم يذهب إلى النادى الأهلى لمشاهدة مباريات الكرة، ومن حين إلى آخر يذاكر.. بشكل عام لا أحد يفهمه.. المهم أنه نجح..

ولكنه يرفض البحث عن عمل.. قرر ألا يعمل.. ويقول:

– ماليش نفس اشتغل.

يذكرني دائما بفيلم "الأيدي الناعمة".

علاء، لا يتغير، بيرة.. أفلام جنسية، قراءة مجلات وصحف.. ينفق بلا حساب، وفيما يبدو أن ثروته من الميراث على وشك النهاية.. شيء متوقع، فهو منذ عشر سنوات ينفق ببذخ، ولا يريد أن يبحث عن عمل، ويريد البقاء في البيت طول الوقت مع اثنين من أصحابه، حياتهم هم الثلاثة مملة إلى أقصى درجة.

واضطر حسام ومعه دعاء إلى الانتقال إلى شقة ثالثة في مصر الجديدة أيضا، بعد أن اشتبه الجيران في تصرفاتهما المريبة، وضيوفهما الغرباء الذين يترددون عليهم في كل الأوقات.. وكان من الواضح أن المال لا ينقصهما، وأعتقد أن دعاء تحصل على بعض هذا المال من الرجال الذين تتزوجهم.

نانسي بدأت تتعلق بي، وكنت على العكس تماما، وكانت تطاردني باتصالاتها التليفونية، وعندما تراني لا تدعني في حالي، وكنت أفلت بصعوبة.. إنها الآن تحبني بجنون، وهذه كارثة!! نانسي؟! هذا آخر شيء يخطر على بالي.

راندا.. كما هي تحبني جدًا، ولكنها بدأت تفهم الحقائق؛ فالزواج لن يحدث.. وقبلت في نهاية الأمر أن تكون موجودة في حياتي؛ ولكن دون مسئولية.. عندما أطلبها تنفذ فورا، وعندما أقول لها مع السلامة تنفذ أيضا ودون مناقشة.

مريم، فأنا حبها الأول، وحبها الأفلاطوني.. ولا تريد أكثر من أن تكون بجواري.. بل ويكفيها أن تسمع صوتي هاتفيا، وعندما نلتقي، في كل مرة أفاجأ بهدية محترمة، أو مفاجأة لا تخطر على البال.. ولم يغب عن خيالها أبدا أن حلمها في النهاية سوف يتحقق، وأنني سوف أتزوجها في يوم من الأيام.. كنت أرى مريم مرة في الأسبوع، أو مرة كل أسبوعين، وفي كل مرة أصطحب أحد

الأصحاب؛ حتى لا أشعر بالملل.. إنها بنت بسيطة وطيبة.. كأنها ملاك في زمان ليس به ملائكة.

هالة الجميلة.. هي وحدها في القلب.. فعلا أحبها، وأحلى الأوقات هي التي أقضيها معها.. هي أيضا بدأت تتعلق بي، بل أحسست فعلاً أنها بدأت تحبني.. المشكلة كانت الشك.. وتسألني ألف سؤال وسؤال:

- كُنْت فين؟ ومَع مين؟ ورَجِعت إمتى؟ وشرِبْت والاّ لأ؟

سمعتي بالنسبة لها كانت سيئة، وكان من السهل عليها معرفة أخباري من أصدقائي في الجامعة، وكل التفاصيل تصل إليها بسهولة.. إنها تتمنى أن أهدأ.. وأن أحسن اختيار أصدقائي.. وأن أتوقف تماما عن الشرب.. وأن أبدأ التركيز في البحث عن عمل، وبناء المستقبل.. كل كلامها منطقي ويدخل العقل، إنما المشكلة أين العقل؟ العقل في اتجاه آخر تماما.. في "جُوينْت".. في زجاجة ويسكي.. في مُوسْتَه.. إنما في المستقبل!! إنه شيء بعيد.. بعيد. كنا لا نخرج إلا قليلا لأنها متفوقة ومن الأوائل.. تقضي وقتها في المذاكرة والتحضير والقراءة.. بينما أقضي وقتي في بلْبيس أو السويس أو الساحل.. الفارق كبير.. هي جادة تذاكر، وأنا، على العكس، سهراتي مرعبة، وكل ليلة فيلْم شكل، وأصحو في "عز الضهر".. بمعنى العلاقة مستمرة، ولكنها ليست مستقرة.. بصفة مستمرة تشك، وقصة راندا تسبب لها صداعا مستمرا.. هي تعرف وسمعت، وترى راندا، وتعلم بمدى حبها لي.. ولم يكن بيني وبين هالة أي علاقة جنسية.. فهي لم تعطني الفرصة، ولم تسمح أبدا بوجود مثل هذه القصة، وكنت بصعوبة، في أي مكان وفجأة، أخطف قبلة سريعة.. كان الموضوع صعبا جدًا.

كان أهلي من المعجبين بها، ولكن في رأيهم أنها مغرورة إلى حد ما.. وبصراحة معها كل الحق.. فهي فتاة متفوقة، ذكية.. بنت ناس ومن عائلة محترمة.. وفي منتهى الجمال "صاروخ".

رولا أختي.. توأمي، كما هي دائمًا، تدللني، تهتم بي كثيرًا، تدافع عني في كل المواقف، وتغضب وتثور إذا قال عني أحدهم: صايع أو ضايع أو مستهتر ولا فائدة منه.. إنها حامي الحِمى، وكريمة معي.. تعطيني من مالها الخاص بسخاء.. كانت رولا دائمًا تحل مشكلاتي المادية.. فعلاً أخت "بعشر" رجالة وهي كثيرة السفر.. عملها في الأمم المتحدة يضطرها لحضور المؤتمرات والندوات، وبعد زواجها لم تعد رحلاتها كثيرة بالدرجة نفسها، وطبعا لم تعد تعيش معنا في البيت نفسه.. ومع هذا كنت "أتكعبل" فيها كل يوم تقريبًا.

ونحمد الله، عاد فتحي من حفر الباطن، سالمًا.

15

صـــــدمات متتاليـــة

رجعت من السعودية، وكانت الرحلة جميلة حقا.. دخلت إلى المنزل، واستقبلت أول مكالمة تليفونية من شريف ملك "الغرز"، وقبل أن يسأل عنى وعن حالى، دخل فى الحديث مباشرة:

- تعال بسرعة يا صلاح.

- فيه إيه؟

- يا عم جارك مراد عندى، وأفور من نفسين بانجو.

- مراد.. هو مراد بيشرب؟! دا حتى مبيشربش سجاير.

- يا سيدى شرب، تعال بس بسرعة.

نزلت جرى على شريف، أشوف حكاية مراد إيه.

مراد جارى، طيب جدا.. كان من أشطر الناس أيام المدرسة، وتخرج فى كلية الهندسة.. هوايته الأولى والأخيرة السيارات، ولم يفكر طوال عمره فى دخول عالم المخدرات.. كنت فى حالة دهشة، أصابت تفكيرى بالشلل، وعندما وصلت إلى شريف، وجدت منظرا غريبا.. مراد جالس على الكنبة فى "البلكونة"، ورقبته مائلة.. وعلى صدره فوطة، وسألت شريف:

- مراد ماله؟ إيه اللى حصل يا شريف؟

- كنت فى الشارع وقابلته.. سلامات، وبعدين سألنى معاك حشيش؟! رديت: إنت بتشرب يا مراد؟! أنا اللى عارفه إنك حتى ما بتشربش سجاير، قال لى: بشرب دلوقت حشيش، بيرة، ويسكى. كله.. قلت له: معايا بانجو، فقال البانجو ده مبيعملش حاجة، قلت له: اللى معايا بيعمل.. طلعنا على البيت عندى ودخلنا بلكونة الأوضة، لأن أبويا وأمى موجودين.. قعدنا على الكنبة فى البلكونة،

ولقيت له جُوينت، فقال لى: ما تلف 5 ولا 6 علشان نشربهم، قلت له: لأ.. اشْرب ده الأول، ولمّا نحتاج تانى أنا معايا كتير، وهالفّلك زى ما أنت عايز.. أنا كنت متأكد إنه مش هيقدر يشرب أكتر من جوينت، لأن "الصنف"[1] اللى معايا جامد "....."، وفعلا ولّع الجُوينت وخد حوالى عشر أنفاس ورا بعض.. رجّع لى الجُوينت وقعد على الكنبة وأنا كملتها.. نص دقيقة ولقيته نزل فى الكنبة لتحت، ودماغه واقعة على كتفه.. سألته: مالك يا مراد، قال: أنا تعبان أوى.. سألته: تعبان إزاى؟ فيه إيه؟ رد بصعوبة: إن دماغه تقيلة أوى ومش قادر ياخد نفسه ولا قادر يتحرك.. وابتدا وشّه يصفر ويعْرق جامد أوى.. جريت على المطبخ وعملت ميّة بسكّر ورجعت أكلّمه.. مابيردّش علىّ.. أجيبه يمين، شمال مفيش فايدة، كلّمنى أبوس إيدك.. حاولت أشرّبه، فشلت.. أعمل إيه؟! رجعت المطبخ تانى، وكل قزايز الميّة الساقعة اللى فى التلاجة حطّتها فى حلّة كبيرة وعليها تلج من الفريزر، جبْت الفوطة الكبيرة، وحطّتها على صدره وكتافه زى ما أنت شايف كده، قاعد بيحلق.. غرّقته ميّة، مسكت كوباية، وملّيت بُقّى، ونفخت فى وشّه زى المكوجية، كل رشّة يتنفض، بس مكنش بيفتّح عينيه، ولا بيتكلم.. وبعد ما انفّخ الميه على وشه أنشفه بالفوطة.. واستمر الحال دا لمدة نص ساعة، لحد ما أخيرا نطق وقال لى: كفاية.. أنا كويس خلاص.. فسألته: يعنى تقدر تقوم تروّح؟ قال لى: كمان شوية، وطبعا أنا كنت خايف حد يدخل وهو فى الحالة دى، جريت على التليفون أكلمك، سيبته دقيقة واحدة.. رجعت لقيته فصل تانى، فكرت أسيبه نايم لغاية لمّا إنت تيجى.. قُل لى: هنعمل إيه فى التهمة دى؟!!

– نرشّ ميه على وشه تانى، يفوق، تأمّن لى الطريق لغاية لمّا ننزل.. عربيتى تحت، حاقعده فيها وانيّمله الكرسى وأطلّعلك تانى تشوف موضوع البانجو اللّى معاك ده إيه.

– يا عمّ بانجو جامد شويّة، بسْ مش قصة.

---

[1] الصنف.

- طيب وأخبار البُودْرة إيه يا شريو؟
- البيسة، لا، أنا لسَّه خارج من المستشفى من كامْ يوم ومَهْدِّى اللعب.
- البُودْرة بقى اسمها بيسَة؟
- آه إسْم الدَّلع الجديد.. وبعدين علشان نتكلِّم براحتْنا، هُوَّ مين حيفْهَم إن بيسة يعْنى بُودْرة.
- بِيسَة.. بيسَة.
- يقولك إيه، خلَّصنا من التُهمة دى، أُمى ممكن تكْبسْ فى ثانية.

من الأشياء التى كنت أهتم بها.. علاقتى بأهل أصحابى؛ فوالدة شريف كانت دائمًا وأبدًا تعتبرنى من الأولاد الصالحين، أبناء العائلة العريقة، والمستوى الدراسى الجيد، ولم تتخيل أبدًا أننى أتعاطى أى مخدر، وكانت دائمًا تشجع شريف بأن يعتبرنى مثله الأعلى، ويتمسك بصداقتى، وأن يتجنب أصدقاء السوء.. فكنت أحرص كل الحرص على أن تستمر مثل هذه النظرة فى أعين أهل أصدقائى، وكنت أبذل جهدًا للحفاظ عليها.

وبدأنا فى رش المياه مرة أخرى على وجه مراد إلى أن بدأ يفيق، وفورًا ضربْناه يمين وشمال، وتحدثنا معه، شجَّعْناه على الحركة إلى أن نجحنا.. أمَّنَ شريف الطَّريق، ودخلْنا الأسانْسير.. واستند مراد على كتفى، وزجوته أن يتمالك نفسه إلى أن نصل إلى السيارة.. بصعوبة وصلنا إلى السيارة.. ولكن كشفنا البوَّاب.. فقال:

- خير يا صلاح بيه، هوَّ الباشا مالُه؟
- مفيش، بَطْنُه بتوجعُه، عندُه مَغَص.

وصلت إلى السيارة وفتحت بابها.. أدخلت مراد وفتحت له الكرسى.. فى أقل من لحظة نام، تركْته وصعدت إلى شريف مرة أخرى، وطلبت منه نولّع جُوينْتين من البانجو، الذى قضى على مراد.. كان الصنف قويًا، ولكن لم يكن سببًا لشعورى بأى شىء أكثر من "السَّطل"، وأعترف أن البانجو ما هو إلا مخدر

غبى.. شربت "جُوينتين" مع شريف، ونزلت إلى مراد فوجدته نائمًا.. ولم يتحرك من مكانه، لكنه بدأ يعي بوجودى وأخيرًا تحرك، وتكلم بصعوبة وتلعثم عندما سألنى:

– هو أنا فين؟ هو إيه اللِّى حصل؟ دماغي.. آه يا دماغي.. أنا عايز أرَوَّح.

أخذته إلى بيته، ومشيت بعد أن أعطيته الوصايا العشر، وكانت آخر وصية:

– ولا أنا شُوفتَك ولا إنتَ شُوفتِنى.

تقابلنا بعدها بحوالى شهر، وصارحنى بأنها كانت آخر مرة فى حياته يشرب فيها مخدرات من أى نوع.

وفى منزلى وبعد العودة مباشرة، دارت فى بيتنا أسطوانة من كلمات الوالد وألحانه ومطلعها: لازِمْ تشتغل.. هذه الكلمات التى يرددها على مسمعى بلا توقف، وأنغامها النشاز كرهتها من كل قلبى، فهى تعذِّبنى، وتذكرنى بالفراغ الذى أحياه، والوالد لا يمل، ولا يتوقف عن اللوم والتأنيب كلما رآنى قائلاً:

– ما ينفعش حياتك تستمر بالمنظر ده.. الاستهتار، والسهر خارج البيت، والبنات، والفلوس اللى بتصرفها من غير حساب، ومفيش أى نظرة للمستقبل.

وعندما يفقد الأمل، يقول لى:

– أنا ناوى أقاطعَك.. يعنى ماليش دَعْوة بيك، ولا لَكْ دَعوة بيَّا.

– ارْحمْنى يا بابا.. أنا خلاص حفظت اللِّى هتقولُه.. ومش كلّ يوم اسْمَع نفس الأسطوانة.

وفى حقيقة الأمر.. كان موضوع المقاطعة المتكرر بالنسبة لى شخصيًا جميلاً، ويعجبنى لأكثر من سبب.. السبب الأول، أننى لن أسمع هذه الاسطوانة المشروخة خلال فترة المقاطعة، والسبب الآخر أننى لن أكون مضطرًا لذكر مبرِّرات التأخير كل ليلة.. وبشكل عام، كان لقاؤنا فى البيت يحدث صدفة من حين إلى آخر، فهو يصحو فجرًا فى موعد عودتى، وما يدور من حوار بيننا

لا يزيد عن كلمتين: "صباح الخير"، أو "تصبح على خير".. وأنا أستيقظ في الرابعة بعد الظهر، لأجده تناول طعام الغداء بعد عودته من الشركة، ودخل إلى غرفته لينام ساعتين، ويستيقظ ليجلس إلى مكتبه، ويعاود نشاطه في رسم مشروعاته أو إجراء اتصالاته المهمة.. وهو على النقيض مني تماما، كل شيء مرسوم في حياته، ومخطط له بالدقيقة والثانية، وأحاول إذابة الجليد، وكسب وده، وأقول له:

– مساء الخير يا بابا.. وَحَشْتِنى والله.

– إنت خلّيت فيها صباح من ليل.. وبعدين أنا لي أكتر من عشر أيام مَا شُفْتكْش.. ينفع الكلام ده؟!

– والله يا بابا.. ظروف.. الحياة صعبة، والدنيا مش زى الأول.. أقولك إيه بس؟! كِفاح.. الحياة كفاح.

– طيب وبَعْدين.. يعْنى هاشوفك إمتى؟

– ناخُد ميعاد.. إيه رأيك يوم الجمعة على الغدا؟

– خلاص.. يوم الجمعة، نتغدى في النادى.

– والغَدْوة دى علىّ أنا.

– طبعًا هتَعْزِمْني، وتاخُد مني حقّ الغَدْوة عشر مرات.

– زيّنا في دقيقنا يا إكسيلانس.

– أنا نفسى أعرف بتجيب الكلام السُّوقى ده منْ فين؟

– يا "إكسيلانس"، ابنك "تيلتو ارْحى"* قديم.

ظل لقاء الجمعة في النادى لطيفا، إلى أن فتح الوالد موضوع البحث عن عمل، ورفضت قائلاً:

– أنا لازم أستريح شوية.

– تستريح من إيه؟

---

* أبناء الرصيف.

- اتخرجت.. وخلصت فترة التجنيد، والله العظيم حضرتك راجل مفترى، وربنا ما يرضاش بالظلم.. هو اللى أنا عملته ده كان سهل؟! وخلى بالـك، حـضرتك بعتنى فى موضوع الجيش، ولا كلمت بنـى ادم واحـد علـشان اخـد إعفـا، ما تفتكرش أنا ها اعدى لك الموضوع ده.. لنا وقفة.. بس كل وقت وله أذان.

- بقى كده؟! لك حق، فعلاً أبوك عايز يترَبّى.

تتدخل رولا فى الحوار ضاحكة:

- عيب كدا يا صلاح.

لا تعليق من أمي، ؛ كعادتها في مثل هذه المواقف، تفضل أن تبدو كأنها لم تسمع الحوار.

كان الشد والجذب السمة المميزة للعلاقة بيني وبين الوالد فيما يتعلـق بالأمور المادية، وكانت لنا كل أسبوع معركة حول هذه القضية الحيوية.. تبـدأ بأن أطالب بالدعم المالي، ورفع الميزانية المقررة، وأن تـضاف إليهـا منحـة خاصة، وتنتهي المفاوضات باتفاق جديد، وأخذ منه المبالغ التي أطالـب بهـا.. تنتهي بأنني الغالب ولست المغلوب.

الحق يقال.. كان الوالد شديد الكرم معي، يعطينـي بـسخاء حقيقـي، ولكنني كنت مبذرًا إلى أقصى درجة يمكن تـصورها، ولا يمكـن تـصورها.. بسبب السهر، هذا بخلاف أن المخدرات تنسف وتمحق كل المبالغ التي اخـذها منه، ونظرًا لأننا لم نكن نلتقي كثيرًا، كنت أعتمد على كتابة رسـائل قـصيرة ودودة، أقول فيها:

صباح الخير يا بابا..

تحية عبقرية من الغرفة المجاورة.

واضح جدًا، أن حضرتك بتتهرب مني اليومين اللي فاتوا دول علشان ما تدنيش فلوس، والكلام ده عيب وما يصحش.. لابد مـن تـصحيح المـسار، والعودة إلى الواقع والحق..

من فضلك يا بابا سيب لى مائة جنيه، وخليك أب جدع ونطيف..

ابنك البار..

صلاح بك.

كنت كثيرًا ما أحاول، وأبذل جهدًا فى الكتابة باللغة العربية الفصحى، ويأخذ الوالد كل ورقة أكتبها، ويصححها بقلم أحمر، ويعيدها إلىّ وقد كتب جملة صغيرة: تفضل آخر مبلغ إلى آخر الشهر.. ويعطينى نصف المبلغ المطلوب، فقط: خمسين جنيه.

لم يكن ذلك مهمًا بالنسبة لى، فقد حصلت على مبلغ ما.. وبالنسبة للوالد؛ فهو يشعر بارتياح لأنه أظهر اعتراضه، وهدد وتوعد.. وكنت أعرف جيدا أن هذا التهديد مثل غيره "فشنك".. أعترف منذ صغرى أن يدى كانت طويلة، تعبث فى بنطلون أخى كريم، وشنطة أختى رولا، ودولاب أمى، ومحفظة والدى.. ومن فترة لأخرى أقوم بعملية سطو على أحدهم.. ولم يكن هناك أى حل لهذا الموضوع الخطير، إلا أن يحترس كل منهم، ويركز جيدًا فى إخفاء أمواله.. وبطبيعة الحال، إذا وُجهت إلىّ الاتهامات أو نظرات الشك والريبة، كنت أنكر بشدة قائلا:

- لأ.. مش أنا طبعًا.. أنا لمّا باخد أى حاجة باقول على طول.. وبعدين أنا معايا فلوس، ومش عايز فلوس.. هو أىّ ظلم وخلاص.. "وإن بعض الظن إثم".. ربّنا هيحاسبكم يوم القيامة على الظلم ده.

وتضيع الحقائق، وتدور بعض الشكوك حول الشغالين فى المنزل.

عودة إلى الشلة مرة أخرى.. ظل الحال كما هو.. زونى وميدو لا يتوقفان عن شرب البيرة والحشيش، ريكو ازدادت جرعاته، وبونو وصل إلى درجة تخطى الخط الأحمر.. وكنت أقضى معظم الوقت مع مصطفى من شلة الجامعة.. شاب ظريف، طيب وكريم بوقته وأمواله، فوالده من أكبر الأثرياء، وكلما سافر الى الخارج، نأخذ سيارته المرسيدس آخر موديل، ومن

السيارات القليلة في ذلك الحين، والتي بها تليفون، وعلى مقعد القيادة شاب صغير.. وكنت أفضل الجلوس في المقعد الخلفي، ألف سجاير، وأشرب البيرة، وبكل عظمة استند على المسند، وابدأ اتصالاتي التليفونية، وأعطي تعليمات:

- إطلع على المهندسين.. ادخل شارع شهاب بعلّق بنتين.. وطبعا السيارة المرسيدس تدير رأس كل من يراها من الجنسين، حتى ضباط الشرطة، يبدو في أعينهم وربما على ألسنتهم التساؤل:

- أولاد مين دول اللّي راكبين عربية آخر موديل، بنمرتها (نمرتين فقط) ملاكي القاهرة!!

لازال الضرب لذيذا، حقًّا إن مشكلاته أصبحت أكثر وضوحا، ولكن مازال الموقف تحت السيطرة.. يوم أضرب مع رامي، واليوم التالي مع حسام، وآخذ البودرة وأطلع على الجامعة، أضرب مع مصطفى وآخرين.. الجامعة مليئة بهم، ولكن لكل منهم طريقته الخاصة.

لم تكن هناك أي مشكلات مادية.. دائما هناك حل، بمعنى أن كل الطرق مفتوحة ولم تقفل بعد.. ولكن في أوقات كثيرة بدأت تنتابني أحاسيس مختلفة بسبب موضوع البودرة، وكثيرا ما قررت أن أتوقف تماما عن الضرب، بسبب المواقف السخيفة التي نواجهها من الضرّيبة، ومن التجار.. كنا نقضي ساعات بحثا عن البودرة ولا نجدها، ونتجول من تاجر إلى آخر، ونحن نشتعل من الغيظ والغضب.. دولاب قفل، والثاني أسعارهُ باهظة، والثالث لديه بودرة قليلة وسيئة؛ فنضطر إلى السفر لشرائها من السويس أو بلبيس أو الإسماعيلية.. هناك نجدها بوفرة أكثر، وأحسن، وأرخص أيضا.. المشكلة الوحيدة، أنه لابد من شراء كميات، على الأقل جرام، وثمنه في ذلك الزمان ستمائة جنيه بما يعادل ستة آلاف جنيه في هذه الأيام.

استمرت المحاولات الضاغطة لتشجيعي للبحث عن العمل من: ماما، وبابا، ورولا، وكريم، الذي تسلم عملا جديدا في إحدى الشركات العملاقة

فى إنجلترا، من هالة، ومريم.. باختصار من كـل النـاس المحبـة والعاقلـة، والتى يهمها أمرى.

استطاعت أختى رولا من خلال علاقاتها الواسعة، أن تحدد لى موعدًا للقاء رئيس مجلس إدارة شركة جديدة للمواد الغذائية، لم تكـن معروفـة فـى الأسواق، والدعاية عنها محدودة.. إنما لا مانع من التجربة.

تمت المقابلة مع رئيس مجلس الادارة، ومدير المبيعات، وخلال اللقاء كنت حاضر الذهن، وفى أحسن حالاتى، وأجدت التحـاور بلباقـة، وعرضـت بعض الأفكار المبتكرة عن تسويق الأغذية؛ فموضوع الشراء والبيع فـى دمـى ومن هواياتى المفضلة منذ أيام الطفولة، ومنذ فكرت فى بيع أول دراجة تلقيتهـا كهدية عيد ميلادى الخامس، ومنذ صغرى كنت أبيع السجائر فى المدرسة.

وبعد ساعة من هذا اللقاء الناجح.. تلقيت التهنئة من رئـيس مجلـس الادارة شخصيًا، وقال لى:

- مبروك.. تمت الموافقة على تعيينك بمرتب 500 جنيه، بالإضافة إلى علاوات ونسبة من المبيعات، وأنتَ تحت الاختبار لمدة ثلاثة شهور.

طار أهلى من الفرح.. الحمد لله يارب.. صلاح نجح فـى المقابلـة، وأخيرا قرر أن يشتغل، ويكف عن أفكاره العجيبة، التى تقفز إلى ذهنه من حين إلى آخر، دون مقدمات، وذات مرة قلت لأبى:

- بابا.. عايز أفتح نادى فيديو فى النادى.

الوالد رفض طبعا، وإنما بعد سنتين.. افتتح نادى الفيديو فى النـادى.. وعندئذ صارحتنى أمى بأنها كانت فكرة ممتازة.. وفكرت فى مـشروع جديـد آخر، قائلاً:

- بابا.. أنا عايز أعمل عربية سندوتشات ومشروبات مثلجة فى شارع جامعـة الدول العربية.. أو أفتح محل شـرايط كاسـيت وصـور فـرق الموسـيقى، والإكسسوارات بتاعة الأولاد الخنافس، وهى موضة خطيرة الأيام دى.

رفض الوالد الفكرة، كما رفض مناقشتها معي.

المهم.. بدأت العمل في شركة المواد الغذائية بالتدريب المطلوب على مدار يومين، كل يوم أربع ساعات.. رسمت خطة طموحة، وقمت بجولات منظمة على المطاعم، والفنادق الكبيرة.. وحقيقة لم أكن أتوقع كل هذا النجاح خلال فترة قصيرة، وعلى مدار شهرين حققت ضعف الهدف، وقررت الذهاب إلى شرم الشيخ.. فكنت آخذ الطائرة وأقوم بجولة في كل الفنادق.. وعندما تصل السيارة محملة بمنتجات الشركة، يجدونني قد عقدت الاتفاقات ووقعت العقود بكميات أخرى جديدة.. وتعود السيارة من شرم الشيخ، وقد أفرغت كل حمولتها من منتجات.. نعم، كنت "شاطر" جدا، وهذا التميز ساعدني كثيرا، وعزز موقفي في الشركة.

لم يمنعني هذا النجاح من التزويغ الكثير من حين إلى اخر.. كان من المفترض أن أذهب إلى المصنع مرتين أسبوعيا، ولكنني كنت أكتفي بالذهاب مرة واحدة في الأسبوع.. اعتبرت أن هذا حقي؛ فالتسويق وبيع المنتج يتحققان فعلا بأعلى المعدلات، رغم أنني لا أعمل أكثر من ثلاث أو أربع ساعات في اليوم.. في رأيي هذا يكفي جدا، مادام أدائي في العمل أكثر من ممتاز بشهادة الجميع، كما أنني أحقق هدفًا يزيد عن الهدف المأمول.

بعد النجاح في شرم الشيخ، ناقشت مديري الشركة في أن أقوم بتجربة جديدة، وهي محاولة إقناع الدور العسكرية بالتعاقد معنا.. رفضوا وقالوا إن مثل هذه المحاولة لن تنجح، بحجة أنه من الصعب التعامل مع مثل هذه الدور، فلن توافق على الأسعار التي ننشدها، ولن تتم نظم الدفع أيضا بسهولة.. لم أقتنع، وتوجهت إلى الدار التي قضيت فيها فترة التجنيد العسكري، وساهمت بجهد في شراء كافة احتياجات قاعاتها وأجهزتها، بالإضافة إلى علاقاتي الممتازة بإدارتها والعاملين بها.. إنهم جميعا وبلا استثناء يحبونني، فقرروا خوض التجربة

والتعاقد لأجل خاطري، واعترافًا بالأيام والأسابيع والشهور الجميلة التي قضيتها بينهم.

لقد شجعني هذا الدعم المعنوي الهائل على التوجه إلى دار "....." من أكبر الدور في مصر.. ونجحت في بيع كمية هائلة، وكان الدفع شبه فوريًا، لدرجة أنني استطعت تحصيل نصف المبلغ في اليوم نفسه، والنصف الثاني بعد شهر، بينما كانت الفنادق الكبرى تدفع بعد 45 يومًا.

لم تحدث هذه المعدلات في الشركة من قبل، وفاق هذا الإنجاز التصور.. أصاب الذهول مدير قسم التسويق ومدير قسم الدعاية.. وبعد ثلاثة شهور، ذكرت الإدارة المالية بدفع ما أستحقه من مكافآت.. ولكنني تلقيت ردًا غريبًا، فاللوائح تقول إن الشهور الثلاثة الأولى هي فترة الاختبار، ولا يحق لك الحصول على مكافآت في فترة الاختبار، لكن تقرر رفع مرتبك إلى 800 جنيه حتى نهاية العام، وإذا أثبت كفاءة، نرفع المرتب مرة أخرى، وسنبدأ احتساب المكافآت اعتبارًا من اليوم.

وبالطبع.. لم يقنعني هذا المنطق.

هل من المعقول أن أحقق ضعف الهدف، ولا أحصل على حقي بحجة أنني في فترة الاختبار؟! لم تكن "الفلوس" هي المشكلة لكن المشكلة هي عدم مصارحتي بهذه التفاصيل منذ البداية.. ولم أعد أعمل بالهمة ذاتها، واكتفيت بموعد واحد في اليوم، والمتابعة من خلال الاتصالات التليفونية، والذهاب إلى الشركة في فترات متباعدة.. باختصار لم أعد أعمل بالحماسة السابقة نفسها.

أعترف أنني.. في خلال الفترة التي عملت فيها بجدية.. لم أكن أضرب إلا نادرًا؛ لأنني ركزت في عملي، الذي أعجبني وأحببته، لأنه مختلف، وكانت علاقاتي الكثيرة والقوية تدعمني، ولا أحد ينافسني.

للأسف، لم يفهم أحدهم سرّ هذا التحول، واختفيت تمامًا دون أن أتقاضى بقية المبالغ المستحقة لي لديهم.. لا يهم.. المهم أن الموقف لم يعجبني.

تركت العمل.. وارتفع معدل الضرْب مع حسام ودعاء ونانسي، وفي أوقات كثيرة، تمنيت أن أمر على بهاء، ومنعني ما سمعته عن مشكلاته الكثيرة.. كما أنني لا أعرف كيف يستقبلني أهله في ظل هذه الظروف الصعبة.. بصراحة كنت أخشى الذهاب إليه، فالموقف بالنسبة لي غامض، وكل ما أعرفه عنه وأسمعه من الأصحاب، هو أنه في أسوأ حالاته.

في تلك الأيام.. ازدادت مشكلات الضرب، ومطاردة الضرْبية.. وكم صدمني نبأ بيع رامي لسيارته "بي إم دبليو" وتسلم ثمنها واختفى تمامًا، وصدمني أكثر أن أعرف أن والده يبحث عنه في كل مكان.. وفي يوم ما فاجأني سيادة اللواء بزيارته، وبعث لي البواب:

- خير يا عم عويس.

- سيادة اللواء "......"، والد صاحبك رامي تحت في العربية، وعايزك.

- أنا نازل على طول.

وبمجرد أن رآني والد رامي، بادرني قائلاً:

- إزيك يا صلاح.

- إزيك يا أنكل.. اتفضل معايا فوق في البيت.

- شكرا يا صلاح.. اسمعني كويس.. أنت طبعًا عارف اللي حصل لصاحبك رامي.. أدمن الهيروين، وأنا اتأكدت.. وعارف كمان أنك بعدت عنه بسبب الموضوع ده.. مش إنت بس.. إنت وأحمد وحسين.. وعرفت أن بهاء أدمن هو كمان.. دا غير أولاد كتير من سكان المنطقة.. دي مصيبة.. مصيبة كبيرة، وأنا مش عارف أعمل إيه؟! رامي سرق دهب مامته كله.. مامته اكتشفت الموضوع بالصدْفة.. إنت عارف هي مش بتخرج كتير من البيت، والعلبة في

الدولاب مش بتتفتح.. ولما فتحتها بالصدفة، اكتشفت أن الدهب كله مش موجود!! مش بس كده، عربيته باعها واختفى.. أنا مش عارف ممكن يكون راح فين؟! قلت ألجألك جايز تعرف تساعدني، رامي هيضيع يا صلاح.. وإنت وهو إخوات من أيام الحضانة.. ولو تعرف حاجة عنه قل لي.

لم أرد بكلمة واحدة.. كلماته كانت أشبه بالصاعقة، وكنت في حالة ذهول.. كان والد رامي على وشك البكاء فعلا.. هذا الرجل العملاق، جلس في سيارته مرتديا ملابس لواء جيش مهيبة، ويعز على أي إنسان أن يراه في هذا الموقف.. كيف يحطم الأبناء آباءهم إلى هذه الدرجة؟! كم كان ضعيفا.. وكم كان مسكينا.. يثير الشفقة، ويبعث في النفس ألما بلا حدود.

كدت أبكي.. وأنا أجلس بجانبه في سيارته الفولكس بيتلز الصغيرة.. إن من حبه الكبير لابنه رامي، اشترى له سيارة بي إم دبليو.. وعندما ينطلق رامي بها فخورا ومزهوا، يصطف الشباب في الشارع، ونظرات الإعجاب والانبهار تطل من كل العيون، فهم لا يعرفون لها أصلا أو نوعا أو ثمنا.. وأخيرا نطقت، قائلا:

- والله يا أنكل ما أعرفش حاجة عنه من فترة طويلة.

- ما أقدرش ألومك.. ما إنت لازم تبعد.. رامي ضاع خلاص.. لك حق يا بني.

- لا.. ما ضاعش ولا حاجة يا أنكل.. إن شاء الله هيبقى كويس.

- يارب.. ما عنديش حد ألجأ له بعد ربنا غيرك يا صلاح.. طيب يا حبيبي لو كلمك، من فضلك قل له يرجع البيت، وقل له إن أنا جيت لك، وسألت عليه، وإن مامته عيانة في البيت، ومش قادرة تستحمل اللي بيحصل ده.

- حاضر يا أنكل.. حاضر يا أنكل.

تحرك سيادة اللواء بسيارته، ووقفت ثابتا في مكاني مثل التمثال.. وقفت أكلم نفسي:

- يا نهار إسود.. إيه اللي بيحصل ده؟! الدنيا مالها بقت سودا كدا ليه؟

16

أمى

تعودت الاستيقاظ مبكرا بفضل العمل فى شركة الأغذية، واتفقت مع حسام على اللقاء لشراء بودْرة من تاجر كبير اسمه أبو سريع، وهو لا يتعامل أبدا مع الورق الصغير، وأقل شيء ربع جرام، حتى يمنع الضترَيبة من التردد عليه كثيرا.. وعملْت ثيابا بهلوان، وبصعوبة استطعت تدبير 80 جنيهًا، ودبر حسام مبلغا لا بأس به، وقبل إجراء عملية التمويل هذه لا تستطيع تخطيط برنامج اليوم.. ماذا نفعل، وإلى أين نذهب؟! وبعد ما تضرَب، لا يهم كثيرا ما يحدث فى يومنا.. تحركنا الظروف كيفما تشاء، كما تحرك الرياح مركبًا بلا شراع.

ضربْنا وكانت البودْرة قوية الى حد كبير.. وبعد تقسيم البودْرة بينى وبين حسام، عدت إلى بيتى حوالى الساعة العاشرة.. فعلاً كانت البودْرة شديدة، لم تكن مضروبة برشام أو " نوفالجين" أو أى شيء آخر.. ومع هذا لست أدرى لماذا مرّ بخاطرى أن أضرب مرة أخرى.. ولم لا؟! البودْرة كثيرة ولا مانع من جرعة أخرى صغيرة.. لن تضر.

كما لا أنسى.. أن وضع دولابى فى غرفتى يساعدنى على التحرك فى جانب منه، دون أن يرى أحد ماذا أفعل.. وأعددت الفنجان، وعملت سُوسْته "حقنة"، ولكنها لم تكن سُوسْته شخص يريد التعلية فقط.. وبعد إزالة كل الآثار المريبة، وإخفاء البودْرة في الدولاب، أحضرت حزام "البَرْنس" وقمت بربطه جيدًا حول يدى، وضربت الحقنة.

وفجأة، فتحت عينىّ على مفاجأة رهيبة.. فوجئت بأمّى تكلمنى ولم أسمع كلامها جيدا.. وحاولت أن ترفعنى من على الأرض.. وأن تضعنى بهدوء

على سريرى.. حاولت استيعاب الموقف، وأن أساعدها للصعود على السرير، وتسمَّرت عيناى على الحُقنة المليئة بالدم، وذراعى أيضًا تتدفق منه الدماء؛ لأننى بمجرد أن ضربت الحقنة، سقطت من طولى.

رويدًا رويدًا بدأت أنتبه إلى موقفى الخطير، ولكننى فى حالة لا تسمح بالسيطرة على قواى.. وبعد دقائق مددت يدى وأشعلت سيجارة وكنت مغمض العينين.. وفيما يبدو ولأول مرة استطاعت أمى أن تفهم، لماذا أشرب السيجارة وأنا مغمض العينين.. إذًا، ففى كل مرة دخلت إلى غرفتى، ووجدت فى يدى سيجارة وعيناى مقفلة، كانت البُودْرة السبب، وليست الرغبة فى النوم.. وكم دارت من مشادات بسبب حرق القمصان، والملاءات والبطاطين، والكراسى فى البيت أو السيارة.

ورأيت حبات الدموع تغطى وجه أمى، وملامح وجهها تبدو مثل لوحة سيريالية، تتداخل فيها خطوط الأسى والدهشة والذهول.. وجاءت كلماتها خافتة بصوت هامس.. وأخيرًا سمعت جملة واحدة تكررها، بلا توقف، بعد هذه الصدمة الهائلة:

– هوَ فيه إيه؟ هو إنتَ بتاخُد إيه؟

– مفيش حاجة يا ماما.

– مفيش حاجة إزاى؟ دا إنتَ كُنْت بتموت من دقيقة واحدة!! قُل لى إنتَ بتاخُد إيه؟ والحُقْنة دى بتاعة إيه؟ رُد علىّ.

– بُودْرة يا ماما.

– بُودْرة.. هيروين!! لأ.. مش مُمكن!!

كانت تجلس بالقرب منى.. تراجعت، وجلست فى آخر السرير.. مرت دقائق طويلة دون أية كلمة، وقد وضعت يديها على رأسها، وكأنها تمثال الحزن.. ولست أدرى ما الذى دار فى رأسها فى تلك الدقائق الرهيبة.. رأيت أعلى درجة من درجات الدهشة والذهول.. رأيتها فى قمة حزنها.. قمة أعلى

بكثير من قمة حزنها يوم وفاة جدتي.. أنني لم أرها في هذا الموقف منذ وعيت في هذه الحياة.. وبعد الصمت الرهيب، سألتني:

- من إمتى؟!

- كام شهر.

- أخدت كام مرة؟!

- يعني.. مش كتير.

تركتني وحدي، وخرجت من غرفتي.. كنت طبعًا في دنيا بعيدة، وفي عالم آخر.. لا أشعر بوقوع المصيبة، وحجمها.. وبدأت أشعل سيجارة من سيجارة، وجاءتني أمي، وقالت بحسم:

- أنا مش ها أقول لباباك، لو وعدتني إن دي آخر مرة تاخد فيها الأرف ده.. إنت كنت هتموت!! فاهم يعني إيه هتموت؟!

- خلاص يا ماما.. أنا عمري ما هاخد البودرة دي تاني أبدا.. والحمد لله ربنا ستر.

ولم أصدق نفسي.. جاءني الحل على صينية من ذهب، وخرجت من الموقف الكارثة ببساطة.. أنا وعدت، وهي صدقت.. ولكن في الحقيقة، ومنذ هذا اليوم المشهود، ضاع أملي، فقد بدأت أمي تجمع بدأب شديد قطع الصورة الممزقة مثل "البازل" لترى صورة مكتملة.. راجعت الميزانية في دولابها، ومن المؤكد سألت نفسها: ألف مرة حاولت أعرف سر اختفاء سلاسل وأساور ولا الذهب.. ولم أعرف.. وحاولت تحليل شكوى الوالد من حين إلى آخر عن اختفاء أمواله من محفظته.. كيف كانت تفسرها؟ هل أنفقها ونسي؟ وفي حالة ضياعها.. من وراء هذا الضياع؟ أما كريم.. فهو أغرب فرد في الأسرة.. كانت تختفي ممتلكاته، وأثق أنه يعرف جيدًا من يستولي عليها.. لكنه يسكت.. لا يتكلم ولا يصارح أحدا بحقيقة الأمر.. ولا يتحدث أبدا عن أشيائه المفقودة.

بدأت أمي التركيز والمتابعة لكل تحركاتي.. إلى أين؟ ومع من؟ ومتى أعود إلى البيت؟ وإذا تأخرت عن الساعة الثانية عشرة تكلمني عند الأصدقاء.. وأقول لنفسي:

- ياه!! دلوقت يا ماما تقولي الكلام ده؟ دلوقت؟ ما خـلاص.. اللـي حـصل.. حصل.. تأخرت كثيرًا في البحث، والرقابة، والمتابعة.

بعد هذه الواقعة، استمر الضَّرْب.. ولكن في هدوء، وبجُرْعـة أقـل، وحاولت بقدر الإمكان ألا يحدث هذا في البيت، أو أضـرب عنـد الأصـحاب ولا أعود إلا بعد أن أستعيد توازني، وأبدو في حالة أقرب إلى الطبيعية.. ولكن المشكلة كانت في الرقابة المشددة على كل تصرفاتي وتحركـاتي.. ولـم تعـد المسألة سهلة، بل كانت فعلا صعبة.. نظراتها فاحصة، وثاقبة بعـد أن اتـضح الموضوع، وعرفت أمي ألاعيبي.. وبدأنا لعبةَ القط والفأر.

قررت أمي أن تتولى زمام المسئولية نيابة عن والدي، وأعلنت قرارها ذلك لوالدي قائلة:

- مالكش دعوة بصلاح خالص.. أنا اللي ها أدِيلُه مصروفاته كلها.

وكانت تتأملني بصفة مستمرة قبل الخروج: ماذا أرتدي، وكيف أبـدو شكلا.. وموضوعا.. سواء من الناحية المظهرية أو الصحية.. وتسألني إلى أين أذهب؟ ومع من؟ ومتى أعود؟ ورغم تركيزها الشديد وإصرارها على معرفـة كم معي من أموال، وماذا تبقى منها.. مع هذا أصبحت يدي أكثر طولا.

بدأت خطتي بعمل نسخة من مفتاح دولابها.. وتبين أنه من النوع الذي لا يمكن عمل نسخة منه إلا بعد فك "الكالون"، فأعطاني الرجل مفتاحا يفتح مثل هذا النوع من الدواليب.. وهكذا امتلكت مفتاح الكنز، لأني أعرف جيـدا أنهـا تحتفظ بكل أموالها ومجوهراتها في هذا الدولاب.. وكان الجزء الثاني من الخطة - لكي أفلت من إعادة ترديد نغمة البحث عن عمل - أن أعلن قراري بالتقـدم للتسجيل للدراسات العليا، والحصول على درجة الماجستير.. أجمـل مـا فـي

الموضوع أن العائلة تثق فى ذكائى وقدراتى، وخاصة بعد النجاح بتقدير جيد فى السنة الثالثة ومثله في السنة الرابعة، ولم أذاكر أكثر من شهرين.. ومن يحقق هذا الإنجاز يستطيع أن يحقق إنجازًا أكبر.. وقد ثبت هذا عمليا بعد تجربة التجنيد، والعمل فى شركة الأغذية.

– ماما.. أنا خلاص نويت أعمل ماجستير.. ومن بكره هـا اشترى الكتب.. أنا بعت جواب علشان أفرّح كريم بالخبر والقرار ده.. ورد عليّ برسالة جميلة.. الموضوع مش سهل، بس مفيش مشكلة خالص، وزى ما نجحت فى تالتة ورابعة.. أنجح فى الرسالة.

إنه كلام يعزف على الوتر الحساس، ويعجب بابا ورولا.. أمى لم تصدق نفسها أو أذنيها.. وكانت سعيدة بمعنى الكلمة، وقالت لي:

– يا سلام أما فكرة، وشيء مدهش فعلا.. شد حيلك يا صلاح.. وبعد الماجستير هاجيب لك أى عربية تشاور عليها.

– عربية ليه بس يا ماما!! الكلام دا كان زمان.. خلاص.. موضوع العربيات مش مهم أبدا دلوقت، خلينا نشوف مستقبلنا.. ضيعنا وقت كتير.. وجه وقت الجد.. وعلى فكرة مش عاوز فلوس.. أقل مبلغ كفاية.. خلينى أركز فى موضوع الرسالة.

وعادت أمى إلى أبحاثها ومحاضراتها.. والتركيز فى امتحانات الطلبة ووضع الأسئلة.. والتصحيح.. وكأننى بهذا القرار رفعت من على كتفيها أحمالاً ثقيلة.. وعندما أخرج، أطمئنها بأننى لن أغيب أكثر من ساعتين لزيارة أحمد وحسين.. إنهما بالنسبة لها من أولاد العائلات الأصيلة، وعلاقتى بهما ممتدة منذ أيام البراءة والطفولة الجميلة.. تلك الأيام التى لم تشهد فيها المتاعب أو المشكلات الصادمة التى تعيشها الآن.. وكانت عندما تسمع هذين الاسمين تشعر بالاطمئنان.. أما جارى حسام، فقد انكشف أمره، وأصبح مثل الكتاب

المفتوح، وعرفت أنه ضريب.. تابعت أخباره، وسألت عن أخلاقياته وعن "أصله وفصله"، وضربت حصارًا لتحديد علاقتي به.

بعد هذا اليوم المشهود.. اليوم الصدمة، استقرت الأحوال وانتظمت تمامًا.. معي مفتاح الكنز.. أو مفتاح دولاب أمي، وأقضي معظم الوقت في البيت، في غرفتي، أجلس إلى مكتبي الذي صففت عليه الكتب التي أشتريتها للتحضير للدراسات العليا ورسالة الماجستير.. والغريب في الأمر، أو ربما هذا هو الطبيعي، رغم كل هذا التسيب كنت أحبَّ القراءة وأنا ضارب؛ فالمناخ العام في بيتنا يشجع على القراءة.. والدي لديه اشتراك سنوي في معظم الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية بسبب انشغاله بالقضايا السياسية إلى جانب مشاريعه الهندسية، وهذا عودني قراءة الصحف بانتظام، أو على الأقل قراءة العناوين، وصفحات الرياضة.. ورغم أنني أهلاوي صميم، إلا أنه لا مانع من متابعة أخبار بقية الأندية، والأخبار الرياضية عمومًا.. واستمر والدي بلا يأس، يبحث عن وسائل تشجعني على القراءة الجادة.

هدأت الأحوال وسكنت العواصف، وبعد جلسة ودودة مع والدي، سألني عن الرسالة، وحدثني عن مشروع هندسي عملاق سينفذه مع شركة إماراتية، وبعد أن استمعت منه إلى قصيدة إعجاب بعبقريتي، تشجعت وقلت:

– عايز 500 جنيه علشان أسافر إسكندرية مع أصحابي؟

– ليه؟ هو إنتَ رايح أوروبا؟

– طيب خلِّيهم 400 جنيه.

– ولا 400.. وبعدين أنا مش موافق إنك تسافر من أساسه.

– ليه بس يا بابا؟! هو إنتَ على طول كده مُعترض!!

لم أكن أريد أكثر من 300 جنيه، ولأني أعرف مسبقًا أسلوبه في المساومة على كل مبلغ أطلبه.. بدأت برقم أكبر لأحقق هدفي، وأحصل على ما أريد..

بعد دقائق صمت، قال:

- أنا ها أوافق بس على شرط.. وهديلك كمان الـ 500 جنيه اللى إنتَ طالبها.

- الأمْر أمْرك يا حاج دادى.. أشْرُط.

- عندى مجموعة مقالات قصيرة عن أخطر المعارك فى تاريخنا العربى، عاوزك تلخصها.. هناخد منك يومين.. تلاتة، ومقالات عن أهم المناطق السياحية فى العالم، عاوزك تترجمها.. وبرضة هتاخد منك يومين.. تلاتة، مش أكتر.

- ليه المقالات دى؟ إيه أهميتها دى بالنسْبة لك؟

- دا موضوع يخصنى.. قلت إيه؟

- أنا عايز أسافر بكره.

- طيب.. أنا هاعمل معاك اتفاق رجالة.. خُد الفلوس وسافر وانبسط، ولما ترجع سلّمنى المقالات خلال أسبوع.

- اتفقنا.. فين المقالات؟ وإيدك على الفلوس.

- أدى المقالات.. والفلوس تاخدها منى بكره.

- لا.. لا.. دى مقالات كتيرة.. حضرتك ضحكت علىّ.. كُل نوع بـ 500 جنيه.. حسابنا على الأقل ألف جنيه.

- خلاص.. اقعُد وبلاش تسافر.. وبعد أسبوع سلّمنى المقالات وخُد الألف جنيه.

- أنا ها أوافق، وهاخد نص المبلغ مقدّم.. بسْ اعمل حسابك النُص التانى، أسلّم وأستلم.

إنها كانت وسيلة لأهدأ واستقر ولأتدرب على القراءة.. إنها ليست من هواياتى، واكتسبتها من الجو الذى أعيشه، وهكذا سوف تصبح مشروعا مربحا "بزنس".. وكنت، بينى وبين نفسى، أثق أن هذه المقالات لا تهم أبى فى كثير أو قليل.. ولكن أعتقد أنها معلومات مفيدة فى رأيه، وكان يهمه أن أعرفها.

عاشت أمي فترة من السلام النفسي بعد هذه التغيرات الجديدة؛ ذلك أنني أقضي معظم وقتي في البيت.. وهذا تغير كبير، ولكنها لا تعرف أنني وحدي في البيت.. ومفتاح دولابها معي.. دولاب هذا أم مغارة علي بابا؟ افتح يا صاصُو.. ياسلام.. شُبَيك لُبَيك.. الدولاب بين يديك.. وبهدوء أتفرج على محتويات الدولاب الغني بالمنمنمات الكثيرة القيِّمة في شكل أساور، خواتم، سلاسل، مصاحف، ساعات، وكلها أشياء ثمينة جدًا.. كان أجمل ما فيه الأوراق النقدية.. جنيهات مصرية، دولارات، إسترليني، مارك ألماني.. فرنك فرنسي.. كنز فعلا.. ولست أدري لماذا تضع كل هذه الأموال في الدولاب؟ لماذا لا تضعها في البنك؟

وتحسبًا لأي ظروف.. كان من رأي الوالد تخصيص مبلغ ما للطوارئ، وكانت أمي حريصة على وجود المبلغ المقرر كاحتياطي بعد أن واجهت أزمة صحية كبيرة، واضطرت إلى السفر المفاجيء إلى لندن لإجراء عملية جراحية خطيرة.. وبصراحة كان المبلغ المُحتجز كبيرًا، لكنني لم أبدأ بالسحب من النقد المصري؛ سحبت من الدولارات لأن الورقة فئة مائة دولار، تحل مشكلات وتكفي أكثر من يوم.

سحبت حوالي 50% من ظرف الدولارات خلال ثلاثة أشهر.. كنت أضع ورقة فئة مائة دولار في مكان سري تحت الدواسة أمام باب الشقة، يأخذها حسام، ويرجع بعد ساعتين أو ثلاث، ويضع البُودرة في المكان نفسه.. وعندما شعرت أن كمية السحب قد زادت، وأصبح من السهل كشفها، بدأت التحول إلى الأوراق النقدية المصرية.

لم تنتبه أمي إلى عملية السطو على دولابها.. ولو فرض واكتشفت المأساة.. فإنها قد تشك في ذاكرتها؛ إذ لن تتخيل، ولن تصدق أنني الفاعل.. كما أنها تريد من أعماق قلبها أن تصدق أن واقعة البُودرة في اليوم المشهود، كانت في الأصل غلطة، وحادثًا عابرًا، ولن يتكرر.

كنت على ثقة من أن أمي تحاول إقناع نفسها بالتغير الإيجابي في حيـاتي، والحقيقة في رأيي أنها تتعذب، فهي تكاد تلمس الحقيقة، ولكنها تكذب نفسها.. كل شيء على ما يرام.. وتكذب عينيها، وتتجاهل المنظر المؤلم للشبح الذي تـراه أمامها يتحرك، بخطوات مهزوزة، وغير ثابتة، وقد تناقص وزني كثيرًا، وتحت عينيّ هالات سوداء، وتغيرت شخصيتي بشكل ملحوظ، لا يخطؤه أحد.

في تلك الفترة، أصبح حسام مكشوفًا أمام الدنيا كلها.. والده، والدته، أخواته والجيران، وظهر من حوله عشرات الشباب الذين يضربون البـودرة بـصورة رهيبة، ومجموعة جديدة بدأت الدخول في هذا النفق المظلم، ومنهم من بدأ بيـع البودرة، وفتح دولابا للبيع.. أصبحت المنطقة موبوءة، مثل غيرها من منـاطق كثيرة.. والمصيبة الأكبر أنهم تجمعوا في مكان واحد، وكل منهم يمثل مـصيبة وكارثة مستقلة.. إذا كيف يكون الموقف عندما تتجمع كل هذه القنابل الموقوتـة معًا؟!

بعد شهر عاد رامي إلى منزله بعد أن أنفق ثمن السيارة.. كنت أزوره من حين إلى آخر في بيته، وكانت أسرته تستقبلني بحفاوة كبيرة، وبعد قـضاء بعض الوقت معهم، أخرج مع رامي ونشتري المطلوب ونعود معا إلى بيتـه.. كم تغيّر رامي في تلك الأيام!! اشترى له والده سيارة 128، ووعـده بـصدق أن يشتري له "بي إم دبليو" أخرى إذا توقف عن الضرب.. بدأ رامي يـستخدم أسلوب النصب الواضح، ويبيع التذكرة بمبلغ 60 جنيها، رغم أنه اشتراها بمبلغ 40 جنيها فقط.. ويدخل عند التاجر، ويخرج من مكان آخر، ويدعي أنه قد تـم القبض عليه، ويختلق قصصا، ويلفقُ أحداثًا عجيبة.

لم أصدق أن رامي يفعل مثل هذه التصرفات.. ولم يحدث أبدًا أن جربهـا معي، إلى أن جاء اليوم الذي لعب فيه اللعبة نفسها معي.. فقد ذهبنا معًا لـشراء بودرة من دولاب في بولاق، وكنت أعرف جيدًا أن ثمن الورقـة 30 جنيهـا،

وباعها لي بضعف الثمن.. أنا شخصيًا قمت بالحركة نفسها أكثـر مـن مـرة، لكن مع رامي.. لم تحدث أبدًا، سكت وقلت لنفسي:

- يا حرام.. رامي أدمن خلاص.

يا ألف خسارة.. لم يعد ريكو يحتضن جيتاره.. لم يعد يعزف، أو يبتكـر، ويبدع ألحانا جديدة.. اختلف الحال تماما.. يمسك الجيتار ليعزف، فيتركه بعـد دقائق معدودة، بعد أن كان يقضي معه ساعات وساعات.. أصبح قطعـة أثـاث مهملة، الى أن باع الجيتار.. إنه قطعة منه!! رامي يبيع الجيتار؟! إذًا لا شـيء عزيز أو غالٍ.. لا شيء يساوي ورقة بودرة.. يا خسارة يا رامي.. شكله تغير، ولم يعد أنيقًا كما كان.. فقد الكثير من وزنه، وبرزت عظام وجهه، ولا يستطيع التركيز.. وفي يوم مررت عليه في البيت، وقابلت والدته، فسألتها:

- رامي موجود يا طنط؟

- لا.. يا صلاح.. مش موجود.

- طيِّب يا طنط.. ها افوت عليه تاني.. وسلِّمي عليه.

- حاضر.. ها أقول له، وخلِّينا نشوفك أكتر من كده شويّة.

- حاضر يا طنط، وسلِّمي على أنْكل.

وبعد خطوات من بيته، وجدت رامي في سيارته، ومعه ثلاثة شباب.. شكلهم مريب.. كل منهم ليس مدمنا فقط، بل مجرما أو "قتّال قتلة"، وجذبته مـن ذراعه قائلا:

- رامي.. أنا عدِّيت عليك من دقيقة واحدة.. تعال.. عاوزك.

- إنت فين يا سيدي؟ مختفي وشكلك كده واقع على دولاب سقع؟!

وأخذت رامي إلى سيارتي، وسألته:

- مين الناس دول؟ شكلهم غريب، ومش عاطفي خالص.

- اللِّي جنبي حمزة.. واللِّي قاعد ورا سامح، وواحد صاحبه.

- سامح؟! يا نهار إسود.. دا أنا معرفتوش.

- سامح خلاص بيسلّم.. بيودّع.. بيضرب حوالى جرام فى اليوم.

- يا نهار إسود!! جرام؟!

- وحمزة ساكن فى عمارتى.. ابن ناس، بس البودرة بهدلته.. المهم عايز إيه؟

- إنت بتبيع واللاّ إيه؟

- لا يا أخى.. بابيع إيه بس؟ إحنا نروح نشترى سوا.. معاك كاش أو إيه؟

- هىَ الورَقة بكام؟

- فيه ورَقة بـ 40.. وفيه ورقة بـ 100.

- خلّينا فى ام 40.. تكفى كام واحد.

- تمسك إتنين!!

- يعْنى تموت واحد.. قشْطة.. أدى 80 جنيه.. وياللا بينا.

- ناخُد سامح معانا.. ونيجى معاك فى عربيتك.. يا أقول لك إيه.. هو فاهم إن التذكرة بـ 60 جنيه.. أنا مشّ ها أضْحك عليك.

وكنت أعرف جيدًا أن ثمن التذكرة 30 جنيها.. "ما علينا".. توجهنا نحن الثلاثة إلى عين شمس.. المكان عجيب، والشوارع ضيقة، نُدخل يمين.. نُدخل شمال، ووصلنا عند عمارة خمسة أدوار.. الساعة الثامنة.. ومرت الدقائق ثقيلة، والساعة الثامنة والنصف غمرنى الإحساس بالقلق:

- إيه الحكاية يا عم سامح؟ هو فيه إيه؟

- رامى خلّع يا باشا؟ تخيل؟!

- لا.. رامى مش ممكن يعملها معايا.. انسى يا ابنى.. رامى معايا فى الفصل من حضانة.. يمكن مستنّى الشغل يتقطّع.

- بس كده كتير.. دا إحنا لنا أكتر من نص ساعة.. والمفروض يطْلع وينزل فى دقيقة!!

- غريبة جدا!! هو الرّاجل فى الدُور الكام يا سامح؟! تعْرَف؟!

- آخر دور.. بتفكر تطلع واللا إيه؟!

– ليه لأ؟! أنا ها اطلّع أشوف إيه الحكاية.

– ماشي.. بَسْ ماتِتأخَّرْش إنت كمان.

– هو الراجل اسمهُ إيه؟

– اسمهُ سعْده.

والمعروف، عندما نذهب لشراء المخدرات.. أن نقف بعيدًا بالسيارة، وليس بالقرب من التاجر، تفاديًا للرقابة الحكومية.. مشيت في اتجاه العمارة.. الشارع هادىء، والظّلام دامس، ودخلت من باب ضيِّق، في عمارة صغيرة، سلّمها بلا إضاءة، وتحسَّست طريقي وصعدت السلالم على مهل، وعند الدور الثاني قابلتني طِفْلة صغيرة وقالت لي:

– أوعى تطلع.. الحكومة فوق.. وبيستنّوا الزباين ويقبضوا عليهم، دا فيه عشرة مِتْسوكين.. وأبويا نزّلني وقال لي رُوحي لعمّتك، وفهمني أقف جنب البيت علشان أقول للزباين ما يطلَعش.

ترددت لحظة.. أطلع.. أو أنزل، وحسمت الطفلة الموقف بقولها:

– ياللا أنزل بسُرعة.. هاترُوح في داهْية.

رجعت إلى العربية، وحكيت كل اللّي حصل لسامح الذي صرخ قائلاً:

– يَا نْهار إسْود!! رامي إتْمسك؟ ياللا بينا يا عم من هنا.

رجعت ومعي سامح.. دخل سامح النادي، وقررت أنا العودة إلى البيت الساعة الحادية عشرة، وليس معي نقود، ضاعت مع رامي، ولا أدري ماذا أفعل.. وفي تلك الليلة، ولأول مرة عرفت فيها أعراض انسحاب البودْرة من الجسم.. لكنها الأعراض المحتملة أو الخفيفة.

دخلت إلى سريري الساعة الواحدة، واستحال نومي.. ظللت أتقلَّب و"أفرك" في السرير.. لم أنم ثانية واحدة.. غمرني العرق.. وجريت إلى الحمام والآلام.. ومغص.. أمعائي تتمزق.. آه والإسهال.. آه.. يالها من ليلة صعبة مؤلمة.. وأخيرًا نمت الساعة الخامسة صباحًا، وصحوت وقفزت من السرير الساعة

الثامنة، وقبل أن يخرج والدى إلى مكتبه، ابتكرت قصة عن سيارتى التى تحتاج إلى إصلاح، وأخذت منه خمسين جنيها، وانطلقت بالسيارة وذهبت إلى أم سيد فى الجيّارة.. ولم أتخيل أن أجدها فى هذا الوقت المبكر.. الساعة التاسعة لكن الباب الأسود مُغلق.. إذا عندها شغل.. أوقفت السيارة فى مكان بعيد، وبعد ثوان رجعت إلى السيارة، ومررت على الصيدلية قبل الذهاب إلى البيت.. وكنت مطمئناً لوجود الليمون فى الثلاجة.. إذ لابد من إضافة نقطة ليمون على البودرة.. وذات مرة سألتنى أمى:

– إيه حكايتك يا صلاح.. دايماً تسأل: عندنا لمون؟ وساعات بتشترى لمون وبكميات كبيرة كمان.. ليه؟ فهّمنى؟!!

– يا ماما أنا أهم حاجة عندى اللمون.. أنا ما يهمّنيش الأكل، ما يهمّنيش الشرب.. أنا يهمّني اللمون، وكمان أنا مش عايزه ليموناده.. عايز اللمون أمصه.. هو دا النظام، ومَا تشغليش بالك.

طبعا.. لم تفهم أمى كلامى، ولم يخطر ببالها طبعا، ماذا أفعل بالليمون، وما فائدته.. وبعد دقائق معدودة.. تغير الحال، والشخصية المتعبة، والمصابة بالإسهال، والرذاذ الذى لا يتوقف من الأنف.. كل هذا تغير فى لحظة واستعدت نشاطى، وتذكرت رامى وما حدث له ليلة الأمس، وحوالى الساعة الحادية عشرة اتّصلت تليفونيا، وردت والدته:

– صباح الخير يا طنط.. إزاى حضرتك؟

– الحمد لله.. إزّيك يا صلاح؟

كان صوتها خافتا، وكأنها لا تقوى على الكلام.. فسألتها:

– يا ترى.. حضرتكْ قلتِ لرامى إنى عدّيت عليه إمبارح؟

ردت باكية:

– لا يا حبيبى.. أصل أنا ما شفْتوش.

– مال صُوتك يا طنط؟

- لا.. مفيش حاجة.

- طيب، هو جاى إمتى؟

- مش عارفة يا صلاح.. مش عارفة يا صلاح.

- فيه إيه بس يا طنط؟

- مفيش حاجة.. ها أقول له يا حبيبى إنك اتكلمت.. باى.. باى.. مع السلامة.

وبذلك، تأكدت أن رامى قد قبض عليه.. غمرنى الإحساس بالأسى، لكن لا شئ أستطيع عمله..

يا حرام.. رامى أدمن، وهذه هى نهاية الإدمان.. وحتى هذه اللحظة، كنت أتصور أننى اختلف عن كل هؤلاء المدمنين.. أنا ليست عندى مشكلة نهائيًا؛ لأننى لو أردت التوقف عن الضرب.. فسوف أتوقف فورًا.. لكننى لا أريد.

وفى يوم ما.. قررت ماما إعادة تنظيم الدولاب، وإخراج كل الملابس الصيفية، وتعليق ملابس الشتاء بدلاً منها، وكانت المفاجأة المذهلة.. ومن بعيد جاءتنى صيحة أو بمعنى أدق صرخات أمى:

- الفلوس فين؟ الدهب فين؟ الدولاب حصل فيه إيه؟

وكأننى لم أكن أعرف بأن هذا اليوم آت.. آت.. ولم تمر ثانية واحدة.. إلا ووجدت أمى فى غرفتى.. فتحت دولابى بسرعة خاطفة، إنها "كبسة" غير متوقعة نهائيًا.. ووجدت: سرنجات.. بودرة.. ليمون.. فنجان.. أوراق مالية مختلفة.. من بينها دولارات.

انفجرت أمى باكية.

لم تتكلم.. لم تسألنى.. لم تناقشنى.. ولم أعرف بدقة سر هذا البكاء.

طبعًا.. تصورتُ أنها تبكى على أموالها التى سطوت عليها.. تبكى على الدولارات التى صرفتها فى شراء البودرة وضربت بها.. المبلغ كان كبيرًا، فتصورت أنها تبكى ضياع أموالها وذهبها.. لم أفهم سر هذا البكاء إلا بعد

أن أخذتني في أحضانها واستمرت في بكائها.. لقد سرقت دولابها، وهي تأخذني بين ذراعيها.. وتبكي بِحُرقة!! فقلت لها:

- ما تِعَيّطيش كِده يا ماما.

اعتذرت أمي عن الذهاب إلى الجامعة.. وهذا نادرا ما يحدث.. وظلت حبيسة غرفتها، تأتي إليّ كل ربع ساعة، تتأملني، ثم ترجع إلى غرفتها، وترجع إليّ وتسألني سؤالا أو سؤالين، وتعود إلى غرفتها، وتمر دقائق، تأتيني وتكلمني بكل هدوء:

- بِتاخُد إنت ومين؟

- أصحاب ما تعْرفيهُمش.

- اسمهم إيه؟

- ولا واحد فيهم تعْرَفيه.

- ساكْنين فين؟

لا أرد.. فتستمر في أسئلتها المغْموسة بالدُّموع:

- طبْعا حسام منهم.. ومين كمان؟

- بِجَد يا ماما، ولا واحد فيهم تعْرَفيه.

تعود إلى غرفتها بإحساس الإنسانة المهزومة في أهم معركة في حياتها، وبعد ربع ساعة تعود إليّ وتسألني:

- بِتاخُد كل يوم؟

- لأ.. مش كل يوم.

شعر والدي أن هناك شيئا ما مريبا.. ولكنه لا يعرف ما هو.. فسأل أمي:

- مالْكُم؟ هو فيه إيه؟

- مفيش حاجة.. باراجع مع صلاح كُتب وأوْراق الرسالة.

كان من الواضح أن أمي لا ترغب في تصدير المأساة إلى الآخرين.. ولكن في الوقت نفسه الكارثة كبيرة الحجم، والموضوع ثقيل، ولا تستطيع أن تتحمله وحدها.. كانت توأمي رولا أول من عرف بحدوث الكارثة.

جاءت رولا الساعة الثالثة، فوجدت أمي في البيت، وأدهشها ذلك لأنها تعرف جدول محاضراتها، وتصورت أنها تمر بوعكة صحية.. جاءتني رولا تسلِّم وتقبِّلني كالمعتاد، وحدثتني نظراتها بأنها تشعر بأن هناك شيئاً ما خطأ.. وبدأت استرد الوعي كاملاً بما يحدث حولي، عندما دخلت أمي غرفتي، وقفلت الباب، وبلا مقدمات قالت:

– إسمَعيني يا رُولاَ كويس.. فيه كارثة.

– إيه يا ماما؟ فيه إيه؟ قلقتيني.

– آه يا رولا.. لازم تِقلقي.. أخوك بياخد هيرُوين.

– هيروين؟!! يعني إيه؟!! يا دي المُصيبة؟! إزاي؟

– من حوالي ستة شهور، دخلت على أخوك الأوضة لقيته مغمى عليه وواقع على الأرض، وجنبة حُقنة كلها دم.

وظلت رولا طوال الوقت في حالة ذهول، يداها على وجهها، وفمها مفتوح، وتصرخ قائلة:

– يا نهار إسود.. يا نهار إسود.

– أنا للأسف الشديد تخيلت إنها غلطة وعدَت، وتفاهمت معاه، وصدقته لما قال لي دي آخر مرة.. بس النهارده الصبح اكتشفت أن أخوك أخد ألوف الدولارات من دولابي، ودهب كتير، وبياخد هيرَوين كل يوم.

– إيه ده اللّي ماما بتقوله يا صلاح؟

– بُصي على دراعه وإنتِ تفهمي كل حاجة.. ورّيها دراعك.

ودون أي مقاومة رفعت يدي لترى رولا ذراعي.

– يا دي المُصيبة!! حُقن!!

بعد أن حكت أمي لها تفاصيل الكارثة منذ البداية.. منذ اليوم الذى وجدتني فيه راقدا على الأرض بلا حراك، والحقنة بجانبي مليئة بالدماء، أعلنت لنا قرارها بكل حسم ووضوح:

- أنا قررت اخد إجازة بدون مرتب، أو حتى أقدم استقالتى من بُكْره الصبح؛ بحجة إن حالتى الصحية لا تسمح، واقعد جنبه أشوف إيه اللّى بيحصل.. وإزاى نعالج الكارثة دى.

- فهّمنى يا صلاح.. فيه إيه؟ اتكلّم بسرعة.

- ماعنديش حاجة أقولها يا رُولا.

ردت أمي منفعلة:

- لأ.. إنت لازم تتكلّم.. أمال عايز تتكلم إمتى؟ بعد ما تموت.. أخوك يا رولا كان فعلا هيموت.

- والله العظيم كنت حاسّة إن فيه حاجة غلط، بس عمرى ما تصورْت، ولا خطر فى بالى أن صلاح ممكن يكون بياخُد هيْروين.

- طبعا دلوقت بسْ فهمت أخوك خاسس كده ليه، وتحت عينيه أسود، وعينيه المكسورة دى.. والسجاير اللى بتقع من إيده، والسّجاير اللّى باشيلها من إيدُه وهو نايم، والملايات المحْروقة، والتيشيرتات المخرّمة والتليفونات المُريبة.. وأنا قاعدة جنبه مش فاهمة بيكلم مين.. ويقول إيه.. أد كده أنا مغفلة؟! من هنا ورايح.. مفيش خُروج من البيت.. مفيش تليفونات.. رجلى على رجلك وإنت يا رُولا معايا.. هتساعدينى.. مش هنسيب أخوك تانية لوحْده.

شلال الدموع ينْهمر من عينيْ رولا.. وبصوت خافت تقول:

- حاضر.. حاضر يا ماما.

- ومش هنقول لباباك أى حاجة.. دا لو عرف مُمكن يموت فيها.

- حاضر يا ماما.

- دلوقت أسيبك مع أخوك.. تقْعُدى معاه وتفْهمى منهُ كل حاجة.

- حاضر يا ماما.. إطمّنى.. صلاح هيحكيلى كل حاجة.

تركتنا أمى وحدنا.. رولا تنظر إلىّ بذهول.. لم أنطق بكلمة واحدة.. هى أيضا لم تتكلم، صمت رهيب، ولا أقوى على النظر إلى وجهها البرىء، إلى أن استجْمعتْ كل قواها، ومسحت دموعها المنهمرة كالشلال، وبدأت تتكلم:

- إزاى يا صلاح؟ إزاى؟

- مَاعْرَفْش يا رُولا.. مَاعْرَفْش.. والله مُش عارف.

- أول حاجة أنا ها أجيب مَصْحَف، وتحلف عليه أن عُمْرك ماهَا تاخد أى مخدرات تانى.

- حاضِرْ..

- المُصْحَف أهه.. إحلف.. امْسِكْه واحلف إن عمرك ما تاخد مُخَدِّرات تانى.

أمسكت المصحف بين يدى.. وأقسمت:

- والمُصْحَف الشّريف، أنا عُمرى مَاهَا آخُد مخدرات تانى.

بعد هذا القسم، هدأت أختى، وشعرت كأن المشكلة قد حُلّت تماما، وتركتنى وحدى وذهبت إلى أمى.. وأعتقد، بل كنت على يقين أن أمى لم تصدق هذه المرة.. ولكنها من أعماقها كانت تريد أن تصدق، وكل تصرفاتها منذ يوم الصدمة، تبدو كأنها صدقت فعلا أننى سأتوقف عن تعاطى المخدرات.

وملأت الشكوك رأسها، وقلبها، وأصبحت هى وحدها التى تستقبل الاتصالات التليفونية.. وتسأل فى كل مرة: هل فلان يتعاطى المخدرات؟ ومَن هذا، وابن من، وأين يسكن، ومع من يعيش، وماذا يفعل فى حياته؟!! أسئلة.. أسئلة دون توقف.

وأعدّت أمى بالاتفاق مع رولا جدولا زمنيًا بحيث لا تتْركانى وحدى فى البيت أبدا.. وكم تعذبت فى أيام الرقابة المشددة.. إنها أول مرة أتوقف فيها عن الضرب لعدة أيام، وبدا الأمر وكأننى مريض، وسألنى الوالد:

- مَالَكْ؟ عامِل كِده لِيه؟

- عندى برد فى معدتى.

آلالام فى جسمى من الصعب وصفُها.. مغص، إسهال.. علبة المناديل لا تكفى إلا ساعات قليلة، ولا أستطيع النوم، والجديد أيضًا.. أنه لم تعد عندى شهية للأكل نهائيًا.. فقدت الإحساس بالتذوق.. حتى السجائر لم يعد لها طعم، تغير طعمها، وبعد أن كانت خفيفة أجدها ثقيلة، وتوقفت تقريبًا عن التدخين، بعد أن كانت السيجارة معلقة دائمًا بين شفتى.. ولم أتصور أبدًا أخذ أى نوع آخر من المخدِّرات أو الخمور.. لقد تعلَّق ذهنى بمخدر واحد.. البُودْرة ولا شىء غيرها.

استمرت حالة الطوارىء لمدة أسبوع أو عشرة أيام، وهدأت الأحوال بعد أن رفعت أمى الرقابة عنى، وعادت إلى الطلبة والمحاضرات وتصحيح الأوراق.. وبدأت رولا تنتظم فى عملها إلى حد ما.. لكن درجة التركيز عالية، ولم تتوقف المتابعة والأسئلة، والتقطت أنفاسى، وتحسنت حالتى الصحية، وهدأت نفسيًا، وأصبحت شبه طبيعى، وخرجت أكثر من مرة لزيارة ميدو وزونى، وهناك أشرب سيجارتين حشيش، ونلعب كوتشينة، وأرجع البيت قبل الساعة 12:00 مساءً، وكل شىء تمام.

لكن المشكلة فى دماغى.. كأن هناك قردًا أو نسناسًا ينط فى رأسى كل خمس دقائق، يقول لى: اضرب بودرة.. ثم الخطر زال والرقابة رُفعت عنك، ارجع مرة ثانية "للصياعة" لكن نظِّمها.. وأقول لنفسى: لأ.. مستحيل.. ولا داعى أبدًا للمشاكل.. كفاية البيرة، الويسكى والحشيش.. وتذكَّر المُصْحَف والقسم.

وفى يوم قررت أن أزور صديقى رامى، وأسمع منه تفاصيل أحداث الليلة السوداء التى كُنَّا فيها معًا.. الحجة أننى أريد الاطمئنان عليه، ولا أريد الضَّرْب.. وعندما رآنى كان جالسًا مع والدته.. وكأنه رأى ليلة القدر..

استقبلنى بالأحضان قائلاً:

- إنتَ فين يا صاحبُو؟

- كان عندي شغل، إزي حضرتك يا طنْط؟

- الحمد لله.. أنا كويسة.. إزيك إنت يا حبيبي؟ اشتغلت فين يا صلاح؟!

أنكرت تركي للعمل قائلا:

- اشتغلت في شركة مواد غذائية، نائب مدير تسويق، بس أنا في أجازة لمدة أسبوع؛ لأني تعبت جدًا في الشغل الشَّهرين اللّي فاتوا.

- ربّنا يوفقك.. عقبال رامي.. باباه جايبْله شغل، بس هو بيدلّع شوية.. ياللا شجّعه يا صلاح.

- ربنا يسهِّل يا طنط.. إن شاء الله كل حاجة هتبقى كويسة.

في رأي والدة رامي، إن صلاح إنسان ممتاز، صديق ابنها من أيام المدرسة والطفولة البريئة، تخرج، ويعمل نائب مدير، بمعنى إنه أحسن صديق لابنها..

فقال رامي:

- كفاية رغي وكلام.. تعال يا صلاح نُقعد سوا، من زمان ماشفتكش.

- عن إذنِك يا طنْط.

- أتفضل يا حبيبي.. هَا اعمِلك كاكاو.

- شكْرًا يا طنط.

- إيه الأخبار يا صلاح؟

- الأخبار عندك إنت.. إيه اللي حصل في الليلة السُّودا.. يوم مارُحنا عين شمس سوا؟

- أسكت.. كانت ليلة سوداء فعلا.. طلعت يا معلم.. لقيت ظابط ومعاه أمناء شُرطة قاعدين جوه، وكل واحد يدخل المكان يتكلبش في ثانية.

- وبعدين؟

- أخدونا على القسم، وعملوا لنا محضر تعاطى، وكلّمت بابا، وجالى، وخرجت من الحجز تانى يوم.. ومن يومها وأنا قاعد فى البيت، أخرج مع أخويا بس.. وباحاول ألمّ الدور شوية، وإنت النجدة بالنسبة لى.. قل لى أخبارك إنت إيه؟

- أنا إتكشفت.. أمى عرفت.

- ما هى عارفة من زمان.

- لا، اكتشفت أنى رجعت آخد من تانى.. هى كانت فاكرة إنى بطلت زى ما وعدتها، وعرفت أنى سرقت الدهب والفلوس من دولابها.

- أخدت أد إيه؟

- كتير جدًا.. ماكنتش باعد.. بس ألوف.

- علشان كده كان معاك فلوس كتيرة اليومين اللى فاتوا.

- وبعدين يا ريكو.. هنعمل إيه فى المصيبة اللى إحنا فيها دى؟

- يا عم، ولا مصيبة ولا حاجة.. إسمع.. عايزين ننزل نضرب يا صاصو.

- مفيش معايا فلوس.. عشرة جنيه بس.. إنت معاك كام؟

- أنا ها أتصرّف.. هاخد من البواب.

- البواب؟!

- عادى.. يا ما أخدت منه، ولما بتيجى أى مصلحة، ونفرج، أرجع له فلوسه وزيادة.. مالكش إنت دعوة.. أنا ألبس، وإنت اطلع لأمّى نيمها.

- ماشى.

- يا طنط.. بنفكر نروح النادى؟

- بلاش يا صلاح.. خليكم قاعدين فى البيت.

- أصل رامى زهق من قعدة البيت، وعايز يغير جو.

- بس يا صلاح أنا خايفة، وبعدين باباه ممكن يتخانق معايا لو عرف إنه خرج.. طيب استنوه لما يرجع واستأذنوه.

– بستأذن إيه يا ماما!! قولي له نزل مع صلاح على النادي، وإديك على عشرين جنيه علشان آكل حاجة هناك.

– طيب يا رامي، بس صلاح يرْجَع مَعاك هنا.

– ماتْخافيش يا ماما.. اطْمَني، صلاح مش هايْسيبْني.. يالّلا.. باي باي.

أخذ رامي 50 جنيهًا من البواب، وأخذ مني الجنيهات العشرة، بالإضافة إلى 20 جنيها أخذها من والدته، وانطلقنا إلى بُولاق واشترينا ورقتين، ثمن الورقة 50 جنيهًا، وأقنع التاجر بدفع بقية المبلغ في اليوم التالي.. وكنا قد تعودنا مثل هذه الصفقات مع التجار، ولكن المشكلة أنه ليس معنا مليم واحد، ومطلوب شراء السوست.. ما الحل؟ من يدفع؟ من؟ ميدو.. إذًا إلى هناك.. وعندما وصلنا إلى ميدو، قلت له:

– تصور معانا بُودْرة، ومفيش مَعانا ولا ملِّيم نشتري سُوست.

– جيتوا في وقتكم.. تصدّقوا أنا ما ضربتش من زمان، ونفسي أضْرَب جدًا.. ظبطني يا رامي.

– بس البُودْرة اللّي معانا مش كفاية.

– يا أخي.. إيه البخل ده!! نِشْتري تاني.

– خلاص، رجّعوني البيت وروحوا اشْتروا.. مش عايز أبويا يرجع، وأنا بره.

– خلاص يا ريكو.. اضْرَب أنت ورَقْتك.. وأنا وميدو نقسم ورقتي، وبعدين أنا وهو نشتري تاني.

– ماشي.. اطْلَع يا صلاح على الصيدلية.. معاك لُمونة في عربيتك؟

– عيب.. افْتَح الدرج.. أكيد هتْلاقي لمونة.

17

مواجهة مع الموت

ضربنا.. وعند بيت رامي وقفنا دقائق للسلام والقُبلات والأحضان.. ومن أعجب الأشياء بعد ضرب البودرة، تبدأ الموجات المتتابعة من السلامات والأحضان، كما لو كنّا في نهائي الكأس، وفزنا بجدارة.. حقًا إنه لشيء غريب!! وفي تلك اللحظات التقينا بصديق رامي، وكنت أعرفه اسمه: إبراهيم، وضرب معنا أكثر من مرة، وطلب من رامي أن نأخذه معنا ليشتري ورقته.. وسألته:

– هتجيب أد إيه يا هيما؟

– ورقة.

– إيه رأيك في البودرة يا ميدو؟

– حلوة يا معلم.

– إنت بتقّر يا ميدو.. يا ابن الإيه.. الأوز[1] بتاعك واطي.. وأنا يا دوب الورقة تكفيني.

– أصل أنا ماضربتش من زمان، فعملت معايا أحلى شغل.. هي الورقة بكام؟

– 50 جنيه، وإحنا عاوزين نشتري ورقتين.

– ماشي.. وأدي 100 جنيه.

فقال إبراهيم:

– يا صلاح، أنا معايا 40 جنيه، كمّل لي 10 جنيه أو نحاول نـدي لحسونة 140 جنيه بس، هنشتري تلات ورقات.. ده بيبوس إيده وش وضهر.

– أنا هاتصرف.

---

[1] جرعة.

اشترينا ثلاث ورقات، ودفعت 130 جنيها فقط.. وهكذا عسادت لسي 10 جنيه، التي كانت معي مُنذ البداية، وخِلال تجهيز السوست، قلت:

- بأقولك إيه يا ميدو، مابتضربش الورقة كلها، اضرب شوية والباقي نِبكَره.

- لا.. إنتَ عارفني.. أنا مش بحب أشيل بُودره.

وكان تعليق ابراهيم:

- يا عم، دِي ورقة مش قِصة.. أنا أصلاً ضربتها خلاص.

ضربت لنفسي، وبعدها ضربت لأحمد؛ لأنه لا يعرف كيف يضرب نفسه.

- تمام.. تمام.. مية مية.. تسلم إيدك يا صاصو.

فجأة، وفي لحظة، أغمى على ميدو، وضرب رأسه في زجاج باب السيارة.. فقال إبراهيم:

- يا نهار إسود.. دا ميدو أفوَر.

- ميدو.. ميدو.. قوم يا ميدو.. إيه ده!! مش بينطق!! نعمل إيه؟! ميدو.. ميدو!!

- نوصله عند بيته، ونسيبه هناك.

- يعني نسيبه يمُوت يا إبراهيم.. لأ.. مش مُمكن.

- طيّب.. نوديه مُستشفى السُموم.

- فين مُستشفى السموم دي؟

- في رمسيس.

- قل لي بسرعة أمشي إزاي؟

- على طول.. بس اسمع مافيش دعوة.. مش ها ادخل معاك.. دا فيها سين وجيم.

- متدخلش.. وصلني بس ومالكش دعوة.. حاول تفوَّقه.. رش على وشه مية بسرعة.

- المية مش مأثرة فيه يا صلاح.

- يارب.. يارب.. أسْتُرْ يارب.. والنبى يارب عدِّيها على خير.. يا أحمد.. رُدّ عليَّ يا ميدو.. مَا تمُوتش يا ميدو.. يا رب.. يا رب..

وصلنا إلى مُستَشفى السموم، وجريت فى ممَرَّاتها.. يمين وشمال.. ولا أجد أحداً لأسأله، ولم أجد لافتة توضح المعالم فى هذا المستشفى.. وقفت حائرا، لا أعرف ماذا أفعل، وأخيرا رأيت طبيبا، يؤكد مظهره أنه إنسان محترم، وأننى أستطيع التفاهم معه.. جريت إليه وفى لهفة قلت:

- من فضلك يا دكتور.. معايا واحد صاحبى، واخد "أُوفر دُوز" من ساعة.. أعمل إيه؟ أرْجوك ساعِدْنى.

- حالتُه إيه؟

- مش بينطق.. بس قلبه بينبض.

- هو فين؟

- فى العربية برّه.. أرجوك يا دكتور.. تعالى معايا شوفه، وأعمل له أى حاجة بسُرْعة.

وفى اللحظة نفسها، أسرعت إحدى الممرضات وراء الطبيب، وقالت:

- يا دكتور المريض اللّى فى........

- والنَّبى سيبى الدكتور دلْوقت.. مَعايا واحد بيموت فى العَربية.

وعندما رآه الطبيب، أمسك بيده، ثم تأملنى بنظرات فاحصة، وفى لهفة سألته:

- إيه يا دُكتور؟ هنعمل إيه؟

- لسَّه عايش.. بس مالوش علاج هنا.. اجْرِى بيه بسُرعة على مستشفى "...." وإنت وحظّك.. يا تلْحق.. يا متلْحقش.. هناك، هيدُّوله حُقنة.. الحقنة دى ممكن تنْقذُه.

- شكرًا يا دكتور.. اركَب يا إبراهيم.. هِىَ المستشفى فى الدُّقى.. صَحْ؟!

- صَحْ.. اجْرِى بسرعة.. مَا قدّاموش كتير.

- شكرًا يا دكتور.. ربَّنا يُستر.

ولم ينطق إبراهيم بكلمة واحدة.. وطوال الطريق، لم أتوقف عن الدعاء بصوت عال مسموع:

- يارَب إستُرْها.. عدِّيها لنا يارَب.. والنبي يارب.. يا رب.

ثم أخاطب إبراهيم قائلاً:

- إعدِل دماغه يا إبراهيم، رُش على وشُه مية.. يا أحمد.. رُدْ يا ميدو.. والنبي يا ميدو ماتمُوتش.

وصلنا إلى المستشفى، وبنظرة خاطفة رأيت لون وجهه الأزرق، إنه يرقد دون حراك.. ودون إحساس، مثل تيار الكهرباء المقطوع.. ميدو فاصل تمامًا، وتبادلتُ مع إبراهيم نظرات القلق والرعب، لدرجة أن إبراهيم قال لي:

- الظَّاهر إنهُ مات.

وضعت يدي على قلبه.. إنه لايزال ينبض.. قفزت من السيارة، وفعلَ إبراهيم الشيء نفسه، ولكنه جرى بعيدًا، بعيدًا عن السيارة.. إنه يهرب من مواجهة تبعات هذا الموقف البائس.. ولم أهتم، وجريت داخل المستشفى، وصرخت بأعلى صوتي:

- عايز دكتور بسرعة.. معايا واحد بيمُوت في العربية.

لا أحد في مكتب الاستقبال.. وجاءت ممرضة، ونظرت إليَّ في ذهول، ثم خرج الطبيب من غرفته، وسأل:

- هو فيه إيه؟

- معايا واحد صاحبي في العربية.. واخد أُوفَر دُوز.. بسرعة يا دكتور.. لازم تنقذُه.. في مستشفى السموم قالوا لي عندكم حُقَن بتنقذ.

قال الطبيب (وهو يوجِّه كلامه إلى الممرضين):

هاتُوه من العربية بسرعة.. ثم سألني:

- هو واخِد إيه؟

- بُوذرة.

- واخد كميَّة أد ايه؟

- تذكرة واحدة.. بَسْ هو أصلا مش بياخُد إلا كُل فين وفين؟

- ثمن الحقنة 650 جنيه.. معاك فلوس؟

- اتفضل.. ميدالية المفاتيح، دى ذهب.. ومفاتيح العربية كمان.. مش مُهِـم أى حاجة.

أعطيته الميدالية وبها مفاتيح السيارة.

أدهشت الطبيب بكلامي، وخوفي.. تركته وجريت لأتابع نقل أحمد من السيارة إلى "التَرولَى" وعندما عدنا إلى الطبيب، أعطى تعليمات سريعة:

- دخلوه.. وهاتوا سرنجة بسرعة.. دا أزرق.. مفيش فى وشه نقطة دم.

- يا دكتور.. فيه أمل؟ أرجوك قُلّى يا دكتور.

- خلّيك إنتَ بَره.. مَا أعْرفْش فيه أمل والاّ لأ.

أخذت أدعى وأقول:

- يارب.. أستر يارب.. والنبى يارب.. آخر مرة أضرب فيها فى حياتى.. بَسْ ميدو يعيش.. والنبى يارب.

انتظرت خارج غرفة الطبيب.. الدموع تغسل وجهي، ولا أتوقف عـن الدعاء، بينما شريط ذكرياتى وصداقتى مع ميدو يمـر مثـل فـيلم سـينمائى.. هل هذه نهاية الفيلم، أم بداية لحياتنا الجديدة المختلفة؟! وقفزت أمام عينىَّ صورة مُجسَّمة لوالدته، وأخرى لأخيه.. وبعد عشر دقائق طويلة ورهيبة، خرج الطبيب من غرفته، فقفزت إليه، وكل خلية فى جسمى تتساءل:

- خير يا دكتور؟!

- دا فعلا محظوظ.. لو كنت تأخرت خمس دقايق، كان مات.. بَسْ هو محتـاج حقنة تانية.. واضح إن جسمه كان نضيف، وأخد كمية كبيرة.

- مش مشكلة يا دكتور.. ادّى له حقنة تانية.. ممكن أشوفه؟ مش ها اعمل أىّ حاجة، بَسْ ها اقف جَنبهُ.

- استنى.. هانادى لك بعد شوية.

وبعد خمس دقائق عاد الطبيب، وقال لى:

- تعال يا سيدى.. وشُوف صاحبَك.. فاء بَسْ بيخَرّف.

فى قفزة واحدة كنت بجانب ميدو.. نائم على السرير، ويحرك رأسه.. حركات عفْوية غير منتظمة.. وسألته:

- ميدو.. يا ميدو إنت سامعنى؟

- آه.. أنا فين؟

نطقها بصُعوبة بالغة.. فقلت له:

- حرام عليك يا أخى.. موّتنى.. الحمد لله.. الحمد لله يارب.. شُكْرًا يا دكتور.. شكرا.. الحمد لله.. الحمد لله.

- إنتَ باين عليك صاحبُه أوى؟!

- أكتر من صاحبه يا دكتور، وأكتر من إخْوات كمان.. دا إحنا مِقَربين مع بعض من أيام الحَضانة.

- كنت فى مدْرسة إيه؟

- مدْرسة "......".

- وأنا كمان كُنت فى نفس المدرسة.. بَسْ أنا أكبر منكُم بكام سنة.. قُل لى.. وإنتَ كمان بتاخد بُودْرة واللا إيه؟

- لا يا دكتور.. أنا ما باخُدْش.. لو كُنْت باخُد مكُنْتش عرفت أجيبُه هنا.

يبدو أن كلامى كان مقنعًا إلى حد كبير.. ولست أدرى هل صدقنى الطبيب، أم أراد أن يبدو مُصدّقًا لما أقول.. واستمر يسأل:

- طيِّب إيه بس اللّى وصلُه للهباب ده؟

- عِلْمى عِلْمك يا دكتور.

- طيب.. دلوقت هتعمل إيه؟

- بص يا دكتور.. أنا عايز منك خدمة.. أنا مش هقدر أكلم مامته، ولا أخوه.. ممكن حضرتك تكلمهم؟! أنا هاديلك نمرة التليفون، وقل لهم من فضلك وهم جايين يجيبوا فلوس معاهم.. اطمن يا دكتور.. أنا مش هامشى.. أنا هاقعد هنا في أي أوضة، واديني مفتاح العربية أركنها بعيد شوية عن المستشفى، علشان ما حدش منهم يشوفها.. وحضرتك خلي معاك الميدالية الدهب لغاية لما أخوه ييجي ويدفع الفلوس.. وقول لهم إن واحد كان معاه، ودخله المستشفى ومشي.. أرجوك يا دكتور.. من فضلك.. مش عايز أكون في الموقف ده.

- اللي يعمل كدا مع صاحبه، مايتفعش يهرب.. خذ مفتاح عربيتك والميدالية.

وافق الطبيب الشهم على طلبي، وابتعدت بالسيارة عن بوابة المستشفى.. ثم انتظرت في غرفة صغيرة إلى أن جاءت والدة أحمد وشقيقه علاء.. ولم أعرف ماذا دار بينهما وبين إدارة المستشفى التي أنقذت حياته، وظللت في مكاني في انتظار خروجهما مع ميدو من المستشفى، التي عاد فيها إلى الحياة.. وقلت لنفسي:

- يا إلهي.. أحمدك وأشكرك.

كان يومًا طويلاً، ورهيبا.. مرت كل ثانية وكأنها سنة أو أكثر.. لقد تأخرت عن الموعد المتفق عليه مع أمي.. إنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. ولا تكفي كلمة التعب لتصف حالتي.. أنا لا أقوى على المشي.. قدماى لا تحملانني، وعندما أدخل إلى البيت بهذا المنظر، بالتأكيد سوف تشك أمي.. ومعها حق في هذا الشك.. لكن لا شيء يهم الآن.. المهم أن ميدو لم يمت.. إنه حي.. لم يمت.. والأهم أيضا أن ربنا سترها معنا، والشرطة لم تتدخل.. يهون التعب والهلاك الذي أشعر به.

عندما دخلت إلى البيت.. بدأت أمي تفحصني كعادتها.. تتأمل وجهي، وتنظر في عينيّ.. ولم يكن يبدو بعد هذا الموقف الرهيب، أنني ضربت بُودْرة، وإنما شكلي كان مرهقًا للغاية، وشعري أشعث، وفي ثانية ألفت لها قصة عن مباراة كرة في شارع بيت ميدو.. ولست أدري هل صدقتني أم لا، وتركتني لآخذ الدُش، وأدخل غرفتي.. وفي سريري بدأت أكلم نفسي:

– كفاية كدا يا صلاح.. كفاية.. كفاية.

في اليوم التالي، شعرت بالإرهاق الشديد.. لا أستطيع الحركة من مكاني، ولست قادرًا على الكلام، أو التفكير في الضرب.. فقط أفكر في ميدو، وأريد الاطمئنان عليه، لكني خشيت الاتصال به، ماذا أقول له؟ وبالتأكيد والدته وشقيقه علاء قد عرفا أنني وراء كل ما حدث، وآخر من كان معه قبل إصابته بهذه الأزمة القاتلة.

مرَّ يومان ولم أخرج من البيت، وكنت تحت رقابة أمي.. وكنت أتصرف بهدوء تام؛ لشعوري بالتعب الشديد، كما أن قصة الأمس لم تفارق خيالي.. وفي اليوم الثالث كنت أحسن حالاً، ولكن لا يشغلني إلا التفكير في أحمد، ولا أعرف ماذا أفعل.. أحسستُ بعجزي، وبالرعب عند سماع رنين التليفون.. فقد خشيت أن تتصل والدة ميدو، وتكلِّم أمي لتحكي لها عما حدث لابنها، وتولت أختي رولا الرد على رنين التليفونات، ونادتني.. وسمعت دقات قلبي.. لماذا أخاف؟ إن كل شيء يخيفني.. نادت رولا عليّ قائلة:

– يا صلاح، تليفون علشانك.. أحمد.

– إزيّك يا ميدو؟! كويس إنّك كلّمتني.

– إزيّك يا صلاح؟!

– الحمد لله.. أنا كنت عايز أطمّن عليك.. بس مش عارف أعمل إيه؟

– تصوّر.. من يومها وأنا نايم.. تخيّل نمت 36 ساعة متواصلة.. ولسّه صاحي من نص ساعة.

– طنّط ماجدة وعلاء عملوا إيه؟

– متّدبة طبعًا.. الدنيا مولّعة في البيت.

– عرفوا إني كُنت معاك؟

– عيب عليك.. طبعًا لأ.. دبّستها في إبراهيم.. قلت لهم قابلته بالصدفة، ورحنا ضَرَبْنا سوا.

– وبَعْدين؟

– أمي منهارة طبعًا.. عياط مستمر، وعلاء مش بيكلمني.. أنا عاوزك تحكي لي حصل إيه.. لمّا علاء قال لي إن فيه واحد معاك هــو اللّــي وداك المستــشفى، وسابك هناك، عرفت على طول إنه إنت.

وحكيت لميدو ماحدث بالتفصيل.. حتى وصول والدته وعــلاء إلــى المستشفى..

– يا نهار أبيض!! إيه ده؟ أنا فعلًا كُنت ها أموت!!

– الحمد لله جت سليمة.. ربنا ستر.

– تصدّق يا صلاح أنا لسّه تعبان، ودماغي لسه تقيلة.. ها ادخل أنام تاني.

– نام إنتَ واستريّح، وأنا أعدّي عليك بُكره.

وضعت سماعة التليفون، وأنا لا أكاد أصدق أن سيناريو هذه المأســاة سار على هذا النحو، وأن اسمي لم يذكر نهائيًا في أحداث تلك الليلة الــسوداء، وأنني خرجت منها، كما يُقال: "مثل الشعرة من العجين". وعندما ذهبــت إلــى ميدو، وجدته جالسًا مع زوزي، وضمّتنا جلسة ممتعة معًا، نتذكر أيــام زمــان، نحكي ونضحك ضحكات من القلب.. أحسست بأن ميدو اليوم يختلف عن ميــدو قبل الحادث المروع.. نعم.. شيء ما مختلف.. لكن مــا هــو هــذا الــشيء؟! لم أستطع تحديده.

وطلعنا إلى "البلكونة" لأن حسين يريد أن يشرب "جُوينت".. وأعطاني "الجُوينت"، وأخذت نفسين، وأعطيته لميدو قائلا:

– صَباح الفُل يا مَعلم.

قال أحمد.. وقد نظر إليَّ طويلاً:

– مش ها اعْرف أمد إيدي على أيّ مخدرات مرة تانية.. خلاص يا صلاح.. حلْوين على كده.. صفر الحكم.

أعدت الجُوينت إلى حسين، وأكملنا حديثنا، وهذه كانت آخر مرة أقول فيها لصديقي ميدو: "صَباح الفُل يا مَعلم".. وعدنا إلى حديثنا السابق، حديثنا حول المأساة، وقال أحمد:

– بس علاء هيتجنّن علشان عايز يعرف مين إبراهيم؟ عايز يشوفه علشان يشكره لأنه وداني المستشفى؛ لأن الطّبيعي إنه كان زماني في أيّ مكان وهرب.. والدكتور قال لعلاء إن واحد صاحبي أنقذني من الموت فعلاً، وإنه كان ممكن يُروح في داهية لو كنت مُتّ.. بسْ هو ماهمّوش.

كانت هذه هي نهاية السهرة.. وعند باب البيت نظر إلي ميدو نظرة لها معانٍ كثيرة، وأخذني بين ذراعيه، "حضنني" بقوة، حضن دون أي كلام أو نقاش، وكسر حسين المشهد بكلمتين.. قائلاً:

– بالرّاحة يا عم.. هتقفصه.

– سلام يا ميدو.. تصبّح على خير يا صاحبي.

– سَلام يا رجّالة.. أشوفكم بُكْره إن شاء الله.

عدت إلى بيتي، وكنت أشعر بالسعادة الحقيقية.. ووجدت أمي في انتظاري كالمعتاد، وكالمعتاد أيضا أمطرتني بمليون سؤال:

– باين عليك مبْسوط .. خير؟!

– عادي يا ماما.. كانت سهرة حلوة عند ميدو.. افتكرنا فيها أيام زمان، وضحكنا من قلبنا.

- كان مين هناك؟

- حسين.. وطبعًا علاء.. كلّ شوية يعدّى ويقعد معانا.

- طيب تتَعَشّى ايه؟

- إتعشّيت خَلاص.. ما إنت عارفة بيت ميدو.. "رَمَنْتُوران".

دخلت إلى غرفتي، وأنا أشعر بالسعادة.. فعلاً كانت ليلة سعيدة.

وفى الصّباح، فاجأتنى أمى بأنها حجزت موعدًا مع طبيب باطنى، وتخصصه الكبد، فهى قلقة بسبب نقص الوزن، والهالات السوداء تحت عينى.. وذهبنا معًا، ومن خلال الحوار فهمت أنها التقت به فى زيارة خاصة، وشرحت له الحالة، وطلبت منه مساعدتها، بأن يشعرني بخطورة ما أفعله، وقدَّر الطبيب حجم القلق الذى تمر به، فطلب أشعات وتحاليل، وفي الزيارة الثانية صارحنى قائلاً:

- إنت محتاج علاج مستمر لمدة سنة، وأشوفك كل شهر، وطبعًا مش هينفع أبدا تشرب تانى، لأن الشُرب تأثيره قوى وخطر على الكبد.

- حاضر يا دكتور.

بعد هذه الزيارة العلاجية، شعرت بالقلق فعلاً.. لكن مشكلتى فى القرد والنسناس الذى يقفز في دماغي: اضرب.. اضرب.. وأقاومه، وأطرد الأفكار من رأسى، وتفاديت لقاء حسام أو الظهور معه، فكل الناس تعرف قصته.. وأنه قد تمَّ طرده من موقعه فى الشرطة بسبب المخدرات، وكانت مشكلاته كثيرة، وفقد وزنه بشكل واضح، وعرف كل الناس عنه أنه مدمن.

وأعترف، أيضا بأن أسلوبى فى الحياة قد تغير كثيرًا، سواء بالنسبة لمواعيد النوم أو الخروج، ونقص الوزن، والإهمال فى ملابسى ومظهرى.. ولا شك أن الناس أذكياء، ونتصور أنهم لا يعرفون الحقيقة، والحقيقة عكس هذا تمامًا.. إنهم يعرفون ويفهمون كل شيء، واحترامًا لاعتبارات كثيرة لا يتكلمون.

في تلك الأيام، كثر الحديث عن البودرة.. الصحف تنشر كل يوم أخبار القبض على التجار.. أحدهم متلبسا ومعه 150 تذكرة هيروين.. وامتلأت صفحة الحوادث بأخبار الشباب الذين يتعاطون المخدرات، وأخبار القبض علـى طلبة يتعاطون الهيروين داخل سيارة.. حملات بوليسية بتركيـز شـديد، كمـا زادت التحقيقات الصحفية، والمقالات، والأعمدة حول كارثـة الإدمـان وخطورتـه.. وبسبب هذا أصبح من الصعب الحصول على البودرة، فاتجهنا إلى "أبو صليبة"، ونطحن عليها قرص دواء "توفاسي" ونشمه، وأحيانا نشرب كودافيين، لأن بـه نسبة كودايين عالية، وأبو صليبة.. كنت أسميه "أبو مصيبة"، يا ساتر يـارب.. كنت أشعر أنه يحدث تغييرا خطيرا في شخصيتي، كان يحـولني إلـى إنـسان شرير.. إنه يحول البني ادم إلى مخلوق خطير، بل مجرم يفقـد القـدرة علـى التمييز تماما.. لا يدرك ما يحدث حوله.. يسرق أي شيء.. يقوم بأي تـصرف أهوج ومجنون.. في أي وقت، وتحت أي ظرف.. الحقيقة أنني كنت أخاف من "أبو مصيبة" أو "أبو صليبة"، لأنني في كل مرة استيقظ لأجدني عملت كارثـة، أو مصيبة بسبب "أبو صليبة".

رغم محاولات أمي المستمرة في مراقبتي، مع من أتحـدث تليفونيًـا، وفي أي الموضوعات نتكلم.. وقبل الخروج، وأنا على الباب، توقفني لتـسألني: ماذا معك في جيوبك؟ وماذا معك في محفظتك؟ وتكرر الأسئلة نفسها بعد العودة إلى البيت.. وتضيف:

– وريني دراعك.. كنت مع مين؟ اكتب لي أرقام تليفونات كل أصحابك.

كانت تتصل بهم فعلا، وتسألهم عني، وتفتح معهم التحقيق دون كلـل أو ملل، وكنت ألعب معها لعبة القط والفأر، ورغم كل هـذا الحـصار، كنـت أستطيع الإفلات.

18

وشـــاية

وخلال تلك الفترة العصيبة، التقيت مع راندا، وكان اللقاء ساذجا، وأمسكت يدى، وظلت تقول:

- أنا مراتك وحبيبتك.. وما أقدرش أعيش من غيرك أبدا.

وفجأة انفجرت وقلت لها:

- إنت عارفة كويس إنت عملت إيه!! أنا باخد بودرة وإنـــت السـبب.. بـصي دراعي.. شوفي مخرم إزاى؟! شايفه اللى إنت عملتيه، عمل فىَّ إيه؟

طبعا لم تكن راندا هى السبب.. ولكنى وجدتها فرصة أعلقها شماعة، وأشعرها بالذنب وتأنيب الضمير، وأردت أن تفهم أننى اختفيـت طـوال هـذه الفترة، ليس بسبب حب جديد، كما تدعى، ولكن لأنى بأضرب، وهى السبب.

وسيطر على أمى الإحساس الطاغى بأن راندا أحد أسـباب الانهيـار الذى أمرُّ به، وبدأت تعاملها بجفاء، وترد على اتصالاتها التليفونيـة بخـشونة، ولا تستقبلها بحفاوة كما كانت.. لكنها فى الوقت نفسه كانت معجبة بقصتى مـع هالة.. كانت فعلا تحبها، رغم أن الحديث بينهما سريع، وعلى فترات متباعدة.. هالة أصلا شخصية متحفظة، وخجولة، ونادرا ما تتصل بى تليفونيـا، وكنـت أسألها:

- إنت مش بتكلمينى ليه؟

- لأن عمرى ما اتكلمت ولقيتك.. فاتكلم ليه؟ ولو اتكلمت عمر ما حد هيقول لك إنى اتكلمت.. أصل اللى بيكلموك كتير، فيقولوا مين ولا مين؟!

وكانت هالة أجمل ما فى حياتى.. وتوطدت العلاقة بيننا، إلى أن يئست نانسى منى تماما، فقد كنت عند حسام فى مصر الجديدة، وضربنا قبل مجـيء

نانسى، وبعد وصولها مباشرة ضربت هى الأخرى، ودار بيننا حديث غريب جدا:

- إنت بتعمل معايا كده ليه؟

- بأعمل إيه؟

- ولا بتكلمنى.. ولا بتعبرنى.. كأنى كلبة.. هو علشان باحبك تعاملنى كده؟

- هو أنا قلت لك إنى هاتجوزك؟ هو أنا وعدتك بحاجة؟

- وما تتجوزنيش ليه إن شاء الله.. عارجة ولا حولة؟!

- لا.. مش عارجة ولا حولة.. إنت بس صايعة وضايعة.

- طبعا.. دلوقت صايعة وضايعة.. ماشى يا صلاح.

- هو أنا الأول قلت لك إنك برنسيسة واللا إيه؟

فتدخل حسام فى الحوار قائلاً:

- بس يا نانسى.

دافعت دعاء عن نانسى قائلة:

- لا.. يا صلاح.. مش كده.

ردت نانسى بغضب:

- طيب يا حبيبى.. خلى البنات الحلوين بتوع الجامعة ينفعوك.

- فكرتينى.. أنا عندى مكالمة مهمة، ومش عايز حد يدخل علىّ.

- هتشوف يا صلاح.

- خوفتينى.

ولم تكن هالة تركز فى القصص والأفلام والمصائب والمشكلات التى كانت تسمع عنها؛ فالبنسبة لها أهم شىء التركيز فى المذاكرة.. اتصلت بها وقلت لها:

- مذاكرة!! مذاكرة!! نخرج ساعة واحدة بس.

- طبعا وَرَايا مذاكرة.

- طيب أشوفك.. وحشتيني أوى.. لفة بالعربية واطلعي ذاكرى على طول.

- ياه.. إنت مُصيبة من مصايب الزمن.. إسمَعْ.. هي نُص ساعة مش أكتــر.. تاخُد لفة في المهندسين وترْجَعنى البيت على طول.

- اتفقنا.. تلت ساعة وأكون عندك.

- سلام يا حسام.

- على فين؟

- أنا رايح مِشْوار ساعة.. ولما أرْجع مش عايز ألاقى نانسى هنا.

وبعد عشرين دقيقة وصلت عند هالة.. كانت فى انتظــارى، ولونهــا باهت، وشكلها غريب.. وركبت إلى جانبى، ودون مقدمات سألتنى:

- إنتَ كُنت فين؟

- يعْنى إيه كنت فين؟

- يعنى إنتَ جاى منين؟

- من مصر الجديدة.. ليه فيه إيه؟

- عند مين فى مصر الجديدة؟ جاوبنى.

- ليه بَس؟! فيه إيه؟! كنت عند حُسام.

- بَعْد مَا قفلْت معايا بخمس دقايق، حَبيبة القلب كَلّمتْنى.

- حَبيبة القلْب مين؟

- مَا قَالتْش اسمها.. بس قالت لى إنها حامل.

قلت فى دهشة:

- حامل؟! مين دى اللّى حامل؟! إيه اللّى إنت بتقوليه ده؟

- ولا تقول لى ولا أقول لَك.. روح يا ابنى شوف حبيبتك الحامل.. ما يــنفعش تبْعد عنها فى ظروف زى دى.

- حامل إيه بس؟! أنا مش فاهم حاجة!!

- بعد ما حضرتك قفلت معايا.. واحدة كلمتني، وقالت لي إنها صاحبتك، وإنها حامل في الشهر التاني، وإن أنا لازم أبعد عنك علشان حضرتك تتجوزها.

- إيه الهبل ده!! دا فيلم هابط.. أنا عرفت مين اللي عملت كده.. وعملت كده ليه!!

- أنا بقى ما يهمنيش أعرف.. إسمع يا صلاح.. أنا مش عاوزاك تكلمني تاني أبدًا.. إنساني، وخليك في الحوامل بتوعك.. أنا ما بقتش أثق فيك.. وعمري ما ها أثق فيك.. من فضلك إبعد عني وسيبني في حالي.. أنا مش أدك، ولا أد مواضيعك العجيبة دي، كفاية كده.. الموضوع بينا اتقفل خلاص.. اتقفل تمامًا.

انتهى موضوع هالة بهذه النهاية المأساوية.. وحاولت أكثر من مرة أكلمها، واشرح لها، إنما بالنسبة لها الموضوع انتهى.. وعلى رأيها "اتقفل" تماما.

استمرت علاقتي بالفتاة النقية الرقيقة: مريم.. وزاد تعلقها بي، وكنا نتحدث تليفونيا ساعات طويلة، واكتشفت أنها تعرف عني كل شيء، فهي تتابع أخباري من خلال الجيران، وعندها كل المعلومات والتفاصيل الدقيقة، وتعرف كل صغيرة وكبيرة في حياتي، وكنت أهم إنسان في حياتها.. وكثيرا ما كنت أمرُّ بأزمات مالية، فأختلق قصة درامية أرويها لها.. كأنني أحكي فيلمًا من أفلام الميلودراما الساذجة، وأحكي عن صديقي وصاحبته التي قررت قطع علاقتها به، بعد اكتشافها أنها حامل، وضحك عليها ولا يريد الزواج بها كما وعد، وهي مضطرة لإجراء عملية إجهاض، وأريد مساعدتها ماليًا، لكن ليس معي الثمن الباهظ الذي يطلبه الطبيب لإجراء العملية.

ترددت في هذه الفترة عشرات القصص للفتيات اللاتي لم يعدن عذارى، وتسمع مريم هذه القصص ولا تصدق، إلى أن تكتشف أن ما أقوله لها

صحيح مائة فى المائة، بعد أن وقعت صديقتها فى الفخ، وتوالت قصص صديقاتها.. وفى كل فترة تحكى لى عن مأساة جديدة، وفى ذهول تقول:

– تصور، سلوى مش "ڤيرچين"[1]، وقالت لى إن صاحبها رياض هددها لو بعدت عنه، هيفضحْها، وهى مش عارفة تعمل إيه؛ لأنها ذوقت بتكرهُه من معاملته الوحْشة معاها.

كما حكت لى قصة صديقتها منار.

– تصدق إن منار سافْرت مع أمين العجمى، وهيقْعدوا يومين هناك.. لكن قالت لماميْتها إنها مسافْرة مع سلوى؟!

وأحاول أن أشرح لها الهدف من هذه الرحلة.. وأسألُها:

– يعنى تفتكْرى همّا مسافْرين مع بعض ليه؟! هيْناموا كل واحد فى أوضة لوحده؟!

– طبعا، الڤيلا بتاعة أمين فيها أوض نوم كتيرة.

تمر الأيام، وبعد شهرين أو ثلاثة، تحكى لى، وهى فى قمة الانزعاج:

– إلْحق.. مُصيبة.. منار حامل فى الشهر التانى، وعايزة تعمل عملية إجهاض.. وتصور كمان، فلانة صاحبة فلان وقعت فى المشكلة نفسها..

وتلقّى هذا الكلام كالصاعقة.. فهى بريئة براءة الأطفال، وكنت أشعر أنها أختى الصغيرة، ولم تحرّك غرائزى كأنثى، رغم أنها جميلة، واحترمت براءتها وسذاجتها.. وقد كانت أمى تعرفها من خلال اتصالاتها التليفونية الكثيرة، وهداياها القيمة التى تبعث بها إلىَّ من حين إلى آخر.

وبعد اكتشاف أمى اختفاء الذهب والأموال، وبعد تحديد ميزانيتى بمعرفتها.. كنا كثيرا ما نختلف فى رفع تلك الميزانية، أو منْحى معونة، وترفض خشية الوقوع تحت إغْراء شراء المخدِّرات، ولم يكن عندى اختيار غير اللجوء إلى مريم..

---

[1] عذراء.

كنت أحيانًا أقول لها:

- إزيك يا مريم.. بأقولك إيه، تعالى بسرعة وهات معاك 200 جنيه.

حقًا.. إنه مبلغ كبير في ذلك الوقت، ولكن هي أيضًا لم يكن عندها اختيار آخر، وعن طيب خاطر، كانت تنفذ كلام حبيب القلب، وأحيانا تأخذ من والدها أو من والدتها، أو تستدين من إحدى صديقاتها.. فقد كانت مستسلمة تماما، وتصدق كل قصصي وأفلامي، وأسعدها جدا أن يحدث بيننا هذا التقارب.. والحق يقال، لقد مرت مريم بأيام صعبة، ولكن كله يهون، مادامت علاقتها بي حميمة وبالقرب مني.

ظلت أمي تراقبني، وتلاحقني، وأهرب من أسئلتها، ولكنها كانت تكشفني بنظرة أو كلمة، وأكرر وعدي لها بأنها آخر مرة، وكتبت لها عشرات الرسائل، أعدها فيها بأنني لن أتعاطى المخدرات نهائيا.. ولا أنفذ وعودي.. كلها في الهواء.. وكلها حبر على ورق.

نعم.. هي لم تأخذ أجازة دون مرتب، وبحجة ظروفها الصحية تعاون معها زملاؤها، وقاموا بتنسيق الجدول، وتبادلوا إعطاء المحاضرات الخاصة بها، وإجراء الاختبارات كما عودت طلبتها، وكانت هي تصحح هذه الاختبارات، وتسلمها أول كل أسبوع.. وتتناوب أختي رولا معها خلال الساعتين اللتين تذهب فيهما الى الجامعة، ولكن ألاعيبي تفوقت على كل محاولات حصاري، وفي نهاية المطاف.. أختلق قصة تصدقها أختي، وأنزل اشترى وأضرب وأعود بائسا.

ورسمت أمي خطة جديدة، وعقدت لقاءات مستمرة مع أصدقائي.. كل أصدقائي دعتهم واحدا، واحدا إلى البيت.. سواء من يتعاطى منهم أو من لا يتعاطى.. وكانت تقضي معهم ساعات طويلة كل يوم، تسألهم وتحاورهم بلا كلل أو ملل، وكثيرا ما كنت أعود الى البيت لأجد أصدقائي عندنا في المنزل.

وكان الجزء الثاني من الخطة، هو إحكام الحصار حولي.. راقبت اتصالاتي التليفونية.. أخضعت دولابي وملابسي وغرفتي لحملة تفتيش يومية، وعندما أنام، تذهب إلى الجراج وتقوم بالبحث والتفتيش الدقيق في السيارة، كما رفعت القفل من باب الحمام ومن الغرفة.. راقبت حركة الشباب الذين يتحركون حول العمارة، فهي تعرف أن حسام أحد هؤلاء الشباب، ولست أدري كيف عرفت أنه يترك لي ورقة البودرة والبوسته تحت الدواسة، وذات مرة ضبطته أثناء رفعه للدواسة، وفتحت الباب في اللحظة نفسها، التي وضع فيها حسام السرنجة، فرماها وجرى، وبالطبع لم تستطع اللحاق به كي تمسكه متلبساً، وأخذت السرنجة، وهي في حالة غليان.. ولم تنم في تلك الليلة.. مثلها مثل ليالٍ كثيرة، وأصبحت أمي لا تنام إلا قليلاً، ولا تنام في غرفتها، بل تنام على مقعد بالقرب من باب الشقة لتطمئن على وصولي، وترى بنفسها كيف أبدو، وتسألني ألف سؤال وسؤال، وبعد أن أنام تذهب لتنام في سريرها.

أما والدي.. فكان يشعر أن هناك شيئاً ما غير عادي، وغير مفهوم بالنسبة له، لكن هو بشكل عام كثير السفر، ولا يركز إلا في مشاريعه الهندسية، واتفاقياته مع الشركات والمكاتب العالمية.

19

غياب الضميـر

ازدادت الأزمات المالية، ولم تعد النقود متوافرة معي لشراء البـودرة، وفي صباح يوم من هذه الأيام السوداء، عرفت مصادفة أنه يوم زفاف ابنة عمي سلمى.. هذه العائلة لها مكانة خاصة لدينا فقد توفي عمي وترك أطفاله صغاراً.

في ذلك اليوم خرجت مع حسام، وذهبنا لشراء البـودرة، ولـم نجـد، ولكننا وجدنا "أبو صليبة" أو "أبو مصيبة"، واقترح حسام أن نطحن أربعة "أبـو صليبة" مع قرصين "توفاسي"، إلى أن نجد البودرة.. وقد كان، ونفذنا الاقتـراح، واتفقت معه أن نتقابل بعد ساعة، يحاول خلالها بكل الطرق أن يتصرف ويجهز مبلغاً لشراء البودرة، بينما أذهب إلى بيت عمي في المهندسين، لأثبت حضوري أمام العائلة في يوم زفاف سلمى الصغيرة.

وصلت إلى بيت عمي.. مظاهر الفرحة جميلة، العروسة سلمى سعيدة جداً، شقيقها معتز يستقبل الضيوف، ويقف وقفة رجل، ويبدو دائماً أكبـر مـن سنه.. وأخت العروسة سحر، تكاد تطير بجناحين من الفرحة، وزوجـة عمـي أسعد واحدة في الدنيا.. كل ركن في البيت تملؤه الفرحة، و أنغـام الموسـيقى، والزغاريد تنطلق هنا وهناك..

بحفاوة بالغة استقبلني الجميع، رغم انشغالهم بالحديث عـن الفـستان، وموعد الكوافير، والزفة.. والكوشة، ورغم اتساع البيت.. إلا أن زحام الضيوف كان أكبر من اتساع البيت، وفي كل جانب منه، مجموعة مشغولة بـالكلام فـي الترتيبات النهائية، قبل نزول العروسة الصغيرة سلمى من البيت للـذهاب إلـى الفندق.

خطر ببالي أن ألقى نظرة من الشرفة لأطمئن على سيارتي التي ركنتها صف ثان.. وفى طريقى إلى "البلكونة"، مررت بغرفة نوم سلمى، ولمحت علبة قطيفة، وسألت نفسى:

- يا ترى.. العلبة دى فيها إيه؟

فتحتها بسرعة، ووجدت خاتمًا ماسيًا رائعًا.. أغلقت العلبة بسرعة، وعدت إلى الصالون حيث تعلو الموسيقى، والضحكات، والغناء.. ولكن شكل الخاتم لم يفارق عينى.. وقفز شيطان "أبو مصيبة" إلى رأسي، وقلت لنفسي: الخاتم يحل مشكلات كثيرة، ثم الزحام فى البيت غير عادى.. لا.. ولن يشك أحد أننى أخذته.. مستحيل أن يشك أحد فى صلاح.. ممكن أن تكون إحدى صديقات سلمى محل الشك، حركات بنات وغيرة من بعض.. أو يشكون في "شغالة" يدها طويلة، مدت يدها وأخذت الخاتم، فى البيت ثلاث شغالات.. ممكن أخذه وتعدى.

وفى أقل من ثانية، غاب فيها الضمير، وانتصر الشيطان.. فتحت العلبة، ووضعت الخاتم في جيبي، وبعد ثانية أخرى رجعت الصالون أغنى وأرقص، وبعد رقصتين قلت لسلمى:

- مبْروك يا عروسة.

- مَاتِتْأخَّرْش.

- حاضر.. أنا جاى مع رُولا.. اتفقت معاها.. باى.. باى.

نزلت ومعى كنز.. وفى الموعد المحدد قابلت حسام، وسألته:

- عرفْت تِجيب فلوس؟

- 30 جنيه بِالْعافية.

- خَلّيهم لك.. هات بيهم سَجاير.. امسك.. شوف.. خاتِمْ أَلْماظ.

- إيه ده.. جبته منين؟

- عَلْقتهُ من بيت عمي.

- يا ابن "....".. إزاى؟!

– ولا حاجة.. الدنيا زحمة، ودوشة، وفرح.. لقيته، فأخدته.. يجيب كام؟

– ما أعرفش.. بس شكله يجيب كتير.

– طيب وبتصرّف فيه إزاى؟

– دهب وألماظ، تخصص نانسى.

– لا يا أخى.. دى حرامية، وممكن تسرقنا.

– مانقولش إنه بتاعك.. أقول لها بتاعى أنا وعلقته من مرات أخويا.

– وتلاقيها فين دلوقت؟

– هى ودعاء كلمونى، وضاربهم السلك، وعاوزين يضربوا ومفيش معاهم فلوس.

– علىَّ النهارده.. النهارده بس يا حبيبى.

– إيه المعاملة دى! ده أنا بابا شبيلك يا صلاح.. إنت ناسى واللا إيه؟ على العموم هتروح فين؟ بكره تيجى على حجرى تانى.

– أنا بهزّر يا أخى.

عندما وصلنا إلى مصر الجديدة، وجدنا دعاء ومعها نانسى، وبعد ما فعلته مع هالة، وتسببت فى قطع علاقتنا، كرهتها من كل قلبى.. إنما المضطر يركب الصعب.

وأخرج حسام الخاتم من جيبه، وأعطاه لدعاء، التى قالت:

– يا جماله.. ده ألماظ بجد، بصى يا نانسى.

– ياه!! دا قيراط، لو ماكانش قيراط ونص.. جبته منين يا حسام؟

– خاتم مرات أخويا.. علقته من ساعة.

– يا ابن ....

– يجيب كام يا نانسى؟

– حوالى خمسة أو ستة.. مش أقل من كده.. صح يا دعاء؟!

– لو الفاتورة موجودة.. يساوى أكتر بكتير.

ضحك حسام ساخرًا وقال:

- فاتورة إيه يا هبلة..ها اسرقة بفاتورته؟! طيب يالّلا.. عاوزين نخلّص.

ذهبنا إلى الجواهرجي، ودخلت نانسي ومعها دعاء.. وبعد قليل عادت نانسي وقالت:

- كان عاوز يدفع تلاتة ونصّ وبالعافية خلّتهم أربعة.

كم شعرت بالندم.. كنت حزينا من قلبي.. أردت أن أعيد الخاتم، ولكن للأسف.. الأمر قلت، والموضوع انتهى.. وقلت:

- طبعا يا حسام.. ضربت لها باكو على الأقل في القصة دي.

- لا يا راجل.. أكيد دعاء هتقول لي لو عملت علينا أي مصلحة.

- إيه النظام؟

- يالّلا بينا على السويس.

- ماشي.. بس لازم أرجع بسرعة.. عندي فرح.

سافرنا.. وفي السويس صرفنا ألفين من الأربعة.. ورجعنا وكل واحد منهم معه ما يكفيه لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. ومعي ما يكفيني لمدة أسبوع بالإضافة إلى ألفي جنيه، وأخفيت هذه النقود تحت الاستبن، فمن المستحيل أن أحتفظ بها في غرفتي، فقد أخضع للتفتيش المفاجيء من أمي.. فهي تقوم بحملات التفتيش في أية لحظة.

عدت من السويس، وكنت أترنّح، ورمقتني أمي بنظراتها الثاقبة.. كل شيء يبدو واضحا ومفهوما، ولم تتكلم.. وبعد الدش، بدأت أرتدي ملابسي الأنيقة استعدادًا للفرح.. صدق المثل القائل: "يقتل القتيل ويمشي في جنازته".

كيف غاب الضمير؟! كيف؟ لا أدري!!

وصلت إلى الفندق مع رولا.. وذهبت ماما مع بابا في سيارته.. دخلت قاعة الفرح بمنتهى الثقة.. أسلّم وأحيي الأقارب وأقبلهم، وكأن شيئًا لم يحدث..

وأشعلت سيجارة من سيجارة، وأضحك مع هذا وذاك، وكأنني لم أقم بجريمة في الصباح.

كنت أراقب سلمى من بعيد.. انطفأت الفرحة، الابتسامة حزينة.. تعسم سلمى الصغيرة حزينة، ومع هذا تحاول أن تجامل الناس.. أكاد أرى الدموع في عينيها.. هذه الصغيرة لونها باهت.

لقد سرقت فرحتها يوم فرحها.. وفي لحظة أخرى أحس أنها طبيعية، وكأن شيئاً لم يحدث، وجاءت لحظة تقديم الشبكة، وارتفعت أنغام الموسيقى، ودُهشتُ!! الشبكة؟! منْ أين جاءوا بالشبكة؟! إذاً ماذا سرقت؟ خاتم من؟! ووقفت أمي وزوجة عمي جنب العروسة التي همس زوجها حسن في أذنها، وبكل التركيز وقفت أراقب كل حركة، وفي رأسي تدور الأسئلة:

– يا ترى هيكتشفوا دلوقت إن الشبكة اتسرقت؟! طيب ويعملوا إيه لما يعرفوا؟ هيتصرفوا إزاى ساعتها؟

وحدث ما لم أتوقعه، دوت الزغاريد.. ووصلت الشبكة على صينية مغطاة بالورود، وأمسك زوجها حسن بالعلبة، فتحها، وأخرج الخاتم، ووضعه في إصبعها، وقبّل يدها، وصفق المدعوون وانطلقت الزغاريد، ودارت أكواب الشربات.

تخيلت أنهم اكتشفوا سرقة الخاتم.. فاشتروا شبكة جديدة، وفيما بعد عرفت الحقيقة الأليمة، إنها ليست شبكة جديدة، ولكنها استعارت شبكة أختها سحر، وكان هذا هو الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق.. وبصراحة، لا أحد تعامل معي بجفاء، ولم يوجه إليّ أحد كلمة واحدة لا تعجبني.. لا همسات، ولا تلميحات، وقد تصرفت على سجيتي، على أساس أن الشبكة موجودة، وليست هناك مشكلة على الإطلاق.

بعد الفرح.. كان موضوع سرقة الخاتم له توابع، مثل الزلزال وتوابعه، وفي اليوم التالي مباشرة، سمعت من رولا قصة ضياع الشبكة.. رويتها لها

سحر، وبالطبع عرفت أمي القصة من زوجة عمي، وأنهم فكروا في إبلاغ الشرطة بعد اكتشاف السرقة، ولكنهم غيروا رأيهم حتى لا يحدث تشويه لجمال هذا اليوم أكثر من هذا، وقرروا أن يمر الحدث الأليم، وكأن شيئا لم يحدث، وقالوا:

– عوّضنا على الله.

وأصيبت العروسة الصغيرة، بالانهيار، ورفضت السفر لقضاء شهر العسل، بينما ظلت زوجة عمي تبحث عن الخاتم في كل ركن في البيت، على أمل أن تجده.. رغم أنها كانت تشك انى أخذته.. ولأنها إنسانة محترمة.. لم تصارح أمي بشكوكها، ولم تقل لها كلمة واحدة تشير بأصابع اتهام إلى أحد.. بل إنها لم تذكر اسمي في الموضوع نهائيا.. كانت زوجة عمي تخشى على الراوبط العائلية الحميمة أكثر من أي شيء.

تدريجيًا، وبمرور الأيام هدأ الموقف، ولم تعد قصص الخاتم المفقود تتردد، وتصورت أن الكل قد نسي الموضوع، وفيما بعد عرفت أن والدي سأل زوجة عمي عن ثمن الخاتم، عرفت السر وراء سؤاله ذات يوم، وكان يوم مولد النبي.

في صباح ذلك اليوم.. أصر والدي على إيقاظي من النوم.. فتح النور، ثم فتح الشباك، وقال:

– يا صلاح.. إصحَى يا صلاح.

– ليه يا بابا؟ عايز إيه بس.. هيَ الساعة كام؟

– الساعة 10:00.. قوم، هنُخرُج سَوا.

– هنخرج نروح فين دلْوقت؟ يا بابا.. أنا نمْت الساعة 5:00 الصبح.

– أنا في أوضةِ المكتب.. وقُدّامك نص ساعة تجهّز فيها.

– ليه؟ هنْروح فين؟

– هنْروح سَوا بيت عمّك.

- ليه؟!! مشْ عايز أروح.. أنا تَعْبان.

وأصرَّ والدى.. وأحسست أننى أعيش كابوسًا أسود.. ضربت رأسى في الوسادة، وبدأت أكلِّم نفسى:

- أروح بيت عمى!!! إيه السَّبب؟

لقد اختفيت منذ يوم القصة المأساوية، ولا أريد الذهاب هناك.. ولكن والدى يصر، ولا مناقشة ولا تفاهم.. وظل يروح ويجىء إلى غرفتى فى محاولة مستمرة لإيقاظى:

- يالّلا يا صلاح.. قُوم.. خُد دُش والْبس.

- حاضر.. حاضر.

أخيرًا، وبمنتهى التكاسل قمت، ولبست بعد دُش ساخن، وظللت أتساءل: ياه!! أروح بيت عمى؟ لماذا؟! ثم أنا لا أريد الذهاب إلى هناك!! لا أريد دخول هذا البيت لمدة عشر سنوات قادمة على الأقل!! من هناك يا تُرى؟

كنت أفكر فى إنها ستكون كارثة كبرى لو وجدت سلمى هناك.. وكارثة أكبر لو أحدهم سألنى عن الخاتم.. سوف أنكر صلتى بالموضوع نهائيا، ثم ماذا أقول لو حاصرنى معتز ابن عمى بالأسئلة؟

ألف سؤال وسؤال دار فى رأسى، منذ أصرَّ والدى أن نذهب إلى زيارة بيت عمى، صباح يوم مولد النبى. وعندما وصلنا، لم يكن الاستقبال بحفاوة كالمعتاد، وأعترف أيضا أنه لم يكن استقبالا باردا، ولكن بعد هذه المدة الطويلة، كان الطبيعى والمتوقع منهم الاحتفال القوى بحضورى.. وكان واضحا أن الموقف "متأزم" بعض الشىء.. وسألتنى زوجة عمى:

- تشرب إيه يا صلاح؟

- شكرا ولا حاجة.. كمان شوية.

في هذا اليوم تأكدت شكوكي في أن الجميع يعلم جيداً أنني أخذت الخاتم.. لقد قمت بهذه الزيارة من أجل خاطر والدي.. وسألت نفسي: لماذا وافقت؟ لماذا استسلمت لرغبته؟ لماذا خضعت لإرادته؟

أحسست أن الجو تملؤه موجات كهربائية، وأنني تعرضت لماس أقرب إلى صاعقة كهربائية.. وكان الكلام الموجه إليّ قليلاً من زوجة عمي.. وتبادلنا ابتسامات باهتة، ليست مثل كل الابتسامات التي تعودتها.. واستمرت زوجة عمي تُكَرِّر سؤالها لوالدي:

– نشرب الشاي دلوقتِ واللاّ بعد الغداء؟!

– نشرب دلوقت.

شربنا الشاي، ثم نادى بابا على سلمى فهي لم تشاركنا جلستنا.. جلست في غرفة أخرى، وهذا التصرف من جانبها لم يحدث من قبل أبداً.. ظلت تدخل غرفة وتخرج من الأخرى.. كأنها لا تريد مواجهتي بكلمة، أو أن تقع عيناها في عينيّ.. وكأنها هي سارقة الخاتم، ولست أنا.

ودارت عينيّ التائهتان في الغرفة التي شهدت رقصتي معها يوم الفرح.. واستقرت على ظرف وضعه والدي بجانبه.. كان يحمل هذا الظرف الكبير في السيارة، ولم أنتبه إليه.. تسمرت عيناي على الظرف، هل يحمل أوراقاً مهمة؟ ولماذا لم يتركه في السيارة؟ ومرة أخرى نادى على سلمى، وتبعته زوجة عمي التي قالت:

– تعالي يا سلمى.. عمّك عاوزِك.

– نعم يا عمي.

مد والدي يده بالظّرف قائلاً:

– امسكي يا سلمي، دي فلوس الشبكة بتاعتِك.

– لا يا عمي.. أنا مش عايزة أي حاجة.

– خُدي يا سلمي الفلوس.. وكفاية اللّي أنت إستَحْملتيه.

- فرحتي كانت بالخاتم اللي اشتراه حسن، ولا أي خاتم في الدنيا ممكن يكون زيه.

- أنا عارف يا سلمى من غير ما تقولي.. ومفيش أي فلوس ممكن تعوضك عن اللي حصل.. امسكي يا سلمى.

ساد الصمت الرهيب.. الكل يستمع إلى الحديث بينهما، دون تعليق بكلمة واحدة، وبعد تردد قالت:

- حاضر يا عمي.

وأخذت سلمى الظرف، بينما الدموع تتدفق من عينيها كالمطر، وأسرعت تجري إلى غرفتها، وكسر حاجز الصمت قول والدي، الذي ضربني في مقتل:

- ربنا يجازي اللي كان السبب..

20

دوامـــة

ياله من يوم!!

يالها من زيارة!!

ياله من كابوس!!

خرجت من بيت عمي، وأنا أشعر بهزيمة قاتلة، رغم أنه لم يوجه أحد إليّ كلمة واحدة.. بل لم يلمّح أحد بكلمة، ولم يلمني أحد.. ولكنى شـعرت بـأن المعاملة كانت جافة، على عكس ما تعودت.. وبكل صراحة، كانت هـذه أقـل عقوبة في مأساة بهذا الحجم.. ما فعلته كسر قلب سلمى يوم فرحها!! لقد دمرت فرحة العائلة بالكامل.

لقد جعلنى هذا الحدث المأساوى أفكر فى موقفى من الحياة.. لقد وضح لى أن لا شيء عندى غال أو عزيز.. وأننى أصبحت مثل أصحابى الذين كنـت أطلق عليهم صفة المدمنين.. قبل هذا اليوم كنت أرى نفسي غيرهم، وأرى أننى أستطيع فى أى وقت الرجوع عن هذا الطريق.. لكن أصبح واضـحا كالـشمس أننى مثلهم.. وأننى لا أستطيع الرجوع.

ما حدث منى، كنت أسمع عنه، ويدهشنى.. ولم يكن ما أسمعه بمثـل هذه الصورة البشعة!! أنا سرقت خاتم بنت عمي الماسى يوم فرحها.. يا نهـار إسود يا صلاح.. غاب الضمير.. مات الضمير.. أنت أدمنت فعلا.. ليس هـذا فقط، أنت أيضا اتجننت.. انتبه، السرقة أصبحت خارج المنزل.. وثبـت أيـضا زيف الجُمل التى كنت أردّدها لأصحابى مائة وألف مرة:

– لو حد له عندى فلوس، ييجى ياخدها.

– أنا مبسوط بالضرب.. لو مش عايز آخُد، مش هَا آخُد.

هذا مجرد كلام ليس له أى أساس من الصحة.. وكنت أشعر بالأسى لما يفعله بباباه، ولما يحدث من رامى، كلاهما يعز على حاله، و"يصعب" على أن أراهما في موقفيهما الضعيف المهزوم.. أصبحت مثلهما، وان الأوان أن "أصعب" أنا أيضًا على نفسى.

ويعز علىَّ ان أجدنى أمر بهذا الموقف الضعيف المهزوم.

أصبحت الدنيا مغلفة بالسواد، ولم أعد أرى شعاع ضوء واحدا، وعندما نزلت إلى أرض الملعب الموبوء، وفى دائرة صغيرة جدًا.. عرفت أن "فلان" بيضرب، و"علان" أيضا، و"ترتان" هو الآخر، والحقيقة المرة أن عدد الضَّرَّبية أصبح غير طبيعى.. فعلا المنطقة موبوءة، وفى كل عمارة كان هناك أكثر من شابين مدمنين، وربما اكثر، بالإضافة إلى الأولاد الصغار الذين يحاولون جس نبض الملعب، وفهم ماذا يفعل الذين هم أكبر منهم.. وبعضهم اقترب من المجموعات المكونة من شابين أو ثلاثة.. يلففون، وكل منهم يضع ما معه من نقود جمعية، ويتوجهون معا إلى أماكن مهجورة ومظلمة، تجرى فيها عمليات الشراء والضرب.

اكتشفت أن هذه المجموعات تجتمع قريبًا من بيتى، وعند كشك سجائر تجرى اتصالاتهم بالمدمنين الكبار، وخلال اللقاء بهم، يتبادلون الأخبار والخبرات، وأسماء التجار وأماكنهم، ومتى يشتغل هذا التاجر أو ذاك، وكم ثمن البودرة.. ويستمعون أيضا إلى قصص "فلان" الذى قُبض عليه، وآخر باع سيارته، والثالث باع الفيديو، والرابع الذى فقد حياته.. ومات.

أحكمت أمى حصارها.. قفلت غرفتها بالمفتاح، وأصبح والدى يخفى محفظته، وإذا فتحت أمى الباب، ودخلت الحمام، وفى أقل من ثانية أدخل الغرفة، وأخطف سلسلة ذهب أو أسورة، وأخرج من البيت قبل أن تخرج هى من الحمام.

أصبحت أستولى على النقود بكل الطرق.. ولكن الأمر يزداد صعوبة.. واسأل نفسى: إلى متى؟ وإلى أين؟ ما نهاية هذا النفق المظلم؟ وكثيرا ما أشعر بلحظات الندم خاصة بعد الضرب، فأبدأ فى كتابة الرسائل إلى أفراد إسرتى.. رسائل من يقرأها لا يفهمها، فالخط يرتجف، والسطور معوجة، والكلام نازل تحت وطالع فوق.

ولم يكن أحد ينقذنى فى الأزمات سوى مريم.. يااااه..

بدأت هى الأخرى تتعرض لضغوط ثقيلة لتوفر لى المبالغ المطلوبة، وكانت تستسلم، وتحاول، وتعمل المستحيل وتعطينى ما أريد.. ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل بدأنا نبيع الذهب.. باعت سلسلتين، وأكثر من "غويشة"، بالإضافة إلى "إنسيال"، ثم الثانى.. وبالطبع فهمت أننى امرٌ بمشكلة، وأننى مدمن.. لم تعد تشك فى هذه الحقيقة.. لكن حبها لى أكبر من أى مشكلة، وأعطتنى الأمان والإحساس بأنها لن تتركنى، مهما كانت المشكلات والأسباب.

لم أكن أفهم سر حبها، ولم أكن أفهم لماذا تتحمل كل هذا العناء؟ نعم، هى طيبة ونقية، وتشعر أننى أحافظ عليها، ولست مثل أصدقاء صاحباتها، الذين خدعوا البنات البريئات، كل بطريقته، وصارحتنى بقولها:

– على أد ما أنا زعلانة على حالك واللى إنت فيه، على أد ما أنا سعيدة لأنى أنا الوحيدة اللى واقفة جنبك.

فعلا، كانت هى الوحيدة التى تقف معى.. ولا أحد غيرها من البنات.

هذه السنة كانت مريرة، ثقيلة، وأيامها سوداء، والمنحنى ينزل بمعدل غير طبيعى، وإذا توقفت عن التعاطى يوما أو يومين، أعود للضرب فى اليوم الثالث بمعدل أعلى، وكأننى انتقم من نفسى، وبعد أن كان الضرب مرة واحدة فى اليوم، ارتفع إلى مرتين وأحيانا ثلاثا، وكله يعتمد على ما معى من نقود.

بدأت أرى أصحابى من ضربِّية الجامعة كثيرا، بعد أن اكتشفوا أننى أستطيع بيع الأشياء، التى يريدون التخلص منها لتوفير النقود لشراء البودرة،

وكنت أصطادهم وأضرب معهم.. طبعا لم يكن من السهل أن أجد 100 جنيه كل يوم لشراء البودرة.. الأمر أكثر صعوبة بعد أن أصبحت مكشوفا.

وكان مصطفى هو صديقي الوحيد الذي استمرت علاقتي به رغم ما حدث في حياتي من تدهور، وكنت أخشى عليه من الوقوع في هذا المنزلق، وقد أكد لي إحساسي الشخصي أنني بدأت أغرز في هذا المستنقع، وجعلني أرفض أن تنزلق قدمه ويقع في الهاوية، ولا أنسى أبدا الحديث الذي دار بيننا، قال لي مصطفى:

- يا أقولك إيه.. أنا عايز أضرب.

- بص يا مصطفى.. الموضوع ده كمين، وأنا خلاص اتمسكت.. عايز أخرج منه، بس المشكلة إني مش عارف ها اخرج إزاي وامتى!! خد نصيحتي.. كفاية.. إنت جربت وعرفت وشفت.. اللي أنا فيه وحش جدا يا مصطفى.. ناس كتير بتقع اليومين دول.. ناس بالهبل بتقع.

- يا أخي ما تخافش.. إنت عارف أنا باضرب كل فين وفين.

- ما إنت عارف برضه.. أنا كمان كنت باضرب كل فين وفين.. ياريتني أقدر أكون مكانك.. والله العظيم ما كنت ضربت.

- يعني ولا المرة دي بس؟! مرة أخيرة.

- أنا من سنين باضرب.. وكل يوم أقول لنفسي دي المرة الأخيرة، وعمرها ما كانت الأخيرة.. إسمع كلامي وعلشان خاطري.. أنا مش عايزك تبقى في اللي أنا فيه.. الطريق أسود.. وطول عمري كنت واقف في مكانك ده.. وكنت مبسوط بيه جدا.. وكنت دايما باتريق على الناس اللي وقعت، واقول: "أنا لا يمكن أعمل زيهم". أنا أبطل في أي وقت، بس أنا مش عايز أبطل، أصل همّا ما عندهمش إرادة.. وقال إيه كمان، طول الوقت أحكم عليهم: إنت يا فلان خلاص بتموت.. طيب يا أخي ما تخش مستشفى.. وبالمنظر اللي أنت فيه ده، الحكومة مش هتسيبك.. وفلان ده.. أنا مش عارف أهله سايبينه كده إزاي؟ بص

بقى عامل إزاى؟ فاكر يا مصطفى رامى صاحبى؟ تخيّل إنه بقى مُرشد للحكومة!! تخيل!!

- رامى؟! ريكو؟!!

- أيوه يا مصطفى، جنّدوه، علشان يبلّغ على التجار الجداد، وعلى العيال الضرّيبة، الظابط أمهل له يجيب واحد يجنده مقابل إيه.. إنه يسيبه يضرب وما يقبُضش عليه.

- طيّب.. ورامى أهله سايبينه كده إزاى؟

- يعنى أنا أهلى سايبنى كده إزاى؟ خلى بالك، بينى وبينه خطوة.. أو خطوتين، مش أكتر.

- وبعدين يا صلاح؟ هتعمل إيه؟

- مش عارف.. أول مرة يا مصطفى أبقى مش عارف.

قبل أن تمر أربع وعشرون ساعة على هذا الحوار مع صديقى مصطفى، ذهبت إليه فى الجامعة، فوجدته ينتظرنى بالقرب من الباب الرئيسى، وقبل دخولى نادانى بإشارات سريعة:

- إمشى منْ هنا بسرعة.. إمسك على كل الأبواب.

- أبواب إيه؟

- أبواب الجامعة كلّها، فاكرينك معانا فى الجامعة.

- هو فيه إيه يا مصطفى؟ أنا مش فاهم حاجة!!

- مسكوا كل الناس اللى شاكّين إنهم بيضرّبوا، وأخدوا منهم عيّنات للتحليل، وأنا منهم، إنما الحمد لله أنا ما أخدتش إمبارح، كان زمانى مرفود.. أخدوا منى العيّنة وبقالى ساعة مستنّيك، خايف تيجى وتدخل يمسكوك.

- يمسكونى ليه؟

- فيه عيال قالوا إن إنتَ بتبيع فى الجامعة.

- مين ولاد "....." دول؟

- مش مهم مين دلوقت.. المهم تمشي من هنا علشان ما حدش يشوفك.. خصوصاً إن إنت عربيتك معروفة للكل.

- طيب بقولك إيه.. اديني 100 جنيه لحسن مفيش معايا ولا مليم، وعايز أضرب.

- إمسك.. معايا 70 جنيه.. خدهم كلهم.. خلي بالك من نفسك.

- ماشي.. سلام يا مصطفى.

وبذلك أغلقت الجامعة.. التي كانت تساهم في حل مشكلات كثيرة أبوابها في وجهي.. وبات من الواضح أنني احترقت فيها هي الأخرى.

وأصبح موقف أمي أكثر صعوبة.. تحرياتها مستمرة طوال الوقت، وكل يوم التحقيق معي لا ينتهي.. ومضاف إليه التفتيش ومراقبة كل حركة وهمسة.. احتارت في أمري، ماذا تفعل مع بني آدم، عمره أكثر من 25 سنة، ضايع وفالت زمامه؟!! كيف توقفه عند حده؟! كانت تقضي ساعات طويلة معي في مناقشة المأساة.. وأنا ضارب تسمع مني أحلى كلام.. وأنا ضارب موافق على كل شيء، ودائما على استعداد للتغيير من الغد.. أعد بهذا في كل جلسة، ولكن هذا الوعد لم يأت ميعاد تحقيقه أبدًا.

يا حرام.. أمي كانت تنفخ في قربة مقطوعة، وكل ما تقوله ليلا، وكل ما أعد به، أنساه تماما في اللحظة التي استيقظ فيها، وأبدأ في التخطيط للحصول على النقود، وأرسم خطة للخروج لشراء البودرة والضرب والتعاطي.. ورغم كل ما حدث، ويحدث مني، لم تفتح الموضوع مع والدي، ولست أدرى لماذا أخذت هذا الموضوع الخطير على عاتقها؟ لماذا تحملت هذا العبء الثقيل وحدها؟! وشاركتها أختي المسكينة رولا.. أما أخي كريم فكان يعمل ويدرس في إنجلترا، ولا يعرف أي شيء عن أي شيء.

ذات صباح، ذهبت إلى حسام وفاجأته بقراري:

- حسام، أنا قررت أبيع العربية.

- يا راجل؟
- وايه يعنى.. فى ستين داهية.. وأنا أصلاً كرهتها.
- طيب وهتبيعها لمين؟
- معرض عربيات.. نبدلها بعربية صغيرة وناخد الفرق.
- أنا أعرف واحد هنا فى مصر الجديدة.
- ياللا بينا نروح له.

ذهبنا وقد كان، وقال حسام بعد رحيلنا من المعرض:

- معقول؟! نبيع عربية فى ربع ساعة وناخد بدالها عربية 127 بجنب واحد؟
- وايه يعنى.
- حتقول لأهلك إيه؟
- وهمّا مالهم.. دى عربيتى وبعتها.
- لا يا حبيبى.. إسمك فوّرتها.
- يقول لك إيه.. بعتها.. فوّرتها.. ولعتها.. محدش له دعوة.

أخذنا الفلوس.. واشترينا كمية لا بأس بها.. المشكلة إن أى مبلغ لا يكفى إلا أياما قليلة.. وبعد يوم واحد من بيع العربية، كانت البودرة التى معى كثيرة، وطفاسة أخذت جرعة كبيرة، ضربت و"أفورت" ووقعت على الأرض فى المطبخ.. حدث هذا فى البيت للمرة الثانية، وعندما دخلت أمى المطبخ وجدتنى جالسا على الأرض، وكنت جاهدا أحاول الوقوف، فسألتنى فى لهفة:

- مالك؟! فيه إيه؟
- مفيش حاجة.. خبطت فى التلاجة، فوقعت على الأرض.
- إيه ده؟ وريني؟ عندك سنة إتكسرت.
- بجد.. إزاى؟
- أسمع، إنت خلاص.. لازم تسيب البلد دى وتسافر.

جريت على غرفتى ليس لرؤية السنة المكسورة، ولكنى أردت أن أنفرد بنفسى ولو لدقائق معدودة.. هل فقدت عقلى؟! ماذا فعلت؟ كيف أخذ جرعة كبيرة بهذا الشكل؟ هل كنت أريد الانتحار.. لا أعرف، وهل المشكلة فى البلد؟ لأ طبعا.. المشكلة ليست فى البلد.. المشكلة فىّ أنا شخصيًا.. إنما قد يكون فى هذا السفر الحل للمشكلة، وعلى أمل أن ينجح، قالت أمى:

– أنا فكّرت فى الموضوع، وهو دا الحل الوحيد.. ومفيش غير كده.. هتسافر أمريكا، عند خالك ممدوح.

ولأول مرة أعرف أنباء سفر خالى ممدوح إلى نيويورك للعمل، واستكمال دراساته العليا.. أذهلنى النبأ، الذى لم أسمع به من قبل.. وكيف لى أن أعرف أخبار عائلتى التى لا أتعايش معها؟! واستمرت أمى فى حديثها قائلة:

– إنت تروح عند خالك شهرين لغاية ما تقف على رجليك، وبعدها تعتمد على نفسك، وهناك تبنى مستقبلك، ولو أنت مصمم إنك تاخد مخدرات وتعيش الحياة الفاشلة دى، إنت حر.. تعيش.. تموت.. تتسجن.. تتجنن، تدخل مستشفى.. إنت حر.. بس خد بالك، كل ده من غير ما يأثر على حياة خالك، وعلى مستقبله، وعلى عيلته.. أنا خلاص، عملت اللّى علىّ.. وإنت أعمل اللى عليك.. أنا قررت أكلّم خالك وأقول له.. وإنت من بكره تروح على السفارة، تاخد التأشيرة، ومع ألف سلامة.

مسكينة يا أمى.. الصدمات أكثر من احتمالها.. وهى تتحمل المشكلة وحدها، بالإضافة إلى الإحساس بالفشل، فاضطرت إلى أن تستعين بشقيقها الوحيد ليساعدها فى هذه المحنة.

أما أختى رولا، حياتها هى الأخرى تحولت إلى مأساة كاملة.. ولا أراها إلا وهى باكية.. طوال الوقت تبكى، ثم تبكى، ثم تبكى.. كانت تقضى معى الساعات بعد التعاطى.. تتكلم معى برقّة وحنان، فى محاولة صادقة بإقناعى أن أتوقف عن التعاطى، وتقسم لى إنها على استعداد لأن تفعل أى

شيء، وكل شيء، وفي كل مرة، أؤكد لها، وأعدها وعدا مضاعفا، بأنني سأتوقف نهائيا، وتصدقني.. العجيب حقا أن تصدق وعودي.. ولكن لا عجب، فهي أطيب إنسانة في الدنيا كلها.

حقا إنها إنسانة جميلة، ومظلومة معي، وفعلا كنت أشفق عليها.. وكلما دخلت عليها غرفتها، أجدها تمسك بكتاب أو صحيفة تقرأ، وتبكي.. تقف أمام المرآة، وتبكي.. وتبكي.

وفي تلك الأيام ، كان والدي كثير السفر إلى الخارج للتعاقد مع الشركات الهندسية العالمية.. وبالتالي لم يكن يدري شيئا عما يحدث، ولكنه يشعر بأن هناك مشكلة.. ولأنه يفتقد الخبرة في مواضيع التسيب والانفلات.. لم يمر بخاطره أبدا أنني أتعاطى هيروين.. ربما بعض الشك في شرب الخمر أو الحشيش فقط.. ولكن هيروين.. فهذا هو المستحيل، ولا يرد على البال والخاطر.

وعندما عرفت أمي بنبأ بيع السيارة، وشراء سيارة أصغر، لم تهتم.. لقد خرج الموقف من يدها، ولا شيء يشغل تفكيرها إلا موضوع السفر، وفي أسرع وقت.. وفي يوم ما، وجدتها تجلس مع مريم.. هل جاءت إليها متطوعة لتهدئ من روعها، أم استدعتها؟! لا أدري.. لقد دار بينهما الحوار التالي، كما عرفت من مريم فيما بعد:

– طبعا كل المواضيع واضحة، ومش عايزة شرح.. صلاح لازم يسافر في أسرع وقت.

– أنا رأيي كده برضه يا طنط.

– أنا كلمت أخويا وشرحت له الوضع بوضوح.. أنا كمان مش عايزة أسبب له مشاكل، إنما مضطرة.

– وهو قال إيه يا طنط؟

– هيقول إيه؟! طبعا رأيه إن دي آخرة الدلع اللي صلاح إتدلعه.

- الظاهر كده فعلاً.

- إنما قلت له مفيش حد ألجأ له غيرك، وأعمل اللّى ربنا يقدرك عليه.. وفهمته إن صلاح اللّى أنت سبته هنا من سنة، اتغير، ومش هو صلاح اللّى هيسافر له.

- وقال إيه يا طنط؟

- ممدوح أخويا راجل شهم، وقال لى خليه ييجى، وأنا ها أشوف أقدر أعمل إيه معاه.. بس فهمته كويس إن صلاح بقى بنى آدم تانى.

- والله يا طنط، صلاح كويس، بس لما بيكون فايق.

- المشكلة يا مريم إنه خلاص مش قادر يفوق.. صلاح أدمن.. عارفة يعنى إيه أدمن؟! لا حول ولا قوة إلا بالله..

- إن شاء الله يا طنط نعدّى من الكابوس ده.

- يارب.. أنت مش متخيلة أنا بادعى له أد إيه.

- وأنا كمان والله يا طنط.. وإن شاء الله بعد ما يسافر، أنا هاسافر أعمل عمرة، ومش ها اعمل حاجة فى الكعبة غير إنى أصلّى وأدعى له.

- أخته انهارت خلاص.. رولا بتحب صلاح أكتر من أى حاجة فى الدنيا.. توأم، إحساس محدش يعرفه غيرها.

- ربّنا يسترها يا طنط.. إن شاء الله يخرج من الكارثة دى.

الخطة أصبحت واضحة ويجرى تنفيذها بدقة.. لقد تقرر السفر إلى أمريكا، وانتهى الأمر.. وكان رد الفعل إن الزمام أفلت منى، ومن الجميع، وقد احتاجت الإجراءات ستة أسابيع، خلالها، كنت أتعاطى بشكل هستيرى، أحيانا ثلاث وأربع مرات في اليوم، وأيضا بعت السيارة الصغيرة دون علم أمى، وصرفت فلوسها كلها حتى آخر مليم.

وفي هذه الفترة توطدت علاقتى بجارى شريف "ملك الفرز" اتصل به أو يتصل بى، للذهاب إلى بولاق، أو الكحكيين لشراء البيسة.. وقد نجحت فى الحفاظ على مظهرى أمام والدته، وفى رأيها أننى من أفضل أصدقائه، وتشجعه

على الاتصال بي كصديق وفي، ومن عائلة محترمة، ولم تكن تعلم أني أتعاطى أي مخدرات، ولم ينجح شريف في الحفاظ على هذا المظهر أمام والدتي، فقد حضرت في يوم إلى المنزل فجأة، بعد أن تعاطينا الحقن منتشرة، كنا في حالة نشوة وشبه غيبوبة.

وجدتنا جالسين في غرفة المعيشة، وشريف يمسك بتفاحة في يده، ولكنه لا يستطيع أن يرفع يده ليأكلها، وكان الأسهل بالنسبة له أن ينزل برأسه إلى يده التي سندها على قدميه كي يستطيع أن يأكل التفاحة، وفي يده الثانية سيجارة يدخنها، وبالطبع مكان الطفاية هو الأرض.. وفي الركن الآخر كنت نائما على الكنبة، وأضع قدمي على كرسي صغير، واستندت برأسي إلى الكنبة، مستمعا إلى الموسيقى، وفي يدي سيجارتين، واحدة مشتعلة والثانية جديدة، حتى لا أقوم بأي مجهود لإحضار سيجارة أخرى، وأمامي "طفاية" السجائر، ويتضح منها أننا شربنا على الأقل 20 سيجارة.

دخلت أمي، وفي أقل من ثانية فهمت الموقف بوضوح، وصاحت بغضب:

– إيه ده؟! إيه اللي إنتم فيه ده؟!

– إيه يا ماما، مالك؟! ده شريف.. كويس خالص.. ده زي الفل.

انتبه شريف بصعوبة، وبصعوبة بالغة ألقى التحية:

– إزيك يا طنط.

لم ترد أمي وكأنها لم تسمع، لكنها استمرت في ثورتها قائلة:

– انزلوا من هنا حالا.

– حاضر يا ماما.. إحنا كنا نازلين فعلا.

غادرت أمي الغرفة وذهبت إلى غرفتها.. فسألني شريف:

– هي مالها.. زعلانة ليه؟

– أكيد عرفتنا.

- ليه يا عم.. ما إحنا زى الفل آهه.

- تفتكر؟!

وكأننا نعيش فى عالم الأحلام، ولا أحد منا يستطيع تمييز أى شيء يحدث حوله، تماسكت.. وأغلقت التليفزيون والفيديو ونزلنا نطوف الشوارع بلا هدف، ومرت علينا أيام وأسابيع، ولم يتخللها أحداث جديدة وكنا نضرب كل يوم وبشراهة.

فى تلك الفترة رفعت أمى يديها عنى.. فقد كان اهتمامها الأول والأخر كيف ننتهى من إجراءات السفر بسرعة.. وأحيانا كانت تفاجأ بدخول أشكال جديدة وغريبة في بيتنا.. أصحاب كأنهم نسخة مكررة منى، وبلا تردد أو مراعاة لأية قواعد، كانت تتبعها من قبل.. تفتح الباب فوراً، وتطردهم قائلة:

- اطلعوا برّه.. مش عايزه أشوف حد منكم هنا.

وعندما عاد والدى من رحلة من رحلاته الكثيرة، فوجيء بقرار السفر إلى أمريكا، وبالاتفاق مع خالى ممدوح على استضافتى لفترة ما ثم أسافر إلى أصحابى فى كاليفورنيا.

وافق والدى.. لم يمانع رغم أن فكرة السفر والحياة فى أمريكا لا تعجبه أصلاً، ولا تتفق مع مبادئه وآرائه، ولكن حجم المشكلات التى سببتها لهم جميعا كان كبيراً، ومن المحتمل أن يكتب لى النجاح فى هذه القارة، وأستطيع بناء مستقبلى هناك.. كما أن رولا شجعت أيضا فكرة السفر بسرعة؛ فهى تشعر أننى لو لم أسافر سوف أفقد حياتى كلها، أو يقبض علىّ، وأعيش وراء الأسوار بقية عمرى.

قبيل السفر لم أتوقف عن التعاطى، وأعددت نفسى تماما للسفر.. حقيبتى وضعت بها كل ملابس الصيف والشتاء، سأسافر بلا عودة.. ماذا فعلت بنفسى بهذا الإدمان، الذى حطمنى والتهم صحتى وابتسامتى؟! لم تتوقف رولا عن البكاء.. ولكنه كان بكاء يلفه الأمل هذه المرة.. وشاركتها مريم البكاء،

وفي رأيها أن هذا التغيير أفضل مما يحدث لي هنا. وأنه قد آن الأوان لهذه النقلة.

وكانت أمي أحسن حالا، وأكثر اطمئنانا، وقررت أن تستعد للسفر لأمريكا وتلحق بي بعد شهر.. بداية لتطمئن تماما على الموقف والوضع الجديد، ومصيري في هذا العالم، ثم لتزور شقيقها الوحيد وأسرته. وبطبيعة الحال.. فإنها في حاجة إلى هدنة بعد هذه الحرب التي خاضتها، وفرضت عليها رغم أنفها.

21

رحيـــل

رفضت أن يذهب أحدهم معى إلى المطار، وهم أيضا فـضلوا هـذا، وكان يوم الوداع فى بيتنا مؤثرا فوق الوصف والكلام.. شد والدى علـى يـدى بقوة، وقال لى:

– شد حيلك.. ابنى مستقبلك، وبعد كدا ارجع بلدك ناجح رافع راسك.. إنت مش أقل من إخواتك، بالعكس إنت أذكاهم، أنا مربيكم إنتم التلاتة، وعارف إنك فعلا أذكاهم.. وربنا يوفقك.

رولا.. لم تتكلم.. إنها تبكى.. وأمى أخذتنى فـى أحـضانها، وبـين ذراعيها، سمعت منها الوصايا العشر:

– ماتسيبش أى مشاكل لخالك.. خالك عنده شغله وعنـده دراسـته وسـمعته، وأسرته وأولاده.. دى فرصتك، اخرج من المستنقع، وابدأ حياة نضيفة وجديدة، وانا هنا جنبك وأحصتك وترتب كل حاجة.. الأولوية صحتك.. رجـع صـحتك الأول.. وبعدين اشتغل.. وعدتنى كتير، وأخلفت وعدك كتير.. افتكـر إن الوفاء بالوعد مهم إذا كان الإنسان.. إنسانا بحق وحقيقى.. ممكن المرة دى تنفذ وعدك؟

– إن شاء الله يا أمى.. ادعى لى إنت بس.

– بادعى لك، فى كل يوم، فى كل ساعة، فى كل دقيقة.

لكن من الذى أصر على توصيلى للمطار؟! صديقى مصطفى.. صـمم أن يصحبنى إلى المطار، وكانت أمى مطمئنة؛ لأنها واثقة أن مصطفى إنـسان ممتاز، ولا يتعاطى المخدرات.. وفى طريقنا إلى المطار قال لى:

– هتوحشنى يا صلاح.. بس الحمد لله أنك هتسافر وتبعد من هنا.

- خلاص، خربتها يا مصطفى.. ولعبت الدنيا.. وفعلا لازم أمشى.

- إنت هتعمل إيه.. وناوى تروح فين بعد ما تمشى من عند خالك؟

- معرفش أى حاجة.. أهم حاجة إنى أبطل.. دا الهدف الأول والأخير.

- يا أقولك إيه يا صلاح.. أنا عايز أشكرك.

- بتشكرنى؟ على إيه؟! دا أنا أخدت منك كمية فلوس!!

- فلوس إيه بس اللى انت بتتكلم عليها؟! أنا عايز أشكرك لأنك ماجرتنيش معاك في الضرب، أنا فعلا مش عارف كان زمانى فين دلوقت؟ وكان مصيرى إيه؟ ناس كتير أوى فى الجامعة ضاعوا، يوم ماتكلمنا سوا، وكنا مع بعض فى الجامعة، والكلام اللى دار بينا، أنا عذرى ما هنا انساه، وكان لك حق فى كل كلمة قلتها لى.

- البودرة دى خراب خسرانة يا مصطفى.. شفت أنا كنت فين من كام سنة، والنهارده أنا فين؟ لعلمك، دا ربنا سترها معايا، كان ممكن أكون فى السجن أو ميت.

- إنت لازم تبطل يا صلاح.. لازم.

- ياريت يا مصطفى.. بجد ياريت.

وصلنا إلى المطار وأخذنى بالأحضان، وشهدت صالة المطار أجمل لحظات الوداع المؤثرة بين صديقين، ووعدنى ووعدته أن نتبادل الرسائل من حين إلى آخر.. ومشيت بعيدا، بعيدا واحتضننى الأسى، وقدمت جواز السفر. وأحسست أن عينىّ تبكيان بغير دموع.

عندما حلقت الطائرة فى سماء القاهرة، سمعت دقات قلبى، وغسلت وجهى بدموعى، وتمت باكيا حتى وصلت الطائرة مطار أمستردام.. وبسرعة حصلت على فيزا ترانزيت، وانطلقت خارج المطار محاولا البحث عن البودرة.. وهناك بعيدا.. وبعد ما يقرب من ساعة، وتحت أحد الكبارى الصغيرة رأيت ثلاثة شباب.. على الفور وبالخبرة عرفت وأيقنت أننى وصلت إلى

هدفي.. أسرعت إليهم واشتريت البودرة والسرنجات، وفي ثوان معدودة ضربت، وطيران على المطار.. ومن أمستردام إلى نيويورك، ونزلت في مطار كيندي، وكنت في حالة إعياء تام من كم الجرعات التي تعاطيتها، وهناك سألني مسئول المطار:

- شكلك عيان!!

- دور برد وسفر مُرْهِق.

- إنت جاي أمريكا ليه؟

- خالي بيشتغل هنا، وجاي أزوره واقعد معاه شهرين تلاتة.

وسجلوا اسمه، وعمله، وعنوانه، ولم أكن متماسكا، فنادوا على خالي في الميكرفون، فأصابه الهلع في تلك اللحظة، تخيل أن هناك كارثة؛ خاصة أنه قد فهم الوضع من أمي، فشعر برعب حقيقي.. دار في ذهنه بسرعة البرق أن صلاح بالتأكيد جاء بمصيبة، لكن في حقيقة الأمر أنهم أعلنوا هذا النداء كوسيلة لمساعدتي، وبمجرد أن رآني سألني:

- فيه إيه يا صلاح؟ إنت معاك حاجة ممنوعة؟

- ماتخفش.. مفيش معايا أي حاجة خالص.

سلم عليّ بحرارة، وأخذني إلى سيارته ودار بيننا حديث هادئ.

- إزيك يا صلاح.. أخبارك إيه؟

- والله أخباري مش كويسة.. أكيد ماما حكت لك كُل حاجة.

- هي حكت لي، بس أنا عايز أسمع منك.

- ماكنتش أعرف أن البودرة دي مصيبة.. ماكنتش أعرف، أخدت مرة.. في التانية في 10، في 100، في 1000، لغاية ما خلصت وخربت الدنيا.

- وبتعدين؟ ناوي على إيه؟

- عايز أبطل.. حاولت كتير.. بس كل مرة بارجع تاني.

- معاك مخدرات؟ مش عايزك تكدب عليّ علشان أعرف أساعدك.

- لا.. مفيش معايا مخدَّرات.. لو معايا كنت أخدتها.

- آخر مرة أخدت إمتى؟

- قبل ما أركب الطيارة في هولندا.. أنا خايف من اليومين اللى جايين.. أنا مش عارف ها اعمل إيه؟! أنا ها اتعب أوى.

- أكيد.. من أعراض الانسحاب.

- أفندم؟

- طبْعا حيتْعَب بسبب أعراض انسحاب المخدرات من جسمك.

- وإنتَ عرفت الكلام ده إزاى؟

- قَريت شوية، ما أنا كان لازم أفْهم فيه إيه!

- أنا ناوى استَحمل، ماعنْديش اختيار.

- أنا حاولت آخد أجازة عشان أكون جنْبك، بس ماعرفتش.. على العموم النّهارده الخميس، وبُكره عنْدى شغل والسبت والحد إحنا مع بعض.

وصلنا إلى بيت خالى، فيلا صغيرة حولها حديقة جميلة.. وكان الجو باردًا، وآثار الثلج فى كل مكان، وقبل أن ندخل البيت، قال لى:

- على فكْرة، رغدة ماعنْدهاش فكرة عن أى حاجة خالص، مارضيتش أقولهـا، غير لو أنت عايز تقولها.. أنا ماعنْديش مشكلة.

- كويِّس أنك ما قلتش.. طبعا مش عايزها تعْرف.

استقبلتنى رغدة بحفاوة وترحيب كعادتها، وأول حاجة قالتها لى:

- إنتَ مالك خاسِس كدا ليه يا صلاح؟

- مِش باكُل كويس.

ولأول مرة أشوف أولاد خالى: أشرف وشريفة.. أنا شُفت صورهم فى القاهرة مع أمى، ولكنهما أجمل من الصور ألف مرة.

ومر اليوم الأول دون متاعب لأن المخدرات لازالت فى جسمى.. وفى اليوم الثانى، بدأت أشعر بالتعب: عرق شديد، إسهال، صداع، برد، تكسير

بكاد يحطم عظامي وضلوعي، وبصعوبة تمت ساعة واحدة، تحملت الآمي بكل قواي، ولم أخرج من البيت في اليوم الثالث، ولا ثانية واحدة.

بصراحة.. أحسست أنها فرصتي، التي يمكنني استغلالها، وفعلاً أحاول التوقف عن التعاطي.. ومر أول أسبوع بصعوبة حقيقية، فقد عانيت من موجات الاكتئاب.. وتحسن الحال في الاسبوع الثاني، وأحسن وأحسن في الأسبوع الثالث، وأصبحت قادرا على النوم المتواصل لمدة 6 ساعات، وهذا ما كنت أتمناه.. فقد كنت لا أنام أكثر من ساعتين أو ثلاث على الأكثر.. تحسنت صحتي وازداد وزني 5 كيلو جرامات.. الفارق كبير الآن.. لكن الهالات السوداء تحت عيني لازالت موجودة، أنا أفضل كثيرا وكم أسعدني البقاء في بيت خالي، لأول مرة منذ فترة بعيدة أحس بالأمان، والراحة، والدفء، والهدوء.

أخيرا توقف الجري خوفا، واللهاث والقلق.. أخيرا أستطيع الجلوس هادئا، ومستمتعا بالهدوء ودون صخب من أي نوع، وأقول لنفسي:

- كان فين الكلام دا من زمان؟ كان فين؟

خالي ممدوح.. كان كريما، لطيفا، محبا، ودودا معي إلى أقصى درجة.. وهكذا كانت زوجته رغدة، وأولاده الصغار، مسليين جدا، حقا إنها عائلة جميلة، وربنا يحميهم جميعا.

بدأت ألتقط أنفاسي، وأستجيب للدعوات التي تُوجّه لي مع خالي في اجازة نهاية الأسبوع، وكنا نخرج في رحلات، ونستضيف الأصحاب، وأقف في استقبالهم.. أخيرا عاد صلاح وأفاق من غيبوبته.. أخيرا استطاع صلاح أن ينام ويقف على قدميه.. أخيرا أصبح الصباح يُصبّح عليّ، وأعيش النهار.

الاتصالات التليفونية من أمي وأختي رولا مستمرة يوميًا من بداية رحيلي وسفري، وطبعًا هذه اللهفة مشروعة بعد كل هذا العذاب الذي سببته لهما.. كان معهما كل الحق في شعورهما بالقلق، وفعلت مريم الشيء نفسه..

تكلمني كل يومين أو ثلاثة، وتبعث برسائلها المطولة، وتكتب يومياتها، وكيف تعيش حياتها يوميًا.. كانوا جميعا سعداء عندما اطمأنوا من خالي شخصيا.

وبعد شهر جاءت أمي.. وصلت بالسلامة، ولم تصدق عينيها عندما رأتني.. الوجه مضيء، أجلس بهدوء، وأتكلم بهدوء.. إنسان صحي وشخصية جديدة مختلفة.. وقضينا معا أجمل الأيام، وبعد أن مر الشهر الثاني، قلت لنفسي: حان وقت الرحيل.. إنهم جميعا يرحبون بوجودي بينهم، وبصراحة لم أكن أريد مغادرة هذا البيت الآمن، ولم يطلب أحد مني هذا.. إنما أنا الحمد لله استعدت وعيي، ولا يجوز أبدا أن تستمر حياتي هكذا في حالة من حالات البطالة.. لقد حان الوقت أن أبدأ من جديد، وأصنع مستقبلي وأبنيه.. ثم في البداية والنهاية، لقد أدى أهلي واجبهم نحوي.. وكما يقال دائما في مثل هذه الحالات عملوا اللي عليهم وزيادة.. لقد آن الأوان أن أتوجه إلى أصدقائي في كاليفورنيا لأبدأ حياة جديدة.. ورحب صديقي رأفت بالفكرة، وهو يعيش في كاليفورنيا منذ ثلاث سنوات، والحياة كفاح ومازال في أول الطريق.

ذهبنا إلى المطار، ولم تكن لحظات الفراق سهلة، بل صعبة، وقبلتني أمي وهي في غاية السعادة، وفي أعماقها إيمان قوي بأن المشكلة قد تم حلها أخيرا، وأنها كانت أزمة كبيرة "وعدت".. وبعد أن سمعت وصاياها العشر، منحتني خمسة آلاف دولار.. نفقات ايجار شقة صغيرة، والمأكل والاحتياجات الأخرى حتى أبدأ العمل.

في تلك الأيام، كان مبلغ الخمسة آلاف دولار مبلغًا محترمًا، ولم أشعر بالقلق من الناحية المادية، فأنا أعرف جيدا كيف أدبر وسيلة عمل، واكسب وأغطي احتياجاتي بلا متاعب أو مشكلات.

استقبلني الأصحاب بصدر رحب، وكنت في ضيافتهم لعدة أيام، إلى أن أنظم أمور الحياة.. واشتريت سيارة جميلة "هوندا" بسعر معقول، وفي حالة ممتازة، وتوجهت إلى الجامعة؛ للتعرف من خلال الإعلانات إلى العائلات التي

تطلب إيجار الغرف في بيوتهم للطلبة.. كان منها إعلان صاحبه عازف جيتار في إحدى الفرق الموسيقية، ويعيش مع والدته في فيلا صغيرة.. حولها حديقة جميلة، وقابلت والدته.. وسألتني عن دراستي، وعن أهلي، وطبعا إجاباتي كلها تؤكد إنني شاب ممتاز، ومن أحسن عائلات مصر، وهذه حقيقة، وجاء أمريكا بلد الأحلام، يتعلم، ويعمل ويبني مستقبلا، ويكون ثروة.. إنه الحلم الأمريكي.. أعجبتها، واتفقنا.

في اليوم نفسه أخذت حقائبي من عند أصحابي، وذهبت لأعيش مع هذه العائلة الصغيرة.. أحبتني الأم، وكذلك ابنها ريتشارد عازف الجيتار، وأنا أيضا أحببتهما.. وبسرعة البرق ربطتني علاقة صداقة مع ريتشارد، واتفقنا أن نخرج معا ليعرفني إلى أصدقائه.. خرجت مع ريتشارد.. أخذني في سيارته، واستمعنا إلى الموسيقى وطلع "جُوينت" وسألني:

– بتشرب؟!

توقعت هذا الموقف، بل وتمنيت أن يحدث هذا الموقف، بالقدر نفسه أو أكثر قليلا تمنيت ألا يحدث.. بالتأكيد لاعب جيتار في فريق موسيقى.. بالتأكيد يتعاطى المخدرات.. مددت يدي وأشعلت "الجُوينت".. وأخذت نفسين، ثلاثة.. فقال:

– إيه ده؟! هاتْ.. هاتْ.

ضحك، وضحكت.. وأعطيته "الجُوينت".. نفسين في نفسين، وانتهى أمره، وأشعلنا الثاني، ووصلنا إلى البار، وكنت الوحيد غير الأمريكي.. ودارت الموسيقى وأكواب الشراب، والماريجوانا.. والبنات.. يا نهار أبيض.. يالها من سهرة، ليست على الخاطر أو البال.. واحتفل أصدقاء ريتشارد بوصولي إلى كاليفورنيا، ووجهوا لي الدعوة لحضور حفلاتهم.. وطبعا رحبت.

ربطتني وريتشارد علاقة صداقة قوية.. كنا نخرج معا كثيرًا وساعدني في استخراج رخصة القيادة، وفتح حساب بالبنك، والشيكات، والحصول على

بطاقة الائتمان.. وبصراحة ساعدني بكل ود ومحبة، بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك شيء يشغله سوى الموسيقى وحدها.

قضيت شهرًا بهذا الأسلوب إلى أن وجدت عملاً في محطة بنزين أعمل بها ليلاً.. وكبداية، لم يضايقني هذا العمل، كنت آخذ معي جهاز تسجيل، أستمع إلى الموسيقى، وأشعل "جُوينتين"، وتنقضي الليلة.. وكنت حريصًا ألا يعرف ريتشارد أو والدته حقيقة عملي في محطة البنزين؛ فمثل هذا العمل لا يليق بي، وكانت حجتي في الخروج كل ليلة أنني ألتقي بأصحابي من المصريين كل ليلة.. نلعب كوتشينة، ونقضي أوقاتا ممتعة معا، إلى أن أجد عملاً، وتبدأ الدراسة.

لم يمانع أهلي بأن تكون البداية في مثل هذا العمل، إلى أن أجد العمل المناسب.. وكان أهم ما يشغلهم ألا أتعاطى المخدرات، وكنت أتلقى رسالة يومية من مريم، ومن حين إلى آخر تحدثني تليفونيا، إنها تحبني حبًا جنونيًا، وساندتني ووقفت بجانبي "وقفة" عشرة رجال، ولم يكن لي في حياتي في الفترة الأخيرة علاقات عاطفية مع أحد غيرها.

واستمر خالي يتصل بي يوميًا ليطمئن، ويسألني عن احتياجاتي.. كان موقفه مني كريما ومحبًا بحق، وفي واقع الأمر، لم أكن احتاج إلى شيء محدد.. لكنني بدأت أشعر بالملل.. الحياة روتينية، أنام صباحا، وأعيش ليلتي في المحطة وراء الزجاج.. وفي ليلة من الليالي، جلست أستمع إلى الموسيقى، وأشعلت جُوينت، وفجأة وقفت سيارة ليموزين سوداء فارهة، ونزل منها شاب شعره طويل ومجعد، واقترب من الزجاج، وسألني:

– كوكايين؟ ماريجوانا؟ كراك؟ سبيد؟!

وبلا شعور سألته:

– هيروين؟

- بيور؟
- أيوه.. بيور.
- مفيش معايا دلوقت، بس أقْدَر أجيب لك بعد شوية.
- بكام؟
- أول مرة على حسابى.

بسرعة خاطفة اختفى الشاب.. وكأنه لم يكن موجودًا.. لم أكن أعرف.. هل هذا حلم أم حقيقة؟ وهل يعود مرة أخرى أم لا، وضربت أخماسًا فى أسداس، وفجأة عاد ووقف أمامي مرة أخري ومعه تذكرة.. فعلا ذعرت لأننى كنت فى عالم آخر، سرحان وأفكر فيما حدث، وبسرعة فتحت درج المكتب، وأخذت التذكرة وسألته للمرة الثانية:

صلاح : قل لى بكام؟

الشاب : على حسابى.. وانتَ المرة دى.

صلاح : وبكره؟

الشاب : 20 دولار.

صلاح : عايز سرنجة.

الشاب : حالا.

وأحضر لى سرنجة من السيارة.. أخذتها منه، وضربتها فى أقل من دقيقة، وظل واقفا وراء الزجاج يتأمل ما أفعله، ثم انطلق بسيارته، وأنا جلست ووضعت رأسى بين كفى.. فقد أدركت فورا حجم الكارثة التى أمر بها، وقلت لنفسى:

- تانى؟! تانى يا صلاح؟! والمرة دى إنت لوحدك.. وفى أمريكا!!

فى الليلة التالية.. جلست فى المحطة أنتظره.. كنت أعرف أنه سيأتى، فى الوقت نفسه تمنيت ألا يأتى، لا أريد حضوره حقًا.. ويا لليوم.. ويا ليلة

سوداء، الدنيا تدور بي من جديد وسرحت بعيدًا، وجلست مهمومًا، والقرد أو النسناس يقفز وينط في دماغي.. وقفز الشاب من سيارته، وفورا سألته:

– اسمك إيه؟

– فرانك.

– وأنت؟

– كراكس.

كان اسمًا جديدًا أطلقه عليَّ أصحابي بعد رحلة الغردقة.. "كـراكس".. اسم مخدر جديد.. ظهر في ذلك الوقت، وكان من المعروف أنه شديد الخطورة.

– أنا مستعجل، بس قلت أعدي عليك لو عايز حاجة.

– آه.. بودرة.

– 20 دولار ودولار للسرنجة.

أعطيته النقود، وترك لي السرنجة والورقة، وطار بسرعة الريح، وهذه المرة لم ينتظر ليرى مشهد الضرب.. وتكرر هذا السيناريو لمدة أسبوع، وفي ليلة الإجازة الأسبوعية أخذت تذكرتين.. وتقاربنا وكان خفيف الظل، يحب الضحك، وفي الأسبوع التالي سألني:

– تحب تشتغل معايا؟

كانت الإجابة (كالقذيفة):

– أيوه.. أشتغل معاك.. من النهارده هاسيب شغلي في المحطة واشتغل معاك.

تركت العمل في المحطة، بعد أن قضيت بها حوالي ثلاثة شهور، وجاءني في الموعد والمكان المتفق عليه، وكانت المحطة قاعدة الانطلاق وأخذني في سيارته، ودون مقدمات قال:

– الشرط الأول، مفيش بودرة.. كوكايين مفيش مشكلة.. حشيش مش مشكلة.. بس بودرة لأ.. أنا مش باشتغل مع ناس ميتة.

- مفيش بودرة.. مش مشكلة.

لم أقل لا.. لم أرفض.. رغم أنها مشكلة بالنسبة لي، فأنا أحب البودرة.. إنما المهم المخدرات بشكل عام متوافرة، وسوف أجرب، ربما أتعود الكوكايين.. والمشكلة الأخرى، أنني تعودت تعاطي البودرة خلال أسبوعين، وأن الخروج من هذا المأزق ليس سهلاً، لأن فرانك كان واضحا وحاسما عندما قال:

- يوم ماتضرب بودرة؛ إحنا مش ها نشتغل مع بعض تاني.

وتعبت جدًا لمدة يومين، وإلى حدٍّ ما سندني الكوكايين والسبيد.. والحمد لله خرجت من الأزمة، وشرح لي فرانك أسلوب العمل معًا:

- فيه زباين تروح ليهم الشغل، وزباين تروح ليهم البيت.. وفيه زباين تقابلهم في أماكن عامة زي موقف سيارات، أو في الشارع قدام محلات الأكل، والشغل بالساعة وهتاخد في اليوم 200 دولار، والشغل خمسة أيام في الأسبوع..

هكذا أصبح دخلي 200 دولار في اليوم، بدلا من 250 دولار في الأسبوع من محطة البنزين.

العرض مغرٍ فعلاً، بالإضافة إلى أنني سوف أحصل على المخدرات بأسعار خاصة أو مجانًا.. واختفيت تماما عن أصحابي المصريين، ولم أعد أكلم صديقي رأفت، ولم يكلمني أحد منهم.. فقد شعروا بالاطمئنان لأنني أعيش في بيت ريتشارد ووالدته، وأعمل في محطة البنزين.. وأعطاني فرانك جهاز بيجر للاتصالات السريعة.. يمكنه أن يكلمني في كل وقت ومكان، ويطلب مني الذهاب لمقابلته، أو المرور على المشتري.. وكان يسعدني رنين "البيجر" ويشعرني أنني مطلوب ومهم.. كما أعطاني شنطة صغيرة سوداء، وكنت أحمل ثلاثة أنواع من المخدرات: كوكايين وماريجوانا وسبيد، وهو عبارة عن مخدر يمنح الشخص طاقة غير طبيعية، ويجعله منتبها ومستيقظا لمدة يومين، وأحيانا أكثر.. وقد سبق لي أن جربته في بلادي واسمه ماكس.. مخدر قوي يجعل عينيّ الإنسان مفتوحتين

مبفنجلة طوال الوقت، وشعر الرأس واقفًا، وكان معروفًا باسم كيف الحراميـــة؛ لأنه يجعلهم منتبهين، وفي نوبة صحيان طوال الوقت، بينما كل الناس نيام.

في الأسبوع الأول كنت أبيع بمبلغ 700 دولار في اليوم، وآخذ منهـــا 200 دولار.. وفي نهاية الشهر الأول زاد عدد زبائني، وبدأ بعضهم يعطي رقم "البيجر" لأصدقائه، وهذا يعطيه للآخر.. فاشتريت أجندة صغيرة أسـجل فيهـا أسماء الزبائن، وأرقام التليفونات والعناوين، وأرسم خرائط الطرق إلى بيـوتهم، وأماكن اللقاء.. وعندما يتصل بي شخص لا أعرفه، أسأله مـن أعطــاك رقـم "البيجر"، وأعرف الاسم، وأراجع الأجندة؛ لأعرف هل هذا الاسم عنــدي وفــي أوراقي أم لا.

وفي الشهر الثاني.. زاد عدد الزبائن، وحققــت فــي اليــوم الواحــد 1500 دولار بدلا من 700 دولار، ورفع فرانك العمولة إلى 300 دولار، وكم كان مسرورًا بما حققته في زمن قياسي، وكنت معه أكثر من ممتــاز، وكثيــرًا ما أهداني كوكايين.. بل وأكثر من هذا، وجه إليّ الدعوة لزيارتــه فــي بيتــه، واكتشفت مدى ثرائه.. إنه يعيش في فيلا وحيدًا، والفيلا أنيقة حولها حديقة بهـا حمام سباحة.. وهو يؤجر شقة أخرى صغيرة يستخدمها كمخــزن يــضع فيــه المخدرات، ولا يبقى في الشقة الواحدة أكثر من شهرين.. فقد رسم لنفسه نظامًا يضمن له الأمان، ولم يكن يهتم كثيرًا بموقع الشقة.. المهم أن يحقق لنفسه أكبر قدر من الأمان، ومن الواضح أنه نجح في هذا.

وبعد أن كثر عدد الزبائن، قررت أن أغيّر رقم "البيجر"، ولا أتعامــل إلا مع عدد قليل منهم، الذين أعرفهم جيدًا، ويطلبون ويشترون بمبــالغ كبيــرة، ووافق فرانك، وكان من رأيه تغيير الرقم.. أما زبائنه شخصيًا فكانوا على أعلى مستوى، ويقوم بتوصيل المخدرات إليهم بنفسه، ولثقته الكبيرة كان يأخذني معــه في بعض المهمات.. أصبحت صديقه، كما أصبحت مفاجآته الحلوة تـسعدني..

ومن حين إلى آخر يكلمني، ويقول لي تعال حالا، عندي لــك مفاجــأة جميلــة، وأجد في بيته حفلة، وعشرات البنات الجميلات صواريخ، وببساطة يقول لي:

- اختار اللي تعجبك.

كانت مثل هذه الحفلات تتكرر كل أسبوع أو عشرة أيام، وكنــت فــي الحفلة أشرب الويسكي، وأتعاطى كوكايين وماريجوانا، ولم يكن لثلاثتها التــأثير المدمر الذي تفعله البُودْرة.

سارت حياتي مع فرانك للشهر الخامس دون مشكلات، وهــو الــشهر الحادي عشر لي في أمريكا، واختلفت ظروفي، وارتفع دخلي إلى حــد كبيــر، لكنني كنت أنفق ببذخ، وبدأت أهتم بأناقتي ومظهري، وأدفع أثمانا باهظــة فــي الملابس الغالية، وأذكر أنني دفعت 800 دولار" ثمنا لقبعة "كــاوبوي"، إنهــا أغلى قبعة رعاة بقر.. وكنت أسهر في الأماكن الفاخرة، بمستوى سهرات فرانك نفسه.

بطبيعة الحال.. كنا نختلف معًا في بعــض الأحيــان، ولكنهــا كانــت خلافات صغيرة، وتمر سريعا.. وطبعا، وكالمعتاد، لم يسلم من بعض حركــاتي الشيطانية، فقد سطوت على الكوكايين أكثر من مــرة، وفــي مــرات زيّفــت الحسابات، ولكن فرانك لم يكن يدقق في أمور كثيرة، فهو يقدِّر أنني حققت لــه مكاسب كبيرة.. أحبني فعلا، وكان رأيه أنني شخص خفيــف الظــل. وقويــت علاقتنا وأصبحت وطيدة، وبدأ يأخذني معه إلى كل مكان، وعرفنــي بالأمــاكن التي يشتري منها، وكيف تتم الصفقات، وكم يدفع ثمنا لها.. وهذه قصص أخرى تروى في مجلدات.

وبصراحة لم يحدث أن تجاوزته أبدا في هذا الموضوع، وكان أيــضا شديد الوضوح معي.. كانت له عبارة شهيرة: لو أنني خرجت من تحت مظلته، فلن يكون مسئولا عني.. وهذه العبارة كانت لها معان كثيرة جدا.. من أبــسطها أنه لو قبض عليّ فلن يساعدني، ولن يساعد في الإفراج عني.. وأخــذني معــه

أكثر من مرة، ورأيته وهو يدفع الرشاوى، وحاول فى مرات كثيرة، أن يثبت لى أن لديه علاقات قوية، مع شخصيات لها وزنها، وأنه فى أمان أيضا من ناحية الشرطة.. إنه يعرف معظمهم معرفة وثيقة.

أصبحت علاقتى مع ريتشارد وثيقة جدا.. كنت أخرج معه، أو مع أصدقائه، وأسهر معهم فى حفلاتهم وتدريباتهم.. لم تكن لى صديقه محددة، فقد كان هدفى أن أكسب كثيرا، وأنفق كما يحلو لى، وأقضى أوقاتا مرحة فى تلك الحفلات، وشعرت أننى أستطيع أن أعيش بهذا الأسلوب مدى العمر.. نمط من الحياة مشكلاته بسيطة.. وكنت من قبل قد عشت أياما بائسة، وأصعب منها.

اشتريت سيارة "جيب" جديدة، وأدخلت فيها التليفون، وشعرت أننى سعيد بالحياة بهذا الأسلوب، معتقدا أنها سوف تدوم بهذه الكيفية، بل إنها سوف تصبح أحسن وأفضل.. وازداد عدد الزبائن، ومن حين إلى آخر أغير رقم البيجر.. وطلبت من الزبائن عدم إعطاء الرقم الجديد لأحد، وإذا حدث هذا، فلن أبيع له. وأصبحت مثل فرانك، وأصبح عندى أكثر من 60 أو 70 زبونا محترما، ولكن ليس على مستوى زبائن فرانك نفسه..إنما بشكل عادى.. كان زبائنى لا بأس بهم، ويطلبون منى كميات كبيرة.. جعلتنى أبيع بمبلغ يصل إلى 3000 دولار فى اليوم الواحد ودون مجهود، وأصبحت أحصل يوميا على 500 دولار.. العجيب فى الأمر، أننى أقمت علاقات صداقة قوية مع بعض هؤلاء الزبائن، لأن بعضهم كان يدفع جزءا من المبلغ، ويدفع بقية المبلغ خلال الأسبوع.. ولم أكن أجد ما يمنع من تأجيل الدفع، وكنت أثق أنهم سيسددون ديونهم.. لقد مررت بمثل هذه المواقف من قبل، مع الفارق أننى فى معظم الأوقات لم أكن أدفع ديونى.

كان يبدو أن بعض هؤلاء الزبائن من الشخصيات المهمة المرموقة، وكان هذا واضحا من مظهرهم الأنيق، وملابسهم الرسمية.. ولكنى لم أهتم بمعرفة نوعية العمل الذى يمارسونه.. بالتأكيد بعضهم يعمل فى بنك، أو شركات

هندسية، أو رجال أعمال.. وكانت أماكن اللقاءات تختلف، ويتوقف تحديد المكان حسب أين هم، وأين أنا، وبعض الناس كنت ألتقى بهم فى بيوتهم، وبعضهم فى أماكن العمل.

مرت السنة الأولى فى أمريكا، والحال كما هو.. أموال كثيرة، زبائن كثيرة، ورجع لى حلم هوليوود، والحياة فى أمريكا بالمخدرات والبنات، ولكن مع الفارق.. أنا لن أعود مرة أخرى إلى ضرب البودرة، وأتعاطى المخدرات التى لا تسبب المشاكل، وكأن هناك مخدرات لا تسبب مشاكل.. والحقيقة المؤكدة أن جميع المخدرات تسبب المآسى والمصائب.

وذات ليلة سهرت مع ريتشارد وأصحابه.. وهم جميعا يتعاطون الكوكايين والماريجوانا، وهذا هو الشيء العادى مع فريق موسيقى.. وفى مثل هذه الحفلات، كثيرا ما قدمتُ الماريجوانا والكوكايين هدية للفريق، باعتبارى ضربيا مثلهم، ومعروف على الثراء.. وكنت أتخيل أننى سوف أحظى بحبهم.. وفى الحفلة الأخيرة، تنبهت، رغم الشرب والضجيج، وأصوات الغناء العالية.. فقد وقعت عيناى على ريتشارد، يتحدث مع شاب بعت له الكوكايين من قبل.

صوب ريتشارد نظراته إلىَّ.. نظرات غريبة أدهشتنى، نظرات لها معان كثيرة.. فيها الذهول يمتزج بالعتاب والدهشة، وعندما التقت العيون الأربع، عيناى وعيناه، قرأت الرسالة بوضوح كأن ريتشارد يقول لى:

- أنا عرفت.. وفهمت السر.. عرفت إنت بتشتغل إيه.. عرفت خلاص!!

شعرت بالاضطراب، وأن أصابع الاتهام تشير إلىَّ.. الصورة واضحة الآن.. وقد انكشفت تماما بعد هذا الحديث الهامس بين ريتشارد والشاب الذى وقف معه فى ركن بعيد.. عرف السرّ فى أن اسمى كان "كراكس".. الآن فقط عرف أن هذا الاسم لم يأت من فراغ، ولكنه يأتى من الواقع.

فى تلك الليلة، ذهب ريتشارد وصديقته ليندا معى فى سيارتى إلى الحفلة، ومن الطبيعى أن نعود معا بعد قضاء السهرة.. لم يتكلم ريتشارد إلا

كلمات قليلة.. أنقذ الموقف أن صديقته ليندا معنا، وأننا لم نكن وحدنا، فكانت هي تتكلم معي معظم الوقت، وحاولت أن أستجمع شتات أفكاري، وأرد بجمل قصيرة، ولم يتوقف " البيجر" عن الرنين، وأخيرا تكلم ريتشارد وقال:

- "البيجر" بيرن كتير، مع أنك مالكش مدة طويلة في أمريكا.

وأضافت ليندا:

- آه.. لك حق يا ريتشارد.. أنا برضة أخدت بالي من الحكاية دي.

لم أجد ردًا، وتظاهرت بأنني أحاول معرفة من يكلمني لأقفل "البيجر"، وقفلته فعلاً.. لم تسكت ليندا، واستمرت تسأل:

- صحيح.. إزاي عندك كل الأصحاب دول في فترة قصيرة كدا؟

- دول أصحابي من زمان.. من رحلات أمريكا قبل كدا، ومعظم الأصحاب دول من مصر.

كان الرد مقنعًا، وهزت رأسها عن قناعة بكلامي.. فهي لا تفهم حقيقة الموضوع، وأسئلتها بريئة؛ لذا كانت الأسئلة واقعية.. وعندما وصلنا إلى البيت، وقفت بالسيارة، ونزل ريتشارد بهدوء، ولم ينطق بكلمة واحدة، فقررت أفتح الموضوع، وبطريقة مختلفة؛ لأرى رد الفعل.. دخلنا البيت، وقلت له:

- عاوزك يا ريتشارد.. عاوزين نتكلم.

- إدِّيني ربع ساعة.

بصراحة، كان إعطائي هذا الوقت مفيدا، فقد كنت في حاجة للانفراد بنفسي لدقائق، لأجهز أفكارا تساعدني في الحديث معه.. التقطت أنفاسي، وخرجت إلى الحديقة، وخرج ريتشارد ورائي وفي يده جوينت وأشعله وأخذ نفسين وأعطاني الجوينت.. هذه الحركة كانت غريبة في هذا التوقيت، وهذا التصرف جعلني أشعر بأنه لازال هناك قدر من الود بيني وبينه، وبدأت حديثي بقولي:

- أنا ناوي أعزّل من هنا خلال اليومين الجايين.

– على فين؟

– لقيت بيت صغير.. مش بعيد من هنا.

– على العموم.. إنت عندك لغاية آخر الأسبوع يا صلاح.. ولما تغير العنوان والسكن لازم تغير عنوان مراسلاتك كمان.

– أكيد.

– فيه إيه يا صلاح؟ إنت لازم تشرح لي.

– مش هينفع دلوقت.. بس في يوم من الأيام هاشرح لك كل حاجة.

– خلي بالك.. الطريق ده عمر ما حد دخل فيه ونجي أو سلم، انت معدي على الكوبري اللي بيولع.

– شكرًا على اهتمامك..

– أنا مش ها أقول لأمي، ولا لينda.. أمي هاتزعل جدًا، لأنها بتحبك بجد.

– وأنا كمان بحبها.. قبل نهاية الأسبوع ها اكون بره البيت.

– فكر تاني يا صلاح.. اللي إنت فيه يستاهل أنك تفكر تاني.

حقيقة الأمر لم يكن عندي مكان آخر للسكن.. لكن المشكلة لها حل مادامت معي النقود المطلوبة.. إذا لن يكون من الصعب أن أجد مكانًا آخر.. وبعد ثلاثة أيام وجدت بيتًا صغيرًا وجميلاً، ومن مزاياه أن البيت لا ينقصه أي شيء.. بيت مجهز بكل شيء.. ولم يكن ريتشارد في البيت، عندما قمت بنقل ملابسي وحقائبي.. أعتقد أنه اختار هذا التوقيت عن عمد، وفضل ألا يكون موجودًا، فقد قضينا معًا أيامًا حلوة، أما والدة ريتشارد.. فكانت موجودة، وتأثرت جدًا حتى أنها بكت في لحظات الوداع.. وعندما أعطتني مبلغ التأمين، رفضت بإصرار، وقلت لها:

– أنا كان لازم أقول قبل ما امشي بفترة كافية، علشان لو فيه حد تاني ياخد مكاني.

– متهيألي أنا مش ها أجيب حد تاني ياخد مكانك.

- الفلوس دى حقك، ومن فضلك تقبليها.. هو ريتشارد وليندا فين؟
- ريتشارد بيكره لحظات الوداع، وسلام الوداع.

أكيد ها أشوفه قريب.

من فضلك خليك على اتصال. كلمنى وادّينى نمرتك الجديدة.

- طبعا، أول مكالمة هتكون لك.
- هتوحشنى.
- وإنت كمان.

تأثرت كثيرا من هذا الموقف، وتأثرت أكثر لأن والدة ريتشارد كانت تبدو حزينة؛ لأننى سأتركهم وأنتقل إلى بيت آخر، والأهم من كل شىء، كان عندى الإحساس بأننى أعيش بين عائلة.. أحبها وأحبتنى كما أحببتها.. كنت أرجع البيت وأجد من يسألنى عن أحوالى، ومن يهتمّ بى بكل صدق وحب.

وقبل أن أخرج من البيت، مدت والدة ريتشارد يدها بظرف، وقالت:

- ريتشارد سايب لك الظرف ده.

أخذت الظرف، وقبّلتها ودخلت سيارتى.. فتحت الظرف فى السيارة، فوجدت شيكا بمبلغ 2000 دولار ورسالة قصيرة من ريتشارد، كتب لى:

شكرا على الفلوس.. أنا عارف إنى أخّرتها.. أنا نفسى أساعد..

بس فعلا ما أقدرش.. خلى بالك من نفسك". ريتشارد

أول خاطر.. أنا نسيت تماما أنه اقترض منى هذا المبلغ.

الخاطر الثانى.. من الواضح أننى أمر بمشكلة، وأن ريتشارد لا يستطيع أن يساعدنى.

وعندما قرأت تلك الكلمات، شعرت أننى فى مشكلة فعلا.. وأن المشكلة أيضا كبيرة.. وهل ياترى المشكلة لها حل، أم لا؟ ومن يساعدنى فى حلّها؟

رسالة قصيرة، وكلمات قليلة وقفت عندها كثيرا، وقرأت الرسالة أكثر من 100 مرة.. ووضعت الشيك فى الظرف، مع بقية جواباتى.

انتقلت إلى البيت الجديد.. كان جميلا، لكنه "ميت".. يفتقد الروح، ومشاعر الحب والحنان.. ليس به أصحاب، وليس به ريتشارد ولا ليندا، ولا والدة ريتشارد التي أحببتها جدا.. هنا أنا وحدي تماما.. نعم وحدي، وكثيرا ما جلست أفكر في ريتشارد ورسالته، ومشكلتي أنني طوال الوقت أفكر في المشكلة وأعايشها، ولم أفكر أبدًا في أن أعيش الحل.

22

العــودة

استمرت الأمور دون تغيير لمدة أسبوع، ثم أسبوعين، أبيــع كثيــرا، وأسهر مع قرانك وأصدقائه.. وكانت كل الأمور تسير بشكل طبيعــي.. وجــاء يوم، استيقظت صباحا لأجد رقما تليفونيًا اتصل بــي علــى البيجر أكثــر مــن 20 مرة، أدهشني هذا كثيرا.. من هذا الذى يتصل بى كل هذه المرات المتتالية؟ ولماذا؟ تصورت أنه شخص يريد كوكايين.. ربما.. لكن بالتأكيد لن يتصل بهذا الإلحاح.. كلّمت الرقم، ورد عليَّ ستيف:

– النمرة دى طلبتني.. أنا باكلّم مين؟

– أنا ستيف، وعايز أشوفك دلوقتِ حالا.

– هالو ستيف.. هو فيه إيه؟

– هَا أقول لك لمّا نتقابل عند المُول.

– تِحِب أجيب مَعايا شرايط وسيديهات.

– لا.. لا.. تعال من غير أى حاجة.

– أوكيه.. اديني 20 دقيقة.

أسعدتني المكالمة لأن ستيف كــان قــد اقتــرض منــي 400 دولار، ولكنها مكالمة غريبة.. لم أفهم منها أى شىء!! إنه يريد رؤيتي فورا، وكلّمنــي أكثر من 20 مرة، ولم يطلب كوكايين وأكد في كلامه تعال من غير أى حاجة.. إذًا، بالتأكيد الموضوع ليس دفع ديونه!! إذًا، ما الموضوع؟

إنه رجل في الأربعينيات من عمره، عرّفني إليه صــديقه روبــرت، وكنت دائمًا أسجل في الأچندة أنني تعرفت إلى فلان، عن طريق فــلان.. وقــد عرفت ستيف منذ ثلاثة شهور، والحقيقة أنه خفيف الروح، وكنت أشــعر أنــه

شخصية مهمة.. من ملابسه، وسيارته، وأسلوبه، وقال لي إنه يعمل في مجال الكهرباء، وعندما سمعت مجال الكهرباء اكتفيت بهذا، ولم أسأله عن تفاصيل أخرى.. وأذكر أنني تصرفت معه بشهامة ونبل في أحد المواقف.. لقد تعود ستيف أن يطلب مني كميات كبيرة، وذات يوم طلب كمية، وعندما ذهبت إليه لأعطيها له، فوجئت بأنه لا يملك ثمنها، وليس معه أية مبالغ ولا يستطيع أن يعدني بمواعيد للدفع.. بمعنى أنه ليس معه جزء من المبلغ، وبقيه المبلغ فيما بعد، لا.. وصارحني بموقفه المالي قائلاً:

– أنا مفيش معايا فلوس خالص.. والنهارده 20 في الشهر، ومش ها أقدر أديلك فلوس قبل يوم 1 في الشهر الجديد، وبعدين أنا ها أديلك النص، والنص التاني الشهر اللي بعده.

– طيب وأنا أعمل إيه لو ما دفعتش؟! ماتنساش إنت واخد كمية كبيرة!!

– القرار قرارك.. أنا شرَحْت لك الموقف، وإنت حر.

لقد مررت بمواقف من هذا النوع لا أول لها ولا آخر.. ورفضت كل مرة دون تردد أو مناقشة، ولكن هذه المرة، جملة سريعة قالها ستيف.. جعلتني أوافق ولا أرفض طلبه.. فهمت منهُ أنه سيخضع للعلاج.. إنما لماذا أوافق بعد أن سمعت هذا الكلام؟! الفكرة هنا أنني كنت أشعر بمعاناة التوقف عن التعاطي، وكنت أعرف جيداً إحساس آخر مرة ضرب قبل التوقف، فوافقت قائلاً:

– موافق.. وأنت مدين لي بمبلغ 400 دولار.

وكانت هذه هي آخر مرة أرى فيها ستيف، لقاء حدث منذ شهر أو أكثر قليلاً، حتى تلقيت منه هذه المحادثة التليفونية الغريبة.. وأسرعت إلى المكان المتفق عليه، ووجدته داخل سيارته، وعندما رآني أسرع إلى سيارتي، وقال:

– إطلَعْ بسرعة من هنا.

أفزعني كلامه بهذا الأسلوب الآمر، ولم أفهم له سببًا.. المهم سمعت الكلام، ونفّذت.. وسألته:

- على فين؟

- إطلَع على الطريق السريع.

- هي إيه الحكاية بالظّبط يا ستيف؟

- اللي ها أقوله لك دلوقت مهم وخطر.. وخاص بيني وبينك.. فاسمعني كويس.. أنا وداني وروبرت، اختارونا إحنا التلاتة في مكان عملنا بشكل عشوائي؛ لإجراء اختبار وتحليل تعاطي المخدرات.. أنا في فترة العلاج من شهر، وبالتأكيد العيِّنة بالنسبة لي هتكون سلبية، لكن بالنسبة لروبرت وداني بالتأكيد هتكون العينة إيجابية.

- أنا قابلتهم من يومين!!

- ودا معناه العينة إيجابية، ومعناها تبدأ تحقيقات واسعة وخطيرة، ودائمًا الأسئلة تبدأ من إمتى؟ وإيه أنواع المخدرات؟ ومين بيبيعها لك؟ وفين بتشوفه؟ أسئلة كتيرة لغاية ما يعرفوا كل التفاصيل، ويوصلوا إلى كل الحقائق المطلوبة، واللي همّ عاوزين يعرفوه بدقّة.

ودارت الدنيا بي.. ما هذا الذي أسمعه؟ وأين يعمل هؤلاء الأصدقاء الثلاثة؟

- إنتم بتشتغلوا فين يا ستيف؟

- مش ممكن أجاوب على سؤالك، بس لازم تفهم إنه مكان حساس جدًا.. جدًا.

إنه سؤال لا يهم أبدا معرفة إجابته الآن، ولكن السؤال الأهم:

- أعمل إيه يا ستيف؟

- تسافر فورًا من كاليفورنيا إلى ولاية تانية.. سافرْ نيفادا.

- وليه كنت مهتم بأن تقول لي كل ده؟!

- إذا قبضوا عليك، ها تضطر تقول اسمي.

- اطمن يا ستيف.. مش هيحصل.

- مش هيكون عندك اختيار يا صلاح.

بعد إلحاح، أخبرني ستيف بمكان عمله.. توقف عقلي عن التفكير.. تمنيت لو أنه لم يخبرني، ثم أكمل حديثه قائلا:

- عرفت أنا ليه بتمنى إن اسمي ما يتذكرش أبدا؟!!

- عرفت.

- كان لك عندي 400 دولار.. دلوقت إحنا خالصين.

وفي هذه اللحظة فتحت زجاج السيارة ورميت "البيجر".

ضاع أمني في دقائق معدودة.. تجربة جديدة رهيبة أواجهها وأنا وحدي تماما.. وقد اقترح المغادرة إلى ولاية أخرى.. أي ولاية؟

لا.. لا.. لن أذهب إلى ولاية أخرى.. ودون تردد، قررت أن أرجع مصر.. وطني.. وفي أسرع وقت.. أرجع فورًا.

وفورا رجعت إلى بيتي الصغير، الذي لم أشعر بأي تجاوب أو تعاطف نحوه.. لم أحبه نهائيا.. جمعت كل ملابسي في الحقائب بسرعة مذهلة.. قررت التوجه إلى أحد الفنادق.. وضعت في الفندق الحقائب، وعدت إلى ذلك البيت مرة أخرى لأطمئن أنني لم أنسى به شيئا، وفعلاً وجدت حقيبة بها كل الرسائل التي تلقيتها من أهلي، ومن مريم.. وبعد أن اطمأن قلبي إلى أن كل شيء تمام، قفلت الباب من ورائي، وأنا أعرف تماما أنني لن أعود إلى هذا البيت مرة أخرى، واتصلت بصديقي رأفت وقلت له:

- أنا عايزك ضروري جدًا يا رأفت.. أنا راجع مصر.

- إنتَ فين؟ أنا مش فاهم حاجة خالص.

- أنا في الفندق.. خُد العنوان وتعال لي بسرعة.

بعد نصف ساعة جاءني رأفت، وصارحته بكل شيء، وهو في حالة ذهول تام، رَدّ بجملة واحدة:

- أنا دلوقت بس فهمت إنت كنت بتجيب الفلوس دي كلها منين!! فعلاً، إنت لازم تمشي من هنا بأسرع وقت ممكن.. وما ترْجَعْش هنا تاني.

ولم أكن أريد العودة إلى هذا البلد مرة أخرى، وكانت أمنية حياتي أن أخرج منها في أسرع وقت ممكن..

- أنا فعلا اشتريت تذكرة من شركة سياحية من ساعة، وأول طيارة على مصر بعد 4 أيام.. يوم الاتنين الساعة اتنين.

قلت لنفسي: أنا مش ممكن أنسى الميعاد دا أبدًا.. في حياتي كلها.

- أحسن حاجة يا صلاح إنك اشتريت التذكرة.

- أنا محتاج على الأقل، يومين.. تلاتة، أحصّل فيها فلوسي من البنوك، وأبيع العربية، وأعمل "شوبنج".

- أهم حاجة.. إنت ما تتحركش من الفندق.. أنا معاك اليومين الجايين لغاية ما نخلّص كل حاجة سوا.

- بس أنا خايف يا رأفت يسجلوا اسمي في المطار؟!!

- لا.. لا.. مش للدرجة دي.. الأول هيحاولوا يجمعوا معلومات، وبعدها يدوّروا عليك، تكون أنت سافرت خلاص.

- أنا خايف جدًا يا رأفت.. طيب أسافر ولاية تانية، وأسافر من هناك؟

- ما تخفش أوي كده.. المهم ما تسوقش العربية خالص اليومين دول.. أي حاجة تحصل، ولو مخالفة بسيطة، مُمكن يكون اسمك اتبلّغ وظهر على "السيستم".

غمرني الإحساس بالرعب.. وفي هذه الليلة استحال نومي، وأحسست أنني أعيش في كابوس أسود.. وكان اليوم التالي يوم الجمعة، وذهبت مع رأفت إلى البنوك، وسحبت كل أموالي من ثلاثة بنوك، ثم ذهبنا معًا إلى معرض

سيارات وبعنا السيارة "جيب".. بدأنا يومنا التاسعة صباحا، حتى الحادية عشرة مساء.. كنا قد أنجزنا خلال تلك الساعات عشرات المواضيع المهمة، وطلبت منه أن نذهب فى اليوم التالى إلى "المول" لشراء بعض الهدايا.

فى تلك الأيام الثلاثة السوداء.. تعاطيت فيها كمية مخدرات غير طبيعية..

أولا: معى حقيبة مليئة بالمخدرات، وثانيا: لن أبيع مرة أخرى، ولن أرى فراتك أو غيره فى عمرى كله.. وفوق هذا وذاك سيطر على الشعور الرهيب بالخوف، وهذه المخدرات لابد أن أنتهى منها.. وكان من الممكن أن أرميها، أو أتركها مع رأفت يعطيها لأحد أصحابه، الذين يتعاطون المخدرات.. لكنى أردت أن أنتهى منها بنفسى، وانتهيت أيضا من شراء الهدايا لكل أصحابى.. وأهلى، ومريم.. وقد وضعتها فى 9 حقائب.

لم أنم ليلة الأحد، سهرت مع رأفت، وتعاطيت مخدرات بلا حساب، وشربت الويسكى، وأعددت حقائبى.. وكانت المهمة صعبة، فقد اشتريت بجنون.. إذاً كل شىء معد الآن للسفر، وآخر شىء طلبته من رأفت:

– تعرف أنا نفسى فى إيه؟

– بعد كل اللى اشتريته دا، لسه نفسك فى حاجة؟

– مش حاجة اشتريها.. نفسى فى مكان أروحه.

– نفسك تروح فين؟

– نفسى أروح هوليوود لآخر مرة.. أمشى فى الشارع الرئيسى، وبعد كدا أتصور جنب يافطة هوليوود.

– غالى والطلب رخيص.

– عارف يا رأفت، أنا حياتى تنفع فيلم، ويتعمل فى هوليوود كمان.. بس لسه مش عارف نهايته هتكون إيه؟! لو اتمسكت.. أنا ها انتحر، وتكون دى نهاية الفيلم.. فيلم دراما ابن "......".

- يالاّ بينا على هوليوود وبلاش الهبل اللي أنت بتقوله ده.. وبعد كده ترجع ناخُد الشُنط في عربية نُص نَقل ونطْلَع على المطار.

وأخذني رأفت.. ومشينا في الشارع الرئيسي، وصعدت لألتقط صوراً بجانب اللافتة الهليوودية، وعُدنا لأخذ الشنط، ونذهب إلى المطار..

ماذا أخاف؟؟ أخاف من كل شيء.. من خيالي.. وهرب دَمّي، وشعرت أن كل العيون مُصوبة نحوي، فمنظر ٩ حقائب مع شخص، منظر غير مألوف، ولافت.. وسارت الإجراءات، ودفعت قيمة الوزن الزائد، وتسلمت بطاقة المغادرة، وقلت لصديقي رأفت:

– أنا مش هارْتاح يا رأفت إلاّ لما الطيارة تطير فوق السحاب.

– يا أخي ماتْخافش.. خلاص كُله تمام والحمد لله.

– وقفْتَك معايا أنا عُمري ما ها نْساها.

– إنت أخويا الصغير.. وآخر حاجة أقولها لك: ارْجع بيتك.. أنت دلْوقت معاك فلوس.. اعمل مشروع، شُوف أي "بيزنس" وابدأ حياة جديدة.. انت عارف كويس أنا كان نفسي أسافر معاك على نفس الطيارة، مصر وحشتني، بس أنا مش ها ارْجَع من البلد دي إلاّ لمّا أنجح.

– هتنْجح يا رأفت.. ربنا معاك.. اشوف وشك بخير.. كلمني يا رأفت، وأنا كمان ها اكلّمك.. ربنا يستر ومايحصلش لك مشاكل بسببي.

– حتى لو حصل، ماتقلقش، هنعْرف نتصرف.. سلّم لي على كل اصحابنا، واحد واحد.

– أشوف وشك بخير.. سلام يا رأفت.

– هتوْحشني.. بجدّ هتوْحشني يا صلاح.

مرت هذه الساعات وكأنها سنوات.. سنوات طويلة.. انطلقت نحو بوابة الخروج.. وأخيراً دخلت الطيارة ولكن الخوف يسيطر عليّ، وأتصور أن

بين لحظة وأخرى سوف أسمعهم ينادون اسمي، ويطلبون مني النزول عن الطائرة.

خوف ورعب غير طبيعي، ولا تصفه الكلمات، ولم أهدأ إلا بعد أن سمعت هدير المحركات، وتحركت الطائرة على الممر، وانطلقت في الجو.. أحمدك يارب.. وأشهد أن لا إله إلا الله.. وفي تلك اللحظات فقط، وأخيرا، أخيرا.. شعرت بالأمان.

ما أجمل هذا الشعور!!

ما أروع الإحساس بالأمان!! ما أجمله!!

وعندما وصلت إلى مطار باريس.. شهد الناس أغرب منظر، نزلت على رُكْبَتيَّ في المطار، وقبلت الأرض، والتف الناس حولي في المطار يتأملون منظري ساجدًا على الأرض، وفعلا كان المنظر يستحق الفرجة.. رفعت رأسي، وجلست على الأرض، وأسندت ظهري إلى أحد الجدران لأستريح.. نعم.. أريد أن أستريح.. ومن مطار باريس كلمت خالي ممدوح، وقلت له أنا في طريقي الى القاهرة، فأصابه الذهول، وسألني:

- معقول يا صلاح.. تسافر كده فجأة؟! على الأقل كنت كلمتني.. وجيت قضيت الويك إند عندنا!!

- أصلي قررت فجأة، وأخذت طيارة مباشرة من كاليفورنيا ومانزلتش نيويورك.

- بالسلامة.. وسلِّم لي على أختي وبناتك وكريم وزولا.. وها أشوفكم لما أنزل أجازة إن شاء الله.. بجدْ مش قادر أصدق.. رجعت تاني صلاح أبو المفاجآت!!

- بوسة كبيرة للعفاريت أشرف وشريفة، وحشوني، وطبعا سلِّم لي على رغدة واشكرها.. مع السلامة.

لم أتماسك بعد هذا الاتصال، وانهارت دموعي وأخفيتها وراء النظارة، فقد قضيت معهم أجمل الأيام، وشعرت بالأمان.. غاب عقلي عندما عرّضت نفسي لهذه الأخطار المهولة.

وكانت الصورة عند أهلى، وعند مريم وأصدقائي، أننى بدأت بالعمل فى محطة بنزين، وبعد شهور عملت في معرض سيارات، والحقيقة أن صديقي رأفت هو الذى يعمل فى المعرض، وقد أتاحت زياراتى المتكررة له فرصة التعرف على التفاصيل، وفنون التعامل مع الجمهور.

كم كانت الصدمة بالنسبة لهم جميعًا كبيرة، عندما أخبرتهم بقرار العودة بعد أربعة أيام.. لم يفهم أحد سببًا لهذه العودة السريعة المفاجئة، ويحق لهم أن يسألونى عشرات الأسئلة المنطقية:

لماذا ترجع الآن؟ ولماذا هذا القرار المفاجيء؟ ما سره؟ ما سببه؟ وماذا تفعل هنا؟

وكم فرحت عندما عرفت أن أخى كريم وأسرته فى مصر، وهو مُكلَّف من الشركة الأم في إنجلترا، بمهمة القيام بإجراءات إنشاء شركة جديدة فى مصر، وفروعها في أكثر من دولة عربية.. وهكذا ولأول مرة منذ زمن طويل، يجتمع كل أفراد العائلة على أرض الوطن، فدائما، ومنذ وعيت.. كان أحدنا مسافرًا لسبب أو لآخر.

استقبلنى فى المطار مريم ومصطفى وخطيبته الجديدة سندس.. وفى رحلات سابقة كان عشرات الأصحاب يخرجون لاستقبالى في خمس أو ست سيارات.. وطبعا أهم سؤال، بادرنى به مصطفى:

– إنتَ إيه اللِّى رَجَّعك فجأة كده؟

– ولا حاجة.. حسبت بالمللي، ومعايا شوية فلوس حلوين.. قلت كفاية كده.. أرجع وأعمل مشروع فى مصر.

– لحقت تعمل فلوس فى سنة وشوية؟

– العربيات شغلها بيكسب كويس يا درش.. سيبك أنت.. أخباركم إيه؟

– قررنا نتجوز قريب.

فرحت سُندس بما قاله خطيبها وقالت:

- ياريت.. بس بعد مانحِل شوية مشاكل.

- كل شيء ولُه حل.

- وإنتِ يا مريم.. مش هتتجوزى؟

- إيدى على كِتفك.

- إيه ده؟ إنتِ أتعلمتى تردّى؟!

- طبعا.. تلميذتك النجيبة.

23

السطر الأول

وصلت بيتنا، ولن أنسى سلام بابا، كأنه يقول: "هارد لَك" سافرت، وفشلت، ورجعت.. لم يقل هذه الكلمات صراحة، لكنى أحسستها.. أمى.. سلمت علىّ والخوف فى عينيها.. رولا سلمت والفرْحة مرسومة على وجهها.

دخلت غرفتى، ووضعت فيها الشُنط بين ذهول الجميع، وكَسرت رولا حاجزَ الصمْت، وسألتنى:

- إيه كل الشنط دى يا صلاح؟ أنا مش مصدّقة!!
- اشتريت هدايا وعملت شُوبنج مِشْ هزار.
- باباك مُمكن ينهار لما يشوف الشنط دى كلها!!
- ندخلّها الأوضة قبل ما يشُوفها.
- دفعت جُمْرك أد إيه؟
- دفعت كتير يا رولا.. بسْ مش مُهم.. شوبنج يساوى.. الشيء البايخ إنهم قعدونى فى الجمرك ساعة، وعينىّ على الشنط.. كنت خايف شنطة تروح كده واللاّ كده.
- بجد.. دفعت كام؟
- سبْعة آلاف جنيه.
- يَا نْهار أبْيض.. دَا كِتير جدًا.

دخل بابا إلى غرفته، وكانت ماما ترد على التليفونات، وتحكى أخبار عوْدتى للأقارب، وكريم فى المكتب.. إنه يقدس العمل، ولا يعود من الشركة قبل مُنْتصف الليل.. ويتحمل المسئولية بكل ضمير حى ويقظ..

رجعت إلى بلادى ومعى مبلغ لا بأس به، ادخرته من تجارة المخدرات لمدة ثمانية شهور، ولو لم أكن أُنفق بجنون، لأصبحت أملك ضعف هذا المبلغ، واشرقت شمس يوم جديد.. وعلى أرض الوطن أحسست أن الصباح له طعم ومذاق مختلف.. سمعت تغريد العصافير.. لكن هنا وعلى سريرى يرقد إنسان متعب.

وكان من أهم أولوياتى شراء سيارة جديدة، وتجولت على المعارض، ووقع اختيارى على سيارة "فورد موستنج كابورليه"، ودفعت ثمنها 120 ألف جنيه.. والله زمان.. وفى أقل من أربع وعشرين ساعة من وصولى أصبح عندى سيارة آخر موديل.

بحثت عن حسام، رغم أن أمى سبق أن منعتنى من الاتصال به.. وبكل الطرق كنت أتحايل على كل أنواع الحصار، وأكلمه، لكنه غير موجود.. فماذا أفعل؟ بصراحة صوّر لى الضغط النفسى الذى شعرت به فى هذا الأسبوع، أننى لن أشعر بالراحة إلا إذا ضرّبت.. مررت على شريف فى بيته..

وكانت المفاجأة كبيرة لصديقى، واستقبلنى بحرارة قائلا:

- إيه المفاجأة دى؟ إحنا كلنا قلنا إنك مش راجع تانى!!
- اسكت.. خربّتها ورجعت.
- احكى لى.. أنا عارفك.. أكيد ولّعتها.
- نضرّب الأول، أنا هاتجنن وأضرّب.
- ألبس وننزل.. معاك كاش؟!
- معايا 100 دولار.
- يا سيدى.. يا سيدى.
- آه صحيح.. هو حسام فين؟
- عايش فى شقته فى المعادى مع دعاء، وخاربين الدنيا سوا.
- لا يا راجل.. من إمتى؟

- من فترة طويلة.. والموضوع مُقلق جدًا.

- طبعًا حسام فتح دُولاب هناك.

- ومش أيّ دُولاب.. ولعلمك هيتمسك قُريب.

- هو إحنا هانضرَب من عند مين؟

- من عند مخيمر أخو أم سيد.

- هوَ لسّه شغّال؟ إزاى متمسكش كل ده؟

- مظبّط.. دا البريمو دلوقت.

- طيّب نروح عند مخيمر، ونرْجَع على حسام.

- أنا مش بَحِب أرُوح عنده يا صلاح.

- لا يا راجل.. للدرجة دى؟

- هاتروح وتشوف بنفسك.

اشترينا تذكرتين، وكل واحد ضَرَب واحدة.. وقلت لصاحبي:

- ياه!! "واللاّ زمان يا ديناري".. على رأى عادل أدهم.

انطلقنا إلى بيت حسام، وكانت معه دعاء وناسي، وثلاثة آخرون من مصر الجديدة.. ضربت معهم أكثر من مرة.. وبعد السّلامات والقُبلات.. تجولت في البيت، منظم لكنه رخيص، ويبدو أن دعاء حاولت تنظيفه، لكن ماذا تفعل في هذا الوضع البائس؟

حكيت لهم على تجربة السفر، وما فعلته خلال الرحلة.. وكان تعليق حسام:

- يا ابن الإيه؟ تتاجر فى أمريكا؟ "كراكس" بصحيح.

لاحظت أن الثلاثي حسام ودعاء وناسي فقدوا وزنهم، واختفت الدماء من وجوههم، وشكلهم "ضايع ومدمنين من غير فصال".. فهمت بوضوح أن الشقة عبارة عن دُولاب مفتوح.

والحديث الذى يدور بينهم: تعْرَف فلان؟ بيضرَب مع فلان وفــلان.. وفلان بيضرب مع أخته.. بعضهم لا أعرفه، وبعضهم سمعت أسماءهم ولم ألتق بهم.. وبعضهم "حَشَشْت" معاهم منذ سنوات.

قضيت بعض الوقت مع الشباب، وسمعت منهم آخر أخبار الإدمــان، والمشكلات التي سببها، ومنها القبض على فلان، ووفاة فلان، ودخــول فــلان المستشفى، ولكني لم أسمع أن أحدهم توقف عن التعاطي، وشفي من هذا الداء.. وبعد عودتي من هذه الرحلة، تحدثت الإشاعات عني، وقيل إنني ســافرت مــع أسرتي إلى أمريكا للعلاج هناك من الإدمان.

عدت إلى بيتنا.. ولم يتم اكتشاف أمري في هذا اليوم.

وفي صباح اليوم التالي اتصلت بصديقي شريف للذهاب إلى دولاب من الدواليب، فردت والدته:

- إزيك يا طنْط، أنا صلاح.

وقبل أن ترد السلام والتحية.. قالت بانزعاج:

- الحقني يا صلاح.

- فيه إيه يا طنط؟ خير!!

- شريف وصل من ساعة، وطبعا واخد زفْت على دماغه.. دخل بيطوح ومش فاهمة منه أي حاجة، نام على السرير وبطل يرد عليّ خالص.

- كلمي دكتور يا طنط.

- كلمت المستشفى، وقالولي ماتخافيش، وهييجو ياخدوه. بس أنا خايفة يجراله حاجة.

- أنا جيّ حالا يا طنط.

شريف كان يذهب إلى الجامعة في الإسكندرية، وعندما أسرف في التعاطي و"خرب الدنيا" رجع من هناك.. كانت قصة إدمانه معلنة في كل مكان.. بذل أهله أقصى ما في وسعهم لمساعدته، وكانوا يفشلون في كل مرة، ولكن أحد

الحلول التي توصلوا إليها ونفذوها فعلاً، كانت إرسال شريف إلى المستشفى.. أو حضور المستشفى لأخذه، وعندما كنت أسأل حسام عنه:

- شريف فين.. اختفى؟!

- في المستشفى.. إتشحن من أسبوع.

وكل مرة ذهب فيها شريف للمستشفى، كانت له قصة مختلفة.

ما بين منزلي ومنزل شريف، دقائق معدودة، نزلت في ثانية، ووصلت إلى منزله، فتحت لي والدته:

- هو فين يا طنط؟

- جوه نايم على سريره، مش عارفة أعمل له إيه؟!

- أنا سمعت لما حد يحصل له كده يشرَّبوه ميه بملح.

- ادخل شوفه، وأنا أعملَّه ميه بملح.

دخلت إلى شريف في غرفته لأجد منظرًا غريبًا، شريف نصفه نائم على السرير وقدماه على الأرض، ويرتدي رجلا واحدة من البنطلون والأخرى مخلوعة، ويرتدي أيضا فردة حذاء واحدة.. نائم، ولا يتحرك وعلى صدره عنقود من العنب، ويده مفتوحة، وقد وقعت منها سيجارة على السرير غير مشتعلة، ويده الثانية مفتوحة بلا سبب واضح.. أول ما خطر في بالي أن أطمئن عليه.. وجدته فاقد الوعي، ناديت عليه بأعلى صوتي لكنه لم يرد، فضربته على وجهه فاستجاب، فاطمأن قلبي، فهو يمر فقط بحالة غيبوبة مؤقتة، وسوف تمر مع الوقت، ومن واقع الخبرة هذا يحدث كثيرًا.

وبدأ حديث ومونولوج داخلي:

- يا ابن الإيه يا شريف، دا أنت ضارب ضرب مبرح!! يا ترى معاه تاني؟!

وفي ثانية وضعت يدي داخل جيوبه، ولم أجد إلا علبة السجائر.. وهو دائما يضع المخدرات في علبة السجائر.. فمددت يدي وأخذتها وفتحتها لأجد ورقة كبيرة جدا، وبها كمية لا تقل عن 2 جرام، وفي هذه اللحظة، سمعت

صوت وقع أقدام.. إنها والدة شريف قادمة، فتركت العلبة مكانها وتحدثت معها بهدوء:

– أطمني يا طنط.. هو كويس.. بيتحرك إنما محتاج ينام شوية.

وبدأت والدة شريف في سرد الشكاوى:

– حرام عليه اللّي بيعمله، أنا مش قادرة.. خلاص هامُوت.. دمّرني ودمر البيت كله.. باباه سافر من كام يوم، وأنا مش عارفه أعمل إيه.

جلست استمع إليها، لكن سيطر على تفكيري رغبة عارمة في الحصول على الورقة التي بها 2 جرام الموجودة في علبة السجائر، وأثناء حديثها سمعنا جرس ودقات على الباب، فأسرعت والدة شريف لفتح الباب، وفي اللحظة نفسها مددت يدي لأخذ البودرة من علبة السجائر، ووضعتها في الشراب.. الحمل الوديع تحول إلى ذئب.. وشعرت بالسعادة البالغة، فقد تم حل مشكلة أسبوع على الأقل.

كان الطارق هو الدكتور وليد، ومعه فريد، وحسنين، وصادق من الممرضين في المستشفى، لم أعرفهم لأنني لم أرهم من قبل، وقدمتني لهم والدة شريف قائلة:

– صلاح.. من أصحاب شريف الكويسين.

شد الدكتور على يدي، بينما بدأ الثلاثي فريد وحسنين وصادق يتحركون بخبرة، وحاولوا إفاقة شريف، وأيضا مراجعة جيوبه وفتحوا علبة السجائر.. وتأكد فريد من خلوها من المخدرات، ثم أعادها إلى جيب شريف.. وقلت في نفسي:

– فَرَقْتْ مَعاك 3 دقايق.

وبدأ حسنين في مساعدة شريف على الوقوف، ورفع فريد رجله ليضعها له داخل البنطلون.

استمر الطبيب في حديثه مع والدة شريف، وقال لها:

- المرة دى لازم يقعد شوية كُوَيِّسين.

- أنا مش عايزة أشوفه تاني، خلوه عندكم سنة.. هي دى المرة الكام يا دكتور وليد؟

- مش عارف.. بس مش أقل من العشرة.

- وبعدين.. وآخرتها؟! يموت ويريحنى، فى ستين داهية.

بدأ شريف في الإفاقة، وأمسك الدكتور وليد بيده لقياس النبض وسأله:

- إزيك يا شريف؟

أخذ شريف يحاول فتح وغلق عينيه، ليتأكد من شخصيات الموجودين أمامه، ويتعرف إلى صاحب الصوت الذى يكلمه.. بينما ذهبت والدة شريف لتحضر شنطة المستشفى المعتادة، ومرت لحظات فى حوار فكاهى عجيب:

- أنا كويس.

وطبعاً شريف قال "أنا كويس" بمعجزة، فسأله الدكتور:

- كويس إزاى يعنى!! إنتَ مش حاسس بنفسك؟!

- من فضلك يا دكتور كلِّمنى كويس، أنا بنى آدم.

- هو أنا قلت لك حاجة غلط؟!

- إنتَ بتعاملنى معاملة غريبة، وبعدين أنت إيه اللِّى جابك هنا؟!

- وَحَشْتِنِى.

- أنت بقى ماوَحَشْتِنِيش.

تلفت شريف.. وبدأ ينظر حوله فوجد فريد وحسنين وصادق..

وفى دهشة بالغة قال:

- إيه ده!! هو أنا فى المستشفى واللاَّ إيه يا دوك؟!

- لأ.. إنت فى البيت.

- أمال المستشفى كلها هنا ليه؟

– علشان إحنا بنقدّرك.

– بقولك إيه يا وليد.. مش عايزين النهارده.

وفجأة تحركت من مكانى، فانتبه شريف إلى وجودى.

– إيه ده.. صاصتّو.. هو إحنا كنّا مع بعض يا صاصتّو؟!

– لأ، أنا كلمتك.. ومامتك قالت لى إنك تعبان شوية، فجيت أشوفك.

– ده صاصتّو.. لسه راجع من أمريكا.. حبيبى.. مستر كَراكس.

– وإنتَ كمان حبيبى يا شريو.

– صاصتّو.. مَشّى الناس دى من هنا.

دخلت والدة شريف تحمل شنطة فى يدها.

– ياللا يا شريف.

– على فين يا ماما؟

– يعنى حنكون على فين؟

– إيه ده.. سويسرا تانى؟ لا.. لا.. إنتِ كده بتظلمينى.. والله حرام عليكِ.. مش تتأكدى الأول.

– أتأكد من إيه؟!!

يرد شريف عليها بمنتهى الصعوبة:

– تتأكدى إن أنا واخد.. دا هى صليبة واحدة.. كان عندى صداع فأخدت برشامة.. إيه المشكلة؟

تدخل الدكتور وليد لإنهاء هذه المهزلة قائلا:

– ياللا يا شريف على المستشفى، وبلاش تتعبنا.

– وبعدين معاك يا حماده.. مش قلنا إن أنا بنى آدم؟

– وإنتَ شايفنى باقولك يا حصان؟

– يوووووه.. إنتَ هتهزر واللا إيه؟! يا صاصتّو، مَشّى الراجل دا من هنا.. قول له يفوت علينا كمان أسبوع.

- عيب يا شريف، متتكلمش مع الدكتور كده.

- إنت مش شايفه بيعاملني ازاى.

وانتبه شريف فجأة:

- فين علبة السجاير؟

كان فريد واثقا أن العلبة ليس بها أى مخدرات، فقد أعادها إلى جيبه، بعد أن فتشها جيدًا فقال له:

- فى جيبك.

- أنا قلت انقلبت ولا حاجة... حركاتك يا حسنين.

- يا ماما، هو أنا حاقعد في سويسرا أد إيه؟

- منك لباباك، أنا مليش دعوة.

وجه دكتور وليد حديثه إلى والدة شريف وسألها:

- حضرتك جاية معانا؟

- لأ.. بكره إن شاء الله، النهارده أعصابى مش مستحملة.

استمر شريف لمدة 5 دقائق يسلم، ويقبلنى، ويرجونى أن أزوره فى المستشفى، فوعدته بالذهاب مع والدته لزيارته فى اليوم التالى.

- أنا هاجى مع حضرتك بكره للمستشفى.

- ياريت يا صلاح.. عدّى علىّ الصبح ونروح سوا.

انطلق دكتور وليد ورجاله إلى خارج الغرفة ومعهم شريف، وكان يتحدث دون انقطاع:

- إنتم كده بتظلمونى.. ماشى يا ماما.. ماشى يا وليد.

- معلش، إحنا وحشين.

- إيه يا عم الدكتور.. أنت بتكلم واحد فى حضانة والّلا إيه؟

- أنا غلطان يا شريف.. حقك علىّ.

- قول أنا آسف.

- ممكن تقعد ساكت شوية.

وذهب شريف إلى المستشفى، بينما ذهبت إلى الصيدلية وبدأت الاستمتاع بـــ 2 جرام.. كنت واثقا من جودة نوعية البودرة، فتعاملت معها بمنتهى الحرص.. وإحساسى بأن معى 2 جرام كان يعطينى الثقة فى التعامل مع الجرعة بهدوء.

تمت ساعات قليلة، استعدادًا للذهاب إلى المستشفى، كما وعدت فى اليوم التالى.. أخذت سوسته "سنمورنج" بالقدر الذى يساعدنى على الاستمتاع، وفى الوقت نفسه التعامل مع البشر، فأنا أعلم أن والدة شريف لديها خبرة شديدة فى مثل هذه الأمور، ولا أريدها أن تكشفنى.. اتصلت بها ثم ذهبت إليها كما اتفقنا.

تحركت فى سيارتى الجميلة، فهى تفهم جيدًا أنه من المستحيل أن يكون هناك مدمن، ويمتلك سيارة بهذا الجمال.. مررت عليها وأخذتها من المنزل، وبدأت فى سرد قصة حياة شريف مع المخدرات:

- هى الجامعة اللى فى اسكندرية اللى بوّظته وضيّعته.

ومن جانبى كنت أرد عليها ردودًا بريئة ودبلوماسية:

- معلش يا طنط، إن شاء الله هيبقى كويس.

وتستمر فى سرد المصائب:

- صرف كمية فلوس!! ده سرق فص الدهب بتاعى وعربيته اللّى باعها.

إنها حقًا مأساة.. كنت أستمع إليها لدقائق معدودة، وأسرح وأغيب عنها وعن حديثها لدقائق، إلى أن وصلنا إلى مستشفى تبعد قليلا عن القاهرة، وتلقت التحية من الكثيرين، فمن الواضح أنها معروفة ومحبوبة فى هذا المكان.. وكنت أتوقع أن أرى مستشفى مثل بقية المستشفيات، إنما فوجئت بحدائق واسعة وأشجار وكافتيريا هادئة.. حقًا المكان جميل..

تجولت في المكان، ورأيت لافتات كُتب عليها: الـجيم، حمام السباحة، وتشير أخرى لفتت انتباهي إلى: "قسم الإدمان"، وقلت لوالدة شريف:

- المستشفى حلوة أوى، ولا النادى.

- هى كويِّسة فعلا، بس هى آخر مكان بأحب أجيه.

وصل الدكتور وليد وسلم علينا، وأخذنا إلى غرفة الاستقبال.. جلسنا فيها، وتحدث طويلا عن حالة شريف، وأثناء ملء أوراق دخوله إلى المستشفى، كانت الأم في حالة يرثى لها.. وكنت أتوقع أن أرى شريف، وكنت عامل له مفاجأة؛ فهو أصلا صاحب الـ 2 جرام اللِّي معايا، فجهزت له سوسته وتركتها في السيارة، وعندما سألت الدكتور:

- هو شريف فين يا دكتور، مش هانقابله؟

- لأ طبعا، ده في "الدِّيتوكس".

- "دِيتوكس"؟!!

- يعنى العزل، علشان يعدِّى أعراض الانسحاب.

- طيب ممكن أشوفه إمتى؟

- كمان تلات أو أربع أيام، مش قبل كده.

ومر في خاطرى سؤال مهم.. سألت نفسي:

- هو أنا إيه اللِّي جابنى هنا، مادام مش هاشوف شريف؟!

تركتهما وخرجت من المستشفى لآخذ سوسته من السوستتين الجاهزين، كمية بسيطة تريح الدماغ، ثم عدت إليهما ولم يكتشف أحد أنى أخذت جرعة مخدرات.. وعندما جلست معهما أثناء إنهاء الإجراءات، سمعت اسم أحد الأصدقاء الضرِّيبة المشهورين، فعرفت أن هذا المكان ما هو إلا ملتقى الأحباء.

دفعت والدة شريف مبلغًا كبيرا من المال، وعادت معى في السيارة، وبدأت في سرد فصل جديد من الشكوى، وكل نبرة تؤكد حزنها وآلامها وشعورها بالاكتئاب بسبب صديقى العزيز شريف.

تركت والدة شريف عند منزلها.. أخذت حقنة أخرى ثم عـدت إلـى البيت، وكان واضحًا أنني تعاطيت البودرة.. أمي كانت في انتظاري مع أختـي رولا، وهما في حالة ترقب، وعلى لسانهما سؤال واضح: يا ترى كيف يعود إلى البيت.. مع من؟ وفي أية حال؟ وبمجرد أن فتحت الباب، نادتني أمي قائلة:

- تعال وريني دراعك.. ومن غير ما أشوف.. وشك كفاية.. كل شيء واضح.

وانهارت أختي باكية وقالت:

- تاني يا صلاح؟ ليه بس كده؟! حرام عليك!!

- إنتم مش فاهمين.. أنا كنت محتاج أضرب المرة دي بس.. أوعدكم أني مـش ها آخد تاني.. أنا راجع من سفر وتعب، وعمري ما كنت ها اعرف أهدا مـن غير ما آخد المرة دي يا رولا.

- أد إيه نفسي أصدقك، بس مش قادرة.

تدخلت أمي في الحديث قائلة بحدة:

- اسمع كويس.. أنا مش مستعدة أتخيل إننا نبتـدي الموضـوع ده مـن الأول وجديد.. مش هينفع أبدًا.. فك شنطك وأتصرفوا مع بعض.

فقلت متوسلاً:

- من فضلك إهدي بس يا أمي.. هي المرة دي وخلاص.

- لما نشوف.. وأفلح إن صدق.

فتحت الشنط.. ووقفت مذهولاً.. يا إلهي!! ما كل هـذه المـشتروات.. ملابس وهدايا تكفي العائلة والأقارب، والأصحاب وجيـران الجيـران؟! فيهـا الصيفي، والشتوي، والخريفي، وتفضلي يـا أمـي.. وبابـا.. تفـضل.. ورولا حبيبتي.. وكريم بك.

وطبعًا.. كانت هناك هدايا مريم ومصطفى وحسام ودعـاء، وميـدو، وبونو، وريكو، وزوزي، وعلاء.. وفتحي.. تذكرت الجميع، وكل واحد كانت له هديته المحترمة.. طبعًا.. صلاح أبو الكرم.

ورجعت أشرب ويسكي بشراهة، و"ألف" سجاير، ولاحظت ظاهرة انتشار البانجو، وبخاصة في العتبة، وأن نسبة كبيرة من الشباب تدخن البانجو الذي سيطر على السوق، فهو يشبه الماريجوانا مع الفارق أن الماريجوانا "تلوح، تسطل".. ورأيي أن البانجو مخدر يجعل الإنسان عبيًا إلى أقصى درجة، ضيق الأفق، بطيء التفكير.. وبعد سيجارتين بانجو، كنت أشعر بالتوتر، وأنني عصبي جدًا؛ فقد أحسست أن مخي توقف، وأنني لا أفهم ماذا أقول.. وبعد كل جوينت أردد:

- أنا مش عارف قصدي إيه!! أنا مش عارف أنا بقول إيه!! انا مش عارف أفكر!!

وكثيرًا ما ضحكنا على تلك الجملة، وعلى جمل أخرى تشبهها.. وبعد أسبوع، قابلت حسام مصادفةً، ودار بيننا الحديث العادي:

- على فين العزم؟

- أم سيد رجعت تشتغل تاني.. الباب الأسود يا باشا.

تكررت المأساة مرة أخرى.. وبدأت أضرب من جديد، وبعنف، رغم أنني لم أكن أريد الدخول في الدائرة السوداء المظلمة من جديد.. حقا لا أريد، ولكن لقد انزلقت قدمي في المحظور.. فما الحل؟ "تريكسان" أحد الحلول، وهو دواء بدأ يعرف في ساحة الإدمان، والمعروف طبيًا أن المدمن إذا أخذ حبة "تريكسان"، وتعاطى البودرة بعد هذا؛ فإن احتمال الوفاة وارد جدا، وقد حدث هذا مع أكثر من مدمن.. ولو لم يفقد حياته وعمره، فهو لن يستمتع بالبودرة، بمعنى أن "التريكسان" عدو البودرة، والعدو الأول للمدمن، ومفعول الحبة الواحدة من "التريكسان" يمتد لمدة ثلاثة أيام.

كنت أعرف كل هذه المعلومات، ولكنى لم أذكرها لأحد في أسرتي؛ حتى لا يستخدم ذلك ضدي في أي يوم من الأيام.

وفى تلك الليلة رجعت البيت، وبنظرة واحدة كشفتني أمي.. وقد شعرت بالاكتئاب، وارتجفت عندما رأيتها جالسة في انتظاري، ودموعها في عينيها..

قلت لها بكل الصدق:

- أنا فعلا مش عايز أضرب، ومش عارف أعمل إيه.. والنبي ركزي معايا.. أنا عارف إنك عارفة كويس إني خلاص رجعت آخد تاني من أول وجديد، والدنيا هتدمر وهاضيع تاني، وده ماينفعش.. أنا يا أمي في مصيبة سودا.

ولم تتحرك.. فمثل هذا الكلام سمعته كثيرًا.. فقلت:

- يا أمي أسمعيني.

- نعم.

- فيه دوا اسمه تريكسان، وأنا لازم آخده.

وكلمتها عن هذا الدواء، وبدأت تتفاعل مع كلامي.. وفهمتني بسرعة، وسألتني باهتمام:

- منين الدوا ده؟

- موجود، وممكن أجيبه بوقت.. المشكلة ماينفعش آخد الدواء ده، غير لما جسمي يكون نضيف من البودرة 100 % علشان لو فيه بودرة في جسمي، تبقى مشكلة.. ولازم أبعد عن القاهرة على الأقل تلات ايام، وأرجع آخد تريكسان.. مستحيل تنجح الخطة، وأنا هنا في البيت.

تكلمت من قلبي وبكل صدق.. وكنت في هذه اللحظات ضارب، وكلام الضاربين دائمًا كلام مقنع ومن القلب.. في اليوم التالي سافرت إلى الإسكندرية مع أمي، ونزلنا في فندق جميل على البحر.. أما الوالد فقد فهم أنها رحلة استجمام سريعة، وعندما عرضنا عليه فكرة السفر معنا، اعتذر، فأعماله الكثيرة تمنعه من القيام بمثل هذه الإجازات الترفيهية والاستثنائية.. وكانت مشكلتي أن جسمي تعود البودرة من جديد، وليس من السهل التوقف عن التعاطي.. ومرت

الأيام الثلاثة الأولى بصعوبة بالغة: ألام ومغص في البطن، إسهال مستمر، الأنف أشبه بصنبور مياه مفتوح.. أربعة أيام كأنني في الجحيم.

ومرت الأيام الأربعة، وقبل الرجوع إلى القاهرة أخذت حبة "التريكسان".. وبقدر التعب الرهيب الذى عاشته أمى خلال تلك الأيام، بقدر شعورها بالسعادة لبدء العلاج بدواء "التريكسان".. شعرت أن هناك علاجا، وأن هناك حلاً.. والمفروض أن آخذ حبة واحدة كل ثلاثة أيام، ولكنها أعطتني حبة كل يوم.

ارتفعت معنويات أمي، وأيضا أختي رولا، وكانت تقضي معي أوقاتا طويلة، تحدثني في مواضيع لطيفة مختلفة.. هي سعيدة وتشعر بارتياح، وأنا أيضًا.

وعادت الحياة الطبيعية في بيتنا بفضل تناول هذا العلاج.. وعادت أمي إلى الطلبة والمحاضرات وتصحيح الامتحانات، وانتظمت رولا في عملها، وقررت رؤية أصحابى أحمد، وحسين، ورامى، وبهاء؛ إذ إننى لم أرهم منذ عودتي من أمريكا.

وجدت ميدو وعلاء في البيت، وصارحني علاء بأنه قرر الهجرة إلى كندا، وكان من الواضح أنه استنزف معظم أمواله من الميراث؛ فمنذ عشر سنوات وهو ينفق ببذخ جنونى ودون حساب للأيام القادمة.. أما ميدو فقد تسلم العمل في إحدى الشركات الكبرى، وصارحني هو الآخر بأن طبيعة العمل لا تعجبه، ولكنه أفضل من الإحساس بالملل، والبقاء في البيت بلا هدف.

عندما سألت عن الشباب.. كان من الواضح أن ميدو يفضل عدم الحديث في سيرة الأصدقاء، ولكن علاء صمم، وكأنه انتظر مني هذا السؤال، الذى يريد الإجابة عنه بكل إصرار، قال علاء:

– حسين خطب نيفين وهيتجوزوا قريب.

– لا ياراجل.. أخيرا.. بس بصراحة، نيفين دي أستاذة.

- بهاء يا سيدي خلص ميراثه كله أو معظمه، وداخل خارج من المستشفى، خلاص بهاء أدمن.. والمصيبة إن أخوه الصغير بدر، بيضرب هو كمان.. الاثنين خاربينها على الآخر.. أما حبيبك رامي جاله فيرس "سي"، وخرج من المستشفى من أسبوع وجالنا من يومين.. وبصراحة زعلت عليه جدا لما شفته.. دا مش رامي اللي نعرفه.. ده واحد تاني، اتبهدل، وهو مش وش بهدلة، وأبوه اللواء طول اليوم ماشي وراه.. خايف عليه.. أبوه يصعب على الكافر.

لم يشارك أحمد في الحديث، ولم يعلق، وأراد أن يغير الموضوع أكثر من مرة، لأنه حزين من تكرار سماع هذه الأخبار السوداء، ثم قال أخيرًا:

- إنت ناوي تعمل إيه يا صلاح بعد ما رجعت من أمريكا؟!

فقال علاء نيابة عني:

- ناوي يضرب طبعًا.

رد أحمد بغضب:

- بس يا علاء، بلاش سخافة.

- صلاح عمره ما هيبطل.. زيه، زي بهاء، ورامي، وتعلمك الاثنين دول، كمان، آخرتهم قربت وها افكرك.

كان لابد من التدخل في الحديث فقلت:

- خليك في نفسك يا علاء. يعني إنت يا واد عملت مشاريع كسرت الدنيا، ومصر كلها بتحكي عنها.

- بس على الأقل أنا مش مدمن.

- آه.. صح.. 15 سنة بتشرب حشيش وبيرة كل يوم، ومش مدمن.. يعني "أم توتو" هي اللي مدمنة؟!

كلمة "مدمن"، عندما أسمعها، كأن ماسًا وتيارًا كهربائيًا صعقني، ويضايقني سماعها، حتى عندما تقال لأحد غيري.. قلت لميدو:

- بأقول لك يا ميدو.. تعال نخرج شوية.. أنا مش عايز أقعد في البيت.. أشوفك

بُكْره يا علاء.

- على فين العزم يا صلاح؟ مُسْتَشْفَى إيه المرة دى؟

- لا.. مفيش مستشفيات المرة دى، انا ها أخُد ميدو أفرّجهُ على العربية الجديدة.

- يا سيدى.. يا سيدى.. إشْتَريت إيه؟

- اطلع البلكونة، واتفَرَّج.

وكانت هذه لحظة الانتصار على حديث علاء الهجومي.. وبعد رؤيته السيارة، خرجت مع أحمد، وعملنا جولة في المهندسين، وفي الزمالك، وفي الدقي، وطلبت من أحمد أن أرى بهاء ورامى.. فعلا تمنيت رؤيتهما، لكنه رفض قائلاً:

- أكيد بهاء فى المستشفى.. أمهُ كل أسبوع بتشْحنهُ على هناك، وتلوقت بيقْعد فى المستشفيات، أكتر من البيت.. بهاء صرف كل فلوسُه.. أنت مش مْتخيّل خربها إزاى!!

- وريكو يا ميدو؟!

- رامى يصعَب عليك.. لو شفتهُ مش هتصدّق.. مبهْدل فى نفسه.. خس جداً.. فوّر العربية، ودخل المستشفى مرتين أو تلاتة السنة اللّى فاتت ومفيش فايدة.. مش بيكمّل أسبوع، ويرجع يضرب تانى.. وآخر مرة باباه زارنى وتكلّمنا سوا.. الراجل يائس ومش عارف يعمل إيه.. من أسبوع كان عندى وقال لى إن رامى جاله فيروس سى، والدكتور قال لو فضل يضرب، الكبد مش هيستحمل، ورامى هيموت.

- يا نْهار أسود!! إيه اللّى بيحصل ده؟!

- دا إنت مش عارف حاجة.. فيه عشرة ماتوا السنة دى.. فلان وفلان وفلان.

- إيه دا يا ميدو؟ كل ده حصل فى سنة وكام شهر؟

- الحمد لله إنك إنتَ كويس.

- مش ها اضحك عليك.. أنا باخد تريكسان.. هو ده اللي حاميني.. أنا خربتها أول مارجعت، وبعدين قلت مابيدهاش. وباخد تريكسان كل يوم.. بس يا ميدو بقيت باشرب وبسكي واحشش كل يوم بكميات رهيبة.. والبانجو ده كمان لاحسلي دماغي.

- البانجو كارثة.. إنت عارف يا صاصو إنهم بيدوه للجمال في السودان علشان ما تهيجش.

- لا يا راجل!! بجد؟!

- آه والله.. وكمان بيدمر خلايا المخ، ويخليك أغبى من الحمار.

عدت إلى بيتي، وبعدت عن الضربية، ورجعت حياتي شبه طبيعية، وإذا قابلني واحد من الضربية وسألني:

- إيه النظام؟

أجيب على الفور:

- تريكسان.

وبقدر اشتياقي للضرب.. بقدر شعوري بالارتياح، وحرصت على لقاء مصطفى، وعدت للسهرات الأنيقة، والسهرات الجميلة، وقضاء الأوقات الممتعة بعيدًا عن هذه الدائرة السوداء.. كان الخمر هو سيد الموقف.. كنت أخرج كل ليلة مع مصطفى وسندس، ومريم، وكنا نحن الأصدقاء الأربعة نستمتع بالخروج معًا.

وبدأ والدي يدق على نغمة البحث عن عمل، قائلا:

- مايتفعش اللي بتعمله ده!! حياتك عبارة عن خروج وسهر وبنات وخلاص.

- حاضر يا بابا.. والله بادور على شغل، وقريب جدا حتلاقيني اشتغلت.

وبالمصادفة، حكت لي مريم عن صديقتها التي تعمل في شركة سياحة، والشركة تبحث عن مدير تسويق.. وهي شركة كبيرة، وصغيرة في الوقت نفسه لأنها مكونة من أربعة أشخاص: صاحب الشركة سيف، وشريكته وصديقته

بوسي، والسكرتيرة حنان.. وعامل الشركة "الدينامو" يسري.. وفي أول لقاء مع سيف، أعجبني من الوهلة الأولى، وقلت لنفسي:

– هو ده اللّي أعرف اشتغل معاه.. ويفهمني وافهمه.

كان سيف شابًا في متوسط العمر، حوالي 45 سنة، شعره طويل ويجمعه خلف ظهره على هيئة ذيل حصان، وتكلمنا معًا في موضوع السياحة.. ومن خططه التوسع وشراء مكتب جديد، ينتقل إليه بعد شهرين، بعد الانتهاء من أعمال الديكور.

وخلال فترة زمنية قصيرة، أصبحنا أصدقاء، وأسعده أنني فهمت التعامل مع هذا العمل الجديد بسرعة، وبدأت أخاطب الشركات العالمية التي ترسل لنا السائحين، ومعظم هذه الشركات إنجليزية وسويدية وأمريكية، وكنت أجيد التفاهم معهم.. ومن خلال لقاءاتي مع أصحابي أعضاء النادي، والحديث معهم عن رحلات إلى شرم الشيخ، وبدأت أجتذب عملاء جددا.. وكلما مرت الأيام.. أعجبني هذا العمل أكثر، وأكثر.. سافرت مع سيف إلى شرم الشيخ للتعرف إلى أصحاب الفنادق التي نرغب في التعاقد معهم لاستقبال الأفواج القادمة.

وكانت مريم أسعد إنسانة في الدنيا، فهي وراء قبولي في هذه الوظيفة.. نعم هذا التعارف بصاحب الشركة جاء من خلال صديقتها، وهي التي فكرت وخططت لهذا التعارف، ووضعت النهاية الناجحة بإتمام الموضوع.. وذات يوم جاءتني مريم، وأبلغتني أنها تريد أن تعمل خارج مصر، لتدخر مبلغا من المال استعدادا للزواج.. وكانت العلاقة بيننا تنمو وتسير في هذا الخط، وأصبح هذا الموضوع بالنسبة لي حيويًا، وأخذته بجدية وطريقة عملية.

والحق يقال أن مريم تحبني الحب الحقيقي، بل "الجنوني" وتحملت معي كثيرًا.. لقد وقفت بجانبي في موضوع الضرب وقفة مخلصة.. وقفة رجال، وأهم من هذا وذاك أنني ربيتها بنفسي، ولا شيء عنها يخفى عليّ ولا أعرفه..

أنا الرجل الأول والوحيد في حياتها، وبالنسبة لي، فإن هذا الأمر بالغ الأهمية.. وكنت أتمسك بتقاليد وطباع الرجل الشرقي، وكان هذا يسعدها.. وبعد محاورات ومناقشات، وافقت على شرط ألا تزيد التجربة عن سنة واحدة فقط لاغير، تدخر خلالها ما تدخره، وينتهي الأمر.

سافرت مريم وبدأت العمل بعقد لمدة عام، ولم تعترض أمي، فهي بكل صراحة تحبها وتثق فيها، وتقدر موقفها البطولي معي في كارثة الضرب أو الإدمان.. ولم يكن والدي طرفا في هذه الموضوعات نهائيًا.. لقد رأى عشرات البنات معي.. أشكالا وألوانا.. بنات مصريات، وبنات أجنبيات، ولم يركز أبدا في صداقاتي وعلاقاتي.. فقط يعرف أسماء بعضهن من خلال الاتصالات التليفونية، وعندما يرى إحداهن، يناديها باسم آخر؛ مما يسبب لي مشكلات كثيرة، وكثيرًا ما قلت له:

- مش لازم يعني تدقق في موضوع الأسماء.. مريم تقول لها يا هالة، وناسي تناديها باسم راندا.. يا سيدي كفاية تقول: إزيِّك وخلاص.

ومنذ عودتي من أمريكا، لم أر أخي كريم أكثر من مرتين أو ثلاث.. وهو عند رأيه أنني شاب مدلل، وأن أهلي هم السبب المباشر فيما أنا فيه.. والحديث بيننا لا يتجاوز السلامات والأخبار العامة.. وهو كعادته لا يتابع تفاصيل الأحوال الأسرية.. كل شيء من بعيد.. لبعيد.. وساهم في هذا سفرياته المتكررة إلى إنجلترا للعمل، والدراسة.

بعد العمل لمدة شهرين أو أكثر قليلا في مجال السياحة.. بدأت الاهتمام بمتابعة التوكيلات، التي وقعنا عليها مع الشركات العالمية، وأعجبني هذا العمل، أتقنته وأحببته.. حقا إنه عمل جميل.. وتذكرت عندما كنت في أمريكا، أنه قد ظهرت موضة "كاسكيتات" اللعبة الشهيرة "بيس بول"، وسيطرت هذه الموضة على كل الأسواق باكتساح، واقترحت على سيف فكرة استيراد كمية من هذه "الكاسكيتات" وبيعها للشركات السياحية في الغردقة وفي شرم الشيخ، والاستفادة

بها فى الإعلان والدعاية عن شركتنا، وغيرها من المشروعات فى المجـالات المختلفة.. نالت الفكرة إعجاب سيف، وبأخلاقه الرفيعة قرر أن أنفذها لحسابى الخاص؛ لأن الفكرة فكرتى، ولكننا بدأنا معا نناقش الكمية التى نستوردها كبداية، ولمن نبيعها.

وبعد أن أطمأنت أمى على استقرار حالتى الصحية، واهتمامى بالعمل، توقفت عن إعطائى دواء التريكمان، وعادت إلى التركيـز فـى محاضـراتها، والطلبة، والامتحانات والتصحيح، والكونترول، وانتظمت رولا أيضا فى عملها، كما سافرت مريم وبدأت العمل.. ولكن لم يفتها الاتصال بى ومعرفـة أخبـارى ومحادثتى عن أخبارها، وفى يوم من الأيام.. قالت فى أحد اتصالاتها:

– الحاجة الوحيدة اللى مصبّرانى على السفر، هى الفلوس اللى بدأت أحوشـها؛ علشان اشترى أجمل فيرنيتشر* لبيتنا.. أنا نفسى يبقى أحلى بيت فى الدنيا.

– والله وَحَشْتِينى يا مريم.. بجد وحشتينى.

لقد بدأت أشعر فى عدم وجود مريم معى، بأن هناك شيئًا ما ينقصنى.. عواطفى ومشاعرى كلها تتحرك فى اتجاه مستقبلنا معا.. وفى تلك الفترة، تقدمنا فى عملنا، وكنت أسافر كل أسبوعين إلى شرم الشيخ أو الغردقة.. والتجهيـزات لاستلام المقر الجديد تسير من حسن إلى أحسن، وتلقينـا أول مجموعـة مـن الكاسكيتات.. وفكرت أن أحكى لوالدى عن الفكرة وأناقشها معه، وفى يوم قلت له:

– يا بابا.. أنا استوردت "بيس بول هاتس".

– يا ابنى.. إبْعد عنّى.. "بيس بول هاتس" ايه بس؟ مين ده اللّى يشتريها منك؟!

– ناس كتير جدًا.. تخيّل يا بابا.. أنا طلبت وعملت اتفاق على كام واحدة؟!

– مَا أعْرفْش.

– تخيّل كده؟!

---

* أثاث.

- 100 أو 200.

- 1400، وكلهم إتباعوا.. وكمان اتباعوا قبل ما يتشحنوا.

- بقول لك إيه يا صلاح.. إنت خلاص اتجننت.. عندي مشروع لازم أخلصه، وأقدمه خلال يومين.. إطلع برّه، وأقفل الباب وراك.

تمنيت أن يمنحنى دقائق ليناقشني أو يشجعني.. ولم يحدث.. لم يصدق والدى الرقم، ولكنه صدق عندما وصلت الكاسكيتات، وتسلمت مكسبى من بيعها، وأنفقت المبلغ كله، كما أنفقت غيره من قبل.

استمرت الحياة هادئة وبلا مشكلات لأسابيع معدودة.. شغل، سهر، خروج، شرب ويسكي، بيرة، حشيش، بانجو.. وذات يوم ذهبت إلى المكتب، وعندما وقفت بسيارتي، فوجئت بمن يفتح بابها.. يا إلهى!! من؟!

- رامي.. ريكو!!

- كده يا صاصو؟! إنت طلعت ندل.. سمعت إنك رجعت من أمريكا.. ولا تقول، ولا تسأل؟

- عندك حق يا ريكو.. والله مش عارف أقولك إيه؟

- إنت جاى هنا ليه؟

- اشتغلت في العمارة دى.. اشتغلت في شركة سياحة، يومين هنا، ويومين في شرم، ويومين في الغردقة.. إنت أخبارك إيه يا ريكو؟

- أنا لسّه خارج من المستشفى.

- شكلك كويس.. وشك رايق، ووزنك زاد، وزى الفل.

- وإنت كمان يا خويا.. وإيه العربيات الحلوة دى؟! باقولك إيه ها امشى العيال اللى معايا دول وراجع لك حالاً.

لقد افتقدت رامي.. يااااه.. "واحشني جدا".. إنه أكثر صديق أحبه..

ورجع رامي، وحكى لي عن نفسه:

- لطشت معايا الفترة اللي فاتت.. جالي فيروس سي، دا غير إني إتمسكت مرتين.. مرة وأنا خارج من عند فتوح، والتانية عند حسونة، واحدة عرفنا نلاقي لها حل، والتانية أتعمل لي فيها قضية تعاطي، والحكم فيها الشهر الجاي.. ربنا يستر.. أنا قلقان جدا، وأبويا بيعمل محاولات مستميتة مع المحامين.. وإنت يا صلاح عملت إيه في أمريكا؟ وإيه اللي رجعك؟

- أنا برضه شفت أيام بنت "....." بس الحمد لله ربنا سترها.

24

في بيتنا "...."

تحدثنا ونحن في السيارة لأكثر من ساعة. ومر الوقت لطيفا وهادئا، نتكلم ونحكي ذكرياتنا ونضحك.. وفجأة قال رامي:

– أنا هنا اموت واضرب.. أنا مش عاوز أبقى شيطان.. بس بصراحة القرد بينط جوّه دماغي، ومش عارف أعمل إيه؟!!

قلت في ثانية ودون تردد:

– نشتري من مين؟

– أنا سمعت أن أم شادية شغالة.

– مين دي؟ أصل أنا برة الملعب من فترة طويلة.

– دي يا سيدي صديقة الطلبة، بودرة ولعة، ورخيصة كمان.. إنت شكلك مطبّط اليومين دول، ومعاك قرشين حلوين.

– ما إنت فاهم.. لما بقعد شوية من غير ما اضرب الدنيا بتتظبط.. يالّلا نطلع على أم شادية.. هي فين؟

– قريّبة.. في الكيت كات.

انطلقنا إلى "الكيت كات"، واشترينا "لوكشه"[*]، لكل واحد فينا.. ولأنني لم أضرب منذ فترة.. فأي شيء يكون له مفعوله القوي.. وبالنسبة لصديقي رامي، جسمه نظيف بعد خروجه من المستشفى.

كانت "دماغ" حلوة.. خصوصا عندما تكون خالية من المشكلات.. وقضينا اليوم كله معا، من الساعة الواحدة إلى الساعة الحادية عشر مساء،

---

[*] كمية كبيرة.

واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي في مكتبي.. وعندما رجعت بيتي، من حسن حظي.. وجدتهم جميعا نائمين وبالتالي لم أواجه أي مشكلة.. ودخلت غرفتي باطمئنان، وهم أيضا مطمئنون لانتظامي في العمل والسفر.. ناموا جميعا، وكل شيء تمام.. وفي اليوم التالي جاءني رامي، وسألته:

- "إتهرشت"[1] يا ريكو؟

- لأ.. وإنت؟

- لأ.. كانوا نايمين.

ولم نستطع البقاء في المكتب أكثر من دقائق معدودة، وقلت للسكرتيرة:

- أنا رايح مشوار يا حنان، وراجع كمان شوية، ولما سيف يسأل عني، قولي له في شغل بره.

فقالت حنان مداعبة:

- شغل بَرْضهُ.. ماشي يا باشا.

إنها فتاة ذكية وجميلة، تعمل بكل إخلاص، ولكثرة مراسلاتي واتصالاتي، كنت الوحيد الذي يضغط كثيرا لإنجاز العمل.. والمسكينة تشعر بالإرهاق.

ولم أمر بأزمات مالية؛ فالأموال التي كونتها في رحلة أمريكا، اشتريت بمبلغ منها السيارة، ووضعت البقية في البنك، وكلما احتجت إلى مبلغ من المال، أسحبه من البنك، وأذهب مع رامي نشتري ونضرب.. وبعد يومين انكشف رامي، ولم أقترب من بيته.. كنت أخشى أن يراني والده ويكتشف أمري أنا الآخر. فقدت وزني خلال أول أسبوعين، وأصبح الأمر واضحا، ولم يكن خافيا على أمي أنني عاودت الضرب، ورولا أيضا كشفتني.. فقالت لي أمي:

- ورّيني دراعك.

- لا.. مش هاورّيكي.

---

[1] [illegible]

- بلاش.. بَسْ إنتَ لازم تاخُد تَريكسان تانى.

- وإيه المُشكلة؟! أخد تَريكسان تانى.

- يعنى أجيب الدّواء دِلْوقت؟

- لا.. دِلْوقتِ مش هَينفَع.

- أمّال إمتى ينفَع؟

- كمان 3 أيام.

- وهَتبَطّلْ إزاى التلات أيام دُول؟

- أنا مسافر شرم الشيخ.. عندى شُغْل هناك، واحتمال أقعد أكتَر من 3 أيام.. أبطَّل وأرْجَع آخُد تَريكسان على طُول.

- هَتسافر إمتى؟

- بكْرَه الصُبْح.

وبدأ فيضان الكذب.. لم يكن فى خطتى السفر، إنما قررت أن أخترع هذه الفكرة؛ لأخرج من هذا المأزق، ثم فكرت فى هذه الورطة الجديدة، وقلت لنفسى: ولِمَ لا أسافر لمدة ما؟ فعلا سافرت إلى شرم الشيخ، وأخذت معى كمية بُودْرة رهيبة.. كمية تكفى لمدة شهر، ولكننى انتهيت منها خلال أسبوع، وكنت أضرب صباحا، وظهرا وليلا.. وبدأت عملية البحث عن البودْرة بإصرار، إلى أن وجدتها مع البدو.. بُودْرة نظيفة ورخيصة وبعد أن فقدت كل أموالى وأنفقتها لآخر مليم.. لم يكن هناك حل إلا العودة إلى القاهرة لمدة يوم.. أسحب مبلغا من أموالى فى البنك، وأقابل سيف فى المكتب، وأقنعه بأننى أعمل بهمة، وأُعد لزيارة يقوم بها هناك، ويرى كل شىء بنفسه على الطبيعة.. وصدقنى على الفور.. وهذه أخلاقياته؛ فهو لا يتصور أننى أكذب، وهو يلمس نشاطاتى، ويعترف بقدراتى ومَهاراتى فى التسويق، ولم يناقشنى، لكنه سألنى:

- إنتَ مالك يا صلاح.. خاسِسْ كدا ليه؟

- مش باكُل كويس، وطول اليوم أشتغل، وأسهر بالليل.

- ماشي يا سيدي.. بس ما تطوّلش.. علشان أنا عايز أطلّع شرم أول ما انت ترجع.

كلمت أمي من شرم الشيخ لأطمئنها أنني بخير، وأنني قررت تأجيل العودة لدراسة بناء فندق صغير، وسوف يشاركني سيف في المشروع، وأحتاج بعض الوقت لدراسته.. وكنت دائما أتصل بها بعد استيقاظي مباشرة، وقبل الضرب لأنها تعرف تماما صوتي بعد الضرب، وكيف يختلف عن صوتي الطبيعي.. ومثل هذه الاتصالات كانت تمر على خير.. وعرضت الفكرة نفسها على سيف، وأعجبته وشجعني على دراستها.. طلبت منه أن يتركني لفترة أخرى في شرم للانتهاء من دراسة المشروع.. وبالفعل تجولت للبحث عن الأماكن المناسبة لبناء فندق صغير، ودراسة أسعار الأراضي وتكاليف البناء، وعملت دراسة جدوى ممتازة..

سافرت ومعي 12 ألف جنيه، أنفقتها في أقل من عشرة أيام.. طبعا.. حضرة البيه عاش في أفخر الفنادق.. وكل يوم يضرب صباحا، وظهرا، وليلا.. وكل ما تبقى معي ألف جنيه فقط لا غير، وفي الوقت نفسه، تمكنت البودرة من جسمي، وأصبحت الجرعة أعلى.. أعلى.. أعلى.

رجعت إلى المكتب مباشرة.. وعندما رآني سيف أصابه الفزع، فقال:

- إيه دا يا صلاح؟! مالك عامل كدا ليه؟

استمر فيضان الكذب من شخص يضرب لمدة أسبوعين، ثلاث مرات وأحيانا أربع مرات في اليوم.. وقلت له:

- أنا عيان يا سيف، ومش عارف ها اجي الشُغل إمتى؛ علشان لازم أروح أشوف الدكاترة، وأعمل تحاليل.. وفي الأغلب عندي مشكلة في الكبد.

- ألف سلامة، وطمّني عليك.. استريح تماما، وما تقومش غير لما تبقى كويّس.. مفيش حد هياخُد مكانك في الشُغل لغاية ما تخِف.

حقًا.. إن سيف إنسان شهم وغاية فى الرُقى.. ولكن عيبه الوحيد إنــه كان شديد الثراء.. ولأسباب مختلفة ضاعت ثروته كلها.. وأصبح يعتمــد علــى ثروة صديقه يوسى، ينفق منها، ويتصرف وكأنه لورد، وبالتالى الشركة لــيس بها الأموال التى نحتاجها للتمويل فى دفع مقدمات للفنادق وحجز الغرف، أو دفع ثمن الأجهزة التى تعاقدنا على شرائها.

خرجت من المكتب للذهاب إلى البيت.. لكننى أعرف جيدا أننى سأجد أمى، ورولا.. وبنظرة واحدة سوف يتكشف أمــرى، ومــازال معــى نــودزه، وفضلت عدم العودة إلى البيت، وتجولت من شارع إلى اخــر، أضــرب فــى السيارة، ثم أدخل أحد الفنادق واضرب.. حقيقة الأمر.. كنت أخاف العودة إلــى بيتى، ولا أريد مواجهة أمى، ولا أستطيع ذلك.

رجعت البيت.. أنا خائف.. دمّى خائف.. كلى خائف.. وجدت أمى فى المطبخ، وأبى نائم، ورولا فى غرفتها، وعندما رأتنى صرخت:

– يا دى المُصيبة!!!

سمعتها أمى، وجاءت تجرى:

– فيه ايه يا رُولا؟

إنها لم تشعر بخطواتى وعودتى إلى البيت، نظرت إلىّ وقالت:

– دا اللّى أنا كُنت عاملة حِسابه.

– هنعْمل إيه يا ماما؟

– إيه؟ فيه إيه بس؟ مالْكم؟ أنا أخدت مرّتين تلاتة بس.

– إحنا لازم ندخلك مُستشفى.

– مُستشفى ايه بسْ يا ماما؟ أنا مش ها اروح مُستشفيات.. وبعْدين المستــشفيات دى ما بتعْملش حاجة، كل اللّى أعْــرفهم ودخلــوا المستشفيات ضــربوا أول ما خرجوا من المُستشفى، وفيه ناس أصلاً بتضرب جوّه المستشفيات.. مُستشفى لأ.. لأ.. لأ.

- فين شنطتك؟

- فى العَرَبية.

- هاتِ المُفْتاح وأختك تنزل تجيبها.

- ماتْخافوش.. مَفيش مَعايا بُودْرة.. خلصت.

أثناء حوارنا وصل الوالد.. سَلّم، وبَص لى، وَشعر بِمَوْجات الكَهْربـــاء فى جوّ البيت؛ خاصةً وقد سكتنا تمامًا بعد دخوله.. وَجّه إلىّ الكلام:

- حَمْدُ لله على السلامة.

- الله يسلّمك.

بص لى مرةً أخرى.. النظرة فاحصة ولها ألف معنى.. ودخل غرفته، واستكملنا حديثنا:

- هنعْمل ايه يا ماما؟

- مِش عارْفة.. بجدْ مِش عارْفة.

وكسا وجهيهما الذُهول، عندما دخل بابا علينا مرة أخرى، وفـــى يـــده كتاب.. إنه كتاب فى بيتنا مدمن .. وعلى غلاف الكتاب صُورة لمدمن، واضح وصريح.. وقال لى:

- مش إنتَ ده؟

الموقف مؤلم وحزين، الوجوم واضح على الثلاثة.. قُلْت بصوت واهن وضعيف:

- لأ.. مش أنا.

- لأ.. دا إنتَ.

قالها، وخرج من الغرفة متجهًا إلى غرفته.

تمتمت لنفسى قائلا:

- أخيرا يا بابا فهمت؟ يا ساتر!! كان المفْروض أعمل ايه علشان تفْهم؟! أنا من أكتر من 15 سنة باخْد مخدّرات.. ومن أكتر من 10 سنين باخُد بُودرة.

نزلت من بيتي لإحضار الشنطة من العربية.. لكن أول ما نزلت قررت ألا أعود إلى بيتي، وأخذت ورقة وقلمًا من عربيتي، وكتبت: "أنا مش راجع البيت غير لما أبطل".. ثم وضعت الرسالة في ظرف من أظرف الشركة، وأعطيت الظرف للبواب، وانطلقت بسيارتي، بينما وقفت أمي وبجانبها رولا في الشرفة لمراقبة ماذا أفعل.

أعتقد أنهما لم يخطر في تصورهما أنني لن أعود إلى البيت.. بل تصورا أنني ذهبت لشراء المخدرات وسأعود مرة أخرى.. لم أعد، رغم أنني لم أكن أعرف إلى أين أذهب.. ذهبت إلى حسام ودعاء، وبعد قليل وصلت نانسي، ولم يتوقف الدق على الباب: واحد يدخل، وآخر يخرج، انزعجت جدًا، وقلت:

– مش معقول يا دعاء.. بالطريقة دي البوليس جاي.. جاي!!

– قال الله، ولا قالك.

– كله بالعقل.. الدولاب وسيع جدًا يا حسام.

– باقولك إيه.. خايف.. إنزل.

– هو إيه يا حسام.. مش موضوع خايف.. وأنا فعلًا ها انزل.. تعالي يا نانسي.

لم تصدق نانسي أذنيها، وكنت عندما أطلب من نانسي شيئًا تنفذه فورًا.. وبلا تردد، نزلت ومعي نانسي، وعندما وصلنا إلى السيارة، سألتها:

– عندك لبس فوق؟

– لبس؟ هو إحنا رايحين فين؟

– رايحين شرم الشيخ.

– بجد؟ بجد.. مش مصدقة!!! أنا عندي شوية لبس فوق.

– طيب اطلعي هاتي لبسك، وما تقوليش لحد إننا مسافرين.. فاهمة والا لأ؟

– حاضر.. دقيقة وانزل.

عادت نانسي سريعًا، وقالت لي:

- على فكرة، أنا معايا تذكرتين كُنت مخبّياهم من دعاء.

- وأنا كمان معايا تلات تذاكر.. ها ابيع العربية، وناخد الفلوس.. ونطلع على شرم الشيخ.. ونشتري من هناك، البودرة هناك بالهبل..

- لأ.. العربية خسارة.. أنا بحبها أوي.

- إنتِ ها تضايقيني، وتقرفيني من أولها والّا ايه؟! مالكيش دعوة.

- خلاص.. اللي إنتِ عايزاه.

منذ شهور قليلة.. اشتريت السيارة بمبلغ 120 ألفًا، وانخفض ثمنها إلى 80 ألفًا، بعد إصابتها بخبطتين أو ثلاث.. من المستحيلات أن تستمر سيارة ضرّيب سليمة دون حوادث.

استمرت المفاوضات مع صاحب معرض السيارات، وأخيرا اتفقنا أخذ سيارة فيات 128 ومبلغ 60 ألف جنيه، وطلعنا في السيارة الصغيرة على شرم الشيخ، وبعد يومين على دهب، ثم رجعنا إلى شرم الشيخ، ثم قضينا يومين في طابا.. أي لف ودوران والسلام، وحضور حفلات في الصحراء.. نسمع موسيقى، ونضرب بودرة.. وتصورت أن من الممكن أن تستمر الحياة بهذا الأسلوب، وذات صباح قررت أن أكلم أمي وأبي، وتركت لهما رسالة على "الأنسرنج ماشين":

- أنا في الغردقة، ومش ها ارجع دلوقت.. أنا مش ها ارجع غير لما أبقى كويس وسليم، أنا لازم أبعد عن جو الأصحاب دول، وأنا هنا في أمان.. وما تخافيش يا رولا.. كله هيبقى كويس.. اطمني، فترة وأزمة وتعدي، وقولي لبابا مايزعلش مني، صلاح هيبقى كويس.

كنت أرى أن كريم ليس طرفًا في هذه المواضيع، وأنه لا يهتم، ولا فارق عنده أن يتابع أخبارنا أو يعرفها أصلاً.. وهذا غير صحيح.. الحقيقة أنه فقط لا يظهر اهتمامه.. هو إنسان هادئ، ويمكنه إخفاء مشاعره، ولم تكن

واضحة في يوم من الأيام، وليس من السهل معرفة ما يدور في عقله، ويجـري في أعماقه.

تجولت مع نانسي في سيناء، ومعنا 60 ألف جنيه، وفي خـلال شـهر واحد انخفض المبلغ إلى عشرين ألف جنيه، وأصبحت جرعة الضرب عاليـة.. والجديد في الأمر أنني أضرب وآكل، وكنت من قبل أضرب، وأتقيأ كل ما آكله، والعكس صحيح الآن، إذا لم أضرب أتقيأ طوال الوقت.

بعد أقل من شهر.. تبقى من المبلغ كله ألفا جنيه، وقررت العودة إلـى القاهرة.. وتركت نانسي عند حسام ودعاء، وذهبت إلى بيتي، ولكنـي ضـربت بجرعات عالية في الطريق، وكأنني أحاول الانتحار، وأخيرا وقفت أمـام بـاب بيتي.. طرقت الباب فقد ضاع مفتاحي.. كل شيء ضاع، وفتحـت لـي رُولا، ووقعت بين ذراعيها، وقلت بصوت خافت يكاد يكون غير مسموع:

- أنا مش قادر يا رولا.. دخليني أوضتي.

دون كلام.. الدموع وحدها تتكلم.. ساعدتني حتى أدخلتنـي غرفتـي، وقالت:

- بابا وماما خرجوا.. معزومين على العشا..

ظلت بجانبي تبكي، وتكلمني وتسألني، وتشيل السيجارة لما تقـع مـن إيدي.. قلت:

- أنا لازم أبطل يا رولا.. من بكره أنا مش ها انزل من البيت.. لا.. دا أنا مش ها اخرج من الأوضة.. اسمعي يا رولا، أنا اشتريت كام قزازة كودافين، علشان لما أتعب أشرب قزازة تمسكني.

يا حرام.. إنها لم تفهم كلمة واحدة مما أقوله، وإن كانت تحاول الفهم، وسألتني:

- يعني مش هتاخد تاني؟

- لا.. مش ها آخد، بس إنت ما ينفعش تسيبيني وحدي أبدا.

- مريم بتدور عليك.

- كلّميها وخليها تيجى بُكره الصبُح.

بعد رجوع الوالد والوالدة، خرجت رولا من غرفتى.. ودخلت أمى وقالت:

- اطمَن.. أنا أخدت أجازة.. وأنا وأختك ومريم.. مش هنتحرّك من البيت.

ولم تكن هناك مشكلة فى اليوم الأول.. يوم كئيب بالنسبة لى ولكنه مرّ بسلام، وفى اليوم الثانى أصبح الموضوع أكثر صعوبة، والكودافين طعمه لا يحتمل.. ولكنه يساعدنى فى أن أتماسك بعض الشىء.. وكان معى شريطان "أبو صليبة" حتى أستطيع النوم.. المشكلة أنه مصيبة لو أخذته فى الصباح، ولو أخذته ليلا أنام ساعتين ثلاثة فقط.. وفى اليوم الثانى، ولأول مرة يكلمنى بابا فى الموضوع، وأول جملة قالها لى:

- ما تخافش يا صلاح.. أنا ها اعمل كل حاجة فى الدنيا علشان تخف.. وعُمرى ما ها تخلى عنك.

شعرت أنه تفهم الوضع والمشكلة، وأنيا "صعبان" عليه، وعندما صارحتهم بأننى بعت السيارة، كان ردُّ الفعل هادئا من الوالد:

- تيجى ألف عربية غيرها.. المهم.. إنت ترْجع تانى.

ولم يتوقف كريم عن السؤال عنى، وأمى قالت له إننى مريض، ومن المحتمل أن نضطر لعلاجه فى الخارج.. ومرت الأيام الثلاثة الأولى بصعوبة بالغة.. عشت فى كابوس أسود فى اليوم الرابع.. الخامس.. أسبوع، وبعد عشرة أيام بدأت أستعيد قواى، ورجعت مرة أخرى للدواء، وأخذت "تريكسان".. إنه بمثابة طلقة رصاص تقتل القرد الذى يقفز فى دماغى قائلا: اضرب.. أضرب.

وبعد أسبوعين عدت إلى عملى، وبدأت أساعد سيف فى المكتب الجديد.. إنه مكتب جميل وأنيق.. واستقرت الأحوال لمدة أسبوعين.. إلى أن بدأ

القرد ينط فى دماغى، ويقنعنى بإخفاء "الترينكسان" تحت لسانى، وبعد ثلاثة أيام، أرجع وأضرب مرة أخرى.

وذات صباح لم أذهب إلى العمل، ولكنى ذهبت إلى حسام، وقلت له:

- عايز أضرب يا حسام.

- معاك كام؟

- عايز كام؟

- 60 جنيه.

- ليه؟ إنت بتستهبل؟

- خلاص.. ما تزعلش.. هات 50 جنيه.

- خد.. يالا خلصنى.

ضربت، وفى ثانية أصبحت فى دنيا تانية.. فى عالم آخر.. وبدأت يدى تمتد إلى أموال الشركة.. ولم تكن هذه هى المرة الأولى، ولكنها تتكرر الآن من يوم إلى يوم، وآخذ من الخزينة.. ولا أحد يدرى، ولا أحد يعرف.. وأصلاً.. لم يكن سيف يدقق فى حساباته، ولا يعرفها جيداً، وكان هذا فى صالح خطتى الشيطانية.

فى تلك الفترة أقنعتنى أمى بالذهاب إلى طبيب نفسى، وإرضاء لها، لم أمانع.. وفى أول جلسة سألنى:

- عندك كام سنة؟

- بتضرب من أد إيه؟

- عايز تبطل ليه؟

- أكتر فترة بطلتها أد إيه؟

- بتاخد مخدرات ليه؟

- آخر مرة أخدت مخدرات إمتى؟

- النهارده.

- إنتَ عارف مُشْكِلتك إيه؟

- إيه هي مشكلتي يا دُكتور؟

وقف الدكتور، وخبطني على صدري، وقال لي:

- إنتَ لازم تحب نفسك.. غير كدا عُمْرك مَا هَتْبَطل.

انصرفت من عند الطبيب، ولم أفهم شيئًا، وقـررت ألا أزوره مـرة أخرى.. أنا ذهبت إليه لإرضاء أمي أولا وأخيرا.

25

نـــداء ربـــانى

وفى ذات يوم، كنت عند ماجد أحد أصدقاء حسام.. وهو مـن سـكان مصر الجديدة، ويعمل فى جوازات المطار.. أحب شـهامته، وهـو يبـادلنى المشاعر نفسها، ولأنه ضابط كنت أشعر بالأمان وأنا معه، وفى يوم كنا نجلـس فى بيته.. وقال لى:

- إنتَ عارف إن أنا مسافر يوم الاتنين للحج؟

- مسافر فين؟!

- أحج.

- ما قُلتِش ليه؟ أنا كمان عايز أحج.. كدا يا ماجد؟

- وأنا أعرف إزاى؟ عمرى ما خَطَر فى بالى إن فى دماغك تحج!!

- ينفع أسافر معاك؟

- تسافر معايا إزاى؟ النهارده التلات، وأنا مسافر الاتنين، وبعـدين تأشـيرات الحج إتقفلت خلاص.

- باقولك إيه.. أنا ها اتصرّف.. أنا عايز تليفون.

- إتفضل.. أدى التليفون.

وعلى التليفون، دار الحوار التالى بينى وبين زوجة أخى كريم:

- إزيّك يا رشا؟ وإزاى رنا ودنيا؟

- الحمد لله.. أخبارك إيه؟ من زَمان ماشُفنكش.

- أنا على طُول مسافر، بس ها اعدّى عليكم قُريب إن شاء الله.. كريم موجود؟

- موجود.. ثانية واحدة.

- ألو.. إزّيك يا صلاح؟

- تمام.. أخبارك إنت إيه؟

- ماشي الحال.. شغل كتير.

- ربنا معاك.. بأقولك إيه يا كريم.. عايز منك خدمة.

- خير.. عايز إيه؟

- عايز أسافر الحج.

- حج!! حج إيه!! العيد الأسبوع الجاى.. وباب التأشيرات إتقفل.

- يعني ماينفعش تعمل أى محاولة مع صاحبك "......".

- محاولة إيه؟ معلش خليها السنة الجاية، بس نرتبها قبلها بشوية.

- يعني إنت مش عايز تساعدني؟ ولا حتى تحاول!! هو أنا عمرى ما أطلب منك حاجة وتعملها لى أبدا.. يا أخى دا حج.. ولو جبت لى الفيزا هتاخد عليها ثواب.

- بأقولك إيه يا صلاح.. إنت آخدت بالك النهارده بس إن فيه حج، وبتكلمني كأني أنا اللي بأعمل الفيزات. وبعدين هتسافر إزاى؟ ومع مين؟ وحجز فنادق وطيران.. إنت فعلا اتجننت.

- لا يا سيدى، مالكش دعوة بكل ده.. أنا ها سافر مع أصحابي.. ظباط في الداخلية، وعاملين ترتيبات لكل حاجة، أنا بس أجيب الفيزا.

- مش عارف أقول لك إيه، وأقنعك إزاى؟! مش هينفع السنة دى.. السنة الجاية وعليك خير.

- ماشي يا كريم.. متشكر أوى.. سلام.

وضعت السماعة، ورفعتها مرة ثانية، وكلمت أمي:

- ألوا يا ماما.. أنا لسه قافل السكة مع كريم دلوقت حالا.. قلت له أنا عايز تأشيرة علشان أسافر أحج مع أصحابي.

- مين أصحابك؟

- ظبّاط في الداخلية.. ماجد، ظابط في الجوازات، والوفد مسافر يوم الاتنين الجاي، وأنا عايز أسافر معاهم.

- وكريم يعرف يحل المشكلة دي إزاي؟

- عن طريق صاحبه وجاره "......" دبلوماسي وفي القنصلية.. لو طلبها منه هيعملها.. أنا متأكد إنه يقدر، وطبعا كريم فضل يتريأ وقال لي ما ينفعش، وهو إنت ما كنتش عارف إن فيه حج إلا النهارده.

- أنا مش فاهمة حاجة منك.

- بصّي يا ماما.. الحج بالنسبة لي فرصة.. أنا عايز أبطّل.. ودا أكيد الحل.. بس، كريم، طبعا قفلها في وشي.. هو مش عايز يساعدني.. أعمل إيه أنا دلوقت؟

- طيب إنت كلّمت أخوك في الشركة؟

- لا.. كلّمته في البيت.

- طيّب.. عشر دقايق وكلّمني.

أمي الوحيدة التي لديها القدرة على التأثير على كريم، وبعد عشر دقائق كلمتها:

- ماما.. عملت إيه؟

- الباسبور فين؟

- في البيت.

- طيّب تعال خذ الباسبور وصورتين، ووصّلهم لأخوك.. وهو وعدني يعمل محاولة.

أسرعت إلى بيت أخي، ومعي جواز السفر وصورتين، واتصلت بزوجة أخي رشا على الإنتركوم:

- هاي يا رشا.. إنت صاحية؟!

- هاي يا صلاح.. طبعا صاحية.. الساعة تسعة.. اطلع.

كانت فرصتى لرؤية رنا ودنيا.. لكنهما تعودتا النوم الساعة السابعة تمامًا.. أعطيتها جواز السفر.. وبالطبع لم أجلس معها طويلا.

في اليوم التالى.. قابل كريم صديقه، الذى قدمه إلى القنصل السعودى، والذى منحه التأشيرة، وقد كتب عليها "منحت بناء على التعليمات" وأخذت تأشيرة السفر من كريم وقال لي:

- إنت الوحيد فى مصر اللى أخدت تأشيرة قبل الحج بأربع ايام.. ربنا يتقبل.. نفسي تتطل، وتبتدى حياة جديدة.

- يارب يا كريم.. أنا تعبت أوى، ونفسى أخلص من المصيبة اللى أنا فيها دى.

على الفور اتصلت بصديقى ماجد، وقلت له، وذُهل فعلا، وقال لي:

- وأنا مهمتى أحجز لك تذكرة الطيارة يا باشا.

سارت الإجراءات في سلاسة مدهشة، وتم الحجز لى على الخطوط السعودية بالدرجة الاولى باعتبارى مع وفد الداخلية.. وصباح يوم السفر ضربت" على أساس أنها المرة الأخيرة فى حياتي، وأخذت معى أكثر من زجاجة "كودافين" وشريط "أبو صليبة"؛ حتى أستطيع النوم ليلا لمعرفتى الأكيدة بأننى سوف أعانى كثيرًا فى أول يومين.

تأثر سيف عندما عرف نبأ سفرى فى التوقيت نفسه الذى يفتتح فيه مكتب الشركة الجديد، خاصة وقد تحمل غيابى عن العمل مرات كثيرة.. ولأنه إنسان نبيل وطيب، كان دائما يسامح ويتجاوز، لكن الحج بالذات كانت مفاجأة أسعدته من قلبه..

ولبينا الدعوة الإلهية، وذهبنا إلى الحج، وكانت رحلة مباركة عظيمة وكل خطوة سهلة، وكأننا نتحرك فى دائرة مضيئة بنور إلهى.

فى بداية الرحلة، شعرت بالتعب وكنت لا أنام إلا بصعوبة وساعد تناول الكودافين وحبات "أبو صليبة" على النوم، وكنت لا أراهما ولا أحتسبهما

مخدرات، ولكنها أشياء مساعدة لإيقاف التعاطي، والحد من الام التوقف وأعراض الانسحاب.

وكان إصرارنا جميعا على الاستيقاظ فجرا للصلاة، والحرص على أداء كل الصلوات في مواقيتها بدقة، غمرنا إحساس أكثر من رائع.. ما أروعها رحلة.. وكنا معروفين بفوج الضباط، وكنا نستقبل بالترحاب، ولنا معاملة خاصة ومتميزة في كل مكان.

المدينة المنورة جميلة ومنورة فعلاً، وبصراحة أحببتها جدًا، وأحسست براحة نفسية عالية بين ربوعها.. صليت ودعوت كثيرا عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وشرح الله صدري، ومثل اتساع السماء اتسعت آمالي في النجاح والخروج من هذا النفق المظلم.

واتجهنا الى مكة..

ولبيك اللهم لبيك.. لبيك اللهم لبيك.

ودخلنا في أجواء الحج المباركة.. وغمرني شعور جميل، هادىء ومريح، ورغم التعب الذى اشعر به، إلا أنني كنت أشعر أيضا أن الله معي، ونجاتي وبيتها لي.. ومررت بثلاثة مواقف في أيام الحج، لن أنساها.. أبدا.. أبدا.

الموقف الأول:

كنت أطوف حول الكعبة، وشعرت بالعطش الشديد.. دقائق وفوجئت بسيدة مسنة تشبه جدتي، مسحت بيدها على كتفي برقة، وأعطتني كوب ماء زمزم، وبهدوء قالت لي:

- اشرب، وادعي.

أخذت الكوب منها وشربت ماء زمزم، ودعوت من قلبي:

"عايز أبطل".."عايز أبطل".. "عايز أبطل"..

والتفت لكي أشكرها.. ولم أجدها.. بحثت عنها، لكنها اختفت تماما.. إنها جدتي.. أنا متأكد أنها جدتي لأمي، رحمة الله عليها.. إنها تشبهها جدا.. جدا.. وظللت أردد: الشبه غريب.. فعلا تشبه جدتي، وإن كانت جدتي بالفعل.

الموقف الثاني:

صحبنا في الرحلة شيخ جليل وطيب.. كان يصلي بنا، وفي عرفات وبجانب جبل الرحمة، جلست إلى جواره، وحكيت له قصتي كلها مع التعاطي، وعن فشل محاولاتي في التوقف عن المضرّب الاف المرات، وبكل هدوء وسماحة وجه وصوت مطمئن ومريح جدا، قال الشيخ:

- لا تخف.. ربّك هيشفيك، بس كله بإذنه.
- أفندم؟ أنا مش فاهم.
- لا تخف.. ربك شافيك، بس كله بإذنه.

أعاد على مسمعي الكلمات ذاتها، لكنني في هذه المرة فهمته.. ووضع الشيخ الجليل يده على رأسي، وقرأ القرآن الكريم، وأكثر من ذكر الأدعية بينما أنا أبكي بحرقة، وسال العرق من كل مسام جلدي، واستمر يقرأ القرآن الكريم، ويقول أدعيته لمدة نصف ساعة كاملة.. وبعدها قال لي مرة أخرى، بنغمة صادقة وواثقة:

- لا تخف.. ربك شافيك، بس كله بإذنه.. قول آمين.
- آمين.. آمين.. آمين.

كان من الممكن أن أظل طوال اليوم أردد: آمين.. آمين.. آمين.

وتركني الشيخ الجليل، وذهب إلى حال سبيله، ونمت على الأرض، ولأول مرة منذ زمن طويل أنام، ويغمرني إحساس بالراحة والهدوء، والسكينة، والسلام.

يا سلام.. يا رحمة الخالق العظيم بعبده.

قمت من النوم وكأني نمت 12 ساعة متصلة، وأحسست بأن كلَّ شيء حولي تغيرَ.. رائع.. جميل.. وأنني في دائرة مضيئة.

الموقف الثالث:

الحجر الأسود، كثيرا ما سمعت عن مدى صعوبة الوصول الى الحجر الأسود خلال أيام الحج، وقلت لنفسي: جرِّب، واعمَل محاولة.. أردت من أعماق قلبي أن ألمسَ الحجر الأسود، وأدعو الله.. ربَّما يستجيب لدعواتي.

وفي لحظة تلقيت إشارة ربانية، وأفاجأ بأن أجد نفسي مباشرة واقفًا أمام الحجر الأسود، وبأقل مجهود.. لم أصدق نفسي.. وقفت أمام الحجر الأسود مباشرة.. لمسته.. أمسكت به.. ودعوت المولى عز وجل أن يشفيني، وأتوقف عن تعاطي المخدرات.. وطوال رحلة الحج شربت كمية هائلة من ماء زمزم.. إنها وصية أمي، وكانت دائما تقول لي: "ماء زمزم لما شرب له".. إنها تغسل وتنظف وتشفي.

بعد الاستجابة للدعوة الإلهية، والنداء الرباني.. بعد أداء مراسم الحج على أكمل وجه، سرحت طويلا وقلت لنفسي: الحمد لله.. لو أنني أعددت لهذه الرحلة.. رحلة الحج منذ شهور، لما كانت أجمل ولا أحلى أبداً.. أشكرك يارب.

وتوجهنا إلى جدة قبل موعد الطائرة بيوم، وفي أحد الشوارع لمحت أحد الشباب، عيناي لا تخطئان هذا المنظر، إنه مدمن بكل تأكيد، وكأن بيننا مغناطيسا يجذبني إليه.. اتجهت إليه بخطى سريعة، لأسأله من أين؟ وفورا سحبني ماجد من ذراعي بقوة قائلاً:

- تعال يا صلاح.. يا اللاَّ نمشي من هنا حالاً.

سمعت الكلام، ومشيت ومنظر الشاب لا يفارق عينيَّ.. ومن جدة اتصلت بالقاهرة، وكلمت حسام في بيته في حدائق المعادي، ولم أحصل على الرد.. رنين التليفون بلا رد.. جربت في بيت العائلة، ربما تنجح المحاولة..

جاءني صوت والدته:

– ألو.. مين؟

– مساء الخير يا طنط.. أنا صلاح.. إزاى حضرتك؟

– إزيك يا صلاح.. إنت بتتكلم منين؟

– من السعودية يا طنط.. أنا كنت باحج.. حضرتك مش عارفة والا إيه؟!

– ألف مبروك.. ألف ألف مبروك.. إيه المفاجأة الحلوة دى؟

– الله يخليك يا طنط.

– دعيت لحسام؟

– طبعًا يا طنط.. وهى دى عايزة كلام.

– ربنا يهديكم.. ثانية واحدة.. حسام جنبى.

– مبروك الحج.

– الله يبارك فيك.. إنت بتعمل إيه عندك؟

– حاسبى يا ماما.. مش عارف أتكلم.. بأقول لك إيه.. دعاء كلبوش.

– إزاى؟

– أم شادية سلمتها.. إتجار مش تعاطى.

– يا نهار إسود!! وبعدين؟!

– إنسى.. براءتها 15 سنة.

– إزاى الكلام ده حصل؟! دى مصيبة سودا!!

– لما ترجع أحكى لك.

– يا أقول لك إيه يا حسام.. إطلع لى على المطار.. وظبطنى.. أظبطك.

– أسكت يا صاصو.. دا فيه دولاب فتح جديد..إنما إيه.. حكاية بنت "......".

– لا يا راجل.. فين؟

– الجعافرة.. قريب من كوم السمن.. أنت هتوصل إمتى؟

- إحنا هنوصل الساعة 7:00 الصبح، المطار القديم، لو مفيش معاك فلوس اطلع على يسري في المكتب، وخد منه 100 جنيه.. واطمن أنا معايا فلوس.. كنا معزومين في كل مكان ندخله.

- ماشي يا معلم.

- سلام.. بأقولك إيه.. ما تتأخرش.

26

دمـــــار

عدت من الحج.. وعدت للتفكير في الضرب بأى شكل.. نسيت الحج، ونسيت الدعوات، ونسيت الصلاة، ونسيت الجدة العجوز.. ونسيت ماء زمزم.. ونسيت عرفات.. ونسيت المدينة.. ونسيت الشيخ الجليل وكلامه.

– كيف نسيت كل هذا؟ كيف؟ لست أدرى!!

وصلنا إلى المطار، ووجدت حسام فى انتظارى بعد أن نفذ المطلــوب بالحرف الواحد.. أخذ النقود مــن يسرى، والسكرى، وجــاءنى المطــار.. وفى الطريق سألته:

– صحيح يا حسام، قل لى إيه اللّى حصل مع دعاء؟

– أسكت.. فيلم ابن .... يوم وقفة عرفات راحت عند أم شادية.. فقالت لها بكْره رايحة تزور أمها وتعيّد عليها علشان العيد.. وطلبت من دعاء تقْعــد مــع عيالها فى البيت، وقالت لها خدى 30 ورقة بيعيها، ولمــا أرجــع خُــدى لــك 5 ورقات.. نصحتها.. بلاش تعمل كده علشان 5 ورقات، وقلت لها إنت هبلــة وعبيطة، علشان 250 جنيه تروحى فى الحديد.. قالت لى: 5 ورقــات يرفعــوا اللّى ما يتْرفعش.. وصممت.. أنا مكنتش مستريح للفيلم ده.. راحت، وغابــت.. قلْت يمكن أم شادية اتأخرتْ عند أمها.. الكلام ده حصل الساعة 11:00 الصُبح، والساعة 6:00 طلعت على هناك، وخبطت على البــاب، فتحــت لــى شــادية الصغيرة، وقالت لى الحكومة أخدت أبلة دعاء من هنا.

– وبعدين؟ دعاء ضاعتْ كده؟

– أنا وناسى رُحنا لها القسم.. متبهدلة.

– هتعْمل لها إيه يا حسام؟

- ولا حاجة.. يعني أعمل لها إيه؟ هي اللي خمارة.

- على الأقل نجيب لها محامي.

- نانسي جابت لها محامي.. بس هو مش متفائل خالص، وقال هي متسلمة من أم شادية.. واضحة زي الشمس.

- فهمت.. دا شغل العيد يا معلم..

وكانت هذه هي نهاية دعاء.

وصلت إلى بيتي، وسلمت على بابا.. وقلت له إني مرهق من رحلة الحج، وعندي برد، ومن الأحسن أنام وأصحو وقتما أشاء.. صدقني والدي.. لكن الحقيقة أن البودرة كانت شديدة.. وفعلا نمت، وبعدها صحوت، وشربت سيجارة من سيجارة.. كنت نائما عندما جاءت أمي إلى غرفتي، ومن ورائها رولا.. وسمعت نداءهما: "حمد لله على السلامة".. و"مبروك".. قمت مفزوعا وفي حالة هلع.. وقلت:

- إيه ده؟ أنا فين؟

كنت في حلم جميل في الحرم المكي.. بالقرب من الكعبة المشرفة، وكأنني لازلت في أيام الحج.. وبصوت ضعيف قلت لهما:

- ياه!! إيه ده؟ أنا في البيت؟ يوووه.. دا أنا فاكر نفسي لسه في الحرم وقدام الكعبة.. أنا إيه اللي رجعني؟

وضعت رولا يدها على جبيني وصرخت:

- ياه!!! إنت سخن.. إنت مولّع.

- أنا حاسس إني سخن.. أنا عيان يا ماما.

- طبيعي، معظم الناس بترجع من الحج عيّانة.

- احكي لنا عملت إيه؟

- مش قادر اتكلم يا رولا.. سيبوني أنام شوية، ولما أصحى أحكي لكم كل حاجة.

- جبت ماء زمزم.

- طبعا يا ماما.. يعني هتطلبي حاجة وما اجيبهاش!!

قالت رولا... ضاحكة:

- يا سلام.. يا سلام.. فاكر نفسك تقدر تاكل بعقلها حلاوة.. غيرك أشطر.

- سيبوني أنام.

أحسست بارتفاع الحرارة، ودور أنفلونزا خطير، ومكثت في البيت أربعة أيام.. وبعد التحسن البسيط وانخفاض الحرارة، صممت أمي أن تعطيني "تريكسان" مرة أخرى.

- بووووه! تريكسان تاني؟ ما خلاص يا ماما.

- والنبي يا صلاح.. علشان يحميك من نفسك.. إحنا ماصدقنا أن جسمك نضيف، وإنك اتحسنت شوية.

أخذت حبة التريكسان، وصممت أمي أن تعطيها لي في العسل، حتى لا أضحك عليها وأضعها تحت لساني أو أرميها، أو أي حل جهنمي آخر.. أخذت الدواء ونزلت إلى الشركة، ومن بعيد رأيت حسام.. أنا حفظته، بمجرد أن أراه، أعرف هل هو ضارب أم لا؟ إنها عشرة سنين، أعرفه كما تعرفني أمي من لون وجهي.. من صوتي.. من طريقتي في المشي.. من الهالات السوداء تحت عيني.. من أسلوبي في الكلام.. اقترب حسام، جاءني بخطى سريعة، لكنها متعثرة، وسألني:

- إيه النظام؟

- تريكسان.

- إيه الأرف ده؟

- أمي اصطادتني وأنا عيان.

- معاك فلوس؟

- امسك 30 جنيه.

- تسلم.. دى كانت مثقفلة.

رجعت إلى الشركة وأنا أشعر بأنى أحسن حالا، وبعد رحلة الحج ولمدة عشرة أيام، ازداد خلالها وزنى، والفرق واضح.. واستقبلنى الكل بحرارة، وكان سيف سعيدا برجوعى؛ لأن حجم العمل أصبح أكبر بعد افتتاح مقر الشركة الجديد، وبدأ أيضا تنفيذ فكرة الفندق الصغير.. كنت صاحب الفكرة وأعجبته وسارع بتنفيذها.

عدت إلى العمل بحماسة حقيقية، إلى أن طلب منى سيف السفر إلى شرم الشيخ لاستقبال فوج مهم بنفسى، واستلام المستحقات المالية.. وساد القلق فى بيتنا.. أمى لا تخفى قلقها أبدا، ورولا أيضا، وهذه الرحلة بالنسبة لهما مدعاة لقلق عظيم.. لكننى استطعت السيطرة على الموقف، وإشاعة الاطمئنان وهزيمة قلقهما، عندما قلت:

- أنا خلاص من ساعة ما رجعت من الحج وكله تمام.. الفيلم ده، خلاص انتهى، وغير كده أنا ناوى أقعد يومين مش أكتر.

اختلف الموقف بالنسبة للوالد.. كان أمره غريبا، هو يرى أننى بخير، وكأن هذا الموضوع لم يكن له وجود، وكل شيء منضبط، وصلاح أدى فريضة الحج ورجع بالسلامة، وهو ولد ممتاز وبالتأكيد تغير، ولن يتعاطى المخدرات مرة أخرى.

سافرت إلى شرم الشيخ، وفى انتظار انتهاء مفعول "التريكسان" بفارغ الصبر.. أريد أن أضرب.. متى، متى تمر الأيام؟! ومر اليوم الثانى ثم فى اليوم الثالث صحوت من النوم، ونزلت مسرعا إلى شراء البودرة من البدو، وضربت فعلا، وبقيت هناك يومين، ولم ينكشف أمرى بعد العودة من شرم الشيخ، لكن أمى أصرت على إعطائى "التريكسان" وطبعا اعترضت بشدة؛ بحجة أنه يتعبنى ويستنفد قواى، وقلت لها:

- لا يا ماما.. مش ها آخد تريكسان تانى.. خلاص.. التريكسان بيهدنى.

ولم يكن هذا الكلام صحيحا، ولكن المعروف أن الإكثار منه يتعب الكبد، ولعبت على هذا الوتر الحساس.. وقد سبق أن صممت أمي على إجراء تحاليل والذهاب إلى استشاري كبير في أمراض الكبد، وعالجني بسبب الإكثار من تعاطي المخدرات والخمور، ونصح بالإقلاع عنها فورًا.

أجريت اتصالاً بحسام، وطلبت منه الذهاب معا إلى الجعافرة.. المشوار طويل ويحتاج إلى سيارة.. لم أذهب إلى الشركة، ولكننا انطلقنا إلى مصر الجديدة، ثم إلى طريق زراعي، وسرنا داخل البلدة الصغيرة، بجوار ترعة إلى أن وصلنا إلى بيت صغير، صاحبه اسمه غانم، وبدأنا كلامنا بالتحيات:

- صباح الفل.

- أهلا بالبهوات.

- هو الدُولاب شغال منْ الساعة كام لكام يا معلم؟

- تعال في أي وقت يا باشا، يا أنا موجود، يا واحد من إخواتي.

- منْ إمتى إنتَ شغّال يا غانم؟

- قبل العيد بكام يوم.. اتفضلوا يا بهوات.. اضرَبوا جُوّا.

دخلنا غرفة كبيرة.. ليس بها إلا الحصير، وفي ركن منها براد شاي وبعض أكواب المياه لتقديم الشاي..وسألنا غانم:

- شاي يا بهوات؟ سكركم أد إيه؟

- ماشي.. سُكّر زيادة.

اختفى غانم بعد إعداد الشاي، ولمدة خمس دقائق.. وضربت أنا وحسام السوستتين، بعد أن تأكدت أنه عمل السوستتين متشابهتين تماما، لأن النّصف أصبح عاليًا، وعاديًا.. وبدأت أتحدث مع حسام:

- بُصْ يا صاصو.. إحنا ضربنا نُصْ تذكرة بس.

- لا يا راجل.. ورِّيني الورقة كده.

- مش باقول لك.. ضربنا نُصْ الورقة بس.

- غريبة!! دى بُودْرة سم.. بيور.. الموضوع ده فيه حاجة غلط يا حسام.. الورقة دى على الأقل رُبع جرام وتمنها 30 جنيه!! يعنى من 150 جنيه، لـ 30 جنيه؟! الفرق كبير جدًا.. وكمان مش مطحونة بأى حاجة، ولا عليها "أبو صليبة"، ولا نوفاسى، ولا بلا أزرق.

- يا عم إنت زعلان ليه؟

- زعلان ليه!! أصبُر بس.. غانم جه.

عاد غانم ومعه تذكرة، أعطاها لى فى يدى قائلاً:

- دى واجب منّى.

- يعنى أنا جيت لك 10 مرات قبل كدا، وعُمرك ما وجِبت معايا، إشمعنى وجبت مع صلاح؟

- الباشا أول مرة يشرّفنى، وقلنا نوجّب معاه.

- تسلم يا غانم.. مرذود لك يا معلم.. يالّلا يا حسام.. نتكل إحنا على الله، ونشوفك قريب.. سلام يا غانم.

- سلام يا بهوات.

انطلقت بنا السيارة وسرحت طوال الطريق فى موضوع البودرة، وأسأل نفسى: ما هذه الكمية الغريبة؟ ولماذا يبيع بهذا الثمن الرخيص؟ ولماذا يبيع بودرة بيور؟ لم أذهب إلى الشركة.. وعدت إلى البيت.. ومنظرى وشكلى واضح ومكشوف مائة فى المائة.. ولم تتحمل أمى ومن غير كلام.. دخلت إلى غرفتها وقفلت بابها.. وعزّ علىّ كثيرًا أن أراها بهذا الشكل.. إنها تتألم بكل تأكيد، وأنا أيضا.. دخلت إلى غرفتى، وقفلت بابها.. ولم أر والدى، فهو لا يزال نائما.. أما أختى.. فقد تزوجت من مهندس بترول يعمل فى البحر الأحمر، تعيش معنا عندما يسافر، وفى أيام أجازته تستمر فى الاتصالات التليفونية كل ساعتين، وتأتى للاطمئنان علينا مرة فى اليوم على الأقل.

وبعد أن استجمعت أمي قواها، جاءتني قائلة:

- مفيش شُرْب سجاير في السرير.. مش ناقصة كمان تولّع البيت.

- حاضر.

- صدّقتك.. برضهُ ضحكت عليّ.. مش عارفة أعمل إيه؟

- أنا كنت محتاج المرة دى.. صدقيني القرد اللي جوّا دماغي مش بيسكت ولا بيهدا.. جنّني خلاص.

- القرد لازم يموت.. منك لأبوك.. أنا خلاص تعبت.

في اليوم التالي ذهبت إلى المكتب ومعي البودرة، رغم أنني أضرب في البيت قبل خروجي، وأنزل بسرعة.. وجمعتني جلسة ودية مع سيف، تحاورنا حول الارتباطات الجديدة، وخط سير العمل، وأيضًا تحدثنا في أمور الحياة، وضحكنا طويلا.. إنه لا يعرف، ولم يتخيل أبدًا إنني أتعاطى المخدرات، وهو معجب بأفكاري المبتكرة، وقال لي:

- أنا قدمت على قرض من البنك، وأخدت موافقة عليه.. عايزك يا صلاح تروح البنك، وتركّز معاهم لغاية ما نصرف القرض، إحنا محتاجين سيولة نقدية علشان الفندق.

أخذت منه كل التفاصيل، ولمدة أسبوع أذهب يوميًا إلى البنك، وأجلس أمام الجميع نصف نائم ونصف صاحي، ولم يلفت أحدهم نظري، بأنه لا يجوز أن أبدو بهذا الشكل في مكان عملهم بالبنك؛ فهم يضعون في الاعتبار أنني أقوم بإجراءات لإنهاء القرض لشخصيات مهمة، وأيضا يبدو من عنايتي باختيار ملابسي أنني أيضًا ابن عائلة محترمة.. ولكنني انكشفت تماما أمام العاملين في البنك، وفي يوم قال لي مدير البنك بكل صراحة:

- إحنا خلاص خلّصنا القرض، والتحصيل بُكره.. بسّ ياريت حضرتك تنام في البيت علشان ماتجيش وتنام لنا في البنك.. المنظر صعب شوية.

أبلغت سيف النبأ السعيد.. إنه إنجاز كبير.. وذهبت إلى الشركة:

- مبروك القرض يا سيف.

- ياااه.. أخيراً!! إنت دلوقت تحوّل الفلوس، وأنا أسافر كام يوم شرم، نفسي أغطس وأريّح نفسي من الدوشه اللي حصلت.. إنت لما اختفيت، أنا شلت كل الشغل لوحدي.

- خلاص يا سيدي.. عوضتها لك، خلصت القرض، وكمان ها اشيل الشُغل كلّه في المكتب.. ولا يهمك.

سافر سيف لمدة عشرة أيام، وتحول المكتب الجديد إلى مكان ضرب.. ظهر رامي مرة ثانية وأيضا بهاء، وكان حسام يقضى معي كل الوقت، ونذهب إلى الجعافرة في رحلات مكوكية.

ولم تعد أمي تتكلم معي في الموضوع نهائيا.. كل ليلة أرجع لأجدها في انتظار وصولي، وبعد أن تطمئن على عودتي، تدخل إلى غرفتها لتنام.. ومن وقت لآخر يُحاورني والدي على أمل أن يأتي بنتيجة.

- يا صلاح، كده مش هينفع.. إنت لازم تتعالج. انت كده هتدمر نفسك وتدمرنا معاك.. أنا خلاص مش عارف اشتغل، ولا عارف أركز في أي حاجة.. أدخل مستشفى.. نسفرك برة.. نعمل أي حاجة.. بس الاستمرار بالطريقة دي.. مستحيل.. دا اسمه إنتحار.

- فعلا عندك حق.. أنا كدا بانتحر.. وبانتحر ببطء.. أنا خلاص باجهز خطة علشان أبطل، واديني فرصة كام يوم، وأنا ها اجي أقول لك أنا ناوي على إيه.. بس ماتخفش.. الوضع ده مش ممكن يستمر.

كلامي يبدو مطمئنا، ولكنني في أعماقي.. أعرف الحقيقة.. أعرف حجم الكارثة..

قلت لنفسي:

- خلاص يا صلاح.. خلاص إنت خلصت.. كل محاولات التبطيل والإقلاع عن التعاطي فشلت.. وحتى رحلة الحج لم تُثمر.. فشلت.. الحج كان المرفأ الأخير.. وضعت عليه كل آمالي.. وضيّعتها.. وضعت.

وبدأت آخذ الأموال من الشركة من غير حساب.. وبدأت أضرب على مدار اليوم.. ثلاث تذاكر.. وسيارتي "الاكسدام" مكسور وفانوس واحد مضيء، والآخر مكسور، والخبطات في الصاج في كل مكان.. في الباب، والرفرف.. إنها عربية مدمن.. وتعرضت لحوادث كثيرة بالسيارة.. ولا عجب أن تصبح سيارتي بهذا الشكل، أضرب دون وعي أو تركيز.. والسيارة 128 أصبحت علامة واضحة وصريحة لسيارة صلاح المدمن.. ومع هذا لم أكن أريد الاعتراف أبدا بأنني مدمن.

فقدت وزني.. وأصبحت مكشوفا أمام يسري العامل في الشركة.. أيضا حنان السكرتيرة فهمت الوضع المؤسف بسبب الأشكال الغريبة التي تتردد على المكتب، وكانت تصرفاتي كلها مريبة.. يا صلاح انكشف أمرك.. لدرجة حتى الحمار يفهم، والحل الأمثل أن تغادر المكتب والشركة، ولا تحاول أن تواجه سيف.. أخرج من عنده ولا تعُد.

بعد أن تركت العمل مع سيف.. مرت أمي بظروف صعبة.. فقد فقدت عمها الذي كان بمثابة والدها، وكنت أصحبها الى المستشفى لزيارته قبيل رحيله ووداع الحياة.. وكثيرا ما سألت نفسي:

- أيهما أسوأ: المرض أو الوفاة.. أو حياتي بهذا الشكل؟

وكنت أتردد معها إلى بيت العائلة، وهناك يجتمع الأقارب لمناقشة التفاصيل بعد الوفاة، وكيفية رعاية أولاده، وذات ليلة ذهبت مع رولا

لاصطحاب أمي في رحلة العودة إلى البيت، وكان معي بودرة وموسته وضعتها في الشراب، وكنت أصلاً "ضارب"، لكنني تعودت أن أضرب أكثر من مرة في اليوم.. وفي ثانية: دخلت الحمام، وضربت وخرجت منه في حالة يُرثى لها، وأمام الأقارب جميعا.. أصابهم الذهول، وسألوا:

- ماله صلاح؟

- فيه إيه؟

- عامل كدا ليه؟

- كان لسه واقف كويس!!

أجابت أمي باختصار شديد:

- دي مُصيبة تانية، ووقعنا فيها.

ولم يعلق أحد بكلمة.. هل فهموا جميعا؟ هل كانت الحقيقة معروفة، والمصيبة مكشوفة؟! لست أدري.. هل سكتوا ولم يعلقوا لأنه لا شيء يقال في هذه الحالات؟ لا أعرف.. وأعرف أنني لم أحترم جلال الموقف، أو حُرْمة الموت.. أو.... أو.... أو....

وأعرف، وأشعر أنني لا أضرب لأضيف لنفسي شيئا ما، ولكنني أشعر بأنني أضرب وكأنني أنتقم من نفسي.. وفكرت كثيرا في هذه الفترة في الانتحار.. ثم إنني أجبن من أن أنتحر.. فوصل بي الحال والشعور بالأسى العميق، إلى أن أضرب وأنا أبكي.. أضرب والدموع تنهمر وتغسل وجهي، ولم أكن قادرًا على إيقافها.

دخلت في مرحلة جديدة، وبدأت أبيع كل ما عندي.. بعت الاستريو، بعت أكثر من ساعة، إلا الساعة التي أهداها لي الأمير في السعودية.. تأملتها

ألف مرة، ولكن لم تمتد إليها يدي لكي أبيعها.. إنهـا رمـز للمبـادئ والقـيم الرفيعة.. ولكن أين المبادىء؟ وأين القيم؟

وبدأت اشترى بُودْرَة من غانم في الجعافرة.. وأبيع لأصحابي بضعف الثمن 60 جنيها بدلا من 30؛ حتى أحصل على المبلغ الذي يساعدني لـشراء ما يكفي للضرب ثلاث وأحيانا أربع مرات في اليوم.. والمشكلة أن كل كميـة لم تعد تكفيني، وفي خلال أسبوع واحد فشل الدولاب؛ لأنني أصبحت أضـرب كل ما عندي.

لم أعد أرى رولا إلا باكية.. أمي واجمة، ولم تعد تقص الإنسانة، وكل شيء في حياتها تعرض لهزة زلزال مدمر.. كريم لم يعـد يـأتي لزيارتنـا.. بابا مهموم، واقترح أكثر من مرة أن يأخذني إلى المستشفى، فكنت أقول:

– المستشفى، لا يمكن.. شريف لسه خارج من المستشفى مـن أسـبوع واحـد ورجع يضرب تاني.

وأضفت من تخيلي:

– أنا سمعت إن العلاج فيها بالكهرباء، وأعرف واحد دخل المستـشفى للعـلاج جننوه.. أنا هاسافر سفاجا ومش هارجع إلا لما جسمي يبقى نضيف، وارجع أخد تريكسان.. هو ده الحل الوحيد.

كل يوم أسطوانة جديدة، وكل يوم الحالة أسوأ من اليوم السابق.. مريم فقدت والدها، وبعد وفاته بدلا من الوقوف بجانبها، كلمتها بحدة قائلا:

– باقولك إيه.. ماليش دعوة.. انزلي دلوقت حالا، وهاتي لي معاك 200 جنيه.. اتصرفي يا مريم .. أنا تعبان جدا، ولازم أشترى دواء.

وتترك مريم جلسة العزاء، وأراها هزيلة متشحة بالسواد، وأعطتنـي 200 جنيه وانطلقنا بسيارتها الى الجعافرة، وأقنعتها انني لا اخذ بودرة، ولكنه

دواء، وهو أيضًا من الممنوعات، لكنى مضطرٌ أن آخذه لأتوقف عن تعـاطى البُودْرة.

أدخل عند غانم، واضْرَب، وأرجع إليها شخـصية أخـرى.. مُنْتَهِـى الحنان والحب، وأقبل يدها وأحدثها عن الزواج والبيت المشترك، والحياة معـا بقية العمر.. وأى كلام.. وهى لاترد، ولكنها لا تتوقف عن البكاء، وأقول لها:

- الله يرحم باباك.. كان راجل طيب.. تماسكى يا مريم.. العياط مـا يـنفعش.. البقية فى حياتك.

لم تكن تبكى وفاة والدها، ولكنها تبكى على ما وصلت إليه، وقد كـان أملها كبيرا فى رحلة الحج، وانها سوف تغيِّرنى.. تصورت أنه سـيكتب لـى الشفاء، وأرجع إلى مكانى الطبيعى.. ولكن هذا لم يحدث.. وفى بعض الأحيان كانت تزورنى فى البيت، وأطلب منها، وأتوسل إليها ألا تتركنـى، وأتماسـك بعض الوقت، وفجأة أقول لها:

- أنا داخل آخُد دُش علشان أرتاح شوية.

وأدخل الحمام، وأخرج منه إلى الشارع.. وأعود بعد ساعة أو ساعتين، فأجدها لازالت تجلس فى مكانها.. وتبكى.. وتسألنى باكية:

- وبعدين؟ أعمل إيه يا صلاح؟ قل لى أعمل إيه؟ مش عارفة خلاص.. أنا مش عارفة.

وأبذل جهدا فى محاولة مستميتة لتهدئتها، ولا تتوقف عن البكاء..

وأيام تمر من السيئ إلى الأسوأ.

27

صفعــة على الوجــه

بدأت أمي تكره كل ما حولها.. كرهت مريم بلا ذنب.. وبــدأت تلــوم نفسها.. وتلوم والدي.. تلوم كريم.. تلوم رولا.. تلوم أصحابي، تلوم مــريم.. إنها لم تعد قادرة على الاحتمال.. لم تعد هادئة كعادتهــا، وأصــبحت ســريعة الغضب والانفعال.. وقلت لنفسي: لا خــلاص.. "ماهــا أعــصابها فلتــت".. لقد عانت، وتحملت فوق طاقتها، واليوم فقط فهمت معنــى عبــارة "انفــلات الأعصاب".

وفي ليلة من الليالي، زارني أحد الأصحاب، هو ضربتي، وهي تفهــم هذا جيدا.. تفهمه من أسلوب الكلام، من نظرات العينين.. من الهالات السوداء، ومع هذا، وبكل الصبر جلست تناقشه وتفكر معه في الحلول، وهي تعرف أنها مناقشة بيزنطية. ولكنها تجرب وكلها أمل.. وخلال حديثهما اختفيــت لــدقائق معدودة أجهز السوسة، وكنت على وشك الضرب، وافاجأ بأمي تفــتح بــاب الحمام، وأنا أمسك الحقنة في يدي، وحاولت أن تأخذها مني.. فــدفعتها بقــوة لأخرج من الحمام، فضربتني.. صفعتني على وجهي، واستمرت في محاولاتها لتأخذ الحقنة.. ولم تنجح.. فهذا هو المستحيل بالنسبة لي.. أمسكت يدها بقــوة، فجاءتني الصفعة الثانية، فدفعتها بعيدا عني، فوقعت علــى المقعــد، ورفعــت صوتي، صرخت:

– مالكيش دعوة.. أنا عايز أضرب.. ابعدي عني..

فتحت الباب، والحقنة في يدى، وأريد أن أضرب.. أريد هذا بشدة، ولا أدرى ماذا فعلت، ولا أعرف إلى أين أتجه؟! إن مفتاح سيارتى فى غرفتى.. سيارتى ذات المنظر العجيب.. الخبطات فى كل أجزائها، ولم يعد فيها شبر واحد سليم.. ظللت أجرى فى الشارع، بعد أن أخفيت الحقنة فى ملابسى.. جريت طويلا حتى وجدت نفسى أمام إحدى دور العبادة.. دخلت الحمام، ضربت.. وخرجت.. تلقفنى الشارع وأكاد لا أعرف أين أنا بدقة، ولا أعرف مصيرى، مشيت هائما حتى وجدت نفسى على كورنيش النهر الخالد.. جلست أتأمل انسياب الماء فى هدوء، وأتذكر جلساتى مع حسام أو غيره من الأصحاب "الضربية"، كنا نضرب ونجلس بعدها فى هدوء، لا نتكلم كثيرا، وإذا تكلمنا نندب حالنا ونتساءل عن مصيرنا، والمستقبل المجهول الذى ينتظرنا؛ لأننا نفقد قوة الإرادة، ولا نستطيع التوقف عن التعاطى.

عدت إلى بيتى، ووجدت أمى جالسة أرضا على وسادتها الخاصة فى غرفة المعيشة، وفى لمح البصر، انحنيت على قدميها قائلا:

– أبوس رجليك يا ماما.. مش عايز اخد تاني.. أبوس رجلك.. أنا مش عارف أعمل ايه!

جلست على الأرض بجانبها.. أحاول تقبيل قدميها.. بكت وأخذتنى بين ذراعيها.. ارتميت فى أحضانها الغارقة فى دموعها، وبصوت ضعيف وهامس قالت:

– أنا عارفة.. والله أنا فاهمة وعارفة.

دخلت غرفتى وكتبت لها رسالة.. مثل عشرات الرسائل السابقة.. مجرد وعود ولا تنفذ.

مر اليوم.. مثل غيره من الأيام، وأصبح الحصول على النقود أكثر صعوبة، وكل يوم أصعب من اليوم الذى يسبقه، وساد البيت حالة من الحزن والكآبة، كأننا فى مأتم.. كل منا فى غرفته، والشبابيك لا تفتح، والبيت مظلم وكئيب.. قاتم وحزين.. فى بيتنا شاب مدمن، يمكن أن يموت بين ثانية وأخرى.

ارتفعت جرعتى وزادت بدرجة غير طبيعية، وبدلاً من ثلاث ورقات، أصبحت 5 ورقات.. ويزداد البيع عند غانم بكميات مذهلة، عدد الزبائن يزداد يوماً بعد يوم، وكأننا أمام مطعم فى أهم شوارع المهندسين.. العربيات تـروح وتجىء غيرها، بصورة يصعب حصرها، وذات يوم سألته:

– زبَاينك كتَرُوا أوى يا غانم!! إزاى كده؟

– كل زبون بيجيب زبون يا صلاح.

– بس يا غانم البُودْرة كده هاتخلص.

– لا.. ماتخافش.. الكمية اللى عندى كبيرة جداً.. دى عاوزة بلد تخلَّصها.

– للدَرجة دى؟!

– بَسْ ربنا يبعد عنا الحكومة، أصل أنا شامم ريحة غدر.

– هو أنت مش مظبّط وعامل حسابك واللاّ إيه؟

– طبعا مظَبَّط ونُص.. وعامل حسابى كمان.. ما تخفش.

– بس الريِّحة فاحت يا غانم.. إنتَ عارف ليه؟

– ليه؟

– علشان الكمية بتاعتك مش عادية.. بودرة نضيفة ومش مضروبة، ورخيـصة رخص التراب.. حاجة تقلق يا حسام؟

– إيه يا صلاح.. أنت عايز غانم يقلل الكمية واللاّ إيه؟

– لا يا حسام.. ولا تقلق.. الكمية هتفضل زى ما هى.. بسّ غـانم لازم ياخـد بالُه، ويأمّن نفسه شوية لأنها وسّعت منُه أوى.

مشيت أنا وحسام بعد أن اشترينا.. فقلت لحسام:

– إنتَ عارف يا حسام، إيه الحكاية؟

– إيه الحكاية يا معلم؟

– البُودرة دى بُودرة صهاينة.. البُودرة دى من إسرائيل.

– إسرائيل إيه يا عم إنتَ؟

– اسمع بسّ اللّى بأقولَك عليه.. البُودرة دى نزلت البلد بالكميات دى، وبالرُخص ده علشان الشباب يضرَب بيها.. إنتَ شايف الزحمة عند غانم النهارده كانت عاملة إزاى؟ اللّى ماضربش يضرب، واللى ضرب يضرب أكتر.. دى أرخص من الحشيش يا حسام.

– يا ابن "......"، جه فى بالك الكلام ده إزاى؟

– مستحيل ينسوا حرب 73.. ضربناهم والنهـارده بيردوهـا لنـا.. بيـدمرونا وبيدمروا البلد.. دى حرب يا معلم.

– تصدق.. معاك حق يا صلاح.. فعلاً بودرة كتيرة أوى، ونضيفة كمان.. كمية كبيرة ورخيصة.. رخيصة جدًا.. ده كمين.. كمين ابن "....".

– أعمل سوستتين لأن الفيلم ده قوّانى.. وخلى بالك.. غانم مش فاضـل عليـه كتير.. هيقع قريب، وها افكّرك.

رجعت إلى بيتى.. والحال كما هو عليـه.. ظـلام، كآبـة عجيبـة، أو متوقعة؛ فالمسكينة أمى أصبحت حياتها مضطربة، وهى سجينة غرفتها معظم

الوقت، وإذا خرجت تقفل بابها بالمفتاح.. كل فرد في الأسرة يحرص على ممتلكاته الخاصة، والذي يخفي مخفظته في أماكن مختلفة، وزوّ لا في بيتها.. وهكذا لم يعد هناك أي شيء تطوله يدي.

تحولت البوصلة واتجهت نحو مريم.. سحبت منها نقودا كثيرة ادخرتها من عملها.. استوليت على مجهودها وعرقها في العمل.. في دقائق أو ثوانٍ معدودة أضيّعه، وزاد الطين بلة استغلالها، الذي وصل إلى أبعد مدى، بدأت آخذ الذهب منها وأبيعه، وهي مستسلمة تماما.. فقط تبكي بكاء مرًا.

وفي يوم من الأيام، جاءني صديقي شريف ومعه صاحبه فؤاد لأذهب معهما إلى غانم.. فأنا أعرف الطريق إليه، وهو حبيبي.. طبعا غانم لم يكن حبيبي.. بالعكس كنت أكرهه، كراهية بلا حدود؛ لثقتي أنه عميل إسرائيلي.. وذهبت معهما، ودخلنا البلد كالمعتاد، ولكني شعرت أن الجو مكهرب، شيء ما لا أدريه جعل الجو مختلفا.. وخرج علينا عشرات من أطفال القرية، يصرخون ويجرون في كل اتجاه، وكانت الصيحة المميزة: حُكومة.. حُكومة.

لم تدخل البلد في اتجاه بيت غانم، ووقفنا بالسيارة بعيدا، وفي اللحظة نفسها طلع لنا فجأة من وراء شجرة، واحد من الأولاد، الذين يبيعون البودرة في بيت غانم، وقال لنا:

– أهلا يا بيه.. الدنيا مولّعة من الصُبح.. الحكومة مسكتْ غانم وإخواته.. عشر عربيات أمن كانوا هنا.

– يعني مفيش شُغل؟

– عاوزين أد إيه؟

– 12 ورقة.

– دقيقة وراجعْ لك.

فى لمح البصر اختفى، ورجع بعد ثوان معدودة، ومعه 12 ورقة وأخذ الفلوس.. خطفها وطار، واختفى بين الشجر.. ومن بعيد استطعنا رؤية سيارة الشرطة، ولم نهتم.. فتحت ورقتين وجهزت السُّوسته، واعترض فؤاد قائلا:

- يا ابني غلط كده.. إضرَب ورَقة.. ورَقة.

- مالكش دَعْوة.

ضربت، وكلاهما ضرب، وعندما أدار شريف السيارة لنعود من حيث أتينا.. انطلقت فجأة النيران علينا.. انهال الرصاص تجاهنا.. رصاص كثير بدرجة لم نكن نتوقعها، وأسرع شريف وجرى بسرعة خطيرة، ألقيت رأسي على الكنبة تفاديًا للرصاص، ولم أستطع رفعها مرة أخرى، وفقدت الوعى بسبب الجرعة الكبيرة، حالة "أوفر دوز"، واستمر شريف يجري بالسيارة بسرعة رهيبة، حتى نجح فى الهروب.. وفيما بعد عرفت أنه تم القبض على المئات فى ذلك اليوم، والكثير منهم أعرفه، وبعضهم من أصحابى.

ظللت فاقدًا الوعى حتى وصلنا إلى بيتي، ولم تكن عند شريف فرصة ليتوقف بسيارته فى محاولة لإفاقتى وإنقاذى.. وفى ظل هذه الظروف، المعروف والطبيعى بين الضَّرِّيبة، أنه إذا مر أحدهم بمثل هذه الحالة، يفتح باب السيارة، ويلقى به خارجها وانتهى الأمر؛ لأنها مسئولية خطيرة، والموقف الذى مررت به مع مينو ذات يوم، نادر الحدوث، ولا يتكرر.. وكان من الطبيعى جدًا أن يفتح شريف باب سيارته، ويرميني فى أى مكان على الطريق، وينفض يديه من المسئولية.. لكن شريف رجل وعشرة عمر، ولم يفعل هذا، رغم أن صاحبه فؤاد الذى كان فى صحبتنا قال له، بدلاً من المرة، ثلاث مرات:

- نرْميه فى أى مكان.. نحَدفه فى الطريق ونخلص.. لو قام يبقى كويس وله عُمر، لو مات يبقى إحنا برّه الليلة دى يا معَلم.. المشْرحة مش ناقْصة قتلة.

اختار شريف الموقف الرجولى، وصمم أن يأخذنى معه إلى بيته، وكان مصادفة أن أهله وقتها سافروا إلى مرسى مطروح، وفى البداية رسم خطة

للذهاب بي إلى المستشفى، ولم ينفذها لأنني أفقت بعد أن غمر رأسي بالمياه، وضربني على وجهي إلى أن أخذت أنفاسي، وأفقت قليلاً من الإغماء.. وهكذا أنقذته من هذه الورطة الخطيرة، فقال لي أمام باب عمارته:

- أنا أهلي سافروا النهارده مرسى مطروح.. أطلع عندي لغاية ما تفوق.

لم يكن لدي القدرة على الاعتراض أو الموافقة.. واعتبر سكوتي معناه الموافقة، وفعلاً خرجنا من السيارة، وطلعنا بيت شريف.. استندت على ذراعه، ومشى بجانبه صاحبه فؤاد.. وطبعا منظرنا عجيب، بل مرعب.. وفي العمارة نفسها يسكن أقارب أبي، وابنهم الصغير عادل، وهو أصغر مني، وكان يعتبرني مثله الأعلى، إذ كان من أشد المعجبين بأسلوبي في اختيار ملابسي، وفي حبي للسفر، والسيارات، وعلاقاتي العاطفية وصداقاتي مع البنات، ودائما يفتخر بي أمام أصحابه، ويحكي لهم عني، وعن مغامراتي، وفيما يبدو أن أحد أبناء العمارة رآني في تلك اللحظات البائسة، فأسرع بنشر النبأ، وعرف عادل، وجاءني مسرعًا عند شريف.

واستقبله شريف مرحبا:

- أهلاً يا عادل.. أخبارك إيه؟

- أنا كويس.. هو صلاح عندك؟

- أيوه موجود.. عندي في الأوضة.. بس تعبان شوية.

- مُمكن أدخل أشوفه؟

- آه طبعًا.. تفضل.

- إزّيك يا صلاح.. إنتَ كويس؟! أنا عادل.

وجدني عادل في السرير، شبه نائم، ولا أستطيع أن أفتح عينيّ، وبصعوبة فتحتهما، وأعتقد أني كنت أتكلم بصعوبة بالغة، وقلت له:

- إزّيك يا عادل.. إنتَ عرفت إزاي إني هنا؟

- أصحابي قالوا لي.. مالك يا صلاح؟ فيك إيه؟

- لا.. لا مفيش حاجة.. ما أنا كويس أهو.

- شكلك تعبان أوى.

- ولا تعبان ولا حاجة يا عادوول.

- طيب مش عايز حاجة؟

- لا شكرا.. وسلم لى على أهلك.. واحد.. واحد.

مشى عادل، أو هكذا تصورت، ولكنه خرج من الغرفة وجلس مع شريف، وظل يبكى.. ويبكى، وأخيرا سأله:

- صلاح مش طبيعى.. أجيب له دكتور؟ أعمل له إيه يا شريف؟

- ولا حاجة.. ما تبقاش خواف كده.. هو بس تقلها حبتين.

ظل عادل يبكى، وهو حائر بين أن يذهب إلى أهله وأن يشرح لهم حالى، وبين السكوت وكتمان الخبر.. وأخيرًا تماسك وقال:

- شريف، أنا فى بيتنا، ولو فيه أى حاجة ممكن أعملها.. أرجوك تقولى بسرعة.

عدت إلى بيتنا فى اليوم التالى، ونشرت نبأ القبض على غانم وأخواته، وبقدر أسفى على نهاية دولاب الجعافرة، بقدر سعادتى البالغة للقبض على غانم.. هذا العميل الإسرائيلى.

ومن جديد بدأت مع حسام فى البحث عن مكان وطريق آخر، وذهبنا إلى حى الأزهر، وعرفنا أحد الأصحاب على تاجر أقمشة فى الحسين، يبيع البودرة.. لكن المشكلة أننا تعودنا جرعات عالية، وعلى بودرة نظيفة، ورخيصة، ولم يعد هذا ممكنًا.

<u>أول نوفمبر</u>

لم تعد سيارتى صالحة للركوب.. أنهت عليها رحلات الجعافرة والحوادث الكثيرة، وأصبحت التنقلات بالأتوبيس والتاكسى.. ولم أعد أجد حلاً للحصول على النقود، ورأيت الدنيا سوداء بلا شعاع ضوء واحد.. الليالى

طويلة، وفى الصباح لا أدرى ماذا أفعل.. لقد سلكت كل الطرق وفكرت أكسر باب غرفة أمى.. يا إلهى، هل وصل بى الحال إلى هذه الدرجة؟! أيام زمان كنت أفكر قبل الإقدام على أى عمل خطير، واسأل نفسى:

- أسرق إزاى؟ معقول؟ طيب إمتى؟ وأسرق إيه ومين؟ إزاى ما حدش يكتشف؟ مرة طبق فضة.. مرة ڤيديو.. مرة ساعة.. مرة سجادة من المخزن.. ومرة أنبوبة بوتاجاز.. أى شىء يمكن بيعهُ.

وفى يوم أخذت بذلتين من بدل بابا الشَّتوى، وقررت نروح أنا وحسام نبيعهم فى الحُسين، وفى الشارع قابلنا والدة حسام، وسألتنا:

- رايحين على فين بالبدل دى؟

- رايحين نودِّيها التنضيف.

اختلف الوضع الآن، ولم أعد أفكر: متى أسرق.. وماذا أسرق.. ولو عرفوا.. لو اكتشفوا.. لا يهم..

ولم يكن أحد فى البيت.. فقررت أن أكسر باب غرفة أمى، وبعد أن كسرت الباب: كسرت الدولاب، واكتشفت أنها غيرت أماكن المجوهرات ووضعتها فى شنطة صغيرة ولها مفتاح أيضا، ووقفت أمام الدولاب المكسور، والشنطة المليئة بالمجوهرات.. وقفت أفكر: أمامى عدة اختيارات: سيانك ذهب، أساور ذهب، ساعات، كاميرا فى الدولاب.. وبينما أنا فى حيرة.. أفكر فيما آخذه، وجدت بابا يقف أمام باب الغرفة، وسألنى:

- بتعمل إيه؟

- بصلح الدولاب.. أصله مكسور.

طبعًا.. كلام فارغ لا يدخل العقل ولا يُصدَّق، فقال:

- دولاب إيه اللى أنت بتصلحه؟! إنت خلاص وصلت للمرحلة دى؟

- مرحلة إيه بس؟

- اسمَع.. أنا هَا اسيبب لك البيت، وأروح اقعُد عند أهلى.. خلاص، اعمل اللـــى إنتَ عايزُه.. بِيع كُل حاجة.. دَمَّر البيت علشان تستريح.. أنا نازل.

فعلا.. فتح بابا الباب، خرج وتركنى وحدى.. نعــم وحــدى تمامًــا، ولا أعرف ماذا أفعل بنفسى؟ طبعا أنا فقدت عقلى.. لقد جننت.. وجلست علــى أقرب كرسى.. أبكى، وأبكى، وأتجول بعينى فى كل ركن فى البيــت، وأتخيــل أننى فِعْلا سأبيع كل شىء.. هل أنا فِعْلا وصلت إلى هذه المرحلة؟

هل يصبح بيتنا مثل البيوت التى دخلتها ولم أجِــد فيهــا إلا الــسرير، وفى بعضها لم أجد السرير.. لقد فعلنا هذا فى بيت حسام فى حدائق المعــادى.. بعنا كل شىء، حتى أبواب الغرف بعناها.. لم يعد هناك أى شىء فى ذلك البيت.

اقتحمت غرفة أمى مرة ثانية، وأخذت غوايش ذهب، ونزلت بسرعة، وقابلت حسام، وقلت له:

- ياللا بينا على الحسين، نفوَّر دُول ونضرَب.

- جبتُهم إزاى دول؟

- ولا حاجة.. كسرْت دولاب أمى.

وهناك فى محلات الحسين، بعنا الذهب، واشــترينا البُــودرة وقعــدنا نضرب.. والمشكلة أن البُودرة مهما كانت كثيرة لم تعد كافية، والمشكلة الأخرى أننا نضرب على مدار اليوم، ابتداء من الصباح، إلى آخر الليــل دون توقُّــف.. وثمن بيع الغوايش انتهى عن آخره بعد أيام قليلة.. لم تعد معنا سيارات، وكنــا نضرب فى التاكسى، ونضطر أن ندفع إلى السائق، ليسمح لنا بالضرب ونحــن على الطريق.

أمى أصلحت باب غرفتها، وعملت له قفل كبير، ولم تعد تخرج مــن البيت.. وكل يوم تزورها رولا مرتين، وأحيانا ثلاث وأربع مرات، والذى أيضًا لم يعد يخرج من البيت.. ظل حبيسًا فى غرفة المكتب، يخرج منها إلى المطبخ، أو إلى الحمام.. ومن الحمام إلى غرفة النوم.

وتوقفت الخلافات أو المشاحنات أو المناقشات الحادة بين الوالد والوالدة.. وأعتقد أن كل واحد منهما كان يشعر بالذنب، ويشعر أنه السبب فيما حدث لي.. وفضّل والدي أن ينتقل إلى غرفة نوم مستقلة.. فقد كان يخشى أن يتحمل مسئولية ما أفعله في غرفة نوم أمي، وبالذات بعد الموقف الذي رآه بنفسه، وأن كل مايقع تحت يدي أستولي عليه وأبيعه.

في واقع الأمر.. الوالد رجل طيب، وبعيد كل البعد عن أفلام التخريب والممنوعات والمخدرات.. كانت تفوق كل تصوراته.. وأخيرا اجتمعت العائلة كلها معا، وحضر الاجتماع العائلي: بابا، ماما، رولا وكريم، وكانت هذه أول مرة يتكلم فيها أخي كريم معي في هذا الموضوع:

– وبعدين يا صلاح.. آخرتها إيه؟

– آخرتها خير إن شاء الله.

– خير إزاي مع اللي إنت بتعمله ده؟ إنت عارف يا صلاح.. إنت مالكش غير حل واحد.. "زمالة المدمنين المجهولين"[1]

– أفندم!!

عاد كريم وكرر الجملة نفسها مرة أخرى..

– اجتماعات "المدمنين المجهولين" و"برنامج الاثناشر خطوة"

– أنا مش فاهم إنت بتقول إيه؟! إنت عارف الحل عندي إيه؟! هما 500 جنيه، وكل المشاكل تتحل..

انتهت الجلسة مثل غيرها من الجلسات، وأنا رفضت كل الرفض الذهاب إلى المستشفى؛ بحجة أن "فلان" دخل المستشفى 7 مرات و"فلان" دخل 3 مرات، و"علان" خرج من أسبوع، وضرب مرة ثانية.

---

[1] زمالة المدمنين المجهولين Narcotics Anonymous World Services, Inc. صاحبة حقوق نشر المادة العلمية الواقعية عن المدمنين المجهولين وافقت على السماح باستخدام المعلومات التي قد تم نشر بعضها في هذه الرواية فقط.

لم أعرف ماذا كان يدور فى ذهن كل واحد من العائلـــة.. ولكـــن مـــا أحسسته أن هناك يأسا واضحا واستسلاما تاما، فى مواجهة ابن يموت أمـــامهم، وببطء.

28

الشـــارع

وفي يوم من الأيام.. ضربت كمية قليلة، تجعلنــي متماســكًا ولكنهــا لا تكفيني.. واستيقظت صباح اليوم التالي، وقد جنّ جنوني، وجدت أمي نائمــة، ولم أجد والدي، فتحت دولابه، وسمعت نداء بائع الروبابيكيا، قلت له:

– اطلع.

طلع الرجل، وبدأت أُحوّل له ملابس والدي: أربع بدل، ثلاثة أحذيــة، واحدها جديد في علبته، وأكثر من قميص، وأكثر من بلوفر وجاكيت.. وبــدأت التفاوض على أثمان بيعها: البدلة ثمنها 2000 جنيه، بعتها بمبلــغ 50 جنيهًــا، الحذاء ثمنه 300 جنيه.. بعته بمبلغ 20 جنيهًا، القميص ثمنه أكثر 200 جنيــه، بعته بمبلغ 10 جنيهات، وأصبح كل المبلغ 360 جنيهًا.. فقلت له:

– يا راجل حرام عليك، دي البدلة من دول جديدة بألفين جنيه، والجزمة وحدها تمنها 300 جنيه.

– خَلاص.. علشان خاطرك 380 جنيه في البيعة كلها.

– ماشي.. يالله بسرعة خلّصني.

وبدأ الرجل يعد النقود، وفي الدقيقة ذاتها، وجدت بابا واقفًا أمامي، شهد المنظر، وقال بانفعال:

– إيه ده؟ فيه إيه؟ إنت بتعمل إيه؟ بتعمل إيه؟

– ماعرفش.. ماعرفش.. ماعرفش.

استيقظت أمي، ووجدت الباب مفتوحًا، والرجل لايــزال واقفــًا، قــال والدي للرجل:

– انْزِل يا عم.. انْزِل.. مفيش حاجة عندنا للبيع.. انزل.

قالت ماما:

- إيه اللى حصل؟ فيه إيه؟

- شُوفى إبْنك بيعمل إيه!! بيبيع هُدومى لبيّاع الرُّوبابيكيا!!

بدأ والدى يجمع ملابسه من أمام الباب، وأنا أقف جنب الباب، لا أدرى ماذا أفعل.. نظرتْ أمى إلىَّ، وبحسْم قالت:

- إطلَع برَّه.. افتح الباب وأخْرُج ومابْرْجعْش تانى.. إحنا اكتفينا بإخواتك الاتنين.. تبطّل، ماتبطّلش.. إحنا مِش عايزينك.. أنا خلاص ابنى مات.. بكْره هَا أنْشُر صُورتك فى الجُورنال وأقْبلْ فيك العزاء.. اطلَعْ برّه حالاً.

- يَعْنى إيه أطْلَعْ برّه؟

- يَعْنى أخْرُجْ منْ هنا، ورُوح مطْرح مَا تْرُوح.. البيت دا مِشْ بيتك.. با أقولك إطلَع برّه.

- طيِّب هَا امْشِى.. بَسْ أدْخُلْ آخُد الحاجات بتَاعتى.

- إنتَ كْمان مَالكْش حاجة هنا.. كفاية جدًا اللّى إنتَ أخدتُه.

فتحت الباب وخرجت..

يا ساتر.. أوّل مرة أجدنى فى الشارع.. وفعْلا ليس عندى مكان أذهب إليه.

وقفت فى الشارع.. ضياع ومأساة كاملة.. وكل ما أعرفه أننى متعب للغاية، وأريد أن أضرب، ولا أعرف ماذا أفعل، وذهبت إلى أقرب تليفون، وكلّمت مصطفى، وقلت له:

- أمى طردتنى من البيت.. ومش عارف أعمل إيه؟!

- ليه؟ إيه اللّى حصل؟

- قصّة طويلة.. المهم من فضلك، تعال بسرعة، وهات معاك أى فلوس.. أنا مفيش معايا ولا مليم، ومشْ عارف أروح فين.

- حاضر.. نُصّ ساعة وأكون عنْدك.. أقابلك أوّل الشارع.

- ماشي.. مَايتأخرش.

وجاءني مصطفى، قبل أن تمر نصف ساعة، وبمجرد أن رآني، سألني في ذهول:

- إنتَ عامل كده ليه يا صلاح؟

- عامل إزاي يعني؟!

- شكلك اتغير.. وبعدين إنتَ خسيت جامد أوي، إنتَ كدا هتختفي.

- لا يا مصطفى.. أنا كدا ها اموت.. البودرة دي هتموتني.. وخلاص مش عارف أبطل.. جبتِ لي فلوس أد ايه؟

- جبت لك 300 جنيه.. والله هيَّه اللي معايا.. وممكن أجيب لك بالليل تاني.

- لا.. لا.. كفاية كده.. وصلني الحسين.. وسيبني هناك.

- حاضر.

وقبل أن أنزل من سيارته، وبكل قلب طيب قال لي:

- خلي بالك من نفسك يا صلاح.

- ربنا يستر.

وجريت على التاجر لشراء البودرة، اشتريت بمبلغ 200 جنيه، واشتريت شريط "صليبة"؛ لأنني أعرف أنني لن أضرب مرة أخرى بسهولة.. وهذا الشريط اخذ منه ليلا حتى أنام ساعتين أو ثلاثا.. وظللت أمشي في شوارع الحسين.. أجلس على القهوة، وأقوم وأجلس على القهوة الثانية، وفي النهاية كلمت مريم.. قلت لها:

- عايز أشوفك يا مريم.

التقينا.. جاءت مريم في سيارتها، وجلست جنبها، وأول جملة قلتها:

- أنا عايز فلوس.

انفجرت قائلة:

- أنا مفيش معايا فلوس.. أنا خلاص فلست.. ولا معايا دهب.. ولا معايا أى حاجة خالص، ومابقتش أقدر أتصرّف لك أكتر من كده.

إنها أول مرة تكلمنى مريم بهذا الأسلوب.. كانت صدمة قاتلة.. أكملت قائلة:

- إنتَ عمرك ما هتبطَل.

- لا.. أنا هابطّل.. أنا لازم أبطّل.

- دى المرة المليون اللّى باسمَع فيها الكلمة دى.

- لا.. أنا هابطّل، وعايزِك تساعدينى يا مريم.

- أساعدك!! أعمل إيه يعنى؟ دا أنا عملت كل حاجة فى الدنيا.. كل حاجة تتعمل وما تتعملش.

- لا.. المرة دى مختلفة.. أنا لازم أبطّل.

- بطّل لوحدك.

- إنتِ عارفة إن ماما طردتنى من البيت النهارده الصبُح؟

- والله؟ غلطانة.. دى كان مفروض تطردك من زمان.

- أنا مش عارف أروح فين؟

- روح مطرح ما تروح.. روح لأصحابك الضربية.. روح لحسام أو شريف، خليهم ينفعوك.

- إهدى علىّ يا مريم.

- أهدا عليك؟ أهدا عليك إزاى؟ هو إنتَ كنت هديت علىّ؟! دا إنت دمرتنى.. إنتَ دمّرتنى ودمّرت كل اللّى حواليك.

بكيت.. بكيت.. بكيت بحرقة.. ولكنها واصلت كلامها قائلة:

- إنت بتعيّط على إيه؟ بتعيّط علشان مش عارف هتروح فين؟

- لا.. باعيّط على اللّى أنا فيه.

- إنتَ اللّى عملت كده فى نفسك.

- غصب عنى.. والله غصب عنى.

- اسمع آخر حاجة عندى.. إنت زى الحصان اللّى لازم يتضرب بالنار ويموت.

وفجأة أوقفت سيارتها فى جانب من الشارع، وقالت لى:

- انْزِل.. انزل.. خلاص.. مش عايزة أشوفك تانى.. انزل للشارع.. هى دى آخرتك.

- أرجوك يا مريم.. ما تسيبينيش.

- انزل.. أتفضل انزل.

نزلت من السيارة باكيا.. وقفلت الباب.. وانطلقت مريم بعيدا.. ظللت أنظر فى الاتجاه الذى سارت فيه بسيارتها.. ولا أكاد أصدق ما حدث.. ذهبت الإنسانة التى لم تغضبنى أبدا فى أى يوم من أيام حياتى.. كنت أتوقع هذا من أى مخلوق فى الدنيا، إلا مريم.

ركبت الأتوبيس المتجه إلى الحسين، واشتريت بودرة بمبلغ 80 جنيها، وبقى معى 14 جنيها، واشتريت سجاير فرط.. وظللت أتجول فى شوارع الحسين حتى الساعة الواحدة ليلا، وليس عندى مكان أذهب إليه..

وأخيرا كلمت حسام، وسألنى:

- إنتَ فين؟

- فى الحسين.. بقولك إيه.. أنا عايز مفتاح شقة المعادى.. مش حفضل ألف فى الشوارع كده.

- مفيش مشكلة .. بس خلى بالك الشقة فاضية.. مفيش فيها أى حاجة.

- ما أنا عارف يا خويا.. ما هى اتفوّرت على إيدى.. نص ساعة وأكون عندك.

ذهبت إلى حسام، وأعطانى المفتاح، ومشيت.. مشيت، فقد توقف عمل الأتوبيسات، وليس معى النقود اللازمة لركوب التاكسى.. وأصبحت للجنيه قيمة

كبيرة، وعندما أركب الأتوبيس أحاول الهروب من الكمسارى.. هكـذا أصبـح حالى.. دخلت الشقة الساعة الثالثة فجرًا.

لم أجد فى الشقة كرسيًا واحدًا.. والغرف دون أبواب.. فقـط الأرض مغطاة بالموكيت.. وليس بها كهربـاء، فاسـتخدمت الكبريـت لأرى المكـان، واستكشفه، ولم أجد شيئًا.. والغرفة التى كنت أعرفها، وكنا نضرب فيها، هـى الأخرى ليس بها شيء واحد، كبيرا أو صغيرا.

جلست على الأرض، وظهرى للحائط.. وجعلـت ذراعـى وسـادة، وفرَدْت جسمى ونِمت على الأرض، والشريط كله يدور أمامى.

من أين جئت؟ المشوار بعيد.. وشعرت بالبرد الشديد، وكـان الحـل الوحيد أن انكمش، و"أتكوّر" داخل نفسى، وأقترب بركبتَىَّ إلى صدرى.. محاولة يائسة وفاشلة لاكتساب الدفء.

إننى خائف جدًا.. لكن ماذا يخيفنى؟!

فلان مات فى هذه الشقة "أوفر دوز".. والظلام دامس.. ثم هل هنـاك حشرات يمكن أن تزحف فوقى أثناء نومى؟

فى النهاية، وأهم شيء أننى بين أربعة جدران، وفوق رأسـى سـقف شقة، وقد أستطيع النوم.. ولو قليلاً.. قليلاً جدًا.

إنها ليلة من أبشع الليالى التى مررت بها فى حياتى كلها.. خسرت فيها الكثير.. خسرت أهلى.. خسرت مريم، وفى نهاية اليوم مُلْقـى علـى الأرض.. فوق موكيت، ورائحة التراب هى الشيء الوحيد الذى يملأ أنفى.

نمت من شدة التعب والإجهـاد.. المـشوار طويـل، واليـوم ثقيـل، والإحساس بالضياع لم أشعر بثقله مثلما شعرت به فى تلك الليلة.. نمت الساعة الرابعة، وصحوت على شعاع النور داخل الغرفة، وكانت الساعة السابعة.

يا ساتر.. ما هذا الحال الذي أمرُّ به؟

كنت عبارة عن تراب.. كلّي تراب.. وقفت بصعوبة، وبدأت أنفض التراب عن ملابسي.. وعن جسمي، ودخلت الحمام.. الرائحة كريهة، غسلت وجهي بالماء.. وللأسف لا توجد مرآة لأرى شكلي.

خرجت من تلك الشقة المهجورة، وقعدت على المقهى، وطلبت "واحد شاي"، وجلس بجانبي رجل كبير، رجل عجوز جدًا نظر إليّ، وقال:

- ياه!! شكلك شايل هُموم الدنيا على دماغك.

- وأكتر من هموم الدُّنيا كمان.

- هتفرَج.. هانت.. والله هانت.

- يارب.. من بقك لباب السَّماء يا حَاج.

- السلام عليكم.

- عليكم السلام ورَحْمة الله وبركاتُه.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب.. ومن يساعدني؟ من ينقذني مما أنا فيه؟

ذهبت إلى حسام لأعطيه المفتاح، وقلت له:

- ها أشوف مكان تاني النهارده.. الشقة دي ما تنفعش.. أنا خلاص ها ابطَّل.. من النهارده ها ابتدي أبطَّل.. مش عارف أعمل إيه يا حسام.. بس أنا لازم أبطَّل.

- طيب هتْرُوح فين؟

- ما اعرفش.. هاتصرَّف.. ما تقلقش.

كلمة لا أعرف.. كانت الكلمة الوحيدة للإجابة عن كل الأسئلة؛ لأنني فعلا..

لا أعرف أي شيء..

لا أعرف إلى أين..

لا أعرف كيف أعيش..

لا أعرف أين أنام..

لا أعرف كيف أتوقف..

لا أعرف ماذا يفعل أهلي الآن..

لا أعرف.. لا أعرف.. لا أعرف..

<u>الثلاثاء/ نوفمبر</u>

الساعة 11:00.. الساعة 12:00.. الساعة الواحدة.. الساعة الثانية.. وأنا ماشي.. ماشي. لا أعرف إلى أين؟ وماذا أفعل؟ وإلى من ألجأ؟ وما مصيري؟ من يأخذ بيدي؟ هل أذهب إلى شريف؟! إنه عاد إلى المستشفى.. ميدو؟! لا وألف لا.. لن أجعل علاء يراني هكذا..

يا إلهي.. خذ بيدي.. وفي الثانية نفسها، قابلت عادل، وكانت الساعة حوالي الرابعة، وكان وحده في سيارته.. وعندما رآني، ضغط على الفرامل بقوة، وأوقف سيارته ونزل منها، وأسرعت إليه قائلاً:

- إزيك يا عادل؟

- كويس، الحمد لله.. إزيك إنت يا صلاح؟

كنت واثقا أنني أبدو مرهقا، متربا، وذقني طويلة، وفي غاية التعب.. منظري بالتأكيد في حالة يُرثى لها.. ركبت سيارته، وقلت له:

- هات سيجارة.. أمي طردتني من البيت امبارح.. عايز شقتكم اللي في العجوزة لمدة كام يوم.. الأيام التلاتة أو الأربعة دول لازم أعديهم.. أنا عارف هنا أصعب حاجة في الدنيا، إنما لازم.. وبعدين أرجع تاني البيت عند أهلي وأنا مبطّل.

- حاضر.. حاضر.. ها أروح أجيبلك المفتاح، وآجي على طول.

- بس اسمع يا عادل.. مش عايز حد يعرف.. ولا أي حد.

- حاضر.. ماتخافش.. مش ها أقول لحد خالص.. حالا راجع لك.

وقفنا في شارع جانبي، وبعد دقائق معدودة، رجع عادل ومعه المفتاح.

- يالّلا بينا، ها اوصّلك على هناك على طول.

- مش عارف أقول لك إيه يا عادل.. إنت أنقذتني.

- مَا تقولش كده.. إنتَ أخويا الكبير.. إنت نسيت واللاّ إيه؟

- أنا لا كبير.. ولا حاجة.. أنا بقيت الصغير.. والصغير أوي كمان.

- أنا عايزك ترْجَع تاني.. صلاح بتاع زمان.

- أنا كمان عايز أرْجَع تاني.. بَسْ مش عارف إزاي؟!

- الإرادة والعزيمة.

- دول أكتر كلمتين كرهتهم في حياتي.. ما عنديش أي إرادة، ولا أيّ عزيمة.. الموضوع طلع صعب أوي يا عادل.. أوي.. أوي.

وصلنا إلى المنزل، واكتشفت إن عادل معه شنطة صغيرة فيها بيـجامة وأدوات حلاقة، أعطاها لي.. ثم قال:

- ادخل إنت.. خد دُش وأنا ها انزل أشترى كام حاجة وأجي على طول.. عشر دقايق أو ربع ساعة وأكون هنا.

دخلت الحمام.. وبصّيت في المرآة.. ياه!! إيه ده؟!! مين ده؟!! ده مش صلاح.. ده واحد تاني ما أعرفوش.. هو شبهي.. بس أكيد مش أنا!! أكيد مش أنا!! أخذت دُش.. يا نهار أبيض!! تراب وسواد نزل من جسمي.. لم يحدث لي من قبل، ولم أره في حياتي.

عاد عادل ومعه شاي وسكر، وخبز، وجبنة رومي، وسجائر، وعصير، قلت له:

- أنا أوّل مرة أجي البيت ده.. الشقة واسعة وحلوة، وكمان فيها كل حاجة.

- المفروض أتجوز، وأعيش هنا.. بس لسه شوية.. أنا شغلت التلاجة، وحطيت لك فيها الجبنة والعيش وعصير وتفضّل يا سيدي علبتين سجاير.

– شكرًا يا عادل.. جميلك ده مستحيل أنساه طول العمر.. بس أنا مش عارف إنت مستأمنى إزاى على البيت دا كُله؟!

– مع كُل اللّى حصل.. وكُل اللّى شُفته، وكل اللّى سمعته.. أنا ما اقدرش أسيبك فى الشارع.. وحتى لو بعت كُل حاجة فى البيت، مش ها اندم إنى جبتك هنا.

– ما تخافش يا عادل.. أنا مش ها أمد إيدى على أى حاجة.. ومن فضلك خلى مفتاح الشقة معاك.. أنا مش عايزُه.. لو نزلت من البيت ده، معناه إنى مش ها ارجع، وأنا فعلا مش عايز أنزل من البيت.

– زى ما يعجبك.. أنا ها امشى، واجى لك بكره.. للأسف التليفون مش شغال.. بس فيه تليفزيون وفيديو وأفلام كمان، أهى أى حاجة تضيّع وقت وخلاص.

– ما تتأخرش علىّ يا عادل.. أنا محتاج لك جنبى اليومين دول.

– مع السلامة يا عادل.

خرج عادل.. وتركنى فى البيت وحدى.. وحدى تمامًا.. الليلة الأولى كانت عادية، لازالت البودرة فى جسمى، فلم تكن عندى مشكلة، وأخذت حبة صليبية، ونمت.

الأربعاء/ نوفمبر

استيقظت الساعة الحادية عشرة صباحًا ..

بدأت يومى بداية صعبة.. أفتح التليفزيون، جربت تشغيل الفيديو لدقائق.. عملت كوبا من الشاى.. لم أستطع تناول الإفطار، أيضا لا أستطيع أن أشرب السجائر.. السيجارة بتتعبنى جدا، ثقيلة وليس لها طعم.

عقارب الساعة تتحرك ببطء غير عادى.. أريد لليوم أن ينتهى، ويمر بشكل أو آخر..

جاءني عادل الساعة الثانية.. كنت لازلت أستطيع الوقوف على قدمي، وجلسنا معا، وسألني:

- عامل إيه؟ تعبان؟ تحب اشترى دوا مُعَيَّن؟ طيب عايز سجاير أو أكل أو أى حاجة؟

- لا يا عادل.. مش عايز أى حاجة.. دا أنا شربت أربع سجاير بس من إمبارح.. مش قادر أشرب سجاير.

كان عادل يريد أن يساعدني.. ولكن المشكلة أنه ليست هناك طريقة للمساعدة.. لا أحد يملك مثل هذه العصا السحرية، فقلت له:

- إنزل إنتَ يا عادل وشوف وَراك إيه.

- يعنى ورايا إيه يَعْنى.. قل لى إنتَ بَسْ أعمِلّك إيه؟

- ولا حاجة.. إنْزِل وأنا أدخل السرير.. يمكن أنام.. وانت تعال لى بُكْره.

- تحِب آجى لك بالليل؟

- مفيش داعى تيجى.. هتيجى تعمل إيه؟ تعال بُكْره.

خرج عادل.. تركني وحدى تماما، والحقيقة أننى أردت أن أنفرد بنفسى.. لا أستطيع الكلام.. وعندى اكتئاب لا يمكن تصوره، وبدأ الصداع.. وعندما جاء المساء، شعرت بآلام المغص والإسهال ومسلسل العرق ورشح الأنف لا يتوقف، وتكسير العظام.. أخذت حبه صليبية، ونمست فورا حوالى الساعة الثانية عشرة، وفي الفجر، حوالى الساعة الرابعة، استيقظت وأخذت حبة صليبية أخرى، ونمت حتى الساعة الثامنة صباحا..

<u>الخميس/ نوفمبر</u>

استمر تأثير "البرشامة"، فأسرعت لآخذ الدُش، وازداد الشعور بالتعب.. نعم إننى مُتعب جدا، وبدأت أتجول في الشقة.. أدخل غرفة.. أخرج منها إلى غرفة أخرى.. أفتح التليفزيون.. أقفل التليفزيون.. مقاومتى تنهار..

أريد البودرة.. أريد أن "أضرب" بأى شكل وبأى ثمن.. في البيت كـل شـيء يُمكّنني من الضرب في ثانية.. التليفزيون.. الفيديو.. الفضيات.. السجاجيد.. الأنتيكة.. لكنني لم أستطع أن أمدّ يدي إلى أي شيء.

ولأول مرة في تـاريخ إدمـاني.. أجـد الفرصـة كاملـة أمـامي ولا أستغلها.. لا.. لا أستطيع أن أفعل هذا نحو عادل.. إنني مثل أخيـه الكبيـر الذي ربيته وأحبني.. هذا الصغير عادل، كبر، وعندما كبر استضافني في بيته، وهو يعرف جيدًا، بل هو واثق من أنني، في مثل هذا الوضع، من الممكـن أن أبيع البيت بكل ما فيه.. ومع هذا "آواني" في بيته.

استولى عليّ التعب.. فقدت السيطرة على نفسي، وحـوالي الـساعة الثانية "فرهدت"، ولم أعد أستطيع المقاومة، فقــررت مُغــادرة بيـت عــادل، وأن أذهب إلى بيتي، وأقول لهم أنني توقفت عن الضرب منذ يـومين، وأدخـل أسرق ما أجده أمامي وأجري.

لبست ملابسي، وفتحت الباب وخرجت.. وأنا أعلم جيـدًا أننـي لـن أستطيع العودة إلى هذا البيت مرة أخرى.. ولم آخذ منه شـيئًا.. سـوف يعـود عادل.. ولن يجدني.. لكن الحمد لله، لن يجد كذلك شيئًا مسروقًا.

خرجت إلى الشارع من جديد.. ركبت الأتوبيس وفـي جيبـي آخـر 50 قرشًا.. ونزلت في أقرب محطة للبيت، ومشيت بصعوبة.. رجلاي لا تقويان على المشي.. أكياس رمل في كل رجل، والبنطلون يكاد يقـع مـن الـضعف والهزال، وشكلي بالتأكيد صعب جدًا.

29

الأب!!

وصلت إلى بيتي في حدود الساعة الثالثة والنصف.. طرقت الباب.. وفتح لي والدي.. نظر إليّ.. تأملني، وقال لي:

– صلاح!!! ادخل.

– ربع ساعة أغيّر لبسي واخد شنطتي، وأمشي على طول.

افتقدت والدي كثيرًا.. لقد كان صديقي في يوم من الأيام.. دخلت ولم أنطق بكلمة واحدة.. دخلت مباشرة إلى غرفتي.. واتجه بابا إلى الباب، وقفله بالمفتاح.. وفورًا أمسك سماعة التليفون، وأجرى ثلاثة اتصالات سريعة.. ماما.. كريم ورولا.

خرجت من غرفتي، وأنا أفكر ما الذي آخذه لأبيعه.. وأنزل بسرعة. جمعت كل ما عندي من سيديهات.. حوالي 100 سي دي.. وفكرت أبيعهم.. ولم أجد حلاً آخر.. ووصلت عند الباب وقلت لوالدي:

– أنا عايز أخرُج.. عايز أنزل.

– المفتاح في جيبي، ولو عايز تخرُج وتنزل، يبقى لازم تضربني وتاخد المفتاح.

وضع والدي يده على جيبه وبه المفتاح.

– يا بابا هات المفتاح.. يا بابا سيبني أنزل.

– مش هاقدر يا صلاح.. مامتك واخواتك جايين دلوقت.

أخذت ألف وأدور حول نفسي في المنزل بجنون، وأخيرا جاءت رولا.. فقال لها أبي:

– أدخلي يا رولا بسرعة.

دخلت رولا وقد ارتسم الرعب على وجهها.. وقفل والـدي البـاب بالمفتاح، وعدت إلى غرفتي، وجلست على سريري.. وبعد خمس دقـائق جـاء كريم، ومن بعده وصلت أمي.. التي انهارت على أقرب كرسي، وجلـست رولا بجانبها تبكي بصوت عالٍ، وأسند كريم رأسه بين كفيه، وظـل والـدي يـروح، ويجيء، ولا يستقر في مكان.. ولا أحد يدري ما الخطوة التاليـة.. وبـدأ كـريم الحديث:

- بَسْ يا رولا.. بطّلي عياط.

- حاضر يا كريم.

- أنا تعبان اوي.. عايز أضرَب.. مش قادر.. بمُوت.

رد الوالد:

- إحنا لازم نروح على المستشفى يا صلاح.. اسمعني.. أنا عندي رحلة لمـدة أسبوعين خارج مصر.. أنا مسافر إسبانيا.. وكنت ناوي أعتذر، بس لـو أنـت دخلت المستشفى.. ها اسافر، وأوعدك إنى أخرجك من المستشفى أول ما أرجع على طول.. هو أنا عمري وعدتك بحاجة ومانفذتش وعدي؟!

- المستشفى لأ.. لأ.

- من فضلك يا صلاح.. إحنا كلنا بنموت.

- المستشفى لأ.. أي حل تاني.

وفي اللحظة نفسها، انحنى والدي على الأرض، وقال لي:

- أبوس رجلك.. نودّيك المستشفى.. أبوس رجلك.

قال كريم:

- قُوم يا بابا.. قُوم يا بابا.. مِشْ كِدَا.

ونزلت أنا أيضًا على الأرض، وأصبحنا أنا وأبي وَجْهًا لوجه.. وكلانا يبكي.. وقلت باكيا:

– حاضر يا بابا.. أروح المستشفى، بس أضرَب الأول.. نروح الحسين، وهناك أضرَب، وبعدين نرُوح المستشفى.

– مَاينفَعش يا صَلاح.. مَاينفَعش يا حَبيبى.

– وَأنا مِش ممكن أروح من غير مَا اضرَب.

مد كريم يده ليساعد الوالد على النهوض:

– قُوم يا بابا من على الأرض.

وقفنا معًا، وتمت على سريرى.. ظهرى على السرير.. ورجلاى على الأرض، وظللت أردد:

– أنا تعبان أوى.. صُداع.. دماغى.. متكسَّر.

خرج بابا من غرفتى.. ثم عاد ومعه زجاجة ويسكى، وقال لى:

– طيّب.. امسك.. إشرَب.

– ما أقدرش.. ما أقدرش يا بابا.. ما أقدرش أشرب.. أنا بـاموت يـا بابـا.. إنت مش فاهم.

– لا.. والله أنا فاهم.

– أنا تعبان.. بموت.. أنا تعباااااان.. خــلاص.. إعملـوا فــىّ أى حاجــة.. بس خلّصونى من اللّى أنا فيه.. خلّصونى منُه.

– نرُوح المُستشفى.

– بسْ هَشيبونى هناك كتير.. صَح؟! أسبُوعين تلاتة.. بالكتير إوْعدنى يا بابا.. اوْعدنى.

– أوْعدك.. أوْعدك.. يا كريم ساعد أخوك.

أخرجت شريط أبو صليبة من جيبى وأخذت برشامة.. وكـريم ورولا ينظران إلىّ .. ولم ينطقا بكلمة واحدة.

ارتدى والدى ملابسه بسرعة، وأعدت أمّى حقيبتى.. وغسلت رولا وجهها.. واستندت إلى ذراع كريم من ناحية، وذراع والدى من الناحية الثانية..

وسأل الوالد:

- هنْروح إزاى؟ بعربية مين؟

فأجاب كريم:

- معايا يا بابا.

- وإنتِ يا رولا.. ارجعى بيتك، وأول ما نرْجع نكلّمك ونطمّنك.

- حاضر يا بابا.

نزلنا نحن الخمسة.. واستندت إلى بابا، وكريم دخل سيارته، وجلس على مقعد القيادة، وأمى بجانبه، وجلست بجوار والدى فى الخلف.. قبلتنى رولا وركبت سيارتها.. وأخذنى والدى فى أحضانه.. وبدأ الطريق إلى المستشفى.

30

إلى سويسرا

قررت العائلة بكل إصرار ذهابي إلى المستشفى، وخرجت معهم من بيتنا أجر قدمي، مستندا إلى ذراع والدي اليسرى، وإلى ذراع أخي الكبير اليمنى، ومن ورائنا تسير أمي.. وذهبت أختي رولا إلى بيتها حزينة والدموع تملأ عينيها.

ركبنا سيارة كريم، هو القائد.. جلست أمي إلى جانبه وكأنها تمثال فرعوني، منقوش على ملامحه حزن عميق، وكانت تبكي في صمت رهيب.. وجلست بجوار والدي في المقعد الخلفي ودبعا في أحضانه، واستندت برأسي إلى المسند الخلفي للسيارة.

ساد السكون طوال الطريق الطويل.. لا أحد ينطق بكلمة.. نمت خمس دقائق وكأنها خمس ساعات، بتأثير حبوب "أبو صليبة"، التي ابتلعتها قبل نزولنا.. وأخيرا وصلنا إلى المستشفى.. والتي تبعد قليلا عن القاهرة.

هذه المستشفى أعرفها جيدا.. أنا شخصيا أخذت صديقي شريف مع والدته إليها منذ بضعة أشهر.. في ذلك اليوم تجولت بين ربوعها، وممرات حديقتها التي يغطيها الزرع الأخضر، وعلى الجانبين الأشجار العملاقة، ورأيت لافتة كتب عليها: إلى "حمام السباحة"، وأخرى كتب عليها: إلى "الملاعب"، وثالثة كتب عليها: إلى "الجيمانيزيم" ولافته كبيرة كتب عليها: إلى "قسم الإدمان"، ولافته صغيرة: إلى "الكافتيريا".. أحسست يومها أننا دخلنا النادي وليس المستشفى.. وكنت أعرف أن صديقي شريف مازال في المستشفى، وسمعت أن صديقي تامر، من أصدقاء رامي، في المستشفى أيضا.

دخلنا إلى قسم الاستقبال، وكانت الساعة السادسة، وساعدتني الدقائق الخمس التي نمتها في السيارة على التماسك، ورويدا، رويدا.. بدأت أشعر

بأعراض الانسحاب، ولكنه فى بداياته.. وجاءنا طبيب نُوبَتْشى، وبعد إلقاء التحية قال:

- اتْفَضَّل.. تعالَ أُقعد هنا.

وعندما وجه نظراته وحديثه إلىَّ، قلت له:

- ومين قال لك إن أنا؟ المشكلة فى أخويا.. تعال يا كريم.

ابتسم الطبيب بتحفظ، وبدأ وابل من الأسئلة المتتالية:

- الاسم، العنوان، تاريخ الميلاد، التليفون، العمل..

وسجّل الطبيب إجاباتى فى الملف، ثم انتقل إلى الأسئلة الأخطر، وعندئذ خرج والدى من الغرفة، فهو لم يكن يريد حضور هذا اللقاء.

- بتاخُد مخدرات إيه يا صلاح؟

- كل حاجة.

- يعنى إيه كل حاجة.. فَسَّر لى شوية؟

- مفيش فيك كيف يا مصر، ولا حتى فى أمريكا ماجَرَّبْتوش.

- طيب إيه المخدر الرئيسى؟

- بودْرة.

- من أد إيه وإنتَ بتتعاطى؟

- جامدة أوى باتَعاطى دى.

فقالت ماما:

- صلاح.. إحْنا مِشْ بِنهزَّر.

فقال لها الطبيب:

- حضرْتِك ولا يهمّك.. سيبيه يهزَّر براحتُه.

فقلت:

- دا تهديد دا واللا إيه يا دُكتور؟ يعنى براحتى دِلْوقت، وبَعْدين بشُوف.

- مَاجاوِبْتِش.. من أد إيه بِتِضرَّب يا صلاح؟! كويس كده؟!

- أيوا كده.. من 11 سنة، ومتواصل آخر 5 سنين.

- ومن أد إيه بتتعاطى يومياً؟

- من شهر 5.. مايو اللي فات، وأنا باخد كل يوم.

- يعني آخر 6 شهور يومياً، وطبعاً كذا مرة في اليوم، الدُوز بتاعك إيه؟

- زيّ ما أنت عايز.

- يعني نقول جرام؟

- جرام، جرام ونص، على حسب الظروف.. بس باقولك إيه يا دكتور.. أنا من يومين مخدتش، والنهارده تالت يوم، بس باضرب كام صليبة كده علشان أنام.. الصليبة برضه بتمسك شوية.

- معاك أي مخدرات؟

- أيوا.. معايا أبو صليبة.

أخرجت من جيبي شريط "أبو صليبة" به أكثر من قرص، وأخرجت شرائط "توفاسي"، ووضعتها على المكتب، فقفز الطبيب من مكانه، وكأن النار أمسكت بملابسه، ومد يده وأخذها بسرعة، وأخفاها في جيبه، فقلت:

- مالك يا دكتور؟! دا أنا طلعت الشرايط بمزاجي واديتها لك.

- لا مفيش حاجة.. بس المخدرات لازم تتصادر على طول.

- بيني وبينك يا دكتور، أبو صليبة ده عمري ما حبيته.. أنا باستعمله كمنوم بس مش أكتر، علشان كده آخده بالليل بس.. لو أخدته الصبح مصيبة.

- معاك أي مخدرات تاني؟

- ياريت.

- أنت هاتتفتش كده، كده.. ومفيش داعي تكذب على بعض من أولها.

- مفيش معايا حاجة يا دكتور.

- نكمل.. دخلت مستشفيات قبل كده؟

- لا.. دي أول وآخر مرة.

- إن شاء الله.. يعنى ما أخدتش علاج قبل كده؟

- مرة رحت لدكتور نفساني، مافهمتش منه أى حاجة، ومارحتش له مرة تانية، وساعات كنت آخد ترنكسان.. يعنى كل كام شهر.

- طريقة التعاطى إيه؟

- سنوست.

- من أد إيه بتاخد حقن يا صلاح؟

- من ست أو سبع سنين.

- بتشتكى من أى حاجة؟ من أى أمراض؟

- لا.. الحمد لله.. بس الكبد تعبان شوية.. أنا مش حاسس إنى تعبـــان.. بـــس الدكتور قال لى إن نتيجة التحاليل وحشة.

- طيب.. إتفضل أقف على الميزان.

- يااااه!! 53 كيلو.. دا أنا خاسس قوى.

- والطول 174 سم.. وشنطتك فين؟

- هى دى.

- سيبها هنا، وأنا هابعتها لك كمان شوية.

- هو أنا رايح فين يا دكتور؟

- هتدخل الديتوكس كام يوم، تعدى بس أعراض الانسحاب، وبعدين تنزل قسم الإدمان.

- أنا خايف أوى من إنى أتعب النهارده.. هيدونى منوم؟!

- اه طبعا.. ماتخافش.. أنا نوبتشى وسهران النهارده وهاعدى عليك.

- والنبى يا دكتور متنسانى.. يا اقولك إيه يا دكتور هو شريف هنا؟

- الحقيقة أنا ما اعرفش.. أنا مش دكتور القسم.. أنا دكتور نوبتـــشى.. ومـــش حافظ أسماء الناس الموجودة هنا.. اليومين دول، القسم مليان على آخره.. يااللا

يا صلاح، سلم واطلع مع العامل فريد على "الديتوكس".. وها ابعت حاجاتك كمان شوية.

- مع السلامة يا ماما.. إدعي لي.. سلام يا كريم.. سلموا لي على رولا.

خرجت من الغرفة فوجدت والدي جالسا على كرسي وواضعا يده على خده.. سلمت عليه، فقبلني وقال:

- ربنا معاك يا صلاح.

- مع السلامة يا بابا.. أول ما ترجع من السفر تيجي تخرجني زي ما وعدتني.

مشيت مع فريد إلى "الديتوكس"، وظل الوالد والوالدة وكريم مع الطبيب، بالتأكيد.. كانت لديه عشرات الأسئلة الأخرى، التي أراد أن يعرف إجاباتها منهم.

كانت الساعة السابعة.. مشينا مسافة طويلة إلى حد ما، وصعدنا السلم إلى "الديتوكس".. ودخلنا شقة صغيرة خالية ليس بها أحد.. الصالة أو "الريسبشن" الصغير به تليفزيون يتوسط المكتبة، وخرجت إلى شرفة صغيرة، وأمام سور الشرفة شجرة كبيرة تنحني على الحديقة، ولا تمكنني من رؤية أبعاد الحديقة.

دخلت إلى الشرفة الصغيرة المطلة على الحديقة، ثم تجولت في الشقة.. على اليسار غرفة بها دولاب وفيها سريران، وتليها غرفة أصغر وبها سرير واحد، وعلى يمينه دولاب، وبها حمام على اليمين.. يا ساتر.. المكان كئيب.. أو فيما أعتقد كنت أرى كل شيء كئيبا!! إذا هذا هو "الديتوكس".

مرت الدقائق ببطء رهيب، وبدأت أشعر بتعب شديد.. رشح من أنفي، مغص، وبطني يؤلمني، صداع عجيب، عرق مستمر، وإحساس قوي بالبرد.. ومرت ساعتان.. حوالي الساعة التاسعة بدأت الأعراض والآلام تزداد، وازداد التعب أكثر وأكثر، فطلبت من فريد أن يأتيني بالطبيب ليعطيني الدواء نظرا للحالة التي أمر بها.

بالطبع.. كان هؤلاء الممرضون قد تعودوا مثل هذا الطلب؛ لذلك تجدهم يقابلونه ببرود واضح، ويتصرفون بهدوء شديد، وفيما يبدو أن التعليمات لديهم كانت أن يتبعوا هذا الأسلوب، مع التصرف بأدب وهدوء تام، وبكل بساطة قال فريد:

- الدكتور زمانُه جاي، أصلهُ دلوقت عنده مرور في المستشفى، وما أعرفش أكلِّمهُ فين.

أصبحت الساعة العاشرة، وبدأت أدور حول نفسي.. التعب يزداد بقوة، والطبيب لم يحضر.. قلت لفريد:

- طيِّب، أنا عايز شنطتي.. كل دا بيعملوا بيها إيه؟! أنا بردان وعايز آخد منها بلوفر ألبسه.

- حاضر، 5 دقايق، وتلاقي حد جاي بالشِّنطة.

وأخيرا.. بعد نصف ساعة، سمعت طرقات على باب الشقة الصغيرة، وجاء شخص ومعه الشنطة.. دخل إلى الحجرة وأعطاها لي قائلاً:

- اتفضَّل.. والدكتور جاي وَرَايا على طُول.

كأنه سمعني ويعرف أنني طلبت رؤية الطبيب من زميله فريد.. أخذت الشنطة، ووضعت ملابسي في الدولاب، ولبست "بلوفر" لأحتمي به من البرد.. وبعد نصف ساعة.. في تمام الساعة الحادية عشرة كدت أنهار من الألم والتعب والبرد.. نمت في السرير، واختفيت تحت الغطاء.. وطبعا لم يكن الجو باردا إلى هذه الدرجة، ولكنني كنت فعلا أرتعد من البرد، والآلام أيضا غير طبيعية.

استمرت المعاناة نصف ساعة أخرى.. وبعدها جاء الطبيب، ومعه الممرض، وأعطاني حبتين، لم أكن أعرف ما هذه الحبوب، ولكني كنت على أتم الاستعداد لتناول أي دواء يسكن آلامي.

أخذت الدواء، ولم أكن قادرا على النطق بكلمة واحدة، وكان كل أملي أن أشعر بتحسن.. ولم يحدث.. بعد نصف ساعة فقط.. حوالي الساعة الثانية

عشرة.. شعرت بآلام، كان من الصعب وصفها بالكلمات.. الام في كل جسمي.. آه.. آه.. كأن الحبوب التي تناولتها هي السبب، وأنها ساهمت في سحب البودْرة من كل جسدي دفعة واحدة.. لا..لا.. الألم غير طبيعي.. وبعد نـصف سـاعة أخرى، الساعة الثانية عشرة والنصف، بدأت أصرخ.. أصرخ بصوت عال:

- آه.. آه.. آه.. مش قادر.. إدُّوني أي حاجة.. مش قادر.

ظللت نائمًا في السرير، لا أستطيع الحركـة، ومـرت دقـائق كأنهـا سنوات، وجاء شخص آخر، ومعه حبتان وحقنة، واقترب مني فريد قائلاً:

- اهدا.. خَلاص.. الحُقْنة دي هتْرَيَّحك.

- مش قادر.. أنا تعْبان.

أخذت الحقنة، والغريب جدًا أنني لم أشعر بأي تحسن، كما هو متوقع، ولم أتحمل الألم، ولم أكن أدري ماذا أفعل.. وصرخت صراخًا متواصلاً:

- آه.. آه.. هاتولي الدكتور بسُرْعة.

فعلاً جاء الطبيب بسرعة، وقال لي:

- باين عليك تعْبان أوي؟!

- مش قادر يا دكتور.. عايز أي حاجة تاني.. أنا تعْبان.. جسمي كله مِتكَسَّر.

- أنت واخد أربع حبوب، وكمان حقنة من نُصْ ساعة، ما أقـدرش أدّيـك أي حاجة دلوقتي.. لازم استنّى شوية.

- طيب أنا مش قادر.. أعمل إيه؟ وَالله مش قادر.

- حاضر.. هابْعَت لك دَوا تاني.

- آه.. والنبي يا دكتور.. بسُرْعة يا دكتور.

أخذت حبتين مرة أخرى، ولا أدري ماذا أعطـاني الطبيـب، ولكـن ما أعرفه أنني كنت أتألم بلا حدود.. وحوالي الساعة الثانيـة ارتفـع صـوتي بصراخ عال:

- مش قادر..أنا باموت.

واستمر الرشح من الأنف، وأحسست أن درجة الحرارة في الغرفة تحت الصفر.. البرد لا يحتمل.. والآلام لا تحتمل، ومن شدة الصراخ: جاءني الطبيب في الساعة الثالثة للمرة الرابعة، وأعطاني حقنة أخرى، وأمر بإعطائي حبتين.. وبعد نصف ساعة، هدأت قليلا.. الأعراض كلها موجودة.. رشح الأنف، الإسهال، المغص، ولكن آلام الجسم كله أصبحت أقل، وبالنسبة لي.. كان هذا هو المهم، لأن الآلام كانت غير طبيعية، ولا يمكن احتمالها بأي حال من الأحوال.

أعتقد أنني نمت حوالي ساعتين أو ثلاث على الأكثر.. وصحوت متعبا، وأريد الذهاب إلى الحمام، ولا أستطيع القيام من مكاني ومغادرة السرير.. وظللت أقول:

- تعبان أوي.. عايز أدخل الحمام.. مش قادر.

كان صوتي ضعيفا للغاية، وأصبحت كأنني "مبرشم".. ربما بسبب الحبوب التي أخذتها والحقنتين.. وربما بسبب أعراض الانسحاب، ولم أكن أشعر بما يحدث حولي ولا أستطيع تمييز أي شيء.. وبعد عناء حقيقي، قمت من السرير متجها إلى الحمام.. ارتطم جسمي كله بالحائط، وفي اللحظة نفسها أسرع إليّ من يسندني، ويساعدني على الحركة.. وجاء آخر، وأمسك بذراعي، ومشيت بصعوبة بالغة في "كوريدور" ضيق للوصول إلى الحمام.. مشيت مستندا إلى أحد الرجلين، وكان الآخر يمسكني بقوة حتى لا أقع، وأخيرا وصلت إلى الحمام، وقلت لهما:

- شكرا.

واستندت إلى الحوض وبدأت أتقيأ.. وعانيت كثيرا بسبب الإسهال، وأخيرا فتحت باب الحمام، ووجدتهما في انتظار خروجي لمساعدتي للوصول إلى سريري، وأمسك أحدهما بذراعي، واستندت باليد الأخرى على جدران

الكوريدور" الضيق، وأعاد الرجل الثانى ترتيب سريرى، وارتميت على السرير.. محطمًا.

طبعًا، لم أنم.. واستمرت الآلام والتعب الشديد، وصراخ مستمر: آآه.. تعْبان.. تعْبان.. آآه.

إنها الساعة الثامنة.. وارتفع صوتى قليلاً بالنداء:

- يا فريد.. يا فريد.

سمعت صوت شخص آخر يقول:

- أنا حسنين مكانه.. فريد مشى خلاص.

- يا حسنين.. أنا عايز الدكتور.. أنا تعْبان أوى.. خلّيهم يدّونى أى دوا بسرعة، لأن الوجع بدأ يرْجَع تانى.

- الدوا جه، بس الدكتور قال إنّك لازم تاكُل حاجة.. أى حاجة.. الفطار بتاعك برّه.. أو أقول لك، إستنّى هاجيبه لك هنا.

- لا.. لا.. مش قادر آكل.. مش قادر خالص.

- طيّب اشرب العصير.. ما أنا ما أقدرش أدّيك الدوا من غير ماتشْرَب العَصير.. دى تعليمات الدكتور، وأنا ماأقدرش أكسَّرها.

شربت قليلاً من العصير لآخذ الدواء.. لم أستطع أن أشرب علبة العصير كلها.. أخذت الدواء، ومع هذا ظلت الأوجاع مستمرة، والأعراض كما هى.. الرشح من الأنف، المغص، القىء، الإسهال، كما بدأت أشعر بأن هناك آلامًا جديدة بدأت تظهر.. شعرت بأوجاع فى كل المفاصل، وظهرى أيضًا، وأشعر بالبرد طوال الوقت.. الصداع رهيب، "وزغللة" في العينين.. أضف إلى هذا كله، الأعراض الطبيعية التى أعرفها، وقد تعودتها مثل التقلب و"الفرك" فى السرير، عيناى تدمعان، والتثاؤب طوال الوقت، وأيضًا: لا أنام.

حاولت المشى فى الغرفة.. لم أستطع، وعدت إلى السرير مُحطّمًا، أجر أقدامى.

ياه!! يا ساتر.. الساعة العاشرة صباحا.. نحنُ في بداية اليوم، ولست أدرى كيف سيمر هذا اليوم.. جلست في السرير لا أقوى على الحركة، وقلت لنفسي:

- دى أوْحَش ليلة وصباح عَدُّوا عليّ من يوم ما اتْوَلَدْت.

وتذكرت ليلة أخرى من الليالي البائسة.. تلك الليلة التي نمت فيها في بيت حسام على الموكيت، وتوسدت ذراعي، وملأ التراب أنفي وصدري.. وتذكرت كيف قضيت النهار أدور في الشوارع.

استجمعت قواى إلى حد ما، وحوالى الساعة الثانية عشرة خرجت من الغرفة الصغيرة لأستكشف المكان، ولأتعرف على الأصوات التي تعلو في الخارج من حين إلى آخر، فوجدت حسنين يشاهد التليفزيون، وبادرني قائلاً:

- حمد لله على السلامة.. قالوا إنك إمبارح كُنت تعبان أوى..

- أنا لسه تعبان لغاية دلوقت.. أنا عايز آخد حقنة أو أى دوا بسرعة، أحسن خلاص الوجع رجع تاني.. مش قادر يا حسنين.

- فيه دوا لك الساعة 12:00، وبعدين الدكتور وليد جالك الصبح بدرى وكُنت نايم.. بس مرضاش يدخل يصحيك، لما عرف إنك تعبان أوى كدا، وهو قال إنه جايلك تاني كمان شوية.

- مين الدكتور وليد؟

- دا مدير قسم الإدمان..

تذكرت الاسم.. أعتقد أنه هو الطبيب الذى قابلته في منزل شريف يوم تقرر شحنه إلى المستشفى.

- طيب اطلبه وقوله يرجع، علشان أنا تعبان أوى.

- حاضر.. أول ما حد ييجي ها أقول لهم يطلبوه على طول.

رجعت إلى غرفتي، وأنا في قمة التعب.. نمت على السرير، وبعد ثوانٍ وقف شاب على باب الغرفة، وقال لي:

– أنا رمزي.. والله إنت صبعبت عليّ إمبارح بالليل.. أنا طول عمري أدخل المستشفى ومعايا بودرة، إلا المرة دي.. أول مرة أدخل فاضي.. والله لو كان معايا بودرة، كنت إديتك.

– بجدّ مفيش معاك؟ لو معاك اديني.. من فضلك يا رمزي.

– لا والله.. مفيش معايا.

قالها.. "وشعللني" وخرج.. وظللت نائمًا في السرير إلى أن سمعت الباب يفتح، ويقفل من جديد، وأصوات، وأحاديث لم أتبينها، فحاولت أن أستجمع قواي وأخرج من الغرفة، لأعرف ما يحدث خارجها، ورأيت الدكتور وليد ومعه الممرض، قادمين لإعطائي الدواء.. سلم عليّ الدكتور قائلا:

– حمد لله على السّلامة يا صلاح.. ازيك يا رمزي طوّلت المرة دي.

– ولا طوّلت ولا حاجة.. أنا كنت هنا من شهرين.

– أنا حاسس إنهم أكتر من كدا بكتير.. وإنت يا صلاح.. أخبارك إيه؟

– تعبان جدا.

فقال رمزي:

– إمبارح، كان بيصرخ ويولول.. صعب عليّ جدًّا.

– غريبة.. مكتوب في التقرير إنه أخد حقنتين وأدوية يهدّوا جبل.. تعال يا صلاح نقعد مع بعض شوية.

دخلت مع الدكتور إلى الشرفة.. وفاجأني قائلا:

– أنا قابلتك في بيت شريف، صح؟

– ذاكرتك قوية يا دكتور.

– المهم.. احكي لي.. أخبارك إيه؟

– تعبان.. الأدوية بتاعتكم مش عاملة حاجة.

- لا.. إنتَ الدُّوز بتاعك اللي باين عليه عالي شوية.
- قُل لي يا دكتور، أنا هـ انزل من هنا إمتى؟ أنا خَلاص زهقت.
- يومين بالكتير.. بس إنتَ لازم تـشد حيلـك شـوية.. لازم تاكُـل شـوية.. بالأ.. أنا ها امشي وأشوفكْ بُكْرَه إن شاء الله.
- الأدوية يا دكتور.. زوّدلي الأدوية شوية.
- حاضر.. ماتِقلقش.. باللاّ مع السلامة.
- سلام يا دكتور.
- سلام يا رمزي.. أشوفكم بُكْرَه.

المشكلة أن عقارب الساعة لا تتحرك، كأن الساعة هنا تختلـف عـن الساعة في أي مكان آخر، ولازلت أشعر بالآلام والدوار، ولا أستطيع أن أتحمل الضجيج العالي في دماغي.. معركة و"خناقة" رهيبة في عقلي.

وجاء فريد وتسلم الفترة الجديدة من العمل بدلا من حسنين.. مرَّ النهـار ببطء غير عادي، وجاء الليل بمتاعبه، ومرة أخرى.. شـعرت بالتعـب، لكـن الحمد لله، تعب لا يقارن بالليلة الأولى.. الليلة الأولى كانت أصعب ليلـة فـي حياتي.. فقد اكتشفت في هذه الليلة أن أوحش شيء في الضرب هـو التبطيـل، ومرحلة أعراض الانسحاب.

من جانبي.. استمر "الزن" ليسمح لي بتناول أكبر كميـة ممكنـة مـن الأدوية، فقد كنت أشعر بالرعب من المرور بآلام الليلة الأولى، ولم أكن قـادرا أو مستعدا لتحملها مرة أخرى.. وتناولت أدوية كثيرة في تلك الليلة.. أعتقد أنها وصلت إلى ثماني حبوب على مدار اليوم كله، لكن دون حقن.. وبالحاح شـديد طلبت حقنة، لكن بلا استجابة، وظللت أحاول وأحاول.. بلا فائدة.. لقد فشلت كل محاولاتي.. قال لي فريد:

- الدكتور قال النهارده مفيش حقن علشانك، ولازم تستحمل شوية.

- استحمل إيه بس؟ هو أهلي جابوني هنا علشان تعذبوني واللا إيه؟
- هانت كلّها كام يوم.. يومين بالكتير.. وتبقى كويس.
- هو شريف هنا يا فريد؟
- شريف.. آه موجود.. منوّرنا.
- طيب والنبي لما تشوفه، قل له إن أنا هنا، ولو يقدر يعدّي عليّ يبقى كويس.
- حاضر.. ها أقول له أوّل ما أشوفه.
- أنا سمعت إن تامر هنا كمان.. تعرفه؟
- طبعا أعرفه.. تامر هنا من شهرين تقريبا.. بس طالع أجازة كمان كام يوم.

تامر من أصدقاء رامي، وعاطف - الله يرحمه- وأيضا يعرف حسام جيدا.. قضينا معًا أياما وليالي.. وكنت أعتز بصداقته.

رجعت إلى غرفتي، ودخلت السرير.. وكلّي تعب والآلام يصعب وصفها.. وبصعوبة نمت ساعتين فقط، من الساعة الرابعة إلى السادسة. وظللت أتقلب في السرير حتى الساعة الثامنة.. التعب يسيطر على كل كياني، من رأسي إلى أصابع قدمي.. التكسير في كل جسمي.. تحركت بصعوبة حتى وصلت إلى الحمام.. الإسهال مستمر، والقيأ عصارة معدتي، صفراء، مُرة.. علقم.. ولازلت لا أستطيع تناول الطعام.. ولا شيء في معدتي أساسا، وغذائي هو العصير، وآكل موزة وبرتقالة.

وجاءتني الأدوية الساعة التاسعة صباحا، تناولتها بلهفة على أمل أن تخفف آلامي، كنت أشعر أن الأدوية هي المنقذ الوحيد من الآلامي.. وعندما سألت عن الدكتور وليد، أجابني فريد:

- هييجي طبعًا، بس لسّه قدّامه شوية.

ظللت مُستلقيا على السرير، متعبا.. لا.. أكثر من هذا.. "خلصان" فعلاً.. وعند منتصف النهار، حوالي الساعة الواحدة ظهرا، دخل إلى غرفتي طبيب

أنيق، وحدثني مظهره بأنه رجل مهم في المستشفى، وبدأ الحديث معي بهدوء قائلا:

- إزَّيك؟ أنا دكتور سمير.. عامل إيه النهارده؟

- والله يا دكتور لسّه تعبان.

- على بكره هتبقَى أحسن شوية.. يا ترى إنتَ محتاج أى حاجة؟

كان أسلوبه الهادئ الراقي سببًا فى أننى لم أطلب منه شيئًا.. فقلت:

- لا.. متشكر يا دكتور.. مش محتاج أى حاجة.

- طيِّب.. عايز تِسألنى أى سؤال؟

- أيوه.. عندى سؤال.

- إتفضل.

- أنا بعمل كدا ليه؟

- علشان انت مدمن.

ولأول مرة فى حياتى، أسمع كلمة "مدمن" موجهة إلىّ مباشـرة، وقـد تقبلتها، بل كنت موافقًا عليها.. قلت:

- طيِّب هو فيه مدمن بيبَطّل؟

- أيوا.. فيه مُدمنين بيبطّلوا.

- فين؟

- هتقابلْهُم.. بسْ لسّه مش دِلْوقْت.. أصبر.. عن إذنك، وقريب هيكون لنا لِقـاء تانى.

- أوكيه يا دُكتور.. مع السلامة.

وتساءلت: من هذا الرجل يا ترى؟ رغم كل التعب الـذى أمـر بـه.. أعجبنى هذا الطبيب، احترمنى خلال حديثه.. أسلوبه هادئ، وبسيط ومميـز.. ثم ما هذا الكلام الذى دار بيننا؟ ماذا يقصد بكلامه؟ أسئلة كثيرة دارت بخاطرى،

أكبر كثيرا من مساحة الدقيقتين اللتين قضاهما معـــي.. وعلـــى الفـــور ســـألت حسنين:

- مين الراجل ده؟

- دا الدكتور سمير.. صاحب المستشفى.

- باين عليه راجل مُحْتَرَم.

مرَّ اليوم أيضًا بصعوبة بالغة، ولم يأت الدكتور وليد، ولـــم يـــسأل.. وتناولت مجموعة أدوية لتخفيف الآلام، ولمساعدتي على النوم الذي لم يكن أكثر من ثلاث أو أربع ساعات على مدار اليوم الكئيب، واســـتمرت الـــشهية للأكـــل مفقودة.. على الأكثر ملعقة أرز، وملعقة خضار، وقليل من السلطة، والموزتين، والبرتقالة.

ولم يكن للسيجارة طعمها الذي أعرفه، كأنني أشرب سيجارًا ولیـــست سيجارة.. وسيجارًا ثقيلاً، ومن أردأ الأنواع.. بعد السيجارة يبدأ السعال، ويستمر طويلا.. وبالتالي لم أكن أتجاوز أكثر من سيجارتين أو ثلاث طول اليوم بأكمله.

ميـــلاد

أيام زمان، كان يوم "...." نوفمبر، هو يوم الاستعداد للاحتفـــال بعيـــد ميلادي في اليوم التالي. "...." نوفمبر يوم من أيام العمر.. يجيء مرة واحدة في السنة، أستقبله في الصباح الباكر على قبلة من والدي، وظرف به مبلغ محترم.. وكانت ليلة عيد ميلادي، أقضيها في عمل اللمسات الأخيرة للحفلـــة الكبيـــرة.. وتسبح في خيالي عشرات الأفكار لأجعل منه يوما مشهودا من أيام عمري.. مع من أخرج في الصباح؟ ومع من أتناول وجبة الغداء؟ ومع من أسهر في المساء؟ ومع من أقضي بقية الليل حتى الفجر؟ ما أهم وأجمل الاختيـــارات المطروحـــة على الأجندة؟! ماذا أفعل، هذا أم ذاك؟! والمخدرات: أشكال وألوان، وزجاجات الخمرة والخطط كثيرة.. ورنين التليفون يعلو مع شعاع الضوء الأول.. وتصلني الهدايا مع الساعات الأولى من الصباح.. ورود.. بطاقات.. مفاجآت لا أول لها ولا آخر.

نضيف إلى هذا كله استعدادات أهلي، الـــذين يبـــذلون جهـــدا حقيقيـــا للاحتفال بعيد ميلادي، ولكنهم لا يظفرون بأكثر من نصف ساعة، نلتـــف فيهـــا حول كعكة تضيئها الشموع، وتردد أركان البيت أصوات أغانيهم بعيـــد مـــيلاد "أبو الفصاد"، ويمنحني كل منهم هديته وقبلة حانية يملؤها الحب.. أحضر إلـــى البيت مسرعا، أجري هنا وهناك، لأستكمل ارتداء ملابسي، بينما أسئلتهم لا تنتهي:

- مين بعت الورد دا كله؟
- وهدية مين دي؟
- وهتسهر فين بالليل؟
- وهتسهر مع مين؟

الليلة تمر بلا أى استعدادات، دون احتفال، وأكبر أمنياتي أن أخرج غدا من هذه الشقة.. أخرج من محبسي هذا، في الصباح الباكر.. كم أشعر بالملل، ورغم أن رمزى معى فى الشقة ذاتها، لكننى لا أراه.. إنه نائم طوال الوقت، ولا أعرف كيف يستطيع أن يواصل النوم ليلاً ونهارًا.. ونهارا وليلاً بهذه الدرجة؟! وفى نوبة الصَّحيان، لا يتكلم إلا قليلا.. يقول جملة أو جملتين، ويختفى من جديد.

تناولت الدواء ليلاً، ولم أنم أكثر من ساعتين أو ثلاث، وأيضا بصعوبة.. وصحوت الساعة الثامنة صباحا، طبعا لم أستقبل الورود، أو الرسائل، أو بطاقات التهنئة، أو الهدايا.. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.

وكالمعتاد لم أستطع تناول طعام الإفطار كاملاً.. لم أتناول إلا قطعة جبن رومى صغيرة، وشربت معها الشاى فقط.. كنت متعبا، ومرهقا وكأننى صعدت سلالم عمارة من عشرة أدوار دون توقف.. وعندما تناولت الدواء قلت للممرض:

- أنا عايز دكتور وليد بسرعة.. النهارده عيد ميلادى ومش عايز أقضيه فى شقة، ومحبوس بين أربع حيطان.

الفارق كبير بين ما أنا فيه اليوم، وأيام عيد ميلادى فى كل أعوام عمرى التى مضت.. ليتنى لم أولد أصلا.. لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ فى لحظة صدق مع النفس كنت أقول نعم.. لست مسئولا عن مجيئى للحياة!! ولكنى المسئول عما يحدث لى الآن.. لا.. لست مسئولا.. لا أعرف من المسئول؟ لا أعرف!! ما هذا الذى يحدث لى؟! إننى لا أطالبهم بإحضار تورتة والاحتفال بى، لكن على الأقل أخرج من هنا، وأنزل قسم الإدمان وأقعد مع الناس، وأشوف شريف وتامر، وأكيد سوف أرى آخرين ممن أعرفهم، ومن الممكن أن يحتفلوا بهذه المناسبة، وإذا لم يحتفلوا.. لا يهم.. ولا فارق عندى، بل كل ما يهمنى فقط أن أخرج من هذه الشقة.

في يوم ميلادي.. لم أكن سعيدا، ومرحا، ومنتعشا كعادتي.. فماذا أفعل في مثل هذا اليوم؟ ماذا يفعل شخص مثلي في يوم ميلاده؟ ماذا يفعل إذا كان شريدا مثلي؟ إذا كان سجينا بين أربعة جدران؟! لقد سلّمني أهلي إلى سجن، وليس إلى مستشفى.. وأمشي في هذه الزنزانة، أروح وأجيء بلا هدف.. هنا لم ولن يضيئوا لي شموعا.. بينما كانت أمي تحرص على أن تشع أضواء الشموع في كل أرجاء المنزل.

هل يكفي أن أبكي؟ سؤال مرّ بعقلي وقلبي؟ سؤال مرّ بضميري.. ولم أعثر له على إجابة.. كم بكيت في هذا اليوم، وأتذكر أمي، وأبحث عن وجهها بين هذه الجدران، فتظهر صورتها غير واضحة ترسمها دموعي، وتزداد بعدا.. لكن بالتأكيد أمي سوف تحضر في هذا اليوم بالذات، ومن المؤكد أنه سوف يأتي معها أبي.. وسأطلب منهما إخراجي من هذه الشقة، وإحضار أشياء كثيرة لي.

وأين أنت يا كريم؟؟ أخي الكبير.. أين أنت؟!!

رولا.. توأمي.. أكيد منفعل المستحيل لزيارتي.. أكيد.

وحشتني رولا جدًا، وفي الوقت نفسه كانت صعْبانة عليّ، خصوصًا في السنين الأخيرة، كانت بتتعذّب، وعلى طول بتغيّظ، ومكْتئبة.. في وقت من الأوقات كُنت باتمنّى أبطّل علشان خاطرها من كُتْر ما كانت صعْبانة عليّ.. ولكن "مفيش حد بيبطل علشان حد".. خواطر وأفكار لا تنتهي.

مرّ اليوم ولم يسأل أحد عني.. لم يسأل عني الطبيب.. ولم يزرني شريف رغم سؤالي عنه كثيرا.. ولم يسأل عني بابا، ولا ماما.. ليس لحزني مثيل.. وفي أعماقي بركان من الغضب، وأروح وأجيء في محبسي، مثل النمر الجريح في القفص، وأكلم نفسي:

– معقول يعملوا فيّ كدا؟! وبعْدين يعملوا كدا يوم عيد ميلادي؟؟ لكن لا.. الحق يِتْقال، محدّش عمل فيّ أي حاجة.. أنا اللّي عملت كدا في نفسي.. ويا ترى مريم

ممكن تيجي تزورني النهارده؟ هي أكيد ما كانتش تقصد الكلام اللي قالته من كام يوم.. بس انفجرت وقالته بسبب العذاب اللي شافته.. هي فعلاً اتعـذبت.. بـس مفيش مشكلة.. لما أخرج من هنا أقول لها: النهارده أحسن من امبارح، وبكـره أحسن من النهارده، مع كلمتين حلوين، ويرجع تـاني كـل شـيء زي الأول، وأحسن.

وأتذكر رانـدا..

طيب وراندا، بتعمل إيه دلوقت؟ ماينفعش تنسى يوم زي ده.. احتفالاتنا فيه ماكانتش عادية.. كل سنة كان الاحتفال أقوى من السنة اللي قبلها.. آه.. إحنا سيبنا بعض، بس أكيد هي لسه بتحبني.. أصل اللي بينا كان كبير أوي، لكن أنا في الآخر كنت أعاملها معاملة بشعة.. هي السبب، وأنا كرهتها بعد الحركة اللي عملتها.

وهالة، أنا عارف إنها هتفتكرني، وممكن كمان تكلمني.. بس هالة قلبها ميت، ومش هيفرق معاها أي حاجة أنا أقولها.. هي شايفة إن زمـامي فالـت، ومشغول بالبنات، وعمري ما هاتغير.

واليوم دا بالذات تمنيت أشوفها، واقعد اتكلـم معاهـا.. وأشـكي لهـا همومي.. أشكي لها من إيه، والا إيه؟ أشكي لها منهم؟ ولا من نفسي؟!! طبعـا لازم أطلع الكل غلطان، وأنا المسكين اللي مظلوم في كل اللي بيحصل.

ظللت شاردًا بين خواطري، وحواراتي مع نفسي، واستمر المونولـوج طوال النهار، ومر اليوم.. يوم ميلادي ولا أحد سأل عني، ولم يكلمنـي أحـد، ولم يظهر الطبيب، أو غيره من الناس، وأخيرًا.. أخيرًا جاءني الممـرض فـي الساعة السابعة مساء، وقال لي:

- والدك، ووالدتك كانوا هنا، ولسه ماشيين، وسابولك المصحف ده.

- طيب مشيوا ليه؟ أنا كنت عايز أشوفهم!

- وهمّا كمان كانوا عايزين يشوفوك، بس الدكتور سمير ماوافقش.

– ليه؟! ماوافقش ليه؟!

– ما اعرفش والله.

– يا سلام!! يعني دكتور سمير يمنع أهلي من أنهم يشوفوني يوم عيد ميلادي؟! ماشي.. هو دا النظام يعني؟!!

فتحت المصحف، ووجدت رسالتين: رسالة من أمي، وأخرى من والدي.

كتبت أمي في رسالتها:

– ابني.. وحشتني.. سنة جديدة، وميلاد جديد.. بندعي لك في كل لحظة، وكل خطوة.. عايزاك تدعي الدعاء ده كتير:

"اللهم ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا.. إنك على كل شيء قدير".. مليون قبلة لولدي حبيبي.

ملحوظة: حاولنا أن نلقاك، ولكننا لم نستطع.. سنراك قريبًا بإذن الله.

كتب والدي في رسالته:

– طوال الطريق وأنا أفكر في لقائي بك.. ماذا أقول لك في يوم ميلادك وأنت بعيد عنا؟! أرجوك، عد إلينا.. أرجوك.

قرأت الرسالتين أكثر من عشر مرات.. بين السطور عذاب، ليتني أستطيع التخلص منه.. قرأت آيات الله من المصحف لمدة خمس دقائق.. يااه!! إنها أول مرة منذ زمن أمسك فيها بالمصحف.. واحتفظت في داخله بالرسالتين، ونمت كي أعبر يوم عيد ميلادي الذي قضيته في محبسي بين الجدران، في شقة من غرفتين، في مستشفى لعلاج الإدمان.. نمت بعد العشاء: سندوتش جبنة رومي وعسل وزبادي، وتناولت أدوية للنوم والصداع، والعلاج النفسي.. نمت ثلاث أو أربع ساعات فقط وبصعوبة.

استيقظت صباحًا، ولازال بركان الغضب ثائرًا؛ بسبب الطبيب الذي تركني أقضي يوم عيد ميلادي بين أربعة جدران، ولأنه وعدني بدخول قسم الإدمان بعد ثلاثة أيام من وجودي في المستشفى، وقد مرت على خمسة أيام وليس ثلاثة.. كما آلمني جدًا ألا أرى والديّ بالأمس.. تمنيت رؤيتهما، لأتحدث معهما، وأسأل عن رولا.. كيف تصرف الطبيب معي بهذا الأسلوب؟ لماذا فعل هذا؟! لقد اهتزت ثقتي به، وسوف يرى مني معاملة جافة.. هنا تمر الدقيقة كأنها ساعة، والساعة كأنها يوم كامل.. وفي حوالي الساعة الواحدة، جاءني دكتور وليد، وعلى شفتيه ابتسامة، وقال:

– كل سنة وأنت طيب.. معلش.. ماعرفتش أشوفك إمبارح؛ كان يوم مضغوط شوية.

– باقولك إيه.. لمّا تقول حاجة، تبقى تنفذها.. قلت لي 3 أيام في الديتوكس السّجن ده، وأنا بقالي 5 أيام.. خليك أد كلمتك.

– أنا أدّ كلمتي، بس إنتَ اللي كنت محتاج تقعد هنا أكتر من 3 أيام.

– طيب ما قلتش ليه؟! كنت قل لي.

– أديني باقولك أهه.

– لا.. إتأخرت أوي.

دخلت إلى غرفتي، بينما جلس دكتور وليد مع رمزي، وتركه بعد حديث قصير.. وبعد قليل؛ وحوالي الساعة الثالثة جاء الممرض ووضع المفتاح في الباب ووقف يتحدث مع زميل آخر، وفجأة دفعته إلى خارج الباب، وأخذت المفتاح معي، ونادى حسنين راجيًا بصوت هادىء:

– يا أستاذ صلاح.. افتح من فضلك.. يا أستاذ صلاح أنا كده ها اخد جزا.. إنت مايرضيكش تأذيني.

– لا.. مش ها افتح.

قفلت الباب بالمفتاح، وتركت المفتاح في القفل حتى لا يستطيع أحد فتح الباب بمفتاح آخر.. رمزي يشاهد الموقف ويبتسم ولا يعلق.. كأنه يرى فيلمًا هابطًا ومضحكًا في الوقت نفسه، وجريت إلى الشرفة.. إننا في الدور الأول، ومن المحتمل أن أنجح في القفز من على سورها.. ولكنني تساءلت مع نفسي:

- طيّب لو نطّيت، أروح فين؟! طيب أنط وبعدها ربّنا يسهل.

وفي اللحظة نفسها، سمعت صوتًا أعرفه جيدًا.. إنه شريف:

- صلاح.. إفتحْ يا صاصو.

- مين؟

- أنا شريف.. افتح.

- لأ.. مش فاتح.

- أفتح ومِشْ هَا اخلي حد يَدْخُل مَعايا.

- ماشي.

وفعلا دخل شريف بمفرده، ولم يدخل معه أحد.. فقلت له:

- إنتَ فين يا عم؟! سايبْني 5 ايام في الشَّقة الزّفْت دي!!

- أنا سمعت إنك تعبت أوي أول كام يوم.

- أنا إتبَهْدِلْت أوّل وتاني ليلة.

- إنتَ مَعاك رمزي كمان.. إزّيك يا رمزي؟

- إزّيك يا شريف.

- تمام.

- أنت يا صاصو معاك ملك المستشفى.

- يا عم معايا إيه.. أنا مِشْ باشُوفه.. دا نايم طُول اليوم.. إزاي؟! ما أعرفْش!!

- يا أقولَك إيه يا صلاح.. لمّ الدُور علشان تنزل من هنا.. دكتور وليد قال لي إنك شدّيت معاه النهارده.

- طبعًا، هو لِسَه شافْ حاجة.. أنا ناوى أنفخه.. قال لى بالكتير 3 أيـام هنـا، والنهارده بقالى 5 أيام، وفى عيد ميلادى يسيبونى مَرْمى هنا.

- معلش، دى عندى.. إفتح الباب وخلى حسنين يدخل.. علشان خاطرى يا صلاح.

- علشان خاطرَك بس.. باقولك إيه.. خَلَّصنى من المُصيبة دى.

- حاضر.. يالّلا افتح ودخّله.

دخل حسنين، ومعه فريد.. وقال لى معاتبًا:

- كدا بَرْضه يا أستاذ صلاح.

قال فريد بهدوء:

- يالّلاَ يا أستاذ رَمْزى علشان تِنْزِل القِسْم.

فقلت معترضا:

- والله؟! بقى كدا؟! يعنى هو جه هنا معايا وينزل قبلى؟ شايف يا شريف!!

- اهدا بس.. رمزى قديم هنا.. وبعدين أنت لسّه مخبّط مع دكتور وليد، لمّ الدُور وأنا أخرّجك من هنا بكره.

- أنا مش عايز أتعامل مع الدكتور ده تانى.. يبْعدْ عنّى ويسيبنى فـى حـالى.. أنا مش ناقصه.. اللّى فيّه مكفّينى.

- باقولك إيه.. نخرّجك من هنا وبعدين نتفاهم.. إسمع.. أنا ها امشى دلوقـت، وبكْره هتخْرُج من هنا.

- تعرف لو سِبْتنى أكتر من كده.. هاولّعها.

- خلاص يا صاصو.. أنت بس إهدا، ولما ييجى لـك دكتـور وليـد بُكـره، ما تشدّش معاه.. ولعلمك، وليد راجل جدع.. وجدع جدًا كمان.

- لما نشوف.. باين عليه هيشوف معايا أيام سودا.

مرّ اليوم الأول من أيام العمر الجديد.. والميلاد الجديد على رأى أمى.. مرّ وعندى شعور طاغ بالكراهية.. كاره للدكتور وليد.. وكاره للمستشفى.. وكاره لنفسى.. كاره كل شيء.

صحوت فى موعدى.. الساعة الثامنة، وأخذت الدش، وتناولت إفطارًا بسيطا لأتناول الدواء بعد الأكل.. ولازال الوقت يمر ببطء، ولم يسأل عنى أحد حتى الساعة الحادية عشرة.. وشعرت بالغليان، لدرجة أننى فكرت فى كسر التليفزيون لو ظللت فى محبسى داخل الشقة.. لو حدث هذا سوف أنفذ قرارى بلا تردد.. ولكن حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف وصل دكتور وليد، وبهدوء قال:

– إزيك النهارده؟ شكلك أحسن بكتير من أول يوم وأحسن من إمبارح كمان.

– ناوى تسيبنى هنا النهارده كمان؟! على العموم مش هتفرق.

– لا.. كفاية كدا.. هتنزل القسم.. يالا.. يا فريد.. على القسم.. وهنا اشوفك هناك كمان شوية.

نزلت إلى القسم مع فريد لأول مرة، وضرب الجرس وفتح لنا شخص، عرفت أن اسمه صادق، رئيس العاملين فى قسم الإدمان الذى قال:

– حمد لله على السلامة.. عامل دوشة فى "الديتوكس" ليه.. إتفضل.

– إنتوا لسه شوفتوا حاجة؟

دخلت، وبنظرة خاطفة، رأيت مجموعة كبيرة، حوالى خمسة عشر مريضا، ولم أركز فى محاولة معرفة أحدهم، فقد كنت متعبا بسبب أعراض الانسحاب، ولازلت فى حالة الغليان بسبب الليالى الخمس التى قضيتها فى "الديتوكس".. جلست على أقرب كرسى دون أن أسأل عن شريف أو تامر، مددت يدى وأخذت إحدى الصحف، على أمل أن أهدأ ولو قليلا، وأقرأ.. فقراءة الجرائد من هواياتى، وكانت مشكلتى وأنا ضارب قراءة الخبر أربع أو خمس مرات لأفهمه، وطبعا كانت الصحيفة تقع من يدى، وأرفعها من على الأرض،

وأحاول معرفة أين توقفت.. وعند أي جملة.. في تلك اللحظات الأولى، جاء شريف إليّ قائلا:

- ازيك يا معتز؟ إيه الأخبار؟ مش قلت لك ها اخرّجك النهارده.. إنت أوضتك فين؟

- ولا اعرف.. أنا دخلت هنا من خمس دقايق بس.

- يا صادق.. أوضة صلاح فين؟

- في الدور اللّي فوق.. الأوضة اللّي على اليمين، شمال الحمّام.. الأوضة اللّي كان فيها تامر.

- باقولك إيه يا صادق.. شوفله حاجه تحت جنبي.

- مفيش ولا سرير فاضي تحت.. لو حد مشي هنقله على طول.

- ماشي.

نظرت حولي ورأيت صديقا:

- ياه.. دا جلال هنا.

- أهلا، أهلا.. المستشفى نوّرت يا صاصو.. إنت جيت إمتى؟

- بقالي 6 ايام في "الديتوكس".. سجن.. وإنت هنا من أمتى؟

- من شهرين، بس خلاص ها أخرج قريب.

- وفين تامر يا شريف؟

- خرج من يومين، وإنت في "الديتوكس".. ما تقلقش.. هيرجع على طول.. تامر مش بيطوّل بره.

فقلت متعجبا للمرة الثانية:

- إيه ده؟ أسامة هنا كمان؟ يا نهار أبيض.. والله زمان يا أسامة.

- واحشني جدا يا صلاح.. أخبارك إيه؟

- زي الزفت.. شوفت كام يوم بهدلة.

- أمال أنا أعمل إيه؟ دا أنا بقالي 8 شهور في المستشفى.

– 8 شهور؟ طيب.. ما تخرج.

– إخواتى مش عاوزين يخرّجونى.. أخبار رامى إيه؟ بتشوفه؟

– كان معايا من أسبوعين، ورحنا ضربنا سوا. باباه عيان أوى، ما إنت عارف عنده القلب.. بس أمه وأخوه عاملين عليه كمّاشة بنت "......".

شخصيات كثيرة أعرفها جيدًا.. مرات ومرات ضربنا معًا، وكثيرًا ما التقينا فى أماكن وظروف مختلفة.. دولاب فى بولاق، إمبابة، كوم السمن، الجعافرة.. يادا!! وعلى رأى المثل.. فعلاً.. الطيور على أشكالها تقع.. من النادى، من المدرسة، من الزمالك، من المهندسين، من مصر الجديدة.. من كل مكان!!

32

السفينـــة

ومن مكاني هذا بدأت أتجول بعيني في المكان.. بعد الممر الطويـل، ساحة كبيرة تجلس بها مجموعات من الشباب.. خمسة هنا، وستة في ركن آخر، وأربعة هناك، واثنان يلعبان الشطرنج، والمطبخ على الشمال.. ورأيـت علـى اليمين تليفونا، وبجانبه غرفة، وقيل لي إنها غرفة الدكاترة.. يا لها من كارثـة، يعني هما جنبنا مباشرة.. وعلى اليمين أيضا سلالم تصل إلى فيلا مغلقة، وعلى الشمال ترابيزة "بنج بونج".

وهناك في صدر الممر الطويل، رأيت لافتة كبيرة، كتب عليها:

"اللهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها.. والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها.. والحكمة لمعرفة الفرق بينهما".

أمّا جملة!!

أولاً: أغاظتني.. ونرفزتني.

ثانيا: قرأتها أكثر من 5 مرات، ولم أفهم منها أي شيء.

وقرأت جدول الأسبوع معلقا على الباب، كان كالتالي:

التأمل: دكتورة نجلاء من الساعة..... إلى الساعة......

المشاركة: دكتورة إكرام من الساعة.... إلى الساعة......

وفي أثناء قراءتي للمواعيد، قال لي شريف:

– يالَّلا على الغدا.

– لسَّه مش قادر آكُل.. بالعافية معلقتين تَلاتة.

– تعال بس يا صاصو وإنت نِفسك تتفتح.

– شفت أنا زدت 4 كيلو!! بيزغطوني؟

أكلت ثلاث ملاعق أرز وبطاطس بصعوبة، الأكل جيد فعلا، ولكنني لا أستطيع الأكل.. وأكلت قطعة صغيرة من صدر "الفرخة"، وأعطيت الباقي لصديقي شريف ، فكل شخص له رُبع فرخة، لكنها لا تكفي شريف.. وقررت الذهاب إلى غرفتي، فسألت:

– هي شنطتي فين يا صادق؟!

– فوق على السرير بتاعك.. يمين السد.. شمال الحمام.. ومعاك أمير في الأوضة.

وجدت في الغرفة سريرين: شنطتي فوق أحدهما، وفتحت الدولاب، وجدت نصفه مليئا بالملابس، وسمعت من يقول لي:

– أهلا وسهلا.. أنا أمير.. إزّيك؟!

– الحمد لله.. وأنا صلاح.

– إنتَ منين يا صلاح؟

– من الزّمالك.. جار شريف.

– دا أنا سمعت أن الشارع بتاعكُم مُرْعب.

– فعلا، شارعنا كله ضرَبية.. وأنت منْ فين؟

– من المُهندسين.

– فين في المُهندسين؟

– أحمد عرابى.. جنْب عمر أفندى.. هو إنت تعرف ضرْبية في المُهندسين.

– آه طبعا.. أنا أغلبية ضَرْبى كانت في المهندسين.

– تعرف مين في المهندسين؟!

– بهاء، سامح، تامر، عادل، ابراهيم..

– إيه ده؟ إيه ده؟ دُول إلعَتاولَة.. تعْرَف الناس دي من فين؟

– دي شلّتي.. أصلاً بهاء كان معايا في الفصل منْ حضانة.

– يا راجل.. بسْ دُول خرْبوها.

- يعني إنتَ ما خَرَبْتِهاش يا أمير!! ما كُلّنا خَرَبْناها.

- على رأيك.. دا أنا خربتها، وقعدت على تلّها.

- بأقولّك إيه.. يالّلا ننْزِل علشان أنا عايز آخُد الدوا.

- ادّيني عشر دقايق وأحَصّلك.

اخترت البقاء مع الشباب بدلاً من البقاء في غرفة النوم.. أولاً: أكاد أن أختنق.. وثانيا: لازلت كارها لنفسي، وكارها للمستشفى.. وثالثا: ربما تخفف الصحبة مع الناس من حدة هذه المشاعر.. وجدت "شريف" ومعه رمزي، يجلسان مع اثنين من الشباب، شكلهما ومنظرهما لافت للنظر والاهتمام.. جذبت الكرسي إلى جوارهما، وجلست أتابع الحوار، الذي بدأه شخص اسمه طلعت:

- أخدت البودرة وسافرت إسكندرية.. مُتخيَّل معاك 20 جرام.. الدنيا تبقى عاملة إزاي، وخلصتهم في أسبوعين.. موت، ومارْجعتش على البيت.. رجعت من إسكندرية على سويسرا.. الديتوكس على طول.

رد جلال قائلا:

- فاكر يا أسامة لما طلعنا الغردقة بعد مالقيت شنطة الفلوس.. أخدت شنطة أبويا زي ما هي، وفيها 40 ألف جنيه.. طلعت أنا وأسامة واتنين أصحابنا على الغردقة.. اشترينا 32 جرام من دعبس.. كانت كل البودرة اللّي معاه.. يا نهار أسود، تصوّروا لو كنّا اتمسكنا؟! طبعًا إتجار.. هو فيه حد يمشي ومعاه 32 جرام؟!

الحديث كله عن المخدرات وأيامها الحلوة من وجهة نظرهم، ولم يتطرق أحد إلى البهدلة التي عشناها وشفناها.. ولا الناس اللّي اتمسكوا ولا أصحابنا اللي ماتوا.. لم أتمالك سماع هذا الحديث، فأخذت شريف جانبا وتحدثت معه:

- بأقولّك إيه يا شريف.. أنا عايز أضرب.

- لحقت؟

- شَغْوذوني.. فيه أي سِكَة؟

- أصبُر، فيه سفينة* جاية، وداخلة قُرَيِّب.

- لا يا راجل.. إمتى؟!

- اليومين دُول.. بَس الجَو مغيم شوية.

- أنا مَعاك.. اوعى تبيعني.

- عيب يا أخي.. ماكُنْتش قلت لك.

مر النهار في الثرثرة حول البودرة والمخدرات.. وتجمعنا مرة أخرى حوالى الساعة التاسعة، وتأملت وجوه المشاركين في الجلسة، وكان ممن بينهم حلمي مُدمن خمر، وقد سخروا منه كثيرا، لإعلانه أن الخمور أفضل من المخدرات.. كيف يجرؤ.. وضايقه شريف بقوله:

- إحكي لَنا عن أكتر بار بِتْحِبُه يا حلمي.

- مِش باحب البارات.

- طالما مش بتحب البارات.. بتشرب ليه؟ إنتم عارفين إن صادق مخبّي منه قزازة كولونيا، أصل كلها سبرتو، وطبعا يا حلمي في الأزمات بتشرب 5 خمسات.. صح؟

- إنتَ تفهم إيه في الخمرة؟

يتدخل جلال قائلا:

- باقولك إيه.. أنت هتقل أدبك والا إيه؟ كلّم عمك كويس والا قسما عظما.

لا يرد حلمي.. فيسأله شريف:

- قل لي يا حلمي، تدفع كام لو جِبت لك قزازة بيرة دلوقت؟

- ما أدفعش حاجة.

- إنتَ قُلت لي إمْبارح أدفع ألف جنيه في قزازة بيرة.. غيرت رأيك ليه؟

---

* اسم حركي للبودرة.

لم يحتمل حلمي سخرية شريف، وتركنا واختفى.. سألت شريف:

- هي إيه حكايته؟

- واد رخم أوي.. سُكري، "كيميكلز"*، بركينول على كُودافين، أي بلا أزرق.

- يا أخي عُمْري ما فهمت الناس دُول.. دا كيف ناس عيانة.

- بأقولك إيه يا كَراكيس.. عاوزين نخلص منهُ.

- سيبهُولي.. أنا بكْره أشوفله سكّة.. وبعدين عيب يسيبك ويمشي وأنت بتكلّمه.

- قِلّة أدب وقِلّة تَرْبية.. تربية صيدليات بصحيح!!

أخذت الدواء وذهبت إلى غرفتي، فوجدت أمير نائمًا، ومستغرقًا في الأحلام.. ومرّ اليوم ببطء شديد، ولكنه مرّ والسلام.

الأسبوع الثاني

بدأت التعرف إلى شخصيات جديدة منهم: ياسر من ليبيا، أمضى في المستشفى 10 شهور، وداوود رجل كبير، ودخل المستشفى منذ سنة تقريبًا، أما "فلان" ابن "فلان"، فهو في المستشفى منذ 3 شهور، وبعد خروجه بيومين فقط عاود الضرب، وصمم أهله على إعادته من جديد.

ومن خلال حواراتهم، فهمت أن كلاً منهم يعرف الآخر جيدًا، وأن "فلان" لم يضرب أكثر من شهر واحد، وبمجرد أن اكتشف والده هذه الحقيقة، "شحنه" فورا على المستشفى، وفهمت أيضًا أن رواد المستشفى لهم مصطلحات خاصة كثيرة، منها:

المستشفى: سويسرا.. فلان اتشحن: معناها أن فريقًا من المستشفى أحضره دون رغبته.. أما 111: هو رقم غرفة منفردة أو الحبس الانفرادي، فكل من يعمل "مُصيبة"، يذهب فورًا إلى غرفة 111، ويظل في محبسه في تلك الغرفة مدة

---

* يطلق على مدمني الأدوية.

تتناسب مع المشكلة أو الخطأ الذى ارتكبه، فقد يمضى بها أسبوعا أو شهرا، ومن الممكن أن تصل المدة إلى ثلاثة شهور..

ومن أهم التعبيرات المعروفة: "السفينة داخلة" بمعنى أن المخدرات فى طريقها إلى قسم الإدمان، وبطبيعة الحال هذه خطيئة كبرى، وتعد أخطر ما يحدث فى المستشفى.. وفى الوقت نفسه أهم شىء بالنسبة للمدمن أن تنجح محاولاته فى إدخال المخدرات، وتبين لى أننا كأصحاب، وتجمعنا كارثة الإدمان، من المهم أن نتكلم اللغة نفسها.. وكان أول سؤال، وجهته إلى شريف فى ذلك الصباح:

- أخبار السفينة إيه؟

- فيه مُشكلة فى الميناء، بس ما تقلقش.. اتصمغ.. حاسب من الكلام فى الموضوع ده مع أى حد، لأننا لو اتمسكنا واتعمل لنا تحليل، على III فورا.. آه يا مَعلم، وما أدراك ما هى III.. قضّيت فيها أيام وليالى.

- هما ليه سمّوها III؟

- وانت جوه مابتشوفش غير 3 عواميد حديد يا معلم.. تعال يا صاصو تحضر التأمل مع نجلاء.

- مين نجلاء يا شريّو؟

- أخصائية اجتماعية دلّوعة أوى، آه لو وقعت تحت إيدى.. أهى.. وصلت.

- صباح الخير يا شريف.

- صباحنا لبن بإذن الله.

- إنت صلاح.. صح؟

- صح.

وكان تعليق شريف:

- دا إنت متوصّى عليك.. هنيالك يا عم.

جاء حلمى وقال:

- أنا عاوزك يا نجلاء بعد الاجتماع.. فيه موضوع مهم وعاوز أتكلم معاك.

ضحك شريف قائلا:

– أصل إحنا ضغطنا وقرصنا عليه إمبارح.. اسمع يا حلمي.. يعتبوك في قزايز.

– عيب يا شريف.. حاضر يا حلمي، طبعًا أقعد معاك.. وإنتَ كمان يا صلاح، أنا عاوزة أقعد معاك بعد الاجتماع.. ممكن؟

– طبعًا.. ممكن.

جلسنا أمام باب القسم في دائرة تضم حوالي 12 شخصًا فقط، ولم يحضر بقية النزلاء، بعضهم لا يرغب في حضور الاجتماع، والبعض نائم، والبعض في حالة كسل.. وعلى مسافة ليست بعيدة، جلس اثنان من الممرضين: أحدهما على اليمين، والآخر على اليسار.. عيونهما تراقبنا وكأنها عيون الصقر.. كل همسة، وكل حركة تحت "الميكروسكوب" تحسبًا لمحاولات الهروب، والتي تتم فعلا في بعض الأحيان.. إنها ليست سهلة، ولكنها ممكنة الحدوث.

بدأ الاجتماع، وطلبت نجلاء أن يتكلم كل منا عن إحساسه بالمستشفى في هذا اليوم، ولم أستطع التركيز، فلم أكن أفكر إلا في السفينة والميناء.. فرفضت الكلام والمشاركة.. وفي نهاية الاجتماع تفرق الجمع، كل واحد في طريق.. منهم من ذهب إلى غرفته، أو من يلعب شطرنج أو "بينج بونج"، أما أنا.. فلم أزل غاضبًا، ولم يهدأ حتى الآن بركان الغضب بسبب حبسي في "الديتوكس"؛ ولأن دكتور وليد لم يلتزم بكلمته، ولم ينفذ وعده.. ونويت ألا أكلمه، وعندما وصل تفاديت النظر إليه، وبدأ هو بتحية المجموعة، وسؤالهم عن مطالبهم.. من منهم يريد اتصالات تليفونية، ومن منهم يريد حضور الاجتماعات المسائية.. ولأول مرة أسمع عن هذه الاجتماعات، ولم أفهم المقصود بها، ولم أركز في الموضوع لأفهمه، بقدر تركيزي في أن البعض يمكنه الخروج من المستشفى الساعة السادسة مساء، والرجوع إليه الساعة العاشرة.

تصورت أنها رحلة أو نزهة ترفيهية، ويطلق عليها: اجتماعات.. وعندما مد دكتور وليد يده للسلام، كنت في حالة سرحان، فقال:

- إزيك يا صلاح.. لسه برضة زعلان؟!

- وإنت مالك زعلان واللا مش زعلان؟!

- خلى بالك يا صلاح، إحنا هنتعامل مع بعض فترة طويلة، وياريت تتكلم بأسلوب أحسن من كده.

- أنا مش بايق فيك، فمش ها اعرف أتعامل معاك.

- موضوع أنك قعدت كتير في "الديتوكس" مش قرارى لوحدى.

- قلت لي تلات أيام.. وسبتنى ست أيام؟!

- على العموم ماتزعلش، وأوعدك لما اتفق معاك على أى حاجة مرة تانية، أنفذها.

تدخل شريف في الحديث قائلا:

- عندى دى يا صاصو.. بص يا دوك، إحنا هنعديها لك المرة دى، بس المرة الجاية.

- لا يا راجل!! والله!! هاتعمل لى إيه إن شاء الله يا شريف بيه؟

- على 111 ولغاية لمّا يبان لك صاحب.

ربما كان شريف أشهر واحد في المستشفى، دخلها 17 أو 18 مرة، وبالإضافة إلى أنه شخصية معروفة للجميع، فهو محبوب جدًا، ويعرف كل تفاصيل المستشفى، وكل العاملين به، وكل غرفة بمحتوياتها.. هو خبرة واسعة، ومتعاون بكل طاقته، ودمه خفيف، ووجوده بالنسبة لى كان فعلا مهمًا.. أزال عنى الملل.

وكان موعدنا الساعة الواحدة مع دكتورة إكرام.. تعارفنا، ووجدتها سيدة طيبة، تتمتع بالخبرة والكفاءة العلمية.. تهتم بالجميع، وتحب عملها،

وهذا يبدو واضحًا من أول وهلة.. وحضرت معها أول اجتماع، ولم يحضر أكثر من 12 فردًا من نزلاء المستشفى، ومرّ الاجتماع هادئًا.. ولطيفًا.

وجاء موعد تناول طعام الغداء.. وكنت كالمعتاد لا أستطيع الأكل بشهية.. ولكن الحمد لله توقف القيء.. لقد تعودت عملية القيء أثناء الضرب، وهو يختلف كثيرًا عنه بعد التوقف عن الضرب، فهو معذب لأقصى درجة.. وشعرت ببعض الراحة بسبب عدم القيء.

اكتشفت من قائمة أسماء المجموعة التي ستخرج إلى الاجتماع، أن بعضهم قرر عدم الخروج، واعتذروا عن الذهاب إلى الاجتماع.. ولم أفهم هذه القصة العجيبة، وأسباب التراجع عن الخروج.. وتركني شريف مع المجموعة التي ستبقى في المستشفى، وذهب إلى الاجتماع، وانتظرته مع شاب مصري اسمه باسم، عاش في باكستان، وحكى لي عن الوضع هناك.. قائلاً:

– الضرب في باكستان مختلف.. مفيش الهبل اللّي عندكم هنا.. هناك مش بالورقة ولا بالجرام، هناك بالفنجان، وبعدين إنت تجرّب الأول: عاجبك تاخُد، مش عاجبك بلاش.. كأنك بتشتري بلح رمضان، وكمان هناك في باكستان رخيص جدا.. ببلاش.

– طيّب أنا عايز أروح باكستان معاك يا باسم.. أنت هاتطلّع من هنا إمتى؟

– مَا اعْرَفْش.. أنا بَطلّع على إسكندرية، ومنها أسافر باكستان.

– ياريت لو نظبُط موضوع باكستان سوا.

وهكذا كنت أعيش في عالم آخر، ولا أدري كيف أفكر، وماذا أقول.

عاد شريف فذهبت إليه وقال لي:

– بأقولّك إيه.. السفينة داخلة الميناء بُكْره.

– لا يا راجل.. بجد؟

– عيب يا مْعلم.. أنا ها انزل الاجتماع بُكْره، وارجع بالشغل.. أنا وإنت وجلال.. بس.

- ماشي يا شريو.

- بس اسمع.. مفيش بني ادم يعرف، كمان ما تضربش كتير، وإلا تتكشف، ونعلّى لمّا العيال يناموا.

- هي السفينة حمولتها أد إيه؟

- 3 طن بإذن الله.. كل واحد ورقة.. أظن واجب مايتنسيش دا يا صاصو؟

- ما أنا طول عمري جدع معاك يا شريو.. بس هنجيب السوست منين؟

- لا.. مفيش سوست.. إنسى.. دا أنا بعد ما ارجع من الاجتماع، بيفتشوني تفتيش ذاتي.

- أمّال "هتكمّر"* الحاجة فين؟

- كله معمول حسابه.. بكره جلال مش هينزل، أنا بس.. حيعمل إنه عايز يخرج أجازة.. تمويه يعني، خليك إنت بعيد بس، وملكش دعوة.

- قشطة.. أنا نفسي أضرب أوي.

- قفل على الموضوع يا صلاح، وتعال نشوف حلمي، نلاعبه شوية.

- بأقولك، أنا هانفذ خطة نخلص بيها من حلمي.. بكره يا معلم أنا ها أشحنهولك على 111.

- بجد.. هتعمل إيه؟

- أصبر لبكره.

ذهب شريف إلى حلمي وهو يغني:

- هات القزازة واقعد لاعبني.. يا حلمي.. هات القزازة..

- إبعد عني.

مر اليوم.. ولكن على أمل دخول السفينة في اليوم التالي.

---

* تخفي.

يوم جديد.. بعد الإفطار.. تصفحت الجرائد وكنت منتعشًا وسعيدًا لأن السفينة تصل اليوم، وتدخل الميناء.. وعندما وصلت نجلاء، سلمت على المجموعة، وقالت لي:

- معْرِفناش نقعد مع بعض إمبارح.. بس لازم نقعد سوا النهارده.

- ياريت.

وكان عدد الحاضرين في المجموعة مثل الأمس.. بفارق بسيط هو أن أحد الحاضرين لم يتواجد معنا من قبل، وآخر حضر الاجتماع بالأمس، واعتذر اليوم.. وبعد نهاية الاجتماع، جلست مع نجلاء في الحديقة، وكان الجو مشمسًا ولطيفًا.. وكان أول سؤال طرحته عليَّ:

- احكي لي.. صاحبتك إسمها إيه؟

- مين فيهم؟

- دنجوان؟ احكي لي عنهم كلهم.

- آخر واحدة مريم.. نزلتني من عربيتها قبل ما ادخل المستشفى بكام يوم.. أصلي جننتها، وطلعت عينها.

وحكيت عن رانda، وهالة، ومريم.. وكانت الجلسة مع نجلاء لا تخرج كثيرًا عن قصص الحب، والحكايات العاطفية وعلاقتي بأهلي.. وبعد ساعة من الحديث المتصل، قالت لي:

- إنت لازم تقوم علشان تحضر اجتماع دكتورة إكرام، وتقعد سوا بكره.. علشان عاوزه أتكلم معاك في تفاصيل كتيرة.. وعلى فكرة.. وليد وصل.. سلّم عليه قبل الاجتماع.

وصل دكتور وليد، وسلمت عليه قائلاً:

- يا دكتور.. إحنا هانفتح صفحة جديدة مع بعض.

- ياريت يا صلاح.

111

كان من الواضح أن معنوياتي مرتفعة، وبمهارته وخبرته لاحظ هذه الحقيقة، وسألني:

- إيه أخبار "الجروبات" والاجتماعات؟ وبتاكل أحسن واللاّ لسه؟ وإيه أخبار الصداع؟ والرشح والتكسير؟

- الحمد لله، أحسن .. كنّا فين وبقينا فين.. يا أقولك إيه يادكتور، أنا عايزك في موضوع مهم.

- خير يا صلاح.

- أنا مش متعوّد أفتن أو أنقل كلام.. بس فيه موضوع، أنا مش قادر أسكت عليه، وتاعبني جدًا.. أنا دخلت المستشفى علشان أبطّل.. صحّ؟

- صحّ.

- من نص ساعة كنت في الأوضة اللي جنبي فوق، ولقيت طبق ومعلّقة تحت سرير حلمي، بصّيت فيهم، شكله كدا طاجن "صلبية" و"نوڤاسي"، أو أي حاجة.. مش عارف، مش متأكد.

- إزاي الكلام ده؟

- بالرّاحة يا دكتور.. مش عايز حدّ يعرف إني قلت لك وإلاّ هيقولوا إني فتّان.. وأنت فاهم الباقي.. ولعلمك حلمي دا مش مظبوط من أول يوم ولسانه تقيل.. جالي إمبارح وقال لي تديني الأدوية بتاعتك.. حطّها تحت لسانك وطلّعها تاني واديهالي.. ما إنت عارف يا دكتور، حلمي دا صيدلية.

- سيب لي الموضوع ده، أنا هاتصرّف.. إنت مش عارف إنت كبرت في نظري أد إيه.

– بس من فضلك يا دكتور، أنا ماليش دعوة بالموضوع دا خالص، مش عـايز الناس هنا تمسك في رقبتي.. أنا قلت لك علشان أنا قررت إني أثق فيـك، بعـد موضوع "الديتوكس".

– إنت لسه فاكر؟ ما يبقاش قلبك إسود كدا.. يالا روح على جـروب دكتـورة إكرام، وأنا هاتصرّف.

في خلال خمس دقائق.. انقلبت الدنيا رأسًا على عقب.. نجحت الخطة بطلب بسيط.. طلبت ريفو من الصيدلية، بحجة الصداع، وطحنت أقل من ربـع قرص الريفو في طبق بملعقة، بخلاف جير بسيط من الحائط.. ووضعته تحـت سرير حلمي، وكان من الممنوعات المعروفة للجميع تناول الأطعمة في الغرف.. وبالتالي ممنوع قطعًا وجود الطبق والملعقة في غرفة النوم.. وهكذا كان الطبق والملعقة والريفو والجير المطحون تمثيلية كاملة ومحكمة، ولو أن الممرض بلّ لسانه وجرب تذوق هذا الشيء المطحون، فإنه سوف يجد الطعم مرًا.. وصـفّر الحكم.

جلست في اجتماع دكتورة إكرام، وبدأ الحديث بشكل عـام، وجلـس شريف في مواجهتي، وبالقرب منه جلس حلمي، وبعد دقائق معدودة جاء صادق رئيس العاملين، واستأذن من دكتورة إكرام في طلب حلمـي، وبـسرعة وقـف وخرج من دائرة الاجتماع ليستطلع الأمر، وبعد 10 دقائق رأيناه منفعلاً، وهـو يمشي بجانب صادق من ناحية، وفريد من ناحية أخرى في اتجاه غرفة 111.. تأملنا الموقف وتساءلنا جميعا: ماذا حدث؟ ماذا جرى؟ وسأله جلال:

– على فين يا حلمي؟ البلد دي أحسن من غيرها!!

وتوالت التعليقات:

– هو فيه إيه؟

– هو رايح فين؟

– بالسلامة.. والقلب داعيلك.

- لك وَحشة يا حلمى.

- سلم لى على 111.

اختفى حلمى، ونظر إلىّ شريف، فغمزت له، وعلـى الفـور فهـم أن الخطة تمت بنجاح، وبعد انتهاء الاجتماع، استمر التساؤل: ماذا حدث؟ ماذا فعل حلمى؟! وبشكل أو بآخر.. فهم البعض أننى وراء ما حدث، فارتفعـت أسـهمى داخل القسم.

- كُراكس بيمسِّى يا رجالة!!

رجعت إلى القسم، وجلست مع الشباب، ولكننى كنـت قلقـا، وغيـر مستقر؛ طبعًا لأن السفينة ستصل اليوم.. وبعد تناول طعام الغداء، تابعت مباراة كرة قدم، ثم وصلت قائمة بأسماء المجموعة التى ستخرج إلى الاجتماع خـارج المستشفى، وكان شريف من بينهم، وظللت مع جلال فى المستشفى، نتناقش فى الموضوع ونحلم، ولم أستطع إخفاء مخاوفى.. فقلت لجلال:

- أنا خايف السفينة تِغرَق.

- ما تِقلقش.. شريف قُبطان قديم.

جلست لمدة ثلاث ساعات فى انتظار شريف.. وأخيرا عادت المجموعة من الاجتماع الخارجى، ودخل علينا شريف بابتسامة المنتصر فقال له جلال:

- حَمد لله على السلامة يا كابتن.

- باقولَك إنت وهو.. من بعيد.. لِبْعيد وإلاَّ نِتكِشف.

- تمام.. عَنْدك حق.

- طَمِّنى بس يا شريف!!

- يَخَت يا باشا 3 أدوار.

اختفى شريف لدقائق ثم رجع، وظلت عينى تتابع كل خطواته.. ركزت معاه، واستطعت اصطياده بعد عشر دقائق، ومن ورائى جلال، وقال له:

- بأقولَك إيه.. فين؟ خلصنى بسرعة.

- بتاعتي أنا "كَمُرْتها"[1] خلاص، والتانية في علبة السجاير، وبتاعتك يا صلاح جوّه مخدّتك.

طلعت إلى غرفتي في ثانية وبدأت أبحث عن شيء لأشم به، وقطعت علبة السجائر، وعملت منها شفاطة ودخلت الحمام، وفتحت الورقة ووضعت القليل منها على علبة "سي دي" وشديت خطين، وثنيت الورقة، ونزلت إلى المجموعة فورًا؛ لأنه ليس من المطلوب أبدًا اختفائي لفترة طويلة في ظل هذه الظروف، وعلى حد قول شريف:

- نُص دلْوقت، والنص التاني آخر الليل.. لو اتمسكنا، هتبقى ليلة سودا.

ولم يحدث التأثير العالي المطلوب.. لكن للسيجارة طعمًا مختلفًا، كما أن المزاج أيضًا كان في حالة هدوء، وقابلت شريف ومعه رمزي، وشعرت أنهما يتحدثان في موضوع مهم، وسمعت شريف يقول:

- ناخده معانا يا رمزي؟

سألت باندهاش:

- هو إيه ده؟ مش فاهم!! فين يا شريف؟!

- الهروب الكبير.

- لا يا راجل.. معقول؟!

- إحنا بنرسم الخطة دلْوقت.

- مين اللي هيهْرَب؟

- وَطّي صوتك.

- إحنا الأربعة.. أنا وأنت ورمزي وجلال.. جلال قرر يبيع "الكولية" اللي لابسه في رقبته.. تمنه ألفين جنيه على الأقل، ورمزي يقدر يدبّر ألفين هو كمان، وأنا أنزل بيتنا وأتصرف، وإنتَ شوف ممكن تجيب كام.

- مش مشكلة، مُمكن أتصرّف.

---

[1] أخفيتها.

وأخيرا تكلم رمزى:

- بس على شرط، احنا نطلع من هنا على إسكندرية، ونرجع من إسكندرية على سويسرا.. ماشى يا صلاح؟!

- ماشى.. اتفقنا.. بس نهرب إزاى يا شريف؟

- أنا أرتبها.. متقلقش.

قام رمزى وهو يقول:

- بقولك ايه، أنا ها امشى من هنا، قعدتنا كتير مع بعض والهمس والوشوشة تلفت نظرهم، ويركّزوا معانا.

جلست أنا وشريف نتحدث سويا.. فقال:

- معاك حق.. البوذرة حلوة.. بس لو فيه سوستك.

- احكى لى القصة دى مشيت إزاى؟

- أنا اتفقت مع بدر بمبو من يومين، جهز الفلوس، أصل أنا عملتها معاه قبل كده كذا مرة، وهو فى المستشفى، وقابلته النهارده فى الاجتماع.

- بدر بمبو.. غريبة!! دا ندل!! طيب السفينة دخلت إزاى؟ أنا سمعت إنك بتتفتش تفتيش ذاتى يا شريو.

- يا عم دول كفتة.. لزقت التلات ورقات بالسوليتيب فى الحزام، وساعة التفتيش قلعت الحزام لوحده، والبنطلون لوحده.. طبعا فتشونى وماخدوش بالهم من الحزام، وقعدت أغلوش وعملت نفسى بردان، وقلت لهم بسرعة فتشوا هدومى وخلصونى.. الدنيا برد.

- معلم.

- جلال اتأخر.. أنا عارفه.. هيضرب الورقة كلها مرة واحدة، ونتكشف.

- أهو وصل.. ايه يا عم جلال.. إنت فين؟

- كنت مع رمزى، وقال لى على الهروب الكبير.. أنا جاهز يا رجالة.

لم أهتم بالهروب الكبير في تلك اللحظة بقدر اهتمامي بما أريده الآن، فقلت:

- بأقولكم إيه.. البودرة دي حلوة أوي، بس عاوزين العيال دول يناموا علشان نعلّي شوية.

أجابني جلال:

- أصبُر يا صاصو.

واقترح شريف قائلاً:

- إسمع.. ادخل الڤيلا يا جلال، وانزل الدور اللّي تحت، وافصل فيشة الكهرباء هيفتكروا إن الكهرباء انقطعت.. والعيال تُدخل تنام.

نزل جلال.. ونجحت الخطة.. انقطع تيار الكهرباء.. وبعد نصف ساعة تقريبًا، ناموا جميعًا، وصعدنا إلى غرفنا، وكل واحد معه بقية الورقة.. أنجزنا، وبعدها انتقينا.. سهرنا، وضحكنا، ولأن الظلام دامس، فلم تظهر علينا أية علامات مريبة.. في تلك الليلة لم آخذ الدواء، وضعته تحت لساني، وعندما أدار الممرض ظهره، رميته فورًا.. وامتدت السهرة حتى الساعة الخامسة صباحًا، وكنت على ثقة أن هذه السهرة سيكتب عنها تقرير، ولن يكون في صالحنا، بكل تأكيد.

نمت في الساعة الخامسة، وصحوت الساعة العاشرة بعد موعدي المعتاد، وكنت قلقًا من تحليل مفاجيء، فينكشف أمري.. وبسرعة غسلت وجهي، ولبست ملابسي، ونزلت لحضور الاجتماع مع نجلاء، وسمعتها تسأل عني:

- صلاح فين؟ الساعة 10:00، والجروب موجود والاجتماع لازم يبتدي.

- اديوني عشر دقايق بس.

- ميتفعش أكتر من عشر دقايق.. ممنوع حد ينضم للجروب بعد كده.

جريت إلى المطبخ، وطلبت من فوزية مشرفة المطبخ، أن تجهز لي أي ساندوتش آكله بعد الاجتماع.. وطلبت من سعدية شاي بحليب.

لقد تعرفت إلى العاملين في المستشفى جميعًا، فهم على قدر كبير من السماحة والخلق الطيب، وكنت أداعبهم بكلمات لطيفة.. وقبل أن تمر الدقائق العشر، دخلت إلى اجتماع نجلاء، وجلست في مكاني، وبدأت أتأمل وجوه الموجودين، وبشكل ما كنت أشعر بالارتياح بعض الشيء، فقد "ضربت" بالأمس، وفي ذهني خطة هرب مع ثلاثة من العباقرة.. ثلاث كوارث متحركة، وبعد انتهاء الاجتماع جلست مع شريف وجلال نفكر في كيفية تنفيذ الخطة، وفجأة دخل بدر، وهو من الذين تم علاجهم في المستشفى، وهؤلاء من حقهم الزيارة، ودخول القسم بشرط عدم التعاطي، وهم يخضعون للتفتيش الدقيق دون مقدمات أو جدال.. وفجأة تحدث بدر معلنًا نبأ خطيرًا:

- سامح مات.

فقال جلال مندهشًا:

- لا يا راجل!!

وقلت متسائلاً:

- إمتى؟ وإزاي؟

- إمبارح.. لقوه واقع في الحمام.

لقد عرفت سامح عن طريق رامي.. كان معظم الموجودين يعرفون سامح جيدًا، فقد كان في المستشفى نفسه منذ ثلاثة شهور.. وشعر الجميع بالحزن العميق، وكنا نشعر جميعا بالحزن عند رحيل أحدنا، وكأننا في حرب، ومات واحد من زملائنا في المعركة.. بعد الصدمة ساد الوجوم لدقائق، ثم عادت الأمور إلى ما كانت عليه، وخلعنا ثوب الحزن بكلام شريف إلى بدر:

- إحنا بنفكر نهرب، بس مش عارفين إمتى.. جلال قرر يبيع "الكولية" اللي في رقبته.. عليك العربية يا بدر.

- وإيه اللي يخليكم تهربوا؟

- عاوزين نضرب.

- طيب وايه المشكلة؟ اخد "الكوليه" وأجيب لكم البودرة، وأقابلك فى الاجتماع وخلص الموضوع، بلاش هروب ومشاكل يا جلال.

- تصدّق!! فكرة جامدة يا بمبو.. هتعرف تبيعه؟!

- يا سلام!! دا أنا بعت نص دهب أمي.

- دا "كوليه" تقيل ويجيب له مبلغ محترم.. يجيب كام يا بدر؟

- زى مايجيب.. ونقسم الحاجة علينا إحنا الخمسة، وبدل ما تهربوا وتتمسكوا وتروحوا 111 وتتبهدلوا.. ولا ايه رأيك يا صاصو؟!

- لك حق.. نقعد هنا، ونضرب فى هدوء.

اتضحت معالم الخطة.. وبدأت التعليمات من شريف:

- باقول لكم ايه.. تعالوا نحضر اجتماع دكتورة إكرام.. إحنا لازم نلتزم اليومين دول.. وإنت يا بدر خد "الكوليه" من جلال، وامشى على طول علشان تلحق تبيعه، وهات الشغل فى اجتماع بالليل.

وأخذ بدر "الكوليه" من جلال، وترك المستشفى على وعد بلقاء شريف ورمزى فى اجتماع المساء.. وتوجهنا لحضور اجتماع دكتورة إكرام.. وبعد الانتهاء من الاجتماع قابلت دكتور وليد، وسألنى:

- إنت فين يا سيدى؟ جدولك مزحوم جدًا باين عليه!!

- لا والله.. أنا كنت مع دكتورة إكرام، بس أنا عايز منك خدمة.. فى الحقيقة خدمتين.

- خير.. عايز ايه يا ترى؟

- أول حاجة عايز أكلم أمى.

- موافق.. وتانى حاجة؟

- أنزل الاجتماعات.

- أنا كنت مستنى إنك تطلب الطلب ده.

- أصلى مش فاهم ايه الاجتماعات دى، وعايز ابتدى أفهم.

وفي الحقيقة، لم يكن يهمني في كثير أو قليل أن أفهم ماذا يجري في تلك الاجتماعات، ولكن ما يهمني ويشغلني الخروج مع شريف، وأن أحاول مساعدته في دخول السفينة.. الموضوع كبير.. إنها سفينة عملاقة.

- ماعنديش مانع، بس مش النهارده.. أنا لازم آخد رأي باقي الدكاترة.. ده مش قراري لوحدي.

- من حقك.. بسْ أرجوك خلّص لي الموضوع ده بسرعة.

- ربّنا يسهّل.. صادق.. عايز تصريح مُكالمة لصلاح.

وفي ذلك اليوم، فوجئنا بالإفراج عن حلمي، بعد نتائج التحاليل الخاصة به، واتضحت براءته.. أما صديقي شريف فقد استعد للذهاب إلى الاجتماع، وأخذ رمزي معه ليعاونه في تنفيذ خطة دخول السفينة.. بالإضافة إلى ذلك، كان رمزي يحظى باحترام في المستشفى، وعادة يتم تفتيشه بسرعة، ودون تدقيق كبير.. وبعد خروجهما للاجتماع جاءني صادق بالتصريح، للاتصال بالأهل تليفونياً.. حدث هذا ولأول مرة منذ دخولي المستشفى.. ودار حوار تليفوني له ألف معنى، بيني وبين أمي:

- إزيّك يا صلاح؟

- الحمد لله يا ماما.. ولا مُكالمة واحدة تسألي فيها عليّ؟

- أنا رُحت لك المستشفى مع باباك يوم عيد ميلادك، وللأسف ماعرفناش نشوفك.. وَصلك المصحف؟

- آه.. وصلني.. طيّب مش بتكلميني ليه؟

- كلّمتك إمبارح الضهر، وقالولي إنك مع "الجروب" في اجتماع، وكنت لسه حالا هَا اكلّمك.. طمّني عليك.. أخبارك إيه؟

- مفيش أخبار.. خلاص زهقت، وكنت متخانق مع الدكتور علشان سابني في "الديتوكس" 6 أيام.. هاتيجي إمتى؟

- يوم الجمعة إن شاء الله.. ها آجي أنا وأخوك وأختك.. محتاج أي حاجة أجيبها لك معايا؟

- لا.. شكرًا، ومش محتاج غير إني أمشي من هنا بأسرع وقت.. المستشفى طلعت ضايعة، ولمّا تيجي أحكي لك.. رولا عاملة إيه؟

- كويسة الحمد لله.. بتسلّم عليك.. هديت شوية بعد إنت ما دخلت المستشفى.. كلّنا هدينا.

- طبعًا، إنتم بتهدوا وأنا أتحرق.. مش مهم.. يالله يا ماما.. أشوفك يوم الجمعة.

احترقت أعصابي بعد هذه المكالمة.. تخيلت وأحسست إنهم يعيشون حياتهم في هدوء، ونسيوا صلاح.. وهم أكثر راحة من ذي قبل.

جلست مع جلال، وكلانا يشعر بالقلق انتظارًا لعودة شريف ورمزي من الاجتماع، والوقت يمر ببطء شديد.. وأخيرًا، سمعنا أصوات المجموعة عائدة من الاجتماع، ودخل شريف في المقدمة وبجانبه رمزي، والوجوم واضح على وجهيهما، واقترب شريف من جلال قائلاً:

- ماجاش.

- إزاي يعني؟

- اللي حصل.. ماجاش.

- يعني تفتكر ما لحقش؟

- ملحقش إزاي يعني؟ دا بيستعبط.

تدخلت في الحديث قائلاً:

- تصنباية واللا إيه يا شريو؟

- وارد.. ووارد جدًا كمان.. "هارد لك" يا جلال.

- والله!! دا أنا أموته.

إذا فشلت الخطة، ومفيش "ضرب"، بالإضافة إلى أنني أشعر بغيظ بعد المكالمة التليفونية مع أمي، وكذلك الشعور بالملل الشديد من الحياة في هذا المستشفى.. الوقت لا يمر، ونبأ عدم وصول السفينة قاتل.

لم يكن حولنا في تلك الساعة من الليل أحد، وبانفعال شديد توجهت إلى اللوحة التي كتبت عليها مواعيد نجلاء، ومواعيد اجتماعات دكتورة إكرام، والقواعد المطلوب الالتزام بها، وقطعت الورق من على اللوحة ورميته على الأرض، وقلت لشريف:

- أنا لازم أمشي من هنا.. وبِسُرْعة كمان.

- إهدا بَسْ.. بُكْره بدر يظْهر، وكلُّه يبقى زى الفُل.

وأكد جلال:

- أكيد.. بكره هيظْهر يا صلاح.

- لمّا نشوف.. إن غدًا لناظره قريب.

فقال شريف:

- كويِّس إن مفيش حد شافك وانت بتقطّع الجداول دي.. كان زمانك بُكْره مشحون على 111.

فقلت ثائرًا:

- بقولّك إيه.. دي البداية.. أنا نويت أولّعْها.

ظهر صادق فقال له شريف:

- يا صادق.. تعال يا صادق.

- خير يا أستاذ شريف.

- شفت!! حلْمي قطّع جداول القسم.

- لا يا راجل.. حلْمي بَرْضُه؟

- أنا بطالب بتحقيق في المَوْضوع دَه.

- مِيَّك للدكتور وليد.

تركتهم جميعا، وصعدت إلى غرفتي لأنام.. كان يوما سخيفا، وبدأت جديا أفكر في الهروب من المستشفى.. ولكن كيف أقتل الوقت حتى الصباح؟! وبصعوبة بالغة أغمضت عيني لمدة ثلاث ساعات.

استيقظت من النوم، ونزلت بسرعة لأجد حالة من الصخب والغضب والهرج والمرج، والقسم بلا جداول لمواعيد الاجتماعات، أو قواعد اليوم، وقد أعلن شريف اتهامه:

- حلمي هو السبب.. وأطالب بمحاكمته فورا.. عليك اللعنة يا حلمي.

تدخل صادق مدافعا:

- بس يا شريف.. بلاش هزار سخيف.

- إحنا لازم نشكل هيئة محكمة يا جلال.

- رمزي رئيس المحكمة، وصلاح عضو يمين، وأنا عضو شمال، وشريف ممثل الادعاء.. واحد منكم يتطوع ويترافع عن البني ادم ده.. مين المحامي؟ أسامة هو المحامي.

قال شريف متقمصا دور ممثل الادعاء:

- السادة المستشارين.. لا أريد أن أطيل عليكم.. المتهم حلمي "سنلا" اعترف بجريمته الحمقاء، وأطلب من عدالتكم أن نرجمه بقزايز البيرة ليكون عبرة لمن لا يعتبر.

فسأله رمزي بهدوء:

- ليه عملت كده يا ابني؟

بدأ شريف يغني:

- لأ.. يا حلمي لأ.. لأ مالكش حق.

تصفيق من الجميع.. تدخل المحامي أسامة مدافعا عن حلمي:

- المتهم لم يعترف.. المتهم أنكر.. وبعدين فين الشهود يا شريف بيه؟

- القسم كله شاهد، وأطالب بتوقيع أقصى العقوبة على حلمي سنلا.

سألت حلمي:

- عاوزين تعرف ما هي الدوافع وراء ارتكابك مثل هذا العمل المشين؟ إنه لتصرُّف أحمق يا حلمي.

دخل دكتور وليد، ولم يعطه شريف الفرصة للحديث، وقال له:

- تعال يا دكتور.. اتفضل.. إنت برضه مش غريب، والموقف تحت السيطرة، وحصلنا على اعتراف حلمي، والحُكم بَعْدَ المُداولة.

- حلمي مِشْ هو اللّي عمل كده.

فقال أسامة:

- شاهد نفي.. براءة يا حلمي.. أطلع أوضتك.

بينما قال جلال:

- تُقيَّد القضية ضدّ مجهول.. رُفعت الجلسة.

فقال دكتور وليد غاضبًا:

- دا اسمه تَهْريج.. ومَا تفتكروش المَوْضوع هيَعدّي بالسَّاهل.

فأضاف شريف:

- أنا مِش هَا اقبل إنُّه يعدّي.. دَا تَهْريج يا دوك.

- شريف!! وبعدين معاك.

- أنا لو مِنَّك يا دكتور تِقَدِّم إستِقالتك.

وأخيرا وجدت فرصة أغيظ الدكتور فقلت:

- لا.. نِسْحَبْ منه الثِّقَة.

- وَالله.. اقعدوا هرَّجوا، بَسْ أنا فِعْلا مِش هَا أعدِّيها.

قال شريف ضاحكا:

- الموضوع دا محتاج وَقْفة مع النفْس.. صح يا صاصو؟!

- طبعا صح.. ومع الضَمير كمان.

وعاد شريف يغني:

- لأ يا حلمي لأ.. لأ.. مالكش حق.

وتدخل نجلاء، ويستمر شريف في مشاغباته:

- شفت يا نجلاء، جدولك المزة اتقطع.. حلمي قليل الأدب قطعه امبارح بالليل؟!

- فيه نسخة تانية من الجدول، وهتتعلق في خلال 5 دقايق يا دكتور.

- لما أشوف مين هيقطعها!!

شريف بسخرية:

- شهر في 111 يا كلاب.

وبدأ اليوم، وبدأت المجموعات في حضور الاجتماعات، وكنت أواظب على حضور كل الاجتماعات، فهي تساعد على مرور الوقت، بالإضافة إلى أنها فرصة لتعلم خبرات جديدة.. قال دكتور وليد:

- يا صلاح، أنا أخدت لك موافقة لحضور الاجتماعات.. بس عايز أنصحك بحاجة مهمة، المشي ورا شريف مش هينفعك.

رد شريف:

- ومين قال لك إنه ماشي ورايا؟! دا أنا اللي ماشي وراه.

- العفو يا باشا.. العين ماتعلاش على الحاجب.. إنت الكابتن.

- اقعدوا إنتم الاتنين مطوا على بعض.. ولنا قعدة يا شريف مع بعض كمان شوية.

- إنت تأمر.. بس الساعة كام علشان أظبط جدول أعمالي؟!

- ماشي يا حضرة المهم.. الساعة واحدة بعد جروب نجلاء، وقبل جروب دكتورة إكرام.

- اتفقنا.

- صلاح.. موضوع الطبق مش هيعدي..

- وأنا مالي يا دوك.

قال شريف ضاحكاً:

- طبق طبقنا.. ضرب فى طبق طبقكم.. يقدر.....

حضرت اجتماع نجلاء.. وبصراحة، شغلنى طوال الوقت التفكير فى الخـروج لحضور اجتماعات المساء، وأشوف بدر، وتجيب منه البودرة.

جلست مع صديقى شريف وسألته عن اجتماعات "المدمنين المجهولين" وعن الخطوات الاثنتى عشرة.. وكان شريف ملما بجميع المعلومات، لأنه تردد على تلك الاجتماعات كثيرا، وببساطة قال لى:

- المسألة يا عم صلاح مش كيمياء، ولا لوغاريتمات.. الاجتماعات دى بيحضروها ضربية زيى وزيك.. مدمنين بيحاولوا يبطلوا بعد ما خربوا الدنيا زينا بالظبط.. بيجتمعوا مع بعض على طول.. يشاركوا بتجاربهم وخبراتهم بكل صراحة، علشان يفضلوا مبطلين.

- مبطلين إيه بالظبط؟

- كله يا معلم، حشيش، بودرة، برشام، بانجو، أو أى كيف أو حاجة تغطى دماغ، وطبعا بما فيها الخمرة.

- إنت بذمتك يا شريف مصدق الكلام ده؟ تلاقيهم بيعملوا اجتماعات يضربوا فيها.

- لا.. لا يا صلاح.. لما تعرفهم وتشوف تصرفاتهم وأسلوبهم، هتعرف أن الموضوع مش كده خالص.

- يا سلام يا شريو لو فيه اجتماعات تنظم لنا موضوع الضرب.. نروح الاجتماع، ونعرف الشغل السم فين، والدواليب اللى شغالة.

- ونشرة أسبوعية بالدواليب الجديدة، والدولاب اللى بيتقفل يشطبوه من النشرة.. وخريطة للصيدليات المفتوحة جنب كل دولاب.

- واقرب بياع لمون من فضلك يا شريو.

- يا سلام.. تعجبني يا صاصُو.. وأهم حاجة يعرّفونا دواليب في الأمان.. بعيدة عن القلق والحكومة.

- إحْنا باين علينا اتجننّا.

- الظاهر كده.. ما إحنا في مستشفى أمراض نفسية وعقلية.. وخُدوا الحكمة من أفواه المدمنين.

- إنت عارف يا صلاح إني اتمسكت حوالي 5 مرات السنتين اللي فاتو، لولا أبويا عرف يخرّجني منها، وكل مرة بوجع القلب، كان زماني باغنّي الجَنْدول في العَمبوكة.

- جامدة أوي الجندول في العمبوكة!!

- يَعْني بَغَنّي ظلموه.

- ما أنا فاهم.. طيب مين اللّي ماسك موضوع الاجتماعات دا يا شريُو؟ الحكومة ولا المُستَشفى؟

- المستشفى مليهاش دعوة، ومش داخل فيها الحكومة.. إحنا اللّي بندير ها.. وطبعا مالناش في السّياسة، وكل واحد حُر في دينه.

- ومين بيصرف على اللّيلة دي؟

- إحْنا بنصرف على نَفْسنا.. وماشية زَي الفُل.

- ضرّيبة معاهم فلوس؟

- يا ابني دي ناس مبطّلة، وبتشتغل.. إنت لازم تحضر علشان تفهم.

- طيب والإتناشر خَطْوة؟

- دي قصّة طويلة، ابتدت في أمريكا من زمان أوي.. بَرْنامج بسيط.. عبارة عن مجْموعة من المبادئ الرّوحانية.. سهلة جدا، السهل المُمتنع، والمفْروض إنك تمشي عليها كل يوم.. والغريب إنك لو سمعت الكلام.. بتفضل مبطّل.

- إنت عرفت الكلام دا إزاي يا شريف؟

- يا ابني أنا بطلت حوالي 7 شهور، لما أنت كُنت في أمريكا.. كُنت باحضر الاجتماعات كل يوم.. وبعدين أول ما حسّيت إني كويس، بعدت.. انتكست ورجعت أضرب تاني.. الكلام دا هتسمعه كتير في الاجتماعات.. جرّب.. أنا شخصيًا جربت، بس المشكلة إني عايش بدماغي اللّي ممكن تودّيني في داهية.

- الموضوع دا غريب أوي.

- ولا غريب ولا حاجة.. عاوز صبر، والاجتماعات عاوزة استمرارية.. لعلمك البرنامج دا مُنتشر في العالم كله، ومهوّاش سر.

- تصدّق يا شريف، اللي عمل البرنامج ضريب عبقري.

- أصلا اللي عملوه مُدمنين الخمرة.. قعدوا مع بعض سنة 1939.. بعد ما بطلوا فترة، وكتبوا خبراتهم، علشان اللي عندهم نفس المشكلة يستفيدوا.. وبعد كده البرنامج والإتناشر خطوة اتطبقوا على كل حاجة بتدمن: المخدرات، الجنس، القمار، حتى الأكل.. فهمت؟!

- لعلمك أخويا كريم في يوم من الأيام قال لي: إنت عارف يا صلاح.. إنت مالكش غير حل واحد.. اجتماعات المدمنين المجهولين وبرنامج الإتناشر خطوة.. ومفهمتش هو بيقول إيه.

- روح وشوف يا صلاح.. كأنك داخل السينما.. بس من غير تذكرة.. ومفيش حد هيقول لك إنت جاي ليه؟ لو عجبك الفيلم اقعد وشارك، ولو مش عاجبك خُد بعضك واخرج، وبرضه مفيش حد هيقول لك إنت ماشي ليه.

- ماشي.. أدينا هنروح.. وبالمرة نظبط السفينة.

- لعلمك يا صاصو.. الجو مكهرب أوي، بس إنت مش حاسس.. الفترة اللي فاتت كذا مركب غرقت.. وهما أمنية حياتهم يعرفوا مين والسكة منين.

34

الاجتماع الأول

وجاء موعد الخروج إلى الاجتماع.. أخيرًا سوف أخرج من المستشفى.. ولأول مرة أرى "أسفلت" الشارع منذ عشرة أيام.. خرجنا وكنا 6 أشخاص، وركبنا سيارة "ميكروباص".. ياه!! أول مرة أرى فيها الشارع منذ زمن بعيد.. وإلى أين؟ إلى مصر الجديدة مع شريف ورمزى.. وفى الطريق سألت شريف:

- تفتكر بدر هييجى؟

- ده لو مجاش، يبقى صحيح ابن "......".

وكان عندى شعور أنه لن يأتى.

وصلنا إلى مصر الجديدة!! أين نحن؟ دخلنا مدرسة.

وصلنا حوالى الساعة السابعة إلا ربع، ومشيت مع الشباب ودخلنا إلى غرفة رسم، ووجدنا أربعة شبان فى مثل عمرى.. ربما أكبر منى بسنتين أو ثلاث على الأكثر.. وفى الغرفة مائدة كبيرة، وحولها الكراسى، وأحد الشباب يوزع الكتب، ويضعها على المائدة، وآخر يفتح "ملفًا" أمامه، ويقلب صفحاته وبعض الأوراق الأخرى. خرج بعض الشباب من الغرفة، ولا أدرى إلى أين، وعادوا ومعهم أكواب بلاستك بها "نسكافيه"، وسأل أحدهم عمن يريد "نسكافيه"؟

فقال أحدهم:

- آه ياريت.

فسأله الشاب:

- سكرك إيه؟

- معلقتين.

وتجمع كل ثلاثة من الشباب معًا، وتكلموا سويا، وكنت الغريب الذى لا يفهم شيئا مما يدور فى المكان، وجاءنى شريف الذى يعرف كل هؤلاء الشباب، وتحدث معهم أحاديث مختلفة سريعة، وأخيرا قال لى:

– تصور.. بدر مجاش يا صاصتو!!

– هو دا المكان يا شريف؟!

– آه.. المفروض نقابله هنا.. احتمال ييجى، بس بعد شوية.

وفى الساعة السابعة تماما، فوجئت بأحدهم، واسمه خالد يتكلم:

– أهلا بكم فى الاجتماع المغلق "للمدمنين المجهولين" بمدرسة "........"، يوم "......" الموافق "....".. أنا خالد.. مدمن.. باطلب منكم دقيقة سكون، نفتكر كنا فين، وبقينا فين، والمدمنين اللى لسه بيعانوا بره.

ساد الصمت والسكون فى القاعة.. فقال خالد:

– فيه شوية توجيهات، أحب أقولها قبل ما نبدأ الاجتماع.. اجتماعاتنا لا تدور فى صورة مناقشة.. محدش بيعلق على كلام حد.. بنركز على التشابهات اللى بينا، ولا نركز على الاختلافات.. وياريت اللى معاه مخدرات يسيبها بره الأوضة، محافظة على جو التعافى.. وأى حد واخد مخدرات أهلا بيه، بس بنطلب منه إنه ما يشاركش فى الاجتماع.. وبنقترح عليه إنه يحضر الاجتماعات وهو مش تحت تأثير أى مخدر.. واللى بتشوفه هنا وبتسمعه هنا، بتسيبه هنا..

بالنسبة لى كان كلامه غريبا.. لم أفهم منه شيئا، وكان كل تركيزى فى بدر الذى لم يحضر، وهل سيأتى أم لا.. وعندما انتهى خالد من كلامه، طلب من الجميع القراءة من الكتب التى وضعها أمامنا على المائدة:

– من فضلك يا سليم، تقرا لنا "من هو المدمن"؟

قرأ سليم من الكتاب:

"من هو المدمن؟"*:

معظمنا لا يحتاج للتفكير مرتين في هذا السؤال. نحن نعلم! فقد تمركزت حياتنا وتفكيرنا بالكامل في المخدرات بشكل أو بآخر- الحصول عليها وتعاطيها وإيجاد الطرق والوسائل للحصول على المزيد. لقد عشنا لنتعاطى وتعاطينا لكي نعيش. بمنتهى البساطة، المدمن هو "رجل أو امرأة" تسيطر المخدّرات على حياته. نحن أناس في قبضة مرض مستمر ومتفاقم نهاياته دائما هي نفسها: السجون، المصحات، الموت...

ولم أفهم شيئًا من هذه الفقرة.. ثم طلب خالد من توفيق أن يبدأ قراءة فقرة أخرى، ومن بعده شادي، وفي النهاية طلب من أمجد القراءة.. وبعد قليل دخل اثنان من الشباب، وكانت الابتسامة الكبيرة هي التحية للشاب الذي يجلس على رأس المائدة، وفيما يبدو أنه المعلّم والرئيس الفعلي لهذا "الفيلم"، وهذه الاجتماعات.. وبعد انتهاء الأربعة من القراءة، طلب من شريف قراءة الخطوات الـ 12"*.. ثم قرأ خالد الـ 12" تقليدًا..

تكلم خالد مرة أخرى وقال:

- فيه أي أخبار تخص المجموعة؟

- الاجتماعات زادت يوم كمان.. وقدرنا نقنع إدارة المدرسة إننا نأجّر القاعة يوم كمان، يعني الاجتماعات: السبت والحد، والاتنين والأربع والخميس.. وأي

---

* كتيب رقم 1، زمالة المدمنين المجهولين، من، ماذا، كيف ولماذا. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2004.

* ملحق رقم 1.

* ملحق رقم 2.

واحد بيحضر 90 اجتماع فى 90 يوم ممكن يحضر التلات والجمعة فى وسط البلد فى مجموعة "مدمنى الخمر مجهولى الهوية".

– شكرًا يا شادى.. التقرير المالى؟

– فيه معانا 140 جنيه، ومحتاجين نشد حيلنا شوية فى التقليد السابع: "يجب على كل مجموعة من زمالة المدمنين المجهولين أن تعتمد على نفسها بالكامل وأن ترفض المساهمات الخارجية".

– فيه أى حد بيحضَر الاجتماع لأول مرة؟

واتجهت كل الأنظار نحوى.. رفعت يدى وقلت بصوت ضعيف:

– أنا.

فسألنى خالد:

– ممكن تعرّفنا بنفسك؟

– صلاح.

– أهلاً بيك.. "العضو الجديد، هو أهم شخص فى أى اجتماع لأننا نستطيع الحفاظ بما لدينا فقط بتقديمه للآخرين"*. نقترح عليك إنك تحضر 90 اجتماعا فى 90 يوما.. وتاخد مشرف يساعدك فى الخطوات.. الكتاب والكتيبات موجودة مع السكرتير، ولو عندك أى سؤال ممكن تسأل مدير الاجتماع أو السكرتير بعد الاجتماع.

واستمر فى حديثه، الذى لم أفهم منه شيئًا، قائلاً:

– فيه حَد بيحتفِل بتاريخ تبْطيل؟

ولم يرد أحد.. فاستمر فى حديثه قائلا:

– أنا خالد.. مُدْمن.. والنهارده باحتفل بالتَبْطيل لمدة 6 شهور.

---

* كتيب رقم 1، زمالة المدمنين المجهولين. من، ماذا، كيف ولماذا. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2004.

صفق له الجميع تصفيقًا حارًا، وصفافير، وتحيات كثيرة بأشكال مختلفة، وبدأ يتكلم من جديد، فقاطعته قائلاً:

- هُوَ فيه حد بيبطَّل 6 شهور؟

نظر إليَّ كل الموجودين في دهشة، ووضع أمجد الذي يجلس أمامي إصبعه على شفتيه، بما يعني أن أسكت ولا أتكلم، ولم يعلق خالد نهائيًا، وكأنني لم أنطق بكلمة واحدة.

- أنا خالد.. مدمن.. أنا مش مصدق إن أنا فعلاً بقالي 6 شهور مبطَّل.. ولا كنت أحلم بيهم.. كنت فين والنهارده أنا فين........

وظل خالد يحكي عن أيام الضرْب، وأيام التعافي.. ولم أفهم لماذا يحكي لنا كل هذا الكلام!! وفي النهاية شكر خالد كلاً من شادي، ومشرفه توفيق، وسليم، وأمجد.. شكر كل الناس الذين في القاعة، وكان شديد التأثر أثناء حديثه، وبعد أن انتهى من كلمته، صفَّق له الحاضرون تصفيقًا مدويًا.. فقال:

- شكرًا يا جماعة لأنكم أدّيتوني فرْصة أشارك..

كانت الاجتماعات لها جدول، وتدور حول مشاركة الخطوات، أو مشاركة التقاليد، أو الاستماع إلى متحدث، أو اختيار موضوع..

- النهارْده الاربع وحسب الجدول، اجتماع النهارْده: اختيار موْضوع.. في أي حَد عندُه اقتراح؟ تقترح إيه يا سليم؟

- الأمانة، التفتح الذهني، والنية.

- حد عنده اقتراح تاني؟

أدهشني هذا الأسلوب في الحديث، وكأنني أستمع إلى لغة غير مفهومة..

ولم يقترح أحد موْضوعًا آخر.. فقال خالد:

- بما أن الموضوع اختيارك يا سليم.. مُمكن تشاركنا؟!

- أنا سليم.. مدمن.. الحمد لله أنا هنا، ومبطل النهارده.. وألف مبروك يا خالد.. فعلاً تستحق الـ 6 شهور دول.. عقبال عمرك كله.. الثلاث كلمات: الأمانة، التفتح الذهني، والنية بالنسبة لي هما ملخص البرنامج.. الأمانة دي كانت أبعد حاجة عني.. كنت حريف كدب..

وحكي سليم عن نفسه، وأنه لم يكن أمينا في كل تصرفاته، وتكلم كثيرا، ولم أفهم نصف كلامه، وبعد أن أنهى كلمته قال:

- شكرا لأنكم سمعتوني.

فقال خالد:

- توفيق.. تحب تشاركنا؟

- أنا توفيق.. مدمن.. الأول أحب أبارك لخالد على 6 شهور تبطيل... مبروك، ألف مبروك وعقبال السنة إن شاء الله.. وعقبال عمرك كله.

أدهشني كثيرا أن كلاً منهم يقول: إنه مدمن.. لماذا؟

وبالإضافة إلى ذلك، ليس بينهم أحد يبدو عليه الإدمان نهائيًا.. كل منهم شكله أنيق، وهادئ، وصحي.. هل هذا فيلم؟ هل هذه تمثيلية؟ هل هؤلاء الناس يمثلون أدوارا محددة؟ وخلال حديث توفيق، دخل شخص إلى الغرفة، وجلس ولم يتكلم، وبعد أن انتهى توفيق من حديثه، قال خالد:

- أمجد.. ممكن تشاركنا؟

- أنا مدمن، واسمي أمجد.. وأنا فعلاً من أسعد الناس النهارده بخالد.. كان حلم ودلوقت حقيقة.. أنا فاكر خالد أول مادخل القاعة هنا كان عامل إزاي..

وظل يتحدث عن خالد، ثم وجه إليه كلامه قائلاً:

- وبالمناسبة دي، أنا أحب أهديه الميدالية اللي أنا أخدتها، وأنا مبطل لمدة 6 شهور.

وقام أمجد، وسلم على خالد، وأعطى له الميدالية.. أخذها خالد، وتأملها، ثم أعطاها لمن يجلس بجانبه، وبدأت تنتقل من واحد إلى الآخر، وعادت

مرة أخرى إلى خالد، الذى أعطانى ورقة مكتوبًا عليها: "لليوم فقط" ووجّه إلــىّ الكلام قائلا:

- العُضو الجديد.. مُمكِن تقرأ لنا: "لليوم فقط"[*].

وكانت هذه أول مرة أقول فيها: صلاح.. مُدْمِن.. قلتها بتردد وبصعوبة بالغة.

- صلاح.. مُدْمِن.

فرَدّ الجميع:

- أهْلًا صلاح.

- لليوم فقط.

قل لنفسك:

لليوم فقط سيتركز تفكيرى على التعافى، وأن أعــيش وأســتمتع بالحياة دون تعاطى المخدرات.

لليوم فقط سيكون لدى ثقة بعضو فى زمالة المدمنين المجهــولين، عضو يؤمن بى ويود مساعدتى فى التعافى.

لليوم فقط سيكون لدى برنــامج وســأحاول الالتــزام بــه قــدر استطاعتى.

لليوم فقط ومن خلال برنامج زمالة المدمنين المجهولين، سأحاول أن أجد لنفسى رؤية أفضل لحياتى.

لليوم فقط لن أخاف وستتركز أفكارى على زملائى الجدد أولئــك الذين لا يتعاطون المخدرات ووجدوا أسلوبًا جديدًا للحياة. وطالما أتبع هذا السبيل..

رد الجميع فى لحظة:

فليس لدى ما أخشاه.

---

[*] كتيب رقم 8، زمالة المدمنين المجهولين. لليوم فقط. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2006.

لم أفهم كلمة مما أقرأه؛ فالخوف والرهبة من الموقف سيطرا على كيانى كله.. وانتهى الاجتماع، وقف الجميع ووضع كل منا يده فى يد زميله الذى جلس بجانبه.. أمسكها بقوة وقالوا معًا:

- "اللهم امنحنى السكينة لأتقبل الأشياء التى لا أستطيع تغييرها.. والشجاعة لتغيير الأشياء التى أستطيع تغييرها.. والحكمة لمعرفة الفرق بينهما".

إنه الدعاء الذى رأيته وقرأته عشرات المرات، ولم أفهمه.

خرجت من القاعة، ومشيت مع شريف إلى "الميكروباص"، وكلانا يندب حظه بسبب بدر، الذى استولى على "كوليه" جلال وهرب به.. رجعنا إلى المستشفى، ولم أكن مقتنعًا بموضوع الاجتماعات، ولم أفهم منها شيئًا، وجلست مع جلال ورمزى نفكر فى المشكلة، وبدر الذى اختفى تمامًا، ونحاول أن نجد حلاً.

فى ذلك اليوم، فقدت أعصابى، ودون أن يرانى أحد قطعت سلك التليفون عن القسم كله، وصعدت إلى الغرفة بعد أن تناولت الدواء، ودخلت إلى السرير.. كنت فى قمة الغضب من بدر، وكان الله فى عونك يا جلال.

استيقظت فى موعدى حوالى الساعة الثامنة، وبعد أن تناولت الإفطار أخذت الدواء، وجلست أقرأ الصحف، وحضرت الاجتماع مع نجلاء، ولم يكن يختلف عن اليوم السابق، وبعدها اجتماع دكتورة إكرام، ثم جلست مع نجلاء، نتحدث حول العلاقات العاطفية، ومريم، ورانda، وهالة.. وجاءنى دكتور وليد وسألنى عن الاجتماع المسائى:

- إيه رأيك فى اجتماع إمبارح؟

- مش عارف.. مش فاهم منه أى حاجة.. هو موضوع غريب شوية.

- هتحضر مرة تانية؟!

- آه.. ليه لأ.. جايز أفهم.

لم يكن هناك أى شىء يعكر الجو، إلا عندما عرفت أن شريف سيذهب غدا إلى منزله مع مبروك الممرض، لإحضار النقود المطلوبة لدفع حساب المستشفى.. فقلت له:

– باقولك إيه.. هتعرف تجيب بودرة معاك؟

– طبعًا.. ما تقلقش.. ها اخلص من مبروك، وارجع بالليل لوحدى.

كان جلال فى شدة الغضب فقال:

– باقولك إيه يا شريف، شوف بدر فين؟ ولو لقيته فهمه إن أنا ها اسجنه أول ما اخرج من هنا.

– عمرى ما هلاقيه.. ده باع "الكوليه" واشترى وطار.. كان ليك حق يا صلاح.

– دا حرامى ونذل قديم.

– على العموم، عندى أمل ييجى اجتماع النهارده.

حضرت الاجتماع فى المساء، وقابلت الشخصيات نفسها، بالإضافة إلى شاب جديد، وبدأ الاجتماع وكان يديره أمجد.. وفهمت أن هناك شخصا مختلفا يدير الاجتماع كل يوم، فهو ليس مقصورا على شخصية محددة..

بدأ أمجد الاجتماع بنفس الأسلوب: دقيقة سكون، التنويهات، أخبار المجموعة، المقدمة والقراءات.. وفجأة دخل بدر، وجلس فى جانب من الغرفة، ولم أرفع عينى من عليه، وهكذا ظل شريف يراقبه.. كان من الواضح إنه ضارب، والجرعة أيضا كبيرة؛ لأنه لم يستطع أن يفتح عينيه إلا قليلا طوال الاجتماع، وأذهلنى منظره.. وبدأ أمجد فى المشاركة قائلاً:

– أنا لما أشوف حد ضارب فى الأوضة معانا باستفيد جدًا.. وبحمد ربنا على النعمة اللى أنا فيها.

لم أستوعب ما قاله أمجد.. كان حديثه غريبا بالنسبة لى.

وذهبت بتفكيرى بعيدا.. تصورت أن بـدر جـاء ليعطينـا البـودرة، وانتظرت انتهاء الاجتماع بفارغ الصبْر لنأخذها منه.. وبعد انتهاء الاجتماع سأله شريف، بينما وقفت أنا بعيدًا أراقب الموقف، وبعد دقائق عاد شريف وقال:

- نصَّاب.. قال إيه.. "الكوليه" ضاع منه!!

- يعنى إيه ضاع منه؟

رجعنا من الاجتماع، وكنا فى حالة انهيار؛ لأن بعد ظهوره المفـاجئ شعرنا بالأمل الكبير فى الحصول على البودرة، وعندما عرف جلال بما حدث، أقسم أنه سينتقم منه فى أول فرصة.

استيقظت فى الصباح مستبشرًا خيرًا؛ فاليوم هـو يـوم الزيـارات.. وسوف تأتى ماما، ومعها كريم ورولا، وبدأت أخطط لهذا اللقاء، وأفكـر فيمـا أطلبه منهم.. وبعد تناول الإفطار، قرأت الصحف، وجلست مع شريف نتحـدث معًا عن خطته فى الخروج والذهاب إلى أسرته.. كنت أحسده لأنـه سـيخرج، وأثق أنه "سيضرب".. خرج شريف مع مبروك صباحًا على أن يعود مساء.

تلقيت اتصالا هاتفيًا يبلغنى بوصول ماما ورولا، وهما فى انتظارى فى غرفة الاستقبال.. وعرفت أن أمير زميلى فى الغرفة استقبل أهله، الذين جـاءوا لزيارته.. وتعرفت إلى والديه وأخته أميرة.. أحببت هذه العائلة.

يوم الجمعة، تبدو المستشفى مثل النـادى.. زيـارات كثيـرة وهـدايا وتحركات فى كل مكان.

استقبلتنى أمى وأيضا رولا بابتسامة عريضة، فقد كان واضحا أننى فى حالة صحية أفضل، وزاد وزنى حوالى 4 كيلو.. وهذه الزيـادة سـاهمت فـى إظهار الفارق بين ما كنت عليه، وشكلى العام فى ذلك اليوم، وأخذتنى أمى بين ذراعيها قائلة:

- وَحَشْتِنا أوى.. احكى لنا أخبارك إيه؟

- مفيش.. مستشفى ضايعة.. ولا فيه اهتمام، ولا نظام، والمخدرات جوه في القسم، والدكاترة فاشلين.. وأيام وتعدى..

وبكل حنان قالت رولا:

- بس الحمد لله.. شكلك كويس، وصحتك اتحسنت.. إنت ماشفتش شكلك يوم ما دخلت المستشفى كان عامل إزاى؟!

- ما أنا قاعد مش باعمل أى حاجة غير إنى باكل وخلاص.. باقولك إيه يا ماما، أنا عايز عربية جديدة، وعايز أول ما أخرج شوية فلوس، علشان اشترى لبس جديد.

- عربية إيه.. ولبس إيه؟ إنت مفيش فايدة فيك؟

- مفيش فايدة فيّ؟ خلاص، بلاش، مش عايز حاجة.. باقولكم إيه، أنا ها ادخل القسم دلوقت، وابقوا سلمولى على كريم بيه.. طبعا مش فاضى ييجى يزور أخوه فى المستشفى.. باى باى يا رولا.

قامت توأمى رولا بتهدئة الموقف كعادتها دائمًا، وقالت:

- اقعد بس يا صلاح.. إحنا ملحقناش نقعد معاك.

- ما أنت شايفة يا رولا.. أنا مش عاجب ماما، وكل حاجة لأ.. زهقت من الذل ده.

كنت فى قمة الغضب.. فسألت:

- يعنى بعد كل ده، برضه مش عاجبكم؟! يعنى المفروض أعمل إيه، أموت نفسى علشان ترتاحوا؟

ردت أمى بهدوء:

- صلاح.. احمد ربنا.. رامى صاحبك اتمسك من أسبوع.. وتهمته إتجار مش تعاطى.. والده اتوفى بعد ما عرف بـ 48 ساعة.

لم أرد.. أصبت بحالة من الذهول.. تركتهم من غير سلام ولا كلام. رامى انتهى..

عدت إلى قسم الإدمان وأنا في قمة الحزن.. أين أنت الآن يا رامي؟!! وماذا تفعل؟!! والدك، سيادة اللواء توفي -الله يرحمه-.. لقد أحببت هذا الأب من كل قلبي.

إنه خبر مؤلم وصدمة رهيبة!!

أما مفاجأة اليوم، إن تامر جاء إلى المستشفى.. جاء للمتابعة مع الدكاترة والأخصائيين.. المهم كان تامر يعرف تفاصيل القبض على رامي.. جلسنا معا، وحكى لي ما حدث في هذا اليوم المشئوم؛ فقد تم القبض على رامي ومعه 12 جراما.. قلب والد رامي -سيادة اللواء- لم يستطع تحمل هذه الصدمة.. مع أن هذا الرجل خاض حروب 56، 67، 73، وعاد بطلا.. لكن هذه الحرب كانت أكثر شراسة، ولم يستطع أن ينجو منها..

استعدنا ذكرياتنا التي مررنا بها، ونضحك على بعض الأحداث، ونكاد نبكي على بعضها الآخر، ووجهت إليه سؤالا صريحا:

- باقولك إيه يا تامر.. بتضرب؟ ماتقولش إنك ما بتضربش؟!

- باضرب.. بس على خفيف.

- أنا عايز بودرة.

- ياريت يا صاصو.

- طيب اسمع، أنا رايح اجتماع بكره.. هات لي تذكرة هناك.

- هتتكشف يا معلم.

- يا عم ما تقلقش.. علشان خاطري يا تامر.

- ماشي.. بس اسمع لو اتمسكت وقلت إن أنا.. عمري ما هاعرفك تاني.

- عيب يا أخي.. هو أنا عيل صغير.

- خلاص.. بكره أجيب لك تذكرة.. بس مفيش بني آدم يعرف.

- بموت فيك.. طول عمرك راجل.. تعرف لو مجتش.. هايجيلي سكتة قلبية.

- ليه؟ هو إنت فاكرني بدر؟! نصبت عليكم وخلع "بالكوليه".

- شُفْت؟! دا مفيش أندل من كدا في الدنيا.

تركني تامر وأنا أجلس على قمة عرش السعادة؛ لأني أثق في وعده، وأنه رجل، وسينفذ وعده، وسوف يأتيني في الغد بالبودرة.. ومر اليوم.. أحزنني كثيرا خبر القبض على رامي، وآلمني نبأ وفاة والده، ولم يغضبني غير أمي، التي لا يعجبها أي شيء.

استيقظت في الصباح، وجدت الدنيا مقلوبة رأسا على عقب.. ماذا حدث؟ ونزلت مسرعا من غرفتي.. قابلني جلال.. سألته:

- فيه إيه؟ حصل إيه؟

- شريف خرّبها إمبارح.

- إيه اللّي حصل؟

- كان مبروك معاه في الزمالك، وهما راجعين على هنا حاول شريف يخلع.. مبروك الأهبل صرخ وقال للناس إنه هربان من مستشفى نفسية.

- لا يا راجل.. وبعدين؟

- طبعا شريف قال للناس إن مبروك حرامي.. وفي ثانية حبايب شريف اتلموا.. ومبروك أخد علقة موت.. من ثواني كان هنا، ووشه متشلفط.. الدكاترة قالوا له: روح بيتكم وخُدْ أجازة أسبوع.

- ما هوَّ اللّي غبي، فيه حد يقف قُدام القطْر!! وبعدين؟

- شريف رجع بالليل بعد ما ضَرَب، ودكتور سمير شحنه على 111.

- لا يا راجل.. هو مين اللي كان معاه الفلوس؟

- الفلوس كانت مع مبروك العبيط، والمفروض لما شريف حاول يفلت منه، يسيبُه ويمشي، بس هو عمل سبع البُرمبه، واتنفخ.. وإنت فاهم شريف، خلا الزمالك كلها تضربه.. وفي الآخر خد منه الفلوس كمان.. وراح ضرب ورجع الساعة 3:00 الصبح خربان.

- وإيه اللّي هيحصل دلوقت؟

- وَلا حاجة.. إنْسَى شريف.. مش أقل من شهْرين فى 111.

- يا نَهار أبيض؟ بجَد؟

- طبعا.. أصلّك لو شفت مبْروك، تعرف أنها كانت فعلاً علْقة موت.

- وشريف؟!

- إنْساه.. إنْساه.

كنت فى منتهى الحزن على شريف.. كل الخطط دُمِّرت.

بعد هذا الحوار.. لم أفكر إلا فى اللقاء مع تامر خلال اجتماع المساء.. وهناك وجدته.. وعندما رآنى، غمز لى بعينه، وفهمت إنه أحْضر لى المطلوب، وكان المهم كيف آخذ الورقة دون أن يلحظ أحد.. وكان المعروف لدى الجميع، أن إعطاء المخدرات لأحد فى القاعة، هو الشيء الوحيد الذى يتسبب فى منعه من حضور الاجتماعات نهائيًا.. لماذا؟

أولا: للحفاظ على أجواء التعافى.. ثانيا: وصول هذا النبأ لإدارة المدرسة، بشكل أو بآخر، يعنى إلغاء الاجتماعات فورًا، والطرد من المدرسة.. وبالتالى يصبح وضع هذه المجموعة فى خطر.. وفهمت أن هذه الاجتماعات بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت.

اتجهنا معًا إلى الحمام، وفى لمح البصر أخذت منه الورقة، وعدت سريعًا إلى القاعة.. وقلت لنفسى:

- تمام يا صاصو.. مية مية.

وبعد حضورى ثلاثة اجتماعات، ازداد التقارب بينى وبين المجموعة كلها.. وأكثرهم من الشباب المرح، البشوش، والودود. والحقيقة بعد سماعى لكلماتهم الصادقة والنابعة من القلب، بدأت أعجب بهم وبصراحتهم، وشردت قليلا، وفاجأنى أمجد بقوله:

- صلاح.. ممكن تشاركنا؟

ولا أخفى أننى ذعرت، ولكننى تماسكت وقلت:

– صلاح.. مدمن.. أنا فى المستشفى من حوالى أسبوعين. زهقت ومليت.. ومش عارف أنا قاعد هناك باعمل إيه؟! ولا أنا عارف أنا قاعد هنا باعمل إيه.. أنا عايز أبطّل بس متهيألى إنى مش هاعرف أبطّل من كتّر ما حاولت وفشلت.. ومش قادر اتخيل إنّى ممكن أبطل.. البودرة دمّرت حياتى.. ولا عارف أعيش بيها، ولا عارف أعيش من غيرها، وبعدين أنا باحب المخدرات أوى.. أول ما دخلت الأوضة هنا، ماكنتش فاهم حاجة، ولا مصدّق أى حاجة، والإحساس اللّى جوّايا دلوقت إن أنا لازم أسمع وأبطّل أتكلّم.. أنا طول عمرى باتكلّم.. وطول عمرى فاهم إنّى فاهم، وصايع.. بس الحقيقة أنا طلعت ضايع.

كنت أمينًا فى كل كلمة قلتها، وأحسست من ابتسامات من فى القاعة أنهم يصدقوننى، ويفهمون جيدا ما قلته.. وبعد أن انتهيت من مشاركتى، بدأت أستمع إلى مشاركات الآخرين.. قال سليم:

– ياه! كلام صلاح فكّرنى بنفسى أول ما دخلت الأوضة، وأنا باسمعه حاسس إن ده الكلام اللى أنا قلته أول ما حضرت الاجتماعات.. يا نهار أبيض على كمية اللّخبطة اللّى كانت جوّايا.. ياه على قلّة الثقة فى كل الناس، وفى كل حاجة حواليّا.. أنا برضه كنت فاكر نفسى أكتر واحد صايع فى الدنيا.. أصيّع من كل الناس، والحقيقة إن أنا طلعت أخيب واحد فى الدنيا.. كان لازم أشيل القطن من ودنى، وأسكت.. كان لازم أدّى لنفسى الفرصة واسمع، وبعدين ليه حرية الاختيار.. لو ما عجبنيش التبطيل.. المخدرات موجودة.. وممكن أرجع أضرب فى أى وقت.

صدقت كل كلمة قالها سليم.. وفهمت كل كلمة قالها.. كلامه كلّه كان سهلا.. واضحا وصريحا.. وفى نهاية الاجتماع جاءنى سليم، أمجد، شادى، توفيق.. الأربعة سلّموا علىّ، وكل منهم قال لى كلمتين:

سليم : شكرا على مشاركتك.. وعلى أمانتك.

شادى : واظب على حضور الاجتماعات.

أمجد : إحنا محتاجين ناس تِبَطَّل معانا.

توفيق : أنت عارف إنهم بيقولوا إن أنا وأنت شبَه بَعْض.

الكلام كان بسيطاً وجميلاً، وشعرت أنه ملىء بالمشاعر الطيبة والمحبة، كما أحسست أيضا باهتمام كبير من هؤلاء الشباب، وتمنيت أكون أكثر صراحة، وأقول لهم بكل صدق، ما همست به لنفسى:

- مش عارف إنتم مبسوطين منى على إيه؟! دا أنا فى جيبى بودْرة وراجع بيها على المستشفى علشان أضْرَب.

طبعا لم أستطع أن أقول أى شيء.. لم أكن شجاعا بالقدر الكافى الذى يجعلنى صريحا وصادقا لأقول ما أهمس به لنفسى.. كما أننى كنت أريد ضرب البودرة التى فى جيبى، وركبت "الميكروباص"، وطوال الطريق إلى المستشفى ظللت أفكر فى هؤلاء الشباب، وفى كلامهم، وأقوالهم الصريحة والجميلة، وفى ضحكاتهم القلبية، وأدهشنى حقاً أنهم سعداء.. وفى حالة انسجام مع بعضهم البعض، ومع أنفسهم أيضا.. كيف يحدث هذا دون مخدرات؟ كيف يضحكون؟

وصلت إلى المستشفى، وكنت قد ألصقت الورقة خلف الساعة.. لصقتها دون أن يلحظ أحد، ودخلت المستشفى وطبعا تم التفتيش بدقة، ولكن كان من المستحيل أن يخطر ببال أحد أن فى ظهر الساعة ورقة بودرة.

صعدت إلى الحمام، وفتحت الورقة، وضربْت نصفها.. ولم أستمتع، أو بمعنى أدق لم أشعر "بالكيف"، فنزلت لأجلس مع المجموعة، ووجدتهم يتكلمون فى الضرْب، وقصة شريف، ومن يريد الاتصال بأهله، ومن يريد الخروج فى أجازة، بينما أنا فى عالم آخر.

بعد ساعة واحدة، صعدت إلى غرفتى وضربت بقية الورقة، وهذه المرة لم أنزل إلى المجموعة.. هذه المرة جلست وحدى فى الغرفة على السرير،

ولا أفكر إلاّ في الكلمات التي قالها لي: سليم، وأمجد، وتوفيق، وشادي.. ودار في أعماقي حديث طويل، وأسئلة كثيرة.. سألت نفسي:

- يا ترى يا صلاح إنتَ فعلاً عايز تبطّل؟

- حتى لو عايز أبطّل.. ما أنا مش عارف أبطّل!! وإزاى أبطل؟

- طيّب الناس دُول قالوا لي كدا ليه؟

- وهل هم فعلاً مبطّلين؟

- دول أكيد ما عملوش اللّي أنا عملته.. ضربوا شوية أيام أو شهور كدا وخلاص!!

- لا.. ده كلام خالد مرعب.. وأمجد كمان واضح.. همَّا كمان خربوها.

دخل أمير إلى الغرفة، وكنت في صراع نفسي صعب.. "ضارب" وغير مستمتع بالمرة.. أجلس على السرير وضربات القلب سريعة، والنهجان غير عادي، كأنني جريت لمدة ساعة.. أنا في غاية التعب، ولا أعرف لهذا التعب سببًا.. وسألني أمير:

- إنتَ فين يا عم؟! الكل بيسأل عنك.

- موجود.. بس زهقان شوية.

- ليه؟ فيه إيه؟

- مفيش.. مش عايز أضرب تاني يا أمير.

- ومين سمعك.. وأنا كمان مش عايز أضرب.

- اجتماع النهارده كان حلو أوى.

- كل الاجتماعات حلوة.. بس مين اللّي يركّز؟!

- أنا كنت مركّز أوى يا أمير.

- حسيت بكده.. كلامك كان طالع من جُوّه.. من قلبك.

- أنا ناوى أبطّل يا أمير.

- ياريت.. وأنا كمان ناوى أبطل.. بس مش ها أقدر أبطّل الحشيش.

- مَيِنفَعْش.. قالوا كل أنواع المخدرات.
- إلاَّ الحشيش.. ده مش مُخدِّر.. ده شيكولاته.. إكسير الحياة.
- أنت حر.. مَعَلِش يا أمير سيبنى أنام، وإنزل إنتَ أقعُد معاهم.

تركنى أمير، لكننى لم أنم.. لم أستطع، وظللت مستيقظًا في السرير.. أنا ضاربٌ ورقة كاملة لكني متعب، ولم أشعر أنني "متكيف"، وكأنني مُخدَّر، لكن في حالة وعي.. وجاء أمير بعد ساعة ليجدني، كما كنت، جالسا في السرير، وطبعًا هذا الوضع جعله يسألني:

- إيه يا عم؟ فيه إيه؟ أنت مش طبيعى يا صاصو.
- مفيش يا أمير.. مخنوق شوية.. هو فيه حدّ تحت؟
- لا.. مفيش.. الكل دخل ينام.
- طَيِّب أنا ها انْزِل أقعُد تحت شوية.. نام إنتَ.. نُصّ ساعة واطلَع.

نزلت، ولم أجد أحدا، الكل دخل لينام، وأنا لم أنم.. أشعر أننى مخنوق، وأحتاج إلى أن أشم هواء يُنعشُنى.

جلست وحدى، شربت سيجارتين أو ثلاثة، وسألت نفسى:

- تفتكر يا صلاح ممكن يكون النهارده آخر يوم تضرب فيه في حياتك كلها؟ تفتكر؟؟
- يا ترى إنت عايز تبطل؟ النية موجودة؟
- طيب ينفع تدى لنفسك الفرصة وتسمع؟
- بس فين الأمانة؟

ودارت بداخلى آلاف الأسئلة التى لم أجد لها أى إجابة.

استيقظت مبكرًا رغم أننى نمت الساعة الرابعة، وقابلت نجلاء، وسألتنى:

- إزيَّك يا صلاح؟ أخبارك إيه؟
- مش عارف يا نجلاء.. مش عارف!!

- مالك؟ فيه إيه؟

- مفيش حاجة.. زهقان شوية.

- طيّب تعال علشان "الجروب".. الاجتماع هيبتدى.

جلست مع المجموعة، ولم أشارك بأى حديث أو أى كلمة، وقلت:

- آسف.. إعفونى أنا النهارده، مش عايز أتكلم.

بعد انتهاء الاجتماع ناداني دكتور وليد، وسألنى:

- نجلاء قالت لى إنك زهقان.. فيه حاجة؟

- لا.. مفيش.. بس أنا تعبت من قصة الضرّب دى.

- أخبار الاجتماعات إيه؟

- كويّسه.

- هتروح النهارده؟!

- آه طبعا عايز أروح.

- وإيه أخبار "الجروبات" مع نجلاء والدكتورة إكرام؟

- كويسة.. بس زهقت منها.

- بالمناسبة.. بكره دكتورة عالية هترجع تانى.

- مين دكتورة عالية؟ وهترجع منين؟

- إنت ما تعرفهاش.. عالية دكتورة كانت بتشتغل هنا.. بس سافرت أمريكا تعمل ماجستير ولسه راجعة من كام يوم.. أنا عارف إنك هاتستريح لها.

- حلوة؟

- آه حلوة.. هو إنت مفيش فايدة فيك؟ أنا ها أمشى، وأشوفك بكره.. عايز حاجة؟

- شكرًا يا دكتور.

وبعد أن تناولت وجبة الغداء، جلست في الهواء، وفي هدوء.. ولكنني لا أعرف ماذا يحيرني بهذا الشكل؟ ماذا حدث لي؟ جاء جلال، وجلس بجواري، ثم قال:

- إنتَ متغيَّر شوية، ومن ساعة صاحبك ما راح 111، وإنت مش في المُود.

- القسم مالوش طعم من غيرُه.. مفيش أخبار عنه.

- انساه.

جاء موعد التحرك للذهاب إلى الاجتماع.

وكنت أول من استعد، وظللت واقفًا في انتظار "الميكروباص".. وصلنا إلى قاعة الاجتماعات، هم نفس الناس، شباب يضحكون.. ينظمون ويعيدون ترتيب الغرفة، ويتحدثون معًا، في ود وهدوء.. سلمت عليهم، وبدأ الاجتماع.. وكانت جميع الاجتماعات ذات أسلوب واحد في البداية والنهاية إلى أن تبدأ المشاركات، وبدأها خالد قائلاً:

- من ساعة ما قلت خالد مدمن، وفص المشكلة إتحلت.. أخيرًا اعترفت إن أنا مدمن.. يعني لو مش أنا المدمن.. يبقى مين المدمن؟! أنا كان لازم أعترف إن أنا عاجز قدام المخدرات، يا إمّا أبقى مجنون!! هو أنا اللي عملته كان شوية!! الموضوع في البداية كان لطيف، بنلف سيجارتين، وبنشرب كاسين.. نخرج ونسافر.. كله ماشي زي الفل.. لغاية ما نزل عليّ الوحش.. هاجمني وبدأ يكسّر فيّ.. الأول كنت باكابر.. إيه المشكلة؟ ما أنا لو عايز أبطل.. هابطل.. بس الحقيقة لمّا جيت أبطل.. ما عرفتش أبطل.. عملت كل حاجة ممكن تتعمل علشان أبطل.. اتحبست في البيت.. سافرت.. دخلت المستشفى.. وبرضه مفيش فايدة.. كام مرة قلت هي دي آخر مرة آخد فيها مخدرات.. كام مرة؟! وكام مرة مسكت محفظة أبويا وسرقت اللي جواها.. وكام مرة سرقت من شنطة ودولاب أمي؟ وكام مرة نصبت على أصحابي؟ أنا مافهمتش يعني إيه عاجز

قدام المخدرات غير لما جيت هنا، ولقيت ناس بتحكى نفس الكلام، بتحكى كل اللى أنا عملته بالظبط.. ومش مكسوفين.

ظل خالد يتكلم، وأنا أسمع.. كأنه يتحدث عنى.. كأنه يقول كل ما حدث لى.. والسؤال: كيف عرف هذا الكلام؟ بالتأكيد مرَّ به وعاشه.. هذا الرجل لا يُمثّل.. هذا الرجل يعرف ويفهم جيدًا ما معنى المخدِّرات.. إنه بالتأكيد ضربب مُحترف.. أردت أن أتكلم وأشارك، لكنى خفت.. شعرت أننى أخطأت خطأً كبيرًا بالأمس.. أنا كسرت مبادئ، وتقاليد هذه المجموعة.. هذه الاجتماعات الغرض منها التوقُّف عن التعاطى، والناس لا تجتمع فى هذا المكان لتُحضر معها المخدِّرات، ولتتبادل المخدرات.. وفجأة سألنى شادى:

- صلاح.. تحب تشاركنا؟

- صلاح.. مدمن.. هو خالد كان بيتكلم عن نفسه، والاَّ بيتكلم عنى.. لو أنا عايز أحكى اللى حصل لى، يبقى هو دا اللى أنا هاقوله.. أنا عايز أتكلم بصراحة، بس أنا خايف.. مش قادر أتكلم.. شكرًا.

وبعد انتهاء الاجتماع، جاءوا للتحية والسلام، وكل منهم يقول لى كلمتين.. ربما للتشجيع، لكنها كلمات صادقة.. هكذا أحسست.. قال أمجد:

- أنا كمان كنت خايف أوّل ما دخلت الأوضة.. دا طبيعى.

بينما قال توفيق:

- أنا مبسوط أوى من مشاركتك، وكل مشاركاتك.. فعلاً باحب أسمعك.

أما خالد فقال:

- يعنى أنا ها اجيب من برّه؟ كلّنا بنجرى فى ملعب واحد يا معلم.

وأخيرا قال شادى:

- إوعى ماتجيش بكره يا صلاح.

- ليه؟ فيه ايه بكره؟

- لما تيجى ها تعرف.

ظل كلام كل منهم يدوى فى أذنى، ويسيطر علـــى تفكيـــرى.. أمجـــد يطمئننى.. توفيق سعيد بمشاركتى.. يا سلام!! هل أنا أجيد الحديث فعـــلاً؟ أمـــا خالد فهو جروءه أو بدقة أكثر"صايع".. ونسخة أخرى من بهـــاء.. أيـــن أنـــتَ يا بهاء؟؟ أين أنتَ يا رامي؟؟ ويا ترى ماذا يحدث غدا يا شادى؟ ما هذا التشويق لحضور اجتماع الغد؟

عدت إلى المستشفى، يغمرنى إحساس بالهدوء النفسى أو فلنقل الراحة، أو ربما السكينة.. مع هذا، كأن فوق صدرى حجراً.. فموضوع المخدِّرات التى أخذتها من تامر فى غرفة الاجتماعات كان يسيطر علـــى تفكيـــرى ويتعبنـــى.. رجعت من الاجتماع، وجاء موعد تناول الدواء بعد العشاء، فأعلنت بوضوح:

- مش عايز أدوية يا صادق.

- يعنى إيه؟

- يعنى مش عايز.. خلِّينى صاحى النهارده يا صادق.

- بس إحنا لازم نبلَّغ الدكتور.

- بلَّغه.. وبكره أنا هاقول له مش عايز أدوية تانى.

حقيقة الأمر.. أن هذه الأدوية تضايقنى، نعم هى تساعدنى على النوم، ولكنها أحيانًا تجعلنى أكثر توترًا وتجعل أعصابى مشدودة.. فكرة تناول الكثيـــر من المهدئات تشعرنى بأننى مجنون رسمى.

35

رسالة الفجر

لم أنم طوال الليل.. لم تغفل عيني ثانية واحدة.. مرت الساعة الثانية، ثم الثالثة.. والآن هي الرابعة، ولا أنام.. بل وقفت أمام الشباك، أراجع كل ما حدث في حياتي.. مرّ في عقلي شريط الضرّاب كله منذ بدايته.. وتذكرت الاجتماعات المسائية، ومشاركات الشباب، وما قاله أمجد، وسليم، وشادي، وخالد، وتوفيق، ومرة واحدة وجدتني أكلم نفسي وأقول:

– يارب.. يارب.. يارب ساعدني.

أول مرة أقولها.. لأول مرة أقولها من قلبي.. أول مرة أعنيها بصدق.. أول مرة أحاول جادًا أن أضع كل ثقتي في ربنا.. تخيلت طوال عمري أن الله يعاقبني.. فقط يعاقبني.. ومرة ثانية قلت:

– يارب.. ساعدني يارب.

ومرة ثالثة قلت:

– يارب.. ساعدني يارب.

وإذا بي أسمع الأذان:

– الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله.

إنه: أذان الفجر..

ياه!! أول مرة أسمع أذان الفجر بهذا الجمال.. أول مرة أركّز في كل كلمة تقال.. خيل إلي أنه ليس بأذان الفجر.. وتخيلت أن الله "سبحانه وتعالى" يردّ عليّ: أنا موجود.

الأذان يؤذن.. ودموعي تنزل من عيني أنهارا.. شلالات دموع.. بكاء هستيريا.

انتهى الأذان، وسمعت إقامة الصلاة.

ومن غير شعور، دخلت الحمام، توضأت، وصليت ركعتين.. ودخلـت السرير، بشخصيتين.. أولاهما: شخص هادئ.. وثانيتهما.. أنه فى الوقت نفسه بداخلى شخص آخر فى أعماقه بركان يكاد أن ينفجر.

ما هذا الذى يحدث بداخلى؟ لست أدرى، ولم أفهم شيئاً ممـا يحـدث لى فى تلك اللحظات.. نمت الساعة 6:00، وصحوت الـساعة 6:50، عينـاى لم تغمضا أكثر من 50 دقيقة فقط.

الأسبوع الثالث

نزلت من الغرفة، ووقفت أقرأ الجدول، وكأننى أقرأ هذا الجدول لأول مرة:

دكتورة عالية الساعة 10:00 إلى الساعة 11:30.

دكتورة إكرام الساعة 12:30 إلى الساعة 2:00.

جلست أمام اللافتة المكتوب عليها: "اللهم امنحنى السكينة لأتقبل الأشياء التى لا أستطيع تغييرها.. والشجاعة لتغيير الأشياء التـى أسـتطيع تغييرهـا.. والحكمة لمعرفة الفرق بينهما".. ولم أشعر بالضيق أو "الزُرفزة" منها، كما كنـت أشعر من قبل، بالعكس.. قرأت الدعاء حوالى 10 مرات فى محاولة للفهم.. إنه الدعاء الذى يقولونه فى نهاية الاجتماعات المسائية.. أنا أريد أن أفهـم سـره.. لا.. بل أنا أريد أن أفهم أشياء كثيرة.. أريد أن أفهم أى شىء وكل شىء.

بعد أن تناولت الإفطار، شربت الشاى، وقرأت الـصحف.. الـساعة تقترب من العاشرة.. اجتماع دكتورة عالية، فهى تنتظر فى الحديقة.. خرجـت إلى الحديقة مع المجموعة التى تنوى حضور الاجتماع، وتجولنا فـى المكـان، ولم أعرف سر إحساسى بأن كل شىء هنا أراه لأول مرة.. جلست دكتورة عالية

في الحديقة، وقد اختفى وجهها بين صفحات الكتاب الذى تقرأه.. جلسنا جميعـا، ورفعت وجهها، وبدأت تتأمل ماذا يفعل كل منا.

ياه!! يا الله.. إنها جميلة جداً.. وجهها ملائكى.. وأيضا من الواضح أنها راقية.. أنيقة، وكأنها خارجة من "الكتالوج".. إنها عائدة لتوها من أمريكـا، وبالتأكيد عملت "شوبنج"، لا أول له ولا آخر، "وكسرت" الدنيا.. حقها.. وجـاء مكانى فى نصف الدائرة، فى مواجهتها مباشرة.. ثم بدأت فى الحديث:

- صباح الخير.. أنا عالية.

- صباح النور.

- النهارده أول يوم ليّ هنا.. بعد غياب سنة كاملة.. المكان واحشنى.. وإنتـم كمان وحشتونى أوى.. أنا راجعة وجوّايا حاجات كتيـرة أوى نفسـى أنفـذها معاكم.. فمن فضلكم عاوزاكم تساعدونى.

وطلبت عالية من كل منا أن يقول ما يفكر فيه، ويخطر فى باله، وبـدأ أمير:

- بقالى هنا أكتر من شهرين، وزهقت خلاص.. عايز أمشى من هنا.

- أنا أسامه.. ونفسى أضرب يا عالية.

- شكرا يا أسامه على صراحتك.

وجاء الدور عليّ.. وكنت قد ركزت معها، وشعرت أنى أعرفها، فهى شديدة الشبه بزميلة الطفولة أيام المدرسة، وكانت معى فى الفصل نفسه، فسألتها:

- عندك أخت؟

ردت بثقة:

- إنت عندك أخ.

- إنتِ أخت ليلى؟

- إنتَ أخو كريم.

- ممكن تعرفنى بنفسك؟

- أنا صلاح.. ميتطَل النهارده، وبقالى فى المستشفى أسبوعين.

- ممكن أتكلِم مَعاك بعد الاجتماع؟

- طبعًا ممكن.

إذًا، أنا أعرف أختها، ليس هذا فقط، بل هى أيضًا عرفت أخى.. ودار فى ذهنى تساؤل سريع:

- مش عارف أنبسط والّا أزعل؟! دلوقت هى هتروح تقول لأختها إنها قابلت صلاح اللّى كان معاها فى الفصل، وبيتعالج فى المستشفى.

الوقت مرّ سريعا، والحقيقة، كان الاجتماع هذه المرة مختلفا.. لقد تكلمنا فى أشياء مختلفة وموضوعات مشوقة، وبأسلوب هادىء مريح وراق، والفارق كبير بينه وبين الاجتماعات الأخرى.. والآن فقط، فهمت لماذا قال لى دكتور وليد إننى سوف أشعر بالراحة خلال اجتماعاتها.. انتهى الاجتماع، وكنت فى منتهى السعادة لأننى سأتكلم معها.. لا أدرى بدقة لماذا كنت أشعر بهذه السعادة.

وبعد انصراف المجموعة مشينا فى الحديقة، وجلسنا فى جانب منها.. يا إلهى.. ما هذا الهدوء الذى يميز وجهها؟! وقالت:

- أوّل حاجة.. أنا أحب أطمنك إن مفيش حد هيعرف إنى قابلتك هنا.. مش إنتم بتقولوا فى الاجتماعات: اللّى نشوفه هنا، ويتقال هنا، يفضل هنا؟

أعجبنى كلامها.. شعرت بالأمان لهذا المدخل.. فقلت:

- فعلا.. بنقول كده فى الاجتماعات.

- أختك ليلى.. كانت معايا فى الفصل، 6 أو 7 سنين.. لسّه جميلة زى ما هى؟ كانت أجمل بنات المدرسة.

- ليلى لسّه حلوة.. اتجوزت، وعندها بنت كمان.

- إنت شبهها.. نسخة تانية.. وتعرفى كريم منين؟

- كريم ونادر أخويا بيشتغلوا مع بعض.

- ياه! الدنيا صغيرة.

- إنتَ كمان تشبه أخوك.. بس إنتَ شكلك أشقَى.

- أنا؟ من أولها كدا هتظلميني؟!

- النهارده.. أول يوم ليّ في المستشفى بعد غياب سنة كاملة.. وفيه حاجات كتيرة لازم أعملها، بسْ بكره فضّي نفسك، عايزين نقعُد مع بعض وقت أطول.

- ها أشوف الجدول بتاعي أخباره إيه.. ومايقلقيش.. هاتصرّف.

- طيب كويس.. هاشوفك بُكره بعد الاجتماع.

- كان نفسي أقول لك سلّميلي على ليلى.. بس للأسف مش هينفع.

- إنتَ هاتشوفها وتسلم عليها بنفسك إن شاء الله.. عاوزاك تحضر كل الاجتماعات.. وتشارك.. اتفقنا؟!

- اتفقنا.

ياااه، كأنني أعرفها منذ 10 سنين.

لقد كسرت حواجز الدنيا كلها.. كم استرحت لها، وشعرت أنني فعلاً أريد التحدث معها، واستمع لها، وأتناقش معها، وأسألها، وأحكي إليها.. وثقت فيها ثقة عمياء منذ الدقائق الأولى.

اعتـــراف

عدت إلى القسم، وإلى حد ما أعصابي أكثر هدوءًا.. ثم حضرت اجتماع دكتورة إكرام في موعده بدقة، وبعد تناول طعام الغداء، بدأت ألف وأدور حول نفسي.. إن عقارب الساعة تتحرك ببطء شديد جدا، أيتها الساعة تحركي.. إنني في شوق لحضور اجتماع مساء اليوم.

في ذلك اليوم واجهت موقفا غريبا، لا أحد يريد من المستشفى حضور الاجتماع، أنا الوحيد الذي تحمس لحضوره.. وذهبت إلى هناك وحدي، وفي المرات السابقة كانت المجموعة لا تقل عن ثلاثة أو أربعة، وتصل أحيانا إلى خمسة.

دخلت إلى مقر الاجتماع ولاحظت أن عدد الناس في القاعة أكثر من المرات السابقة، وأنني أرى بعضهم لأول مرة.. وقد أدار خالد هذا الاجتماع.. وقد كان هناك جو من السعادة ولم أعرف له سببا.. وبدأ الاجتماع بالمقدمة والتنويهات والقراءة، إلى أن طلب مني خالد قراءة: "لماذا نحن هنا"*:

وبدأت القراءة:

> قبل المجيء إلى زمالة المدمنين المجهولين لم يكن باستطاعتنا أن ندير حياتنا. ولم يكن باستطاعتنا أن نستمتع بالحياة مثلما يفعل الآخرون. كنا بحاجة إلى شيء مختلف واعتقدنا بأننا قد وجدناه في المخدرات. وضعنا تعاطيها فوق مصلحة عائلاتنا، وزوجاتنا، وأزواجنا وأطفالنا. كنا مضطرين للحصول على المخدرات بأي

* كتيب رقم 1، زمالة المدمنين المجهولين، من، ماذا، كيف ولماذا. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2004.

ثمن. تسببنا فى أذى عظيم لكثير من الناس، ولكن أذينا أنفسنا أكثر من أى شخص آخر. ومن خلال عدم قدرتنا على تقبل مسئولياتنا الشخصية، كنا فى الواقع نخلق المشكلات لأنفسنا. وبدا أننا غير قادرين على مواجهة الحياة بشروطها.

أدرك معظمنا أننا بإدماننا كنا ننتحر ببطء، ولكن الإدمان عدو ماكر للحياة لدرجة أننا فقدنا القوة على فعل أى شيء حياله. انتهى الأمر بالكثير منا إلى السجن، أو طلب المساعدة من خلال الطب، والدين والعلاج النفسى. ولكن أى من هذه الطرق لم تكن كافية لمساعدتنا. كان مرضنا دائمًا يطفو على السطح مرة أخرى، أو يستمر فى التفاقم حتى اليأس، فطلبنا المساعدة من بعضنا البعض فى زمالة المدمنين المجهولين.

بعد المجئ إلى زمالة المدمنين المجهولين، أدركنا بأننا أناس مرضى. إننا نعانى من مرض ليس له علاج معروف، ولكن مع ذلك يمكن محاصرته عند نقطة ما، وعندئذ يكون التعافى ممكنًا.

الجديد أننى بدأت أركز فى الاجتماع.. وفى كل ما يقال.. إلى أن جاء موعد الاحتفالات بمناسبات التبطيل، فقال خالد:

- إحنا النهارده بنحتفل بشادى.. "سنة تبطيل" يا شادى.. ممكن تشاركنا..

ارتفع تصفيق كل الموجودين.. تحيات وتهليلات من الجميع.. وفى تلك اللحظة فقط، عرفت لماذا كان شادى حريصًا على حضورى هذا الاجتماع، لاحتفل معه بسنة "تبطيل".

- أنا شادى.. مُدمن.. ياه.. سنة عدت!! الحمد لله.. مش ممكن كنت أتخيل إن دا يحصل أبدًا.. أنا كنت راجل متواضع، نفسى أبطَّل شوية، مش سنة..

أنا مش عارف أتكلم.. حاسس أني متلخبط.. من الصبح بدرى كلمنى خالد، توفيق، حاتم و.. و.. و.. مفيش حد ما كلمنيش، مفيش حد نسى.. مفيش حد كسل.. شكرا على مكالماتكم.. اللى حصل معايا، زى اللى حصل مع كل الناس، جيت الاجتماعات تعبان أوى.. ونفسى أبطل، وفى رأى ان 50% من المشكلة اتحلت، لما اعترفت إن أنا عندى مشكلة، واديت لنفسى الفرصة، واديت للناس الفرصة إنها تساعدنى.. فى البداية، طلبوا منى حاجات بسيطة، وعمرى ما كنت اتخيل إن الحاجات البسيطة دى، كانت تخلينى أبطل.. قالوا لى: ده برنامج بسيط لناس معقدة.. وخد لك مشرف، اقرا فى الكتاب كل يوم، وأول ما تصحى من النوم، كلم فى التليفون واحد أو اتنين على الأقل، ويكونوا مبطلين بقالهم أكتر من 6 شهور.. تحضر 90 اجتماع فى 90 يوم.. أنا حضرت أكتر من 330 اجتماع فى السنة دى.. كلمات: الامانة، التفتح الذهنى، النية.. الكلام كان بيخضنى أول ما دخلت الأوضة، والسبب.. إنى أنا راجل عمرى ما كنت أمين، وكنت معرفش غير الكدب، وما اعرفش يعنى إيه تفتح ذهنى من أساسه.. والنية موجودة، بس يا ترى أنا صادق فيها والا لأ؟ اللى يشوفنى النهارده ويسمعنى وأنا باتكلم، يقول إنى دخلت الأوضة دى راكب حصان أبيض، بس الحقيقة أنا دخلت خلصان، ومنتهى.. والناس ساعدتنى، ووقفت جنبى.. أنا مش عايز أطول عليكم، بس أنا فعلا النهارده، ممكن أكون أسعد إنسان فى الدنيا.. أشكركم تانى، واعتذر لو كنت طولت عليكم.

كان التصفيق مدويا، وكان كل فرد فى الغرفة سعيدا فعلا.. لم أكن أريد أن ينتهى شادى من حديثه.. كان كلامه جميلا.. بسيطا، ومؤثرا.. واستكمل خالد إدارة الاجتماع، وقال:

- شكرا يا شادى على مشاركتك.. أنا فاكر لما دخلت الأوضة هنا، كان شادى مبطل من 6 شهور، وكان نفسى أبقى زيه، والنهارده هو مبطل بقاله سنة، وأنا برضه نفسى أبقى زيه.. مبروك يا شادى..

مُمكن تِشاركنا يا أمجد؟

- مش مبْروك لشادى بس، مبْروك علينا كلّنا.. شادى من أكْتــر النـــاس اللّـــى اتْعلّمت منْها، ومش فارقة أبدًا مين مبطّل قبل مين.. كلّنا بنْساعد بعْــض، وفـــى الأوّل والآخر هدفنا واحد.. إننا نفضل كلنا مبطلين.

عاد الحديث إلى خالد:

- من فَضْلك يا توفيق سلّم شادى الميدالية بتاعتُه.

الكل يصفق.. الكل سعيد..الكل مبتسم.. الكل يحتفل.

وأنا أشعر أنّني صغير جدًا وسط هؤلاء الشباب.. وفجأة قال خالد:

- صلاح.. ممكن تشاركنا.

وبصعوبة بدأت الحديث:

- مبْروك يا شادى.. ألف مبْروك.. أنا مش قادر اتخيل إنى أكون زيك.. مـــن إمبارح وأنا مش عارف أتكلّم، فيه حجر واقف على قلبى.. أنا فى الاجتماعـــات سمعت إن اللّى بيتقال هنا.. بيفْضل هنا.. وأنا شايل هم كبير وتعبْـــت.. ومـــش خايف ولازم أتكلم.. أنا من يومين جيت الأوضة هنـــا، والخـــدت مـــن واحـــد مخدرات، ولمّا رجعت المستشفى ضربت هناك.. أنا اسِـــف.. أنـــا غلطـــان.. أنا مش عايز أضرب تانى.. مشْ عايز أضرب تانى.. هتسامْحونى إن أنا عملت كده؟ هتسامحونى؟ من فضلكم ساعدونى.. أنا خلاص تعبْت.. تعبْت.

وبدأت أبكي، أبكي.. وأضرب بيدى على المائدة، قائلاً:

- أنا عايز أبقى زيكم.. عايز أضحك.. عايز أحُط راسى على المخدة أنام.. عايز أرفع راسى وأنا ماشى.. مش عايز أى حاجة تانية.. عايز أبطّل.. عايز أبطّل.

ولم استكمل كلامى من شدة البكاء.

وجاءنى أمجد، وأعطانى ميدالية، كتب عليها 90 x 90، وصفّق لى كل الناس بالحرارة نفسها التى صفقوا بها لصاحب الاحتفالية شادى..

ووجه لي خالد الكلام:

- شكرًا على مشاركتك يا صلاح.. باشكرك على أمانتك.. واطمئنك إن اللي بيتقال هنا بيفضل هنا.. وننهي الاجتماع بدعاء السكينة.

وبعد انتهاء الاجتماع.. سلم الكل على شادي، وعليّ أيضا.. وكأنه عيد ميلادنا معًا، بينما اهتم خالد، وسليم وتوفيق بإحضار التورتة لإطفاء شمعة شادي.. وفي تلك اللحظة جاءني شاب أنيق، ولأول مرة أراه، وقال لي:

- أنا حاتم.. ازيك يا صلاح؟

- الحمد لله.

- ممكن أكون المشرف بتاعك وأساعدك؟

- بجد؟! ياريت.

- أول سؤال عندي: دماغك ودتك ووصلتك فين؟

- يعني إيه؟!

- يعني إنت فين دلوقت؟

- في المستشفى.

- محظوظ.. كان ممكن تبقى في مكان أوحش من كده بكتير.. ممكن تريّح دماغك شوية.. أنا بقترح عليك إنك تسمع الكلام، وشوف هتروح فين المرة دي.. امسك كتاب "المدمنين المجهولين"، واقرا المقدمة.. المقدمة مهمة.. وكتبت لك نمرة تليفوني على أول ورقة.. تكلمني كل يوم الساعة 5:00 من المستشفى.. أنا هنا اكلم دكتور وليد الصبّح، وأبلغه إن أنا المشرف بتاعك.. يالله.. ها اشوفك بكره.. وما تنساش، أول ما تصحى من النوم، تنزل من على السرير، وتنزل على ركبتك، وتدعي ربنا:

"يارب ساعدني أفضل مبطّل مخدرات النهارده"..

دعاء بسيط وسهل.. ونفع معانا.

بعد هذا الحوار مع حاتم، جاءني كل الناس.. سلموا عليّ بحرارة، وأحضان وقبلات، وكأنني وسط أصدقاء أعرفهم من سنين.. يا سلام!!
لماذا يتعاطف معي كل هؤلاء؟ وكل منهم قال لي كلمتين ودودتين:

أمجد : لِعلْمك، أنا كُنت زيّك كده.. كنت محتاج آخر ضرْباية علشان أفوء.. وفَرقِت معايا.. يظْهر إنتَ كَمان كُنت مِحتَاجْها.

سليم : إفْضل معانا.. زى ما إنتَ محتَاجنا.. إحنا كمان مِحتَاجينك.

توفيق : مِش باقُولَك أنا بَاحِب مُشاركاتك.

شادى : عيد ميلادنا سوا أنا وأنت.. إحنا الاتنين مبطَّلِين النَّهارده.

خالد : بَاقُولَك إيه.. عُمْرَك شفت لَعِيبة بتجرى وَرا الكورة بعد ما الحكم صَفَّر؟!! الماتش خلص يا باشا.

ولم أكن أتصور أبدا، أن يكون هذا هو رد فعل هؤلاء الناس.. لقد تخيلت غضبة هائلة من الجميع.. توقعت أن يهاجمني أحدهم.. تصورت أنهم لن يكلموني.. وتصورت أنهم قد يطردونني من الغرفة، لكن ما حدث هو العكس تماما.. أعتقد هذا هو التفتح الذهني.

عاد لي حاتم مرة أخرى وقال:

– فيه خصوصية فى كل حاجة بنتكلم فيها، بس فيه أوقات ممكن أحكى لمشرفي.. علشان يساعدني فى توجيهك.. إذا إنت وافقت.

– مفيش مشكلة خالص يا حاتم.

بهرني هذا الموقف.. وعدت إلى المستشفى أسعد إنسان فى الدنيا.. ربما أسعد من شادى شخصيًا..

أمسكت الكتاب فى يدى، وكأنني أمسك كنزا.. دخلت إلى الغرفة مسرعا.. فتحت الكتاب وبدأت القراءة كما قال حاتم.. قرأت المقدمة.. وبعد المقدمة.. ورفضت للمرة الثانية أن أتناول الدواء فى تلك الليلة.. طبعًا لم يكن

هذا سهلاً، بل متعبا، لأننى لا أنام.. على الأكثر ساعة واحدة طوال اليوم.. أنام الساعة 6:00.. وأصحو الساعة 7:00.

طلبت تصريحا بمكالمة تليفونية.. أردت أن أكلم حاتم كما اتفقنا.. وأردت أن أكلم أمي.. وليتني أستطيع الاتصال بأختي رولا.. لكنني في المستشفى، وقد عاد زوجها من مقر الشركة في البحر الأحمر، وقد يرد على عامل التليفون "السويتش"، ولا يجوز أن يعرف فجأة أنني في مستشفى، وبهذا الأسلوب.

بعد أن تناولت الإفطار، جلست مع المجموعة، ولأول مرة أتكلم عن التّبطيل، وعندما تكلم أحدهم عن الضرب، تركت الجلسة قائلا:

- مين يلعب بينج بونج معَايا.. أمير؟!

- ياللا يا باشا.. أنا معَاك.

كنت في حالة معنوية مدهشة، مشيت في المستشفى أضحك.. وتمنيت أن يمر الوقت سريعا.. لأحضر اجتماع دكتورة عالية، ورأيتها قادمة، وأسرعت إليها قائلاً:

- صباح الخير يا عالية.

- صباح الخير يا صلاح.. شكلك مبسوط النهارده.

- مبسوط أوى.. حاسس إنّى إتولدْت من جديد.

بدأ الاجتماع في موعده بدقة.. وكنت إيجابيًا.. وبعد الاجتماع جلست مع الدكتورة عالية في ركن من أركان الحديقة.. جلسة فيها إحساس كبير بالحرية، وبدأت الحوار قائلة:

- ياللا.. تحب نبتدى من فين.. أو من إمتى؟

- نبتدى من إمبارح يا عالية.

- موافقة.. نبتدى من إمبارح.

- أنا أخدت مُشرف إمبارح.. هو نفسه اللى إختارنى.

- بجد؟ هايل.. مين؟

- حاتم.. بقولك إيه يا عالية.. فيه حاجة مش ها استريح غير لو قلتهالك.. بس خلي بالك، أنا مش ناوي أقولها لأي حد في المستشفى غيرك.

- دي ثقة كبيرة.

- أنا يوم السبت اللي فات دخلت مخدرات في المستشفى.

- وبعدين؟

- أخدت، ومفيش حد عرف.. وحكيت الحكاية دي في اجتماع إمبارح.

- هايل.. دي أحسن حاجة إنت عملتها يا صلاح.

- كل الناس تقبلت الموضوع عكس ما كنت متخيل.

- لأنهم بصوا على الموضوع بطريقة إيجابية.

- كنت قلقان إن الخبر يتسرب في المستشفى، بس الحمد لله ما حصلش.. أنا مش قلقان منك، وكأنك مش من دكاترة المستشفى.

- أنا من دكاترة المستشفى، بس ماتقلقش مني.. كده أنت مبطل من كام يوم؟

- دا تاني يوم.. أنا مبطل من أول يوم إنت رجعت فيه المستشفى.

تحدثنا معا.. ساعة وربما أكثر، وكان أجمل حديث صريح في الدنيا.. بلا.. غمرني إحساس بالارتياح لا مثيل له.. وثقتي فيها بلا حدود.. والغريب في الأمر أنني لم أشعر بالخجل أثناء حديثي معها بما فعلت في الماضي.. كأنني أتكلم مع نفسي.. والأجمل والأروع أنني مهما حكيت لها من مصائب قمت بها، لم تقل لي أبدا:

- إنت إزاي عملت كده؟! أو كدا غلط.. أو حتى: كدا عيب.

لم أكن أخشى على صورتي أمامها.. طوال عمري كنت أهتم كثيرا بالشكل، وبالمظهر، ودائما أسأل نفسي:

- يا ترى هو أو هي أو هم، ماذا قالوا عني؟! أما مع عالية، فهذه القضية المظهرية لم تكن واردة على الإطلاق.. تقبلت مني كل شيء.. وتقبلتني كما

أنا.. إنها تقدر الفكاهة، وتفهم النكتة بسرعة.. تضحك وتداعب، واحترمتُ الخط الأحمر الذى بينى وبينها.. لم أفكر، ولم أحاول أن أتخطاه أبدًا..

كانت تقضى معى ساعتين، وتمر كأنها دقائق، وكان يضايقنى كثيرًا أنها ستغادر المستشفى، أو ستجلس مع مدمن آخر.. كنت أنانيًا فى هذا الموضوع، وكأن عالية هى دكتورة صلاح فقط.. تكلمت معها فى كل شىء بكل صدق وصراحة.. تحدثنا فى كل التفاصيل.. شرحنا كل المواقف، كانت تفهم جيدًا ما أقوله.. صارحتها واستطاعت استيعاب إلى أى مدى أحببت المخدرات.. لم تقل أبدًا ما المفروض أن أفعله، ولكنها كانت تصل بى إلى هذا الشىء، الذى يجب أن أفعله.. تجعلنى أصل إليه بنفسى ودون ضغط، أو تأنيب، أو كهرباء.. الهدوء هو سمة الحديث.. ومهما توترت أو ثارت أعصابى، كانت تعرف وتستطيع تهدئتى، لأعود وأسير من جديد على نفس نغمة الحديث الهادىء، الذى يصل بى إلى الحل، وبذكائها الرائع تقول:

- مش عاوزين نعيش فى المشكلة.. ياللا نفكر فى الحل.

كنت كل يوم أتعلم منها أشياء جديدة.. كل يوم نرسم خطة لنسير عليها.. والحقيقة أننى كنت أساعدها فى تنفيذها؛ فقد كنت واثقًا بها، ومؤمنًا بكل ما تطلبه منى، مؤمنا بأنها تفهم مصلحتى جيدًا، وتعرف كيف تأخذ بيدى.

بعد جلسة المصارحة والاستشفاء، تناولت طعام الغداء.. وجلست مع المجموعة بعض الوقت.. وقبل الذهاب إلى الاجتماع المسائى، طلبت مكالمتين تليفونيتين.. طلبت حاتم الساعة الخامسة كما اتفقنا، ولكن حاتم لا يرد.. ورد التسجيل التليفونى "الأنسرنج ماشين"، وطلبت أمى، والحمد لله.. وجدتها:

- إزيِّك يا ماما؟ وحَشْتينى.

- الحمد لله.. إنتَ كمان وحَشْتنى أوى.

- إزّاى كريم ورُولا؟

- كويّسين، وبيسلّموا عليك.. أخوك كان معايا حالاً على التليفون، وقال لى إنه عايز ييجى يشوفك يوم الجُمْعة.

- أهلا وسهلا.. يشرّفوني.. أُمّى ماتزعليش منّى.. أنا عارف يوم الجُمْعة اللّى فاتِتْ كُنْت بايخ ومتْعب.. معلش استحمليني يا أمى.

- ولا يهمك.

- أنا ولا عايز عربية جديدة، ولا عايز لِبْس جديد.. كل حاجة لازم تيجى فى وقْتها، ودِلْوَقت مش وقْتها.

- كلامك جديد ولُغتك غَريبة شويّة النّهارده.. هو فيه إيه؟

- لما تيجى أحكى لك.. بس يا ماما أنا عايز منّك حاجة.. مُمْكن؟

- عايز إيه؟ خير؟

- أول حاجة السّاعة السُّودا.. فاكراها؟

- آه.. طبْعا فاكْراها.. حاضر.

- وعايز "ترينيج سوت" وكام "تى شيرت".. مُمكن؟

- حاضر.. وإيه كمان؟

- لا.. خلاص.. ولا حاجة تانى.. هُو بابا راجع إمتى من السّفر؟ كلّمك؟

- راجع يوم الاتنين الجّاى.

- كويّس.. إنتِ مش بتكلّميني ليه يا أمى؟

- باخاف نتخانق مع بعض، كفاية أتفرّج على صورك وادعى لك.

- بسْ مش كفاية بالنّسبة لى.. كلّميني يا أمى، وقولى لرولا تكلّمنى هى كمان.. أنا نفْسى أسْمع صَوْتها.

- حاضر.

إنها أول مكالمة هادئة بيني وبين أمي منذ سنوات.. شعرت أن معنوياتها مرتفعة، أو ربما معنوياتي أنا شخصيا مرتفعة، فشعرت أنها هي الأخرى في حالة معنوية ممتازة.

وكان النبأ الجديد بالنسبة لي، حول اجتماع باللغة الإنجليزية تسميني الخمر مجهولي الهوية يعقد في مركز تعليمي في وسط البلد، مساء اليوم.. وقررت حضور الاجتماع، وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها هذا المكان، وكان معظم الحاضرين من الأجانب، وكان عددهم لا يقل عن عشرة، وقد حضر معهم توفيق، وأمجد.

يا "سلام".. شعرت بالاطمئنان عندما رأيتهما، وعندما دخلت استقبلتني ابتسامة مريحة من توفيق.. وتحية وسلام باليد من أمجد.. لكنني مع هذا، لم أجرؤ على الكلام والمشاركة، رغم أنهم يتكلمون بالحماس نفسه والمشاعر الجميلة نفسها، ورحبوا بوجودي لأنني أحضر معهم في هذه القاعة الرائعة لأول مرة.

وخرجت من هذا الاجتماع سعيدا، والمفاجأة الأكبر بالنسبة لي أن تلقيت رسالة؛ إذ قال لي أمجد:

– يا صلاح، لَك عندي رسالة.

– رسالة ليَ أنا؟ من مين؟

– حاتم، بيقولّك اقرا المقدمة 3 مرات، وتكلمه بكره الساعة 5:00، وهيشوفك في اجتماع بُكره بالليل.

– أنا كلمته النهارده، بس ما كانش موجود، سبت له رسالة على "الأنسرنج ماشين".

– هو قال لي.. كان عارف إني جاي الاجتماع وها أقابلك.. وبعدين إنت عارف إن أنا جدّك؟

– جدّي إزاي يعني؟

– ما أنا المُشرف بتاع حاتم.

– فهمت يا جدّي.. وتمام يا افندم.

– ها اشوفك بُكره؟

- إن شاء الله.. سلام يا جدُو.

كمْ كنت سعيدًا.. حاتم مهتم بي.. وأيضا أمجد مهتم.. إذًا الطبيعي أن أهتم أنا أيضا.. لذا كنت لا أتحرك إلا وفي يدي الكتاب، وأنا في طريقي إلى الاجتماع، وفي يدي عند العودة في طريقي إلى المستشفى.

رجعت إلى المستشفى، وتقبلت التفتيش بكل ارتياح.. وكنت أساعدهم للانتهاء من هذه المهمة بسرعة. وكما شكرت الله سبحانه وتعالى في الصباح، شكرته أيضا في آخر الليل.. وكنت أيضا عند موقفي بالنسبة للأدوية.. لا.. للأدوية.. لا.. للمنومات.. كنت لا أنام أكثر من ساعة.. الآن استطيع أن أنام لمدة ساعتين، من الساعة 5:00 إلى الساعة 7:00، وكانت هذه المدة بالنسبة لي كافية للوقوف على قدمي بثبات كل اليوم.

37

أوفر دوز

استيقظت من النوم مبكرًا كالعادة.. الساعة السابعة، وجلست في انتظار طعام الإفطار، بعد أن تحولت إلى وحش كاسر يأكل بشهية.. ومن عادتي بعد الإفطار والشاي، أن أبدأ في قراءة الصحف، مع التركيز على صفحة الحوادث، وكان الخبر الصادم:

"وفاة مدمن بجرعة هيروين"..

بعد قراءة الخبر، أحسست إحساسًا غامضًا؛ لا أدرى سببه، أن هذا الشخص، ربما أو غالبا، أعرفه عن قرب.

بدأت دور شطرنج مع صادق.. إنه "حَرِّيف" وفي غاية الذكاء والمهارة، وأنا أيضا لاعب شطرنج ممتاز.. أكسب دورا، ويكسب هو دورًا، والمنافسة بيننا دائما ساخنة، وكنا على وشك حسم الدور لصالح أحدنا، عندما وصل دكتور وليد متجهمًا، وقال:

– صباح الخير يا صلاح.. تعال.. أنا عايز أقول لك حاجة.

– صباح النور يا دُوك.. خير.. فيه إيه؟

– بدر.. تعيش إنت.

– إيه.. بدر!!! إزاى؟! إمتى؟!

– أنا عرفت إمبارح.. والنهارده الخبر منْشور في الجُرْنال.

– لا إله إلا الله.. والله كان قلبي حاسس وأنا بقْرا الخبر إن اللي مات ده أنا أعرفه.

– إنتَ عارف ليه أنا باقولك أوّل واحد؟

– ليه؟

- أوّل ما عرفت، إنت جيت على بالي.. حسّيت إن دى رسالة من ربنا لك إنت بالذات.. أنا حاسس إنك بديت تستوعب اللي بيحصل حواليك.. مش أنا بس.. كُلنا في القسم.. كل الدكاترة حاسين بكده.. الرسالة واضحة وصريحة.. واضحة يا صلاح؟

- واضحة يا دكتور.

تسارعت ضربات قلبي.. وظل ينبض بقوة.. وبقدر كراهيتي لما فعله بدر فينا، بقدر ما كان حزني عليه.. وليس لحزني حدود.. استمعت إلى كلام الدكتور وليد باهتمام، ولكنني كنت في حالة ذهول، واستمر الدكتور في حديثه:

- وبعدين، فيه واحد صاحبك شرّف إمبارح.

- مين؟!

- تامر.

- بجد؟! دا مطوّلش برّه.. وإيه أخبار شريف يا دوك؟

- مشكلة.. الدكتور سمير أصدر تعليمات إن مفيش حد يتكلم في موضوع شريف دا خالص، وإنه مش هيخرج من 111 إلا بتعليمات مباشرة منه.. مبروك كان هيموت فيها.. دا حالة ارتجاج في المخ، وأديك شايف إنه أخد أجازة من يومها.. شريف زوّدها، وبيتحمل النتايج.. يالله.. أنا عندى اجتماع، وأشوفك كمان شوية.

تركني دكتور وليد وذهب إلى اجتماعه، وعدت إلى قراءة الخبر مرة أخرى، وأنا أعلم هذه المرة، عمن يكتبون ويتحدثون.. ياه!! مستحيل.. ما هذا الذي يحدث؟ هل هذه هي نهاية بدر؟ مجرد خبر في صفحة الحوادث!! يا نهار أبيض!! نشرت الخبر بين المجموعة وأصابهم الذهول، وكان تعليق أسامة:

- دا تاني واحد في أقل من أسبوعين.

وصلت دكتورة عالية، ولاحظت سحابة الحزن التي كانت تخيم على الجميع، وبدأ الاجتماع في الحديقة، وكان الموضوع وفاة بدر، وكل منا يتكلم عن إحساسه ومشاعره تجاه هذا الموقف المؤلم، قال أسامة:

- لعلمِك يا دكتورة عالية.. كدا أحْسَن لُه.. استريح.

- ما كان مُمْكن يبطَّل.. ويستريح أكتر.

رد جلال:

- عُمره ما كان هيَبْطَّل يا عالية.

- يعني عاوزِ تقول لَو الواحد مابَطَّلش يموت أحسن.

- آه.. طبعًا.

- يبقى إحنا كدا متفقين إننا لازم نبطل علْشان نقدر نعيش.

- على فكرة، دا لسَّه ناصب عليَّ.. اسألي صلاح؟!

نظر إليَّ الجميع، ولكنني آثرت الصمت. فلم أرد.. فسألت عالية جلال:

- طيِّب إنتَ مسامْحُه واللاَّ لأ؟!

- هتفْرق في إيه؟

- جايز لمَّا إنتَ تسامحُه ربِّنا يغْفر لُه.

- لَوْ انا سامحته، غيري مش هيْسامْحُه.

- إحْنا نِدْعي لُه إن ربنا يسامحُه ويغفر لُه.

- أنا شَخْصيًا مسامْحه، وكفاية عليه بقية الناس اللِّي نصب عليهم.

- مُمْكن أطلب منْكم دقيقة سُكون تَرَحُمًا عليه.

انتهى الاجتماع، وفي أعماقي زحام من المشاعر.. ما بين أشياء جميلة.. تشابكت مع أشياء مزعجة.. موضوع بدر يضغط على تفكيري.. وفي الوقت نفسه، في تلك المرحلة يجب أن أفكر في نفسي، وفي أحوالي فقط.. فلجأت إلى الدكتورة عالية، وقلت لها:

- عاوز أتكلم معاكِ شوية.. يا ترى عنْدك وقت؟

- آه طبعا.. تعال نخرج من هنا.. يا صادق.. صلاح معايا في الجنينة، وأنا ها ارْجَع معاه كمان شوية.

- حاضر يا دكتورة.

- أنا زعلانة جدًا.

- علشان بدر؟

- بدر كان بييجي هنا في المستشفى من زمان، وقعدت معاه كتير، وكلمني آخر مرة من 3 أيام، وقال لي إنه عايز يرجع المستشفى تاني، بس خايف أحسن يقعد كتير.. قلت له تعال، وبعد كدا كل حاجة ليها حل.. وقال لي ها اجي الأسبوع الجاي.. مالحقش.. ياااه.. ربنا يصبّر أهله.. آسفة يا صلاح.. أنا عارفة إني "غلسة" أوي النهارده.. بس غصب عني.

وكانت هذه أول مرة تشاركني في إحساسها بموضوع ما.. فسألتها:

- عايزة تعرفي رأيي؟

- آه.. طبعا.

- هو اللي اختار.

- قصدك إيه؟

- بصّي يا عالية.. أي واحد عرف برنامج المدمنين المجهولين والانتشار خطوة.. وراح الاجتماعات، يعني عرف سكة التبطيل، ورجع ضرب تاني.. يبقى دا اختياره.. فيه ناس ميتة، والناس دي مش أحسن مننا.

- لك حق يا صلاح.

- أنا رحت إمبارح اجتماع رائع.. حضرت، وكان نفسي أشارك، بس ما كانش عندي الجرأة الكافية.. وعلى فكرة نسيت أقول لك إني كلمت ماما إمبارح، وكانت أحلى مكالمة من 10 سنين فاتوا.

- بجد؟! إيه اللي حصل؟ احكي لي.

استمعتْ إلى كل كلمة باهتمام حقيقي، وهي في غايــة الـسعادة لهــذا التطور، وفي تلك اللحظة ناداني عم مرسي عامل التليفون:

– يا أستاذ صلاح.. تليفون.. أُخْت حَضرتك.

– عن إذنك يا عالية! أكلِّم رولا.. وَحَشِتْني أوي.

– وأنا كمان أرُوح بيتي.. عندي ألف حاجة لازم أعملها.. وأشُوفك بُكره.

– أكيد.. هو أنا ها ارُوح فين؟ عايز أقولك حاجة.. واللاَّ أقولك، خلّيها لِبُكره.

– أوكيه.. يااللاَّ.. باي باي.

وعلى التليفون، دار الحوار التالي:

– أهلاً يا رُولا.. وَحَشْتيني أوي.

– وإنتَ كمان يا صلاح، وَحَشْتني جدًا.. طمِّني عليك.

– أنا تمام.. كله كويس.

– احكي لي شوية.. ماما بتقول إنك متغيَّر.. فيه إيه؟

– متهيأْلي.. إني لَقيت وراجع تاني يا رولا.

– مش فاهمة يا صلاح.. أنا عاوْزة أفهم.

– مش هَينفعَ أشْرح لك في التليفون.. لمَّا أشوفك يا رولا.

– طيب.. ها أجيلك يوم السبت علشان السواق يكون موجود.. ينفع؟

– آه طبعًا ينفع.. بَسْ أهم حاجة بعْد الساعة 12:00.

– أوكيه.. بعد الساعة 12:00.

عدت إلى القسم، الوجوم على كل الوجوه.. كان من الطبيعي أن يترك رحيل بدر تأثيره على الجميع، ولا مهرب مــن الحــديث فــي الموضــوع.. وتعليقات مختلفة:

– هوَ فيه إيه؟ هوَ كل أسبوع حدّ يموت واللاَّ إيه؟

– يا ترى الدُّور على مين؟

وجاء موعد تناول طعام الغداء.. وأصبحت آكل بشهية مفتوحة، وزاد وزني زيادة واضحة.. وعندما عدت إلى غرفتي، فتحت الكتاب لأقرأ المقدمة.. وقرأتها مرة، ومرتين، ثم قفزت من مكاني ممسكًا بالكتاب، ودارت في رأسي عشرات الأسئلة:

- أنا ها اتجنن وأعرف إيه فايدة المقدمة دي؟! ثم.. قرأتها مرة.. وقرأتها مرتين.. لكن حاتم قال 3 مرات.. طيب ليه؟ هو فيها إيه؟! لا.. أنا مش ناوي أفاصيل.. إقرا يا صلاح وإنت ساكت.

أخذت حمامًا، ثم أعددت نفسي جيدًا للذهاب إلى الاجتماع، قراءة، ومظهرًا.. وعندما وصلت وجدت نفس المجموعة.. وبالنسبة لي، كان أهم شيء أن أجد المشرف.. فعلا وجدته.. حاتم شخصيًا، سوف يدير الاجتماع، وبدأه بقوله:

- أنا حاتم.. مدمن.. نبدأ الاجتماع بدقيقة صمت، نفتكر كنّا فين، وبقينا فين.. والناس اللّي لسّه بتعاني برّه.

واقترح أمجد أن يكون موضوع اجتماع اليوم: "الامتنان".

سأل حاتم:

- فيه أي اقتراحات تانية؟

لم يقترح أحد موضوعًا آخر، فقال حاتم:

- مفيش.. طيّب بما أن دا اختيارك يا أمجد، يبقى إنت أول واحد هتشاركنا.

- أمجد.. مدمن.. النّهارده كان يوم تقيل على قلبي.. صحيت من النوم على خبر وفاة بدر.. يا ساتر، اليوم اتكهرب من أوله، لبست ونزلت على خالد لأني مكنتش قادر أقعد لوحدي.. لسّه من كام يوم كان قاعد معانا على كرسي هنا، وسطنا، وضارب وعمّال يفأر.. يومها تخيلت نفسي مكانه، والحمد لله إن أنا ما كنتش مكانه.. أنا حاسس بامتنان ما يتوصفش لربّنا.. امتنان إن أنا عايش

مش ميت.. الطبيعي إني أكون ميت أنا كمان.. مش قادر أتكلم.. شكرًا أنكم سمعتوني.

بعدها.. بدأ سليم قائلاً:

- سليم.. مدمن.. الحمد لله أن أنا هنا، ومبطّل النهارده.. كل كلمة قالها أمجد كانت على لساني.. جايز ماكنتش هاعرف أقولها، بس كنت حاسس بيها، وعارفها.. وفاهمها كويس.. أوي.. الخبر تقيل مع إنه متوقّع.

ثم شارك خالد:

- خالد.. مدمن.. لو أمجد ما كانش جالي، كنت أنا رحتله.. ما كانش فعلاً ينفع أقعد لوحدي النهارده، ولا دقيقة واحدة.. وبعدين في البيت جننوني.. مالك؟ فيه إيه؟ إنت مش على بعضك ليه؟ كان نفسي أقول لهم اسكتوا وسيبوني في حالي.. ولما جالي أمجد أنقذني من دوشتهم، ونزلنا وإحنا مش عارفين حنروح فين.. كان يوم غريب، بس عدّى وخلص، ودي أهم حاجة، وبكره لما ييجي، نشوف هنعمل فيه إيه.. أنا النهارده جيت قبل الاجتماع بساعة.. من كتر ما أنا مش عارف أعمل إيه وأروح فين.. هو موضوع اجتماع النهارده إيه؟!

وانطلقت الضحكات.. فعاد خالد إلى الحديث قائلاً:

- أيوه.. الامتنان.. أي شخص في الدنيا ممتن.. مش هيبقى ممتن أكتر مني.. دا أنا ناوي أغيّر اسمي، واسمّي نفسي ممتن..

انطلقت الضحكات من القلب، وأعجب وأجمل شيء أنه وسط كل ما يحدث، رغم هذا الحزن العميق، الصادق، كانت هناك ضحكات، ومن القلب..

وأخيرا شاركت:

- صلاح.. مدمن.. أنا خايف أوي.. خايف أرجع أضرب تاني.. أنا مش عايز أرجع أضرب تاني.. خايف ومش عارف أعمل إيه في خوفي ده.. موت بدر كان صدمة بالنسبة لي.. مع إنه على رأي سليم كان متوقع.. الموت قريب أوي.. أقرب مما كنت أتصوّر.. أنا خايف وعاوزكم تساعدوني.. شكرًا.

وجاء دور حاتم ليشارك:

- حاتم.. مدمن.. اجتماع النهارده عن الامتنان.. ودا نابع من حُزننا بسبب موت بدر.. اللي حصل ده في رأيي هو العلاج والحل.. لو مفيش حد بيموت بسبب المخدرات ما كناش هنبطل.. أنا أول الناس اللي ماكانوش هيبطلوا.. أنا باحب المخدرات.. بس مش ها أقدر عليها..

سكت حاتم لمدة ثوان ثم قال:

- وبعدين جامدة أوي يا خالد موضوع تسمي نفسك ممتن..

(ضحكات مرة أخرى).

انتهى الاجتماع، بعد أن شارك كل منا بما عنده، وما يريد قوله.. وطلعنا.. وقفنا عند سور المدرسة، وانتظرت حاتم لنتحدث معا، وجاءني مبتسما وسألني:

- أخبارك ايه يا صلاح؟

- تمام.. قريت المقدمة.. يقدر تقول حفظتها وممكن أسمعها.. أسمعهالك؟

- مش لازم.. مهياش مهمة أوي.

- يا سلام!! أمال خلتني أقراها 3 ايام ورا بعض ليه؟! لا.. وكل يوم أقراها 3 مرات كمان.

- علشان تتعود تسمع الكلام من غير ماتناقش.. وإنت نجحت.. اللي بعده، تقرا: من هو المدمن؟ تقراه الصبح أول ما تقوم من النوم.. وبعدين تقرا الخطوة الأولى.. كل يوم تقرا الخطوة الأولى.. مهمة جدا.. الخطوة الأولى هي المفتاح اللي بيدور العربية.. ولازم تشارك لو جاتلك الفرصة في أي اجتماع تحضره.. سمعت أنك ما شاركتش في اجتماع إمبارح.. ليه؟ لازم تبقى إيجابي.

- ما عرفتش.

- مفيش حاجة اسمها ما عرفتش.. فيه فرصة، يبقى لازم تشارك يا صلاح.

حاضر.

- اللي بعده.. 3 كلمات.. والملخص المفيد: الأمانة.. التفتح الذهني.. النية.. أنا عاوزك تلم معلومات كويسة عن التلات كلمات دول، وتفهم كويس أوي الـتلات كلمات دول معناهم إيه.. إنت عندك مذاكرة كتير اليومين الجايين.

- عايز أسألك حاجة يا حاتم.

- اسأل.

- أنا عايز أخرج من المستشفى الأسبوع الجاي.. إيه رأيك؟

- خليك في النهارده.. حد عارف الأسبوع الجاي فيه إيه؟ يالله علشان ترجـع المستشفى، وأشوفك بكره.. نتكلم الساعة 5:00، ولو مردتش احكي أخبارك على "الأنسرنج ماشين".. اتفقنا؟

- اتفقنا.

رجعنا إلى المستشفى، وكنت سعيدا إذ أصبح أخيرا لدي الجديد الـذي أعمله غير قراءة مقدمة الكتاب.

استيقظت من النوم الساعة 7:30، أخيرا أستطيع أن أنام ثلاث ساعات فـي اليوم.. هذا هو أقصى ما وصلت إليه.

بدأت بالإفطار، ثم قراءة الصحف، ولعبت دور شطرنج مـع صـادق.. كنت أحب هذا الوقت الذي أقضيه كل صباح مع صادق، وكان يكسب الـدور مني أحيانا.. ويشعر بسعادة هائلة، والمكسب والخسارة متبادلة، والمنافسة علـى أشدها.. وفي موعد الاجتماع مع دكتورة عالية، جلست في مكـاني كالمعتـاد، وبدأت هي بحديثها الهادئ معنا.. وبعد الاجتماع مشينا وتجولنا فـي الحديقـة، وبدأت قائلاً:

- شكلك أحسن من إمبارح بكتير يا عالية.

- إمبارح كان صعب.. بس الحمد لله عدى.. قبل ما امشي إمبارح، قلت لي إنك عايز تقول لي حاجة.. وبعدين قلت خليها لبكـره.. كنـت عـاوز تقـول إيـه يا صلاح؟

- ياه.. لسه فاكرة؟

- طبعًا لسه فاكرة.

- أنا عايز أخرج من المستشفى يا عالية.

- إيه؟ تخرُج؟! تخرُج تروح فين يا صلاح؟!

وكانت هذه أول مرة أواجه ردّ فعل بهذا القلق من الدكتورة عالية.. ما قلته كان صدمة بالنسبة لها وسألتني:

- ليه بسرعة كدا يا صلاح؟

- مش بسرعة ولا حاجة.. أنا ماقلتش إني عايز أخرج النهارده.. أنا بافكّر أخرج الأسبوع الجاي.

- أنت عايز تخرج علشان تعمل إيه؟!

- وأفضل قاعد هنا أعمل إيه؟!

- مش كل ما أسألك سؤال ترد عليا بسؤال.

ابتسمت وأكملت حديثها قائلة:

- إنت مش شايف إنك مستعجل، خصوصا إنك لسه واخد مخدرات من كام يوم؟

- أنا اخدت اه بس ما انبسطتش.. وبجد أنا فهمت ليه بيقولوا إن الواحد بعد ما بيروح الاجتماعات مش بيعرف ياخد مخدرات ويتكيف.

- موضوع خروجك محتاج تفكير يا صلاح.. اتكلمت مع حاتم؟

- سألته.. وما أدنيش رد.. وفي الآخر قال لي: خد رأي الدكاترة.

- طيب ورأي الدكتور وليد إيه؟

- لا.. مش ناوي اخد رأيه أصلاً.. مش باعرف أقعد معاه غير وأنا ضارب.

- وطّي صوتك.. هو دا كلام؟! خلّينا نتكلّم في الموضوع دا يوم السبت، وياخد وقته في التفكير والمناقشة.

- لا.. دلوقت.. أصل ماما جاية بكره وعايز أمهّد لها.

- صلاح.. أنا محتاجة أفكر في الموضوع دا شوية.. إنت فاجئتني.. هنتكلم في الموضوع دا يوم السبت.

عدت إلى القسم، ولعبت بنج بونج، وضحكت مع الموجودين كلهم، وأعلنت أنني نويت الخروج الأسبوع القادم.. بمعنى أنني سأخرج يوم الخميس.. وبدأت التعليقات والسخرية، يقول جلال:

- خميس إيه يا أبو خميس؟! فهّمه يا أسامة.

- أنهي خميس في أنهي أسبوع، في أنهي شهر في أنهي سنة؟

- طيّب يا حلو منك له، بكره يشوفوا.

- دا أنا بقالي أكتر من شهرين، وبيقولوا لي لسه شوية.. وإنت يا أسامة من إمتى؟

- أنا هنا من 8 شهور.. وماشي في التاسع.

- ربّنا يقوّمك بالسلامة.

وفجأة قال أمير:

- أمّا أنا، أخيرا ها أخرج يوم الاتنين.. أنا يوم السبت يبقى لي هنا 3 شهور.

عادت دكتورة عالية.. كانت عودتها سريعة ومفاجئة لنا جميعا.. نادتني وسألتني:

- إنت عايز تخرج ليه يا صلاح؟

- وما اخرجش ليه؟

هدوء وتفكير.. وجاء ردّي دبلوماسيًا وبثقة:

- الموضوع دا عايز وقت.. خلّينا نتكلم يوم السبت.. وعلشان أطمنك، أنا مش ناوي أخرج إلا إذا إنت دونا عن كل الناس، قلت لي إنك موافقة على الخروج.. تمام يا عالية؟

- إنت تعبت لي أعصابي.. نتكلم يوم السبت.

وبعد أن خرجت دكتورة عالية من المستشفى، جاءني دكتور وليد داخل القسم، وسألني:

- إزيك يا صلاح؟

- تمام يا دُوك.

- إيه موضوع خُروجك ده؟ بدر مات من يومين، وإنت تقول عايز تُخْرج بعد تلات أسابيع بَسْ في المستشفى؟!

- إهدا بَسْ يا دوك.. روَّق أعصابك.. بتشرب إيه؟ يا فوزية: واحد لمون من فضلك لدكتور وليد.

- والله؟

- بلاش لمون.. نجيب لك الدُّوا بتاعي.

- هزّج براحتك يا صلاح.. اسمع.. مش هتخْرج من هنا ولا قبل شهر كمان.

- ليه إن شاء الله.. لأ.. هاخْرُج.. دا مش بمزاجك.. ودى مش طريقة تفاهم.. ثم إنتَ تعرف حاجة عنّى علشان تقول أخْرُج أوْ ما اخرُجْش.

- أنا أعرف عنك كل حاجة.. وأسلوبك مش عاجبني يا صلاح.. نتكلم الأسبوع الجاي.

- أحْسَن.. برضُه.

38

حـــــوارات حــاسمة

أثار أعصابي أسلوب دكتور وليد.. لم يعجبني رد فعله عندما علم بأنني فكرت في الخروج من المستشفى.. أسرعت إلى غرفتي، وعدت من جديد إلـى قراءة الخطوة الأولى.. وشعرت بالهدوء والسكينة بعد الانتهاء من قراءتها، ثـم بدأت أستعد للذهاب إلى الاجتماع المسائي مع أمير ومجموعـة مـن الـشباب، وعندما دخلت القاعة، تبين لي أن شادي سوف يدير الاجتماع، وسلمت على كل الموجودين، وتبادلت معهم كلمات سريعة، وكان حـاتم مـن بـين المجموعـة الحاضرة، ولم يسعفنا الوقت للحديث معًا، فقد وجه شادي إليّ الكلام قائلا:

– صلاح.. ممكن تشاركنا؟

– صلاح.. مدمن.. أنا مخنوق جدًا من المستشفى، ومن الدكتور وليد.. خلاص زهقت ومش عايز أقعد في المستشفى أكتر من كده.. أنا دخلت من 20 يـوم، وفيه ناس في المستشفى من شهور، ولما كلمت المشرف بتاعي، قال لي خليك في النهارده، إحنا فين والأسبوع الجاي فين!! أنا حاولت.. بس مـش عـارف أهدا.. أنا ماقلتش إني عايز أخرج النهارده، بس أنا عايز أخرج بسرعة.. أنـا حاسس إني متطل لأني جوه المستشفى.. عايز أرجع بيتي، واجي الاجتماعات هنا، وأحضر زيي.. زيكم.. أنا فعلا مش عايز أضرب تاني، وعايز أبقى زيكم بس أرجع وأقول: أنا خايف إن دماغي تكون بتلعب بيّ، أو القرد اللي جوايـا بيلاعبني.. إيه اللي بيحصل لي؟! أنا مش فاهم نفسي.. أنا مش فاهم حاجة.. أنا زهقان أوي.. وده كان يوم وحش جدًا.. جدًا..

وشارك بعدها حاتم:

- حاتم.. مدمن.. النهارده كان يوم جميل أوى.. صحيت من النوم.. كلمت مديرى وطلبت آخد أجازة؛ يوم من نفسى، طلع جدع ووافق.. كلمت المشرف بتاعى، ولحسن حظى كان فاضى واتفقنا نروح النادى ونتغدا سوا.. ماعملناش حاجة جديدة أو غريبة، بس كانت خروجة جميلة، وأنا استمتعت بها أوى.. كان فيه حاجات كتيرة محتاج أتكلم فيها، وكانت نايمة جوايا.. صحيت وطلعت كلها أول ما قعدنا سوا، وارتحت بعدها جدًا... حاجة غريبة أوى إن الواحد منا ساعات يشيل جواه حاجات ملهاش أى لازمة.

عندما أثنى حاتم على اليوم الممتع الذى قضاه مع المشرف، شعرت بالغضب، لسبب مهم: آخر جملة قلتها إننى أشعر بالضيق، وإننى مررت بيوم عصيب، وهو بدأ كلمته بأنه سعيد، وروى عن يومه الجميل.. ياه!! ما هذا؟ وبعد الاجتماع، ذهبت لأتحدث مع حاتم:

- ازيك يا حاتم؟!

- أنا كويس.. اطمن.. المهم إنت.

- مش عارف.. متلخبط شوية.

- واضح.. اسمع يا صلاح.. أنا أخدت رأى الناس فى موضوع خروجك من المستشفى.. الكل رأيه إنك تسمع كلام الدكاترة وتستنى شوية.

- ماعنديش مانع يا حاتم.

- إنت عندك مشكلة، مش سهلة.. إنت يا صلاح مش عارف تعيش يوم بيوم.. خلينا فى النهارده.. وأنت مضايق كده، عندى لك سؤال: إيه رأيك فى النهارده؟

- يوم زفت وبايخ.

- بالعكس.. بالنسبة لك يوم ناجح 100%، أنت ناسى أنك النهارده مبطل؟! هى دى أهم حاجة فى الدنيا.. أى حاجة تانية مش مهم.. أخبار الكتاب إيه؟

- كويس.. قريت من هو المدمن، وبعدين الخطوة الأولى.

- من يوم السّبت هنبتدى نكتب فى الخطوة الأولى.. صحيح، إنتَ ما كلّمتنيش النهارده ليه؟

- إنتَ ماكُنتش موجود.. مش كُنت فى النادى؟

- والله؟ طيّب اسمعنى كويّس.. تقرا المقدمة النهارده 3 مرات.. مش بكره.. النهارده.

- لا.. لا.. لا.. مش مُمكن.. حَرام عليك.

- دا اقتراح يا صلاح.. مش عايز.. بلاش.

- ماشى.. وأنا هاسمَع الكلام.

- تعجبنى وإنت بتسمع الكلام.. بكره تكلّمنى مرتين.. تمام؟ مرة الصبح، ومرة الساعة 5:00.. ويالّلا بينا علشان الناس عاوزة تمشى.. سلام.

بعد كل حديث مع حاتم، أشعر بالراحة ويشملنى الهدوء.. ولا أعرف كيف يحدث هذا.. ولا أعرف لماذا؟ الشيء المضحك فى هذا الموضوع أن حاتم أصغر منى فى السن بحوالى أربع سنوات، ولكننى لم أتعامل معه أبدا على هذا الأساس.. بالعكس تعاملت معه على أساس أنه الأكبر منى.. أكبر بحوالى 10 شهور تبطيل.

عدت إلى المستشفى، وأسرعت إلى غرفتى، أردت تنفيذ الواجب المطلوب منى.. وفورا.. وقرأت المقدمة مرة، ثم قرأتها للمرة الثانية والثالثة.. وانتهيت منها.. إنما يا ساتر.. تكرار قراءتها بهذا الشكل شيء ممل.. والمدهش أننى أسمع الكلام وأنفذه بدقة.

قضيت بعض الوقت مع أمير، وتحدثنا عن البرنامج وخطواته، وعن تمسكى بكل ما جاء فيه، وكان عند أمير تحفظ واحد، بدأه قائلا:

- أنا معاك.. إلاّ الحشيش.. يا عم مفيش مانع من سيجارتين.

- بس الكتاب بيقول مفيش حشيش، ولا خمرة، ولا أى حاجة خالص.. قالها واضحة وصريحة.

عموما أنا مقتنع بالكتاب كله، إلا الجزئية دى.. عندى تحفُّظ عليها.

- باقولك إيه، أنا ماعنديش تحفُّظ على أى حاجة.

دخلت إلى السرير، وحاولت أن أنام.. وأخيرا، نمت حوالى الساعة الرابعة.. ونمت ثلاث ساعات.. وشكرت ربنا أن اليوم مر بسلام.. قائلا لنفسى:

- الحمد لله يارب.. اليوم عدّى وأنا لسه مبطّل.

وكأننى ساعة بج بن، استيقظت فى موعدى الساعة السابعة بالدقيقة والثانية، ونزلت على ركبتى ودعوت الله عز وجل:

- "يارب ساعدنى أفضل مبطّل مخدرات النهارده".

الاسبوع الرابع

لبست، ونزلت لتناول الإفطار، ثم قرأت الصحف، ولعبت كالمعتاد دور الشطرنج، وعدة أدوار بنج بونج.

اليوم أجازة دكتورة عالية الأسبوعية، وهذا كاف ليجعل اليوم ثقيلا على النفس.. إن مجرد وجودها فى المستشفى، يشعرنى بالاطمئنان والراحة.

طلبت الاتصال تليفونيًا، فلم يكن "حاتم" موجـودا، ورد علـىَّ جهـاز التسجيل "الأنسرنج ماشين"، شيء يدعو إلى الملل.. تمنيت أن أجده وأكلمه، لكن فى اللحظة نفسها نادانى فريد:

- يا أستاذ صلاح.. عندك زيارة.

خرجت إلى الحديقة، ومعى أحد الممرضين، كحراسة، تطبيقـا لنظـام المستشفى، بسبب محاولات الهرب الكثيرة.. ووجدت ماما ومعها كريم.

- إزيِّك يا ماما؟ إزيَّك يا كريم؟

- وحَشْتِنى أوى يا صلاح.

- وحَضْرِتك كمان يا ماما.

- أخبارك إيه يا مُغلبنا؟!

- كلُّه تمام يا كريم.
- تخنت شوية.
- طبعا.. ما أنا طُول اليوم باكُل.. رولا إزَّيها يا ماما؟ عاملة إيه؟
- الحمد لله.. قالت لى إنها جاية تشوفك بكره.
- كويس.. وحشتنى أوى.
- كل حاجة إنتَ طلبتها فى الشنطة.. وانفصل الساعة كمان.
- مرسيه يا ماما.. أنا عرفت يعنى إيه "زمالة المدمنين المجهولين" يا كريم.
- هايل.. بتحضر اجتماعات؟
- طبعًا يا كريم.. وعندى مُشرف كمان.
- أنا مش فاهمة حاجة يا صلاح!!
- دى اجتماعات بتاعة ناس مبطلة يا ماما.. مدمنين برضه، بس مبطلين من سنة وسنتين وأكتر كمان.
- فعلا مبطلين؟
- آه طبعًا يا ماما.
- ها اشرحلك فى الطريق وإحنا مروحين.. أنا عرفت عنهم من أيام ما حكيت لى على المشكلة دى.. كنت بادوّر على حل.. موجودين فى إنجلترا وبلاد تانية كتير كمان.. وحضرت اجتماع مفتوح علشان أفهم.
- يا فاهم إنت.. يا بتاع الحلول.. بقولك يا ماما.. أنا خلاص زهقت، وعايز أخرج من هنا.
- تخرج تروح فين يا صلاح؟

رد كريم بسخرية:

- إبتدينا المفاجآت.
- اسمع يا كريم.. أنا مش عايز تريأة.. أنا قعدتى هنا فى المستشفى مالهاش لازمة.. عايز أرجع البيت يا ماما؟

- ضرورى أتكلم مع دكتور سمير فى الموضوع ده.. ورأى الدكتور وليد إيـه؟ أنا اتكلمت معاه من يومين، وماجابش سيرة إنك تخرج خالص.

- نصّى يا ماما.. إحنا اتفقنا إنى أخرج أول ما بابا يرجع من السفر.. هو أنـتم هترجعوا فى كلامكم والاّ إيه؟ والاتفاق كان قدامك يا كريم.

- فعلا.. بس إهدأ، وخلينا نتفاهم بهدوء.. مفيش مشكلة إنك تخرج.. بس نكـون فاهمين، هتخرج على أى أساس.. أكيد المستشفى ليها نظام، وخلينا نتفاهم معاهم الأول.. وبعدين، هو إحنا عايزينك تفضل محبوس هنا فى المستـشفى؟ أكيـد.. لأ..أصبر علشان الأمور ماتتعقدش.

واضافت أمى:

- وبعدين باباك لسه مارجعش.. هو هيرجع يوم الاتنين.

- هو أنا قلت عايز أخرج النهارده؟ أنا باقول لك اليومين الجايين.

فرد كريم:

- أصبر، لما بابا ييجى، وبعدين نتفاهم.

- حاضر.. أنا أصلاً ماعنديش اختيار.. عارف مين الـدكتورة بتــاعتى هنـا يا كريم؟

- مين؟

- عالية.. أخت نادر.. اللى معاك فى الشغل.

- بجد.. يا نهار أبيض!! هى رجعت من أمريكا؟

- آه رجعت، من أسبوع واحد بس.. أختها ليلى كانت معايا فى الفصل.

- فعلاً.. عالية كانت معانا فى المدرسة، بس كانت أصغر منى بكام سـنة.. دى شخصية جميلة.

- هى أحسن واحدة فى المستشفى كلها.. نفسى تشوفيها يا ماما.

- أكيد.. ودكتور وليد كمان كويس أوى.. ودكتور سمير، مدهش.. إنت قابلته؟

- قابلته مرة واحدة، تاني يوم دخلت المستشفى، واتكلمنا سوا، وبعد كدا شفته كام مرة، وسلمت عليه من بعيد لبعيد.. أنا هاطلب منهم يحددوا لي ميعاد معاه اليومين الجايين.

كانت جلسة جميلة، اختلفنا في الرأى، ولكن ولأول مرة منذ زمن طويل، أجلس مع أحد أفراد عائلتى نناقش مشكلة ما بهدوء، وكانت المناقشة أيضا إيجابية.. وغادرا المستشفى بعد أن اتفقنا على دراسة موضوع الخروج من كل جوانبه.

وعدت إلى القسم، وطلبت الاتصال مرة أخرى، على أمل أن أجد حاتم، ويرد علىّ بنفسه، وفجأة فتح باب القسم، ودخل أمجد، وسليم، وشادى، وحاتم.. جاءوا معًا لعمل الاجتماع في المستشفى.. يالها من مفاجأة!!

إنها أجمل مفاجأة في الدنيا.

منذ الصباح كنت أشعر بالضيق لعدم وجود اجتماعات يوم الجمعة، إلا اجتماع الساعة العاشرة صباحًا في وسط البلد.. بالنسبة لي، كان من الصعب الذهاب إليه وحضوره، فقد كنت أنتظر زيارة أمي، وأخي.. بعد أقل من دقيقة، ناداني صادق مرة أخرى:

- يا صلاح.. تعال.. تليفون علشانك.

- مين يا صادق؟

- حضرتك اللي طالب مكالمة للمشرف بتاعك.

- ماشي.. ألو.. يا حاتم.

وقف حاتم أمامي بينما أنا أترك له رسالة على "الأنسرنج ماشين"، وقلت له في رسالتي المسجلة إني أسعد إنسان في الدنيا النهارده.. علشان إنتم هتعملوا الاجتماع عندنا في المستشفى.. وعلى فكرة أنا كلمتك الصبح وسبت لك رسالة.. ودي المكالمة رقم 2.. كدا خالصين.

تقرر عقد الاجتماع في الحديقة.. وحضره معظم شباب القسم، كُنا أكثر من 20 فردا في هذا الاجتماع، ولأول مرة يعقد الاجتماع المسائي في الهواء الطلق، وعملنا الشكافيه كالمعتاد في كل الاجتماعات، وبدأ أمجد قائلا:

- أهلا بيكم في الاجتماع المغلق غير المتوقع في مستشفى "....."، النهارده الجمعة الموافق "....."، وأطلب منكم دقيقة سكون، نفتكر كنّا فين، وبقينا فين، والمدمنين اللّي لسّه بيعانوا برّه.

بدأ أمجد الاجتماع بالأسلوب نفسه: دقيقة سكون، التنويهات، أخبار المجموعة، المقدمة والقراءات.. واقترحت أن يكون موضوع الاجتماع هو الخطوة الأولى:

"اعترفنا أننا بلا قوة أمام إدماننا، وأن حياتنا أصبحت غير قابلة للإدارة".

اهتممت جدا بالمشاركات، فكان مطلوبا مني قراءة ومشاركة وكتابة الخطوة الأولى.. وبدأ حاتم بالمشاركة:

- بصراحة، أنا حسيت أن الاجتماع ده مابينفعش يبقى أي حاجة تانية غير الخطوة الأولى.. أنا هنا قاعد على الكرسي ده، بسبب الخطوة الأولى.. أنا مش ناوي أتكلّم عن عجزي قدّام المخدرات، بس أنا أحب النهارده أشارك وأتكلم عن سوء الإدارة، وإن حياتي كانت مستحيلة.. يعني إيه أفوق وأبقى مش عارف أنا فين!! ويعني إيه أعمل حاجات، وأعرفها تاني يوم!! ويعني إيه أطْرَد من شغلي!! ويعني إيه أصحابي يشوفوني وميسلّموش عليّ!! أنا النهارده فهمت إني عاجز قدّام الإدمان، بس مش عاجز كبني آدم.. بقيت باعرف أخد قرار.. وبثق في اللي حواليه، مشرفي وأصحابي.. بأثق فيكم..

كان حاتم دائما يشارك بيومياته، وكانت هذه أول مرة أسمع فيها حاتم يحدثنا فيها عن نفسه وتجربته وفكره وأحاسيسه.. وكان واضحا أنه مر بظروف قاسية.. وتجارب لا تقل عن تجاربي.

ثم بدأ شادى حديثه:

– أنا مبسوط جدًا لأننا جينا هنا النهارده.. كل مرة آجى هنا المستشفى، أبقى مش مصدّق نفسى: أنا جاى زيارة مش إقامة!! أنا دخلت المستشفى كتير أوى.. مش عارف كام مرة.. أنا وصل بى الحال إنى باجى لوحدى.. يعنى أصحى من النوم، أجهز شنطتى واجى.. كل ده كان بسبب عجزى قدام المخدرات وقدام إدمانى.

ويستمر شادى فى مشاركته الهادئة الجميلة..

ثم تكلم أمجد:

– أنا طبعًا خريج المستشفى دى.. واللى ما أكلش من رزها يبقى عمره ما هيبطل.. رز وبطاطس.. غريب أوى موضوع البطاطس ده!! هم ماعندهومش فى المستشفى دى غير البطاطس واللا ايه؟ طبعا، أنتم عارفين أنا جيت المستشفى إزاى؟! جيت راكب حصان أبيض، والمدمنين واقفين على الجانبين رافعين الحشيش والبرشام، وكل أنواع المخدرات.. وبيحيونى.. فى الحقيقة وبكل فخر أنا جيت متشحون.. فتحت عينى لقيت صادق، ومبروك وفريد ودكتور وليد.. ويومها قالى دكتور وليد: هننزل بهدوء واللا...؟ كلمة واللا دى كنت عارفها كويس: كان معناها حقنة 2 سنتى فى العضل، مش فى الوريد، أخدتها مرتين قبل كده.. وقلت للتغيير نمشيها بهدوء المرة دى.. وظل أمجد يحكى تجربته، وضحكنا من قلوبنا.. فعلا دمه خفيف.. "مالوش حل".

وبدأت مشاركتى:

– أنا مش ها أقدر أوصف لكم أنا مبسوط باجتماع النهارده إزاى؟ أنا فعلا كنت محتاجه.. النهارده يوم ناجح 200%، أمى وأخويا زارونى النهارده، ولأول مرة نختلف بس مابنتخانقش.. أنا نفسى أخرج من المستشفى.. حاسس إن كده كفاية.. وعايز أطلع، وأبطل وأنا برّه المستشفى.. أنا مش حاسس إن دماغى بتلاعبنى..

بالعكس، أنا فعلاً عايز أطلع وأواظب على حضور الاجتماعات، وأشتغل الخطوات، وأبطّل فعلاً.

كان شعوري بعد نهاية هذا الاجتماع، أنني شهدت أروع الاجتماعات التي حضرتها في حياتي كلها.. الاحتمال الأول للسبب في هذا الإحساس، أنني لم أكن أتوقعه.. والاحتمال الثاني أنني كنت أحتاجه فعلاً، فالاستماع إلى مشاركات الآخرين مفيد ومريح نفسيا.. سلمت عليهم بحرارة، وقبل مغادرة المستشفى، سألني حاتم:

- قرأت المقدمة يا صلاح؟

- قرأت المقدّمة 3 مرات.

- وعملت اللّي عليك كلّه؟

- عملته وزيادة يا حاتم.

- يعني كلّمتني؟!

- إسمها كلّمت "الأنسرنج ماشين".

- يعني كلّمتني مرتين؟

- أيْ نعم.

- بتعجبني وإنت بتسمع الكلام.. ماتنساش الملخص المفيد: الأمانة، التفتح الذهني، النية.. ها أشوفك بكره.. على فكرة أنا ابتديت أطمئنلك يا صلاح.

- بجد؟ مطمّن لي؟

- أنا ماقلتش أنا مطمّن لك.. أنا قلت ابتديت أطمّن لك، وده في حد ذاته إنجاز.

- أي خدمة يا حاتم.

علاقة كل عضو بمشرفه علاقة خاصة مبنية على الثقة.. وأعتقد من الغباء أن يحاول المدمن خداع مشرفه.. فالمشرف لديه هدف واحد وهو المساعدة بقدر ما يستطيع.. المشرف ما هو إلا عضو مر بالتجارب نفسها وخداعه لن يستمر طويلا.

بعد نهاية هذا اليوم الجميل، صعدت إلى غرفتي.. نمت الساعة الثالثة والنصف، وكالمعتاد استيقظت الساعة السابعة..

مدهش!! زادت ساعات نومي نصف ساعة كاملة.. رائع.. لم يكن هذا سهلاً ومتاحًا من قبل.

بدأت يومي بالدعاء، ثم القراءة، وأعددت ورقة وقلمًا، وجلست في هدوء أفكر في الكلمات الثلاث: الأمانة، التفتح الذهني، النية.. أفكر وأرسم.. أرسم وأفكر.

مرت ساعة، وأخرجت ملابسي الجديدة من الحقيبة التي أحضرتها لي أمي، وبعد حلاقة الذقن، والدش الممتاز، لبست أجمل ما عندي، ووضعت الساعة الجميلة أيضا حول معصمي، وأصبحت على أتم الاستعداد لحضور الاجتماعات.

جاءت الدكتورة عالية في موعدها، وكانت الانتكاسة وكيفية الوقاية منها موضوع الاجتماع، وكيف يخرج البعض من المستشفى، ويظل معافى لفترة.. ثم ينتكس، ويعود إلى المستشفى مرة أخرى.. أو لا يعود!! لقد تقرر، وتمت الموافقة على خروج أمير في أجازة، وأحسست أن اختيار هذا الموضوع بالذات مناسب جدًا لتوقيت خروج أمير للأجازة.

وبعد انتهاء الاجتماع، قررت دكتورة عالية الجلوس مع أمير لبعض الوقت، وبعدها نستكمل حوارنا الذي بدأناه يوم الخميس.. وعندما جلسنا، بعد الانتهاء من لقائها مع أمير، قالت لي عالية:

– أنا مش مستريحة لخروج أمير.. مش بالضرورة إن كل واحد عايز يخرج يكون جاهز للخروج.. بس هو مصمم على الخروج.

– بيني وبينك يا عالية 3 شهور كتير.

– كتير، بس يعتمد على الشخص نفسه، هو عمل إيه في التلات شهور.. خلينا في صلاح.. يا ترى فكرت كويس إنت عايز تعمل إيه؟

- آه.. فكرت.. وعايز أخرج من المستشفى فى أسرع وقت.

- ليه أسرع وقت؟ أنا ما عنديش مانع إنك تخرج.. بس مش عاجبنى قصة أسرع وقت دى يا صلاح!!

- خلاص.. أنا فهمت.. ووجودى هنا فى المستشفى أكتر من كده مالوش لازمة.. دا اسمه تضييع وقت.

- طيب ليه ما تسميهوش حماية.. ومش تضييع وقت.

- طبعًا هنا حماية.. بس وبعدين يا عالية؟

- أقول لك بصراحة.. أنا مقتنعة لانى شايفاك مش بتضيع وقت، وباستمرار بتقرا وبتحاول تفهم.. بس خايفة.. بذرى أوى.

- هو أنا قلت أخرج النهارده؟! فعلا لسة شوية.. وعلى فكرة دكتور وليد رخم جدًا، واستفزنى كمان.

- أنا سمعت اللى حصل بينكم فى اجتماع الدكاترة النهارده الصبح.. هو محتاج إنك تكسب ثقته شوية.. صدقنى هو قلقان عليك.. ولازم تبقى عارف إن دكتور وليد دكتور كويس.

- بس هو دايمًا يستفزنى يا عالية.

- إنت كمان ردودك مش سهلة يا صلاح.. أنا عارفاك.

كان الوقت يمر سريعا مع دكتورة عالية.. وكم كنت أتمنى أن أتحدث معها طويلاً فى كل ما يخطر بالبال، واتفقت معى أن نستكمل حديثنا فى اليوم التالى.. وبعد أن تناولت طعام الغداء، جاءنى صادق بأسلوبه الجميل قائلا:

- زيارة لك يا أستاذ.. اتفضل معايا.

- أكيد رولا.. ياه!! كنت ناسى إنها جاية.

قابلت رولا بالأحضان والقبلات.. وقالت بمجرد أن رأتنى:

- إيه ده؟! يا نهار أبيض!! شكلك كويس أوى.

- أنا وزنت نفسى إمبارح.. تصورى 59 كيلو!! أنا وزنى زاد 6 كيلو، تخيلى!!

- عملوا فرق كبير.. احكى لى أخبارك.. ماما وكريم حكُولى حاجات وأخبار حلوة.

مرت عالية من أمامنا.. فقلت مقدمًا لها أختى رولا:

- عالية.. أعرفك بأختى التوأم رولا.. بتزعل جدا لما أقول إنها أكبر منى بربع ساعة.. رولا، الدكتورة عالية.. الدكتورة بتاعتى.. أجمل دكتورة فى العالم.

- إزيَك يا رُولا؟

- إزيك يا دُكتورة عالية.. صلاح عامل معاكُم ايه؟

- كويِّس.. كويس أوى.. صلاح مِدِّينا أمل.

- أوَّل مرة، من عشرين سنة أسمع حد مِشْ بيشتكى مِنَّك.

- أى خِدْمَة.. أخوك عامل شُغْل جامد.

- عن إذنكم.. وفرصة سعيدة.

بعد أن تركتنا الدكتورة عالية، قلت لرولا:

- دى الدكتورة عالية.. شُفْتى حلوة ازاى؟ المشكلة إنها متجوزة، وأكبر منى بتلات أو أربع سنين.. التانية محلولة، بس الأولانية ملْهاش حل.

- بس يا صلاح.. عيب كده.

- احكى لى.. الدنيا برّه أخبارها ايه.. أنا نسيت الشارع والناس.

- مفيش.. كل حاجة زى ما هىَّ.. بابا كويس.. كلِّمنى امبارح، وجاى يوم الاتنين.

- أنا عايزُه يجيلى هنا يوم التلات.

- صعب شوية.. هيوصل الاتنين متأَخر.. سيبه يرتاح يومين، ويجيلك الأربع أو الخميس.

- أنا عايز أخرج من هنا يُوم الخميس.

- ماما رأيها إنك تستنى شوية.. إنت مستعجل ليه؟

– يا أقولك ايه يا رولا.. كفاية كده.. خلاص زهقت، وبعدين الوضع اختلف.. صدقيني.

– والله يا صلاح أنا حاسة بكده.. يارب.

سعدت بصحبة رولا والحديث معها حوالى ساعة، وعندما رجعت إلى القسم وجدت تامر أمامى.. وجهًا لوجه.. وكانت يده مشوهة.. "وارمة" بشكل مخيف.. وقلت له:

– يا ابن الإيه!! وَحَشتِنى يا تامر.. والله زمان.

– ازيك يا صاصو؟ أخبارك ايه؟

– الحمد لله.. مال إيدك؟

– اسكت، ضربت سومته غلط، وإيدى باظت.. دا كدا أحسن من الأول بكتير.

– كدا أحسن إزاى؟ دا شكلها مرعب.. رحت لدكتور؟

– أمى ودتنى لدكتور وقال نقطعها.. وبعدين رحنا لدكتور تانى وعمل لى عملية.

– إمتى الكلام ده؟

– من أسبوع.. وطلعت من العملية على الديتوكس.

– الحمد لله يا أخى.. جت سليمة.

– بيقولوا لى إنك ماشى اجتماعات، وعامل شغل زى الفل.

– بس عندى خبر هيزعلك.

– فيه ايه؟

– نانسى.

– مالها؟

– أفورت.

– ايه؟ إزاى؟ لا.. لا.. لا!!

– لقوها فى طريق مصر إسكندرية الصحراوى.

- مش مُمكن؟! عرفت منين؟

- من حسام.. بيقول كانت مع واحد في الساحل، ولمّا أفورت رماها في الطريق.

- يااااااه.. ناسي.. إيه الخبر الوحش ده.. تالت حد يموت في أقل من تلات أسابيع؟!

- إنت كُنت حَبيب القلب.

- قلب إيه يا عم تامر؟! خَلاص.. القلب مات.. لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله.

كان مفاجأة غير سارة بالمرة.. حزنت جدًا لهذا الخبر.

تركت تامر لأستعد للذهاب إلى الاجتماع، ووصلت إلى المدرسة مقر الاجتماع، وكنت في حالة اكتئاب عندما دخلت القاعة، وتوافد الناس واحدًا وراء الآخر.. وعندما بدأ الاجتماع، لم أكن استطيع التركيز في بدايته.. ورويدًا، رويدًا بدأت أنصت.. وشاركت بكلمات محدودة:

- الحمد لله إن أنا هنا، ومبطّل النهارده.. عرفت النهارده إن واحدة صاحبتي ماتت.. أفورت.. الموضوع قلب غم.. هو فيه إيه؟! كل كام يوم حد أعرفه بيموت.. أنا عايز ألحق بقية أصحابي.. عايز ألحق حُسام وبهاء.. رامي دخل السجن.. أنا تعبت من اللّي بيحصل ده.. دي حرب.. والواحد مش ممكن يطلع منها سليم غير لو انسحب بكرامته.. وفي أسرع وقت.. أنا عايز انسحب.. أنا لازم انسحب.. أنا كل يوم باخاف أكتر من اليوم اللّي قبله.

بعد انتهاء الاجتماع تجمعوا حولي.. حبًا.. وتعاطفًا.. وربما تشجيعا، ثم خرج حاتم، وأنا معه، وقفنا خارج القاعة وسألني:

- كلّمتي النهارده؟

- النهارده لسّه ماخلّصش.

- إنت ميعادك الساعة 5:00.

– معلش.. أصل أختى زولا زارتنى فى المستشفى، بعد كده جريت بسرعة على القسم علشان ألبس واستعد للاجتماع.

– المُقدِّمة يا صلاح.

– أرجوك.. بَلاش المقدّمة يا حاتم.

– المقدمة مرتين.. وبكره مكالمتين.. واحدة فى الميعاد، والثانية الساعة 10:00، بعد ما ترْجع من الاجتماع.

– حاضر.

– لو المستشفى وافقت على خروجك، أُخْرج.. أنا ماعنديش مانع.

– بجد يا حاتم؟

– بجد.. بس لازم تبقى فاهم حاجة مهمة أوى.. الموضوع مــاُفيهوش هــزار، الناس بِتْمُوت بَرّه.

ظللت أفكر فى نانسى طوال الطريق إلى المستشفى.. ياه.. لــو إنهــا كانت تعرف الاجتماعات، هل كان من الممكن أن تنجو وتبطّل؟! يعنى أنا مــش هشوفها تانى!! فاكر شَرّه.. فاكر.. وفاكر.. ظلت الخواطر تقفز إلى رأسى إلى أن انتهى اليوم.

الله يرحمك يا نانسى..

ونمت فى ميعادى الساعة 3:30 لأستيقظ الساعة السابعة كالمعتاد.

استيقظت، وصورة نانسى تطاردنى.. أنا فعلاً حزين.. يا ساتر يارب.. مسكينة نانسى.. نهاية مأساوية، ملقاة فى الطريق الصحراوى!!

عملت الواجب.. دَعَوْت الله سبحانه.. شكرته.. وبعد القراءة فى الكتاب نزلت من غرفتى لتناول الإفطار، وقراءة الصحف.. ياترى.. هل كتــب أحــد الصحفيين عن نانسى فى صفحة الحوادث؟ يا ترى هل مــات شــخص آخــر ولم أعرف؟

ذهبت لحضور اجتماع الدكتورة عالية.. ودار حول الأمانة، وتكلم البعض عن الأمانة من وجهات النظر المختلفة.. كل منهم شارك كيفما يراها، ولم أتفاعل معهم، كنت أشعر بالإجهاد، ليس بسبب قلة النوم، ولكن موضوع نانسي قد ترك أثره وبصمته، ولا أنسى أننا عشنا أيامًا حلوة، وأعرف جيدًا أنها كانت تحبني فعلاً.. في حياتي لم أطلب منها شيئًا واعترضت، أو رفضت.. بالعكس.. أحلامي كانت أوامر.. انتهى الاجتماع بمشاركة ضعيفة مني.. فسألتني دكتوره عالية:

– مالك النهارده؟ فيه إيه؟

– فاكرة نانسي.. اللّي حكيت لك عنها.

– أي واحدة؟ فكّرني بيها.

– اللّي كنت بَاضرَب معاها في مصر الجديدة.

– أيوه.. إفتكرتها.. مالها؟

– أوفر دوز.

– يا نهار أبيض!! عرفت إزاي؟

– تامر قال لي إمبارح.

– إيه اللي بيحصل ده؟ ناس كتيرة اليومين دول عمّالة تموت.

– نفس الجملة اللّي قلتها إمبارح.

– وده يخلينا نتمسك أكتر باللّي إحنا فيه.. واللّي وصلنا له يا صلاح.

– أكيد طبعًا.. المهم.. أخبارك إيه يا عالية؟

– الحمد لله كويسة.. بس إنتَ مش عاجبني النهارده.

– معلش.. شوية وأبقى كويس.. نسيت أقول لك إن حاتم وافق إني أخرج من المستشفى.. بعد موافقتكم طبعا.

– إنتَ لسه ناوي تخرج؟

– أمال عاوزاني أعمل إيه.. أفضل قاعد كده؟ أنا خلاص زهقت.

- بكره بعد الاجتماع عاوزين نقعد مع بعض مدة طويلة شوية.. فيه حاجة نعملها سوا.

- ها نعمل إيه؟

- بكره أقول لك.. إنت مش عملت فىّ كده من كام يوم؟

- يعنى بتردّيها لى؟

- لا أبدًا.. أصل أنا لازم أمشى دلوقت، وإنت كمان عندك ميعاد مع دكتورة إكرام.

- اتفقنا.. أشوفك بكره.

وفى طريقى إلى مقابلة دكتورة إكرام، التقيت بدكتور وليد:

- إزيّك يا دُوك؟

- إزيك يا صلاح.. الاجتماعات أخبارها إيه؟

- تمام.

- ابتديت خطوات؟

- آه طبعا.. أنا باكتب دلوقت فى الخطوة الأولى.

- ربنا معاك.. ولو عايز أى حاجة، قل لى.

- شكرًا يا دكتور.

أعجبنى كثيرا الأسلوب الذى تحدث به.. أسلوب هادئ ولغة جديدة مختلفة، وقابلت دكتورة إكرام.. وبادرت بقولها:

- البقية فى حياتك.. أنا عرفت من تامر أن ناتسى اللى ماتت كانت صاحبتك.

- حياتك الباقية.. شكرًا يا دكتورة إكرام.

- إسمع.. أنا مش عاوزاك تخرج دلوقت.. أنا قلقانة عليك.. إستنى شوية.

- حضرتك معاهم واللاّ معايا؟

- أنا معاك طبعًا، وعلشان كدا عاوزاك تقعد هنا شوية كمان.. أنا مش طالبة كتير.. أسبوع واحد كمان.

- صدقيني يا دكتورة، والله مش هتفرق.. بالعكس أنا خلاص مش قادر أقعد واسمع كلام سلبي أكتر من كده.. مين عايز يضرب.. وجين عايز يهرب.. ومين هيجيب مخدرات.. ومين.. ومين.. ومين.

- على العموم إحنا متفائلين بيك، ورأينا كلنا فيك إنك بتحاول، بس دا مايمنعش إن إحنا برضه قلقانين عليك أوي يا صلاح، إنت ماكملتش شهر في المستشفى!!

- أنا عارف يا دكتورة إكرام، وبعدين هو أنا ها أروح فين؟ هتلاقيني كل يوم هنا برضه.

- طبعا، أكيد.. ما إنت مش هاتحب نقلقنا عليك.

- أكيد لأ.

وبعد تناول طعام الغداء، ذهبت إلى غرفتي، وجلست أقرأ في الكتاب، وأمسكت الورقة والقلم وكتبت مفهومي عن الخطوة الأولى.. كتبت 5 صفحات.. وكان واضحا لي عجزي أمام إدماني.. وحياتي وما حدث فيها من هلاك ودمار.

وفي الموعد بدقة وصلت إلى الاجتماع، وبعد التحية والسلام.. عملت نسكافيه، وتمنيت مجيء حاتم.. ولكنه لم يحضر، وجاءت مجموعة كبيرة نوعا ما، ومن بينهم وجوه جديدة لم ألتق بها من قبل، وفهمت من الجلسة أن أحدهم توقف عن التعاطي منذ مدة طويلة، وقد سافر خارج البلاد، وبعد عودته أحضر معه صديقه الذي يحضر الاجتماعات لأول مرة.. ودار الاجتماع حول قراءة قصة وتجربة شخصية والتعليق عليها، وعنوان القصة :"حياة مستحيلة".

فعلاً.. الحياة كانت مستحيلة..

وشاركت في هذا الاجتماع بحديث عن التشابه الذي بيني وبين الرجل صاحب القصة، وهذه التجربة الشخصية.. وذكرني الاهتمام بهذا العضو الجديد، بالاهتمام الذي استقبلت به في اليوم الأول الذي دخلت فيه هذه القاعة.. وطلب منه شادي، كما طلب مني أن يقرأ: لليوم فقط.

كان من الواضح شعوره بالخوف وإحساسه بالقلق.. لقد مررت بالتجربة نفسها، وأعرف هذه المشاعر جيداً.. وبعد الاجتماع ذهبت إليه لأتعرف عليه، كما حدث معي من قبل.

وفي هذا اليوم حرصت أن أعرف رأى توفيق في خروجي من المستشفى.. فسألته:

- إيه رأيك يا توفيق.. أخرج من المستشفى دلوقت؟

- دا قرار مش سهل.. إيه رأى دكتورة عالية؟

- مفيش حدّ بيقول: لأ.. بس برضه مفيش حدّ بيقول: آه.

- المشكلة إن دى أول مرة تدخل فيها المستشفى، وكمان من تلات أسابيع بس!!

- لأ.. من 24 يوم.

- طيب حقك عليّ يا سيدى.. يعني مش شهر حتى.. وبصراحة مش عارف أقولك إيه.. قرار صعب.. أنا أصلاً مادخلتش مستشفى، أنا بطلت من البيت، لكن شادى دخل المستشفى اكتر من 12 مرة.. الموضوع يا صلاح مالهوش مقياس.. كل واحد وليه ظروفه.. وعلشان كده القرار فيه صعب.

اليوم، تمنيت وجود حاتم في الاجتماع، كم أحب الحوار معه، كما أنه يعرف عني الآن كل التفاصيل، وإضافة إلى هذا فإنني أشعر بأنه يفهمني جيداً.

عند عودتي إلى المستشفى، أبلغني عامل التليفون أن أمي اتصلت بي، وللأسف لم أكن موجوداً.. وللأسف أيضاً لم يكن معي تصريح بمحادثة تليفونية لأتصل بها، إنه نظام المستشفى.. شيء يغيظ.. وفكرت أعمل محاولة.. من يدري؟! ربما أنجح.

- عايز أعمل مكالمة للبيت يا صادق.. ممكن؟

- ماعملتش تصريح ليه؟

- هو أنا باقولك أنا خارج إجازة؟! اطلب لى البيت وخليك جدع.

- ياريت ينفع..ماينفعش يا باشا.. إنت لك مكالمة واحدة للمشرف، أكتر من كدا لازم تصريح.

- ماشي يا صادق.. بكره الصبح هتلاقي سلك التليفون مقطوع، ومفيش حد في القسم كله هيتكلم.

- ما أنا عارف أنك إنت اللي قطعته قبل كده، بالظبط زي الطبق اللــي تحــت سرير حلمي، هو إنت فاكر إن فيه حاجة بتستخبى عليّ في القسم دا كله!!

- والله رجولة يا صادق.. تعال لي أخدك دور شطرنج قبل ماتنام.. أنا عــارف إنت مفيش حاجة بتصلح مزاجك غير لما بتغلب دور على آخر الليل.

- تعال.. بس كده.. والشاي عليّ يا صلاح.

- إنت أبو الواجب كله.

لعبت دور شطرنج، وطلعت إلى غرفتي ووجدت أمير يجهز حقيبته:

- خلاص يا أمير.. خارج بكره إن شاء الله؟

- كفاره.. يا ساتر يارب.. أنا لا يمكن أرجع هنا تاني.

- أمال لو ضربت هتروح فين يا حبيبي.

- ها أروح الجنة.. والله ما في حاجة هتوحشني فــي المستشفى دي غيــرك يا صلاح.

- والله.. وإنت كمان يا أمير.. أنا وأنت قضينا مع بعض 3 أسابيع فــي نفــس الأوضة.. والله كانت أيام حلوة.

- لا يا حبيبي.. أنا قضيت على السرير ده 3 شهور.. بس أحلى أيــام، كانــت آخر أيام.. الأيام اللي عرفتك فيها يا صلاح.

- يا اقولك إيه.. واظب على الاجتماعات يا أمير.. ماتكسلش وماتستهبلش.

- يعني أنت اللي هتواظب يا صلاح؟ والله ما في حد فاهمك في المستــشفى دي غيري أنا.. عرفت بتبهم كلهم.

- بجد هتوحشني يا أمير.

- يا أقولك إيه.. بلاش تقلبيها دراما.. الحكاية مش ناقصة.. كلها كام يوم وتُخرُج وتحصلنى، ونتقابل فى الاجتماعات.

- أكيد.. لازم تروح الاجتماعات.

- آه.. بس لو يخلونا نشرب حشيش!!

- يا ابنى ماينفعش.. مفيش فايدة فى دماغك!! طُوبة!!

فى تلك الليلة نمت الساعة 3:00، واستيقظت الساعة 7:00 ما هذا الجمال؟ لقد نمت 4 ساعات كاملة.. معنى هذا أن هناك أملاً كبيرًا فى العودة إلى النوم 6 ساعات فى اليوم.. وبعد الدش، حرصت على ارتداء ملابس أنيقة.. وبعد كتابة بعض الصفحات، نزلت لتناول الإفطار، وقراءة الصحف، ولعبت دور شطرنج مع صادق، وأقبلت علينا نجلاء.. لقد وصلت قبل موعدها.. وبدأت حوارها المرح مع أمير:

- صباح الخير.

- صباح العسل بالطَحينة.

- وإيه لزْمتها الطحينة دى؟

- إنتِ عُمْرك ما أكلت عسل أبيض بالطحينة؟

- إيه الكلام ده؟! إنتَ بتضحك علىّ؟!

- طيب جرّبى وادعى لى.. خلال ربع ساعه تبقى ولْعة..

ضحكت وقالت:

- أنا جاية بدْرى مخصوص علشان أسلّم عليك يا أمير.

فداعبتُها قائلا:

- يا سيدى.. يا سيدى.. قولى كده وفهّمينا الموْضوع.. ماشى يا عم أمير.

- أيوه.. نجلاء دى حبيبتى.. عندك مانع؟! وبعدين اللّى بيتُه من قزاز ما يحدّفش النّاس بالطُوب واللاّ إيه يا عمّ النّاصح.. صح يا نجلاء؟

- أمكث يا أمير؟ من ساعة ما عالية ظهرت، وهو مش بيعتبرني ولا بيسأل عني.. شخصيته اتغيرت 180 درجة.

- إيه الظلم ده، حرام عليك!!

- هتجيلنا قريب يا أمير؟!

- أجي أعمل إيه بس؟! الواحد ما يصدق يخرج من هنا، تقولي له ييجي تاني؟

وبحرارة سلم علينا أمير.. واحدًا واحدًا.. وقلت له:

- ها اكلمك، أول ما أخرج من المستشفى.

- وأنا مستني تليفونك.. يالا.. سلام.

تركني أمير في غرفتي وانطلق خارج المستشفى.. جاءت دكتورة عالية وسألتني:

- فين أوضتك؟ أفضل الكلام في مكان مقفول.

وفي غرفتي، دار حديثنا وأسئلتها عن والدي، وأمي، وكريم، ورولا، وأيضا عن صديقاتي، مريم، ورانda، وهالة.. كانت جلسة مختلفة، وأعتقد أنها كانت من أهم جلسات العلاج.. بدأت في التحدث معي عن المرض قائلة:

- الإدمان يا صلاح مرض زي أي مرض تاني.. وتعاطي المخدرات هو أحد أعراض مرض الإدمان.

- أنا طول عمري فاكر أن أهلي ماربونيش كويس، وهو ده السبب.

- مش مظبوط الكلام ده، الإدمان مرض، ولا له صلة بسوء التربية، ولا نقص الأخلاق، بدليل أصحابك في البرنامج، شوفت بيتصرفوا إزاي بعد ما بطلوا.. ناخد شادي مثلًا: مفيش أي حد ممكن يتخيل إنه كان بياخد مخدرات.. مؤدب، هادي، وصوته ما بيطلعش.. تعلمك شادي كان بييجي المستشفى لوحده، يقعد شوية ويخرج يضرب، ويرجع تاني، وبرضه لوحده.. لغاية لما راح الاجتماعات ودلوقت الحمد لله مبطل بقاله سنة.

- أنا بحبه جدا.. شادي محترم.

ثم طلبت منى عالية أن أحدثها عن علاقتى بأهلى فقالت:

- لو كان باباك موجود هنا دلوقت كان هيبقى واقف فين؟ وعينه عليك ولّا لأ؟

وتكرر السؤال بالنسبة لكل فرد من أفراد عائلتى والناس المهمين فى حياتى..

وبعد ذلك طلبت منى أن أقف فى مكان كل واحد من أهلى، وأتكلم نيابة عنهم وعن لسانهم ثم قالت:

- لو كانوا موجودين هنا، كانوا هيقولوا إيه لصلاح؟

فى الحقيقة هذه الجلسة كانت مختلفة. ولم يكن وقعها على سهلاً، لأننى ولأول مرة وضعت نفسى مكانهم، وأحسست بما يمكن أن يشعروا به فى ذلك الوقت.

لم أستطع التنفس، وإن كنت لم أكن أرغب فى التنفس، فقلت لها:

- كفاية.. نقف لحد كدا يا عالية.

- لأ.. نكمل.. مهم أوى نكمل، إنت بقى عايز تقول لهم إيه النهارده؟

سكت لثوانٍ ثم قلت:

- مفيش وعود.. بس أنا هاعمل اللى علىّ النهارده، علشان أفضل ميطل؟

- كويس أوى.

ثم انتقلت إلى موضوع الخروج من المستشفى، وصارحتنى برأيها:

- قصة خروجك بذرى عاملة مشكلة، لأن الآراء اختلفت، وأنا اقتراحى إنك تخرج بس على أساس إنها أجازة.. يعنى تروح البيت يوم الخميس، وترجع الجمعة الصبح، وتقضى اليوم كله فى المستشفى. وتنام هنا الجمعة والسبت، ويوم الحد تنام فى البيت، وترجع الاتنين وتقضى فى المستشفى يومين: الاتنين والتلات.

- إيه يا عالية؟ أنا اتلخبطت، يعنى الملخص عايزانى أخرج أجازة.. مش خروج نهائى.. صح؟!

- خروج تدريجي.. وكل مرة ترجع من الأجازة يتعمل لك تحليل.

- موافق.. وإيه كمان يا عالية؟

- تحضر كل يوم اجتماع.

- أكيد.

- لعلمك، أنا أكتر واحدة متحمسة لخروجك، وأكتر واحدة خايفة من خروجك.. إنت مدّيني أمل كبير أوي.. وأنا فعلا خايفة.

- أنا مش ها اتحرك خطوة من غير ما تكوني عارفة أنا فين وباعمل إيه؟ كل خطوة بالاتفاق.

- اتفقنا.. أنا سمعت أنك هتقابل دكتور سمير بكره؟

- إيه ده.. هو مفيش حاجة بتستخبى في المستشفى دي!

- لأ طبعا.

- دكتور وليد قال لي إنه بكره هيبلغني بالميعاد.

خرجت د. عالية من المستشفى حوالي الساعة الثالثة، وبعد أن تناولت وجبة الغداء، ذهبت إلى دكتور وليد لآخذ منه التصريح للاتصال بأمي.. ثم صعدت إلى غرفتي للقراءة وفقًا للاتفاق مع حاتم.. ولم أجد أمير في الغرفة، وأصبحت وحدي في غرفتي.. إنني سأفتقد أمير.. قضينا معًا 3 أسابيع في نفس الغرفة.. وبصراحة، كانت صحبته لطيفة، ولم يكن مزعجًا على الإطلاق، على العكس تمامًا.. كان طيبًا وودودًا.

وفي الموعد المحدد الساعة الخامسة..كلمت حاتم، ورد هو شخصيًا:

- ألو.

- أهلا وسهلاً.

- أكلم "الأنسرنج ماشين" لو سمحت؟

واتفقنا على اللقاء المسائي.. وبعد الحوار مع حاتم، كلمت أمي، لأزف إليها نبأ اللقاء مع دكتور سمير في اليوم التالي، وتقبلت الخبر بهدوء.. عندما

أوضحت لها أنه سيناقشني في موضوع خروجي من المستشفى.. لم تنفعل أمي، ولم تعترض، وكان تعليقها:

- أنا ثقتي في دكتور سمير كبيرة.. وربنا يعمل اللّي فيه الخير.

كانت أجمل مفاجآت الاجتماع حضور أمير، وأسعدتني رؤيته، لتصوري أنه لن يحضرها أبدًا، ولكنه التزم بتنفيذ وعده. إنه موقف رجولي وإيجابي يحسب لصالحه.. واكتملت سعادتي عندما نفذ حاتم أيضًا وعده وجاء قبيل الاجتماع.. حاتم.. كان بالنسبة لي طوق النجاة ومثلي الأعلى، ولم يشغلني كثيرًا أنه أصغر مني سنًا، فكل تصرفاته تؤكد أنه كبير.. وهو بكل صراحة نجم متألق، ولست وحدي الذي يعجبه أسلوبه في المشاركة، وفي إدارة الاجتماع، وبالتالي كنت أركز في كل كلمة يقولها.. بدأ حاتم حديثه قائلاً:

- إيه اللّي بيحصل ده؟ هوا إحنا اللّي مدمنين وعيانين، واللا الناس هي اللّي مجانين؟!! بصراحة أنا مش فاهم حاجة!! الناس في الشارع بتتصرف بطريقة غريبة جدًا، وأنا جاي شفت اتنين رجالة في الطريق بيتخانقوا، واحد كسر على التاني.. إزاي.. وإزاي؟ أصلاً الاتنين غلطانين، واحد ماشي على الشمال وعايز يخش يمين.. والتاني ماشي على اليمين، وعايز يخش شمال.. وأنا جاي من ورا وبتفرج على سيرك.. نزلوا من العربيات.. قلت بس حرب.. نزلت أنا كمان ولقيت اتنين رجالة، واحد على الأقل 60 سنة، والتاني 65 سنة، ووقفت في النص أحاول أهدي بينهم، وقلت لهم: معلش يا افندم.. حصل خير يا افندم.. حوالي ربع ساعة في محاولات فاشلة.. هو فيه إيه؟ هي الناس مالها؟ وبعدين، الاتنين مافيهومش نفس.. واحد منهم لو زعق شوية زيادة، كان ممكن يجيله سكتة قلبية.. الناس في الشارع لازم يبقى عندهم برنامج يتعلموا فيه إزاي يحترموا بعض، ويشتغلوا خطوات، ويحضروا 500 اجتماع في 500 يوم.. والله دا شغب هيجنني..

استمر حاتم في الاعتراض على تصرفات وسلوك البشر في الشارع.. وبعد ذلك شاركت بإحساسي:

- الحمد لله، أنا مستريح اليومين دول.. أيامي ناجحة طالما أنا مش باخد مخدرات.. احتمال كبير أخرج من المستشفى يوم الخميس وبكره إن شاء الله عندي ميعاد مع دكتور سمير.. أنا قلقان شوية، وبصراحة مش عارف سر قلقي، وبيدور في دماغي 100 سؤال.. يا ترى هو هيقول لي إيه؟ ويا ترى هو ممكن يسألني في إيه؟ وأنا مفروض أجاوب إزاي؟! أول مرة شفته في "الديتوكس" كنت ضايع.. المرة دي الموقف مختلف.. بجد زهقت من التفكير، قلت اطلع اللي جوايا في الاجتماع علشان استريح.

بعد انتهاء الاجتماع، وقفت مع حاتم كالمعتاد، و"دردشنا" في مواضيع مختلفة، وفي آخر كلامه قال لي عبارة مهمة:

- "إنت مش محتاج إنك تثبت أي حاجة لأي حد".

قالها ببساطة شديدة.. بينما كنت ألف وأدور حول نفسي، وكان مستحيل الوصول إلى هذه المقولة الموجزة المفيدة.. ياه.. كم كنت في حاجة إلى سماعها.

عدت إلى المستشفى في حالة هدوء نفسي، وبعد أن تناولت وجبة العشاء لعبت كوتشينة مع الشباب، ودور شطرنج مع صادق، ثم صعدت إلى غرفتي.. قرأت في الكتاب بتركيز حتى الساعة الثالثة.. إنها أول ليلة أنام فيها في الغرفة وحدي، بعد خروج أمير من المستشفى.

39

القـــــرار

استيقظت الساعة السابعة كالمعتاد، وبعد حلاقة الذقن والدش، أعددت نفسي لمواجهة اليوم بملابس أنيقة.. عدت أهتم من جديد بالملابس الأنيقة، والمظهر اللائق.. ياه!! ما هذا الذى كنت فيه قبل دخولى المستشفى؟! مررت بأيام لم أكن استبدل فيها "الترينينج" بغيره لمدة أسبوع!! يااااه!!

قمت بواجبي.. الدعاء، والقراءة، ثم نزلت لتناول الإفطار، وقراءة الصحف.. وأثناء لعب دور الشطرنج مع صادق، وصل دكتور وليد وقال لى:

- ميعادك يا صلاح الساعة 1:30 مع دكتور سمير، ومعايا الساعة واحدة.. اتفقنا؟

- اتفقنا.. شكرًا يا دوك.

وصلت دكتورة عالية، وبعد انتهاء الاجتماع قلت لها عن موعدى مع دكتور سمير.. وجلسنا معا، وتحدثنا.. كانت دائما السبب الرئيسى فى إحساسى بالاطمئنان..

- مَا تخافش.. كله هيبقى كويس.. وإن شاء الله أشوفك بعد ماتقابله..

- على فكرة، دكتور وليد لأول مرة بقول لى إنه عايز يقعد معايا قبل مقابلة دكتور سمير.. ماحصلتش قبل كده.

- هايل.. إسمَعْ لُه.. وليد دكتور كويس.

- ياللا.. عندك أجازة مني يا عالية لمدة ساعتين.

- أول ما تخلص مع دكتور سمير، بلّغ صادق، وأنا ها أسيب له خبر بمكانى.

ذهبت إلى صادق:

- من فضلك يا صادق وصّلنى عند دكتور وليد.. ميعادنا الساعة واحدة.

وللمرة الأولى أدخل غرفة دكتور وليد.. تجولت بعيني في أرجائها.. بها سرير، ومكتب، وأمامه كرسي ومنضدة، وفي ركن فيها الميزان.. وبينما دكتور وليد يقرأ في الملف الذي أمامه، وقفت على الميزان، وأذهلني ما وصلت إليه، فقلت:

– إيه ده؟ 61 كيلو!! أول مرة في حياتي أجيب الرقم ده!! الظاهر هـ ابتدى أعمل رجيم.

– يعني وَزنك زاد 8 كيلو.

استمر دكتور وليد يقرأ ويقلب صفحات الملف.. فقلت:

– إيه الجداول دي كلها؟ دا أنا اسمي مكتوب على كل ورقة.. الملف دا بتاعي.. مليان ورق كدا ليه؟! مُمكن أشوف الملف، وأقرا معاك؟

– لأ.. طبعًا.. مِش مُمكن.

– ليه؟ هو مش الملف دا بتاعي؟

– لأ.. مش بتاعك.. ده بتاع المستشفى.. النهارده لك 26 يوم.. اللي شافك أول يوم، ويشوفك النهارده مايعرفكش.

– البَركة في رُزِ سويسرا.

– البركة في ربِّنا.

– لك حق يا دُوك.

محتاجين نقعد مع مامتك وباباك، وإخواتك، جلسة ننظم فيها الأمور شـوية.. لازم كل المواضيع تبقى واضحة للكل علشان ما يحصلش مشاكل.

– ما تقلقش يا دكتور.. أنا ناوي أريحهم على أد ما أقدر.

– أنا متوقع كدا برضه.. باباك وصل إمبارح بالليل.

– لأ.. دا حضرتك مركز أوي، ومتابع كمان!!

– أكيد.. واتكلمت معاه النهارده الصُبح.

– يَعني كلِّمك وما كلمنيش؟!

– يعني هو كلّمني علشان خاطر مين؟ الطبيعي إنه يفهم الوضع الأول، وبعدين أنا كنت ناوي أحوّل لك المكالمة، بس إنت كنت في اجتماع مع عائلة.

– في بيتها يا دوك.. أنا وإنت واحد.

– ياللا بينا علشان ما نتأخرش على الدكتور سمير.

مشينا معًا.. وصلنا مكتب دكتور سمير، ودخلنا السكرتارية، وأبلغهم دكتور وليد بموعدي، ثم وجه إليّ الكلام:

– 5 دقايق لغاية دكتور سمير ما يخلّص مع ضيفه، وبعد المقابلة ترجع يا صلاح على القسم، أظن إنت مش محتاج حد يعرّفك الطريق؟!

– لا.. مش محتاج.. أنا عارف طريقي كويس.. شكرًا يا دوك.

خرج دكتور وليد من غرفة السكرتارية بعد أن منحني ابتسامة عريضة.. كلها أشياء جديدة بالنسبة لي، وانتظرت خمس دقائق فقط، وخرج دكتور سمير مع ضيفه، وحياه بحرارة عند باب الغرفة، ومد يده إليّ بالسلام قائلا:

– إتفضل.. أنا اتأخرت عليك؟

– لا.. ولا يهمك يا دكتور.. أنا لسة جاي.

– إتفضل هنا.. تشرب ايه؟ أنا ها اشرب شاي.

– وأنا كمان.

– سكرك ايه يا صلاح؟

– كوباية ولا فنجان؟

– فنجان.

– اتنين من فضلك.

– شاي، واحد علشاني، والتاني معلقتين سكر.. وامنع التليفونات.

وقلت لنفسي: ياه!! اهتمام عالي.. أوي.. واحترام.. حاجة جميلة.. وبهدوء رائع، بدأ كلامه معي:

- شكلك أحسن بكتير من أول مرة شفتك فيها.

- أكيد طبعًا.. أنا جيت المستشفى تعبان أوي.

- قضيت أيامك ازاي يا صلاح؟

- قضيت أيام حلوة، وأيام وحشة.. وده طبيعي. المستشفى حلوة، مريحة، واسعة، بس يعني محتاجة شوية شغل في الإداريات.. التنظيم الإداري متعب.. مثلا علشان الواحد يعمل تليفون مشكلة.. الملابس تتأخر في التنضيف.. الدبان غلس وكتير، وبالذات في غرفة الأكل، وعلشان الواحد يقابل الدكتور قصة ورواية..

- طبعًا، إنت فاهم إنك مش في فندق خمس نجوم.. صح؟

- أكيد.. بس أنا في سويسرا.

ابتسم الدكتور سمير..

- اتفضل الشاي.

- شكرًا يا دكتور.

- كلمني عن العلاج.. هو دا اللي يهمني.. عملت إيه؟

- عملت كل اللي اتقال لي.. حضرت كل الجروبات والاجتماعات.. مفيش يوم اعتذرت عن اجتماع.. وشاركت كتير.. وكل يوم أقرا في الكتاب، وتقريبا خلصت الخطوة الأولى، بس المشرف مش عايز يناقشها معايا غير لما أخرج من المستشفى.

- مين المشرف بتاعك يا صلاح؟

- حاتم.. وحضرت اجتماعات وجلسات دكتورة عالية، ودكتورة إكرام، ونجلاء، وبصراحة، دكتورة عالية أكتر واحدة عرفت أتفاهم معاها، هايلة ومريحاني، وأنا ناوي أواظب على حضور اجتماعاتها حتى بعد ما أخرج من المستشفى.

سكت الدكتور سمير لثوانٍ ثم قال:

- صلاح.. واضح إنك ذكي أوي.. ودا سلاح ذو حدّين.. يا إمّا إنت فعلًا ذكي أوي، واستوعبت الموضوع بسرعة مش طبيعية، يا إمّا إنت ذكي أوي، وعرفت تضحك على المستشفى كلّها في وقت قليل.. ودا اللّي هيبان ويتضح في الفترة الجاية.. لو رجعت تاخد مخدرات تاني، وكنت محظوظ ولا اتمسكت أو ماموتش، هترجع هنا تاني، بس المرة الجاية حتشرفنا شهور.. اتفقنا؟

- اتفقنا.

- إنت طبعًا عارف إن أنا أقدر أشرب بيرة مثلًا، أشرب زي ما أنا عايز، لأن أنا ماعنديش مشكلة مع الشرب، لكن إنت ما ينفعش تشرب أي حاجة.. لأنك عندك مشكلة.

- للأسف الشديد أنا فهمت الكلام دا كويس.. وعارف كمان إني هاعيش بقية عمري مريض.

- فيه مدمنين بتشوف إن مرضها بدأ قبل تعاطي المخدرات.. لما تشتغل الخطوات هتعرف تحكم بنفسك.

- أعتقد كده برضه.

- تمام.. هتخرج أجازة يوم الخميس حسب الجدول اللّي هيتنظم مع دكتور وليد، وأنا معلوماتي إن دكتورة عالية هي اللّي قدمت الجدول ده.. ويفضّل إنك تمشي عليه زي ما هو مقترح بالظبط.

- ما تقلقش يا دكتور.. أنا مش ناوي أفاصيل.

- أحب دايمًا أشوفك زائر مش مقيم.. فيه ناس كتير هتحتاج مساعدتك لو عرفت تقف على رجليك.

- إن شاء الله هتلاقيني دايما هنا.. اطمن يا دكتور.. شكرًا واستأذن.

- اتفضل.. ربّنا يوفقك.. مع السلامة.

وقام هذا الدكتور العظيم من على مكتبه، ووصل معى إلـــى البـــاب، وسألنى:

– فيه حدّ معاك برّه؟ حد يوصّلك؟

– لا يا دكتور.. أنا عارف طريقى كويّس.

وخرجت من مكتبه وأنا في قمة السعادة.. كل ما أستطيع قوله في تلك اللحظة، أننى التقيت مع إنسان يمتلك في قلبه حبًا عميقًا للناس.. يتحدث بهدوء وبساطة ودون استعلاء.. كانت جلسة أنيقة.. بالتأكيد سأتذكرها كثيرا..

وهكذا أثبت عمليا أنها مستشفى هدفها العلاج، والأمر يتوقف على حالة المريض.

مشيت إلى القسم، وكنت "طاير".. "طاير" من الفرحة، وأعلنت النبأ:

– أى خميس؟ في أى أسبوع؟ فى أى شهر؟ فى أى ســنة؟ الخمــيس الجــاى يا حلوين.

قال جلال وهو فى شدة التعجب:

– يا ابن الإيه؟! حتى الدكتور سمير نيّمته؟!

– نيّمته، وغطّيته بعد ما حكيت له حكاية الشاطر صاصُو.. يــا صــادق هــى الدكتورة عالية فين؟

– كلّمتها.. جاية حالا.

وصلت دكتورة عالية، وسألتنى:

– هيه.. عملت ايه مع دكتور سمير؟

– الراجل دا بيفهَم.

– آه طبعًا.. أمّال إنتَ فاكر ايه؟ قلت له إيه؟

– اتّفقنا أمشى على خطة الدكتورة عالية.

– بس المهم إنك تلتزم يا صلاح.

- إنتِ فاكرة إنى مش هَا ألتزِم؟!

- لأ.. أنا عارفة كويس أنك هَا تلتزِم.. وبكره لنا قعدة سوا.. طويلة شوية، علشان نشوف البرنامج هَا يمشى إزاى؟

- حاضر.

- يالّلا.. أنا هاروح دلوقت، وأشوفك بكره إن شاء الله.

- دكتورة عالية.

- أفندم.

- متشكر أوى.. أنا عارف أد إيه إنتِ وقفتِ جنبى علشان أخْرج من هنا.

- يا خوفى.

- يوووه.. ماتخفيش.. بجدَ ماتخافيش.

- صلاح، الموضوع دا ما فيهوش ضمانات، وعلشان كده ربنا يستر.

- هَيسترُ إن شاء الله.

بعد أن خرجت دكتورة عالية من المستشفى، جمعتنى مع الشباب جلسة ضاحكة، ودور شطرنج مع صادق حتى جاء موعد وجبة الغداء.. وبعدها مباشرة جاءنى صادق:

- تليفون يا سيدى.

- مين؟ غريبة أوى حد يكلّمنى فى الوقت ده؟! مين يا صادق؟

- رُد وانتَ تعرف.

- مش عايز تقول لى مين!! ماشى يا صادق.. إنتَ أصلك شايل منى بعد ما اتغلبت فى آخر دور.

- ألو.. بابا.. ازيك؟ حمد لله على السلامة.

- إزيك يا صلاح؟ عامل إيه؟ طمّنى عليك.

- أنا كويس الحمد لله.. انبسطت فى الرحلة؟

- كانت رحلة هايلة.. الحاجة الوحيدة اللي كانت قلقاني هو انـت.. أنـا مـش ها استريح غير لما أطمّن عليك.

- إطمّن.. أنا كويّس الحمد لله.

- دكتور وليد بلغني إنهم وافقوا إنك تخرج أجازة يوم الخميس.

- أخيرًا وافقوا.. أنا كنت عند دكتور سمير، وهو اللّي بلّغني بخبر الموافقـة.. قل لي يا بابا.. هتّجيلي إمتى؟

- أنا مش عايز اجي المستشفى دي تاني.. كفاية وصلتك، وجيت أزورك مـرة مع مامتك وما عرفناش نشوفك.. مامتك، وحدّ من إخواتك يرجعوك.

- زيّ ما يعجبك يا بابا.

- ها اكلّمك يوم الخميس الصبْح بدري، تكون عرفت حساب المستشفى.. إحنـا دفعنا مبلغ مقدم، وشوف الباقي كام، وابعت لك الفلوس مع مامتك.

- حاضر يا بابا.

- خلي بالك من نفسك، وأشوفك يوم الخميس إن شاء الله.

- إن شاء الله.. وسلم لي على ماما وكريم ورولا.

- حاضر.. مع السلامة.

لم أشعر في حياتي، كم أشتقت إلى والدي إلا بعد أن سمعت صـوته.. كان واضحًا من صوته أنه لازال يشعر بالقلق.. طبيعي.. أردت الاتصال بحاتم، فقلت لصادق:

- عايز أكلّم المشرف بتاعي يا صادق.

- تليفوناتك كتيرة الأيام دي.. نعدّيها المرة دي علشان دا المشرف.

- هو أنا باكلّم حدّ غيره؟! طبعا إنت شايل مني علـشان دور الـشطرنج اللّـي فات.. هو كان دورك، وأنا اديتك أعلى درجات الأمل.. وفي ثانيـة مقـصين، دابل كيك.. ومات الملك.

- بطّل لماضة.. تليفونك.. اتفضل رُد.

- السرنج ماشين طبعا.. ألو يا حاتم.. أنا عايز أبلّغك إنى هـا اخـرُج يـوم الخميس من المُستَشْفى.. يَعْنى بعْد بُكره.

فاجأنى صوت حاتم:

- أيوه يا سيدى.. هتُخْرُج يوم الخميس.

- إيه ده؟ إنتَ فى البيت؟!!

- أيوه فى البيت.. بس ما بردش على كل التليفونات.. إسمع يا صلاح أنا مـش ها أقدر أروح اجتماع وسط البلد، بس بُكره إن شاء الله ها اجيلك اجتماع مصر الجديدة علشان الدنيا لازم تتنظَّم.

- أكيد طبعا.

- لأ.. إنت مش فاهم، الخروج من المستشفى له قواعد وماقبهاش فصال.

- أنا عُمْرى ما فاصلت.

- تعْجبنى وإنتَ بتسمَع الكلام.

بعد الانتهاء من الحديث التليفونى مع حاتم، أسرعت للاستعداد لحضور اجتماع اليوم فى وسط البلد "لمدمنى الخمر مجهولى الهويـة"، الـذى يحـضره مجموعة من الأجانب، والمشاركات معهم ممتعة، ولـم يحـضر مـن الـشباب المصريين غير أمجد فقط.

وقد شاركت فى هذا الاجتماع، وأعلنت لهم نبأ الموافقة على خروجـى من المستشفى، ولذا أشعر بسعادة حقيقية، وأننى أنـوى حـضور الاجتماعـات والمشاركة، وتنفيذ كل ما يقال لى لأظل مُعافَى.

وبعد الاجتماع جاءنى أمجد، وله احترامه الكبير عندى، فهو مـشرف حاتم؛ بمعنى أنه مشرف على مشرفى الذى يعرف عنى كل التفاصيل.. كلمنـى وفى صوته نبرة فرحة، وحزم فى الوقت نفسه، وقال لى:

- حاتم قال لى إنك خارج بعد بكره أجازة.

- إن شاء الله يا أمجد.

- إنتَ جاهز يا صلاح؟

- قصدَك إيه؟

- الخروج من المستشفى عمره ما كان ميزة.. 99 % من اللّى بيخرجــوا مــن المستشفى بيضربوا تاني.. منهم اللّى بيتحبس، ومنهم اللى بيمرض أو يمــوت، إنت لسه ماقريتش الكتاب كويس.. واللاّ إيه؟! أوّل فقرة: من هو المدمن؟ "إحنـا وقعنا في براثن مرض مستمر.. ومتفاقم.. ونهايته لا تتغيّر.. السجون، المرض، الموت". ارْجع يا صلاح واقرا من هو المدمن؟ ما برنامج المدمنين المجهولين؟ لماذا نحن هنا؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟

- إيه دا يا أمجد؟ إنت خوّفتني!!

- غريبة!! هو إنتَ ماكُنتش خايف واللاّ إيه؟ آخر حاجة ها أقولْها لك علـشان إنت لازم تمشي وترْجع للمستشفى.. أنا جيت النهارده لمّا عرفت إنك خارج بعد بُكره.. ها أقولّك حاجة واحدة قالها لى المشرف بتاعي يوم ما كُنت خارج مـن المستشفى: إنت عُمرك ما كُنت مسئول عن مرضك.. بس النهارده إنتَ المسئول عن شِفاك.

فكّر في الجملة دى كويس، وها اشوفك في اجتماع بُكره إن شاء الله.

قالها أمجد ومشى.. وبدأت رأسي تلف وتدور.. وطوال الطريق يلــح في ذهني: ماذا حدث؟ ماذا جرى لي؟ ما سر مخاوفي؟ لماذا أنا خائف إلى هذه الدرجة؟!

صعدت فورًا إلى غرفتي في المستشفى.. أنا وحدي.. وبدأت أقرأ على مهل، كل ما سبق لي قراءته.. قرأت كل كلمة من جديد، واستغرق هذا ثــلاث ساعات كاملة، من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة.. أغرب شيء أنني كنت في كل مرة أقرأ، اكتشف شيئًا جديدًا ومفهومًا مختلفًا.

جلست فى السرير أفكر، إلى أن نمت الساعة الثانية والنصف، واستيقظت الساعة السابعة.. الآن، أستطيع أن أنام أربع ساعات ونصف، ودون منوم.. شيء جميل حقاً.

بدأت يومى مثل كل يوم.. بالدعاء وقراءة الصحف، بعد تناول وجبة الإفطار، ثم دور الشطرنج مع صادق، إلى أن وصلت دكتورة عالية، وقالت لى:

– تعال يا صلاح.. أنا عاوزاك.. لازم نرتّب هنعمل إيه.

– عارفة يا دكتورة، إنت محسسانى إنى خارج من المستشفى، ومش راجع تانى!! أوعدك، أنا كل يوم ها آجى المستشفى.

– يعنى إنتَ مش عايز ترجع يوم السبت وتنام هنا؟

– زى ما يعجبك.. بس ها أقول لك رأيى.. بُصّى يا عالية، الأسبوع الجاى كُله، آجى الساعة 9:00 الصبح، وأمشى الساعة 4:00، واقعد فى بيتى شوية، وبعدين أروح الاجتماع فى مصر الجديدة.. إيه رأيك فى الفكرة دى؟

– نتكلم فيها مع دكتور وليد.

– أوكيه.

ذهبنا إلى مكتب دكتور وليد:

– إزيّك يا دكتور وليد.

– أهلا يا عالية.. صلاح.. أخبارك إيه؟

– تمام يا دُوك.

– الجدول أنتظم؟

– عايزين ناخد رأيك فى موضوع مهم.. صلاح خارج فى أجازة يوم الخميس إن شاء الله.. وهيرجع يوم السبت وينام هنا فى المستشفى.. أو كل يوم الصبح ييجى هنا فى المستشفى، ويمشى آخر اليوم.. الساعة 4:00 مثلاً؟ إيه رأيك يا دكتور؟

- هو مش سبق الاتفاق أنه يخرج أجازة ويرجع.. إيه اللى غيّر الاتفاق يا صلاح؟

- إحنا بنتناقش.. لو دا اللى إنتم عاوزينه ورأيكم إنه أحسن بالنسبة لى، أنا موافق.. لكن بصراحة أنا عايز أروح الاجتماعات من البيت، يعنى دا إحساس طبيعى.. وحاتم المشرف بتاعى قال لى إنى مش هابتدى أعد 90 اجتماع x 90 يوم إلاّ لمّا أخرج من المستشفى.. وبعدين أنا كل يوم ها آجى هنا.. وكمان اعملوا لى تحاليل زى ما انتم عاوزين.. أنا دمى فداك يا دكتور.

- إنت مفيش فايدة فيك.. مابتعرفش تتكلم جد أبدا!! إنت إيه رأيك يا عالية؟

- ماعنديش مانع، على شرط إنه فعلا ييجى الأسبوع الجاى كل يوم، ويقضى اليوم بالكامل هنا.

- خلاص.. وأنا كمان موافق.. أنا بثق فى صلاح.

وبابتسامة قلت:

- ونقرا الفاتحة.. بسم الله الرحمن الرحيم..

مشيت مع عالية داخل المستشفى نتحدث:

- إنت مش ممكن.. بتعمل وتنفذ اللى إنت عايزه.. أنا ماشفتش زيك قبل كده.

- أنا عايز أحكى لك أمجد قال لى إيه إمبارح بعد الاجتماع.. بجد قلقت من كلامه أوى.

- واضح إن أصحابك فى الاجتماعات مهتمين بيك..

- جدا يا عالية.. جدعان ورجالة.

- هما ما تصرّفوش معاك كده إلاّ لمّا حسّوا إنك جاد فى تبطيلك.

وفجأة وصل فريد، ليقول لى:

- يا أستاذ صلاح.. أخو حضرتك مُنتظرك فى الاستقبال.

- كريم!! عجيبة!! دى مفاجأة غريبة.. إيه اللى جابه؟

- إنت روح له.. وأنا ها امشي، وبكره إن شاء الله احكيلي عن سبب الزيارة والمفاجأة دي.. أنت هاتمشي إمتى بكره يا صلاح؟

- مش قبل ما إنت تمشي.

"وطيران" على الاستقبال.

- أهلا.. أهلا.. يا مفاجأتك؟

- إزيك يا صلاح؟! أخبارك إيه؟

- أنا تمام.. خارج بكره إن شاء الله.. وعلشان كدا مستغرب زيارتك النهارده!!

- قلت أطمن عليك.. وأعرف إنت خارج بكره ليه؟! أخويا الصغير ولازم اطمن.

- يا أخي انا زهقت من أخويا الصغير دي.. مش كنت تطلع إنت الصغير؟!

- بكل أسف، هي مشيت كده.. إنت الصغير.. خلينا في المهم.. أنا عايز أطمن عليك.. ماما ورولا حكولي كتير أوي.. وكلامهم مطمئن.. بس بالنسبة لي، ها ابقى مطمئن أكتر لو سمعت منك.

- قل لي.. عايز تعرف إيه يا كريم؟

- عايز أعرف إيه اللي بيدور في دماغك؟

- أنا نفسي مش عارف، بس اللي أنا عارفه حاجة واحدة بس.. إن أنا مبطل النهارده، ويومي ناجح 100% علشان أنا مبطل.

- هتحضر الاجتماعات لما تخرج؟

- طبعا.. إيه يا كريم!! إنت فاكر إيه؟ أنا فعلا عايز أبطل.

- وأنا فعلا نفسي تبطل.. أنا ماعنديش ولا مشكلة واحدة في حياتي إلا موضوعك.

- يعني لو مشكلتي دي اتحلت؟

- تأكد يا صلاح أنا ها أبقى أسعد إنسان في الدنيا.

وقف كريم، وأخذني بالأحضان.. أحضان بهذه القوة لم تحدث من قبل.. ولأول مرة منذ جئت إلى الحياة نتبادل الأحضان بهذا الشكل.. حضن شقيقين يدخران في قلبيهما كل مشاعر الحب الحقيقي.

- دلوقت لازم أمشي.. عندي اجتماع في الشركة بعد ساعة.

- ربنا معاك.

- بكره إن شاء الله، ماما، وأختك هيجوا لك وترجع معاهم على البيت.. كنت أحب آجي معاهم، لكن بكره عندي سفرية 48 ساعة.

- تروح وتيجي بالسلامة.

سرحت طويلاً، ووقفت تحت شجرة أفكر في هذه المفاجأة الحلوة.. قائلاً لنفسي:

- ياه!! كريم، بسبب شغله وييجي لي مخصوص علشان يطمن علي!! غريبة!! لم أتوقع منه هذا الموقف!! عموما.. طوال عمره تصرفاته غير متوقعة.

أعددت نفسي، وسلحتها ببعض القراءات في الكتاب، وذهبت إلى الاجتماع، وكان يديره خالد، وكنا 12 فردا فقط لاغير، خمسة منهم من المستشفى، واختاروا موضوعا جميلا بعنوان: "النية في الامتناع" و"الرغبة في الامتناع" وأحببت أن استمع إلى المشاركات بكل تركيز.. بدأ خالد قائلاً:

- كلمة الرغبة أول مرة سمعتها في الأوضة دي، تصورت أن لها علاقة بالجنس.. قلت قشطة.. بس طلعت موضوع تاني خالص.. كنت طول عمري أتخيل إن عندي النية في إني أبطل، بس عمري ما بطلت، لكن واقع الأمر أنا ماكنتش عايز أبطل بحق وحقيقي، يعني مش عايز أضرب، بس أروح اقعد مع ناس بتضرب، وأقول أنا مش ها اخد.. يا سلام!! دا إيه الجمال ده؟ يعني عمر الواحد راح للحلاق، وقعد على الكرسي وما حلقش.. مش ممكن!! ودماغي تقنعني، قال إيه، أنا رايح أضيع شوية وقت، مش أكتر، وطبعا أرجع مش بس حالق، دا أنا بارجع حالق، وزيرو كمان.. وتبتدي المأساة من أول وجديد.

وبعد أن تحدث خالد عن النية، طلب مني أن أشارك..

- أنا مدمن.. واسمي صلاح.. ابتديت اليومين دول أحس إد إيه أنا نفسي أبطّل.. هو ده هدف حياتي.. ومن كُتر ما أنا عندي رَغبة في إني أفضل مبطّـل، لازم أعترف دلوقت أد إيه أنا خايف.. لأ أنا مش خايف.. أنا مرعوب.. قعـدت أرن وأقول: عايز أخرج من المستشفى، كفاية كده، زهقت.. دلوقت أنا خايف أخرج من المستشفى.. أخرج أعمل إيه؟ أنا مستريح جوّه المستشفى ومطمّن.. طيّـب أرجع في كلامي وما أخرجش؟! واللاّ أخرج أواجه الدنيا؟ أنا تعبان من جـوّه.. وخايف جدًا.. جدًا.. جدًا.. أنا عايز الناس كلها تساعدني.. أنا عايز الناس اللي مبطّله من زمان تقول لي أعمل إيه.. يعني أنا مش فاهم مستعجل على الخروج كدا ليه؟ يا نهار أسود لو ضربت.. مصيبة سودة!! خلاص ها اموت.. ربنا بعت لي أكتر من رسالة.. ربنا اداني الفرصة.. وقعدني وسطكم.. لو ضربت، يبقـى أنا ضيّعت الفرصة، ورفست النعمـة برجلـي.. لا.. لا.. أنـا هفـضل فـي المستشفى.. أنا عيّل ومش عايز أخرج.. لأ.. أنا مش عيل.. أنا عـايز أفـضل مبطّل.. بس أنا خايف أخرج.. أنا متلخبط.. أنا مرعوب.. أعمـل إيـه؟ مـش عارف!! شكرًا.

بعد ذلك، قام أمجد ليشارك:

- أنا أمجد.. مدمن.. طول عمري ما بحبش أعقّب على كلام حد.. ولا حد يعقب على كلامي، بس الحقيقة مش قادر.. مشاركة صلاح حسّيت بيهـا كلهـا.. أنـا عشت كل اللي سمعته منه.. عشته هو.. هو.. سيناريو مُكرر.. الخوف والرعب والتردد اللّي أنا سمعته من صلاح هو فعلاً النية في الامتناع.. طلب المـساعدة والأمانة مع النفس أساس الرغبة في الامتناع.

واستمر أمجد في تفسير ما يدور بداخلي بهدوء.. كان فنانًا في شـرح الأحاسيس، وغمرني الشعور بالطمأنينة بعد مشاركته.. هـدأت فعـلا بعـد أن استمعت إلى كل كلمة قالها، وجعلني أشعر بأنني أسير على الطريق الصحيح.

انتهى الاجتماع وجلست أتحدث مع حاتم:

- قل لى يا صلاح، هتخرج بكره إمتى؟

- حوالى الساعة 4:00.

- كويس.. طبعا تحضر اجتماع بالليل، ومن بكره تعد 90 اجتماع.. الاجتماع يبدأ الساعة 7:00، تكون موجود قبل ما يبدأ بربع ساعة، يعنى الساعة 6:45 لو وصلت فى أى اجتماع بعد دقيقة السكون، تعد من أول وجديد، وأنت فاهم طبعا أنا مش باهزر.. عايزك تخلص الخطوة الأولى.. وبكره تشترى نوتة جديدة تكتب فيها، وبعدين تقرأ كل اللى كتبته يوم الجمعة. ونشاركها سوا يوم السبت.. وبكره الصبح أول حاجة تكتب 4 جوابات.. واحد لباباك، واحد لمامتك، واحد لأختك، وجواب لأخوك.. صفحة واحدة بس لكل واحد، مش أكتر.. تكتبهم وتخليهم معاك.. وأنا هقول لك بكره هنعمل بيهم إيه.. ومهم أوى إنك ما تاخدش أكتر من فلوس التاكسى، وعلبة السجاير.. يعنى فى اليوم مش أكتر من عشرة جنيه.. الفلوس الكتيرة بتلعب فى الدماغ.. وأهم حاجة كمان، ما تتحركش مع ناس مبطلة أقل من 6 شهور، وما تكلمش نهائيا أى حد بياخد مخدرات، ولا حتى تسلم عليه، واللى يزعل، يخبط دماغه فى أى حيط تعجبه.. واضح؟

- واضح يا حاتم.

- بكره تجيب بلوك نوت جديد معاك، عايز واحد كبير، علشان يكفى شغل 12 خطوة.

- أى أوامر تانية؟

- دى مش أوامر.. كل دى اقتراحات يا باشا.. وأنت صاحب القرار فى الأول والآخر.

- وأنا موافق على كل اقتراحاتك.

- تعجبنى وإنت بتسمع الكلام.

40

اليــوم الأخيــر.. والأول

عدت إلى المستشفى، وبدأت أتجول فى القسم، كل ركن يذكرني بشيء ما.. كل كرسي لي معه قصة.. الجداول.. دعاء السكينة.. أدوار الشطرنج.. البنج بونج.. غرفة الطعام.. الذباب.. المطبخ.. التليفون.. إنها آخر ليلة لي هنا.. آخر ليلة، والأحداث تمثلت كالحلم.

صعدت إلى غرفتي بعد دور الشطرنج مع صادق، وكتبت فى الخطوة الأولى، ونمت الساعة الثانية أثناء الكتابة.. وصحوت الساعة الخامسة والنصف، وكتبت رسالة إلى كل فرد من أفراد العائلة.. أمي.. أبي.. أخي.. أختي.. وبعد كتابة الرسائل الأربع، نزلت لتناول الإفطار، وقراءة الصحف.. قلت لصادق:

– يا صادق، عايز أروح الإدارة أشوف حساب المستشفى.

– يالَّلا يا فريد.. اطلع مع صلاح.

– خلّيك يا فريد.. يعني أنا ها اهْرَب؟ أنا خارج النهارده.

– اطلع معاه يا فريد.

– عليك دماغ.. هو إنتَ بتِتْغِلب فى الشّطرنج من شوية!!

– ما إنتَ لسّه مغْلوب إمبارح بالليل.

– الدُّور دا من عنْدي.. هدية خُروجي.. وبا قولْك إيــه.. لنــا دور النهــارده.. النهائي.

– ماشي.

ذهبت مع فريد إلى الإدارة المالية فى المستشفى، وعرفــت الحــساب المطلوب عن 28 يوماً، واتصلت بوالدي وقلت له المبلغ المتبقي، فقال لي:

– مامتك وأختك هيكونوا عنْدك الساعة تلاتة.

- وأنا مستنيهم.

وبعد اجتماع دكتورة عالية سألتنى:

- احكي لى.. كريم كان هنا ليه إمبارح؟

- بيطمّن.. عايز يقرا دماغي.

- وعرف يقرا حاجة؟

- طبعا لأ.. هوّ أنا عارف اقراها، لمّا هو يعرف!!

- مش دا كريم اللّى إنت كان رأيك إنه مش بيحبّك؟

- يا عالية مايِنفعش إنهُ يقول لى افتح محل أى حاجة واقعد فيه.. هو فــاكرنى إيه؟ فى يوم من الأيام هَا انجح وأثبت له إنه غلط فى حقّى.

- صدّقنى، اليوم دَه هَيبقى هو أسعد واحد فى الدنيا.

- أنا عارف.. كريم جدع أوى.. وبعدين أنا جننته.

- كويس إنك عارف.. ها.. جاهز؟! رتّبت شنطتك؟

- لا.. لسه.

- طيّب يالّلا بسرعة.. علشان إحنا لسّه ما اتكلّمناش فى الجدول.

- تانى يا عالية؟ اديني الجدول وأنا ها انفذه بالظبط.. عايز أعترف لك بحاجة.

- فيه إيه يا صلاح؟

- أنا خايف يا عالية.. خايف أوى كمان.

- كويّس إنك خايف.. كنت هَا اقلق جدًا لو مكُنتش خايف.

- هَا اجهّز شنطتى، وارجع لك.

- ما تتأخرش.

- حاضر.

دخلت إلى القسم، وناديت صادق:

- سخّن كدا يا صادق.. لغاية لمّا ارتّب الشنطة، وأنزلّك بلَعب النهائي.

- مستنيك.

جمعت كل ممتلكاتي وملابسي كلها تحمل رقم 17، وفيما بعد أصبحت أتفاءل بهذا الرقم.. حملت حقيبتي ووجدت صادق في انتظاري، رفض تمامًا اللعب مع أحد، حتى أعود إليه، فقال له جلال:

- هو أنتم هتلعبوا على كاس العالم في الشطرنج؟

رد أسامة:

- على كاس المستشفى العالمي.

لعبت مع صادق أجمل دور شطرنج منذ لعبنا معًا لأول مرة.. ركزت جيدًا في الدور أكثر من أي مرة لعبت فيها معه، والطريف التفاف أكثر من ثمانية شباب حولنا لمتابعة اللعب، ولا أحد يتكلم أو يعلق.. وبدأت أشعر بالفوز وقلت لصادق:

- هتعمل إيه في الحركة دي؟

- ولا حاجة.. بسيطة.

- طيب وفي دي؟

- عادي.

- ودي يا صادق؟

- هَا أقول لك مبْروك.

وقف صادق، وسلم عليّ بقوة، وأخذني بين ذراعيه.. وكان الحضن جميلاً، وهمس في أذني: مش عايز أشوفك في القسم دا تاني.. سامع والاَّ لأ.

- هتشوفني.. زيارة بس.

- يالاَّ يا فريد.. افتح له الباب.. مش عاوزينه هنا تاني.. يالا.. امشي مع السلامة.. وشنطتك ها ابعتها لك برَّه.

سلمت على كل الناس، وكأنني مهاجر.. سلمت على أصحابي المدمنين.. على الممرضين.. على الحكيمات.. الطهاة.. كل الناس.. وفتح لي فريد، وخرجت من الباب وحدي..

توجهت إلى مكتب دكتورة إكرام، لأشكرها:

– يا دكتورة.. إزاى حضرتك؟

– أهلاً يا صلاح.. إتفضل.

– أنا مش ها اعطلك.. أنا جاى أسلّم عليك.

– خلاص، هتمشى دلوقت؟

– كمان شوية.. لمّا أهلى يوصلوا.. بس أنا قلت اجى أشكرك.. أنا فعلاً استفدت من حضرتك كتير أوى.

– أنا عملت اللى علىّ، ومن غير إنت ما تساعدنى ماكنتش أعـرف أعمـل أى حاجة.. بس إنت هتيجى كل يوم.. صح؟

– آه طبعًا.. أنا هنا الأسبوع الجاى كله.

– كويس.. علشان بفضل مطمئين عليك.

وتوجهت إلى نجلاء في مكتبها، وبابتسامة حلوة قالت لي:

– كنت هازعل أوى لو كنت مشيت من غير ما تسلّم علىّ.

– أنا أقدر برضه.. دا إنتِ الخير والبركة والدّلع كله.

– هتوحشنى، وهيوحشنى كلامك الظريف.

– وأنا ها اروح فين؟ بكره هتلاقينى هنا.

– خلى بالك من نفسك.

– شكرًا يا نجلاء.

وبعد التحيات والسلامات، حان موعد الجلسة المهمة مع دكتورة عالية:

– لسه خايف يا صلاح؟

– لأ.. أنا مش خايف.. أنا مرعوب.

– ما تخوفنيش معاك.

– يعنى إنتِ عاوزانى أفضل خايف لوحدى؟

– على فكرة، دكتور وليد كلمنى، وقال لى إنه عاوزك.

- عايز إيه بس.. ما يسيبني في حالي.

- روح قابله.. ثم إنت وهو خلاص أتفاهمتوا.

- بس أنا نفسي أفضل قاعد معاك.

- أنا لازم أروح بيتي.. ما إنت عارف مواعيدي.. أشوفك على خير إن شاء الله.

- شكرا يا عالية.. إنتِ أنقذتيني.

- ربّنا هو اللّي أنقذك.. وأنا ساعدتك بس.

- شكرا يا عالية.. عمري ما ها انسَى اللّي عملتيه معايا.

سلمنا.. وسارت بعيدا في اتجاه بوابة الخروج العملاقة.. إنها إنسانة رائعة.. ومن يومها أطلقت عليها "اينجل"*.

وذهبت لرؤية دكتور وليد.. وهناك كانت المفاجأة:

- إيه ده؟ أهلاً.. أهلاً.. ماما هنا؟ ورولا كمان؟

- أهلا يا حبيبي.. وصلنا، وخلصنا الحسابات، وشكرنا دكتور وليد على كل اللّي عمله معاك، ده دين صعب تسديده.

فقال لي دكتور وليد:

- خلي بالك من نفسك.. وتحضر الاجتماعات يا صلاح.

- حاضر يا دكتور.

- وبالنسبة للمستشفى يا صلاح؟

- لازم آجي أمضي حضور هنا كل يوم.

- تمام.. ومش ها اوصّيك على مامتك وباباك.

قالت رولا بابتسامة:

- وأنا كمان يا دكتور.. من فضلك توصيه على توأمه.

---

* الملاك.

ابتسم دكتور وليد، فقلت له:

– دا حضرتك اللي توصيهم عليّ يا دكتور.

– يا ترى سلّمت على دكتور سمير؟

– لا.. ها اسلّم عليه بكّره.. أصل أنا عايز أسلّم عليه ضيف، مش مُقيم.

– خلي بالك من نفسك يا صلاح.. مش عاوزين أي مُخاطرات.

– ما تقلقش يا دكتور.

– أشوفك على خير.. مع السلامة.

– شُكرًا.

أخذت شنطتي، وخرجنا من المستشفى إلى السيارة.. وفي صوت واحد حنون.. قالت كل من أمي، ورولا:

– يااااه!!! حمدًا لله على السلامة يا صلاح.

إلى حد ما استغربت الموقف وأنا عائد مع أمي وأختي إلـى البيـت.. كنت هادئا، لا أتكلم إلا ردًا على سؤال؛ فالخوف، والقلق، والرهبـة.. مـشاعر امتزجت كلها، بعد خروجي من بوابة المستشفى.. خايف، وكأنني مولود صغير، يحبو في الطريق.. مولود من أول وجديد.

حدثني قلبي أن أمي عندها تحفظ، لم تعلن عنه بخـصوص خروجـي السريع من المستشفى.. ومع هذا، فإنها تكلمني بهـدوء فـي محاولـة لإخفـاء مخاوفها، بينما كانت فرحة رولا بخروجي واضحة.. وسألتني أمي:

– عندك برنامج ليومك النهارده؟

– عندي اجتماع الساعة 7:00 في مصر الجديدة.

– أنا أوصّلك، واستناك عند المدرسة، ونرجع سوا.

– بس أنا مش عايز أتعبك يا ماما.

– كدا أكون مطمئنة عليك أكتر.

– ما عنديش أي مانع.

وجدت والدى فى انتظارى على باب البيت.. قلت:

- حمد لله على السلامة يا بابا.

- الله يسلمك.. شكلك منور.. همَّا عملولك إيه؟

- تقدر تقول زغطونى.. شفت أنا النهارده 61 كيلو.. احكيلى.. انبسطت فى رحلتك؟ عملت شغل كويس، واتفقت على مشاريع جديدة؟

- البلد جميلة.. والناس هناك بتشتغل، مش بتلعب.. الظرف ده لك يا صلاح؟

- فيه إيه الظرف دا يا بابا؟

- جواب.. يوميات وخواطر وإنت فى المستشفى.

أخذت جوابى من والدى، ودخلت غرفتى.. تغيرت تماما.. كل الصور التى تغطى كل الجدران، لم تعد موجودة، رفعتها أمى، وتم إعادة دهان الحائط، وتغير مكان السرير.. ودارت عيناى فى أرجاء الغرفة، وشعرت أن كل شىء يستقبلنى بحفاوة.. وبدت لى وكأنها غرفة جديدة، وعندما فتحت الدولاب، اكتشفت أنه قد أعيد ترتيب كل شىء بداخله.. بنظام وشكله جميل، تبعتنى أمى كأنها لا تريد أن أغيب لحظة عن عينيها، وبرقة قالت:

- حبيبى.. بعد تنضيف أوضتك، ورمى كل حاجة مالهاش لازمة، دهنا الحيطان.

- لقيتوا مخدرات؟!!

- لأ.. مفيش غير ورق بفرة.

- يعنى اطمن.. مفيش أى حاجة فى الأوضة؟! مش ها اضحك عليك، أنا كنت قلقان من الموضوع ده.. خايف إيدى تقع فى حاجة كدا والا كدا.

- ماتخافش.. أنا بنفسى راجعت كل "سنتيمتر" فى الأوضة والدولاب.. ويالا بينا علشان نتغذى، وتستعد علشان ننزل سوا.

- أنا أكلت فى المستشفى.. ودلوقت آخد الدش والبس.. ننزل الساعة 6:00 كويس؟!

- كويس جداً.

استلقيت على سريرى.. وبدأت أتأمل كل ركن وزاوية فى الغرفة، كأننى أراها أول مرة، إننى عاشق لكل شىء فى غرفتى.. كل شىء له ذكرى معى، بعض الذكريات مخيفة وتبعث على القلق.. نظرت إلى الشباك، وباب الشرفة، أيهما يطل على بيت حسام، يا ترى هل هو موجود؟ أين هو الآن، وماذا يفعل؟

بالطبع لن أفتح الشباك، ولن أخرج إلى "البلكونة".. إنها اقتراحات المشرف التى أنفذها كتعليمات.. الحقيقة أن حاتم كان دقيقاً إلى أقصى درجة، تذكرت كلماته ورنينها فى أذنى، وفى قلبى ورأسى:

- خليك جُوّه بيتك.. وما تعملش أى خطوة تلخبطك من جوّاك.

وكان من اقتراحاته الواضحة والحاسمة أيضاً:

- يعنى مثلا ما تاخدش التليفون فى أوضتك.. عندك مكالمة، أعملها من وسط البيت.. افتكر كويس، وما تنساش إن إحنا دلوقت ما عندناش أى حاجة نخبيها.

تحركت ببطء داخل غرفتى، وفتحت دولابى لإخراج ملابسى.. هنا كان مكان الفنجان، وفاكر مكان الليمون، يا ترى هل توجد أشياء مخفية بين القمصان كما تعودت أن أفعل؟ لا.. الحمد لله، أمى فعلا راجعت كل شىء بدقة.

جلست وبدأت أقرأ خطاب الوالد:

يوميات بيت غاب عنه ابنه

<u>اليوم</u>

يحاول العائدون من حلوان أن يمسكوا دموعهم.. الحزن يملأ قلب السيارة وركابها الثلاثة.. فى رحلة الذهاب كنا أربعة والآن نحن ثلاثة.. وصلنا إلى البيت الذى كان يغشاه سكون القبور.. فوق موقد البوتاجاز كان هناك إناء، والنار من تحته مشتعلة.. احترق الإناء بما فيه، وكان يمكن أن يتسبب فى

كارثة، فقد نسيناه قبل الخروج.. ربنا ستر.. لم نستطع أن نذوق شيئا من الطعام فكنا في حالة من السوء، لا يعلمها إلا الله.

أول صباح

في الصباح فتحت غرفة الابن الغائب وتطلعت إلى جوانبها، ثم دخلت وجلست إلى الفراش الخالي، وانخرطت في البكاء.. لم أكن أدرى أن الحياة تدخر لي كل هذا الكم من الحزن والأسى.. كان بهجة البيت ونوارته.. لماذا فعل بنفسه، وبنا هذا؟! أين كان عقله؟ أين كانت إرادته؟! وذروة المأساة أنه يريد أن يلصق بنا التهمة، وأن يحملنا مسئولية خطأ ارتكبه.. وأنا بالذات لأنني أحببته كثيرا ودللته.. هل يوجه إليّ أنا اللوم لأني أحببت ابني؟!

البيت

أريد أن أكتب رسالة إلى كل ابن "غاب عقله" ولم يدمر نفسه فحسب، بل وأسرته ومجتمعه ووطنه.. وحين يكون هذا العقل ذكيا رائعا، ويفقده صاحبه، سوف يحاسبه الله حسابا عسيرا.. الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "ذكاء المرء محسوب عليه".. كيف يفرط إنسان في ذكائه بهذه البساطة؟ إنه كنز رائع، كيف يتخلى عنه ليعيش في الوهم؟! ماذا عندما يفيق ليجد أن كل ما حوله وما ينتظره هو الدمار؟! إننا لم نشعر في حياتنا في هذا البيت بمثل هذا الفراغ، والعقل لا يستطيع أن يفكر بشكل بناء.. عندما كان يسافر لم تكن الأمور هكذا.. ترى هل يسيء بنا الظن، فيتصور أننا تخلصنا منه، لنبرئ أنفسنا؟

الأحد

أصبح صلاح شغلي الشاغل.. أفتح عيني عليه في الصباح وأغلقهما عليه ليلا.. ويصحبني طوال الطريق.. وأذكر كيف كانت العمارة كلها تتنسب

إليه، لا لأصحابها.. يقول أطفال الحي: عمارة صلاح.. وبيتنا أصبح بيت صلاح، وأمه أصبحت أم صلاح.. أخو صلاح.. وتوأم صلاح.. أين هو صلاح الآن؟! السلم يسأل عنه، والباب، والشارع، والبيت.. نريد وجهه الصبوح الباسم ومشيته المتألقة النشطة وسيارته الأنيقة.. نريده بشدة.. وبالذات اليوم.. يوم ميلاده..عيده.. كان يجب أن يمتلئ البيت بصلاح وأصدقاء صلاح.. لم يكن صلاح هنا.. ولا الأصدقاء.. ولا نحن.. لا أحد.. الدموع في عيوننا.. في مطبخنا الذي كان يجب أن يحتشد بالتورتة، وفي الصالة التي امتلأت يوما بباقات الزهور.. وغرفته: إنها خالية.. ليس بها حياة دونه.. لماذا حرمها اليوم من وجوده؟ لماذا أشاع كل هذا الحزن في المكان بغيبته؟! أين الشموع؟! والحلوى؟ والأغاني؟ وعبارات: كل سنة وأنت طيب؟

لا.. هو ليس بطيب لأنه فعل ما فعله بالجميع، وفي مقدمتهم نفسه.. لا نريده أن يقسو عليها، لكننا نريده أن يستردها: متألقة.. لن يهنأ لنا طعام أو شراب إلا بعودتك: سالما معافى.. البيت يبكي.. عد إلينا شامخا مرفوع الرأس، كما كنت قبل سنوات.

الأثنين

تحمل المسئولية في رجولة وشجاعة.. واعترف بمرضك.

الثلاثاء

بنا رغبة في أن نراك.. لقد بدأت رحلة العلاج من مرض امتد لسنوات، ويحتاج إلى وقت، لكنني معك وبجانبك، سائلا المولى عز وجل أن يمد في عمري لكي أمضي عن الحياة بعد أن أطمئن عليك.

الأربعاء

ترددت طويلا فى قبول هذه الرحلة.. ترى كيف يكون الأمر وأنا بعيد؟ سأذهب إلى إسبانيا بعض الوقت.. فليكن الله معى، ومعك.. أعرف أنك تحبنى ولن تخذلنى، وستكون رجلا ذا إرادة حديدية بإذن الله، وتقهر المرض مهما صادفك من عذاب.. دعوانى لك وإلى أن أعود، لكى أجد تقدما يفرحنى.

الخميس

بدأت إعداد أوراق السفر وعقلى يسأل: هل حقا فقدتك للأبد؟ ألن يكون باستطاعتي استعادتك؟! هل سأستعيد ابنى، ذلك الإنسان القوى الطموح، صاحب الإرادة، والذى يصمم على الشيء، ويلح إلى أن يحققه. هل التقى بالفشل والهزيمة فى نهاية العمر؟! أظنك لن ترضى لى بذلك، ولن ترضاه لنفسك.

سنضع أيدينا معا، ونمضى معا فى طريق يغمره النور.

ليتنى أقدر على التضحية، ولو بحياتى، من أجل أن تخرج من محنتك.. أخرج، وأخرجنى معك.. أرجوك..

إنك فى تحد مستمر.

كيف السبيل لكى تصبح وتظل قويا؟

استدعى إرادتك وقوتك.. مازالت الفرصة أمامك.

لا تظن أنى إذا تدهور بك الحال، ووصل بك إلى الأرصفة، أننى سأمد يدى إليك.. لن أعطف عليك، ولن أتعاطف معك، بل سأتركك للموت.. إحذر أن تستغل لحظات أظهرت فيها عطفا عليك وتفهما لضعفك، إذ إننى بحمد الله قوى فى مواجهة عواطفى، وإنى قادر على سحقها وسحق قلبى، قبل أن أخطو خطوة واحدة تجاه قبول وضع خاطىء لا أرضاه لك، ولا ترتضيه لنفسك.. وإذا كنت قد كافحت معك لكى أحملك إلى المستشفى، فذلك لأن أملا يدفعنى إلى ذلك، أما فى حالة فقدان الأمل فيك، سأعتبرك قد انتهيت......

أنت لن تغادر المستشفى إلا سليما معافى، بإذن الله.

لن تعود إليها مرة أخرى إن شاء الله!

أريدك نظيفًا: عقلا ودما وجسما.. أريدك طاهرا نفسًا وقلبًا.

يوم السفر

في مطلع الليل، صحوت على كابوس رأيتك فيه على أسوأ حال.. وعندما صحوت مع الفجر نسيت الكثير منه، كما تمنيت.. لقد صمدت في معارك كثيرة في حياتي، ولست أريد أن أنهار إزاء هذه المعركة.

خدعتني طويلا. لا، وألف لا.. سأحول بينك وبين أن تمتد يدك إلى شيء ليس لك.. ولن أخاف الناس يومئذ، لأنني أريد أن أحافظ على الباقين، إذا كنت مُصرًا على أن تسيء إلى الجميع.

لا تتسرع أبدًا في طلب الخروج من المستشفى، ثم تعاود سيرتك الأولى، وأقولها لك بوضوح: لن أمكنك من ذلك.. مهما حدث، لن يصل إلى يدك مليم واحد من مالي الحلال لتصرفه على الحرام.

كثيرا ما أسأل نفسي: لمن تكتب هذا؟ هل أكتب هذه الكلمات لتبرئة نفسي؟ لأساعدك؟ لأهرب من المأساة إلى الورق؟ هل هناك أمل؟!

يارب.. يارب.. يارب..

ذهبت إلى والدي في غرفة مكتبه.. حضنته وقبلت يديه.. كانت أول مرة أفعلها في حياتي.. نظر إليَّ، وقال:

- إنتَ أكتر واحد حبّيته في حياتي.

دخلت إلى الحمام، القفل كسرته أمي حتى لا أقفل الباب من الداخل، ومن الواضح أنها فضلت ألا تعيد تركيبه، وبقي الحال على ما هو عليه.. وبعد

الدش رجعت إلى غرفتى، وجاءتنى رولا بالشيكولاته وابتسامة كبيرة مثل اتساع السماء، وقالت لى:

- نوَّرت البيت.. قل لى.. مبسوط؟

- مبسوط.. بس خايف.. أنا عايز أرجع المستشفى تانى.. هناك كنت مطمن.

- ليه بس؟! إحنا مش عاوزينك تبعد عنا تانى أبدا.. من سنين وإنت بعيد.. وما صدقنا إنك رجعت.

خرجت مع رولا من غرفتى إلى "الرسيبشن"، وبنظرات سريعة تأملت البيت، وسيطر علىّ فى هذه الدقائق إحساس غريب، كأننى فى غربة، وأن هذا البيت ليس بيتى، وأننى لا أتحرك فيه بحريتى.. ومع دقات الساعة السادسة، قلت:

- يالا بينا يا ماما ننزل، مش عايز أتأخر على الاجتماع.

- أنا جاهزة.

41

رغيب

خرجت مع أمي.. كانت هي تقود السيارة، وأنا أجلس بجانبها، وكأنني طفل صغير يخرج مع والدته.. كل شيء يوحي لي بأنه ميلاد جديد، وأنني أجدد ولادتي وحياتي.

اتجهنا إلى مصر الجديدة، ودخلت الاجتماع في الموعد بدقة، أو ربما قبل الموعد بخمس دقائق، ووجدت خالد يعيد ترتيب القاعة، ويعاونه شادي، ودخلت لمساعدتهما، وضعت الكراسي في أماكنها، وأخرجت كتب 'المدمنين المجهولين' ووضعتها على المائدة، وبدأ الاجتماع والمشاركات.. تحدثت قائلا:

– أنا خرجت النهارده من المستشفى.. وخايف جدًا.. كنت باحارب علشان أخرج من المستشفى، ودلوقت، وبمنتهى الأمانة انا عايز أرجع المستشفى تاني.. القلق اللي جوّايا رهيب.. دا أنا خايف أعمل أي حاجة في البيت، خايف أتحرك.. الأوضة بتاعتي مُرعبة.. كل حاجة فيها بتفكّرني بالضرب، رغم أن أمي غيرت معالمها.. بس برضه مفيش فايدة.. أنا مش عارف أعمل إيه؟!! الحمد لله إني راجع المستشفى بُكْره.. أنا حاسس إن جوّايا بركان خوف، وعلى وشك الانفجار.. أمي وصلتني، وبستنّاني برّه في العربية لغاية ما يخْلص الاجتماع.. إحساس وحش أوي إنها منتظرة كده.. وإحساس أوْحش إن أمي جتْ معايا علشان تحرّسني.. طفل صغير خارج مع مامته.. دا وأنا عمري 15 سنة كنت عايش مع أصحابي برّه البيت.. ما علينا.. مع كل اللخبطة اللي بتحصل جوايا، أنا يومي ناجح 100%، وعلى رأي المشرف بتاعي أهم حاجة إني مبطّل، وأنا الحمد لله مبطل.

بعد الاجتماع، أبدى كل الناس إعجابهم الصادق بمشاركتى، وقال كل منهم كلمتين لغرس الاطمئنان فى قلبى وعقلى، وصارحنى سليم بجملة قوية:

- أنا كنت متخيل إنك بتمثل علينا، وماكنتش متخيل إنك جاى اجتماع النهارده، ومش ها أقدر أوصف لك سعادتى بيك أد إيه.. خذ تليفونى، وهات نمرتك.. لازم تكلمنى بكره الصبح بدرى، ندردش سوا.

أسرعت إلى السيارة لإحضار الكشكول الجديد، الذى طلبه حاتم.. ولكنه قال لى:

- بلاش النهارده.. أنا عايز أتعرف على مامتك وأسلم عليها.

وقابل أمى، وقال لها:

- أنا حاتم.. أنا مشرف صلاح.

- إزيك يا حاتم؟ الحقيقة أنا مش عارفة أقولك إيه، ولا أشكرك إزاى؟

- أنا ما عملتش حاجة.. هى فترة صعبة، وكلنا عندنا أمل كبير إنها تعدى.

- يارب يا حاتم.

- أقترح على حضرتك، من بكره صلاح ياخد 10 جنيه فى اليوم.. مواصلات، وعلبة سجاير، ولو مش كفاية.. مش مشكلة أبدا.. يرجع ماشى.

- يعنى أسيبه يتحرك لوحده؟

- طبعا.. حضرتك عملت اللى عليك وزيادة.. وهو لازم يتحرك لوحده.

- أوكيه.. اللى إنت تقوله، أنا ها اعمله.

- يالله يا صلاح.. مع السلامة علشان ما نتعبش مامتك أكتر من كده.

- لا.. أنا مش تعبانة خالص.

- كلمنى يا صلاح أول ما ترجع البيت، ومن النهارده لنا مكالمتين فى اليوم، مش مكالمة واحدة.. واحدة الصبح تصبح فيها على، والتانية بالليل تقفل بها اليوم.. اتفقنا؟

- اتفقنا.. سلام يا حاتم.

- مع السلامة يا طنْط.

- أنا مش عارفة أقولك إيه.. وشُكرًا مش كفاية أبدًا.

- أنا اللّى باعمله دا هو نفس اللّى إتعمل معايا، وهو نفسه اللّى صلاح هيعمله قُدام شوية.

- إن شاء الله.

وفى الطريق إلى البيت، حكيت لأمى عن أيامى فى المستشفى، وعن الاجتماعات، وكعادتها استمعت إلىّ باهتمام، وكأنها تحفر كل كلمة فى ذاكرتها، وأحسست أنها تحدث نفسها قائلة: وداعا للحرب، والغد خير من اليوم.. وكل منا دخل غرفته، وفتحت رسالة أبى، وقرأتها للمرة الثانية.. رسالة قوية وخطيرة.. حكى وشرح أشياء كثيرة لم تخطر لى على بال من قبل، ولثانى مرة أركز فى الوجه الآخر للموضوع، ولوجهة النظر الأخرى.. هو مهندس لا يشغله إلا البناء والعمار والعمران، وأنا لم يشغلنى إلا الهدم والدمار.. تأثرت بكلماته، وبكيت كثيرا، بسببها، وأخذت أفكر:

- إيه اللّى أنا عملته ده؟!! أنا صحيح بهدلت الدنيا.. واستغليت حبه أبشع استغلال.. لما أكلم حاتم، ضرورى أقول له على جواب بابا.. وأسأله أعمل إيه فى الجوابات اللّى أنا كتبتها لأهلى، وطلبته، والحمد لله ردّ على تليفونى، وقال:

- ولا حاجة.. الجوابات دى مش لأهلك.. والإعتذار هيحصل وييجى بس مش دلوقت.. الجوابات دى لك إنت علشان كل شوية تقراها، وتفتكر إنت كنت عايز تقول لهم إيه من جوه المستشفى، ولما تطلع بره، هتعاملهم إزاى.. أصل إحنا بننسى.. ولازم حاجة تفكرنا.

- أعمل إيه يا حاتم فى الخوف اللّى جوّايا؟

- ولا حاجة.. شعور طبيعى.. كلّنا بنخاف.. بكره ترجع المستشفى، ونقضى اليوم كله هناك.. وبعد بكره نتقابل فى اجتماع مصر الجديدة.. هات معاك الكشكول، ولنا قعدة مع بعض طويلة شوية، نشوف كنّا فين، وإحنا فين دلوقت،

ونعمل جدول اليوم، وجدول لكل يوم.. يالاً ارجع وامسك الكتاب، واقرا الخطوة الأولى بتركيز، واقرا كل اللّى كتبتَهُ.. وبكره نعمل كده تانى.. ويوم السبت بعد الاجتماع نراجع الخطوة الأولى مع بعض.. إقرا الجوابات قبل ما تنام.

بعد الحديث التليفونى مع حاتم.. نفذت كل ما طلبه منى بدقة، وحوالى الساعة 11 تناولت وجبة العشاء مع أمى، وسعدت كثيرا باتصال كريم من خارج مصر لتهنئتى بالخروج من المستشفى، والعودة إلى البيت، وعدت لاستكمال قراءة الجوابات.. قرأت ما كتبته!!

في تلك الليلة لم أنم جيدًا.. الأرق غير عادى.. وأخيرا نمت .. لم أنم قبل الساعة الثالثة والنصف، وصحوت الساعة 6:30، ولم أجد من أحاوره إلا نفسى:

- ليه يا صلاح تصحى بدرى كده؟ وصاحى مفنجل كأنك نمت 10 ساعات؟!!

بدأت يومى، مثل كل يوم بالدعاء.. قرأت فى الكتاب، وبعد الدش ارتديت ملابسى، وتناولت إفطارى، وصباح الخير لوالدى ووالدتى.. والساعة تشير إلى السابعة والنصف، وأصبحت على أتم الاستعداد للذهاب إلى المستشفى، ولأول مرة سوف أخرج وحدى.. وحدى تمامًا.. قالت لى والدتى:

- وادى 10 جنيه.. تركب أتوبيس من الزمالك للتحرير، ومن هناك تاخد المترو، وترْجَع بالمترو، وتمن علبة السجاير.

- تمام.

- ممكن تكلمنى أول ما توصل المستشفى؟

- حاضر يا ماما.

- وتكلمنى قبل ما تمشى من المستشفى؟

- حاضر يا ماما.

وعندما وصلت إلى المستشفى، وقفت أتأملها، وخطوت إلى بابها، دخلت.. وكأنني أدخل إلى أجمل مكان فى الدنيا.. هو المكان نفسه الذى تمنيت

الخروج منه بسرعة.. وشعرت وأنا أمشي خطواتي الأولى فيه بكامل إرادتي.. إنني أسعد إنسان في الدنيا بعودتي إليه سليماً معافى، دخلت الاستقبال.. وكالمعتاد، لابد من التفتيش.. قابلني صادق قائلاً:

- أهلا.. أهلا وسهلا.. مَعاك إيه؟

- مَعايا شطرنج.

- يعني مفيش مخدَّرات؟

- مفيش مخدرات.

- اتفضل.

لم يكن التفتيش بدقة، ولكن مجرد أداء واجب.. وأكمل صادق حديثه معي قائلاً:

- الدكتور وليد قال مِشْ هنعمل تحاليل النهارده.. بس هتعمل بكره.

- يا سلام.. خوّفتني.

- مَاتنساش ميعاد الصلاة.. النهارده الجمعة، نصلّي سوا.

- حاضر.

تحركت في المستشفى كما أريد.. وبكل حرية.. كنت في قمة السعادة، عندما دخلت القسم، وسلمت على الشباب، وجلست معهم بعض الوقت، وجهوا إليَّ الدعوة لحضور اجتماع الساعة الرابعة.

كان اللقاء مع الدكتور وليد لطيفاً، وتحدثت مع دكتورة إكرام عن الاجتماعات، وعن مشاركاتي المستمرة، ثم قابلت نجلاء، وامتدحت أناقتها وجمالها.. وكلمات المديح والإطراء تسعدها، وتتمايل في خجل تمثيلي واضح، ومن حين إلى آخر كنت أجاملها بكلمات لطيفة، إذ كيف أنسى جهودها في مساعدتي.

وكنت أهوى مشاغبة الممرضات.. ولقد كان الأدب والخلق الكريم يميزهن جميعا، ويعملن جميعا بهمة، وذمة.. وبكل الصبر مع الجميع عند إعطاء الأدوية، ومتابعة تعليمات الدكتور والإدارة.

ولم يفتني التوجه إلى مكتب الدكتور سمير، وفى غرفة السكرتارية انتظرت حوالى 20 دقيقة، ومن الطبيعى أن يحدث هذا، لأنه لم يسبق تحديد موعد لمقابلته، واستقبلنى بحفاوته الرقيقة والراقية:

- ازيك يا صلاح.. ها.. أخبارك إيه؟

- إمبارح كان أول يوم فى البيت، والحمد لله عدّى كويس.

- ممتاز.. والاجتماعات؟

- حضرت اجتماع إمبارح فى مصر الجديدة، والنهارده فيه اجتماع هنا كمان شوية، ناوى أحضره.. ناوى أواظب.. ماعنديش أى اختيار تانى.

- طبعا معندكش.. لو عايز تفضل مبطل.

- أنا جيت أشكرك، واسمح لى أعدّى عليك كل فترة.. وأوعدك مش ها اعطلك.

- أنا مكتبى على طول مفتوح.. وأحب أشوفك دايما. علشان أطمن عليك.

- شكرا يا دكتور.. وعن إذنك.

- مع السلامة.. خلى بالك من نفسك.

إنه يعبر عن نفسه بأقل الكلمات، وكأن فى عقله جهازًا آليًا منظمًا، وكل كلمة محسوبة ولها معناها وفى الصميم.. إنه عالم، ورجل محترم، والجانب الإنسانى لديه يطغى على كل الجوانب، بما فيها جانب المكسب المادى من مثل هذا المشروع، وهو أساسًا صاحب ضمير يقظ، ويبدو هذا واضحا فى كل قراراته.

فى الموعد، وصل الشباب، وأحسنت استقبالهم كأنهم ضيوفى شخصيًا، وفى جلسة صداقة حميمة، جلسنا نضحك ونتحدث بجدية، حتى بدأ الاجتماع الذى أداره خالد، وكان "القاع" موضوع الاجتماع.

وبدأ خالد:

- القاع موضوع جميل.. تشاركنا يا شادى؟

- بصراحة أنا عايز أسمع..

- أمجد؟

- أنا مدمن.. واسمى أمجد.. دا فعلاً موضوع مهم، أنا واحد من النــاس اللّــى معرفتش القاع غير متأخر أوى.. بطلت، وعديت (90 اجتماع، وكنت لسه مــش عارف، ولا فاهم.. ومن مشاركات الناس، تخيلت إن القاع لازم يكون إما السجن أو المستشفى، أو المرض، أو الموت.. فهمت بعد فترة أن القاع بالنسبة لى كان الخوف، والقلق، والرعب، والسواد اللّى كنت عايش فيه..

وتكلم سليم في الموضوع نفسه، وقال:

- سليم.. مدمن.. الحمد لله إن أنا مبطل وموجود وسطكم النهارده.. أنا القاع بتاعى كان واضح وصريح.. كلبوش.. اتمسكت وقضيت أبشع أربع أيام في حياتى.. فى الأيام دى ضربونى فى القسم ضرب على كيف كيفك يا باشا.. لمّا اتمسكت كان لازم أكون عاقل واسكت.. المصيبة إنى علّيت فى دور الصايع، واتخانقت مع الظابط.. طبعا نزلوا فىّ ضرب وفين يوجعك.. متهيألى إن القسم كله عملنى تسليته.. كان فاضل الظابط يبعت الناس اللّى جاية تعمل محضر ضياع بطاقة أو رخصة قيادة، واحد ورا التانى يمسوا عليّا ويضربونى قلمين.. وصرخت بأعلى صوتى: فيه إيه يا جدعان؟!! هو كله ضرب، مفيش شتيمة.. ويعنى هو مفيش حد غيرى فى القسم والّا إيه؟ كان ظابط مفترى.. نسيت أقول لكم إنى اتمسكت فى الماكس، فى إسكندرية.. يعنى فى بلد تانية خالص، وأهلى عرفوا بعد يومين.. يومين كارثة.. بهدلة بنت "....." وكان هو ده القاع، وكان السبب إنى أراجع نفسى.. وفعلا ابتديت أفكر إنى لازم ابطل.. وجيت الاجتماعات وسمعت الكلام ونفذته..

ثم شاركتُ قائلا:

- قبل ما أتكلم عن القاع، عايز أتكلم دقيقة عن السعادة اللى أنا فيها، وأنا قاعد فى الاجتماع هنا فى المستشفى.. أنا فعلا كنت مفتقد الأمان والاطمئنان والهدوء.. لما رجعت البيت، طاردتنى هواجس الدنيا، وشعرت بالراحة لما وصلت المستشفى.. بصراحة، أنا مش عايز أبعد عن المستشفى.. هنا مكانى المظبوط... الكرسى اللى أنا قاعد عليه بتاعي أنا.. واستحقه.. أنا ناوى أجى هنا كل يوم الصبح، وأقضى اليوم كله فى المستشفى، وبالليل أروح الاجتماع فى مصر الجديدة.. أما موضوع القاع، أنا بصراحة لسه مش عارف القاع بتاعى إيه.. بس أعتقد إنه المستشفى.. أو أقدر أقول مبدئيا المستشفى.. واحد مقفول عليه أوضة وصالة لمدة ٦ أيام، وبعد كده يروح مكان تانى، ويكون تحت المراقبة طول الوقت.. وكل حاجة بحساب، دا حتى مكالمة التليفون بحساب، اللبس يدخل ويتفتش، وأخده بعد التفتيش.. والناس بتعاملنى كأنى واحد مجنون.. هى دى أول مرة أدخل فيها مستشفى.. بس مش معنى كده إنى لازم أدخل عشر مرات؛ علشان أفهم اللى أنا فهمته.. بصراحة، أنا ناوى استغل ذكائى فى إنى أبطل..

بعد الاجتماع وصلنى سليم إلى البيت، وعند الباب قال لى:

- أقولك بصراحة، أنا تخيلت إنك هتخرج من المستشفى ومش هانشوفك تانى.

- بجد يا سليم؟!

- شوف يا صاحبى.. الكتاب بيقول ما يصحش نحكم على بعض.. وإنت قررت تبقى موجود معانا، ودا عكس ما تخيلنا، ودلوقت كلنا مبسوطين منك، وحاسين إنك فعلاً أمين فى كل مشاركاتك.. خليك معانا.

إن وقع مثل هذا الكلام المشجع يرفع من حالتى المعنوية، وشكرت سليم الذى تحمل عناء توصيلى إلى بيتى.. وفورا رفعت السماعة وكلمت حاتم

وحكيت له تفاصيل أحداث هذا اليوم الناجح، ومدى شعوري بالسعادة لأنني مبطل، واتفقنا على اللقاء في اجتماع اليوم التالي.

لم تكتمل روعة هذا اليوم بسبب عدم لقاء الدكتورة عالية، فيوم الجمعة أجازتها الأسبوعية.. وفيما عدا هذا، حقاً كنت سعيداً، وأعطيت لأمي ما تبقى معي من مصروفي اليومي، ودخلت إلى غرفتي للقراءة قبل النوم.

بصراحة، في تلك الليلة، وبعد قضاء هذا اليوم الجميل في المستشفى وزيارتها لأول مرة بعد خروجي عمليا منها استطعت النوم بلا معاناة، واستيقظت مبكراً، وأخذت 10 جنيهات من أمي، وتوجهت إلى المستشفى من جديد. هناك قضيت يوما آخر جميلاً.. وكان لي لقاء مفيد مع الدكتورة عالية.. بكل الصبر استمعت إلى مخاوفي، وحالة الرعب التي مررت بها، وصارحتها بأن مخاوفي لازالت مستمرة، وحدثتها عن غرفتي التي تغيرت ملامحها، وعن الشباك الذي خشيت أن أفتحه، وأيضا عن "البلكونة" التي لم أقترب منها خلال إجازة نهاية الأسبوع.

في هذا اليوم حضرت اجتماع دكتورة إكرام، لقد استفدت كثيرا من حضور اجتماعاتها.. ثم تجولت في أرجاء المستشفى بحرية تامة.. حقاً ما أروع الإحساس بالحرية، واليوم أستطيع أن أعلن أنني إنسان حر.

عندما عدت إلى بيتي كانت معي خمسة جنيهات، فطلبت من أمي منحة إضافية:

- يا ماما.. أنا مفيش معايا غير 5 جنيه وعايز 10 جنيه كمان.
- لا.. 5 جنيه بس.. إنت اشتريت سجاير النهارده الصبح.
- إزاي يا ماما 10 جنيه تكفي؟! التاكسي لمصر الجديدة 6 جنيه، والرجوع 6 جنيه، 10 جنيه مش كفاية.
- حاتم قال 10 جنيه، يبقى 10 جنيه.. أنا بانفذ كلام حاتم.
- طيب يا ماما.. وأنا موافق..

خرجت إلى الاجتماع، ودفعت 6 جنيهات للتاكسي، ووصلت في الموعد، واستمتعت بسماع المشاركات، ويقيناً بدأت هذه الاجتماعات تؤثر إيجابياً، وتحرك الأفكار في رأسي بدرجة تصل إلى حد الانسجام والتكيف مع كل شيء جديد، فإنها تضيف إليّ، وتعلمني الجديد الذي لم أكن أعرفه عن النفس، أو عن إدماني.. من خبرة هذه المجموعة التي تجتمع في القاعة تعلمت كثيراً، بل واكتشفت أجمل شيء في الدنيا.. إنه ما من أحد لديه مشكلة، وشارك بها الآخرين إلا وتفانوا في مساعدته، وربما مر بعضهم بظروف مماثلة، أو واجه مشكلة مشابهة، واستطاع التغلب عليها.. فإنه على الفور وبلا تردد يحكي تجربته، وكيف تجاوز المشكلة، ويقدم له الحل بين يديه، وبكل بساطة.. وبطبيعة الحال، عندما يفكر الإنسان وحده، لن يصل إلى النتيجة أو الحل السليم، مثلما يفكر معه 6 أو 7 أشخاص، وهم جميعاً يحبونه بصدق، ومن غير سبب.. حب لله في الله.

وبعد الاجتماع كالمعتاد جمعتني جلسة مع حاتم، بدأتها بقولي:

– موضوع الـ 10 جنيه دا مش ها ينفع يا حاتم.. أنا مفيش معايا فلوس علشان ارجع بيتنا!!

– ليه؟ في جيبك كام؟

– 4 جنيه بس.. تصوَّر!!

– محلولة.. خُذ أتوبيس لغاية التحرير.. ومن التحرير خُذ أتوبيس تاني للزمالك.

– أتوبيس يا حاتم؟!

– إيه؟! ماركبتش أتوبيسات قَبل كده والاّ إيه؟

– طَبْعًا ركبت.

– خَلّينا في المُهم.. الخُطوة الأولى.. ورِّيني كتبت إيه؟

قرأنا معًا ما كتبته، وما مر في حياتي أثناء التعاطي.. ملخص في 5 صفحات..

وانتظرت تعليقه باهتمام:

– إحنا كده متفقين يا صلاح.

– متفقين على إيه؟

– إنك مدمن.. وما تقدرش تضرب.. فمش هاتضرب النهارده.. وعاجز قدام الإدمان ومش عاجز كبني ادم.. دي أول حاجة.. وتاني حاجة إن حياتك ادمرت.. وإحنا لازم نبنيها من الأول وجديد.. تمام.. اللي بعده.. من بكره تقرا الخطوة التانية، وتكلم الناس تشاركهم فيها.. كل واحد يشاركك بخبرته في الخطوة التانية.. ورّيني البلوك نوت.. إيه ده؟ إحنا ماكتبناش الأساسيات!! الناحية التانية من البلوك نوت تكتب فيها الأساسيات:

* الدعاء الصبح أوّل حاجة.

* القراءة في الكتاب.

* التأمل.

* تكلم 3 من المجموعة كل يوم، تشاركهم وتتعلم منهم.

* 90 اجتماعا في 90 يوما.. 5 دقايق تأخير، هنعد من الأول وجديد.

* الكتابة كل يوم على الأقل نص ساعة.. كل يوم نتفق هنكتب إيه اليوم اللي بعده.

* قراءة الجرايد.. على الأقل جريدتين.

* مشاهدة أحداث 24 ساعة.

* تمشي حوالي 20 دقيقة في اليوم.

* تتفرج على الشوارع وتشوف الإعلانات، وتديني رأيك فيها.

* مكالمتين كل يوم للمشرف.

* مفيش خروج مع حد مش مبطل أقل من 6 شهور.

* ماتسلمش على ناس بتضرب، ولا كأنك شايفهم.

* عشرة جنيهات.

– طيّب خليهم 15؟!

لم يرد وكأنني لم أتكلم، وأكمل كلامه قائلا:

* كتابة ماتم تنفيذه في آخر اليوم.

* الدعاء والشُكر لربّنا قبل النوم.

لو عملت المكتوب ده زي ما هو، هتِفْضل مبطّل.. ماتفاصلْش.. وماتكسلْش.. وما تُطنّش.. المرض بتاعنا مكار، وخبيث، وقوي.. وعمرك ما هتعرف هو جايلك منين.. فما ينفعش تدّي له أي فرصة يلاعبك.

تقدمت في البرنامج وبدأت قراءة الخطوة الثانية:

توصلنا إلى الإيمان بأنه قوة أعظم من أنفسنا باستطاعتها أن تعيدنا إلى الصواب".

بعد الجلسة مع حاتم، عرفت من الشباب أنهم مدْعوون إلى بيت سليم عشان يلعبوا كوتشينة.. وفهمت من الحديث أنها سهرة كل ليلة بعد الاجتماع.. وعندما وجه لي سليم الدعوة بالذهاب معهم، شعرت بأنني أسعد إنسان في الدنيا.. أنا أصلا أحب الكوتشينة جدا، لكن الأهم أنهم مجموعة أصدقاء محترمون، وتمنيت أن يقبلوني صديقا لهم، وكان فيما يبدو أن لديهم الرغبة نفسها، وأن المشاعر متبادلة، ولكن المشكلة أنني لم أقل لأمي..

لكن حاتم جاء بالحل.. وقال:

– أول ما توصل بيت سليم، كلّم مامتك في التليفون.. لو وافقت خير، ولو رفضت تاخد بعضك وأخلّي أتوبيس يا معلم.

ومن بيت سليم كلمت أمي، وقلت لها إنني عند سليم، وأعطيتها رقم تليفونه.. ومعي فلان، وفلان، وفلان، وهي خلال تلك الفترة عرفتهم بالاسم: واحد.. واحد.. وكانت تطمئن عندما تسمع اسم حاتم، وعندما عرفت بوجوده طلبت مني أن نكلمه للسلام عليه، وكلمته فعلا، وإن كانت في الواقع لا تريد فقط السلام عليه، ولكنها تريد أن تتأكد من صدق كلامي.

قضيت ليلة من أجمل الليالي في عمري كله.. ليلـة صـافية، كلهـا ضحك، ومرح، ولعب كوتشينة، وفي موعد العشاء، طلبوا العـشاء، واعتـذرت بأنني سأتناول العشاء في البيت، وحقيقة الأمر أنه ليس معي من النقود ما يكفي لمشاركتهم في طلب العشاء.. فكيف أجرؤ؟! لكنهم لم يبخلوا.. عملوا حـسابي، فالوضع بالنسبة لهم واضح ومفهوم.. وتقديرا للموقف، تصرفوا ببساطة مذهلة، وبشكل طبيعي، وكأنهم لم يفعلوا شيئا غير عادي.. الذي يحدث لي هو ما حدث لهم من قبل.

تناولت معهم العشاء.. أكلت وضحكت ولعبت بولة "استميشن".. ولأول مرة منذ زمن بعيد أعيش يوما جميلاً وطبيعيا وسط مجموعة من الأصـحاب.. وأي أصحاب، إنهم مثلي تماما، خاضوا التجارب نفسها، وأشعلوا الدنيا نيرانـا، ومن قلبي انطلقت ضحكاتي التي استمرت على مـدار الليلـة، ودون تعـاطي مخدرات.. لقد تعودت طوال الـ 12 سنة الماضـية، لعـب الكوتـشينة وأنـا "مسطول" وفي هذه الليلة، لعبت وأنا يقظ تماما لكل شيء.. لـيس هـذا فقـط، وكسبت جولات، وجولات.. ومن بين تعليقاتهم الحلوة المشجعة:

– دا إنت حريف!!

– مش تقول من بدري!! أهلا بيك عندنا.

– كنا على طول بندور على رابع.. كدا اتحلت.. أصل كل مرة نتجمع، يبقـى واحد منا مشغول، ونقف على ثلاثة.

قال خالد:

– باقولكم إيه.. بكره عندي.. وإنت يا صلاح لازم تيجي.. وقول لمامتك من قبل ما تيجي الاجتماع، واديها تليفوني، علشان تتكلم في أي وقت.. إديهـا الأمـان يا معلم.

مرت الأيام.

ومر الأسبوع الثاني.. والثالث.. والرابع..

وجاء الاجتماع الذي احتفل فيه بشهر كامل تبطيل.. فقال شادي:

– فيه حد بيتحتفل بأي مناسبة النهارده؟

رفعت يدي.. قلت:

– شهر..

تصفيق بحرارة.. وشاركت قائلاً:

– صلاح.. مدمن.. الحمد لله إني هنا.. ومبطل النهارده.. اتعلمت وفهمت معنى الجملة دي من سليم.. دايما يبتدي بيها مشاركاته.. ياااه!! أنا مش مصدق.. مر شهر كامل وأنا فعلا مبطل!! مش بس مبطل، دا أنا مبطل ومبسوط.. مش ممكن!! دا فعلاً حلم.. حلم بالنسبة لي أغرب من الخيال كمان..

أول حاجة، قبل أي حاجة، أنا مش عارف أشكر الناس اللي ساعدتني إزاي؟ مهما قلت مش ها اعرف أوصف أنا مدين لهم بايه.. وقفوا معايا.. ساعدوني.. شرحوا لي.. صبروا عليّ.. وصلوني.. أكلوني.. شربوني.. ضحكوني.. علموني.. فهموني.. أنقذوني..

مش عارف أقول ايه للمشرف بتاعي؟! أشكره إزاي؟! شاركته بكل اللي بينط في دماغي فشال على دوشة غريبة.. طبعا الدنيا في البيت أهدا 100 ألف مرة.. الحريقة اتسيطر عليها، والنار اطفت.. فيه آثار دخان، ودا شيء طبيعي، لأن الحريقة كانت بصراحة جامدة.. العشرة جنيه هاتجنني.. بس مفيش مشكلة عارف أتعايش مع الموقف.. حالة أهلي أحسن بكتير.. أمي مش مصدقة نفسها.. أختي رجعت تضحك تاني.. وأخويا فرحان بس خايف.. أما بابا فهو راجل كوميدي، وفي دنيا تانية، وشايف إني الحمد لله خفيت وبقيت كويس، وقال لي:

– ما خلاص يا صلاح.. كفاية اجتماعات، وما تضيعش وقتك أكثر من كده.

ردت أمي:

– لا.. لا.. لا.. بلاش اجتماعات إزاي؟ بأقول لك إيه.. خليك إنت في شغلك، ومشاريعك، وسيب لنا إحنا الموضوع ده.

– حاضر.. بس لغاية إمتى؟!

استمرت مشاركتي، وكل المجموعة تستمع باهتمام، وأكملت حديثي قائلا:

– اللى أنا حاسه ونفسي أعمله بعد شهر تبطيل، إني أمسك يافطة وأمشي في الشوارع.. وأقول: يا مدمنين إحنا طلعنا مرضى ومش مجرمين.. يا ضربيه فيه تبطيل.. والله فيه.. وممكن.. وده سهل كمان.. وطالما أنا بطلت، يبقى أي حد عايز يبطل.. هايعرف.. أصحابي اللي باضرب معاهم ما يعرفوش أي حاجة عن الاجتماعات في الأوضة الجميلة دي، ولا عن برنامج الـ 12 خطوة.. نفسي أروح ليهم وأفهمهم.. حاسس إن دا واجب عليّ.. بس المشكلة إني لازم أسمع الكلام.. وسمعت من كل اللي سبقوني وبطلوا قبلي الجملة دي: ما تكثر دعوة بأي واحد بيضرب، وأحسن رسالة تنقلها وتوصلها له، إنك تبعد عنه وتفضل مبطل، ومش قبل 6 شهور تشوف أي واحد منهم، ولما تروح لواحد من أصحابك ما ينفعش كمان تكون لوحدك، لازم تاخد معاك واحد من المجموعة، ومبطل أكتر من 6 شهور.. باتمنى.. ونفسي تمر الشهور، وأبقى 6 شهور مبطل علشان أعمل كده، نفسي أصحابي كلهم يبطلوا، بهاء، وحسام، وشريف دول أكتر ناس نفسي يبطلوا.. أصحابي لازم يعرفوا إني عايش أسعد أيام في حياتي، ونفسي هم كمان يعيشوها... أنا باحمد ربنا وأشكره لأن القرد ابن الـ"....." اللي كان بينطط في دماغي ماجانيش، وما عنديش فكرة ضرب، وفعلا مش عايز أضرب.. أنا بصراحة عايش أيام جميلة، فوق دماغي سحابة رايقة، يا رب تفضل على طول.. مش عارف أشكركم كلكم إزاي؟! شكرا.

ودوى التصفيق، وانطلقت صفارات التشجيع، وتهليل من كل الأركان، وكأن منتخب مصر أحرز هدفا في كأس العالم..

ذهبت إلى المستشفى في اليوم الأول من الشهر الثاني، وزرت كل فرد في المستشفى، ومررت أيضًا على الدكتور سمير في مكتبه، واستقبلني بحفاوته الراقية، ورحب دكتور وليد بزيارتي، وكذلك دكتورة إكرام، ونجلاء، ولن أنسى في حياتي فرحة دكتورة عالية بمرور هذا الشهر على خير.. حقًا كانت سعيدة.

وفي المستشفى التقيت مع أمير، زميلي العزيز في غرفة النوم، فقد كان لديه ميعاد مع دكتورة إكرام للمتابعة.. وكان معه والدته وأخته أميرة.. أحببت هذه العائلة، بعد أن قابلتهم في قاعة اجتماعات مصر الجديدة.. اصطحبوه إلى هناك أكثر من مرة، لأن أمير يرفض ركوب التاكسي للمجيء لحضور الاجتماعات، وكلما التقينا كنت أناقشه في موضوع إصراره على الحشيش قائلا:

– يا حبيبي، الكتاب بيقول إن ماينفعش أي مخدِّرات ، يعني مفيش حشيش.

– أرجوك.. ما تقولش إن الحشيش مُخدرات.

– الكتاب بيقول إن صحيح فيه فرق بين مخدر والتاني، بس الإدمان واحد.

– ما تبقاش ضيِّق يا صاصُو.. فوِّتها.. ولعلمك أنا باشرب بيرة كمان.

– يا ابني الخمرة مخدر.. يا عم أمير إنتَ حر.. أنا ماشي بدماغ مُشرفي.

– المشرف بتاعي كرهني مش عارف يعمل معايا إيه.

– هو مين المشرف بتاعك؟

– سليم.

– دا أجمل شخصية في الدنيا.. والله خسارة فيك.

وكان هذا الحوار الدائم بيني وبين أمير، وعندما يحدثني تليفونيًا كنت أكرر له كلامي هذا وبإصرار، وكانت أخته أميرة تحدثني من حين إلى آخر، تحكي وتصارحني، وتشكو منه:

– إمبارح يا صلاح.. صاحبك أمير رجع الساعة 2:00 وكان شارب، وبابا اتخانق معاه، ورد عليه بمنتهى البجاحة، وقال له: أنا بطلت بودرة، وباشتغل معاك.. عايز مني إيه؟

مسكينة أميرة في هذه القصة، وكانت تذكرني بعلاقتي بأختي رولا.

وفي اليوم التالي، وصلت بعد الاجتماع بخمس دقائق لسببين: ركبت تاكسي، كان يسير ببطء شديد، والثاني زحام الطريق بسبب موكب الرئيس.. ونزلت من التاكسي في أول الشارع، وجريت حتى أصل إلى الاجتماع في موعدي، وأحضر من البداية، لكن للأسف دخلت وقد بدأ.. كان حاتم من الحاضرين، سلمت بنظرة، ردها بابتسامة لها معنى، وهزة رأس.. بعد الاجتماع قلت لنفسي خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.. بدأت الحديث مع حاتم قائلاً:

- الطَّريق كان واقف.. يظهر موكب الريس كان معدِّي.

- لا.. ملوش حق، هو ما يعرفش أن حضرتك عندك اجتماع الساعة 7:00 واللاّ إيه؟

- الظاهر مفيش حد بلّغه.

- يا ظريف.. هتْعِد بكْره من الأول 90 اجتماع.

- لا.. لا.. حرام.. مش مُمْكن يا حاتم.

- بتجْبني وإنت بتسمع الكلام.

وفعلا بدأت العد من أول وجديد 90 x 90.. كان حاتم يرى أن موضوع الحضور في الموعد بدقة، هو موضوع التزام، وانضباط.. وكان هذا درسًا من الدروس المهمة.. إنسان غير ملتزم تمامًا، لابد أن يتعلم ما معنى الالتزام..

بعد الاجتماع قال لي حاتم:

- وبكره تجيب الكشكول معاك.. عايز أشوف إنت ماشي إزاي، ونشارك الخطوة التانية.

- بجَد؟ بكْره الخطوة التانية؟

- وبكره أوّل اجتماع في الـ 90 يا معلم.. ويالله بينا علشان نطلّع على أمجد.. السهرة عنده النهارده.

ما أجمل هذه السهرات.

استفدت كثيرا من مشاركة الآخرين.. خبرة أمجد وشادى وخالد وتوفيق.. ثم كتبت ما فهمته عن الخطوة الثانية وعلاقتى "بقوة أعظم منى"، وأنها قادرة أن تعيدنى إلى صوابى، وشاركت مع حاتم الخطوة الثانية، وسألنى:

– يا ترى فيه قوة أعظم منك مِخلّياك مبَطّل يا صلاح؟

– أه طبعا.. ربنا.. الاجتماعات.. المشاركات.. المشرف.. الناس اللّى فى البرنامج.. الكتاب..

– فهمت ايه من الخطوة الثانية؟

– فهمت القاع بتاعى.

– ازاى يا صلاح؟ اشرح لى.

– القاع بتاعي مش المُستشفى بس.. لا.. القاع بتاعى هو عدم الصواب.. هو الجنون اللّى أنا كُنت فيه، ماكانش ينفع يستمر.. هو ده القاع بتاعى.

– فهمت ايه كمان؟

– إن ربنا وقف جنبى.. ولازم أشكره.. بس مش عارف أشكره ازاى؟

– أشكره بالطريقة اللى تعجبك.. المهم تشكره.. اللى بعده.. الخطوة الثالثة يا مُعلم.

– ايه ده؟ بس كده؟ هى دى الخطوة الثانية؟

– أيوه هى دى.. مش كيمياء.. تقرأ كل يوم الخطوة الثالثة.. وتُشارك الناس بالمواقف اللى بتحصل فى حياتنا وتطبيقها على الخطوة الثالثة.. نفس اللّى عملته فى الخطوتين الأولى والثانية.

– تمام يا افندم.

مرّت الأسابيع الثلاثة الأولى من الشهر الثاني، وحرصت على الوصول في الموعد، بل قبيل الموعد بربع ساعة، وأساعد في تنظيم القاعة.. وتوزيع الكتب على المائدة.. طبعا.. لقد وعيت الدرس جيدا.. الموضوع جد، ولا يحتمل الهزار.. تأخير دقيقة قد يكلفني إعادة 90 اجتماعا من الأول.

42

نبــأ أليــم

سارت الأمور بسلاسة، تحضر الاجتماعات، ومعها تلعب كوتشينة عند سليم أو عند أمجد، وأحيانا يأخذني أحد الأصحاب في سيارته إلى بيتي، وأحيانا أحدهم يعطيني جنيهين ليكتمل المبلغ الذي معي وأتمكن من دفع التاكسي، وأحيانا يعطيني أحدهم سيجارة أو اثنتين في آخر السهرة..

لم يعكر صفو السعادة والهدوء إلا محادثة تليفونية ذات صباح من أحد الأصحاب المدمنين، المسجلين في القائمة السوداء، والمفــروض ألا ألقــاهم أو أتعامل معهم في هذه الفترة الحساسة، قال:

– صلاح.. ازيك؟ أنا يحيى.

– ازيك يا يحيى؟

– باقولك إيه يا معلم.. فيه بيسه سيم.. مش عايز؟

– لا يا يحيى.. أنا مبطل.

– كويس.. طيب لو غيرت رأيك كلمني؟

– لا.. مش عايز.

– أنت مبطل إزاي؟

– لو عايز تبطل.. اديلك نمرة تليفون حد ممكن يساعدك.. أنا مش ها اقدر.

– لا.. لا شكرًا.. لما أعوز ها اكلمك.. طيب يالا سلام.

وضعت السماعة.. وكانت الساعة 11:20 صــباحًا.. فــورًا تــصبب جسمي كله عرقًا.. خفت، وزلزلني الرعب.. لقد قالوا لي في مثل هذه المواقف اتصل بالمشرف فورًا، أو أحد الذين يحضرون الاجتماعات في فتــرة تعــافي، لا تقل عن 6 شهور.

كلمت حاتم، ولم أجده فى البيت، ولم أجده فى المكتب.. ثم كلمت خالد، والحمد لله، وجدته فى المنزل:

– إزيك يا خالد؟

– تمام.. إنت عامل إيه يا صلاح؟

– زفت.. كلمني دلوقت واحد صاحبي ضربيب.

– وبعدين؟

– قفلت معاه، وكلمت حاتم.. مش موجود ولا فى البيت ولا فى المكتب، كلمتك.. أنا خايف أوى.. ومش عارف المكالمة معاه مشيت إزاى.. كأنى مش أنا اللى بيتكلم.. كأن واحد تانى.. قال لى فيه بيسه سم، ماسألتوش منين ولا بكام.. بس قلت له أنا مبطل.. أنا خايف أوى يا خالد.. مش عارف أعمل إيه؟ أنا باترعش وعرقان.

– إهدا بس.. واسمعنى كويس.. الساعة كام دلوقت؟

– الساعة 11:30.

– كويس.. أنا مش عاوزك تبطل يوم.. أنا عاوزك تبطل ساعة واحدة يعنى لغاية الساعة كام؟

– لغاية الساعة 12:30.

– تقدر تفضل فى بيتك ساعة واحدة بس، والساعة دى تفضل مبطلها؟

– أقدر يا خالد.

– أول حاجة هتعملها دلوقت تقرا فى الكتاب.. تقرا من المدمن؟ وماذا يمكننى أن أفعل؟ يعنى لمدة 10 دقايق مش أكتر.

– طيب وبعدين؟

– دولاب الجزم، تدخل عليه وتنضف كل الجزم.

– جزم إيه بس؟!

– إسمع الكلام.

- حاضر.

- ومتنساش تاكل شيكولاته، عندكم شيكولاته في البيت؟

- آه عندنا.

- حلو.. أعمل التلات حاجات دول لمدة ساعة، تاكل شيكولاته وتقرا في الكتاب، وبعدين تنضف الجزم، وكمان ساعة تلاقيني باكلمك.. وما تتحركش من عندك.

- حاضر.. والله ما ها اتحرك.

أكلت الشيكولاته، ولست أدري لماذا أكلتها بسرعة.. وأعجبني طعمها، وكأنني لم أذق طعم الشيكولاته منذ سنوات.

فتحت الكتاب وقرأت كما قال خالد.. قرأت لمدة 10 دقائق ، ثم بدأت في تنظيف الأحذية، وبعد تنظيف زوجين أو ثلاثة من الأحذية، شعرت أنني أكثر هدوءًا، وانشغلت تماما في عملية تنظيفها، ونسيت ما حدث لي منذ نصف ساعة أو أكثر قليلا، والساعة 12:10، بمعنى قبل أن تمر ساعة على حديثي التليفوني مع خالد.. سمعت كلاكسات سيارة.. وكأنني لم أسمع.. الجبن سيد الأخلاق.. جلست في مكاني.

وبعد دقيقتين بالضبط سمعت جرس وطرقات على الباب.. ولم أصدق عيني.. معقول!! خالد!!

- طبعًا خالد.. إنت لسه لابس البيجامة؟!

- هو أنت قلت لي إنك جاي؟!

- يالا بسرعة.. البس وتعال معايا.

بسرعة.. أخذت دش لعلي أفيق من الذهول من موقف خالد الرجولي.. ما هذه "الجدعنة"؟ إلى هذا الحد يشعر بالمسئولية؟ لبست، واستعديت للخروج، وقلت له تعبيرًا عن امتناني لشهامته ونبل أخلاقه:

- مش عارف أشكرك إزاي يا خالد.

- على إيه.. أنا كنت فى البيت وظروفى سمحت لى إنى اعدى عليك.
- الحمد لله إنك كنت فاضى.
- بصراحة يا صلاح.. أنا شايف إنك بتحاول وبتعمل اللى عليك، فحسيت إنى لازم أساعدك.
- شكرا يا خالد.
- يا عم خلاص.. كفاية شكر.. ايه رأيك فى بُولة على الصُبح؟ بعد ماقفلت معايا كلمت شادى وسليم، وقلت لهم على الفيلم اللى حصل لك، وإن أنا ها أعدّى عليك، آخدك وننزل عليهم على طول.
- بُولة اصطباحة* يا معلم.
- صلاح.. إحنا محتاجين نغير اللغة القديمة، فاهم قصدى؟
- فاهم يا خالد.. بس تصدق، موضوع تنضيف الجزم عمل شغل جامد جدا.. واللاّ الشيكولاته.
- إنت فاكر أنا كنت باقولك أى كلام وخلاص؟! فعلا الواحد فى المواقف الصعبة بيحتاج سكر، وموضوع الجزم يضحك.. الواحد بيهزر فيها.. وينسى شوية.. المرة الجاية توضب الدولاب.. المهم تخرج من تفكيرك.
- لعلمك أنا دخلت على جزم بابا.. تصدق من كام شهر كنت هابيعهم لبتاع الروبابكيا.

ذهبنا إلى سليم ومر اليوم بنجاح 100%، وحكيت فى الاجتماع عن الموقف الصعب الذى واجهته.. وشاركت قائلا:

- أهم حاجة طلعت عنها من موقف النهارده، إن أنا مش لوحدى.. وتانى حاجة: إنى ماضربتش.. وتالت حاجة: إن كله بيعدّى لو سمعت الكلام..

---

* كلمة تطلق على تعاطى مخدرات فى الصباح.

وزى الكتاب ما بيقول: "الطريقة الوحيدة التى تحول دون العودة إلى الإدمان النشط هى ألا نتعاطى تلك الجرعة الأولى من المخدر"[1].

احتفلت بمرور شهرين، وعشت خلال تلك الأيام تحت أجمل سماء فى الدنيا.. سماء التبطيل، والهدوء والسكينة..

وفى صباح يوم من الأيام جاءنى اتصال تليفونى.. قهرنى، وزلزلنى.. كان من أميرة أخت أمير، زميلى العزيز فى غرفة النوم بالمستشفى.. هزنى صوتها الباكى من الأعماق، قالت:

– أمير يا صلاح.. أمير.. مات.

– بتقولى إيه يا أميرة؟! يعنى إيه؟ إزاى؟

– لقوه فى العربية فى شارع صلاح سالم، وجنبه حقنة.

– لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.

بكيت بحرقة.. صورته لم تغب عن عينى لحظة منذ سمعت النبأ الأليم.

ذهبت إلى الاجتماع، وعرفوا جميعًا هذا النبأ، وتقبلت العزاء فى صديقى أمير.. شريك الأيام التى أمضيناها معًا فى غرفة واحدة.. هو أمير حقًا، وله نصيب كبير من اسمه، والكل يعرف كم كنت أحبه.. واستمعت إلى مشاركة سليم:

– بعد إذنكم دقيقة سكون على روح أمير..

أكمل حديثه قائلا:

– الموقف صعب.. كلنا بنحبه، وأنا كنت مشرف أمير، وقريب منه جدًا.. وفعلا كنت خايف إن اليوم ده ييجى، بس الطبيعى إنه كان لازم ييجى.. أمير كان عنده تحفظ على البرنامج فى موضوع الحشيش والبيرة، وطبعا رجعوه تانى لكل حاجة.

---

[1] كتيب رقم 22، زمالة المدمنين المجهولين. مرحبًا فى زمالة المدمنين المجهولين. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2005.

وشاركت بصعوبة:

- أنا وأمير عشنا مع بعض 3 أسابيع في نفس الأوضـــة.. كـــان طيـــب أوي، وراجل، وكان دايما يقول لي أنا مش باذي حد، أنا باذي نفسي بـس.. لا مـش صحيح يا أمير.. إنت أذيتنا كلنا.

طبعا بعد سماع هذا الخبر الحزين، كنت في حاجه حقيقية إلي رؤيـة الدكتورة عالية.. وذهبت إلى المستشفى في اليوم التالي، والسؤال الذي ظل يلح في ذهني: هو ليه أمير مافهمش؟

وبعد مناقشة الحدث مع دكتورة عالية، اقتنعت أن ما حدث لـه كـان اختياره، وأن التحفظات التي وضعها أمير بالنسبة للبرنامج، كانت هي الـسبب الأول والأخير لوفاته.

وشرحت لي دكتورة عالية أن البعض منا يحتـاج إلـى متابعـة مـن أخصائيين ودكاترة؛ لأن ما مررنا به كان صعبا ومؤلما، وأن أمير لـم يلتـزم بذلك..

ولم يغب وجه أمير عن عيني أياما.. أثر رحيله على قلبي تأثيرا ثقيلا، وظل هذا الإحساس معي لفترة طويلة.. دون شك.. فإن تلك الأيام التي قضيناها معا في المستشفى لها ذكرياتها التي لن تمر، بل تظل في خاطري، ولن أنـسى أمير طوال عمري كله.

الله يرحمك يا أمير.

43

الشـــك

بدأ موضوع العلاقات العاطفية يشغلني، وكنت أسمع ردًا واضـــحًا: المفروض عدم الدخول في أي علاقة جديدة، قبل أن تمر ســـنة كاملـــة علـــى التبطيل.. لكن لا أحد منا اقتنع بهذا الحظر، والأغلبية كانت في لهفة للارتبـــاط بعلاقة عاطفية، وبسرعة.. بل إن موضوع الجنس يصبح الملاذ الوحيـــد، إذ إن الكوب التي كانت مليئة بالمخدرات، فجأة أصبحت فارغة تمامًا، ولابد من ملء هذا الفراغ بشيء ما.. وبالنسبة لي شخصيا فقد ملأت الفراغ بالقراءة، والكتابة، والاجتماعات، والمشاركات الحية في كـــل اجتمـــاع، ولعـــب الكوتـــشينة مـــع الأصحاب.. ومع هذا ظل هناك بعض الفراغ.

وبعد أن احتفلت بمرور شهرين على التبطيل، رفعت سماعة التليفون، وكلمت مريم، وقلت لها إني "بطّلت" منذ شهرين، ولكن الرد كان غيـــر متوقـــع بالمرة بالنسبة لي:

- وإيه يعني.. ما أنت بطّلت أكتر من شهرين قبل كده.

- أنا اتغيرت يا مريم.. ومبطل.

- إنت مش ممكن تفضل مبطّل، وأنا عارفة إنك هترْجع تاخد تاني.. الموضوع موضوع وقت.. مش أكْتر.. ومن فَضلَك ما تتصلش مرة تانية.

لقد شعرت بحزن عميق، يا خسارة.. تمنيت أن تفهم وتقـــدر الموقـــف هذه المرة.. ولكنها للأسف لم تفهم.. ولم تقدر.. وقـــررت أن أحتـــرم نفـــسي، وأحترم رغبتها، ولا أتصل بها مرة أخرى، ولا أحرج نفسي أكثر من هذا.

تكلمت مع حاتم، فطلب مني ان أُرجئ الحديث، وأننا قريبا سوف نناقشه معًا.

بعد مرور ثلاثة شهور تقريبا من التبطيل والسعادة بالنجاح الذي وصلت إليه.. لن أنسى أن احكي عن التجربة التي واجهتها بعد حوالي 40 يوما من التعافي.. ذات يوم، وفي أحد الاجتماعات، كان خالد هو السكرتير، والمعتاد أنه يطلب من شخص ما إدارة الاجتماع، وفجأة ودون سابق إنذار قال:

- يا صلاح.. مُمكن تدير الاجتماع؟

- أفندم؟! أنا أدير الاجتماع؟! لا.. لا.. لا..

- وليه لأ.. أنا السكرتير، وبارشحك لإدارة الاجتماع.. كل حاجة مكتوبة، وإنت حضرت أكتر من 30 اجتماع، والنهارده إنت الحمد لله مبطّل، فمن حقي إني أختارك لإدارة الاجتماع.

- أخاف يا خالد.

- تخاف من إيه؟ وحتى لو غلطت.. إيه يعني.. يالا.. فاضل 5 دقايق.. ظبط نفسك واستعد.

وقفت، ودرت حول نفسي، وقلت لنفسي:

- يالها من مسئولية!! أنا أقعد على كرسي الرئاسة، وفي الاجتماع عمالقة في القاعة: أمجد، شادي، سليم، توفيق، خالد، حاتم!!

الحقيقة، الابتسامة الكبيرة التي كانت على الشفاه، ساعدتني.. وهدأت قليلا، لكن العرق لازال يتصبب..

وهدأت أكثر، وأكثر مع أول مشاركة من أمجد.. أراد بنبله أن يشجعني بمشاركته.

مرّ الاجتماع على خير، وكان رائعا، وأحلى ما فيه أن كل فرد شكرني بصدق بعد انتهاء الاجتماع لحسن إدارتي.. منتهى الخلق والكرم منهم جميعا.. وتقبلت كل هذا شاكرا بتواضع حقيقي.

أود أن أحكي عن موقفين مهمين، واجهتهما في تلك الفترة الحاسمة من حياتي.. أول موقف كان مع أمي: مرت الأيام وذات يوم عدت إلى البيت بعد

يوم طويل قضيته في الخارج.. كنت مجهدًا؛ فقد خرجت في الصباح الباكر، وذهبت إلى المستشفى، وبقيت هناك حتى جاء موعد اجتماع المساء في مصر الجديدة، ورجعت البيت حوالي الساعة 11:00 ليلًا.. حقًّا كنت متعبًا بعد هذا اليوم الطويل، ووجدت أمي في انتظاري، وسلمت عليها، وفاجأتني بقولها:

– إيه ده؟ إنت واخد مُخدِّرات؟ أنا عارفاك كويس.. إنت شكلك مش مظبوط.

أمام هذا الاتهام، وقفت مذهولًا.. ماذا أفعل الآن؟ وبهدوء قلت لها:

– لأ طبعًا.. أنا مش واخد مخدِّرات.. مخدِّرات إيه؟

– لأ.. واخد.. ولازم أعمل لك تحليل دلوقت.

– ماشي.. أنا موافق ولو طلعت مش واخد هتعملي إيه يا ماما؟

– هي المصيبة إنك هتطلع واخد.. ويالَّا على المعمل حالًا.

– حاضر.. وأنا جاهز يا ماما.

– ألبس وتنزل حالًا.

في مثل هذه المواقف العصيبة، نصحوني بالاتصال بالمشرف فورًا، وأحكي له الموقف، وأسأله رأيه.. وكيف أتصرف:

– ألو يا حاتم.. شُفت اللِّي حصل؟!

– خير.. فيه إيه؟

– أمي شكّت فيَّ النهارده!! قال إيه أنا ضارب.. شُفت!! يعني مبطّل ومش نافع.. يعني أروح أضرب وأبهدل الدنيا علشان تستريح؟!

– بالراحة يا صلاح.. عايز أسألك سؤال.. العشر سنين اللي فاتوا كنت بتعمل إيه؟

– باضرَب.

– كويس أوي.. يبقى مستغرب ليه؟ ما هو الطبيعي فعلًا إنك تكون ضارب دلوقت.. وإنك مش ضارب هو ده اللِّي مش طبيعي.. أنا لو منك أتصرف بطريقة تانية خالص.. أروح حالًا لأمي وأقول لها يالَّا بينا على التحليل..

لو طلع ايجابي، ما نقدرش نتكلم ولا كلمة واحدة.. ولو طلع سلبي، تمام، موقفنا سليم، ونبتدي نبني طوبة زيادة في الثقة اللي بينك وبينها.. الثقه اتهدّت يا صلاح، ومحتاجين نبنيها من أول وجديد.

– لك حق.. أنا ها اعمل كده فعلا.. سلام.

– يالللا بينا يا أمي.. أنا جاهز.

– مفيش تحليل خلاص.. أنت مش واخد حاجة.. أنت كويس.. المشكلة فيّ أنا.. عينيّا هي اللي مش مظبوطة.. شفتك مجهد وتعبان.. ومش قادرة أصدّق إنك فعلا ممكن تكون مبطّل.. ماتزعلش، غصب عني والله.. أنا لي عذري.

عذرت أمي، وقبلتها.. فأخذتني في أحضانها.. واتفقنا على الخروج معًا والقيام بجولة في الهواء، ونزلنا، وأكلنا "أيس كريم" وعدنا وهي في قمة السعادة.. وبمجرد عودتي، كلمت حاتم، وحكيت له ما حدث، شعر بالارتياح، وقال:

– شفت الموضوع بسيط إزاي؟!!

بعد شك أمي وما حدث جاءت الفرصة أن أحكي لعالية عما حدث، فأنا أعلم جيدا أن لها تفسيرا لكل شيء يحدث حولي، فقالت لي:

– المرض يا صلاح بيمتد جوه البيت، والكل بيصاب، بس بطرق مختلفة.. القلق والخوف والتوتر وعدم الثقة والاكتئاب واليأس.. كلها أشكال مختلفة من المرض.. علشان كده مهم أوي إن الأهالي كمان حد يساعدهم.. اللي بيعدوا بيه مش سهل.

– نساعدهم إزاي؟

– همّا كمان عندهم برنامج من 12 خطوة.

في نفس الأسبوع، فاجأتني أمي بخبر جميل، بعد اتفاقها مع والدي على إصلاح سيارتي التي كانت محجوزة في الجراج.. اتفقنا على القيام بجولة لشراء

قطع الغيار لإصلاح السيارة بأحسن صورة، وكانت هذه أول هدية منهما بعد التبطيل.

أكثر ما أسعدني في هذا الخبر، أنه لأول مرة تتحقق لي أمنية من الأمنيات دون إلحاح أو "زن" مستمر.. هذه المرة، كان احتياجي للسيارة واضحًا، وقد تعبت فعلا من ركوب التاكسيات والأتوبيسات، وكلاهما اتفق على تنفيذ قرارهما بسخاء حقيقي، وفي أسرع وقت ممكن.. كان من المهم أن يأتي هذا القرار منهما، ودون طلب مني.

والجديد أيضًا بعد 3 شهور تبطيل، كان من حقي أن أتولى المسئولية، وأصبح سكرتيرًا للاجتماعات.. والسكرتير من مهامه استلام الكتب والكتيبات وتنظيم القاعة، وشراء متطلباتها كلها مثل: الشاي والنسكافيه، والأكواب، واللبن، وأتسلم الميزانية في يدي.. وهذا في حد ذاته نقطة تؤكد الثقة القوية من المجموعة التي تلتقي في تلك القاعة، ولم يعترض أحد.. حصلت على الثقة بالإجماع، وبصراحة كانت هذه فرصة لأن ينال خالد حقه في الراحة، فقد أمضى 4 شهور سكرتيرًا من غير أي مساعدة، وكنت وديًا أساعده.. وبعد أن شكرنا خالد على مجهوده لمدة 4 شهور، توليت المسئولية كلها.. والحمد لله منذ الاجتماع الأول، ودون مجاملة أعلنوا أنني تحملت المسئولية، في سهولة ويسر ونفذتها على أكمل وجه.

أستطيع أن أقول، وبكل الصدق، إن الثلاثة شهور التي مرت، منذ عرفت طريقي إلى هذه القاعة، وهذه الاجتماعات، كانوا من أجمل الأيام التي مضت من عمري، وعلمت جيدا لماذا يطلقون على هذه الفترة: حياة السحابة الوردية أو "البمبي"، ولا شيء يهم في عالمي ودنياي، إلا أنني "مبطّل" وأحضر الاجتماعات، وأشارك الأصدقاء.. نتحاور، ونضحك ونسهر معًا، ونلعب كوتشينة، وأعود إلى بيتي وغرفتي هادئا مطمئنًا.. حقًا.. الدنيا وردية وجميلة.

مرت الأيام.. وكان الموقف الثاني مع حاتم، يوم جاءني بعد الاجتماع، وقال لي:

- تعال يا صلاح.. عاوزين نتكلم شوية مع بعض.

- خير يا حاتم.

- إنت مبطّل من أد ايه؟

- 3 شهور و 11 يوم.

- تعجبني وإنت بتعد بالأيام.. عندك "سي في"؟!

- لا.. ماعنديش.

- وناوى تشتغل إزاى وإنت ما عندكش "سي في"؟! أنا عارف إنك الأيام دى عايش أجمل أيام، بس لازم تفهم إن الحياة مش هاتستمر كده.. السحابة بتمشي.. اوعى تفكر إن الحياة تبطيل، واجتماعات، ومشاركات، وكوتشينة.. لا.. الفترة الجاية الأولويات هتتغير وبتتظبط بشكل مختلف.. نسبة حضور الاجتماعات هتقل شوية.. الشغل والمستقبل أهم حاجة.. لو إنت فاكر إن أنا ناوى أساعدك في التبطيل بس، تبقى غلطان.. أنا مهمتى كمان أحطك على الطريق المظبوط علشان نبتدى نبني لك مستقبل، وتنجح في حياتك، ويبقى لك لازمة في الدنيا.

- إيه المطلوب مني؟ أنت تخطط، وأنا أنفذ.

- أول حاجة هتجيلى البيت يوم السبت الجاى، نكتب الـ "سي في" سوا، ومن النهارده عليك بالجرايد، وبالذات أهرام الجمعة.. بينشر إعلانات شغل كتيرة، تقص كل إعلانات الشغل، تقراها وتراجعها كويس، ونشوف إيه المناسب منها، وبعد ما نخلص الـ "سي في" نبعته، وربنا يسهل إن شاء الله.

- اتفقنا.

فعلاً عملنا السيرة الذاتية، وراجعت الصحف، وعملت ملفًا من إعلانات الوظائف، وأرسلنا الـ "سي في" لشركات كثيرة، ومنها شركة عملاقة تعمل في

سيرة ذاتية.

مجال الكهرباء، وسمعتها ممتازة.. وحددت الشركة احتياجاتها في الإعلان: مطلوب خبير في المبيعات والتسويق.

كان هذا الإعلان بالذات مناسبًا لقدراتي وخبرتي في البيع والتسويق.. إنها فعلا الوظيفة التي أحب أن أشغلها وقلت لنفسي: دا أنا بيّاع نمرة واحد.. دا أنا بعت كل حاجة وصلت إليها إيدي.

قمت بعملية استطلاع ودراسة عن هذه الشركة، واكتشفت أن أصحابها عائلة كبيرة، وأولادهم من جيلي، وكانوا زملائي في المدرسة نفسها، منهم أكبر مني، ومنهم أصغر مني.. وكنا نشارك معًا في الفرق الرياضية في المدرسة، وفي النادي.. إذا لو تمكنت من تحديد موعد للمقابلة، فقد ألتقي بأحد هؤلاء الزملاء.. زملاء المدرسة.. لكن مَن؟ لست أدري.

لم أتردد، واتصلت بأرقام الشركة التي وردت في الإعلان، وكانت المفاجأة أن مدير المبيعات هو فيصل، صديق من النادي، وعائليًا، تربط والده ووالدته صداقة قديمة وقوية مع والدي ووالدتي.. طبعا هذه المعلومات تبعث على الاطمئنان، وفي أغلب الظن هذه الوظيفة من نصيبي..

وبسرعة مذهلة حددوا لي موعدًا للمقابلة يوم السبت الساعة الحادية عشرة، وسألتني السكرتيرة:

– يا ترى الميعاد مناسب؟!

– مناسب جدًا.

وفي اليوم التالي، يوم الخميس صباحا، فاجأني والدي بأن أحد الفنادق العالمية، قد اتصلوا تليفونيا وحددوا لي موعدا للقاء يوم السبت الساعة العاشرة.. وتركت السكرتيرة رقم التليفون لإبلاغهم بالموافقة أو تغيير الموعد.

أدهشني الموقف.. فأنا لم أبعث "سي في" لهذا الفندق، ولا أعرف أحدًا هناك.. وموعد العاشرة صباحا لا يتناسب مع موعد شركة الكهرباء.. ولم يكن هناك مفر من تأجيل الموعد.

اتصلت بالسكرتيرة، وصارحتها بالموقف:

– أنا باعتذر عن الميعاد الساعة 10:00، مُمكن يتأجل إلى الساعة 1:00؟

– دقيقة واحدة وأردّ عليك.

وعادت بالرد:

– "أوكيه".

– الساعة 1:00 بالظَّبط، هكُون موْجود.

وجاء يوم السبت.. استيقظت منتعشًا، دعوت، وقرأت، ولبست ملابس رسميه.. وكلمت حاتم، فقال لي:

– تُوصل يا صلاح قبل الميعاد بربع ساعة، وتتكلِّم بمُنْتَهى الصدْق والأمانة، وتسيب الباقى على ربّنا.

بعد أن سمعت الوصايا العشر من حاتم توجهت إلى الشركة، ووصلت الساعة 10:30، وسألت على صديقي فيصل، واستقبلنى فى مكتبه بحفاوة، وحكينا ذكرياتنا فى النادى والفرق والرحلات، وشرح لى أيضا طبيعة العمل فى الشركة، وطمأننى بأننى الشخص المناسب للوظيفة المطلوبة.. وشعرت بالراحة لكلامه، واستبشرت خيرًا، وفي تمام الساعة 11:00 قابلت هاني ابن صاحب الشركة.

تذكرنى فورا عندما رآنى، رغم أنه أكبر منّى بسنتين دراسيتين، ولكننى كنت من أشهر تلاميذ المدرسة بسبب مغامراتى اللانهائية، والتى كانت مثار الحديث للزملاء في كل الصفوف، بل وحكى لى إحدى النوادر التى لا ينساها.. كان حديث الذكريات هادئًا، ودودا ولطيفا، وسألنى عن دراستى، ورحلاتى للخارج، وعن عملى فى الماضى ثم قال:

– بمنتهى الصراحة يا صلاح، أنا بادوّر على ناس عندها أى خبرة فى مجال الكهرباء.. وأنت معندكش أى خبرة خالص، بس إحنا فى خطتنا تجهز جيل

جديد، ونعمل دورات تدريبية، ساعتها نقدر نكلمك تيجي تحضر الدورات علشان تتعلم، وفي الحالة دي تقدر تشتغل معانا.

- مفيش مُشكلة خالص.. بس إمتى الدّورات دي؟

- علشان أكون صريح معاك، مش قريب، بسّ دا موضوع في خطة الشركة، وأوعدك إنك تكون أول الناس المرشّحين لحضور الدورات دي.

- متشكر، وأنا في انتظار ميعاد الدورات.

مررت على مكتب صديقي فيصل، وحكيت له ملخص اللقاء، مما أدهشه كثيرا، وطلب مني أن أصبر بعض الوقت، ووعد أن يراجع الموقف مع هاني، ويتصل بي ويصارحني بكل شيء.

خرجت من الشركة آسفا وحزينًا، وأكلّم نفسي قائلاً:

- زميلي.. زميل المدرسة يعمل معايا كده؟! إزاي وليه؟ يا خسارة!! فعلا دي آخر حاجة كنت أتخيلها.. بس هو ده الموقف، ولازم أتقبّله.

كانت الساعة 11:45، وموعدي في الفندق الساعة 1:00 ، وصلت هناك الساعة 12:20 إذا الوقت أمامي، ويسمح بأن أكلم حاتم لأحكي له نتيجة المقابلة، وكل ما حدث.

وجدت تليفونا في أحد المحال، وكلمت حاتم، ورد عليّ، وأدهشني رد فعله الغريب.. فعلا لم أكن أتوقعه:

- كويس أوي إنك ما تقبلتش في الشغلانة دي.. أكيد ربنا شايل لك حاجة أحسن.

وضعت السماعة وأنا في حالة غيظ حقيقي منهما.. من حاتم ومن هاني.

ودخلت إلى مقر الفندق الفاخر، قبيل الموعد بربع ساعة، وسألت على السكرتيرة، وأبلغتها بوصولي..

وفي تمام الساعة الواحدة قابلت المدير العام.. وعند باب مكتبه استقبلني بأدب رفيع المستوى، وعلى المكتب لوحة عليها اسمه.. "مختار...." الذي قال:

- مساء الخير.. اتفضل.

- مساء الخير.

- طبعا أول سؤال بيدور في ذهنك، إحنا وصلنا لك إزاي؟

- أنا فعلا مستغرب، أصل أنا الحقيقة ما اعرفش حد هنا، ولا عمري قدمت على وظيفة هنا.

- أنا أقول لك.. الموضوع بسيط.. انا عندي صديق حميم، اسمه زهير، وهو المدير العام لشركة "......" وسألته عن شباب خريجين لإدارة المبيعات والتسويق، فقال لي إنه عمل إعلان، وعنده كم هائل من "السي فيهات"، وزرته في مكتبه، واطلعت على مجموعة كبيرة، واخترت منها 11 "سي في"، وإنت واحد منهم.

- أنا فعلا قدمت عندهم.. دلوقت الموضوع مفهوم.. الأول كان بالنسبة لي غامض.

- أنا قابلت 10 وانت اخر واحد.. وقرار التعيين هاناخده النهارده.. بالتوفيق..

وبدأ مختار في الأسئلة.. ولمدة ساعة كاملة في مختلف الموضوعات.. إلى أن قال:

- وآخر سؤال عندي: عايز مرتب أد إيه؟

وكان ردي سريعا وواضحا:

- أنا مايهمنيش المرتب.. أنا يهمني المستقبل.

إبتسم مختار ابتسامة جميلة وقال:

- هو دا الرد اللي كنت منتظره من كل اللي عملت معاهم مقابلات قبلك.. فيه ناس، جايز في تقديري أكفأ منك لأنهم اشتغلوا في فنادق قبل كده، بس مفيش

واحد منهم اداني الرد والإجابة اللي كنت عايز أسمعها.. تقدر تشتغل من إمتى يا صلاح؟

- من النهارده أنا جاهز.

- لا.. أول الشهر يوم الأربع الجاي.. تعال استلم.. ولو تحب من يوم الاتنين تيجي تاخد فكرة عن طبيعة الشغل.. أهلاً بيك.

- أكيد ها أجي يوم الاتنين.

- اتفقنا.. ومن يوم الاتنين نتكلم في كل التفاصيل.. طبيعة الشغل، المواعيد، المرتب.. والمستقبل.

- شكرا يا افندم.

خرجت من الفندق، وأنا لا أصدق نفسي.. ما هذا الذي حدث؟! هل هذا حلم يارب؟! حلم واللاّ علم؟! أعمل في فندق عالمي؟! فندق له فروع في كل دول العالم!! والمستقبل كبير إن شاء الله.

عدت إلى بيتي، وأنا طائر من السعادة، وأحلق في سابع سماء.. حكيت لبابا وماما وأسرعت إلى التليفون وكلمت حاتم، وحكيت له كل كلمة بالتفصيل، وسألته:

- هو إنت كنت عارف، واللا كان قلبك حاسس إني ها اخد الشغلانة دي واللاّ إيه بالظبط؟

- اسمع يا صلاح، عايزك تقرا الخطوة التالتة كويس.. اللي حصل ده هو الخطوة التالتة.. وإيه كمان.. بطريقة عملية.. عايزك تكتب صفحة عن مفهومك عن الخطوة التالتة بعد الموقف ده.. وهنقراها بالليل.. ومن بكره يا بطل نبتدي الخطوة الرابعة.. تقرا وتشارك الناس أصحاب الخبرة.

- حاضر.

- مبروك الشغل يا صلاح.. وخلي على الجهاد.

- الله يبارك فيك.

قرأت الخطوة الثالثة:

"اتخذنا قرارا بتوكيل إرادتنا وحياتنا لعناية الله على قدر فهمنا".

حقًا.. إن الله يختار الأفضل لنا.

كنت في حالة من السعادة لا تصفها الكلمات.. أخيرا سوف أتسلم العمل الجديد.. وأعمل في فندق عالمي.

44

الصـــدمة

بدأت العمل في الفندق العالمي، وأحببت عملـــي وأتقنتـــه فـــي أيـــام معدودة.. وتوطدت علاقتي بزملائي في العمل.. أحببت هذا المكان.. وأصـــبح لدي عملاء يثقون بي ويقدرون مجهودي.. ورشحني مـــديري لحـــضور دورة تدريبية في أوربا.. فاجأني مختار بقراره وكانت مفاجأة مدهشة، إذ إنني أعمـــل في هذا الفندق منذ فترة قصيرة.. أسرعت حاملاً هذا النبأ إلى حاتم، فقال:

- أول حاجة نتأكد أن البلد دي فيها اجتماعات، غير كده أقترح عليك إنك تعتذر.
- أعتذر؟!!
- طبعاً تعتذر.. إنتَ عايز تاخد "الريسك"* في حياتك؟
- أكيد لأ.
- أسأل شادي عن البلاد اللي فيها اجتماعات، هو معاه جدول اجتماعـــات فـــي 60 بلد.

وقد كان، ذهبت إلى شادي وسألته، وبالفعل كان هناك اجتماع في هذه الدولة.

وبعد ذلك أبلغني مديري بالموافقة على سفري في آخر العام، أي بعـــد احتفالي بمرور عام على التعافي، وقد أسعد حاتم هذا التوقيت، وقال لي:

- كويس.. خلينا مع بعض أول سنة.
- ماشي، مفيش مشكلة.
- نرجع للمهم.. أخبار الخطوة الرابعة إيه؟
- تمام. قرأتها كذا مرة.

---

* المخاطرة.

- طيب ممكن نبتدى نكتب؟

وبدأت كتابة الخطوة الرابعة:

"قمنا بعمل جرد أخلاقى متفحص وبلا خوف عن أنفسنا"

وقد شرح لى حاتم أنها من أهم الخطوات والوقوف عندها خطر.. تحدثت مع أمجد الذى شرح لى الخطوة بمنتهى البساطة قائلا:

- نرجع ونكتب كل اللى حصل فى الماضى.. فى نقط.. عاوزين نعرف عيوبنا: الندم، الخوف، الإنكار، الشعور بالذنب و.... و.... الكتاب بيقول إيه، نقرا سوا: "نحن نكتب عن الأشياء التى تزعجنا هنا والآن.. لدينا ميل نحو التفكير السلبى، لذا فوضعها على الورق يعطينا فرصة النظر إلى ما يحدث بطريقة أكثر إيجابية.. يجب أن ننتهى من الماضى، لا أن نتشبث به.. نريد أن نواجه ماضينا.. نراه على حقيقته ونطلقه كى نتمكن من معايشة اليوم".

ثم أضاف أمجد:

- ده تنضيف البيت من جوه يا صلاح..

لم تكن خطوة سهلة، فقد مرت علىّ أحاسيس مختلفة وصعبة.. تعرفت على هذه الأحاسيس لأول مرة.. ولكن فى الوقت نفسه كانت خطوة ممتعة فقد تعرفت على نفسى.

استمرت الحياة جميلة.. العمل.. الاجتماعات.. برنامج الخطوات الإثناشر، وقد أصبحت عندى الفرصة لأدعو أصدقائى الجدد "لبولات" الكوتشينة فى منزلى.. نفس السهرات الجميلة التى كنا نقضيها عند خالد وشادى وأمجد وحاتم..

تمر الأيام، وكل شىء جميل إلى أن أستقبلت مكالمة من ميدو:

- صلاح.

- أهلاً.. الحاج ميدو؟!

- صلاح.. صلاح.

جاء الصوت ضعيفًا، وسمعت بكاء.. فسألته:

- مالك يا ميدو؟! فيه إيه؟

- بهاء يا صلاح.. بهاء.

- مالُه.. لا.. لا.. لا يا ميدو.

- آه يا صلاح.. آه.

- يعنى إيه آه.. يعنى إيه.. اتكلّم يا ميدو.

- مات.. بهاء مات.. خلاص استريح.

- لا.. لا.. لا.. يا ميدو.

وفجأة، سمعت صوت حسين على الجانب الآخر:

- أيوه يا صلاح؟! أنا حسين.

- إيه دا يا حسين؟ إزاى يا حسين؟

- هيكون إزاى؟ اسمع.. إحنا نازلين دلوقت على بيته.. تعال هناك.

- طيب يا حسين.. حاضر.

وبسرعة صاروخية، انطلق شريط الذكريات، ودارت في ذهنى وقائع الأحداث التى جمعتنى مع بهاء، ورامى، وأحمد، وحسين.. شريط من أيام المدرسة، والتزويغ، والسجاير، والحشيش، والسفر.. و.. كل حاجة فاكرها..

وفى لحظة قفز بهاء إلى ذهنى وفكرى وقلبى وعقلى.. بونو.. بكيت بأعلى صوت.. كم تمنيت فى هذه اللحظة أن أراه وأتكلم معه.

كلمت حاتم وحكيت له الواقعة الأليمة:

- أنا نازل أروح لبهاء.

- هتروح ليه؟

- مش عارف.

- جو مش صحى بالمرة.. شوف العزاء بُكره فين.. وخلاص.

- كنت عايز أروح له يا حاتم.. بسْ مالحقتش.. كان نفسي أروح له.. عشرة عُمْر يا حاتم.

- البقيّة في حياتك.. شِدْ حيلك يا صلاح.

صدمة، وليست مثل كل الصدمات.. أيْ نعم، هذا هو المتوقع دائمًا، لكن الواحد منا لا يشعر بقسوة الحدث إلا بعد حدوثه أمام عينيه.. ودائمًا يأتي فجأة.. ياليها من صدمة.

الله يرْحمك يا بهاء.. كنت فعلاً حبيبي أوى.. أوى..

الله يرْحمك يا بهاء.

وبعد أكثر من شهر انتهيت من كتابة الخطوة الرابعة، واتصلت بحاتم وأبلغته أنني على أتم استعداد لمشاركة الخطوة الخامسة:

"أعترفنا لله ولأنفسنا ولشخص آخر بالطبيعة الحقيقية لأخطائنا".

مفتاح راحة الضمير والحرية على رأى توفيق.. أعترفت لله عندما كتبت كل النقاط على الورق ودون تحفظ.. واخترت مشرفي حاتم أن يكون هذا الشخص.. فأنا أثق فيه.. الثقة الكاملة بنزاهته وقدرته على حفظ أسراري.

جلست في منزل حاتم من الساعة التاسعة مساءً إلى الساعة الخامسة فجرا.. رغم خوفي من الموقف وعلى مظهري، رفعت القناع وكنت واضحًا، أمينًا ودقيقًا.. حكيت كل شيء وقد ساعدني حاتم عندما بدأ يشاركني ببعض قصصه.. فاكتشفت أنني لم أكن مختلفا.. ليلة لن أنساها طوال حياتي..

لقد فهمت معنى راحة الضمير والحرية بعد تطبيق هذه الخطوة.. معك كل الحق يا توفيق!!

إلى الخطوة السادسة يا صلاح:

"كنا مستعدين تماما لأن يزيل الله كل هذه العيوب الشخصية"

مر شهر وأنا أقرأ هذه الخطوة كل صباح قبل ذهابي إلى العمل.. أشارك أصحابي ذوي الخبرة وأستمع إلى تجربتهم في معايشة الخطوة.. كم كان مهمًا أن آخذ بعض الوقت لفهم معنى "النية".. كي أستطيع أن أحياها.

النية هي ما نجاهد من أجله في الخطوة السادسة.. مدى إخلاصنا في تطبيق هذه الخطوة سيتناسب ومدى رغبتنا في التغيير.. من المهم أن نتذكر أننا بشر، ولا ينبغي أن نضع لأنفسنا توقعات غير واقعية.. هذه خطوة نية، والنية هي المبدأ الروحي للخطوة السادسة.

شاركت مع حاتم الخطوة السادسة فسألني:

- قولي يا صلاح نفسك تبقى عامل إزاي؟ أعتبر نفسك لسه مولود.

- نفسي أبقى أمين.. ومَا اخفش.. ومش عايز أكذب.

ابتسم حاتم وقال:

- كويس بس لازم تفهم إنك في الأول والآخر مش ملاك.. وعمرك ما هتكون ملاك.

- طبعا عارف.. أنا كنت فين.. وبقيت فين!!

- الخطوة السادسة مبنية على النية، وإن إحنا نعمل أحسن ما عندنا.

- النية موجودة والحمد لله.

- يبقى مستني إيه.. الخطوة السابعة يا باشا.. تقراها كل يوم الصبح.. وتشارك الناس باللي إنتَ فاهمه وحاسُّه.. وبعد كده تكتب اللي فهمته..

- زي بقية الخطوات؟

- بالظبط.

مر الشهر السادس.. إنه يوم اجتماع مهم جدًا.. اجتماع انتظرته طويلاً.. إنه يوم احتفالي بمرور ٦ شهور كاملة.. كان خالد يدير الاجتماع..

نظر إليّ خالد نظرة لها معنى، وضحك في سعادة، ثم قال:

- النهارده عندنا احتفال كبير.. صلاح مبطّل من 6 شهور.. (تصفيق من الجميع بحرارة).. بس قبل ما أطّلب من صلاح إنه يشارك.. أحب أحكي حاجة، أنا فاكرها كويس أوى.. لمّا أنا كنت باحتفل بتبطيل 6 شهور، وكان صلاح ساعتها لسه في المستشفى، وقال تعليق مش ممكن أنساه أبدا.. قال هو فيه حد بيبطل 6 شهور؟ فيه ولا لأ يا صلاح؟ ممكن تشاركنا؟

- صلاح.. مدمن.. ياه!! إنت لسه فاكر يا خالد؟! فعلاً أنا ماكنتش ممكن أتخيل إني أبطّل 6 شهور أبدا.. ولا حتّى شهر.. الحمد لله يارب.. كل الناس اللي في الأوضة شافوني أول يوم.. يوم ما دخلت وكنت خايف أقول إني مدمن.. النهارده أنا مش خايف وقاعد واثق من نفسي.. أحترمت إدماني فاحترمني.. سمعت الكلام.. وبهدوء نفذت المقترحات كلها.. اتعاملت معاها على إنها أوامر، ودا ساعدني كتير، وخلي دماغي تهدا، ما أنا لو شغلت دماغي الدنيا هتولع.. فهمت ليه بيقولوا على البرنامج السهل الممتنع، برنامج بسيط لناس معقدة.. فعلا بسيط ملخصه: الدعاء، ساعتين في اجتماع، مشاركة الناس، وصفحتين من الكتاب، التأمل وكتابة لمدة نص ساعة كل يوم، خلوني مبطل.. واتعلمت الأمانة، وفهمت يعني إيه التفتح الذهني، والنية الحمد لله كانت موجودة..

ابتديت أشوف دنيا جديدة.. دا فيه موقف حصل يضحك أوى.. وأنا قاعد في البيت جت عيني على فازة جامدة جدا في المكتبة.. أمي كانت قاعدة جنبي فسألتها: حلوة أوي "الفازة" دي يا ماما، جديدة؟ ابتسمت وقالت: "الفازة" دي أنا وباباك اشتريناها من "تشيكوسلوفاكيا" من أكتر من 20 سنة، وطول عمرها في المكتبة.. ياه.. 20 سنة وأنا مش شايفها ومش دريان..

مرّ هذا الاجتماع الجميل، وكل الأصدقاء كانوا سعداء، وعبروا بكلمات صادقة عن فرحتهم بي، وبوجودي بينهم، وأنا بدوري كنت في قمة السعادة، وممتن لهم جميعًا.. احتفلنا في هذه الليلة بسهرة عند أمجد.. كوتشينة.. ضحك..

عشاء.. ولكن في هذا الوقت استطعت دفع الفاتورة، وحاولت أن أدفع عن أصدقائي بعد أن تحملوني لفترة طويلة، ولكن كان الرفض هو القرار.

وفي عملي اشتغلت بهمة وحب لهذا العمل، وللعاملين معي.. وكنت أدخل مكتبي الساعة 9 صباحًا، واستمر في العمل حتى الساعة 10 مساءً.. ووسط ساعات العمل أختار ساعتين راحة للذهاب إلى اجتماع.. فالحمد لله الاجتماعات زادت والوصول إليها أصبح سهلاً، فالاجتماعات فرصة للتنفيس، ومشاركة المشكلات.. التعامل مع الناس وتقبل عيوبهم.. عيوب لا يرونها ولا يعلمون كيف يتعاملون معها.. الأخطاء كثيرة.. مشكلات الشغل والالتزامات ومشاركة الآخرين مفيدة لنا جميعًا.. البرنامج يعلم النمو ومهارات التعامل مع النفس والناس.. والتعليم لا ينتهي.. شاركت الأصدقاء معترفا بخبرتهم.. وكان كل واحد منهم مفيداً بصورة ما وبشكل مختلف.. والحق يقال كان أمجد مُشرف مُشرفي أكثرهم خبرة.. دائما يعطي المعلومة بسهولة ويسر.

تحركت الى الخطوة السابعة:

"سألناه بتواضع ان يخلصنا من نقائصنا الشخصية"

الخطوة السابعة هي وقت طلب الراحة والعون من الله..

إن هذه الخطوة هي الطريق إلى النمو الروحي، والهدف الرئيسي من الخطوة السابعة هو أن نخرج من انحصارنا في أنفسنا، والحصار الذي يفرضه علينا إدماننا، فهي تدريجيا، وبعناية تنتشلني من عزلة ووحدة الإدمان.

إننا نريد أن يخلصنا الله من الجوانب المدمرة في شخصياتنا.. بعد أن أصبحت حياتنا في حالة من الفوضى الحقيقية، أدركنا أننا وحدنا لا يمكن أن ننجح.. بهذا الاعتراف، حققنا لمحة من التواضع.. إن التواضع يلعب دورًا كبيرًا في برنامجنا، وطريقتنا الجديدة في الحياة.. أهمية التواضع للبقاء ممتنعين عن التعاطي، كأهمية الطعام والماء للبقاء على قيد الحياة.. نحن نتعرف على عيوبنا

الشخصية، ثم نصبح مستعدين كي يزيل الله هذه العيوب.. هـذا هـو العنـصر الأساسي للخطوة السابعة.

وبعد الوصول إلى هذا المفهوم، نكون مستعدين للخطوة الثامنة.

لقاء قديم

لقد أحببت العمل، وأحببت الحياة، وتطورت الأمور لصالحي كثيرًا.. كثيرًا أسرع مما تخيلت.. بعد ٦ شهور من تعييني زاد مرتبي زيادة كبيرة، وتمت ترقيتي وأصبحت نائبًا لمدير مبيعات وتسويق الفندق، واشتريت سيارة جديدة.. وفي زمن قياسي حققت نجاحًا واضحًا، وأثبت كفاءة عالية، جعلت إدارة هذا الفندق، وزملائي يتحمسون لمساعدتي، ودفعي إلى الأمام.

اختلفت الحياة في كل الاتجاهات.. علاقتي بأصدقائي الجدد أصبحت وثيقة وازدادت حرارة.. كما عاد إليّ أصدقائي القدامى.. وأصبح لي أصدقاء جدد من زملائي في الفندق وعملائي أيضًا.. وأصبح مختار مديري في العمل من أعز الأصدقاء.. أيضًا تقدمت في البرنامج، واشتغلت بقية الخطوات بمساعدة حاتم، وبدأت مواجهة الواقع الأليم عند كتابة الأسماء في الخطوة الثامنة:

"قمنا بعمل قائمة بكل الأشخاص الذين آذيناهم، وأصبحت لدينا نية تقديم إصلاحات لهم جميعًا".

وعلى مدار شهر أعتقد أنني كتبت في هذه الخطوة أسماء كل من أعرفهم.. وكنت مذهولا من كم الأشخاص الذين آذيتهم بسبب إدماني: سيف، مريم، مصطفى، كريم، رولا، أمي، أبي، سلمى، راندا، هالة،........ كتبت عشرات الأسماء، من الأصدقاء، من الجيران، من الأقارب، من المدمنين، من الزملاء في العمل.. من.. ومن.. ومن.. في مصر، بل وخارج مصر.

اتصلت بحاتم واتفقنا على بداية تنفيذ الخطوة التاسعة:

"قدمنا إصلاحات مباشرة لهؤلاء الأشخاص كلما أمكن ذلك، إلا إذا كان ذلك قد يضر بهم أو بالآخرين".

ذهبت إلى حاتم بكم هائل من الأشـــخاص الـــذين اذيـــتهم، وكتبـــت أسماءهم في الخطوة الثامنة، وبدأت أستمع له بتركيز، قال:

- خلي بالك يا صلاح الخطوة التاسعة صعبة ومستمرة ومش بنقف عنـــدها.. الالتزامات الكتيرة في وقت قليل خطر علينا.. فمن اللازم أن تنفـــذ الخطـــوة التاسعة بهدوء وفي حدود الإمكانات.

- هو أنا ها اعتذر للناس دي كلها؟

- لا طبعا.. الاعتراف اللي ممكن يضر ناس تانية، الأفضل إنه يتم بطريقة غير مباشرة.. تكون مثلا غلطت في واحد صاحب باباك، واعترافك ليه ممكن يـــأثر على علاقتهم سوا.

- إزاي يا حاتم أعتذر بطريقة غير مباشرة؟

- افرض إنك سرقت من صاحب باباك فلوس، حاول تختار مناســبة وترجـــع المبلغ في هدية، حتى لو بعتها له على المكتب من غير اسم.. لازم نبقى فـــاهم إن ربنا بيساعد في الاعتذارات أوي، وبيخلق ظروف لا تتخيلها، بتساعدنا على تقديم التعويضات.. على العموم إحنا لازم ندرس كل واحد أذيته بظروفه لوحده، وربنا يساعدنا على اتخاذ أحسن القرارات.

- كان نفسي أعتذر لتانسي، الله يرحمها.. أنا غلطت فيها كتير.

- ممكن تزور قبرها وتعتذر لها، أو تكتب لها جواب.

- مش ممكن أعرف مكان المقبرة.. أحسن حاجة أكتب لها جواب.

وبدأت تقديم التعويضات، وكان أصعبها، هو الاعتذار الذي بدأت بـــه سلسلة الاعتذارات.. وكان رأى حاتم أن ابدأ بالاعتذار لابنـــة عمـــي سـلمي.. وسألته:

- ليه يا حاتم؟ خلينا نأجل اعتذار سلمى ده شوية.

- أحسن حاجة نخلص من أصعبهم.. وفي رأيي الاعتذار دا أهم واحد.

وذات يوم، وبعد غياب سنين طويلة، كلمت زوجة عمي، وكالمعتاد رنّت بمنتهى الذوق، سألتها عن سلمى.. كانت مصادفة في زيارة لها، فقالت لي:

- سلمى هنا.. ثانية واحدة.

ودار الحوار بيننا على التليفون:

- ألو يا صلاح.

- إزيَك يا سلمى؟

- الحمد لله.

- بعد إذنك.. مُمكن أشوفك؟

- آه ممكن.

- إمتى؟

- بكْره لو عايز.. أنا عند ماما من الساعة 10:00 لغاية الساعة 2:00.

- خلاص.. هَا اشُوفك بُكْره إن شاء الله.

قابلت مديري في العمل فورًا، وطلبت منه تصريحًا لمدة ساعتين في اليوم التالي، ووعدت بألا تزيد مدة غيابي عن المكتب أكثر من ساعتين.. وحصلت على الموافقة دون تردد لأنني شديد الالتزام في عملي.

حقيقة، كانت عملية المواجهة بالنسبة لي مهمة ثقيلة وصعبة للغاية، وكلمت حاتم وأبلغته بالموعد مع ابنة عمي، وصارحته بأنني حاولت الهروب من هذه المواجهة، وأنني تمنيت ألا يأتي هذا اليوم أبدًا.. فقال لي:

- إحنا يا صلاح مسئولين عن اللي عملناه، ولكن مش مسئولين عن ردود فعل الآخرين.. فيه ناس ممكن تتقبل الاعتذار وناس متتقبلش.

- وأعمل إيه في الحالة دي؟

- ولا حاجة.. تسمع رد الفعل وتتقبله وإنتَ ساكت.. لعلمك فيه مرة وأنا بأقدم الاعتذار لواحد صاحبي أخدت بوكس في وشّي.. وهزّأني.. وطلب مني أبعد عنه خالص.

- ليه عمل كدا يا حاتم؟

- لأني جرحته وآذيته جامد.

- ليه عملت فيه إيه؟

- وإنتَ مالك.

- دا على كده.. أكيد سلمى هتموتني.

- يا صلاح، اعمل اللّى عليك، وسيب الباقي على ربّنا.

وصلتُ إلى عمارة عمي الساعة الحادية عشرة.. إنها أول مرة أدخلها منذ سنوات.. تحركت بصعوبة، كنت أجر قدمي، وساقاي لا تقويان على حملي، كنت أيضًا أرتعد، وأتصبب عرقًا، وغمرني شعور بالخوف.. وأنا خائف.. وضعت إصبعي على الجرس، وفتحت سلمى:

- إزيّك يا صلاح.

- إزيّك يا سلمى.

- تحب نقعد فين؟

- أي مكان.

- طيّب.. تعالَ في الصالون.. تشرب إيه؟

- ولا حاجة.. شكرا.. تعالي نقعد ونتكلّم بس الأول.

- خير.

- أنا مش عارف ابتدي منين.. معلش استحمليني شوية.. من غير مقدمات، أنا كان عندي مشكلة مخدّرات كبيرة أوي.. أكيد إنت كنت حاسّة وعارفة.. يوم فرحك أنا جيت هنا، وأخدت الخاتم بتاعك.. قصدي سرقته.

وبكت سلمى.. وأكملت كلامي قائلاً:

- للأسف الشديد أنا ما حسّتش باللّى أنا عملته خالص، كنت يومها تحت تأثير المخدّرات.. أنا مش عارف عملت كدا إزاي!!

وقفت سلمى.. فوقفت أنا أيضًا.. واستمرت في البكاء، وقالت:

- أنا من أسبوع واحد حلمت بالحوار اللى بينى وبينك دلوقت.

- مش ممكن!!

- أنا نفسى مش مصدقة.

- طيب ممكن تبطّلى عياط؟

- اوعى تفتكر أنا باعيّط على الخاتم.. أنا باعيّط من كُتر ما أنا فرحانة إنك رجعت لنا تانى.. فداك الخاتم.. المهم صلاح.. مش مُهم الخاتم.

وبكيت أنا أيضا مثل سلمي تمامًا.. وبعد أن هدأنا، قلتُ لها:

- ممكن نقعد علشان أكمّل كلامى.

- إتفضل.

- أنا عايز أطلب منك طلب.. من فضلك خُدى المبلغ ده.. أول دفعة تحت حساب الخاتم.. أنا دلوقت باشتغل، وإن شاء الله في أقرب فرصة أرجعلك تمن الخاتم كله.

- ما خلاص.. باباك دفع تمن الخاتم.

- أنا ماليش دعوة باللى دفعه بابا.. أنا باتكلّم عن نفسى.. أنا لازم أدفع تمنه علشان أستريح.

- حاضر.. حاضر يا صلاح.

بكت سلمى، وهى تأخذ منى النقود.

- أنا آسف.. والله أنا آسف.

- وأنا مسامحاك.. والله مسامحاك.

وبكينا من أول وجديد.. ثم ضحكنا.. ولم يتوقف حديث الذكريات.. حقًا لم أكن أتخيل أن يمر هذا الموقف الصعب بهذه السلاسة.. مستحيل هذا الذى حدث.. إننى لم أتوقع أبدا أن يكون رد الفعل بهذه المحبة وهذا الرقى والنبل.

وفى مثل هذه المواقف الصعبة، كان حاتم يطلب منى الاتصال به على الفور، رغم أنه فى المكتب، ليُشعرنى أنه بجانبى، وأيضا ليطمئن عليَّ.. وكم كان سعيدًا بما سمعه منى، لكن الذى أدهشنى قوله:

- أنا كنت متوقع أن الموضوع هيَعدى بمُنتهى الشياكة.. وقد كان يا باشا.

من التعويضات التى اهتممت بتنفيذها، هى الاعتذار لمريم.. لكن حاتم كان عنده رأى آخر:

- إنتَ كلمتها يا صلاح وهى صدتك.. وساعتها اتفقنا أنـا وأنـت نـتكلم فـى الموضوع دا بعدين.

- مظبوط، ومفهمتش ليه.

- أحسن حاجة يا صلاح إنك ما تظهرش فى حياتها تانى.. ودا أحسن تعويض.

- كلامك صح.. ومهما قدمت من اعتذارات......... لن يكفى!!

ومن الإعتذارات المهمة، زميل المستشفى حلمى الشيير: "حلمى مثلاً".

ذهبت إليه فى المستشفى.. وقد عرفت أنه خرج لفترة مـا، وعنـدما انتكس عاد إليها مرة أخرى.. التقينا وتحدثت معه، ولأول مرة أشعر بكم الطيبة فى هذا الشخص، صارحته:

- أنا اللى حطيت الطبق تحت سريرك وبلغت عنـك.. أنـا غلطـان وآسـف يا حلمى.. أنا جيت لك النهارده مخصوص، ومن فضلك إقبل اعتذارى.

- إنتَ يا صلاح؟!! أنا كنت فاكر شريف هو اللى عمل كده!!

- أنا بجد آسف.. ممكن تسامحنى؟

- دا أنا قضيت يومين ولاد "....." فى 111.. يومين كاملين مش شايف غيـر تلات "بارات"* حديد.

- ما بلاش سيرة البارات.

---

* قضبان.

ابتسم حلمي وقال:

- أنا مبسوط أوى إنك مبطَّل يا صلاح.. ونفسي أبطَّل أنا كمان.

- خلِّيك معانا وإنتَ تبطل.

- إنتَ عارف يا صلاح إن اعتذارك لي خلاَّني عايز أروح الاجتماعات.

- ياريت يا حلمي.

وبالفعل بدأ حلمي يواظب على حضور الاجتماعات.

وبدأت أقرأ الخطوة العاشرة:

"واصلنا عمل الجرْد الشخصي لأنفسنا واعترفنا بأخطائنا فورا"

ساعدتني هذه الخطوة في إصلاح مشكلاتي اليومية.. فهي أفضل وسيلة دفاع، وحصن ضد الجنون القديم..

أتذكر توفيق عندما شاركني خبرته قائلاً:

- الخطوة العاشرة يا صلاح زي تابلوه الكهرباء اللي مليان زراير.. أول ما اللمبة الحمْرا تنوَّر يبْقى فيه حاجة غلط.. تروح تصلحها وبسرعة.

وكان خالد يضحكني عندما يقول:

- الخطوة العاشرة هي الضمير الصاحي والمفنجل يا معلم.. خلي الضمير صاحي يا صاصو.

وكان موضوع الضمير بالنسبة لي اختراعا جديدا.. وكأنه اكتشاف.

جلست مع حاتم وقرأنا معًا ما كتبته.. ومثل جميع الخطوات شاركني بخبرته والمواقف التي مر بها التي من خلالها استطاع تطبيق الخطوة العاشرة في أمور حياته اليومية.

ازداد أعداد الوافدين إلى الاجتماعات.. ازدادت خبرتي في البرنامج.. وبدأت تطبيق الخطوات مستمتعا بالحياة دون مخدرات.. حضرت أكثر من 340 اجتماعا في السنة الأولى.. وقد حدث أكثر من مرة أنني حضرت

اجتماعين فى اليوم نفسه.. فقد زادت الاجتماعات وأصبحت فى أماكن كثيــرة يسهل الوصول إليها.

46

يوم بيوم

أحببت الحياة.. وبدأت اكتشاف شخصية جديدة، فلم أكن أعلم أنى أحب الخيل.. لم أكن أعلم أنى أحب السينما.. لم أكن أعلم أنى أحب الورد.. وبدأت أسمع الموسيقى واستمتع بها، أشاهد الأفلام وأفهمها.. انضممت مرة أخرى إلى أصدقاء النادى، وواظبت معهم على لعب الكرة، ومن فترة إلى أخــرى كنــت أذهب إلى المستشفى وألعب شطرنج مع صــادق.. وكانــت ســهرات نهايــة الاسبوع مع أمجد وخالد وشادى وسليم وتوفيق.. وحــاتم، وقــد اســتمر فــى توجيهى ومساعدتى فى البرنامج، وكم كان مفيدا وممتعا أن نجلس كــل فتــرة لنراجع ما حدث ونتناقش فيما هو جديد ومختلف..

وذات يوم حضرت اجتماعا عن الخطوة الحادية عشرة:

"سعينا من خلال الدعاء والتأمل إلى تحسين صلتنا الواعية بالله على قدر فهمنا، داعين فقط إلى معرفة مشيئته لنا والقوة على تنفيذها".

الدعاء يجلب لى السلام.. ويساعدنى على أن أعيش حياة خاليــة مــن الخوف وعدم الثقة.. أصبح يمكننى الآن أن أطلب مساعدة الله.. وعندما أحتاج إليه وأستعين به، تتحسن أمورى..

وفى لحظات التأمل الهادئة، تصبح مشيئة الله واضحة.. ويبدأ العديــد منا تقدير تعافينا، حينما نصل للخطوة الحادية عشرة، فتأخــذ حياتنــا معنــى أعمق.. وبالتسليم إلى الله، والتخلى عن التعالى والسيطرة والغرور، نكتسب قوة أكبر بكثير.

وفى النهاية، عندما أطلب الإرشاد من الله، تغمرنى مشاعر من السلام والسكينة.

مرت الشهور، وجاء يــوم "...." ديــسمبر.. ولا أنــسى أبــدا يــوم "...." ديسمبر منذ عام كامل، كان آخر يوم تعاطيت فيه مخدرات وكنت فــي المستشفى.. إنه أول يوم آخذه أجازة منــذ بــدأت العمــل.. رنــين التليفــون لم يتوقف.. كل الناس كلمتني: حاتم، أمجد، خالــد، توفيــق، سـليم، شــادي، بالإضافة إلى نورا وسحر، وكلتاهما توقفت عن التعاطي منذ شهر واحد.

وفي هذا اليوم اتصلت بالمستشفى، وأبلغتهم بأنني سأقضي اليوم هناك. أخذت معي "التورتة" وجاء معي: سليم، وأمجد، وشادي.. بداية توجهــت إلــى مكتب دكتور سمير.. شكرته من قلبي، وكانت ابتسامته الكبيرة تعبيرًا واضــحًا عن سعادته بما حققته، ومررت على مكتب دكتورة إكرام لتحيتهــا وشــكرها.. وكذلك نجلاء، وبالطبع لم أنس صديقي دكتور وليد، الذي اســتقبلني بحــرارة، وشكرته بكل مشاعر الامتنان.

كانت أهم شخصية في هذا اليوم هي الدكتورة عالية.. جلــسنا معًــا، وأعتقد أنني لم أستطع أن أعبر لها عن واحد في المائة مما أشعر به في أعماقي تجاهها، فما فعلته معي سوف يظل يطوق عنقي مدى الحياة.. جلــست معهــا، ومثل كل جلساتنا معا، نظل نحكي ونتحاور، ونفكر، ونناقش، ونسمع، ونشرح، ونضحك.

وبعد قضاء اليوم في المستشفى، ذهبت مع أمجد إلى منزله، فقد دعاني وحاتم إلى الغداء.. وقد كانت فرصة بالنسبة لي لأشكرهم على ما فعلاه معــي على مدار هذا العام.. وقد تحدثنا معًا حديثًا مهما:

حاتم : مبروك يا صلاح.. ألف مبروك..

أمجد : مبروك يا صاصو.

صلاح : سنة.. بجد مش مصدق.. أنا مش عــارف أشــكركم إزاي.. مهمــا عملت مش ممكن أعرف أرد الجميل ده.

ابتسم أمجد وقال في هدوء:

– لأ.. ممكن تعرف ترد الجميل.

صلاح : إزاي؟

أمجد : تعمل مع غيرك اللّي اتعمل معاك.

حاتم : إنتَ دلوقتِ جاهز إنك تبقى مشرف يا صلاح.

كانت مفاجأة بالنسبة لي..

صلاح : مشرف!! دي مسئولية كبيرة أوي!!

أمجد : إحنا عارفين.. بس ما تنساش أن ربنا معاك.. وإحنا وراك.

حاتم : اللّي مش متأكد منه، تسألني فيه.. ولو أنا كمان مش متأكد، نرجع لأمجد ونتناقش كلنا.

أمجد : بس لازم تبقى فاهم إنك يا صلاح مسئول عن حياتك، ومش مسئول عن حياة الناس التانية..

صلاح : مش فاهم قصدك إيه!!

أمجد : أنت ممكن تاخد الحصان لغاية الميه.. بس متقدرش تخليه يشرب.. إحنا يا صلاح بنحمل الرسالة، ومش بنحمل المدمن.. الرسالة إنك تساعده يعمل اللي عليه؛ يقرا.. يشارك.. يدعي.. يتغير.. يبني مستقبل.. يتعلم اللي أنت أتعلمته.

حاتم : أنت عارف يا صلاح أن أمجد هو اللي لفت انتباهي لموضوع شغلك.. في يوم كلمني وقال: كويس أوي إن صلاح بيعرف ينبسط بالكوتشينة وهو فايق، بس ده مش هو أسلوب الحياة.. لازم صلاح ينزل أرض الواقع، ويبتدي يدور على شغل.. البرنامج مهواش تبطيل وبس، البرنامج تبطيل وتغيير.. ومستقبل.

أمجد : إنت مخصوص ليه يا صلاح؟

صلاح : كلام جديد عليَّ.

حاتم : وحتى لما تشتغل.. واحدة واحدة.. بهدوء.. خلـي بالـك الإدمـان سلوك.. ومش مخدِّرات بس.

أمجد : كوتشينة.. نلعب كوتشينة كل يوم.. نشتغل، يبقـى نـشتغل عـشرين ساعة في اليوم، دا اسمه سلوك إدماني.. وهو دا مرضنا.. فهمت؟

صلاح : فهمت.

أمجد : وحاجة كمان مهمة قالها لي المشرف بتاعي لما بطَّلـت سـنة: أنـا عايزك تنقل كل يوم رسالة للمدمن.. سألته.. إزاي؟ قال لي: بمكالمـة تليفون.. أو إحضر اجتماع.. مارس المبادىء.

حاتم : وآخر حاجة علشان لازم ننزل.. التقليد الخامس بيقول إيه يا أمجد؟

أمجد : "كل مجموعة ليس لها سوى هدف أساسي واحد هو حمـل الرسـالة للمدمن الذي مازال يعاني".. هو ده البرنامج يا صلاح..

حاتم : النهارده بعد الاجتماع تدور على عضو جديد وتقول له إنـك عـايز تساعده.. زي ما عملت معاك بالظبط.

صلاح : علِم ويُنفذ.

حضرنا الاجتماع السنوي في مصر الجديدة، وكان أروع اجتماع فـي الدنيا.. سنة بالنسبة لي، وبالنسبة للناس كلها: رقم جميل، ولابد من احترامه.

تم اختيار يوم كان فيه الاجتماع مفتوحا، فامتلأت القاعة بكل النـاس.. بكل الأصدقاء.. لم يتخلف أحد، جاءوا جميعا للاحتفال.. جاء: خالـد، شـادي، أمجد، سليم، توفيق، حاتم، سحر، نورا.. والمفاجأة الكبرى.. جـاءت دكتـورة عالية أيضا، لتحضر الاجتماع.. وتوالت المفاجآت، حـضرت زوجـة خالـد، وزوجة سليم، وزوجة توفيق وأختها.. بل وجاءت أمي ورولا أيضا.. وقبل نهاية الاجتماع وصل كريم وعلى وجهه ابتسامة جميلة.

أدار أمجد الاجتماع، وقد حضر أكثر من وافد جديد مـن المستـشفى، يتقدمهم صديقي شريف.. واقترح سليم أن يكون موضوع الاجتماع "سنة تبطيل"،

إنها فرصة لي أن أعبر عما يدور فى أعماقى من حب وسعادة وامتنان، شاركت قائلا:

- صلاح.. مدمن..

- أهلا صلاح.

- أول حاجة: أنا عايز أعرف مين اللى قال إن زمن المعجزات انتهى؟ ييجى يورينى نفسه.. معجزة، وأى معجزة.. سنة.. 12 شهر.. 365 يوم.. 8760 ساعة، ما لمستش وما شفتش فيها مخدرات.. معجزة فعلا.. يا ساتر يارب على دى رحلة.. وكل ماشوف حد ضارب، أعرف أد إيه ربنا بيحبنى..

أنا مش عارف أوصف سعادتى.. ولا أوصف شعورى.. ولا عارف أوصف اللى أنا فيه دلوقت.. تانى حاجة: أنا عايز أشكر كل الناس: الدكتور سمير أول من واجهنى بالحقيقة.. الدكتورة عالية نورت لى الطريق، وطبعا حاتم مشرفى، وأمجد وشادى وتوفيق وسليم وخالد، اللى وقفوا جنبى وساندونى..

فعلا أنا كنت فى حرب مرعبة.. وربنا سترها معايا، وخرجت منها.. يوم بيوم.. أنا ماكنتش أقدر أحارب أكتر من كده.. والله ما كنت قادر.. كانت حرب خسرانة، مافيهاش فصال.. أنا كنت تعبت أوى.. تعبت من الكدب.. تعبت من السرقة.. من الجرى.. من التليفون اللى بيرن، من جرس الباب، ويا ترى لو فتحت الباب فيه مصيبة وراه واللاّ إيه؟ كانت أمنية حياتى أحط راسى على المخدة وأنام.. أنام زى كل البشر ما بيناموا.. أنام 6 ساعات متواصلة.. ما كنتش عايز أكتر من كده..

اللى أنا فيه دلوقت، أكتر من كده بكتير.. أسمع جرس الباب، ويرن التليفون، ومش خايف.. أدخل سريرى، وأحط راسى على المخدة، باعرف أنام فى ثانية.. عندى أصحاب أحبهم من كل قلبى، ويحبونى لله فى لله.. ولاهما عايزين منى حاجة، ولا أنا عايز منهم حاجة.. رجعت إلى أهلى.. وأمى رجعت جامعتها، ورولا بطلت تعيط، وبابا مبسوط وسعيد.. وكريم أخويا النهارده فخور

بصلاح.. دلوقتي بشتغل، واخد مرتب.. باتعب، بابني مُستقبل.. نجحت في شغلي وأثبت نفسي في وقت قياسي.. كل الوعود اللي البرنامج وعدها لي بتتحقق..

أنا مُشْ عارف أقول إيه.. واللاّ إيه.. أمنيتي إني أساعد الناس إنها هي كمان تبطّل.. أساعد كل اصحابي.. خايف حد منهم يموت.. نص أصحابي ماتوا، نفسي أدخل دماغهم، وأفهمهم إن الحياة من غير ضرب أجمل، ولها معنى تاني خالص.. نفسي يفهموا.. يارب يفهموا.

شكرا إنكم سمعتوني.

قام حاتم وسلمني ميدالية مكتوب عليها "عام من التعافي"، وحصلت على تشجيع وتهليل من الجميع.

كان اجتماعا جميلا واحتفالا رائعا.. سوف أتذكره طوال العمر..

أما الوافدون الجدد من المستشفى، شباب وبنات، فرأيت الذهول على وجوههم وتخيلت تعليقاتهم:

- مين الناس دول؟

- إيه يا عم الفيلم الغريب ده؟

- يا عم ميبطّل بقاله سنة إزاي.. أصلاً مفيش حد بيبطّل سنة..

- أصل هو مضربش زيي..

وبعد الاجتماع جاءني شريف، حضنني وقال:

- مبروك يا صلاح، عقبال عمرك كله.

- الله يبارك فيك، عقبالك يا شريف.

- أنت فهمتني حاجة مهمة جدا.

- فهمتك إيه؟

- الصياعة مش في الضرب، الصياعة في التبطيل، وأنا كمان لازم أبطل.

- ياريت يا شريف، بجد ياريت، وأنا معاك في أي حاجة إنت عايزها.

وعملاً بالخطوة 12:

"بتحقق صحوة روحية لدينا نتيجة لتطبيق هذه الخطوات، حاولنا حمل هذه الرسالة للمدمنين وممارسة هذه المبادىء في جميع شئوننا".

وبعد سنة تبطيل دارت الأيام، والأسابيع، والشهور والأعوام.. والحمد لله "أنا مبطَّل".. والتقيت بالكثيرين في قاعات الاجتماعات.. وحاولت أن أساعد قدر استطاعتي.. منهم من فهم، ومنهم من لم يفهم..

منهم اليوم مدير فرع أحد البنوك، ومنهم مهندس، ومنهم من تخصص في علاج الإدمان، ومنهم من شق طريقه في دنيا المال والأعمال.. ومن لايزال يبحث عن عمل، ولكنه مبطَّل، ومنهم.....، ومنهم.....

مرت الأعوام ومازلت أحضر الاجتماعات.. في مصر وخارج مصر.. تختلف اللغات ويبقى الهدف واحداً:

إننا نفضل مبطَّلين.. يوم بيوم..

وفي كل مكان نروحه في الدنيا بنسمع وبننقل نفس الرسالة.

وأخيرًا.. واليوم، أستطيع أن أقول في جملة واحدة:

"أسوأ يوم تبطيل.. أحسن مليون مرة، من أحلى يوم ضرب".

حمداً لله على السلامة

استغرقت كتابة ومراجعة هذا العمل أكثر من سنتين، ولا أستطيع وصف كم المشاعر المختلفة التي مرت بي أثناء كتابة هذه الرواية، مشاعر يصعب شرحها ووصفها في كلمات..

في لحظات ابتسمت، ثم ضحكت.. ضحكت بأعلى صوت، ولحظات أخرى حزنت.. بكيت، وتركت القلم لأيام وليالٍ.

بعد أن انتهيت من كتابة هذه الرواية، وقراءتها في هدوء، مرة ومرتين وثلاثة، كان لدي عديد من الأسئلة والاستفسارات، حدثت نفسي قائلاً:

الآن يبقى أن ألقاك يا صلاح..

كان لنا لقاء في مكتبه.. في الفندق العالمي.. برج عالٍ يطل على منظر بديع.. ما شاء الله.. المكتب كبير، واسع وأنيق.. وقد وقف صلاح مع زملائه حول مائدة الاجتماعات يُنْهي معهم بعض الأعمال.

جلست في مقعدي.. أتأمل حركاته وتحركاته.. أسلوبه في الحديث، تعليماته السريعة لزملائه، وحسن استماعه لكل منهم، ثم شكرهم والتفت إليّ قائلاً:

– إيه الأخبار يا عصام؟

– الحمد لله.. معايا مفاجأة.

– مفاجأة!! أحب المفاجآت.

– الكتاب جاهز.. بس أنا فعلا تعبت.. دي رحلة طويلة وصعبة.

ابتسم صلاح وقال:

– الضرب والمخدرات رحلة مرعبة.. تشوف نور جميل في آخر النفق.. تروح له.. وفي ثانية تُفاجيء بانك قُدّام القَطْر.. ومش هايقف.

– أنا لسّه عندي كام سؤال.

– دا إنت سألتني مليون سؤال.. اتفضل اسأل.

– مش عارف ابتدى منين؟

– خلِّينى أساعدك، ولو أنا مكانك يبقى أول سؤال: إنت حاسس بإيه النهارده؟!

– هو دا السؤال الأول.

– أنا فى واقع جميل.. كان ممكن يبقى مكانى مش هنا.. إما فى السجن أو فى المستشفى، دا لو كنت عايش.

– السؤال التانى.. تتمنى إيه؟

رد صلاح بلا تردد:

– أتمنى أفضل مبطل.. يوم بيوم.

– طيب.. وبشكل عام؟

– مش عارف ابتدى منين، واللاّ منين..

– ابتدى من أى مكان.

– أتمنى الناس تفهم إن المدمن مريض.. والأهم إن المدمن نفسه يفهم إنه مريض.. أتمنى إن المدمن اللى عنده قضية، ولسه ماتحاكمش فيها، ومدخلش السجن، يتحكم عليه بالعلاج الأول.. وبعدين يرجع للقاضى بعد العلاج ومعاه مندوب من مركز التأهيل، دا اللى بيحصل فى كل الدنيا.. كفاية يبقى عندنا مدمن مريض، بدل ما يكون عندنا مدمن مريض ومجرم.. وساعتها علاجه هيبقى أصعب..

أتمنى إن الحكومة تدرس حالات المدمنين المسجونين، تعيد محاكمتهم، وتفرج عنهم، تعالجهم الأول، ولو مافهموش، وماستوعبوش الدرس، تحبسهم.

– لك حق، لازم ياخدوا فرصتهم.. تتمنى إيه كمان؟

– محتاجين مستشفيات ومراكز تأهيل أكتر.. لازم المدمن ياخد فرصة سليمة.. تعالجه مظبوط وبآدمية.. المدمن ذكى، ولكن على رأى بابا: "المدمن بيسئ استخدام ذكائه".. إنما بعد علاجه بيتوجه بذكائه إلى طريق سليم.. وفجأة تلاقيه ناجح جدًا، ومُندمج وسط المجتمع، وعندى أمثال كتيرة..

- آخر سؤال.. برنامج زمالة "المدمنين المجهولين" إبتدى فى مصر إمتى؟

- أول اجتماع فى مصر كان يوم 26 نوفمبر 1989.. وكان فيه 2 بس حاضرين، وإنت كتبت عنهم.

- مين دول؟

- أمجد وجلال.

- ودلوقت الموقف إيه؟

- الموقف جميل، عندنا 47 اجتماع فى الاسبوع، فى 6 محافظات، وفى حدود 1500 متعافى لو ماكنش أكتر..

- وخارج مصر؟

- فى كل أسبوع أكتر من 43 الف اجتماع، فى 127 دولة.

- ما شاء الله.

- وكل ساعة عدد المتعافين بيزداد.

- نفسى أسألك عن شخصيات كتبت عنها فى الرواية.. يا ترى همَّ فين دلوقت؟

ابتسم صلاح ابتسامة هادئة وقال:

- فى القاهرة.. الإسكندرية.. سوهاج.. الهند.. البحرين.. إيران.. فرنسا.. فلسطين.. الكويت.. كندا.. السعودية.. أستراليا.. فى كل مكان فى الدنيا.

- معنديش أسئلة تانى.. عندى بروفة الكتاب أحب إنك تشوفها.. وحاجة واحدة عايزة أقولها لك.

- اتفضل.

- حمدًا لله على السلامة.

وصيـــة الكاتب

عزيزى القارىء..

أشكرك على وقتك الذى قضيته مع هذا الكتاب.

أتوقع من بعض القراء محاولة معرفة بعض شخصيات هذه الرواية.. حقيقة الأمر: الموضوع شائك، ولا يحتمل الخطأ.. ولا الشك.. ولا الظن.

أرجو الحفاظ على مجهولية هؤلاء الأشخاص:

- احتراما للخصوصية.
- تقديرا منا لدورهم، واهتمامهم بنقل الرسالة وتحمل المسئولية.
- حماية لهم.. كى يستطيعوا الاستمرار فى مساعدة الآخرين، دون أى إحراج أو أذى نفسى أو شخصى لهم ولعائلاتهم.

عزيزى القارىء..

هدف هذه الرواية هو نقل الرسالة للمدمن الذى مازال يتعاطى.. وأتمنى من الله أن يساعد هذا الكتاب فى شرح حجم المأساة، دون أى مبالغة، كى نستطيع جميعا مساندة ملايين المدمنين المرضى فى الوصول إلى الحقيقة، بعد أن عاشوا أياما وشهورا وسنوات فى وهم المخدرات.. وأن يثقوا فى أن هناك أملاً فى الشفاء.

برنامج المدمنين المجهولين[*]:

"المدمنون المجهولون" هي زمالة أو مجتمع [هيئة أو جمعية]، لا يسعى إلى تحقيق الربح، ويتكون من رجال ونساء، أصبحت المخدرات مشكلة رئيسية بالنسبة لهم. نحن مدمنون نتعافى ونجتمع معا بانتظام، لنساعد بعضنا البعض كي نبقى ممتنعين. هذا برنامج للامتناع التام عن كافة أنواع المخدرات. هناك مطلب واحد فقط للعضوية هو الرغبة في الامتناع عن التعاطي. نحن نقترح أن تكون منفتحا ذهنيا وأن تعطي نفسك فرصة. برنامجنا هو عبارة عن مجموعة من المبادىء، مكتوبة ببساطة شديدة، لدرجة أننا نستطيع أن نتبعها في حياتنا اليومية، أهم ما فيها هو أنها تعمل [تنجح].

لا توجد قيود على زمالة المدمنين المجهولين. نحن غير منتسبين لأي منظمات أخرى، ليس لنا أي رسوم اشتراك أو مستحقات، لا نوقع تعهدات ولا نقدم وعودا لأي شخص. لا صلة لنا بأي جهة سياسية، أو دينية أو بأجهزة تطبيق القانون، ولا نخضع للمراقبة في أي وقت. يستطيع أي شخص أن ينضم إلينا بغض النظر عن عمره، أو جنسه، أو هويته الجنسية، أو عقيدته، أو ديانته أو...

نحن لا نهتم بنوعية أو بكمية المخدرات التي كنت تتعاطاها، أو بمن كانت صلاتك، أو بما فعلته في الماضي، أو بمدى غناك أو فقرك.. لكننا نهتم فقط بما تريد أن تفعله بشأن مشكلتك، وكيف نستطيع أن نقدم المساعدة. العضو الجديد هو أهم شخص في أي اجتماع؛ لأننا نستطيع الاحتفاظ بما لدينا فقط بتقديمه للآخرين. لقد تعلمنا من خبرة مجموعتنا أن أولئك الذين يواظبون على المجيء إلى اجتماعاتنا بانتظام يظلون ممتنعين.

---

[*] كتيب رقم 1، زمالة المدمنين المجهولين. من، ماذا، كيف ولماذا. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2004.

ملحق 1:

الخطوات الاثنتا عشرة لزمالة المدمنين المجهولين[*]:

إذا كنت تريد ما نعرضه عليك، ولديك نية بذل الجهد للحصول عليه، إذا أنت مستعد لاتخاذ خطوات معينة. هذه هي المبادئ التي جعلت تعافينا ممكنا.

1. اعترفنا أننا بلا قوة تجاه إدماننا، وأن حياتنا أصبحت غير قابلة للإدارة.

2. توصلنا إلى الإيمان بأن قوة أعظم من أنفسنا باستطاعتها أن تعيدنا إلى الصواب.

3. إتخذنا قرارا بتوكيل إرادتنا وحياتنا لعناية الله على قدر فهمنا.

4. قمنا بعمل جرد أخلاقي متفحص وبلا خوف عن أنفسنا.

5. اعترفنا لله ولأنفسنا ولشخص آخر بالطبيعة الحقيقية لأخطائنا.

6. كنا مستعدين تماما لأن يزيل الله كل هذه العيوب الشخصية.

7. سألناه بتواضع أن يخلصنا من نقائصنا الشخصية.

8. قمنا بعمل قائمة بكل الأشخاص الذين آذيناهم، وأصبحت لدينا نية تقديم إصلاحات لهم جميعا.

9. قدمنا إصلاحات مباشرة لهؤلاء الأشخاص كلما أمكن ذلك، إلا إذا كان ذلك قد يضر بهم أو بالآخرين.

10. واصلنا عمل الجرد الشخصي لأنفسنا واعترفنا بأخطائنا فورا.

11. سعينا من خلال الدعاء والتأمل إلى تحسين صلتنا الواعية بالله، على قدر فهمنا، داعين فقط لمعرفة مشيئته لنا والقوة على تنفيذها.

12. بتحقق صحوة روحية لدينا نتيجة لتطبيق هذه الخطوات، حاولنا حمل هذه الرسالة للمدمنين، وممارسة هذه المبادىء في جميع شئوننا.

---

[*] كتيب رقم 1، زمالة المدمنين المجهولين. من، ماذا، كيف ولماذا. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2004.

ملحق 2:

التقاليد الاثنا عشر لزمالة المدمنين المجهولين*:

نحن نحتفظ بما لدينا فقط باليقظة والحذر الشديد، وكما أن حرية الفرد تتحقق عن طريق الخطوات الاثنتى عشرة، كذلك فإن حرية المجموعة تنبع من تقاليدنا.

وطالما أن الروابط التى تربطنا معًا أقوى من تلك التى يمكن أن تفرقنا، فسوف يكون كل شيء على ما يرام.

1. إن مصلحتنا المشتركة يجب أن تأتى فى المقدمة؛ والتعافى الشخصى يعتمد على وحدة زمالة المدمنين المجهولين.

2. لهدف مجموعتنا لاتوجد سوى سلطة مطلقة واحدة – إله عطوف، علينا أن نسعى ليكون ضمير مجموعتنا موافقا لمشيئته، وما قادتنا إلا خدم مؤتمنون، وهم لايحكمون.

3. المطلب الوحيد للعضوية هو رغبة فى الامتناع عن التعاطى.

4. يجب على كل مجموعة أن تكون مستقلة بذاتها، إلا فى الأمور التى تؤثر على مجموعات أخرى، أو زمالة المدمنين المجهولين ككل.

5. كل مجموعة ليس لها سوى هدف أساسى واحد، هو حمل الرسالة للمدمن الذى مازال يعانى.

6. لا يجوز أبدًا لأى مجموعة من زمالة المدمنين المجهولين، أن تؤيد أو تعير اسم الزمالة لأى مرفق ذى نشاط مشابه، أو مشروع خارجى.. لكى لا تتسبب مشكلات المال أو الممتلكات أو الجاه فى تحويلنا عن هدفنا الأساسى.

---

* كتيب رقم 1، زمالة المدمنين المجهولين. من، *ماذا، كيف ولماذا*. فان نيوز، كاليفورنيا: زمالة المدمنين المجهولين، 2004.

7. يجب على كل مجموعة من زمالة المدمنين المجهولين أن تعتمد على نفسها بالكامل، وأن ترفض المساهمات الخارجية.

8. زمالة المدمنين المجهولين يجب أن تبقى للأبد غير مهنية، ولكن مراكز خدمتنا قد توظف عمالة متخصصة.

9. زمالة المدمنين المجهولين بهذا المفهوم لا ينبغي أبدا أن تكون منظمة، ولكننا قد ننشيء مجالس خدمة، أو لجاناً تكون مسئولة مباشرة نحو من تخدمهم.

10. زمالة المدمنين المجهولين ليس لها رأى في القضايا الخارجية؛ لذلك لا ينبغي أبدا أن يجر اسم الزمالة إلى أى جدل علني.

11. إن سياستنا في العلاقات العامة قائمة على الجذب بدلا من الدعاية؛ فنحتاج دائما إلى أن نحافظ على المجهولية الشخصية على مستوى الصحافة، والإذاعة والأفلام.

12. المجهولية هي الأساس الروحي لكل تقاليدنا، تذكرنا دائما وأبدا أن نقدم المبادىء على الشخصيات.

الكاتب

عصام يوسف..

من مواليد القاهرة..

تخرج فى كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة القاهرة.

يعمل مدير عام شركة مونتانا ستوديوز للانتاج السينمائى.

وهو كاتب رواية وسيناريو فيلم "¼ جـــرام"، ومن أعماله قصة وسيناريو "ذهاب وعودة" (فى مرحلة الإنتاج) وله عدة قصص قصيرة أخرى (تحت الطبع).

وقد اختار "¼ جـــرام" كأول عمل له يتم نشره.

والده الكاتب الأديب: عبد التواب يوسف، رائد كتابة كتب الاطفال فى مصر والوطن العربى، وصاحب الألف عنوان.

ووالدته الكاتبة الصحفية: نتيلة راشد "ماما لبنى" رئيسة تحرير مجلة سمير على مدار أربعين عاما.

متزوج.. وأولاده عمر ولبنى.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتْوبُ إِلَيْكَ